

المجموعة الكاملة

الطبعة الأولى

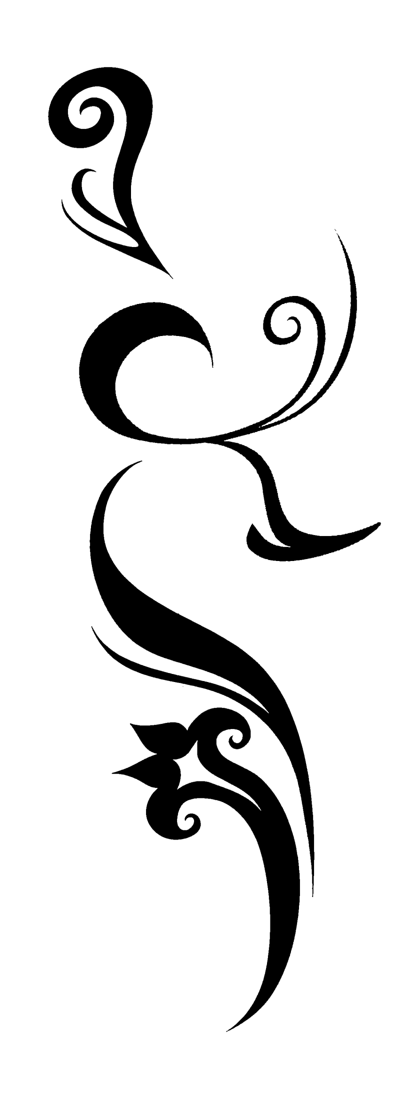
الدكتور عبد الرحمن علي الحجي

أستاذ السيرة النبويّة والتاريخ الإسلامي والأندلسي وحضارته






أندلسيات





مكتبة أهل الأثر

للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - المثنى

تلفاكس: ٢٢٦٥٦٤٤٠ /

الخط الساخن: ٦٦٥٥٤٣٦٩

E-Mail: ahel_alather@hotmail.com



شركة وعي الدولية

القاهرة - مدينة الأمل

الخط الساخن: ٠١٠٠١٢٩٤٣٢٣

E-Mail: waee.international@gmail.com

الموزعون المعتمدون

السعودية

- التدمرية - الرياض
☎: ٤٩٢٤٧٠٦ - 📠: ٤٩٣٧١٣٠

- دار النصيحة - المدينة المنورة:
☎: ٠٥٩٥٩٨٢٠٤٦ - 📠: ٤٨٤٧٠٧٠٨

السودان

- الروضة الندية:
☎: ٠٠٢٤٩٩٩٥٥٦١٦٤٢

قطر

- مكتبة الجمعة - الدوحة:
☎: ٥٥٤٥٨٥٢٣

العراق

- مكتبة صلاح الدين - أربيل
☎: ٧٥٠٤٨٥٥٦٦٤

مصـــر

- وعي الدولية - القاهرة
☎: ٠١٠٠١٢٩٤٣٢٣

- الدار العالمية - الإسكندرية:
☎: ٢٠٣٤٩٧٠٣٧٠ - 📠: ٢٠٣٣٩٠٧٣٠٥

- دار الآثار - القاهرة:
☎: ٢٠٢٦٤٢٢٣٢٣ - 📠: ٢٠٢٦٣٦٣٧٨٦

الجزائـر

- دار الإمام مالك - باب الوادي:
☎: ٧٠٣٦١٠٥٧ - 📠: ٢٥٣٩١٣١٨

- القدس للكتاب:
☎: ٠٦٩٩٥٩٩٠٤٦ - 📠: ٠٢١٢١٠٧١٣

تركيا

- مكتبة الإرشاد - اسطنبول
☎: ٥٣١٣٨٥٣٥٢٥

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

مركز التاريخ الإسلامي - مدريد
إسبانيا



المجموعة الكاملة
الطبعة الأولى

الدكتور عبد الرحمن علي الحجي
أستاذ السيرة النبويّة والتاريخ الإسلامي والأندلسي وحضارته

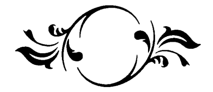




بسم الله الرحمن الرحيم

مُحتويات الكتاب

الإيضاحات *Illustrations*



الافتتـــاح

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

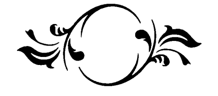
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف، 8-9).

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات، 20-22).

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

(الأنعام، 122-123)

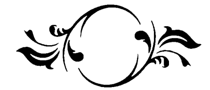


إهداء

❁ أُهْدِيه لأهل الغَيْرة الواعية والهِمَم العالية فيهم بَقِيّة باقية، من ذلك الجيل، حامل راية الإسلام، مُثْبَتَةً في قلبه قبل يده القَوِيّة. نَثَرَت الخيرَ هكذا وهكذا، في كل ميدان، لِرِفْعة الحياة وسعادة الإنسان، في كافة الأركان.

❁ تَأَصَّلَتْ علومُهم وارتقت آفاقُهم وترققت أفهامُهم. جاشت الحياةُ بمَقْدَمهم، لِتَقْفو حثيثًا أَثَرَهم، يحَاكي سَمْتَهم عارفًا سبيلَ رُقيِّهم الميمون، آخذًا بالمسلك المجيد إلى طريق سديد. يتفيأُ ويبني وَطيدَ المنجزات الكريمة البارعة، مُساهَمةً في بناء حضارة جديدة وَدُود وَلُود، لخير البشريةِ تَجُود.

❁ أَنْتَظِرُهُمْ مُتَرَقِّبًا وِلادَتَهم وإن ثَقُلَ المَخاض، آمِلًا دون إجهاض. في الدرب قائم، أَعْرِفُهم تمامًا بسِيمَاهُم، لا يَشْقَى جليسُهم، أُمناءُ لِمَا أُوكِلَ إليهم، عليها بالنواجِذ مُحافظون، مستعدون غيرُ آبِهِينَ. عَهْدًا به يأنَسون وعَقدَ الوَفاءِ ملتزمون. بذلك يجمعهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مستقر رحمته: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر(54/مكية)، 54 – 55].



التقديم والتعريف

التقديم: القرّاء الأعزّاء.. رجالًا ونساءً وأطفالًا... أحييكم......

أُقَدِّمُ لكم الطبعة الأولى من مجموعة: «أندلسيات» الكاملة، تضم المجموعتين الأولى والثانية اللتين سبق طبعهما، تتقدمهما الإضافة مجموعة بحوثٍ جديدة في موضوعات أندلسية منشورة تُعَدّ. حافظتُ في ترتيب هذه المجموعة الكاملة على ما سبق نشره في المجموعتين الأولى والثانية حسب ترتيبهما في الطبعة الأولى، دون إضافة أو تغيير، إلا ما اقتضى من بعض التدقيقات.

أنوّه إلى أن القارئ المُتَمَعِّن سيجد بعض التكرار الذي لا مَفَرَّ منه، حيث إن هذه الـ(أندلسيات)، نُشِرَت مستقلةً في مجلات عديدة (بعضها بلغات أجنبية، ثم تُرجِمَت لاحقًا)، مما اقتضى ذكر معلومات بعضها يتكرر، ولم أجد ضرورة لإلغاء هذا التكرار، إذ أحببت أن تُنْشَر كما هي. عِلْمًا أن بعض هذه البحوث جرى التوُّسع فيها حتى غدت كتبًا.

1434هـ = 2013م

التعريف: بلدُ الأندلس ليس إلا إسبانيا والبرتغال اليوم، كان يحكمها القُوط Godos, Goths لمدة قرنين حتى جاء الفتحُ الإسلامي العظيم سنة 92هـ (711م). حَرّرَه وأهلَه من الجهل والتخلف والعبودية المتنوعة، هداه هذا الفتحُ وأهداه إنسانيتَه بدعوته الإسلامية الربانية بمنهج الله تعالى، الذي مِنْ أجله كان هذا الفتح الكريم. ارتقى بإنسانية الإنسان، مُسْتَظِلًّا بظله الوارف. به بَنَى حضارةً فاضلة عرفتها الإنسانية، تلك التي أضاءت كُلَّ ميادين الحياة. كان مجتمعُه متنوعَ الأديان أكثرُهم نصارى كاثوليك، قلة يهود وغيرهم. اعتنق أكثرُ أهل

الأندلس الإسبان الإسلامَ، لا سيما النصارى، حتى غدا المسلمون أكثريةً فيه ومن أهل البلاد. الجميع حريصون على الأخذ بدين الله تعالى، كان الأندلس نموذجيًّا في تطبيق الشريعة الإسلامية وبأشد الرغبة وكبير الحرص لا يرضون به بديلًا. لم يكن هناك أيُّ تَمييز، حيث الكُلُّ سواءٌ في كافة الحقوق، مَنْ لم يُسْلِم وَجَدَ أفضلَ حياةٍ فيه وحَظِيَ بأحسن الأحوال. كان هناك أفضلُ التعامل في بناء عَلاقاتٍ مع الآخرين، في الداخل أو الخارج مع الكيانات الشمالية النصرانية، حتى كَثُرَتْ المصاهراتُ مع الجميع، أكثرُهن إن لم يكن كُلُّهُنَّ أسلمنَ وحَسُنَ إسلامُهن. سارت الحياة الإسلامية على ذلك ثمانية قرون، عاشها أهل الأندلس متعاونين في بنائها ورعايتها وحمايتها، أمامَ ما تُواجِهُه وتُدافِعُه وتُواكِبُه من أحداث ومشكلات ووقائع، حتى كان ذهابها سنة 897هـ (1492م)، أمامَ الحروب التي أخذت صفةً صليبية برعاية البابوية في كثير من الأحيان، حيث بدأت ما عُرِفَ بمحاكم التفتيش الغاشمة Inquisition, Inquisicion التي عَمِلَتْ على محو كل ماهو إسلامي: الإيمان والإنسان والبيان، تعاملت مدة ثلاثة قرون وتزيد، مع كل ذلك، بأقسى وحشية عرفتها الإنسانية حتى يومنا هذا، هتكًا وفتكًا وسفكًا بشكل بعيد عن أي دين، بادعاء حماية النصرانية التي تتبرأ منها النصرانية التي جاء بها السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بهذا تختفي وتغور وتغيب بعيدًا كُلُّ تلفيقات مَن ادَّعَى أنه كانت هناك حركة استرداد La Reconquista، التي تذهب هباءً باعتبارها أُحْبُولة وأُكْذُوبة وأُمْثُولة، تذوب أدراج الرياح، وإلا لماذا نالت تلك الإجراءاتُ اليهودَ وحتى البروتستانت واستمرت بعد إتيانهم الكامل على كافة المسلمين وأحرقوهم أحياءً، رجالًا ونساءً وأطفالًا، في أحفال دينية سَمَّوْها أحفالًا إيمانية Auto-de-Fé زورًا وبهتانًا وامتهانًا.

إذن أين يوضع حرق الكتب من مزاعم هذا الاسترداد، وماذا عسى أن يُقال في ما فعل النورمانُ (الأُرْدُمانيون Nordmanni القادمون من مقاطعة نورماندي الفرنسية Normandie) بمدينة بَرْبَشْترُ Barbastro الأندلسية المسلمة، في الشمال الأندلسي، على بعد ستين كيلو مترًا شمال شرق مدينة سَرَقُسْطة Zaragoza[1].

بل لماذا كان الاضطهاد الذي نال حتى البروتسانت واليهود؟ كيف ولماذا استمر هذا الاسترداد خمسة قرون؟ بينما الفتح الإسلامي العظيم للأندلس تم خلال ست سنوات وبسهولة وأقل الخسائر، واتسم بأجود التعامل، حيث لم يواجه الناسُ الفاتحين خلال كل العهود الإسلامية الممتدة ثمانية قرون!! عَلَامَ يدل ذلك؟ أليس على قبول الناس بما جاء به الفتح الأندلسي العظيم، جعلهم سعداء به وأقبلوا على اعتناق الإسلام وغدا البلد مسلمًا، فماذا يستردون إذن؟

لم تحدث أبدًا أية محاولة لمواجهة الإسلام! أليس ذلك دليلًا وشاهدًا ومدلولًا كبيرًا على أن البلد والناس في شبه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية غدا مسلمًا. بل وعاش مَنْ لم يُسْلِم بأحسن حال، حتى رغم تحريضات الكنيسة وإشعالها نارَ العداء. ما أكثر العَلاقات والوفادات والسفارات القادمة من ممالك إسبانيا الشمالية النصرانية، تريد من الأندلس منافعَ متنوعة من مثل عقد معاهدات، لاجئة إليه في حاجاتها فيما يتعلق بأمنها ومسالمتها وقربها، ترجو إنجازها في تنوعها العلمي والتعاوني لحل مشاكلها، حتى التمتع بالخدمات المتنوعة العلمية والإنتاجية الكثيرة الوفيرة المتميزة، بل حتى التطبيب، إلى حَدٍّ قيام الأنواع الكثيرة المتكررة المرجوة من المصاهرات.

---

(1) انظروا أحداث هذه الفاجعة المأساوية وتفاصيلها في: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (جزيرة الأندلس)، ابن بَسَّام الشَّنْتَريني (3/ 137 – 145). نفح الطيب، المَقَّري (4/ 449 – 454). الحُلَّة السِّيَراء (2/ 247) (حاشية).

بذهاب الأندلس وحضارته المُثْلَى التي كانت أساس الحضارة الحديثة في جوانبها الخيرة سيما تنظيماتها ومتقناتها وتقنياتها Technology، خسر العالم بذلك ما كان ينتظره من ارتقاء عام متقدم متسع مبكر، في كافة مجالاته الحضارية المترقية في إنسانيتها قبل تقنياتها، باعتراف العديد من الدارسين الغربيين وكثير من الإسبان أنفسهم. ذلك الذي شَمِلَ كُلَّ الإنجاز الإنساني النادر الفريد، الذي قاد كافة الميادين الحضارية والحياة الفاضلة الكريمة، التي عَرَفَتْ قَدْرَ الحياة وعَرَّفت أهلَها بالمعاني الإنسانية اللائقة الحقة الصادقة، ذاق وتمتع وأَلِفَ جَمَالَه واستراح لأفيائه الظليلة، مما به تتحقق له السعادة في الدارين، لا توفره غيرُ شريعة الله تعالى. ستبقى الإنسانية بحاجة إليها لتحقيق ذلك، وهو ما سيتم للحياة الإنسانية لتراه في وقت يعلمه الله تعالى ويقدره ويَحْكُمُه.

مدريد: الثلاثاء 14 شوال 1434هـ = وفق 2013/8/20م





أندلسيات

القسم الأول

البحوث الجديدة المُضافة (27 بحثًا)

الأندلس في ذاكرة رمضان

الأندلس: ظلال رمضانية

رمضان في الأندلس

الأندلس: نكهات رمضانية

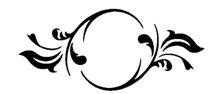
الأندلس ومحاكم التفتيش

هِجرتان: بَارَّة وضَارَّة

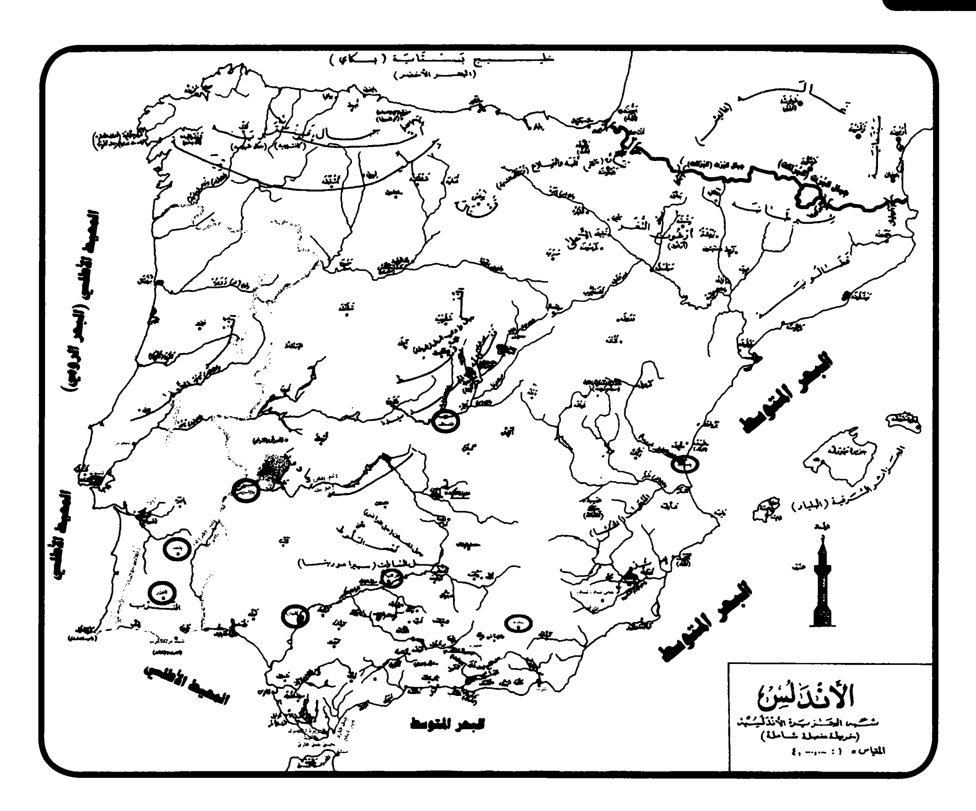
العِفَّة: أدبًا وحضارةً

حمدونة نموذج أندلسي

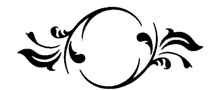
صقر قريش



الأندلس



خليج بسكاية (بكاي)
المحيط الأطلسي (البحر الرومي)
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
البحر المتوسط
البحر المتوسط
الأندلس
شبه الجزيرة الأندلسية
(خريطة مفصلة شاملة)



انتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له

(7/1) جغرافية المكان *** والفتوحات الإسلامية

تعريف وتمهيد وتقديم:

الأندلس وحاله والعهود التي مَرَّ بها خلال عمره:

تعريف الأندلس: تعني كلمة «الأندلس»: شِبْهَ الجزيرة الإيبيرية (الأندلسية) Esp. Peninsula Iberica, Eng. Iberian Peninsula

أي: إسبانيا والبرتغال اليوم. لم يكن للبرتغال وجود أيام الفتح الإسلامي للأندلس، حيث كان البرتغال يمثل الجزء الغربي منه، نشأ بعد ذلك.

ألفونسو الثاني: كان ابتداءُ المراحل الأولى مِنْ تَكوُّنه بيد ألفونسو (ألفُنْش) الثاني Alfonso II ملك البرتغال، حفيد ألفونسو إنريكث Alfonso Enriquez (أواخر 581هـ = 1185/12/6م) مؤسس مملكة البرتغال ومحقق نشأتها، ابتداءً من سنة 564هـ (1168م)، الذي يُعْرَفُ في المصادر الأندلسية: ابن الرِّيق = ابن الرَّنق = ابن الرَّنك، يوصف بأنه صاحب قُلُمْرِية (قُلُمُورية) أو قُلُنْبريَة (قُلُنْبِيرة) Coimbra شَمال لِشْبُونَة Lisboa Lisbon،[1].

البحر الأخضر: يقع الأندلس (إسبانيا) جَنوبي القارة الأوربية، بين البحر المتوسط شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، اللذَيْن يَلتقيان جَنُوبيّ الجزيرة الأندلسية في مضيق جبل طارق Gibraltar، الفاصل بين القارتين الأوربية شَمالًا والإفريقية جَنوبًا. الجزيرة الإيبيرية الأندلسية تَتَحاذَى شَمالًا مع فرنسا، تفصل بينهما جبالُ البُرْت: Pyenees, Pirineos الباب والبوابة Gate = Puerta، جَمْعُها البُرْتات:

(1) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، 495 (تعني هذه النجمة في نهاية العنوان: أن الكتاب للمؤلف).

الشاهقة الوَعْرة المُصْخِرة. البُرْتات كلمة لاتينية تعني: البَوَّابات (الدُّرُوب = المَعابر)، تخترق تلك الجبالَ، بين إسبانيا وفرنسا. البُرْتات: الأرض الوحيدة الملتحمة بها هذه الجزيرةُ الأندلسية مع فرنسا جَنوبًا (بلاد الغال= guale)، ابتداءُ الأرض الكبيرة في عُرْف الجغرافيين الأندلسيين

Eng. The Vast Land, Esp. La Gran Tierra = Tierra Major,)

(Lat. Tere Major[1]. **تُطِلّ هذه الجبالُ الشاهقةُ شرقًا على البحر المتوسط وغربًا على خليج بَسْكَاي** (Bay of Biscay)، **المعروف أندلسيًا: البحر الأخضر.**

غَدَتْ هذه «الأرض الكبيرة» مَسْرَحًا للفتوحات الإسلامية الأندلسية العامرة بالبطولات والفِداء العجيب، عالي الاستجابة الإيمانية والإقدام والتسابق للاستشهاد. مِنْ قِمَمِها الجهادية الشهيرة: معركة: بَلاط الشهداء، شعبان– رمضان سنة 114**هـ =** 10/– 11/732**م.**

دولة إسلامية جنوبي فرنسا: قامت في جَنوب شرقي فرنسا حكومة (دولة) إسلامية عُرِفَتْ باسم: سِبتمانيا Septimania **(ذات المدن السَّبْع)، عاصمتُها مدينةُ أَرْبُونَة** Narbonne[2]. **استمرت هذه الدولة عقودًا من السنين، كانت قاعدةَ الفتوحات البارعة الفارعة الهادفة. يبدو أن الإسلامَ انتشر هناك بين أهل تلك البلاد، حيث توفرت مدنٌ إسلامية كبيرة فيها، احتوت مساجدَ جامعة. صدر سنة** 1965**م كتاب**

---

(1) العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية*، 167، 357.

Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the

121, 272. – 120 Umayyad Period,

Umayyad Period*, 120 – 121, 272.

(2) التاريخ الأندلسي*، 196 – 201، 213.

باللغة الفرنسية، يقول مؤلفه: مدير متاحف أُربونة Narbonne، إنه: « ما يزال حتى اليوم بقايا جِدار سُور مسجدها الجامع قائمًا»[1] حتى الآن.

الشهيد عقبة بن الحجاج: انتشر الإسلام فيما وراء جبال الْبرت، في أرض فرنسا، قامت للمسلمين فيها سلطة في المنطقة الجَنوبية. اتبع الولاة الفاتحون طُرُقًا رائعة في دعوة الناس إلى الإسلام، ذلك أن الوالي الأندلسي الشهيد عُقْبة بن الحَجَّاج السَّلولي، الذي استُشْهِد هناك (صفر 123هـ = يناير740م)، دخل من أهل تلك البلاد الإسلامَ على يديه نحو ألفين منهم، نساءً ورجالًا وأطفالًا.

مساحة شبه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية تكاد تعدلُ قارةً: إسبانيا والبرتغال نحو: 600 ألف كيلو متر مربع:

(.km. + 504, 782 km 92,390)

(1) Les Sarrazins dans Le Haut Mayen Age francais, Jean Lacam, Paris, 1965.

خريطة شبه الجزيرة الإيبيرية، مبينٌ عليها موقع جبال البُرْت Pyrenees, Pirineos:
التي تفصل بين إسبانيا وفرنسا

حال الأندلس: أوربا وإسبانيا قبل الفتح الإسلامي وبعده

كانت أوربا ومنها إسبانيا تعيش حياة بائسة الحال غائبة البال - قبل الفتح الإسلامي للأندلس وبعده - إسبانيا كذلك كانت، حتى مَقْدَم هذا الفتح الحضاري العظيم، الذي رفع عن كاهل إسبانيا أولًا، ثم بقية أوربا، بعد انتقال جوانب من الحضارة الإسلامية إليها، كلّ عوامل التخلف والانحراف والهمجية، رغم القوة العسكرية التي تَدَرّعت بها. هكذا يفعل دومًا الخُلوُّ من القِيَم، حيث كانت تَحْيَا مُتَرَدِّيَةً - باعتراف الكثير من مؤرخيها[1] - في همجية بالغة، حتى عصورها الوسطى المظلمة. لم تَفِق من ذلك وتتدارك حالَها إلا فقط بعد اتصالها بالعالم الإسلامي[2]، غدا ذلك بديهيًّا.

أَمَّا بالنسبة لشِبْه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية: (إسبانيا والبرتغال اليوم)، كانت كذلك قبل الفتح الإسلامي لها. يؤيد هذا كثير ممن ألَّفَ فيه من الأوربيين، الذين كتبوا عن هذا الموضوع[3].

تقع هذه الجزيرة الإيبيرية جنوبي القارة الأوربية، تفصل بينها وبين فرنسا شَمالًا جبالُ البُرْت، حيث تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة[4]، وراء البُرْت. تقع الجزيرة جَنوبًا على مضيق جبل طارق Gibraltar.

---

(1) تاريخ غزوات العرب، رينو، 295. حضارة العرب، غوستاف لوبون، 272، 567، 575.

(2) The Moors in Spain, Lane-Poole, 129-13

العرب في إسبانيا، لين بول، ترجمة علي الجارم، 115. حضارة العرب، 566-567.

(3) حضارة العرب، 566-567. تاريخ غزوات العرب، 295. العرب في إسبانيا،115.

The Moors in Spain, Lane – Poole, 129 – 130.

(4) العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية*، 167، 357.

Andalusian diplomatic relations with Western Europe *,120-121, 272.

التاريخ الأندلسي*، 20 وبعدها، 188، 196.

أما مدلول مصطلح الأندلس:

(ANDALUSIA=España Musulmana, Muslim Spain)

يشمل كُلَّ شِبْه الجزيرة الإيبيريَّة. عبارة عن تدوير وتحوير لكلمة فاندلسيا Vandalusia أي: بلد الوَنْدال Vandals، القوم الذين احتلوها لقرون قبل القُوط Goths, Godos: قبل الفتح الإسلامي العظيم للأندلس بعدة قرون.

أيام الحياة الأندلسية - بعد الفتح بمدة - تكوّنت في الشريط الشَّمالي للجزيرة الإيبيريَّة الأندلسية مواقعُ نصرانية. نَمَتْ خلال قرون، بأقوامٍ ومساعدات مستمرة من وراء جبال البُرت، وبرعاية البابوية المترادفة. هكذا استمرت هذه الظروف الخارجية مع أخرى داخلية، حتى كانت النهاية المعروفة بعد قرون مِنَ المُواجَهات.

وَرَدَتْ لشهود عِيان - من الرحّالة المسلمين إلى العديد من البلدان الأوربية، شرقيها وغربيها – أخبارٌ تتعَلَّق بوصفِ حالِ الناسِ هناك. توفرت في هذه المصادر شروحٌ كثيرة ومعلومات وثيقة مهمة، اعتمدها الأوربيون ببالغ الاهتمام، اعتبروها كَنْزًا من المصادر التاريخية الأساس؛ لثقتهم بإتقان المسلمين وموثوقية كُتَّابِهم وأمانتهم[1]، كُلُّها تُشِيرُ إلى الحياة المتخلفة في كل شيء المتردية الخُلُق، بَعيدةً عن المعاني الإنسانية والحياة العلمية، ولو بالحد الأدنى، مما يُسْتَغْرَبُ أشَدَّ الاستغراب لا يمكن تصديقُه.

كان الإسلام طريق الحضارة الحقة إلى إسبانيا وأوربا: لم تَعرف إسبانيا – ولا أوربا جميعًا - أيًّا مِنْ مَعاني الحضارة الإنسانية، مِثْلَ الجِوار الأوربي، إلا بعد مَقْدَم الإسلام إليها، حَمَلَه إليهم أولئك الفاتحون الدعاة الكرام البَرَرَة. ذلك وَحْدَهُ كان

(1) طبقات الأمم، صاعد الأندلسي،11. جغرافية الأندلس وأوروبا*، أبو عُبَيْد البَكري، 187. التاريخ الأندلسي*، 23 – 30.

هدفَ مجيئهم إلى هذا البلد وغيره، مما يُشير دومًا ويُعرِّف طبيعةَ الفتح الإسلامي وهدفَه والقصدَ الوحيد له، فعلًا وعملًا وتطبيقًا، التاريخُ خيرُ شاهدٍ. يتبين ذلك في بعض محتويات مضامين الحياة الأندلسية وحضارتها**.

(7/2) تمهيد: العصور التي مرَّ بها الأندلس

الأندلس دارُ حضارةٍ وجهاد وموطن رِباط

عُمِّر الأندلسُ ثمانيةَ قرون، منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غَرْناطَة (92-897هـ=711-1492م). مَرَّتْ أحواله بثمانية عُهُود: عهدُ الفتح وحَمَلاتُه وعهدُ الوُلاة وفتوحاتُه وعهدُ الإمارة ومنجزاتُه وعهدُ الخلافة ومرتقياته ثم عهد الطوائف ومنحدراته فعهد المُرابطين وانتصاراته وعهد المُوَحِّدين وامتداداته وعهد مملكة غَرناطة ومجاهداته ونهاياته.

ثمانية عهود متنوعة: أمكن تقسيم التاريخ الأندلسي إلى ثمانية عهود مرت بها الأندلس، خلال القرون الثمانية من وجودها، منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس (92هـ = 711م)، حتى سقوط غَرناطة ومملكتها (897هـ = 1492م).

عهد الفتح 92-96هـ =711-715م

عهد الولاة 96-138هـ = 715-756 م

عهد الإمارة 138-316هـ=756-929م

عهد الخلافة 316-400هـ = 929-1009م

عهد الطوائف 400-484هـ=1009-1091م

عهد المرابطين484-542هـ = 1091-1147م

عهد المُوَحِّدين 542-635هـ =1147-1238م

مملكة غَرناطة 635-897هـ =1238-1492م

مرت الأندلس - خلال هذه العهود- بين مَدٍّ وجَزْرٍ، لكنها قبل القرون الخمسة الأخيرة - من قرونها الثمانية – كانت العَلاقةُ بينها وبين إسبانيا النصرانية تكثر الوفود القادمة ترجو قربًا وتأمل فائدة وتعقد عهدًا، وإن كانت أحيانًا أخرى تراها

تتراوح بين السلم والحرب يقود إلى المواجهة والجهاد لإيقافه، مثلما بُذِلَتْ محاولات بمشارع تنبذ العداء والمواجهة والحرب، مثلما دعا لذلك حاكم جِلِّيقِيَةَ Galicia الغربية مورقاط Mauregato، الذي شَجَّع النصرانيات من مجتمعه للزواج من المسلمين، لتكون هذه المصاهرات عاملًا لإشاعة حسن الصلة وجعلها سبيلًا لتثبيت مبدأ التعايش السلمي، الذي بَدَأَه مُسْلِمَة الأندلس وأقاموا عليه سياسة التسامح، لكن الكنيسة رفضت كل تلك المحاولات وحَرَّضت ضدها وضد دعاتها وإشعال نار الحرب ما أمكنها، بما لها من تأثير أكبر في تلك الأيام. كانت الكنيسة بذلك تدعو لمثل تلك الحروب، شِنْشِنَتَها المعروفة دوامًا. لذلك كثيرًا ما كانت تَتِمّ تلك المواجهات بمعاونةِ موجاتٍ أوربية برعاية البابوية، مما يَحْمِل الأندلسَ على الوقوف لردها، مما كَلَّف الأندلسَ الكثيرَ والكثير جدًّا من الجهد والبذل والتضحية، بل وأنهك طاقتَها واستفرغ مُكْنَتَها وشَغَلَها عن كثير مما كان سَيُسْهِم في مزيد من التقدم والبناء والمنجزات الكريمة التي أقامتها. على ذلك صَحَّ وَصْفُ الأندلس: أنها كانت أرضَ جهاد ودارَ حَضارة، «الأندلس دارُ حَضارةٍ وجهادٍ وموطنُ رِباطٍ»[1].

لعل هذه الحروب، هي التي أنهكت الأندلسَ ومعاونيها، وأَوْدَتْ بقُوَاها وأزالت ثباتَها وقوتَها. تلا ذلك عهدٌ مِنْ اضطهاد السلطة النصرانية المنتصرة. الاضطهاد الذي قَلَّ نظيرُه في التاريخ البشري، خَلّف ما يُعْرَفُ: بمحاكم التفتيش Inquisicion، Inquisition، التي استمرت في الأندلس قُرابة أربعة قرون!!! حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي. كانت هذه المحاكم تُطَارِد كُلَّ مَن يَظهر عليه أنه مايزال مسلمًا، تَحْكُمُ عليه بالموت حَرْقًا لا ينفعه الإنكار لو فعل. أَحْرَقَتْ مئاتٍ إن لم يكن آلافا، رجالًا ونساءً وأطفالًا.

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 56، 181، 183.

تقديم: حقيقة الفتح الأندلسي: أهدافه وآثاره

تَجاوَزَ الفتحُ الإسلامي لشِبْه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية، أن يكون حَدَثًا عسكريًّا وسياسيًّا فحسب. حيث يذهب الأمرُ أبعدَ مِنْ ذلك بكثير جدًا، هدفًا ومهمةً وأَثَرًا. كان بدايةً لزوال الأوضاع القاتمة المظلمة الظالمة من تلك الأرض، مِنْ أجل غَرْسِ شَجَرةِ الخير والسعادة والإيمان والحب والسماحة والحضارة الكريمة الحقة لبني الإنسان. ذاك بعضُ أسبابِ ومهمات الفتح الإسلامي: إزالة الحواجز من أمام الشعوب لتختار- حسب قناعتها ورغبتها وتوجهها، دون عوامل أخرى - بعد أن يَتَعَرَّفَ أهلُها على الإسلام. لذلك كان فتحًا إنسانيًّا وبدايةً لحدثٍ حضاريٍّ فريد لإسبانيا وأوربا - ثم للعالم بأي مقدار- على السواء.

القضاء على العبودية: قضى الإسلامُ على الأوضاع السيئة المعشعشة هناك منذ قرون. إذْ أزالَ كُلَّ سلطان ظالم وقضى على الطبقية والاستغلال وأنهى عبوديةَ الأرض وغَيْرَها، حَرّرَ الناسَ من داخلهم وأزال عنهم كافة القيود الذاتية، ومِنْ كُلِّ تلك الأحوال المتخلفة والأثقال المُرْهِقة المُكَتِّفة والأوضاع الظالمة المُهَشِّمَةِ. أصبحوا أحرارًا ليختاروا. حين رأوا معالمَ هذا الدين مُتَمَثِّلَةً في سلوك أهله عمومًا - وقد سمعوا عنه قبل ذلك بعقود، لِمَا كانت تصلهم أخبارُه من خلال عَلاقاتهم بالشمال الإفريقي، ورؤية أحداثه وأخباره ومواقفه - بدأوا يدخلون في دين الله أفواجًا، يُصْبِحون من جنده. مَنْ أراد البقاء على دينه، كان ذلك له، حُرًّا فيما يختار. لدينا أدلة كثيرة تجعل هذه المسألة ظاهرةً ظهورَ الشمس في رابعةِ نهارِ يومٍ صائفٍ صافٍ. بذلك تَحَوّل أكثريةُ أهلِ البلاد إلى الإسلام متتابعين، معتنقينه برغبة وقناعة، باستمرار لم يتوقف ذلك خلال القرون، حتى أيام محاكم التفتيش

الغاشمة الظالمة الآثمة، وإنْ بدرجة أقل، أمامَ تلك الظروف، وهم يَشْهَدُون أنواعَ التعذيب البشع الوحشي المُريع، لكُلِّ مَنْ وما يَمُتّ للإسلام بأي سبب.

أمام ذلك كله أو بعضه يُذَرّ في هواءٍ يوم عاصف قولُ مَنْ قال: كان القُوط وغيرُهم من أهل الأندلس يظنون أن المسلمين قَدِمُوا إليه، من أجل الغنائم، يعودون بها بعد حِيازتها من حيث أتوا، لا يقيمون في الجزيرة!!؟

= الحق لا يقول بهذا إلا جاهل أو حاقد أو عابث، بل إن القُوطَ وجميعَ أهلِ إسبانيا - مُرَحِّبٌ أو دافِعٌ مُحارِبٌ، الناسُ والمسئولون سَواء - كانوا على وَعْيٍ تامٍّ بما جاء المسلمون لأجله، جاءوا للفتح الإنساني الكريم ونَشْرِ دين الله تعالى. كل الظواهر والماجريات والأمثلة تدلل لهم على ذلك بوضوح تام، عندها لا مجال ألبتة لفهم غيره.

لا إجبار في اعتناق الإسلام: لم يَحْدُثْ أبدًا ولا مرة واحدة، خلال التاريخ الإسلامي والأندلسي - حتى ولا استثناءً - أَنْ أُجْبِرَ أَحَدٌ على اعتناق الإسلام بأي أسلوب، لا من قريب ولا من بعيد أبدًا. حيث إن ذلك يتنافى مع طبيعة الإسلام ذاته ودعوته وحقيقته، فضلًا عن نصوصه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة، 256). أقيمت كياناتُه ومجتمعاتُه ودُوَلُه بأحسن أسلوب وأقوم سياسة وأسلس طريقة، القدوة في ذلك ما جَرَى في المدينة المنورة فَوْرَ هجرة الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد تَرْكِ مكةَ المكرمة واحتمال التعذيب والقتل والتشريد فيها، دون أيِّ انتقامٍ لأَحَدٍ من قِبَل المسلمين. بل كانوا يتعبدون الله تعالى في الكعبة المشرفة، وحولها من الأصنام 360 صنمًا. كان بإمكانهم أن يحطموها، لكنهم لم يفعلوا؛ إذ المهم أن تتحطم في نفوس أهلها، عندها يتولى عُبّادُها السالفون تحطيمَها بأيديهم، كما حَدَثَ فعلًا، تتحول أماكنُها موضعًا لعبادة الله وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

دخول دين الله : ذلك ما جَرَى في البلاد المفتوحة تمامًا، منها بلد الأندلس، هكذا دخل أهلُها في دين الله أفواجًا، بكامل إرادتهم واختيارهم. إذا كان من أَجْلِ ما تحولت الكنائس والبِيَع إلى مساجد؛ لأن أهلها اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أهله. مَنْ أرادَ البقاءَ على دينه له كامل الحرية وكافة الحقوق وبقاء العادات، ما دام مُسالِمًا، أَمْرٌ جِدُّ بَدِيهي. بذلك لا يجب أَبَدًا أن يتوجسَ أَحَدٌ من قيام مجتمع مسلم، يَدِينُ بمنهج الله تعالى، بل يجب أن يَفِيؤا إليه إذا أرادوا الحياة الإنسانية الكريمة والسعادة في الدارين. مَن أراد البقاء على دينه فهو آمِنٌ حُرٌّ فيما يريد ويختار، متمتعًا بكل أفانين الحياة الكريمة والإنسانية والرعاية – مُتَاحٌ ذلك للقادمين - إلى جانب ما في هذا المجتمع المسلم، مُتمتعًا فيه بكل المُنجزات الحضارية والإبداعات العلمية والمجالات المتقدمة المُتاحة بارتياح، لا يَخْشَى أَحَدٌ شيئًا أبدًا بحال، بل يجد فيه ما يفتقده أَيُّ مجتمع آخَر ينتمي إليه دينًا وقومًا ونسبًا، التاريخ المُحقَّق المدقق شاهِدٌ لا يكذب، شَهِدَ به الآخرون.

أَمَا سَمِعْتُم كيف أن الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَفَا عن أهل مكة، الذين تفننوا في تعذيب المسلمين وقَتْلِهم واضطهادهم، طوالَ العهد المكي، ثلاثة عشر عامًا، وفي العهد المدني ومعاركه التي أرادوها قاضية على الإسلام وأَتْبَاعه ونبيه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بعد ثمان سنوات، يومَ تَمَّ فتحُها عَفَا عنهم قائلًا: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، لم يطالب أَيُّ مُسْلِمٍ برد ما استلبته قريشٌ من أملاكهم، مقتدين برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بل ألم يأتكم خَبَرُ أهل مكة – وهم أهل تجارة، المال عندهم عزيز – أنهم ما كانوا يضعون أماناتِهم إلا عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بمكة أَحَدٌ عنده شيء يَخْشَى عليه إلا وضعه عنده، لِمَا يَعلم من

صدقه وأمانته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1]. لَكَمْ جَرّبْنا أنواعًا مِنَ الأنظمة بكل عاهاتها، التّالِفَة المُتْلِفة المُجْحِفَة، ما أنزل الله بها من سلطان، لِنُجَرِّبْ الإسلامَ بمنهجه الرباني مرة واحدة لنرى نوعيته الفضلى!!!

أجواء اجتماعية سمحة: نجد جمهرةً من دارسي الغرب وأمثالهم ومِنَ الإسبان بالذات، مَنْ نَوّهَ عمومًا بهذه الأجواء الاجتماعية وحياتها الكريمة السمحة الوفية وفي الأندلس، أَظْهَرَه ونادى به، بصوت مرتفع وبأوضح عبارة دون أدنى تحفظ. يُذْكَرُ منهم المؤرخ الإسباني: «بَلاسْكوَا أَبَانِيز» (أحد علماء القرن العشرين)، نَوَّه بذلك وغيره، مبينًا آثارَ هذا الفتحِ الأندلسيِّ العظيم، وجَلْبَه الخيرَ العميم والعلمَ والحضارةَ الإنسانية لإسبانيا وأوربا، يقول مُشِيدًا بقوة، بالفتح الإسلامي وأنه تَمَّ ذلك صُلْحًا دون حرب في أغلبها:

«لقد استقبلتْ إسبانيا أولئك المسلمين الذين قَدِمُوا إليها مِنَ القارَّة الإفريقية استقبالًا حَسَنًا، وسَلَّمَتْهُمُ القُرَى قِيادَتَها بغير مُقاوَمَة ولا عِداء **.

(7/3) فما هو إلا أن تقتربَ مجموعةٌ مِنَ العرب مِنْ إحدى القُرَى حتى تَفْتَحَ لها الأبوابَ وتتلقاها بالتِّرْحاب. لم يكن فتحًا فُرِضَ على الناس برَهْبَة السِّلاح، بل حضارةٌ جديدةٌ بَسطت أيديَها على جميع مرافق الحياة بَسْطًا. كانت غَزْوَةَ [فتح] تَمْدِينٍ ولم تكن غَزْوَةَ قَتْلٍ وتخريبٍ.

«ولم يتخلَّ أبناءُ تلك الحضارةِ مَرّةً عن فضيلة حُرِّيّة الضمير، وهي الأساسُ الذي تقومُ عليه عظمةُ الشُّعوب. فقد قَبِلَ المسلمون في المدن التي مَلَكُوها كنائسَ النصارى وبِيَعَ اليهود. ولم يَخْشَ المسجدُ معابدَ الأديان التي سَبَقَتْهُ، فعَرَفَ حَقَّها واستقرَّ إلى جانبها غير حاسدٍ لها ولا راغبٍ في السيادة عليها، ونَمَتْ على هذا – ما

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، 418.

بين القرن الثامن والقرن الخامس عَشَرَ الميلادي - أجملُ الحضاراتِ وأغناها في العصور الوسطى، ونَهَضَتْ بالبلاد نَهضَات.

30 مليونًا في إسبانيا: «وفي الزمن الذي كانت أُمَمُ الشَّمال فريسةَ الفِتَنِ الدينيةِ والمعاركِ الهَمَجيّة يعيشون عيشةَ القبائلِ المتوحشةِ في بلادهم المتخلفةِ، كان سكانُ إسبانيا يزيدون على ثلاثين مِليونا. وعاشت في الجزيرة الأندلسية طوائفُ من النصارى والمسلمين وأهلِ الجزيرة والشام وأهلِ مِصْرَ والمغربِ ويهودِ إسبانيا والشرق.

تفاعل حي بين الحضارات: وعاشت - بفضل هذا التفاعل الحَيِّ بين العناصر - جميعُ الآراء والعاداتُ والكُشُوفُ العلمية والمعارفُ والفُنُونُ والصناعاتُ الحديثة، ووصل مِنَ الشرق الحَريرُ والقُطْنُ والقَهْوةُ والوَرَقُ والليمونُ والبُرْتقالُ والرمانُ والسُّكرُ- مع هؤلاء الوافدين - كما وَصَلَتْ السَّجاجيدُ والمنسوجاتُ والبارودُ. وأَخَذْنا عنهم الحِسابَ العَشْرِيّ [Decimal System] والجَبْرَ والكيمياء والطب وعلمَ الفلك.

«وكلما أراد أحدُ الأوربيين العلمَ ذَهَبَ إلى الجامعات العربية في إسبانيا، وكان الملوكُ والأمراءُ يَطْمَئِنُّونَ عندما يُسْعِدُهم الحَظُّ بِطبيب إسباني مهما يكلفهم ذلك. وظهرتْ في الأُمَّة طبقةٌ وُسْطَى أبدعتِ الصناعاتِ المتعددةَ إبداعًا، وأنشأتْ على السواحل أعظمَ قوةٍ بحرية في زمانها، وراجتْ المُنْتَجاتُ الإسبانيةُ رَواجًا عظيمًا في جميع الموانئ الأوربية، وقامت في البلاد مُدُنٌ تضارع في عدد سكانها العواصمَ الحديثةَ، حتى أن سكانَ قرطبةَ وَحْدَها كانوا يَبْلُغونَ المِلْيون»[1].

---

(1) نقلًا من كتاب: «أَثَرُ العرب في الحضارة الأوربية»، عباس محمود العقاد. بحثتُ كثيرًا جدًّا - حيث أسكن مدريد - عن هذا العالم الإسباني: «بَلاسْكُوَا أَبَانِيز» وعن كتابه الذي نُقِلَ منه هذا النص، لم أجد شيئًا، لعل اسمَه باللغة الإسبانيَّة يكتب هكذا: «Valascua Avaniz»، ربما كتابه هذا يكون: «ظِلال الكنيسة La Sombra de la Eglesia»، هذا كل ما أمكن وجوده من خلال البحث، أمر مستمر فيه أرجو أن أجد =

إهمال المؤرخين: أمامَ هذا وأمثاله يغدو مِنَ الغريب جدًّا أن المؤلفين في التاريخ الأندلسي عمومًا - شرقًا وغربًا - أهملوا أمورًا وموضوعات مهمة وأساسية حيوية، منها: هذا الموضوع: «انتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له»، غير مساحة أو نُتَفٍ بسيطة وشَذَراتٍ متناثرة منثورة هنا وهناك. رغم غموضها فهي محجوبة وتَظَلّ قابعةً وراءَ الأَسْداف في عمومها، لا يَفْلِتُ من ذلك إلا القليل.

حرق أمهات الكتب: كُلُّ الحمد لله تعالى أَنْ جرى إفرادُ هذا الأمر بالبحث في كتابي: «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»، بعد أن جَمَعْتُ ما تناثر من أخباره قديمًا وحديثًا. حاوَلْتُ أن أنْظِمَه في عِقْد كريم، مازال بحاجة إلى متابعة[1]، رغم ضياع جمهرة أُمَّهات (أُمَّات) كتب التاريخ الأندلسي وكل العلوم الإسلامية ونِتَاجاتِها في حفلات الحرق الكبرى سَمَّوْها أحفالًا إيمانية غرابة بزعمهم الغريب Auto-da(de)-fe، خلال احتفالاتهم الكنسية الإيمانية بزعمهم الغريب!!!

انتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له

إنه لَيَبْدو أحيانًا وكأن الإسلامَ وَصل أو انتشر في إسبانيا ووَجَدَ له مأوىً وأهلًا وأنصارًا، قَبْلَ ابتداء الفتح، شُمولًا للحملة الاستكشافية. وإلَّا كيف وَصَلَتْ هذه الحملةُ وبقيت ربما أسابيع، تذهب وتتجول وتتنقل، كيف كانت تسير وبأي لغة تتعامل، كذلك حملة طارق، كيف كانت تتجمع أفواجُها على الجبل الذي حَمَلَ اسْمَهُ والمضيق فيما بعد بكل اللغات: جبل طارق Gibraltar!!؟

=ما يكفي، إن شاء الله تعالى. انظروا كذلك: حضارة العرب، غوستاف لوبون: 265-267، 276-277، 564-570.

(1) التاريخ الأندلسي*، 150-180.

تباشير مباركة: من الجميل ذِكْرُ أمورٍ تُعْتَبَرُ تباشيرَ مباركة سَارَّة بالفتح الأندلسي الكريم العظيم، بمدلولاته المؤثِّرة السارة البارة، تلك هي بِشارة الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطارق بن زياد في رؤيا جَرَتْ له أثناء عُبُورِه المضيقَ، مع آخِرِ فَوْجٍ للفاتحين.

رحمة للعالمين: الدينُ الإسلامي رحمةً للعالمين: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء(21/مكية)، 107]، رحمةً مهداة ونعمةً مُسْداة، به قامت الحياة، بالخير والبركة واليُمْن. أرسل الله تعالى به محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتَم أنبيائه ورسله، فلابد من اعتباره كذلك، حيث يقتضي إبلاغَه لأهل الأرض أجمعين، لا يحتاجون لغيره في كافة شئونهم إلى يوم الدين. يسير به أتباعُه بالدعوة إليه بالرفق الحَنُون، وتقديمه بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة، باعتباره الأسلوب الأمثل. تسير سفينتُه تَمْخُر عُبابَ البحار برُبَّانها المُحنَّك الخبير الجدير. بذلك تَرَى راكبيها «ملوكًا على الأَسِرَّة»، أو هم كذلك، لا تخشى في الحياة أحدًا - بعد فضل وعون ونعمة الله تعالى – بؤسًا وتخلفًا وفقرًا، إذ تَنْعَمُ بخير وبركات منهجه العظيم العميم، رِفْدًا منقذًا مُسْعدًا.

«ملوكًا على الأسرة»: جملة وردت مرتين في الحديث الشريف، للمؤمنين المجاهدين في البحر لعلها تشمل غيرَهم، إعجازٌ (معجزة ومعجزة)، خلال رؤيا رآها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مما يجعلها وأمثالُها من رؤًى كلها تحققت جميعًا – مثل هذه الرؤيا - إشاراتٍ كبرى إلى نبوته الكريمة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حدثنا عبدالله بن يوسفَ عن مالكٍ عن إسحاقَ بنِ عبدالله بن أبي طلحة، عن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه سمعه يقول: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل

على أُمِّ حَرَامٍ (خالته من الرضاعة) بِنْتِ مِلْحانَ فتطعمه، وكانت أُمُّ حرامٍ زوجةَ عُبادةَ بنِ الصامتِ. حيث كان ذلك في هذا الحديث الشريف: دخل عليها رسول الله ﷺ يومًا فأطعمته، ثم جلست تَفْلِي رأسَه قالت: نام رسول الله ﷺ يومًا قريبًا مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما يُضْحِكُكَ يارسولَ الله؟ قال: «ناسٌ مِنْ أُمَّتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحرِ الأخضر مُلُوكًا على الأَسِرّة»، قالت: ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم نام ثانيةً، ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت: ما يضحكك يارسول الله؟ قال: «ناسٌ من أُمَّتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله» كما قال في الأولى، قال فقالت: ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنتِ من الأَوَّلين». خَرَجَتْ أُمُّ حَرامٍ مع زوجها غازيًا أولَ ما رَكِبَ المسلمون البحرَ مع معاوية. قُرِّبت إليها دابةٌ لتركبَها فصَرَعَتْها فماتت[1].

أول غزوة بحرية في التاريخ الإسلامي: هذه الغزوة البحرية التي حضرتها أُمُّ حرام كانت فتح جزيرة قبرص Cyprus سنة 28هـ (648م) للهجرة النبوية الشريفة في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. تلك أول غزوة بحرية يقوم بها المسلمون، تَمَّ فتحُ الجزيرة. يبدو أن هذا الفتح كان صُلْحًا وليس عَنوةً (حربًا)، أو انتهى كذلك. يُذْكَر أن قبر أُمِّ حَرام في تلك الجزيرة يسمونه: «قَبْر المَرأة الصالحة»، يزوره الفِرنْج.

انظروا هذا المثال وكلهم كذلك لا تجد فيهم غيرَه، الذي يَصف به رسولُ الله ﷺ حالتهم الباهرة من خلال رؤيا حقيقية ورؤى الأنبياء حق، رؤيا باهرة معجزة.

---

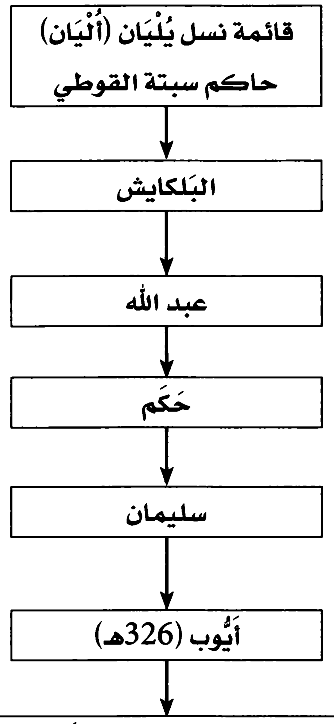
(1) البخاري، رقم: 7001 و 7002، وبقية الستة ومسند الإمام أحمد. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 2/ 316-317. البداية والنهاية، ابن كثير، 6/ 331-332، 7/ 290-291.

هم فاتحو الأندلس: مَنْ يا تُرى إذن هؤلاء الذين كانوا في رؤيا رسول الله ﷺ الثانية؟ يؤكد ابن حَزْم الأندلسي (456هـ = 1064م) أنهم فاتحو الأندلس، في تلك الحملات التي توجهت للفتح الأندلسي العظيم. ذلك أنه لدى عبور طارق بن زياد مع آخر الأفواج عبورًا، في حملته تلك (5 رجب سنة 92هـ = 711/4/27م)، حين أخذته غفوة - خلال عبوره المضيق الذي سُمّيَ والجبل باسمه وبكل اللغات: مضيق جبل طارق – رأى رسولَ الله ﷺ في رؤيا يوصيه بمن معه والرفق بأهل البلاد، وأنه رأى الصحابة يمشون على الماء تصديقًا للرؤيا الأولى. كانوا في عبورهم ملوكًا على الأَسِرَّة في ثقتهم وتمكنهم وانتصارهم. كان انتصارًا عظيمًا، كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

= هذه النوعية هي التي أقامت مبانيَ الإسلام المتفوقة المِثَال، فاجَأَتْ العالمَ وأنجزت ما لا يمكن إنجازه إلا بهذا المنهج الرباني الفريد. السيرة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامي – ومنه التاريخ الأندلسي - كله يُعبِّر عن ذلك بشكل مذهل، سِرُّه وتفسيره وتقديمه من خلال هذا الدين فحسب. ما صنعه يمكن أن يتكرر بنفس أسبابه، تلك سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دومًا: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر، 43).

القوط أدلة للجيش الإسلامي منذ البداية: لا بد أن يحدث ويمكن قبولُه ولو منطقيًّا: أن بعضَ القُوط والإسبان كانوا مع الجيش الإسلامي أدلةً لهم، يعاونونهم بكل سبيل: المعلومات واللغة والنُّصْرة، منذ عمليات الفتح الأولى والتحضير لها، أي قبل الحملة الاستكشافية (رمضان 91هـ = /710/7م). الظاهر أن هؤلاء الأدلة كانوا قد أسلموا سابقًا وأعانوا على إقدام هذا الخير إلى بلدهم، هم به فَرِحُون. لعله بالإمكان أن يُذْكَرَ هنا مما قد يفهم منه: إسلام يُلْيان Julian حاكم مدينة

سَبْتَة Ceuta من قبل القُوط Goths, Godos، يبدو أنه كان مؤمنًا منذ وقت مُبَكّر، وإلا كيف قَبِلَ التابعي الجليل عُقْبَة بن نافع (63هـ = 683م)، والي الشَّمال الإفريقي وأَحَدُ كِبَارِ فاتحيه بنصيحة يُلْيَان في تَرْكِ فَتْحِ مدينة سَبْتَة، ما سمعنا أنها فُتِحَت، بينما عبور حملات الفتح كلها كانت منها! حيث تبين بعد البحث والمتابعة الجادة أن نَسْلَ يُلْيَان- ابتداءً من ابنه - الذي نجد عَقِبَه كلهم تقريبًا كانوا مسلمين، من علمائهم وأعلامهم، منهم علماء مؤلفون وقضاة معروفون. نجد لهم ترجمات في كتب الأعلام الأندلسية، دليلًا على ذلك، كما يظهر من قائمة نسب نسله:



سليمان (377هـ): أبو أَيوب

من أهل قرطبة، كان من أهل العلم والنظر، زاهدًا متواضعًا، سَمِعَ الناس منه كثيرًا، منهم القاضي أبو الوليد بن الفَرَضِي.

تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي أبو الوليد، 159 (رقم: 566)

أحمد (388هـ): أبو عمر

من أهل قرطبة، كان رجلًا صالحًا مشاركًا في فنون العلم مع سلامة وأمانة

تاريخ علماء الأندلس، أبو الوليد بن الفرضي، 57 (رقم: 190)

(7/4) دور رئيس وريادي للبربر
في الفتح الإسلامي للأندلس

لقلة المادة العلمية فيما يتعلق بموضوع: «انتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له»، حاولتُ الاستنارة بالأساليب السابقة التي اتبعها المسلمون في نشر الإسلام، مثل الشَّمال الإفريقي، والإجراءات المُتّخَذة والصِّيَغ المُتّبَعة عادةً، المتمثّلة – بجانب الخط العام – بالسلوك الكريم للفاتحين وغيرهم من المسلمين. وَجَدْنا شُعُوبًا بأكملها دخلت الإسلام وارتضته، عقيدةً وشريعة ومنهجَ حياة، وضَحَّت له أكثر مما هو مطلوب منها. إذْ نجد أن شعب الشَّمال الإفريقي (البربر= القبائليون = سكان الأطلس والريف) وغيرَهم، أقبلوا كُلُّهم على الإسلام وخدموه وجاهدوا لأجله، حتى إنهم اتخذوا العربية لغةً أُمًّا بديلًا. لذلك كان فاتحو الأندلس بقيادة طارق بن زياد (بربري من قبيلة نَفْزَه ومثله طَرِيف بن مالك)، كُلُّهم تقريبًا من البربر. الأمر الذي طالبوا به الأميرَ موسى بن نُصَيْر، والي الشمال الإفريقي، ليُعوِّضوا ما فاتهم مِنْ خِدْمَة الإسلام.

هذه المآثر العالية تَبْقَى واقفة شامخة ناطقة، رغم ما جرى من تحريف لأحداث الفتح بإلقاء السواد القاتم عليها، مما يقود إلى إلغاء روائع التصرفات والتوجهات والتضحيات. قيل في تعليل كثرة البربر في حملة طارق: مِنْ أَجْل أنَّ حملة فتح الأندلس تَجْرِبَةٌ جديدة، دَفَعَ العربُ البربرَ إليها، لو كان قتلًا يكون فيهم أو نصرًا يذهبون بعدها لجني ثماره!!؟ لكنها تهمة رعناء مفتعلة ساذجة، حيث إن هؤلاء كانوا وُعاةً لكُلِّ ما حَوْلَهم، أَعْرَفَ مِنْ غيرهم بأحوال هذه البلاد وموقعها وتكاليفها، التي ربما يعرفون عنها غير قليل، بسبب القرب والجوار بل والمعرفة عنها

وموقعها وأهلها وتضاريسها، ويدركون تكاليف ذلك كله. لم يكن يَخْفَى عليهم عَنَتُ تلك المخاطر وتكاليفها الكبيرة، لكن ابتداءً أرادوها إيمانًا واحتسابًا وجهادًا، تؤيد ذلك كُلُّ الأحداث التالية وما أبدوه وأقدموا عليه وبذلوه في مجريات الأحداث، وما القول فيمن رافقهم من العرب ومن أعلامهم في كافة الميادين، فيهم بعض التابعين، فوق كل ذلك ومعه أن هذا ليس من خلق المسلمين المعروفين به بتربيتهم على منهج الإسلام، وما سمعنا بمثل هذه الأساليب التي لا يمكن أن يتواجدَ لها مكان في مجتمعاتهم، بل العكس كذلك من أخلاق الجهاد وما فيه من إقدام وتضحيات وإيثار. هنا لا تبقى قيمة لتلك التجنيات، التي تُظْهِر بقوة فجاجةَ هذا الاتهامِ وغيرِه من الاتهامات الأخرى الفَجَّة بكل أبعادها.

كان إخواننا البربرُ يمثلون في حملة الفتح الأغلبيةَ الغالبة، حيث ذُكِرَ أن جُلَّ الجيش منهم، غير عدد قليل جدًّا من العرب الفاتحين القادمين من المشرق. المُقِل من المؤرخين جعل عدد العرب 29 نفرًا والمُكْثِر 300 نَفَرٍ. كانوا مع جيش الفتح الأندلسي لتأدية واجبات الجهاد والقيام بالإرشاد الإسلامي والتفقيه، باعتبارهم قبلهم إسلامًا، وأَفْقَه من عمومهم. حُبُّ البربر للإسلام أَظْهَرَ منهم فيما بعد مئات من الفقهاء والعلماء - حتى علماء اللغة والنحو والأدب شعرًا ونثرًا - في مختلف الميادين: العلوم البحتة Science، بل منهم مَنْ كان من أئمة النحو والأدب العربي شعرًا ونثرًا. أَيُّ حُبٍّ هذا الذي يجعلهم كذلك؟ إنه الإسلامُ منهجُ الله الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. كله يدل على أن كُلَّ مَنْ دَخَلَ الإسلامَ واعتنقه كان باختياره بإرادةٍ حُرَّة، بل بحبٍّ عميق، دليلًا على نوعية هذا المنهج ومَنْ حَمَلَه إلى الآخرين، في كل مكان وزمان منه في الأندلس.

﴿ بذلك يمكن القول: إن نحو 95 % من مُسْلِمة الأندلس كانوا من أهل البلاد، مَنْ لم يُسْلِم منهم، تَبنَّى باختيارٍ حُرٍّ ورغبةٍ عاداتِ أهله: المَسْكَن والمَلْبَس والمَأْكَل فضلًا عن الأسماء، بل حتى الخِتان Circomcision.

﴿ لكن حقيقة السبب في كثرة البربر في هذا الجيش الفاتح للأندلس، هو أَنَّ وفدًا أو وفودًا منهم أتت إلى الأمير موسى بن نُصَير– راجية وراغبة آملة الاستجابة لهذا الرجاء - لتقول له: إن إخواننا المسلمين العرب أسبق إسلامًا منا، قَدَّموا للإسلام خَدَماتٍ وجهودًا وجهادًا كثيرًا، بذلوا استطاعتَهم في خدمته وأعطوا له ما أمكنهم لم يَسْتَغْلُوا عليه نُفوسَهم بل استَقلُّوها، فضلًا عن أموالهم وجُهْدِهم، فَلْتُتِح لنا الفرصة، لتأخرِهم عنهم في الالتحاق بركب هذا الموكب الكريم، تعويضًا لما فاتهم، بإتاحة هذه الفرصة لهم في تولي هذا الجهاد، في حركة الفتح الأندلسي العظيم. أتاح لهم موسى ذلك، مُرَحِّبًا ومُعْجَبًا بهذه الروح العالية، بانت واضحة في أحداث الفتح الأندلسي الكبير. الظاهر أن هذا حَدَثَ قبل الحملة الاستكشافِيّة التي قادها طَريف بن مالك (رمضان 91 هـ = 710 م). لا بد هنا من ملاحظتين:

(1): أن كلمة البربر تُعبِّر عن جنس من البشر، مثلما نقول: العرب والعجم والروم، ولا تحمل بحال ما أيَّ مدلول لغوي آخر. هذا ابن خَلْدُون (808هـ = 1405)، مِنْ سكان الشَّمال الإفريقي (تونس) عَنْوَنَ كِتابَه الشهير الكبير: «العِبَرُ وديوانُ المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم مِنْ ذَوِي السلطان الأكبر».

(2): أن الحياة الإسلامية مليئة بالأعلام نساءً ورجالًا بحاجة لِتُفْرَد ببحوث جامعية. الأمة المسلمة لديها منهم أكبر عدد ونوعية ومستوى رائع.

جَرَتْ الاستعانةُ بالشواهد في هذا الموضوع (انتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له)، لمعرفة الأساليب التي اتُّبِعَتْ في ذلك: حيث مثلًا: أرسل الخليفةُ عمرُ بن عبدالعزيز (101هـ = 720م) عشرةً من الفقهاء إلى الشَّمال الإفريقي لبيان الإسلام سلوكًا وشَرْحِه وتقديمِه للناس والدعوةِ إليه بالحكمة والموعظة الحسنة الموروثة، كما العادة دومًا.

لابد من ذكر أن الذين دخلوا الأندلس فاتحين كانوا يحملون الإسلامَ في ذواتهم وتربوا عليه، يقدمونه للناس بفقههم – وإن تفاوتوا فيه - وسُلُوكِهم وتعاملهم. تم ذلك برِفْقَةِ فقهاءٍ عُرِفُوا بعلمهم ومكانتهم والتزامهم، مما جعلهم يُعْتَبَرون مَرْجِعًا في ذلك يُسْتَفْتَوْنَ فيه، من مثل: التابعي الجليل حَنَش بن عبدالله الصَّنْعاني الشامي، دَخَلَ الأندلسَ مع موسى بن نُصَيْر (تابعي كذلك)، رافقه في الجهاد من البداية حتى النهاية، بقي فيه حتى وفاته سنة مئة هجرية (718م). يُذْكَرُ أنَّ حَنَشَ بَنَى وهَنْدَسَ عِدّةَ مساجد أندلسية، يمكن بذلك أن نُسَمِّيه: مهندس المساجد في الغرب الإسلامي.

ذَكَرَ بعضُ مؤرخينا أنه دَخَلَ الأندلسَ أَحَدُ صغار الصحابة: المُنَيْذِر الإفريقي، الذي دَخَلَ الأندلسَ مع موسى بن نُصَيْر، وأنه رَوَى عن رسول الله ﷺ حديثًا واحدًا هو: «مَنْ قال: رَضِيتُ بالله رَبًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا، فأنا الزعيم له، فلآخُذَنّ بيده، فلأُدْخِلَنَّهُ الجَنّةَ». جَرى إحصاءُ عَددِ التابعين الذين دخلوا الأندلس كانوا فوقَ عشرين تابعيًّا، جَمَعَهم كِتابٌ مفقود من تأليف العالم الحافظ القرطبي: ابن بَشْكُوَال (578هـ = 1182م): «التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين»[1].

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 156، 159 – 162.

لابد إذن أن يكون ذلك كله ضمن العوامل التي تُسْهِم في العمل على انتشار الإسلام في إسبانيا، هذا إلى جانب ما يمكن القولُ: إن منهم مَنْ أَسْلَمَ قبل بداية الفتح الأندلسي، الذي يُسْتَنْتَجُ من مجيء حملة طَرِيف بن مالك (أبو زُرْعَة) الاستكشافية في رمضان سنة 91هـ (710م)، وبقائه في جنوبي الأندلس ربما لأسابيع، لمعرفة الأحوال لعله بمعاونة مَنْ أسلم من أهل البلاد. قولوا مِثْلَ ذلك بالنسبة لحملة الفتح بقيادة طارق بن زياد، والمعركة التي قادها (28 رمضان سنة 92هـ = نحو 711/7/20م)، ولو بمقدار بالنسبة لحَمْلة موسى بن نُصَيْر في رمضان السنة التالية.

لكن من الصعوبة بمكان أَنْ نَعْرِفَ كُلَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أهل البلاد، إنما من خلال كتب التراجِم ما أمكن مِنَ الأعلام، إذا جَرَى ذِكْرُ نَسَبِه حتى ينتهي بذِكْرِ مَنْ نَسَبُه الأعلى البعيد أو القريب، يدل على نصرانيته أو يهوديته أو غيرها. هذه واحدة من الوسائل التي تَمَّ اللجوء إليها في هذا الأمر. أمر اقتضى إنفاق نحو سنة كاملة، لجَرْد جميع كتب التَّراجِم (الأعلام) الأندلسية المتوفرة، حيث أمكن جَمْعُ العَشَرات من هؤلاء بهذا الترتيب، جَرَى ذِكْرُ نَماذِجَ منها في هذا البحث. لابد من التنويه بأني لم أجد بحثًا واحدًا مستقلًّا، أَفْرَدَ هذا الموضوعَ: «انتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له» بالكتابة، غير شذرات متناثرة في تضاعيف الحديث.

الثانية: ذُكِرَ ذلك حين الحديث عن حياة أحدهم مثل: ابن حَزْمٍ الأندلسي، الذي يُذْكَرُ هنا قريبًا أدناه. ثم القاضي: مهدي بن مُسْلِم، الذي يُشار إليه أنه من الأَسالِمَة أو المَسالِمَة (الذين دخلوا الإسلام ابتداءً من أهل البلاد)، مباشرة أو مُصاهرة مع أهل البلاد، نساءً ورجالًا وأطفالًا. تلك إذن مظاهر وعوامل وقضايا شاركت جميعًا في انتشار الإسلام، كلها ثمرة له.

= (7/5) تلك هي المصاهرات مع أهل البلاد، كذلك ممن دخلوا دين الله ابتداءً، وهو المدخل الأوسع لاعتناق الإسلام بمحبة واختيار، هؤلاء عُرفوا بـ «المَسالِمة». أول قاضٍ أندلسي منهم منذ أيام الفتح الأولى، في ولاية عُقْبَة بن الحَجَّاج السَّلُولي الذي اسْتُشْهِدَ (121هـ = 738م)، مجاهدًا في الأرض الكبيرة جنوبي فرنسا. كان منهم المذكور أعلاه: مهدي بن مُسْلِم، الذي عينه الوالي عُقْبَةُ: قاضيَ الجماعة بقرطبة (قاضي القضاة)، ربما نائبًا عنه – في إدارة الأندلس - مدة ذهابه للجهاد، في أرض فرنسا، حيث اسْتُشْهِدَ هناك كما أُشِيرَ إليه. هذا القاضي: مهدي بن مسلم، وَضَعَ وثيقةَ القضاء التي اعتمدها القضاءُ الأندلسي مدى عمره: «كان من أهل العلم والورع والدين المتين»[1]. هذه الوثيقة غَدَتْ دُسْتُورًا للقضاء في الأندلس، شبيهة برسالة الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في القضاء، التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري قاضي البصرة يومَها.

موضوعُ المصاهرة بين المسلمين حتى الجُدد مع نَصرانيات كلهن أسلمن على ما يبدو. شاع ذلك حتى إن كثيرًا من الأمراء والحكام والخلفاء وعموم المسئولين، وُلِدُوا من هذه الزِّيجات وتزوجوا من هؤلاء.

يَرِدُ الآن مَثَلٌ غريب عجيب مفاجئ يتعلق بالخليفة الأندلسي عبدالرحمن الثالث (350هـ = 961م) بن محمد، الناصر لدين الله. كان هذا الخليفة ابن جارية مسيحية (أَسلَمَت) من الشمال الإسباني اسمها: «مُزْنَة». تَكْمُن الطرافةُ أن هذا الخليفةَ نفسَه يَكُونُ ابنَ أخي ملكة مملكة نَبارّه طُوطَة Toda (349هـ = 960م) وصية ابنها غَرْسِيَه سَانْشِت الأول Garcia Sanchez I على عرش نَبارّه Navarre،

(1) التاريخ الأندلسي*، 170-171.

Navarra، بذلك تكون عمتّه مِنْ جهة الأُمُومَة[1]، ذُكِرَتْ وِفادَتُها على الناصر سنة 347هـ (958م)، مع ابنها هذا طُوطَة Toda، ملكة مملكة نَبَارّه، وحفيدها شَانْجُهْ الأول السَّمين Sanco I, El Gordo. احتفى بهم الناصر واحتفل بمقدمهم واستقبلهم في القصر الخليفي في مدينة الزهراء في قاعة السفراء المسماة: المجلس المُؤْنِس، وَدَّعها ووفدَها بالحَفاوَة. هذه قائمة النسب:

(1) العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية*، 59 – 57 ,*Andalusian dilomatic relations))91 – 87.
كذلك بحثي:
"Intermarriage between ana Northern Spain in the Umayyad period", The lslamic Quarterly (London, 1387/1967, vol. XI, Nos. 1-2, pp. 3-7.. Also
كذلك:
Discursos, No. 2, Real Academia de la Historia, Oliver y Hurtado(Manuel), Madrid, 1866, vol. III, p. 107.
La Civilisation Arabe en Espagne, Leve-Provencal (E.), Paris, 1961, pp.109 – 110..
ثم: البيان المُغْرِب، ابن عِذَارِي، 2/ 151، 156.

قائمة نسب الخليفة عبدالرحمن الناصر والأسرة النافارية

أنيكو أريستا
Íñigo Arista

Fortun Íñiguez

García Íñiguez

Calindo

Fortún Garcés
(الأنقر، ظلّ مسجونًا في قرطبة عشرين سنة)

(1) Aznar Sánchez = (دُرّ) وَنقا Íñiga = الأمير الأُموي عبد الله (2)

Sancho Aznar

Sancha

Toda
(الملكة الوصية لنَبارّة) لتحكم باسم ابنها غَرْسِيَه Garcia Sanchez سانشث

محمد

عبد الرحمن الثالث
(الناصر لدين الله)

مِنْ ثِمارِ ذلك حَرَكةُ المَسَالِمة هؤلاء ما أنجبوه من نسل - بنين وبنات - سُمّوا في البداية: «المُوَلّدون»[1]. هذا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يقول: العرب المسلمون احتكروا كُلَّ المناصب دون غيرهم، لا يقول به – في أقل تقدير - إلا جاهل بالتاريخ الإسلامي، حيث المجتمع الإسلامي مجتمع عقيدة وشريعة والتزام، فلا يُعيَّن في المُهِمّات إلا مَنْ كان مُؤَهَّلًا لذلك.

الثالثة: مَنْ كان اسْمُهُ يَدُلّ على ذلك وبَقِيَ يُعْرَفُ به بعد إسلامه، مثل: قُومِس (Comes) بن أَنْتُنْيَان أسلم بعد سنة 246هـ (860م)، وُصِفَ أنه: «السَّجّاد العَبَّاد حمامة هذا المسجد» مسجد قرطبة الجامع، ذُكِرَ له ابنٌ اسمُه عمر. هذا يشير إلى أن الدخول في الإسلام كان مستمرًّا، وأنهم تمتعوا بكامل الحرية يُسْلِمون عند اقتناعهم الكامل، دون أَيِّ إغراء. كم يُلْحَظ من هؤلاء الذين أسلموا باختيارهم التام، ومن غيرهم جميعًا، أنهم كانوا بأعلى درجات الإخلاص، لذلك ترونهم بارعين مؤدين عاملين في عباداتهم والتزامهم بالمنهج وفقههم.

ثم إنه يكاد يبدو أن الكُتّاب والدارسين والمؤرخين الأولين، لم يركزوا على ذكر كل مَنْ أسلم، ليقولوا مُدَوِّنِينَ عبارةً أو إشارة لهذا الأمر، حيث إما لكثرة الداخلين في الإسلام اقتناعًا به، أو الأغلب أن ذلك أمرٌ جِدُّ طبيعي، مما لا يَدعُوهم للتوقُّف عنده طويلًا، إلا إذا اقتضى الحالُ. هذا أمْرٌ وحالٌ ووَضْعٌ شامل، حتى إن من كان يأتي إلى الأندلس مقيمًا نجده في الأغلب الأعم الأكثر أنه يُسْلِمُ بشكل طبيعي، نساءً ورجالًا وأطفالًا. بذلك لا يَجِدُ الدارسُ التفاصيلَ في هذا الموضوع، إنما تدلنا عليه الخِبْرَة والتَّجْرِبة والمقتضى اللازم للحديث.

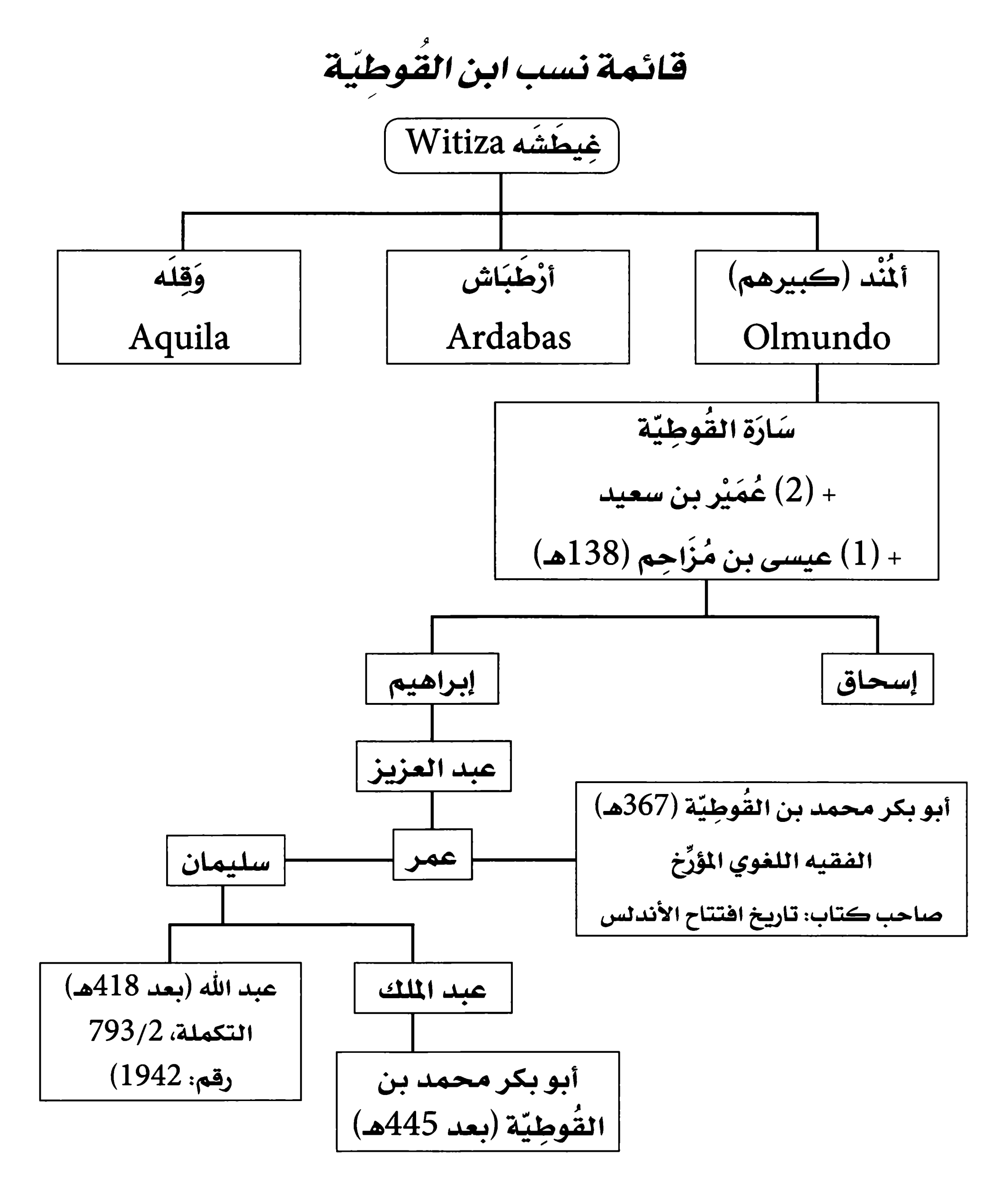
---

(1) العلاقات الدبلوماسية الأندلسية*، 83-91.

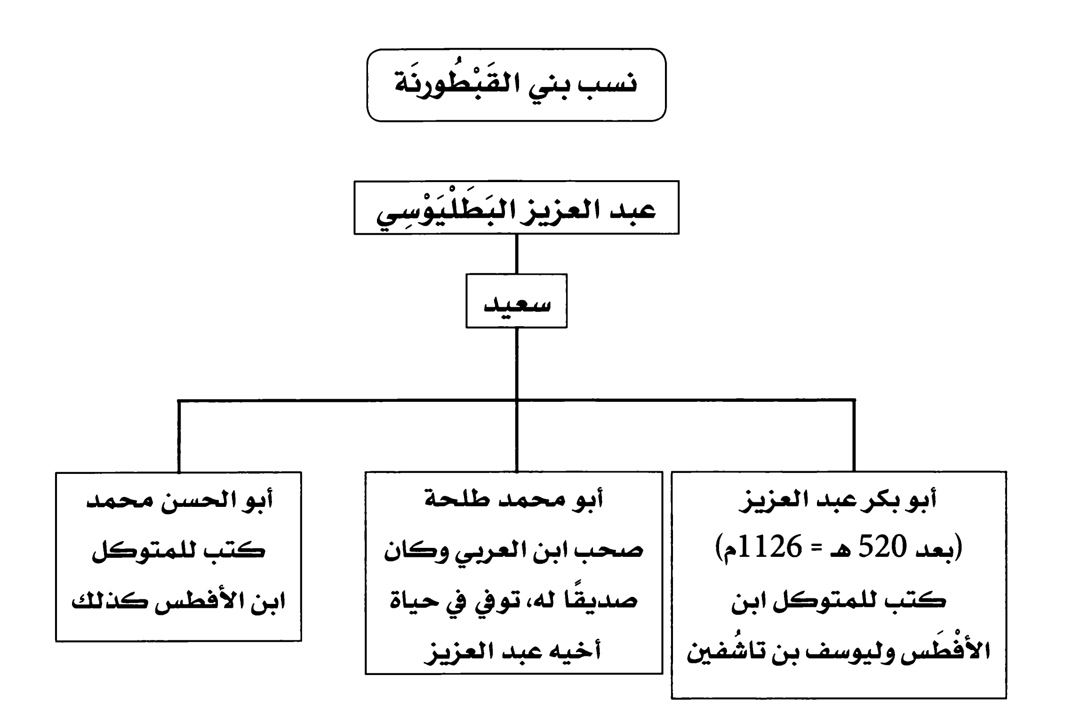
Andalusian diplomatic relations*, 55 – 59.

يُضافُ لذلك ما جرى من الاستدلال والاستعانة بطريقة جديدة استدعتْ جَرْدَ جميعَ كتبِ الأعلام الأندلسية، للبحث في تَراجِمِها من خلال النَّسَب، للتعرف على مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أهل البلاد الأندلسية، حين ينتهي نَسَبُه إلى أصل نصراني أو يهودي أو غيره إن توفر. وُجِدَ - والحمد لله تعالى - من ذلك الكثير. يتبين منه أن أكثرية المسلمين في الأندلس - كثرة عالية متسعة - من أهل البلاد الأصليين، الذين اعتنقوا الإسلام أفرادًا أو أُسرًا أو جماعات، أذكر منهم مثلًا: المؤرخ واللغوي والفقيه المعروف: أبو بكر محمد بن عمر بن القُوطِيّة (367هـ=977م)، من أصل قُوطِي.

قائمة نسب ابن القُوطِيّة



كذلك بنو القَبْطُورنة (الرأس المستدير (Cap-Torno، الأسرة التي ظهر منها عديد من الأعلام[1].



(1) التاريخ الأندلسي*، 178.

كذلك بنو قُومِس وبنو لُبابة وآخرون. مِن هؤلاء مَن تميزوا بمكانتهم العلمية والفقهية والسياسية، تولوا زعاماتٍ متنوعة كالبَرْجَوْن الفقيه المُقدَّم.

ثُمَّ بنو فُطَيْس الذين تولى منهم عبدُالرحمن بن فُطَيْس (403هـ = 1012م)، قاضي الجماعة بقرطبة. حيث تزَوَّج تَمَّام (283هـ = 896م) بن عامر بن عَلْقَمة، الذي تولى الوزارة للأمير محمد (273هـ = 886م) بن عبدالرحمن الأوسط، ولابنيه الأميرين: المنذر (275هـ =888م) وعبدالله (300هـ= 912م)، أُمَّ الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية، التي لعلها أسلمت فيما بعد. كان من أحفادهما العلماء والوزراء والقضاة: « وتَزَوّج تَمَّام بن عامر هذا الوزيرُ أُمَّ الوليد بنتَ خَلَف بن رُومان النصرانية، يبدو أنها أسلمت، أَمْرٌ منظور ممهور. جاء مِنْ نسلها الوزيرُ الكاتبُ عيسى بن فُطَيْس، فتَمَّام جَدُّه لأُمِّه» . ثُمَّ جاء مِنْ نَسْلِهما أيضًا: أبو المُطرِّف عبدالرحمن بن عيسى بن فُطَيْس (402هـ = 1011م) المحدث المؤلف قاضي الجماعة بقرطبة (394 - 395هـ = 1003 - 1004م)[1].

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 174 - 175.

قائمة نسب بني فطيس

علقمة
|
تمام
|
غالب
|
أحمد
|
عامر
|
تمام (283هـ = 896م)
|
؟

زومان
|
خلف
|
أم الوليد +

سليمان
|
فطيس= عثمان (207هـ = 822م)
|
أصبغ
|
فُطيس (الوزير،329هـ = 940م)
|
عيسى (الوزير الكاتب)
|
محمد
|
أبو المطرف عبدالرحمن (402هـ = 1011م)
قاضي الجماعة بقرطبة (394 ـ 395هـ =
1003 ـ 1004م)

(7/6) بل ـ حتى على ما يُذْكَر ـ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن غالب: ابن حَـزْمٍ الأندلسي (456م = 1064م)، من أصل نصراني. أشار إلى ذلك مُعاصِرُه وبَلَدِيُّه وصديقُه المؤرخُ الثَّبْتُ الثقة العالية ابنُ حَيّان القرطبي (469هـ = 1076م)، الذي يقول بأنه: «مُولَّد الأَرُومَة مِنْ عَجَمِ لَبْلَة، جَدُّه الأَدْنى حديثُ عَهْدٍ بالإسلام». يُضاف إليهم هنا:

= (1): أبو عمر بن الحَصَّار: قاضي الجماعة بقرطبة، عبدالرحمن بن أحمد ابن سعيد بن محمد بن بِشْر بن غَرْسِيَه Garcia (منتصف شعبان سنة 422هـ = 1030م)، يُكْنَى أبو المُطرِّف ويُعْرَف بابن الحَصّار[1].

= (2): أبو العباس ابن الرومية الصيدلي الفقيه الشيخ الإمام الحافظ الناقد الطبيب أحمد بن محمد بن مُفَرّج الإشبيلي (637هـ = 1239م) بن أبي خليل الأُموي، عالم النبات المشهور العَشَّاب الحَزْمِي الظاهري الزَّهْري المعروف: ابن الرُّوميَّة، دليلًا على أصله النصراني.

= (3): الشيخ أبو القاسم محمد بن عبدالله ابن فَرْتُون (Fortun) الأنصاري من أهل مَالَقة (750هـ = 1349م)، الحاج المُحدِّث صاحب الأشغال بالدار السلطانية. كان قائمًا على حفظ القرآن الكريم وتجويده وتلاوته، ذا خِصال حميدة، له عِلْمٌ بالحساب، يُعْتَبَر مِنَ الأعلام المتقدمين ورجال الكمال.

لا بد هنا من ملاحظة مهمة في هذا الشأن، حيث إلى جانب ضياع الكتب التي ذهبت في محارق محاكم التفتيش، إنه لم يُذْكَر كُلُّ مَنْ أَسْلَمَ بل لُوحِظَ وكأن الدخول واعتناق الإسلام مِنْ قِبَل الإسبان أهل البلاد، كان لدى هؤلاء المؤرخين طبيعيًّا متوقعًا ومألوفًا، مما جعل الذين كتبوا عن الأعلام من الرجال والنساء والأطفال، لا يشيرون إليه، حتى لقد غدا أَمْرُ اعتناق الإسلام جاريًا معتادًا مألوفًا ليس بحاجة إلى ذِكْر، إلا إذا اقتضى الحديث. لكن -خلال بيان هذا - نجتهد ونجهد في إيراد الأمثلة للتدليل على الموضوع.

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 178. لدينا آخر مثله لَقَبِيُّهُ: أحمد بن غَرْسِيَه المكتب من أهل مدينة الفَرَج. التكملة لكتاب الصلة، ابن الأَبَّار، 1/ 70 (رقم: 24). مدينة الفرج هي اليوم مدينة وادي الحجارة، تقع على بعد 57 كم شمال شرق مدريد. التاريخ الأندلسي*، 66.

ملاحظةٌ أخرى جِدُّ مهمة: تلك هي أنه كلما أمكن للباحث أن يغوص في أغوار التاريخ الأندلسي، يرصد مسيرتَه متوقفًا ناظرًا مَلِيًّا في حقائقه، يَرَى ذاتيتَه التي تَشِي بأن مجتمع الأندلس كان مُقْبِلًا على الإسلام، مجتهِدًا في خدمته متفهمًا منهجَه عاملًا على نصرته، بالمعرفة الحقة وتوفير صِيَغِه في الحياة ورعاية ذلك في نفسه، عاملًا على توفيره في السلوك في واقع الحياة العملية، جَعْلِ كافة نصوصه مُمارَسةً قائمة عاملة. بهذه الروحية ومعانيها العملية الكريمة الظاهرة الطاهرة، كانت تتم معالجة ما يكون من ظواهر انحدار في أي جانب. روحيةٌ تغدو حارسةً دافعة وحامية لصنع الحضارة الفاضلة ورعايتها، لتَبْقَى بِيئَةً دافئةً ظليلةً يَفِيء إليها الناسُ، حمايةً ورعايةً تستحق البذلَ بالنفس والنفيس، ما تأخروا عن ذلك يومًا طوالَ القرون.

يقود ذلك العلماءُ دومًا والأمراء في أكثر الأحيان؛ لرعاية المجتمع وحمايته. تلك هي الصيغة المُثْلَى لرعاية المجتمع، كلما كَبَا وكَبَتْ به العَثَراتُ، ترى هؤلاء العلماءَ، يتولون الأمر ابتداءً، يتبعهم الآخرون منهم الأمراء. يُلاحَظُ ذلك خلال عصر الطوائف: القرن الخامس الهجري (11م). ذلك مما حَفِظَ الأندلسَ وأطالَ عمرَه الممتد، خَلّفَ حضارةً فريدة، بحاجة إلى مزيد من العناية في إظهار نوعيتها وسُمُوّها والنظر إلى حقيقة مبانيها، التي ما تزال بأشد الحاجة إلى إلقاء ما تستحق من الضوء عليها.

لذلك كان فتحُ الأندلس أكثرُه صُلْحًا، يزيد على 80%، ليس عَنْوَةً (حربًا)، بالنسبة للسلطة ومَنْ تَابَعَها وارْتَبَطَ بها، كُلُّ مِنْ لم يَعْرِفْ عن هذا الفتح الأندلسي العظيم شيئًا، جَرَى التخويفُ منه، كما يَحْدُثُ اعتيادًا.

لاحَظَ أهلُ بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم) نوعيةَ الفاتحين القادمين من وراء الصّحَارِى والقِفار والأنهار، وما يحملونه لهم ومن أجله جاؤوا، يَحْمِلون البذورَ الصالحة التي تُثْمِرُ وَحْدَها الخيرَ لكُلِّ أَحَدٍ مهما كان.

عند ذاك أَقْبَلَ أهلُ البلاد إلى خيمةِ هذا المنهج الرباني الكريم، زَرَافاتٍ ووُحْدَانًا، عَرَفُوا الإسلامَ في أهله سُلوكًا قَبْلَ أن يفقهوه أو يَسْمَعوه مشروحًا منطوقًا. سَمِعوا عنه ثم رأوه كان أكثرَ إبهارًا وانبهارًا وآثارًا، ليس الخبرُ كالعِيان. يقول الصحابي الجليل عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن. مَنْ كان يأتي إلى المدينة المنورة أيام الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسيرًا أو سفيرًا أو أجيرًا، لا يُوعَظُ بالإسلام أو يُشْرَحُ له، بأية حال أو طريقة، بل يُتْرَكُ في المسجد لأيامٍ ثم يَذْهَبُ لحاله أو يُخَلّى سبيلَه أو يُطْلَق سَراحُه، لِيَرَى نوعيةَ هذا المجتمع والجيلَ والناسَ – رجالًا ونساءً وأطفالًا – الأفذاذ، ما رَأَتْ البشريةُ أمثالَهم – الذين لا يَشْقَى جليسُهم - لا في العِلْمِ ولا في الحِلْم، ما سَمِعَتْ بمثلهم، إنه الجيلُ القرآني الفريد. ليس أفرادًا متناثرين فحسب – وهو إنجاز عظيم – بل جيل بأكمله. تلك تَحْمِل نَسَماتِ المعجزة، لا يَقْدِرُ عليها إلا الإسلامُ وَحْدَه، بهذه النوعية والمستوى والصياغة العجيبة العالية الفاضلة. إذا أسلم - غالبًا ما يحدث، بل من الطبيعي أن يحدث - يقول الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك فقط: «عَلِّموا أخاكم القرآن».

يأتي مِنْ هذا أن المجتمع الأندلسي المسلم كان يطبق الإسلامَ ويحرص عليه، بعد دخولهم خيمةَ الإسلام، قَدِموا إليها بحبٍّ يتفيأون ظله الظليل. من هنا يقول ابنُ تَيْمِيَّة (728هـ = 1327م) رَحِمَه الله تعالى: «إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام»[1]. أي: أن المسلمين الفاتحين - في

(1) التاريخ الأندلسي*، 181.

الأندلس وغيره- لم يحملوا الإسلامَ إلى الناس لينادوا عليه أو يَدْعُوا له ويعلنوا عنه، ليأخذ الناسُ به ويَقْبَلوه ويَدْخُلُوه، بل الناس هم الذين أقبلوا عليه وأحبوه فاعتنقوه؛ لَمَّا رأوا آثاره في أهله باديةً للعِيان، تعاملًا وخلقًا وسلوكًا ممارَسًا، واضحًا ملموسًا مُعاشًا في الحياة اليومية للمجتمع. ذلك ما يجب أن يكونَ أبلغَ مِنْ أَيِّ شَرْحٍ وفِقْهٍ وبيان، العمل قبل العلم أبلغ، بذلك كانت وتكون الدعوة إلى الإسلام!!! هكذا انتشر الإسلام وأقبل الناس عليه ودخلوه أفواجًا إثر أفواج.

يأتي من ذلك أن الذين أسلموا في الأندلس وغيره، أقبلوا على الإسلام، بهذا الأسلوب بذواتهم أحبوه واعتنقوه فكانوا بهذه النوعية التي تدل على نفسها، كانوا به وبهذا الفهم والترقي، مما يدل دلالةً واضحة بقوة عالية على مدى خُلوصهم وقناعتهم وحبهم، مما جعلهم يأخذون به بقُوَّةٍ ويَجِدّون ويرتقون. كان من نتائجه عندها أن فَتَّقَ طاقاتِهم وأَوْرَثَهم دافعًا ومُكْناتٍ جديدةً، منها كوامن الطاقات الإنسانية التي أودعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **في الفطرة البشرية، أَطلقها هذا الدين مِنْ عِقال Potential، لا يُظهِرُها إلا هذا المنهجُ الرباني الكريم. رأينا آثارَها في ميادين النِّتَاج الحضاري الإسلامي، به وَحْدَهُ قامت ظاهرةُ النوعية الجادة، باذلةً أَبْعَد وأعَزَّ وأكرمَ ما لدى الإنسان، لا تتقدم وتُقدَّم وتقوم إلا بهذا الدين الإلهي الفريد وَحْدَهُ**.**

(7/7) كما يُظْهِرُ ذلك بنفس الوقت: أن المجتمعَ الأندلسي عمومًا لم يجند دعاةً ينبثون فيه، إنما أتت تلك طبيعية من خلال الحياة اليومية وأحداثها ومعاملاتها ومجالاتها ومواقع انبثاقها الواقعي وحَرَكتها وسلوكياتها اليومية في كافة الميادين وبيان ما يتعلق بِقُرْبها. أَمْرٌ بحاجة إلى الاهتمام بدراسة أوسع لهذا الموضوع الجدير بأعلى درجات الاعتناء، والتنقيب عن متعلقاته وشواهده وأدلته

الأخرى، والبحث في ثنايا موارده من المؤلفات المخطوطة، لمعرفةٍ أوسع واسْتِقاءِ مضامينه وإلقاءِ أَضواءٍ جديدة، لاكتشاف معلومات تقود إلى تقديم دراسة مُتْقَنَة مُحقَّقة غائرة الأبعاد جميلة النغم رائعة المنظر، كيما تُظْهِرُ حقيقةَ الأمر وروعته وأحقيته.

بذلك أقبلَ أهلُ بلادِ الأندلس على اعتناق هذا المنهج الكريمُ، بلَهْفٍ ومحبة وعِشْقٍ. كان ذلك مُوَرِّثًا للعناية بالمنهج وكافة معانيه ومبانيه وينابيعه، لِمَا رأوا من آثاره المباركة العجيبة اليانعةَ بظلالها الندية الوارفة. من هنا كانت عناية الأندلسيين بالقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه المُنِيف، عاليةً عظيمةً مُكَثَّفَةً. أخذوه التزامًا عمليًّا، نرى ذلك بوضوح بادٍ ملموس محسوس، في واقع الحياة ابتداءً من العلماء، حيث العلم للعمل، غالبًا مَنْ لا يكون كذلك لا يجد له في المجتمع الأندلسي مكانًا. مِنْ هنا ظَهَرَ منهم قادةُ العِلْمِ، قضاةً وحفاظًا ومُحَدِّثِينَ، بَنَوْا للتكوين العلمي منهجيةً عملية واقعية رائعة. [للمقارنة كانوا يعيشون بهذا العلم عمليًّا، لا انفكاك بين العلم والعمل، بل مفهومهم ثابت: إن العلم للعمل].

كان التعليمُ الشرعي العام الأساسَ المَكين والركن الركين والموئل المأمون، يجعل التعليمَ للجميع، منذ نعومة الأظفار، الكل عليه حريص. أَقْبَلوا عليه باعتباره فَرْضًا إسلاميًّا مُلْزِمًا، للنساء والرجال والأطفال، يتسابقون فيه ويتنافسون ويُضَحّون، علماءَ ومتعلمين بَذْلًا وتَلَقِّيًا. قاد ذلك إلى نظام التَّلْمَذة والمَشْيَخة، الذي ينتقل فيه بالاقتداء علمًا وعملًا، ثم يأتي التخصص بعده، لِيُبْنَى عليه ما عداه، إذْ: « طلبُ العِلْمِ فَريضَةٌ على كل مسلم» (أي: ومسلمة). كان التعليمُ متاحًا وحقًّا لكل أحد من الأقوام الأخرى، ظهر منهم علماء، في المجتمع المفتوح المنفتح المتفتح بالتسامح سَمْتًا. بذلك امتلأ المجتمع بالكثير من التخصصات في العلوم الأخرى

أفذاذًا فيه، مِثْلَ ذلك في العلوم الشرعية بفروعها كافة، الكل أبدع في مكانه وأنتجَ في ميدانه. منهم ذلك الذي مَلَكَ أنواعَه، كان موئلًا في العلوم الشرعية والعلمية الأخرى، كالعلوم البحتة Sciences بأنواعها القديمة والجديدة وتقويمها وإنقاذها من تراكماتها المُضيِّعة المُهِمة، كانوا أئمة في كليهما أو في كلها. أَوْرَثَ هذا: أن جميعَ أهلِ التخصصات مهما كانت، لهم بالشريعة علم. قاد ذلك إلى ظاهرة حضارية عجيبة، أنه ما كان يوجد في الأندلس أمّيٌّ واحد في ذلك الزمان، بل تجاوزت علميتهم أميةَ الحَرْف إلى باحات العلم والمعرفة، الكل يمتلك الكثير. من هنا وَجَدْنا ظاهرةً فريدة تلك أن بعض مَنْ بَرَزَ في أَيٍّ من العلوم البحتة غدا بارعًا في علوم الشريعة، من أمثال: الحافظ أبو الوليد هشام بن أحمد الكِناني الوقَّشي (489هـ = 1096م)، وابن رُشْد الحفيد (595هـ = 1198م)، وابن الرومية: أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الخليل مُفرِّج الأُموي (637هـ = 1239م): الفقيه الطبيب الصيدلي: « كان نَسِيجَ وَحْدِه وفريدَ دهره وغُرّةَ جنسه، إمامًا في الحديث حافظًا ناقدًا ذاكرًا تواريخَ المحدِّثين»[1]. استحقوا القولَ فيهم:

وكان مِنَ العلومِ بحيث يُقْضَى ... له في كُلِّ عِلْمٍ بالجميع

كُلُّ ذلك إلى جانب أنْ كان لهم وكُلُّ العلماء في الأدب شأنًا: شعرًا ونثرًا، يقولونه بديهة وارتجالًا وسلاسة، بحضور بديهةٍ بمعانٍ لمَّاعة ولفتة لمَّاحة وأجود الأنواع. قَلَّ من العلماء مَنْ لم يَقُلْ شِعْرًا، أجملَه وأجودَه وأعفَّه، من أمثال: ابن الفَرَضي (403هـ = 1012م). كان لهم فيه فنون وفي تلك البيئة نشأت الموشحات والأزجال وشِعْر رثاء المدن والدِّيَار، ليس كل ذلك إلا فنونًا أندلسية. انتقلت كل تلك العلوم إلى أوربا التي بها بدأت نهضتُها، حتى هذه الأخيرة، به ظَهَرَ نوعٌ من الغِناء

(1) الإحاطة في أخبار غَرْناطَة، ابن الخطيب، 1/ 208.

المعروف: التُّرُوبادُور Trovador. لكن الأهم من ذلك ما نُقِلَ من العلوم البحتة منذ وقت مبكر، سَبَقَ إلى أوربا، التي تتلمذت - في علوم نَقَلَتْها - على الحضارة الإسلامية، بأنْ عَرَفَتْ قَدْرَ العِلْمِ وأهميتَه والرغبةَ فيه، حيث كانت قبلها عازفةً عنه لا تعرف له قيمة، بل كانت تكابر بجهلها وأُمِّيَّتها وظُلُماتِها. لَمَّا أفاقت – بفضل الحضارة الإسلامية - بدأت تنقل من العلم ما رَغِبَتْ مِنَ العُلوم البحتة منقطعة عن جذورها، رفضت ما عداها، وَضفَتْها في مآربها، مُخْرَجَة عن مقاصدها الإنسانية المتحضرة الفاضلة، دون مبانيها ومنابتها ومحاضنها التي حمتها وأنتجتها وقَوّمَتْها. هذا البناء العلمي الإسلامي الإيماني، الذي شمل كل العالم الإسلامي والأندلسي ببنائه، هو الذي كان وراءَ هذه المباني الشامخة، من العلوم المتنوعة، بذلك النِّتاج المتكاثِر المتقدم الثّرِيّ، الذي يُفْصِحُ عن مَبانيه الكريمة ذاتِ النفع العام لبني الإنسان. هذا البناء هو الذي جعل أبوابَ العلم دومًا مفتوحة للجميع، تستقبل الوُرّادَ والرُّوّاد إلى باحاتها الندية الظليلة، بترحيب وكرم وأريحية.

هكذا كلما تقدمتْ الأيامُ استمَرَّ دخولُ أهل البلاد هذا الدينَ. بل أقبل مَن بقي على دينه - لاسيما النصارى، ثم اليهود وغيرهم - على تبني طرائق المسلمين ولغتهم وعاداتِهم، حتى في أسمائهم. إلى حد أنهم نسوا لغتهم لاسيما اللاتينية: لغة الحياة والعلم والدين. هؤلاء يُسَمَّوْنَ: «المُسْتَعْرَبُون»، أي: (نصارى أهل الذِمَّة) Los Mozarabes, The Mozarabs[1].

لا أُبْعِدُ أبدًا أن مِنْ هؤلاء مَنْ غدا مُسْلِمًا سِرًّا يَكْتُم إسلامَه، لأيٍّ مِنَ الأسباب، لارتباطاته المتنوعة بمجتمعه، مما قد يَلْقَى عَنَتًا بإعلانه إسلامَه مِنْ رجال الكنيسة المتعصبين، الذين أَجْهَدوا أنفسَهم وأثاروا الفتنة القرطبية المعروفة (237هـ =

(1) Andalusian diplomatic relations with Western Europe*, 56 – 58.

العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية*، 84 – 87.

851م)، خلال إمارة عبدالرحمن الأوسط وفي أواخرها. كما لا أبْعِدُ كذلك أن يكون هذا مُحَرِّضًا لتكون حركة بعض القسس الذين أَجَّجُوا تلك الفتنةَ العمياءَ الرَّعْناء، حيث أزعجهم إقبالُ النصارى الكبير على اعتناق الإسلام، أن يُثيروا بعضَ مُريديهم للتحرش بالمسلمين ويسبُّوا الإسلام ونبيه الكريم ﷺ ، الأفراد بوقوفهم على أبواب المساجد وقتَ خروج المسلمين منها بعد الصلاة؛ ليُسْمِعوهم ذلك أمامَها. تلك الفتنة العارمة التي سَمَّى بعضُ الدارسين الغربيين القائمين بها: «المنتحرون»[1]. فتنة تَمَّتْ مُعالجتُها، بفضل من الله تعالى، مِنْ قِبَل المسلمين - أمراء وقضاة ومجتمع- بالتعاون مع بعض زعماء الكنيسة العقلاء، حيث انتهت تمامًا إلى غير رجعة.

هذا الانتشار الواسع للإسلام بَيْنَ النصارى، الذي ثَبَتَ أمامَ كُلِّ العوامل الواقعية والمثارة - بعد فشل الفتنة - هو ما دعا القَسَّ القُرْطُبي (الفارو القرطبي Alvaro de Cordobâ) أن يُصْدِرَ آهاتِه في وثيقة كتبها سنة 240هـ (854م)[2]؛ معبرًا عن حقده، يَنْعَى فيها ذلك على النصارى، سَمَّى تلك الوثيقة اللاتينية: الدليل المنير Indiculus Luminosus.

لكن رغم ذلك، كانت جذورُ الإسلامِ في الأندلسِ عميقةً. حيث ظَنَّ الذين ارتكبوا هذه الآثام بكل أنواعها وحروبها وشَيْن أفعالها لقرون، أنهم قد انتهوا من الإسلام في هذه الأرض. المتابع والمراقب والمتفحص يجد آثارًا واضحة: فكرية

---

(1) The Moors in Spain, Stanly Lane-Poole, 84, 90.

العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، 73، 83.

(2) العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية*، 84-86

. Andalusian Diplomatic Relations*, p. 56

التاريخ الأندلسي*، 178-179، 256-257. أندلسيات*، 2/ 59.

XI, 274. Espana Sagrada. The Moors in Spain, 90.

ومعنوية واجتماعية وبشرية ومعمارية ولغوية، ظاهرة مؤثرة معبرة. حتى لقد قال أحد مؤرخي الإسبان: إننا لو حككنا جلودَنا لوجدنا الإسلامَ تحتها، ولو أننا أزلنا ظواهرَ جدران بيوتنا لرأينا الإسلامَ تحتها.

هكذا في كل بقعة من بقاع الأندلس، عاشها المسلمون - قادمين وقائمين ومقيمين - نجد ذلك ينادي بمثل هذه المعاني، التي مازال لها تأثير، لِمَنْ دَرَسَها ورَاقَبها وتجول فيها. الآثار العمْرانية الإسلامية باقية - رغم التشوية والتخريب والتبديل المستمر لا يتوقف – كانها تنادي وتُعبِّر عن نفسِها، وتدعو الجميع ببيانها. اعتُبِرَتْ السببَ الوحيد في أن تكون إسبانيا أولَ بلدٍ سياحيٍّ في العالم، منذ سنوات كثيرة.

هكذا يأتي الإسلامُ دومًا بالخير لكل أحد حتى لأعدائه. أما ترون كيف أن العَالَمَ يَنْعَمُ بخيره حتى اليوم، منهم أولئك الذين يقولون فيه ويبيتون له ويعملون لإبعاده عن حياتهم، لو عرفوه – بعقلانية متأنية وأحقية - لأقبلوا عليه وكانوا من خيرة أبنائه. للأسف فما مثل الإسلام جُهِلَ، وما مِنْ عاقل عَرَفَه إلا أقْبَلَ عليه وسعى حثيثًا إليه، خاض البحار لأجله، لا يقف شيءٌ دونه مهما بَعُدَ وكان. هذا ما جَرَى مِنَ الشعوب التي أقبلت عليه وأحبته واعتنقته، ذاك ما حَدَثَ في الأندلس وفي بلدان العالم الأخرى، حتى تلك التي لم يَصِلْها أَحَدٌ مِنَ الدعاة.

يحلو هنا الاستشهاد بأبيات الشاعر المسلم محمد إقبال:

مَنْ كان يَهْتِفُ باسْمِ ذاتِكَ قَبْلَنا ... مَنْ كان يَدْعُو الواحدَ القَهَّارا

عَبَدُوا تماثيلَ الصخورِ وقَدَّسوا ... مِنْ دونِكَ الأحجارَ والأشجارا

عَبَدُوا الكواكبَ والنجومَ جَهالةً ... لم يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِها أنوارا

هل أَعْلَنَ التوحيدَ داعٍ قَبْلَنا ... وهَدَى الشعوبَ إليكَ والأنظارا

كنا نُقَدِّمُ للسيوفِ صُدورَنا ... لم نَخْشَ يومًا غاشمًا جَبَّارا

كنا جِبالًا في الجِبالِ وربما سِرْنا على مَوْجِ البِحارِ بِحارا

بمَعابِدِ الإفرنجِ كان أذانُنا قَبْلَ الكَتائبِ يَفْتَحُ الأمصارا

لم تَنْسَ إفريقية ولا صحراؤها سَجَداتِنا والأرضُ تَقْذِفُ نارا

لم نَخْشَ طاغوتًا يُحارِبُنا ولو نَصَبَ المَنَايَا حَوْلَنا أسوارا

نَدْعُو جِهارًا لا إلهَ سِوَى الذي صَنَعَ الوجودَ وقَدَّرَ الأقدارا

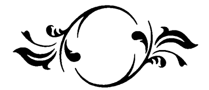
كنا نَرَى الأصْنامَ مِنْ ذَهَبٍ فنَهْدِمُها ونَهْدِمُ فَوْقَها الكفارا

لو كان غيرُ المسلمين لَحَازَها كَنْزًا وَصاغَ الحِلْيَ والدِّينارا

هكذا في كُلِّ يوم يَظْهَرُ جديدٌ في بيان عمق الإسلام وأَبْعادِه وجُذُوره، في أرض الأندلس. لذلك كان العديدُ من المكتبات في إسبانيا إلى عهد ليس بالبعيد التي تحتوي مؤلفات إسلامية مخطوطة - مثل مكتبة الإسكوريال El Escorial - كانت تُغْلِقُ أبوابَها، تحاشيًا أن يَخْتَرِقَ نُورُها الحُجُبَ، يقوم عائدًا عِمْلاقًا. ذهاب مثل هذه الأمور اليومَ يأخذ مسيرة مختلفة، إلى حدٍّ أن إسبانيا ربما تُعْتَبَر أولَ بلدٍ أوربي يعترف بالإسلام دينًا سنة 1989م، التقدم مستمر في هذا الاتجاه والحمد لله رب العالمين، الذي هيأ أسباب مثل هذا التفتح المتزايد، يُشكر القائمون عليه، الأمل أن يَطَّرد هذا التوجه وينمو على الدوام، إن شاء الله تعالى. يُذْكَرُ كذلك من الإيجابيات الجديرة قبل عقودٍ قليلة من السنين احتفلت إسبانيا بمرور اثني عشر قرنًا على ابتداء بناء المسجد الجامع القرطبي الذي بدأ بناءَه الأمير عبدالرحمن الداخل سنة 168هـ (784م). تمنيتُ يومَها أن يكون ذلك التاريخ مناسبة يحتفل بها العالم الإسلامي ومنه العربي.

هذا الأمرُ لا يخلو مِنْ أَحَدٍ يقوم رافعًا عَقيرَتَه مُعْلِنًا ذلك على مَلَإٍ. يجري في ذلك أمثلة عدة مشهودة معروفة لدى الكثير، أَجِدُ أحدَها قريبة، مِنْ نماذجَ فائقة.

يُشار إلى مثل تلك الأميرة الدوقة الإسبانية وأسرتها القائمة في مدينة شَذُونَة Medina Sidonia (جَنوبي إسبانيا)، التي قالت: إنها وأسرتَها كاثوليكية الآن: (إنها تنتسب إلى الإسلام، بل إن جُلَّ -إن لم يكن كُلُّ- الإسبان مِثْلُها نَسَبًا). علَّهم يومًا يعودون لمرابعهم وأحضانهم ومُكُناتِهم وأَفْنانِهم، يومًا مُشْرِقًا بالنور، ليس هناك فحسب بل في كل الأرض، تحقيقًا لوعد الله تعالى الذي لا يتخلف وذَكَرَه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ذاك يوم عزيز يُقَدِّرُهُ الله تعالى، ويُعِينُ عليه آمين[1] *.**



(1) نشر هذا البحث: «اِنتشار الإسلام في الأندلس واعتناق الإسبان له» في مجلة المجتمع الأسبوعية الكويتية، بشكل كثير الاختصار، في سبع حلقات، الأعداد: 1997 - 2004، 1433هـ = 2012م. تمت مراجعته وتنقيحه وزيادته يوم الأربعاء: 28/ 8/ 2013م، لينشر هنا كاملًا، ليكون ضمن بحوث: «أندلسيات». حين يكون البحث منشورًا في مجلة بعدة حلقات، يُوضَع رقم الحلقة وعدد حلقات الموضوع بينهما خَطٌّ مائل(/) في أول كل منها، بينما تُوضَع نجمتان في آخر الحلقة، أما في نهاية الحلقة الأخيرة فتُوضَع ثلاث نجمات.

الرحالة الأندلسي... الطُرْطوشي

إنّ مسألة الطُرْطُوشي، الرحالة الأندلسي، الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، مسألة معقّدة ونُوقِشَتْ بكثرة. أنفق فيها عدد من الباحثين جهودًا كبيرة لإلقاء الضوء على كلّ جانب منها، والوصول إلى استنتاج معقول.

لا بدّ لأيّة محاولة - في استقراء أبعد - من دراسة هذه المادة التي تقع في عشر لغات[1]، تختلف بوضوح من مصدر إلى آخر. هذه المسألة تخصّ قضيتين رئيستين: الأولى: شخصيته، الثانية: نشاطه الدبلوماسي.

شخصيته : تشمل أربع نقاط رئيسة :

النقطة الأولى: اسمه الذي وجد بصيغ مختلفة[2].

(1) انظروا:

T. KOWALSKI, "Relacja Ibrahima ibn Ja'kubaz Podrozy do Krajow Slowiansskich w Przekazie Albekriego, Pomniki Dziejowe Polski, seria II- Tome, Cracow, 1946; C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, Leiden, 1937, Supp1. I, p. 410;

تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الدكتور حسين مؤنس، 78 (مدريد، 1386هـ= 1967م).

(2) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، 171 (تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937م) الترجمة الفرنسية للمحقق:

Fr. Tr. by É. Lévi- Provençal, La Peninsule aiberique au Moyen- Age d'apres le Kitab ar-Rawd al – Mi'tar, Leiden, 1938.

جغرافية الأندلس وأوروبا، قطعة من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، 80، 155، 170، 175، 177 (تحقيق عبد الرحمن علي الحَجّي، بيروت، 1387هـ = 1968م)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي، 1/ 191 (ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، 1963م).

M, Canard Ibrahim ibn Ya'qub et sa relation de voyage en Europe' (Etudes d'Orientalisme dediees a la memoire de Lévi- Provençal, ii, Paris, 1962, p. 503).

الصيغة الأولى: يوردها العُذْري (المَريَّة، ذو القعدة 393هـ - بلنسية، شعبان 478هـ = 1085م) بالشكل التالي: (إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُّرْطُوشي)[1]. تُعتبر هذه أطول وأَقدم صيغة، قد وردت أيضًا مرة واحدة عند البكري[2] (487هـ = 1094م).

الصيغة الثانية: (إبراهيم بن أحمد الطُّرْطُوشي). القزويني(682هـ=1283م) هو الوحيد الذي استعمل هذه الصيغة[3]، يظهر أنّه نقلها من العُذْري. ولا نجدها في القطعة التي وصلتنا من جغرافيته. إذا قبلنا هذه الصيغة فمن المعقول أن يُقترح بأنّ الطُّرْطُوشي كان مسلمًا: إمّا يهوديًّا اعتنق الإسلام أو أنّه كان من سَلَف يهودي مُعتنق للإسلام. هناك عدّة أدلّة تسند هذا الاقتراح:

1 - أنّ اسم (أحمد) لا يتسمّى به إلّا المسلم[4]، وعلى ذلك فإنّ الطُرْطُوشي:

(أ) إمّا أن يكون من سَلَف يهودي اعتنق الإسلام كما يشير إليه لقب (الإسرائيلي)، هذا أكثر احتمالاً. بالنسبة للروايات الأخرى فإنّ اسم أبيه (يعقوب) ممكن أن يكون (أبو يعقوب أحمد) أو (ابن يعقوب بن أحمد)، (إبراهيم) و(يعقوب) من الأسماء التي يتسمّى بها المسلمون حتى اليوم.

(ب) أو أنّ الطُرْطُوشي تَبَنّى اسمَ (أحمد) بعد إسلامه.

من الممكن أنّه احتفظ باسمه الخاص (إبراهيم)، الذي هو عام بين اليهود والنصارى والمسلمين. إنّه لمن الطبيعي بالنسبة له أن يُعرَف بـ (ابن أحمد)، اتباعًا

(1) نصوص عن الأندلس، أحمد بن عمر بن أنس العذري، 7 (تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965).

(2) جغرافية الأندلس وأوروبا، 80.

(3) آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني، 559، (بيروت، 1980هـ = 1960م).

(4) قارن:

Cf. M. Steinschneider (Die arabische Literatur der Juden, Frankfurt a. M., 1902, p. 148).

حيث يَذكر يهوديًّا اسمه: أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حَسْداي، الذي يبدو أنّه تابَعَ أباه في إسلامه.

لجاري العصر في أسماء الكُنَى مثل (ابن حَيَّان) و(ابن حَزْم) وآخرين كثيرين كانوا يُعرفون بكُناهم أكثر من شهرتهم بنسبة أو لقب. إنّه ربما كان سيشتهر باسم (ابن أحمد) أو (ابن أحمد الطُّرْطُوشي) كما في رواية القزويني، بدلًا من (ابن يعقوب الإسرائيلي).

لا يبدو أنّ وجود (أحمد) في اسم الطُرْطُوشي خطأ. إذ ربّما أنّ القزويني كان باستطاعته الحصول على معلومات أكمل، فُقدت فيما بعد، أو أنّ مؤرخين آخرين ذكروا هذا الاسم (أحمد)، لكن كتاباتهم لم تصلنا وربما يُرَجَّح ذلك حين تلاحظ حذف القزويني لـ (الإسرائيلي) من اسم الطُرْطُوشي.

2 ـ ناقش السُّيّاح الرحالة والكُتَّاب اليهود بتوسّع مملكة الخَزَر اليهودية، مثل اهتمامهم باليهود في مناطق أخرى. إنّ اليهودي حَسْداي بن شَبْروط طبيب الناصر كان مهتمًّا بالخَزَر[1]، وبمجموعات اليهود الأخرى. كذلك كان هدف الرحال اليهودي بنيامين التُّطَيْلي في رحلته (558 ـ 567هـ = 1161 ـ 1171م)، جَمْعَ المعلومات عن اليهود في الأقطار التي زارها[2].

وَصَفَ الطُرْطُوشي في تقريره المناطقَ التي زارها أو سَمِعَ عنها، متحدثًا عن سكانها وعاداتهم وقضايا أخرى مهمّة. ربما كان قد زار الخَزَر أو سَمِع عنهم كثيرًا[3]، لكنه لم يذكر حكومةً لليهود (إن وُجِدت) كانت هناك في وقت رحلته ولا ذَكَرَ اليهودَ الآخرين في المناطق التي زارها. بل كان اليهود ضمن مَن لديه

(1) See The Jewish Encyclopaedia, Hasdai Abu Yusuf' vi, p. 249; S. W. Baron, A Social and Religious History of the Jews, New York, 1957, iii, pp. 156, 305 no. 40, 323 no. 30.

(2) F.J.SANCHEZ, Viajeros Españoles en Oriente, Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, 1956, IV, p. 7.

(3) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 77.

عنهم الأقلّ من المعلومات. كُلُّ هذا يؤيّد فكرة: أنّ نظرة الطُرْطُوشي كانت نظرة مسلم مهما كان القول في أصله.

أمّا بالنسبة للقب (الإسرائيلي) في اسمه فإنّ ذلك لا يعارض هذا الاقتراح. (الإسرائيلي) ربما بقي لقبًا، كما هو الحال في اسم الشاعر اليهودي الأصل إبراهيم ابن سهل الإسرائيلي (649هـ=1351م)، الذي احتفظ بلقب (الإسرائيلي) بعد إسلامه[1].

<u>النقطة الثانية</u>: تتعلّق النقطة الثانية بوطنه الأصلي.

لقد قيل: إنّه جاء من الشَّمال الإفريقي[2]، أو حتى من صقلية[3]. هذا يبدو غير ممكن؛ إذ لا يوجد ما يدعّم الفكرة كما لم توجد مدينة تحمل اسم طُرْطُوشة في المغرب أو في صقلية. كان الرجل أندلسيًّا من طُرْطُوشة Tortosa كما هو واضح من نسبته (الطُرْطُوشِي).

تؤيّد هذا القِطَعُ التي وصلتنا من جغرافيته التي اعتمد عليها العُذْري والبكري عندما كتبوا جغرافية الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية عمومًا، ضِمْنَها إسبانيا الشَّمالية. ذلك يعني أنّ معلومات الطُرْطُوشي عن الأندلس كانت معلومات مواطن. البكري عندما يناقش جغرافية الشَّمال الإفريقي، لا يذكر اسم الطُرْطُوشي، لعلّ هذا يشير إلى أنّ الطُرْطُوشي لم يزره أصلاً.

---

(1) انظر: نفح الطيب، المقري، 3/ 523 (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1388هـ/ 1968م).

(2) The Jewish Encyclopaedia, Ibrahim ibn Ya ‘Kub, vi, p. 554; W. Wesberg, ‘Ibrahim’s-ibn-Ja’kub’s Reisebericht uber die Slawenlande aus dem Jahre 965 (Memoires de l’Academie Imperiale des Sciences de St-Petersbourg, viii, serie, iii, no. 4, 1898, 83-4.

(3) See V. N. Z’atarski, Izvestieto na Ibrahim-ibn-Yakub za Balgarite ot 965 god (Spisanie na Balgarskata Akademia na Naukitie), xxii, Sofia. 1922, p. 67.

إنّ (مَلِكَ الروم) سأل الطُرْطُوشي رأيه وتكلّم معه عن الأندلس في مسائل لا يَعرفها إلّا أندلسي أصيل، كما سيتّضح ذلك بجلاء حين إيراد هذا النصّ فيما بعد.

النقطة الثالثة: مهنته: يَفترض البعضُ، معتمدًا على ذكر الطُّرْطُوشي لبعض الأمراض وعلاجها في بعض الأقطار، أنّه كان طبيبًا[1]. لكن ذلك افتراض لا أساس له؛ حيث إنّ ما ذكره لم تكن معلومات اختصاصي. الطُرْطُوشي تكلّم عن الزراعة والمناخ وقضايا أُخَر. فهل يمكن بالمقابلة الاقتراح بأنّه كان زراعيًّا أو نباتيًّا متخصصًا؟

كما قيل أيضًا: إنّ الطُرْطُوشي كان تاجرًا وعلى وجه الخصوص تاجر رقيق[2]. مع أنّ هذا لا سند قويّ له إلّا أنّ إشارات عدّة تسند الاقتراح؛ إذ أنّه تكلّم مقدارًا كبيرًا حول الإنسان والبضائع والقضايا التجارية وترك معلومات مفصّلة حول بلاد الصقالبة. كان يعرف عدّة لغات تحتاجها مثل هذه المهنة.

رغم كلّ هذا فلا تؤخذ هذه القضايا نهائية أو قاطعة، بالإمكان الإشارة إلى أنّنا لا نملك الدليل القاطع على أنّه كان تاجرًا.

الحقيقة كان الطُرْطُوشي - حال أهل عصره من الرّحّالة والجغرافيين العالميين - مهتمًّا في رحلته ليس فقط بالجغرافية المحضة بل كذلك بتسجيل كلّ ملاحظة خلال أسفاره، لذا فإنّ هؤلاء الذين نقلوا نصوصه كانوا جغرافيين؛ لأنّ الرحالة كانوا غالبًا جغرافيين أيضًا. بينما اعتاد التجار السفر بين بلدهم وغيره من الأقطار، إنّنا لا نعلم بالتأكيد أكثر من رحلة واحدة قام بها الطُرْطُوشي.

(1) J. Aronuis, Regesten zur Geschichte der Judwn im Frankischen und Deutschen Reiche bis zum Jahren 1273, Berlin, 1902. P. 56, no. 130.

(2) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 76. The Jewish Encyclopaedia, vi, p. 554.

كان الطُرْطُوشي محبًّا للكتب[1]، هذا مناسب أكثر لرحّالة منه لتاجر. وأخيرًا فإنّه من الصعوبة أن يكون التاجر مماثلًا للجغرافي.

بالإمكان - حسب ما تقدم - أن يُقترح بأنّ الطُّرْطُوشي كان رَحّالة ليس إلا[2]، مثل ابن حَوْقَل (بعد 367هـ = 977م) وابن بَطُّوطَة (771هـ= 1369م) وآخرين كثير.

<u>النقطة الرابعة</u>: هي الأخيرة حيث إننا نصل إلى تحقيق هوية هذا الرحالة.

يَعْتَبِر البعضُ أنّ شخصين حَمَلا نفسَ الاسم: الأول إبراهيم بن أحمد الطُّرْطُوشي، مسلم من الأندلس. والآخر إبراهيم بن يعقوب، يهودي من المغرب. كان كلّ منهما سفيرًا إلى أوتو الأول الإمبراطور الألماني[3].

لا يقوم هذا الادعاء على دليل تاريخي. وقد ناقشه عدّة باحثين وجرّدوه[4]. إذ من الواضح أنّ إبراهيم بن يعقوب هو نفسه الطُّرْطُوشي.

<u>القضية الثانية</u>: نشاطه الدبلوماسي: كَتَبَ الطُرْطُوشي تقريرَ رحلته بعد العودة إلى الأندلس من سَفرته الطويلة. لسوء الحظ فقد ضاع عدا مقتطفات بعض الجغرافيين كالعُذْري والبَكْري والقَزْويني وربما آخرون. هؤلاء الذين نقلوا هذه المقتطفات هي مصادرنا الوحيدة لنشاطه الدبلوماسي. إنّ طبيعة هذا النشاط لا يمكن أن تكون رسمية؛ لأننا لا نملك دليلًا يؤيّد ذلك. كُلُّ ما يقال حول هذا الأمر

(1) Krachkovsky, op. cit., p. 192;

(2) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 79.

(3) G. JACOB, Arabische Berichte von Gesandten an germanische Furstenhofe aus dem 9. Und 10. Jahrhundert, Berlin /Leipzig, 1927, p. 5.

قارن: جهود المسلمين في الجغرافيا، نفيس أحمد، 75، 92 (ترجمة فتحي عثمان سلسلة ألف كتاب رقم 572).

(4) WESTBERG, op. cit., pp. 90-1; Kowalski, op. cit., pp. 22-4. 25-31. 34-5.

هو في الواقع افتراضي. بجانب عدم توفّر ذكر لسفارة أندلسية ذهبت إلى ألمانيا أو حتى إيطاليا في المدّة المقترحة لهذه السَّفرة (349 ـ 357هـ = 960 ـ 968م).

يظهر إذن أنّ نشاطه الدبلوماسي كان غير رسمي. وإلّا لعثرنا على إشارة إلى رسميته في المصادر الإسلامية أو النصرانية، أو لذَكَرَه هو نفسُه، لَمَا أمكنه دبلوماسيًّا أن يقوم بمثل هذه السياحة الطويلة في مختلف البلدان لإرضاء هوايته في تعرّف العادات الاجتماعية وأحوال شعوبها. لعلّ هذا بنفسه سببٌ مُرْضٍ لاعتباره رَحّالةً فقط. مع ذلك، فلانتمائه إلى بلد مُتقدِّم كالأندلس ما يُكْسِبه ذلك من الثقافة والامتياز، كان يُسْتَقبل بترحاب من حكام بعض البلدان التي زارها خلال رحلته[1]. لربما كان له اهتمام شخصي بمثل هذه المقابلات، كما عند كثير من الرّحّالة من غير أن يكونوا مكلّفين رسميًّا. النصوص المتعلّقة بنشاطه الدبلوماسي غير الرسمي، المأخوذة من كتابته فئتان:

أوّلا: نصّ يتعلّق بمقابلة الطُرطُوشي لأوتو الأول Otto I إمبراطور ألمانيا. هذا مذكور عند البكري في مناسبتين[2]، القزويني يذكر واحدة منهما[3].

ثانيًا: نصّ ذكره العُذري[4] تكرّر مع اختلاف عند آخرين[5]. هذا النصّ لا يُسَمِّي أيَّ مَلِكٍ لكنه يذكر (مَلِكَ الروم).

اتفق الباحثون الذين درسوا الطُّرْطُوشي بأنّ هذين النصين ـ نص البكري ونصّ العُذْري ـ يُشيران فقط إلى مقابلة وحيدة بين الطُرْطُوشي والإمبراطور أوتو

---

(1) Kowalski, op. cit., p. 46. 19.

(2) جغرافية الأندلس وأوروبا*، البكري، 170، 175، 177.

(3) آثار البلاد وأخبار العباد، 607.

(4) نصوص عن الأندلس، 7 ـ 8.

(5) آثار البلاد، 556. الروض المعطار، الحميري، 171.

الأول. حدثت هذه المقابلة في ألمانيا في مَجْدَبُرْغْ Magdeburg أو مَرْزَبُرْغْ سنة (354هـ = 965م) أو (362هـ = 973م).

مع ذلك، يظهر أنّ النصين يتعلّقان بمقابلتين مختلفتين ومع شخصين مختلفين وفي مكانين وتاريخين متغايرين، يتعلّق نصّ البكري في الحقيقة بمقابلة الطُرْطُوشي لأوتو الأول في ألمانيا وقد درس هذا بتوسّع عدّة باحثين. هذه المقابلة ليست موضوع هذه الدراسة[1].

على كلّ حال نصّ العذري يتعلّق بمقابلة أخرى للطُرْطُوشي مختلفة عن سابقتها. هذا هو نصّ العذري[2] الذي ستتلوه مناقشة: (وقد رأيتُ مِن قِدَم خبرها أنّ إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُّرْطُوشي أخبر أنّ ملك الروم برومية سنة خمسين وثلاث مئة من الهجرة قال له إني أُريد أن أُرسل إلى أمير المؤمنين بالأندلس قُومِسًا حاذقًا بهدية، وإنّ من أعظم حوائجي عنده وأجلّ مطالبي قِبَلَه وذلك أنّه صحّ عندي أنّ في القاعة الكريمة كنيسةً وفي الدار منها زيتونة إذا كان ليلة الميلاد نورت وعقدت وأطعمت من نهارها(؟) فأَعْلم أنّ لشهيدها محلًّا عظيمًا عند الله عَزَّوَجَلَّ فأَضرع إلى معاليه في تسليل أهل تلك الكنيسة ومُداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لي هذا فهو كان أجلّ عندي من كلّ نعمة في الأرض).

نلاحظ في نصّ العُذْري هذا أنّه:

---

(1) تجد معالجتها بتوسّع في رسالتي للدكتوراة المطبوعة بالإنجليزية:
Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad Period *, pp. 252-61.

(2) نصوص عن الأندلس، 7 ـ 8، أورد العذري هذا النصّ خلال وصفه لمدينة لورقة (كورة تدمير ـ مرسية).

1 - لم تكن مقابلة الطرطوشي مع (ملك الروم) في ألمانيا، لكن في رومية وهي تعني بوضوح (روما) حيث كانت (رومية) تستعمل من قبل الكتّاب المسلمين، لـ(روما)[1].

2 - يضع العُذْري مقابلةَ الطرطوشي سنة 350هـ = 961م بينما كانت مقابلتُه لأوتو الأول - تبعًا لنصّ البكري، كما هو متفق عليه عمومًا . (354هـ = 965) أو (362هـ = 973م) هاتان الحقيقتان في نصّ العذري (المقابلة في روما وفي 350هـ = 961م) تظهر بوضوح أنّ هذه المقابلة كانت مختلفة عن مقابلته الأخرى مع أوتو الأول في ألمانيا فإذا كان هذا المبدأ مقبولًا، بالإمكان القول بأنّ مقابلة الطُرْطُوشي هذه لم تكن مع أوتو الأول ولا حتى في روما.

على كلّ حال فقد كانت مقابلته مع البابا وفي هذا التاريخ الذي أعطاه العذري، تمّت المقابلة مع البابا يوحنا الثاني عشر John XII (تَوَلّى البابوية 344 - 353هـ= 955 - 964م). الحقائق التالية تؤيّد ذلك:

1 - لم يُسَمِّ العُذْري (ملكَ الروم) ولو قصد به أوتو الأول لكان من المُؤَكّد تقريبًا قد عرف اسم ملك بهذه الشهرة.

إنّ اصطلاح (الروم) استعمله الكتّابُ أو المؤرخون المسلمون لعدّة شعوب أوربية، لربما أُطلق بخصوصية أكثر على أهل روما.

إنّ كلمة (مَلِك) كما في نصّ العُذْري يمكن أن تعني (البابا) لدينا مَثَلٌ واضح لهذا الاستعمال. يخبرنا ابن رُسْتَه (حوالي 298هـ= 910م)، نقلًا عن هارون

(1) الأعلاق النفيسة، ابن رسته، 7/ 128، 130 (تحقيق دي خويه، ليدن، 1891). معجم البلدان، ياقوت الحموي، 3/ 100 بيروت 1376/ 1957). آثار البلاد، القزويني، 591.
Minorsky, Hudud al-'Alam, London, 1937, p. 158, no. 20; C.E. Dubler, Abu Hamid el Granadino y su Relacion de Viaje por tierras Eurasiaticas, Madrid, 1953, p. 239.

ابن يحيى يتحدّث عن روما فيقول: (... مدينة الرومية وهي مدينة يُدَبِّر أَمرَها مَلِكٌ، يقال له الباب)[1]. بذلك يشير نصّ ابن رُسْته إلى أنّ البابا هو (ملك)- له سلطة قانونية - ربما استعمل العُذْري (ملك) بوضوح بنفس الوجهة.

يستطيع الدارس القول بالتأكيد على أنّ مقابلة الطُرْطُوشي مع (ملك الروم)، ولو أنّها كانت في روما لم تكن مع أوتو الأول عندما زار روما في تاريخ قريب من الذي ذكره العذري لمقابلة الطُرْطُوشي. هذا الاقتراح الأخير (أنّ مقابلة الطُرْطُوشي لأوتو الأول كانت في روما) ليس من الصعوبة دحضه:

(أ) حَسَبَ البكري الطُرْطُوشي عندما يشير لأوتو الأول يذكره بالاسم في مناسبتين في ورقة واحدة من المخطوط[2] لماذا تبعًا للعذري لم يُسَمِّه؟

(ب) تقع السنة الهجرية 350هـ بين 20 شباط (فبراير)961م وبين 8 شباط 962م. وصل أوتو الأول روما في 31 كانون الثاني (يناير) 962م[3]. كلّ شيء كان قد رُتِّب بسرعة وتُوِّج أوتو في اليوم الثاني من شباط، بعد يومين من وصوله، بواسطة البابا يوحنا الثاني عشر في كنيسة القديس بيتر St. Peter,s[4]. وترك أوتو روما في 14 شباط[5]. كُلُّ إقامته في روما كانت أسبوعين، الأسبوع الأول منهما يقع مع

---

(1) الأعلاق النفيسة، 7/ 1281.

(2) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 170 ـ 176 (مخطوط المسالك والممالك) مكتبة نور عثمانية بإسطنبول رقم: 3034 ورقة 196). ولم يكن نصّ البكري هذا قد طبع حين دُرِس الموضوع الحالي فكانت الإشارة إلى هذه المخطوطة، ثمّ نشر النصّ فيما بعد.

(3) F. Gregorovius, History of the City of Rome in the Middle Ages, (En. tr. By A. Hamilton), London, 1895, iii, p. 332; H.K. Mann, The Lives of the Popes in the early Middle Ages London, 1910, iv, p. 248.

(4) Gregorovius, op. cit, iii, pp. 333-4; Cambridge Medieval History, Cambridge, 1922, iii, p. 162; Encyclopaedia Britannica, 1952, xvi, Otto I' p. 965.

(5) Mann, op. Cit., iv p. 254.

آخر أسبوع من السنة الهجرية 350هـ التي أُعطِيت لمقابلة الطُرْطُوشي في روما. من المحتمل أنّ هذا الأسبوع كان مزدحمًا بمناشط مهمّة[1]، كان تتويج الإمبراطور فقط واحدًا منها. أُتْبِعَ هذا بعدد من المجالس التي تنتهي بصعوبة خلال أسبوعين، يقع ثانيهما مع بداية (سنة 351هـ). على هذا يبدو غير ممكن أن يكون هناك وقت لأوتو لمقابلة ودية خالصة لشخص مهما كان. إنّ مقابلة إمبراطور ما - رسمية كانت أو غير ذلك - بحاجة إلى إجراءات وتحضير. هذا وَحْدَه قد يحتاج أكثر من أسبوع. لدينا عدّة أمثلة في سفارات رثموندو: ربيع بن زيد الأسقف القرطبي، ويوحنا الغرزيني[2]. بجانب أنّ نصّ العُذْري لم يلمع إلى أنّ هذه المقابلة كانت في تمام نهاية سنة 350هـ (الهجرية)، بل لعلّها في أواسطها، قبل وصول أوتو إلى روما.

أكثر من ذلك إنّ بناء الجملة في نصّ العُذْري: (ملك الروم برومية) يعطي انطباعًا أنّه يقصد حاكم روما الذي يقيم في مدينة روما، ولا يقترح أيّ حاكم آخر ربما يكون هناك، تبعًا لهذه القراءة فإنّ (ملك الروم) في نصّ العُذْري لا يمكن أن تعني أوتو.

2 - أنّ الرغبة التي ذكرها (ملك الروم) للطُّرْطُوشِي، في نقل عظام الشهيد من الأندلس إلى روما ممكن أن يُتَوَقع مجيؤُها من (بابا) أكثر من (ملك) سياسي، بينما لم تُسَجَّل مناقشة لقضايا سياسية في القضية. هذا مرّة أخرى يشير إلى قائد روحي كالبابا.

---

(1) Cf. Mann, op. Cit., iv pp. 248-54.

(2) راجع هاتين السفارتين في كتاب: أندلسيات * (المجموعة الأولى) للمؤلف 48- 53. وأطروحته الدكتوراه:

Andalusian Diplomatic Relations *, pp. 207-27.

3 - من ناحية أخرى فلو أنّ أوتو كان قد أراد عظام شهيد بهذا الحرص لماذا لم يكلف سفيره يوحنا الغرزيني ليرجو الناصر قبل حوالي سبع سنوات عندما كان بالإمكان أسهل تحقيقًا؟ ليس لدينا ذكر في المصادر الإسلامية أو الأوربية، أو أيّ إشارة أنّ يوحنا الغرزيني تكلّم مع الخليفة عن هذه القضية. أيضًا فإنّ ظهور أوتو بغير اهتمام في الموضوع يشير إلى أنّ هذه المقابلة لم تكن معه.

4 - كان البابا أعلى سلطة دينية في العالم النصراني الغربي، كما كان حاكمًا للدولة البابوية[1]. في كلا الحالتين يكون معقولًا أن يطلق المؤرخون المسلمون على (البابا) (ملك) حيث تولى في الحقيقة سلطات الحكومة.

5 - تمتّع البابا في ذلك الوقت بسلطات زمنية (سياسية) كاملة[2]: من إعلان الحرب وعقد المعاهدات واستقبال السفراء. يكون من الطبيعي تمامًا بالنسبة له استقبال الطُّرْطُوشي بصفة غير رسمية.

مِنْ كُلِّ المناقشات السابقة يمكن الاستنتاج بأنّ مقابلة الطُّرْطُوشي - التي ذكرها العُذْري - كانت في سنة (961م) في روما ومع حاكمها البابا يوحنا الثاني عشر (344 - 353هـ= 955 - 964م). تمّت خلال رحلة الطُّرْطُوشي، أبان له البابا رغبته في حُظْوَة من قُرْطُبة.

خلاصة البحث: أنّ الطُّرْطُوشي هو: إبراهيم بن يعقوب (أو ابن أحمد) الإسرائيلي الطُرْطُوشِي. كان رحالًا أندلسيًّا من أهل القرن الرابع الهجري يهوديًّا أو ممكن تمامًا مسلمًا من أصل يهودي. تجوّل في عدّة بلدان أوربية وفي خلال أسفاره قابل

(1) Cf. Mann, op. Cit., iv p. 248.

(2) L. Duchesne, The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes (Eng. tr. by A. Mathew), London, 1908, pp. 216, 223, 225; Gregorovius, op, cit., iii, pp. 321, 328; J. Bryce, The Holy Roman Empire, London, 1904, p. 131.

البابا يوحنا الثاني عشر في روما سنة 350هـ (961م). وقابل أيضًا أوتو الأول (الكبير) في مَجْدَبُرْغْ (سنة 354هـ=965م). عاد إلى الأندلس حوالي (سنة 356هـ=967 م) كتب تقرير رحلته حوالي (357هـ=968 م). لعلّه تقدّم به إلى خليفة قُرطبة الحكم الثاني المستنصر بالله (350 - 366هـ=961 - 976م). نحن نملك بعض مقتطفات من هذه الرحلة حُفِظَت لدى جغرافيين مسلمين بعده[1] ***

نُشِر هذا البحث: «الرحالة الأندلسي... الطُرطوشي» بالعربية في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد العشرون، 1976م.



(1) كان هذا أصل بحث ألقي بالإنجليزية في الجلسة الرابعة للدراسات الأندلسية.

IV Sesiones de Cultura Hispanomusulmanan,

التي عقدت في مدينة بلنسية (إسبانيا) خلال المدة 9 - 16/ 12/ 1965م. نُشر بالإنجليزية في المجلة الإسلامية الفصلية التي يصدرها المركز الثقافي الإسلامي في لندن:

The Islamic Quarterly, vol. XI, no. 5, 1387/1967.

كما نشر بالإيطالية في (المجلة الإيطالية التاريخية):

Rivista Storica Italiana, Anno lxxix, Fasc. I, Napoli, 1967.

القَضاءُ ودِراسَتُه في الأندلس

مكانةُ القضاء في الإسلام: يُعد القضاءُ في الإسلام واحدًا من شامخاته المتفردة وأعلامه العالية الواضحة. كُلُّ الإسلام كذلك في تعاليمه وتشريعه وتاريخه وتوجيهه وحضارته وأصالته وإنجازاته؛ لأنها تقوم على عقيدة أكرم الله بها بني الإسلام وأهل الأرض. إذا كان بعضُ الناس الذين لم تُتَحْ له دراسةُ الإسلام - لأي سبب وتعليل، مما جعلهم لم يستشعروا ذلك عليهم - يكون الأقل القليل ألَّا يُصْدِروا أحكامًا جائرة قبل الاطلاع عليه. ذلك أبسط قواعد الحُكْم السليم وبديهيات القضاء النزيه والأسلوب العلمي النظيف، وإلا فهو التحامل والتعصب والسطحية المهلهلة والعلمية المرقعة. إن الجهلَ بهذا الدين ورَفْضَ الاطلاع فيه أو اِستخواف التعرف عليه، آفةٌ يعاني منها الكثير ممن ينتسبون إليه ويَحْتَمون بحِمَاه وينشأون في منابته، فضلًا عن الآخرين، وإلَّا لتغيرت الحال وتبدلت المواقف بعد الاقْتناع إلى الاعْتبار، إن لم يكن للاتِّباع بل الاقتداء والافتداء.

يساعد على مِثْل هذه الأجواء العقيمة عدم وجود واقع يتمثل الإسلامَ، يُزْهِر ويجعل الحياة له فتثمر خيرَ الثِّمار وأشهاها، فضلًا عن الأجهزة التي توغر الصدور منذ النعومة، بوسائل أدركت عِظَمَ المتربص نال الغَرَقُ منها مَنالَه. اندفعت بعدائها الأعمى اللامبرَّر توجِّهُه وسائلُ قوتها، وتستخدم الحَجَرَ والمَدَرَ بلا مبالاة لأي قِيَم، هي عنها مجردة. اتُّهِم الإسلامُ بكل عيب، هم (أو عندهم) معدنُه، بكثرةٍ تحجب النورَ وتُقْعِد القُوى بعد طول القرون. ذلك مما دَفَعَ الناسَ عن الإسلام بعد ما تدافعوا عليه وأقبلوا إليه. يُروِّج هذه البضاعةَ الأثيمة عدمُ توفر واقع منظور يعمل فيه الإسلام وتعلو كلمتُه. هذا الواقع العملي في الفرد والمجتمع والدولة كان المصداقَ الجذاب لمواقع الإسلام، أما اليوم فهو معدوم، لعله إلى حين. المرجو

لهؤلاء لو يهتدون أو «يُخْرِج اللهُ مِن أصلابهم مَن يعبد اللهَ وحده، لا يُشرك به شيئًا»[1].

نصل من ذلك إلى أن روائع الإسلام الفريدة ومُثُله المتميزة في القضاء (مثلما في غيره) لم تَعُدْ إلا في بطون الكتب أو في حواصل نَفَرٍ تُرْوَى مكتوبة على قلة مسموعة. تُدِر الإعجاب وتدعو إلى التعجيب وتُبْهِرُ الفِكْرَ وتُدهش النفس وتُثير التساؤل. قد تساعد هذه على العودة المحمودة، وإلا غير كاف الاطلاع والتعرف كهدف مقصور من هذه الدراسات؛ إذ لابد أن تدعو للأخذ بها وتنفيذها لحياة قائمة بها، كيما تُحَوَّل إلى حياة حَيَّة بها تتحرك ومنها تتغذى ولها تندفع. هذا هدف لابد أن يرافق الدراسات الإسلامية القائمة على أعلى درجات التحقيق والتوثيق والتدقيق.

إطاره العام: تطالعنا دراسةُ القضاء في الإسلام بأصدق الأمارات وأقوى المَعالم لهذا الحُكْم المُسْنَد الموثوق علميًّا مدروسًا. موضوع القضاء في الإسلام بحاجة إلى دراسة جديدة تعتمد على هذه الروح وتسلك منهجيةً سليمة واضحة الرؤية، تستقرئ أمهات الكتب لدى مؤلفينا الأثبات. تُصابِرُ المتابعة وتحتمل المجاهَدة، خاصة في السنوات الأخيرة بعد نشر نصوص، لها الأهمية في تأكيد النظرة وتسديد الوجهة وسلامة الحُكْم.

هذا النِّتَاج ثمرةٌ لِمُعْتَقَدٍ عميق محسوس وفكر كريم وواقع ممارَس سليم. فهو الصدق الواضح والوثيقة المعتمدة والواقع الناطق. لكن هذا مُحْتاجٌ إلى نَقَاءِ فِكْرَةٍ وسلامةِ قصدٍ ومتانةِ علمٍ واحتواءِ معرفة وصدق نظرة وأناة بحث وتحملِ جهدٍ، يستطيعه الباحث الهميم والدارس المكيث والمتابع المتمرس، لا تستعجله الأيام

---

(1) من حديث شريف: صحيح مسلم، 3/ 1421 (كتاب الجهاد والسير). حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، 1/ 404.

أو تستحثه الظروف أو تسارعه المنفعة القريبة والقصد العاجل. بل بهمة عالية يتابع البحث مع المطبوع القديم والحديث، كذا الذي مايزال مخطوطًا مما يتعلق بالموضوع أو يمت إليه تشريعًا وتاريخًا. وإلا لمن يتأتى؟ إذن لعل في هذا وما يليه، بعون الله تعالى بعض الإسهام المأمول. لقد أُهملت دراسةُ القضاء في الإسلام - لأي سبب وُجِدَ- حتى في أوجب المناسبات، خلال مراحل دراستنا ومحافلها، وفي دراسة التاريخ والحضارة وغيرها. هذا عامل يزيد في أهمية الكتابة في هذا الميدان. الكتابة عن القضاء في الإسلام قد لا ينهض بها إنسان ما وَحْدَه، بل لابد من التعاون بين مجموعة يتوزعون العمل، بإشراف هيئة تنسق وتنفق، تنظم وتنفذ، تُقدم وتبذل.

أهمية القضاء: موضوع القضاء مهم جدًّا، أَوْلاهُ الإسلامُ مكانتَه العُليا. فهو يتعلق بحقوق الناس وحياتهم والمحافظة على المُثُل في واقعهم العملي. الإسلام جاء ليوجه الحياة ويصورها بشريعته فجعله عبادة، هي في الإسلام واسعة المفهوم شاملة لكل عمل يُقْصَد به وجه الله تعالى، تَحرِّي شريعة الله جلت قدرته وابتغاء رضوانه. دليلَ صِدْقِ التوجه إليه وإخلاص التقوى له. هكذا بناء الحياة المسلمة مرتبطة بالعقيدة منبثقة عنها، لا في صورة التشريع فَحَسْب بل أيضًا في انسجام الأساس مع التطبيق وحَمْل ذات الروح فلا انفصام. بل هي نوعٌ عالٍ من العبادة لأنها تحتاج إلى اِلتزام شديد وخشيةٍ من الله تعالى حاضرةً تَرْفُضُ كُلَّ المؤثرات بكافة أنواعها.

ثم إن أهمية القضاء في الإسلام، بجانب كونه أحد أوجه الصورة العملية لشريعته، فهو يباشر مهمته في أمور كثيرة، واسعة في إطارها ومستواها، فهي مهمةٌ مقدسة.

أَيّـةُ صُـوَرٍ فريـدةٍ، تلك التي حققها الإسلام في المجتمع الإسلامي خلال القرون، سواء كان ذلك مع المسلمين أو مع غيرهم، بل حتى مع أعدائهم. مما يدفع

بأقوى الحجج، أولئك الذين يَتقوَّلون ويُولولون على الأقليات أو المكونات المتنوعة غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي.

<u>منابع القضاء وأوليته</u>: يعود تاريخ القضاء إلى الوقت المبكر من تاريخ الإسلام. كان الرسول الكريم ﷺ يقضي بين المسلمين ويفصل في أمورهم حسب أحكام الإسلام وتشريعه.

القضاء يقوم على العدل والمساواة المجردة المطلقة حتى في اليسير من الأمور. الحق عنده مُقَدَّس يُعاد إلى أهله ويُعْطَى لمستحقيه، حتى دونما مطالبة. يستلزم التحري والتروي واستعراض ما لدى الأطراف واستبيان حقيقة الأمر واستجلاء ظروفه، فلا يَرْضَى أَحَدٌ بحَقِّ غيرِه لأنه أَلْحَنُ (أبلغ وأنبه وأفطن) بحجته، فذلك ما قاله الرسول الكريم ﷺ[1].

يستند القضاء في أحكامه إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله الكريم ﷺ، ثم من بعده يجتهد ويستنير بأعمال الخلفاء الراشدين والصحابة الأكرمين وعلماء الإسلام والمجتهدين وقضاتهم وفقهائهم، ممن سار في هذا الإطار حَسَبَ ما هداهم إليه اجتهادُهم. ذكر حافظُ الأندلس أبو عمر يوسف بن عبد البَر (368-463هـ) في كتابه: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»[2]، حين الحديث عن الصحابي الجليل معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن مع آخرين: «وبعثه رسول الله ﷺ قاضيًا إلى الجَنَد من اليمن، يُعلِّم الناسَ القرآنَ وشرائعَ الإسلام، ويقضي بينهم، وجعل إليهم قَبْضَ الصدقات من العمال الذين باليمن، وكان رسول الله ﷺ قد قَسَّم إدارة اليمن على خمسة رجال: خالد بن

---

(1) راجع الحديث الشريف في: صحيح مسلم، 3/ 1337 (كتاب الأقضية). سنن الترمذي، 5/ 9 ـ 10 (كتاب الأحكام).

(2) 3/ 1403 ـ 4. انظر كذلك: سنن التِّرْمِذي، 3/ 8 (كتاب الأحكام). القضاء في الإسلام، مدكور، 22.

سعيد على صنعاء، والمهاجر بن أبي أمية على كِنْدة، وزياد بن لَبِيد على حضرموت، ومعاذ بن جبل على الجَنَد، وأبي موسى الأشعري على زَبِيد وعدن والساحل، وقال رسول الله ﷺ لمُعاذ بن جَبَل حين وجهه إلى اليمن:

قال رسول الله ﷺ: «بِمَ تَقْضي؟» قال معاذ: بما في كتاب الله.

قال: «فإن لم تجد؟» قال: بما في سُنَّة رسول الله.

قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي.

فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي وَفَّق رسولَ رسولِ الله لِمَا يُحِبّ رسولُ الله». في معاذ قال رسول الله ﷺ: «قد سَنَّ لكم مُعاذٌ فاتَّبِعوه»[1].

ثم إن رسول الله ﷺ عَيَّن نَفَرًا من المسلمين في القضاء، يسيرون على هذا الهَدْي[2]. من الطبيعي أن يكون القاضي على مكانة عالية من التقوى والإيمان والصلاح والعلم الشرعي الحياتي. له شروط متلازمة معروفة وأخلاق متجاورة موصوفة.

تعيين القضاة يكون عن طريق الخليفة أو هو يقوم به. يأتي الاختيار بعد رؤية واختبار. بينما: «كان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى مَنْ سِواهم. أول من دفعه إلى غيره وفوَّضه فيه عمر رضي الله عنه، فولَّى أبا الدَّرْداء معه في المدينة، وولَّى شُرَيْحًا بالبصرة، وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة»[3].

---

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، 2/ 220.

(2) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 9/ 24.

(3) مقدمة ابن خلدون، 2/ 737.

تذهب مصادر أخرى إلى جعل شُرَيْح (78 هـ أو بعدها)[1] قاضيًا على الكوفة وأبي موسى الأشعري قاضيًا على البصرة[2] هذا أشهر. لعله كان هذا وذاك[3]، أو جرى تبادل في الأمر.

تذكر مصادرنا قصةً طريفة في سبب تعيين عمر لشريح بن الحارث الكِنْدي قاضيًا على الكوفة. لقد: «ساوم عمر بن الخطاب بفرس فركبه ليشوره فعَطِبَ.

فقال للرجل: خذ فرسك. فقال الرجل: لا.

قال: اجعل بيني وبينك حَكَمًا. قال الرجل: شريح. فتحاكما إليه.

فقال شريح: يا أمير المؤمنين حُزْ ما ابتَعْتَ أو رُدَّ كما أخَذْتَ.

فقال عمر: وهل القضاء إلا هكذا ؟ سِرْ إلى الكوفة.

فبعثه قاضيًا عليها. قال: وإنه لأول يوم عرفه فيه»[4].

استمر شريح في القضاء ستين سنة أو تزيد[5]، حتى خِلافة عبد الملك بن مروان[6] (65 ـ 86هـ).

كان شريح قد: «استعفى من القضاء - قبل موته بسنة - من الحَجَّاج، وعاش مئة وعشرين سنة»[7].

(1) وفيات الأعيان، 2/ 463. الاستيعاب، 2/ 702. الأعلام، 3/ 236.

(2) الاستيعاب، 2/ 701. أخبار القضاة، وكيع، 1/ 285، 2/ 184 - 189. النظم الإسلامية، 322.

(3) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 2/ 274. الاستيعاب، 4/ 1763 - 1764. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، 4/ 327. أخبار القضاة، 1/ 297.

(4) الطبقات الكبرى، ابن سعد، 6/ 132. كذلك: البداية والنهاية، 9/ 25.

(5) وفيات الأعيان، 2/ 460. البداية والنهاية، 9/ 22. تهذيب التهذيب، 4/ 326، 328.

(6) الاستيعاب، 2/ 701 ـ 702.

(7) تذكرة الحفاظ، 1/ 59. تهذيب التهذيب، 4/ 327.

أورد بعض المؤرخين أن أول قاض في الإسلام هو عمر بن الخطاب. ذكر ابن عبد البَر بأن: «أول من وَلِيَ شيئًا من أمور المسلمين عمر بن الخطاب، ولاه أبو بكر القضاء، فكان أول قاضٍ في الإسلام»[1] بل أورد الترمذي في سُننه ما يشير بأن عمر تولى القضاء في حياة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

عمر بن الخطاب هو صاحب الرسالة القضائية المشهورة التي أرسلها إلى قاضيه على البصرة الصحابي الشهير أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس)[3]، التي مبدؤها: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة مُحكمة وسُنَّة مُتَّبعة، فأفهم إذا أُدِّيَ إليك فإنه لا ينفع تكلُّم بحقٍّ لا نَفَاذَ له...»[4].

كان كل مِن عمر وعلي بن أبي طالب من مستشاري الخلافة قبل توليتهما. امتاز علي بن أبي طالب بمكانته العالية في القضاء، حتى لقد أشاد عمر ابن الخطاب بهذه المكانة بقوله: «عليٌّ أقضانا وأُبَيّ أقرؤنا»[5]؛ استنادًا إلى حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بذلك يَقْتَبِس ويَسْتَحْضِر ويؤكد عمر ما أشار إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان ما امتاز به أصحابه الكرام، بيانًا لفضلهم بقوله: «أَرْحَمُ أمتي بأمتي أبوبكر،

(1) الاستيعاب، 3/ 1150. عمر بن الخطاب قاضيًا ومشرعًا، محمد عارف مصطفى فهمي، 161. النظم الإسلامية، صبحي الصالح، 322.

(2) سنن الترمذي، 5/ 3-4. القضاء في الإسلام، مدكور، 22.

(3) انظر ترجمته في: الاستيعاب، 3/ 979.

(4) مقدمة ابن خَلْدُون، 2/ 737. وقد شرح ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين هذه الرسالة في أكثر الجزء الأول وصدر من الجزء الثاني: 1/ 85 - 401 (نهاية الجزء الأول)، 2/ 3 - 165. قارن: مقدمة ابن خلدون، 2/ 738 وبعدها. أخبار القضاة، وكيع، 1/ 70 - 74، 283 - 284. ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، ابن حزم الأندلسي، 6 - 7. القضاء في الإسلام، 28.

(5) الاستيعاب، 3/ 1102.

وأقواهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب وأقرؤهم أُبَيّ بن كعب وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1].

تنسيب أيٍّ من هذه الصفات لا ينفيها عن الصحابة الآخرين أو يُنقص منها، وهم حواريو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف وقد أثنى الله تعالى عليهم في قرآنه المجيد بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3]. فكيف يصح إذن سبُّ أو انتقاص أيٍّ منهم، والرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول فيهم: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أَحَدَكم أنْفَقَ مِثْلَ أُحُد ذَهَبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه»[4].

تلك إذن هي مكانة القضاء في الإسلام يلحظها الدارسُ في تاريخه خلال العصور، في الأندلس وفي غيرها سواء. حتى إن الساسة - على اختلاف مراكزهم - كانوا يَخْضعون لأحكام القضاة، وكان ذلك يرتقي بهم إلى مستوى العمق في الخضوع ذاتيًّا، تقوًى وإيمانًا والتزامًا، فهو لا يفعل ذلك لكي يعطيه مكانة ويرفع من قدره عند الناس. بل إن الحُكَّام كانوا يحرصون على اختيار أرفع الرجال وأنقاهم

(1) الاستيعاب، 1/ 16، 68.
(2) سورة الفتح، 48/ 29.
(3) سورة التوبة، 9/ 100.
(4) الاستيعاب، 1/ 8 وما قبلها.

وأفقههم لمناصب القضاء، ثم يقفون عند أقضيتهم ويحترمونها دون أي تدخل أبدًا. في تاريخ القضاء في الأندلس - مثلما في غيره - الأمثلة الكثيرة على هذه الرفعة والمكانة والأهمية.

لشعور فقهاء الأمة وعلمائها بهذه المثابة نجد أن العديد منهم كان يرفض تولي منصب قضائي تواضعًا وشعورًا بضخامة المسؤولية، التي يتخوف أَحَدُهم ألا يؤديها على كمالها أو يرى غيرَه أكثرَ ملائمةً لها ووفاءً بحقها. هذه الظاهرة نفسُها علامةٌ على الصدق والإخلاص وأصالة النفس المؤمنة وعمق يقينها مع نفسها ومع حقيقتها وتعاملها مع الواقع والمجتمع بهذا المستوى والخلق الرفيع الأصيل. هذا كان يسود الأجواء الأخرى دوامًا، منها العلمية والحياتية. كان لاختيار القضاة شروط واضحة عالية، التقوى والعلمية وحسن السمعة والعدالة والغيرة والاهتمام والصلابة في الحق وعدم الخشية في الله لومة لائم وعدم توجيب أي مؤثرات أخرى، كلها أسس مكينة للاختيار. من هنا سوف لا نستغرب من معرفتنا عن العديد الذين طُلِبوا للقضاء فرفضوه واستعفوا، رغم الإلحاح، يستوي في الأمر جناحا العالم الإسلامي شرقه وغربه، رفضُ الإمام أبي حنيفة النُّعْمان (151هـ) للقضاء معروف[1].

أما في الغرب الإسلامي فذلك أيضًا متوفر كثير. ففي الأندلس كان فقيهها المحدِّث يحي بن يحي الليثي (234هـ) زاهدًا في القضاء، وهو الذي كان يُسأل في تعيين القضاة ويؤخذ برأيه[2].

---

(1) وفيات الأعيان، 5/ 406. القضاء في الإسلام، مذكور، 14. القضاء والقضاة، محمد شهير أرسلان، 154 وبعدها.

(2) نفح الطيب، المقّري، 2/ 10. ترتيب المدارك، القاضي عياض، 2/ 539. لمعرفة أمثلة أخرى لمن استعفى من القضاء في الأندلس. نفح الطيب، 2/ 91. الصلة، ابن بشكوال، 168، 609. التكملة، ابن الأبار،

<u>القضاءُ في الأندلس ومصادرُه</u>: إذا كان موضوع القضاء في الإسلام بهذه المثابة من الحاجة إلى البحث والتحليل فإنه في الأندلس أكثر وأشد. لأن دراسة الحياة الإسلامية وإنتاجها في الأندلس لَقِيَتْ حتى الآن أقل مما حَظِيَ به جناحُ العالم الإسلامي الشرقي. ثانيًا: لأن موضوع القضاء في الأندلس مازال يحتاج إلى درس واسع وإنتاج قَيِّم تتبين فيه عموم الصورة ويتيح المجال لأجزائها أن تتضح، بانسجام مع هذه الصورة وفي إطارها العام، مع بقية أجزاء العالم الإسلامي يوم كان.

<u>موضوع القضاء في الأندلس</u> خاصة يحتاج إلى دراسة، وهو متعدد الجوانب. فيما نُشِر من نصوص أصيلة عامة وخاصة في كتب التراجم أو موضوعات القضاء ورجاله العون الكبير.

لم يُهْمِل الكُتَّاب الأندلسيون التأليفَ في القضاء، فقهًا وأحداثًا وشروطًا وأشخاصًا، تقريرًا ونقدًا بل وَفَّوْه كاملَ حَقِّه. كانت تآليف متخصصة في القضاء أو أشركته مع موضوعات أُخر. نجد أصولًا موثقة من الإنتاج في القضاء خَطَّتْها أيادي عالِمة أمينة، بأسلوبٍ قدوة في القوة والصدق والموضوعية المتحرية.

عرفنا العديد من أسماء الكتب الأندلسية التي عالجت موضوع القضاء في الأندلس ومتعلقاته، أصحابها من الأعلام في الفقه والتاريخ وعلوم أخرى، ممن عُرِفوا بالتقوى. هي أمتن أساسًا للموضوعية الحقة المكينة. كان بعضهم من العلماء الأعلام (أو الموسوعين) في فقه القضاء وتاريخه في الأندلس، مع كون بعضهم من رجال القضاء أنفسهم مارسوه بأنفسهم وعاشوا أحداثه، ليسوا بِطَارِئين على التأليف فيه أو في غيره. هذا بمجموعه يعطي أهمية بالغة عالية لهذا النِّتاج.

1/ 355، 2/ 869، 872. قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، أبو عبد الله الخشني، 13 – 20. المرقبة العليا، النباهي، 10 – 17.

تَلُمّنا الحسرة إذ لم تصلنا كل المؤلفات القضائية الأندلسية، التي عرفنا أسماءها، هل هي كل الأسماء؟! فهل الفقد أصاب من بعضها الأسماء أيضًا؟ مثل هذا جَرَى بالنسبة للمؤلفات العامة التي تناولت القضاء وغيره مع تراجم آخرين.

المصادر المتوفرة والمفقودة: التأليف المتخصص عن «القضاة والقضاء في الأندلس» كان بعضه عامًّا لكل بلد الأندلس وللعصور السابقة لعصر المؤلف أو لمدينة واحدة فيه. وصلتنا نماذج جيدة من المؤلفات المتخصصة في هذا الموضوع (القضاء في الأندلس). «قضاة قرطبة» مطبوع أكثر من مرة، تأليف أبي عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخُشَني، القيرواني المولد والنشأة، الأندلسي الاستيطان، القرطبي المستقر، تُوفي آخر أيام الخليفة الحَكَم الثاني المستنصر بالله أو بعده[1]. «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفُتْيَا» مطبوع تحت عنوان: «تاريخ قضاة الأندلس» لأبي الحسن النُّباهي قاضي الجماعة بغَرناطة[2].

فضلًا عما لدينا من معلومات عن أمور القضاء في الأندلس وتَرَاجِم رجاله في الكتب الأخرى التي وصلتنا وعديد منها مطبوع، سيرد ذكر بعضها. هذا بجانب منقولات عن كتب القضاء الأندلسي المفقودة حتى الآن، وعن عدد آخر وردت أسماؤها في بعض المصادر، ربما نُقل منها قليل أو كثير. من الكتب المفقودة التي تحدثت عن القضاء في الأندلس عدد نُورِد منها:

ذَكَرَ الحُمَيْدي في جذوة المقتبس[3] بأن الخُشَني هذا جمع كتابًا في «أخبار القضاة الأندلس». غير واضح إذا كان هذا كتابًا آخر غير «قضاة قرطبة» أو هما

---

(1) ترجمة الخشني في: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي،2/ 112-113 (رقم: 140). جذوة المقتبس، الحميدي، 53 (رقم:41). بغية الملتمس، الضبي، 71 (رقم:96).
(2) ترجمته في: الكتيبة الكامنة، ابن الخطيب، 146.
(3) 53 (رقم:41).

كتاب واحد والثاني جزء من الأول. ابن حَزْم القُرْطُبي (456هـ = 1064م) أشار في رسالته في «فضل أهل الأندلس» التي حفظها لنا المقري في نفح الطيب[1] بأن للخشني كتابًا في «أخبار القضاة بقرطبة وسائر الأندلس»[2]. هذا قد يَحُلّ الإشكالَ على اعتبار أن الكتابين هما في الأصل كتاب واحد، وأن الذي وصلنا هو «قضاة قرطبة» المطبوع. هو جزء (ربما الأقل) من الكتاب الأصلي الذي فُقِد باقِيه. إلا أن مقدمة المؤلف لـ «قضاة قرطبة»[3] الذي ألفه للحكم المستنصر[4] لا تعين على هذا الفهم عن الكتاب بما يطابق العنوان الذي ذكره ابن حزم. لكن قد يكون الخُشَني ألحقه فيما بعد - جعله على انفراد - بـ«أخبار القضاة بالأندلس»، ثم في استنساخ آخر (إعادة كتابة المؤلف بعد تنقح وزيادة) جمع بينهما، على غرار ما يحصل أحيانًا في التأليف اليوم بين طبعة والتي تليها لكتاب ما. هذا مألوف عند مؤلفينا وسيرد مثال لهذا فيما يأتي من الحديث. «انتخاب من أخبار القضاة» لابن حيان القرطبي[5] (377 - 469 هـ). ذكر له ابن الخطيب كتابًا في الإحاطة باسم: «تاريخ فقهاء قرطبة»[6] فهل هو نفسه؟ ذكره ابن الأبار في التكملة ونقل منه مع ذكر اسمه كما في الصيغة الأولى، حين الحديث عن محمد بن بشير بن محمد المَعافِري قاضي الجماعة بقرطبة (198هـ). نُقل عن ابن حَيَّان خبرًا يتعلق بابن بشير وختم ابن الأبار نقله بقوله: «ذكر ذلك في انتخابه من أخبار القضاة»[7]، أي: ابن حَيَّان.

---

(1) 3/ 156ـ179.

(2) 3/ 174. كذلك: ترتيب المدارك، 4/ 531. جذوة المقتبس، 53.

(3) ص11-12 (طبعة العطار)، 1ـ2 (طبعة الدار المصرية، رقم:1 من «المكتبة الأندلسية» من مطبوعات «تراثنا»).

(4) مقدمة المؤلف.

(5) المقتبس (تحقيق محمود علي مكي)، 67 (مقدمة المحقق).

(6) الإحاطة، 1/ 91.

(7) التكملة، 1/ 355.

أورد ابن سعيد المغربي في كتابه «المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب» نُقولًا من كتاب ابن حيان هذا[1]. وسماه: «كتاب ابن حَيَّان في القضاة»[2] اعتمد ابن سعيد الأندلسي فيما كتب عن القضاة على كتاب آخر أيضًا هو: «كتاب القضاة»[3] للفقيه أبي عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر (338هـ). احتفظ لنا ابن سعيد بمنقولات منه مهمة[4]، كذلك انتفع به ابن حَيَّان في أحد قطع كتبه «المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس» التي وصلتنا[5]. لعل هذا الكتاب كان أحد مصادر ابن حَيَّان في كتابه السابق عن القضاة. أبو عبد الملك بن عبد البَر هذا هو غير حافظ الأندلس العلامة الفقيه الأديب القاضي أبي عمر يوسف بن عبد البر النَّمِري[6] (368-463هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة منها «الاستيعاب»، الذي سبق استعماله في صدر هذا البحث.

لم أجد ذكرًا، بهذه الصيغة التي ذكرها ابن سعيد في «المُغْرِب»، لاسم هذا الكتاب المفقود إلا في «ترتيب المدارك» للقاضي عِيَاض. أبو الوليد ابن الفَرَضِي حين يترجم لأبي عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر في كتابه «تاريخ علماء الأندلس»[7]، لا يَذْكُرُ «كتاب القضاة» هذا، بل يذكر كتابًا آخر بعنوان: «الفقهاء بقرطبة». كذلك يفعل ابن بَشْكُوَال في كتاب «الصلة»[8] حيث يذكر كتابًا لأبي عبد الملك بن عبد البر وينقل عنه ويَسِمُه بأنه تاريخ في «فقهاء قرطبة».

---

(1) المغرب، 1/ 70، 102، 155، 157 ـ 161.
(2) المغرب، 1/ 70، 155، 215. قارن: المقتبس، 68.
(3) المغرب،1/ 143.
(4) المغرب،1/ 143ـ155.
(5) المقتبس (القطعة السابقة) 177-210.
(6) راجع ترجمته في: الصلة، ابن بشكوال، 677 (رقم: 1501)؛ نفح الطيب، المقري، 3/ 4،169/ 28.
(7) 1/ 38 - 39 (رقم: 120).
(8) 396 (رقم: 852). المقتبس (القطعة السابقة)، 258، (تعليقات المحقق رقم: 73).

مِثْلُ ذلك يفعل ياقوت الحَمَوي في «معجم البلدان»[1]، حين يذكر أبا عبد الملك بن عبد البر، حيث له كتاب مؤلف في «الفقهاء بقرطبة». فهل هما كتاب واحد في القضاة والفقهاء، اجتزأ بعضهم عنوانه؟ بينما نجد القاضي عِيَاض (476-544هـ) في كتابه: «ترتيب المدارك»[2] حين يترجم لأبي عبد الملك بن عبد البر يذكر أنه: «ألف في فقهاء قرطبة تاريخًا مشهورًا»[3] ثم في الصفحة التالية يتحدث عن عَلاقته بعبد الله بن الخليفة عبد الرحمن الثالث (300-350هـ) الناصر لدين الله، يذكر أن أبا عبد الملك كان على عَلاقة جيدة بعبد الله: «وله ألف تاريخ الفقهاء والقضاة». هذا بدوره لا يحل الإشكال إذا لم يَدْعُ إلى جعلهما كتابين. انتفع عدد من المؤلفين بكتاب أبي عبدالملك بن عبدالبَر منهم القاضي عِيَاض نفسُه[4] وابن حَيَّان القرطبي وبنو سعيد الأندلسيين في كتابهم «المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب» وآخرون. مهما يكن من أمر غير واضح تمامًا ما إذا كان كتاب: «القضاة» لأبي عبدالملك ابن عبد البَر كتابًا عامًّا عن قضاة الأندلس أم خاصًّا بقضاة قرطبة، كما فعل المؤلف في كتابه: «الفقهاء بقرطبة» الذي أفاد منه ابن الفَرَضِي في: «تاريخ علماء الأندلس» وإذا لم يكونا كتابًا واحدًا. بينما نجد ابن الأبار يذكر في الحُلَّة السِّيَراء (47/1) أبا عبدالملك ابن عبدالبَر مؤلِّف كتاب: «القضاة» لكنه لا يَذْكُر له مؤلَّفًا بالاسم وإنما ينعته: «صاحب التاريخ»، فهل كتابه هذا في التاريخ الأندلسي عمومًا أم في تاريخ الفقهاء أو القضاة أو في كليهما؟ أي: هل هذا الكتاب هو نفسه أو جزء منه الكتاب المذكور أو واحد منهما «القضاة أو الفقهاء»؟ غير بعيد أن تكون لأبي عبدالملك بن عبدالبر عدة مؤلفات؛ إذ قد وصفه ابن الفَرَضِي في: «تاريخ علماء

(1) 4/ 324-325.
(2) 4/ 420-421.
(3) ترتيب المدارك، 4/ 420.
(4) ترتيب المدارك، 1/ 57.

الأندلس» (39/1، رقم:120) بكونه: «بَصيرًا بالحديث فقيهًا نبيلًا متصرفًا في فنون العلوم، وكان علم الحديث أغلب عليه». أما كتاب: «الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء» لأبي بكر الحسن بن محمد بن مُفَرِّجٍ بن حَمَّاد بن الحسن المَعَافِري المعروف: القُبَّشي[1] (348 – 430هـ). وَصلنا منه مقتطفات فيما نقل ابن حَيَّان في: «المُقْتَبِس» (186/2) وابن بشكوال في صلته (137/2، رقم: 311). وابن الأبار في تكملته (7/1، 720/2) والنباهي في: «المَرْقبة العُلْيَا» (78) وابن الخطيب في الإحاطة (91/1). «تاريخ فقهاء طُلَيْطلة وقضاتها» لأبي جعفر أحمد بن عبدالرحمن بن مطاهر (مظاهر) الأنصاري[2] (489هـ = 1095م). لكن ابنَ بَشْكُوَال نفسَه صاحب كتاب: «الصلة» يورد اسم هذا الكتاب في موضعين آخرين من كتابه (3، 347) بصيغة أخرى وهو: «تاريخ فقهاء طليطلة»، لعله تَجَوّز في ذلك. لعل هذا الوضع – إن كان كذلك – قد يُعِينُ على فهم الإشكالات في بعض صيغ أسماء الكتب السابقة أو اللاحقة. يرد اسم هذا الكتاب قريبًا من الصيغة الأولى عن ابن الخطيب في الإحاطة (91/1). يقول -حين يذكر مَصادره، التي اعتمد عليها في الإحاطة- و«تاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بِطليطلة» لأبي جعفر بن مُطاهر، ومنتخبه لأبي القاسم بن بشكوال».

مختصر في: «أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة» للقاضي أبي عمر أحمد ابن محمد بن عفيف بن عبدالله بن مَريول بن جَرَّاح بن حاتم الأُمَوي (348 – 420هـ). أورده ابن بشكوال في: «الصلة»[3]. حين يترجم القاضي عياض لابن عفيف في: «ترتيب المدارك» (735/4) لا يورد اسم هذا الكتاب بل يقول: «وألف في علم

---

(1) المقتبس، 354، رقم: 59. نفح الطيب، 2/ 643. تاريخ الفكر الأندلسي، 275.
(2) الصلة، 70، رقم: 151.
(3) (26، رقم: 75) كذلك: الحلة السيراء، 1/ 206. تاريخ الفكر الأندلسي، 423.

الشروط تأليفًا حسنًا، وألف كتاب المعلمين وكتاب الاحتفال في علماء الأندلس، وصل به كتاب ابن عبدالبَر». فهل الكتاب الأول أو الثالث من كتب ابن عفيف هذه، له أي عَلاقة بكتابه: «أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة» الذي ذكره ابن بشكوال؟ لعل ابن عبدالبَر هنا هو أبو عبدالملك أحمد بن عبدالبَر، الذي سبق الحديث عنه وعن كتابه: «كتاب القضاة». ذكر البعض لابن بشكوال كتابًا عن: «أخبار قضاة قرطبة» في ثلاثة أجزاء (مقدمة الصلة). لعل بعض المؤلفين في الموضوع قد انتفع به. فهل هذا الكتاب هو الذي ذكره ابن الخطيب في: «الإحاطة» ووصفه بأنه منتخب كتاب أبي جعفر بن مُظاهر الذي سبق ذكره قبل قليل مع نَص ابن الخطيب؟ لدينا كتب أخرى في القضاء ذكرها النُّبَاهي في: «المَرْقَبة العُلْيَا» وقد انتفع بها: «أدب القضاة» لمحمد بن عبدالله بن عبد الحَكَم (المرقبة، 189). لعل لهذا المؤلَّف كتاب آخر (المرقبة، 199). «الاستغناء في أدب القضاة والحكام» لخلف بن مسلمة بن عبد الغفور (المرقبة، 6، 198)، «منهاج القضاة» لابن حبيب (المرقبة،188). يذكر المَقَّري أيضًا في: «نفح الطيب»[1] كتاب: «التحفة في علم القضاء» تأليف القاضي أبي بكر بن عاصم (730 - 829هـ). ذكر ابن بشكوال في: (الصلة) (565، رقم: 1239) أَن أبا عبدالله بن الطَّلَّاع محمد بن فَرَج: «جمع كتابًا حسنًا في أحكام النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ» لعله انتفع به. لدينا أسماء عديدة من الكتب التي أُلِّفت في الأحكام[2]. كذلك يذكر ابن بشكوال[3] أن أبا عمر أحمد بن سعيد ابن إبراهيم الحمداني المعروف بابن الهندي (320 - 399هـ) كان: «بَصيرًا بعقد الوثائق له فيها ديوان كبير نفع الله المسلمين به». ثم يقول: «قال ابن فَرَج: قرأتُ

(1) 5/ 19، 7/ 106. كذلك: تاريخ الفكر الأندلسي، 429.

(2) المرقبة العليا، 50، 97، 130، 199.

(3) الصلة، 14، رقم: 21. تاريخ الفكر الأندلسي، 71، 441.

على أبي عمر ديوانه في الوثائق ثلاث مرات، وأَخَذْتُه عنه على نحو تأليفه له فإنه أَلَّف أولًا ديوانًا مختصرًا من ستة أجزاء فقرأتُها عليه، ثم ضاعفه وزاد فيه شروطًا وفصولًا وتنبيهًا فقرأت ذلك عليه أيضًا، ثم ألفه ثالثة واحتفل فيه وشحنه بالخبر والحِكَم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد والحُجَج فأتى الديوان كبيرًا. واخترع في علم الوثائق فنونًا وألفاظًا وفصولًا وأُصولًا وعقدًا عجيبة، فكتبت ذلك كله وقرأته عليه». عَقْدُ الوثائق هو أَحَدُ الأمور التي تتعلق بالقضاء وألف الأندلسيون فيه الكثير واشتهر فيه قُضاة وفقهاء وعلماء.

[تَرِدُ هنا ملاحظة تستحق التوقف للتعليق عليها، ذلك أن: حركة التأليف المستمرة المتكاثرة المتعمقة هذه خلال تلك القرون التي أنتجت مئات الآلاف من المؤلفات - إن لم يكن أكثر- بأعلى مواصفات العمق والدقة والصدق والقوة والإبداع والبناء والجدة الدائمة، يُدْرَك ذلك بالمقارنة ليس بما حولهم يومها بل في كل زمان ومكان وإنسان. كل ذلك دليل على أمور منها:

1 - حب العلم باعتباره نوعًا من العبادة، الذي هذه ثماره.

2 - هذا الثراء بهذه المواصفات دليل على نَهَمٍ عجيب في التعلق بالعلم ومحبته واستقباله والبحث عنه بشوق، حتى غدت سُوقُه نافقةً في كافة البلاد الأندلسية، بهذه النوعية الفاخرة التي يحف بها التنافس في الجودة المتنوعة والغيرة على رقيها، مما جعل الجميع يحبها ويشجعها ويسعى إليها بكل ما يستطيع، حتى امتلأت البلاد بالكتب وكَثُرَتْ المكتبات الرسمية والفردية والتطوعية العامة والخاصة، فما كاد أحدهم نساءً ورجالًا وأطفالًا يشبع منها، وغدا الجميع عندهم علم وكَثُرَتْ مرابعُه ومنابعُه وميادينُه المتخصصة، حتى لم يَبْقَ في الأندلس أُمِّيٌّ واحد. تم ذلك في الوقت الذي لم تكن هناك مدارس رسمية حكومية.

3 - هذا دليل بذاته على أن كُلَّ الشعب كان يقرأ، الأمر الذي يقود إلى القول: إن أهل البلاد غدوا بأكثريتهم مسلمين، وإلا لمن يكتبون؛ إذ كانت أسواقُها عامرة بالمرتادين، حيث من أجله كثرت أسواق الوَرَّاقين والرَّقَّاقِين (النُسَّاخ ومحلات المستلزمات)، حتى كانوا يَتَبَارَوْنَ بتجويد الكتب والعناية بها دقةً وتجليدًا وضبطًا، بأنواعه من العناية الكتبية واللغوية والخطية. بل بلغ الأمر لمن لم يكن كذلك وبقي على دينه غدت بعض هذه المؤلفات مرتعًا له، يُشْبِعُ نَهَمَه منها ويتعامل معها ويعتمد عليها][1].

مهما يكن من أمر فإنه بالإمكان الاعتماد على المعلومات التي بقيت لنا. بين أيدينا العديد من الكتب التي بقيت والمتخصصة في قضاء الأندلس، التي ذهبت واحتوت غيرها منقولات وأخبار منها، بالإضافة إلى كتب التراجِم والمعلومات النافعة، شاملة موسوعية أحيانًا، أمثال: «نفح الطيب» للمَقَّري و: «الإحاطة في أخبار غَرْناطة» لابن الخطيب و: «جذوة المقتبس» للحُمَيْدي و: «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفَرَضِي و: «بغية الملتمس» للضَبِّي و: «الصلة» لابن بشكوال و: «التكملة» لابن الأَبَّار و: «الذيل والتكملة» لابن عبدالملك المراكشي و: «صلة الصلة» لابن الزبير وغيرها. هذه المادة العلمية القوية الجيدة الأصيلة، مع عدم استيعابها وإيجاد فجوات في هذا الموضوع ورغم ما ضاع من مؤلفات قيمة فيها، فإنها تصلح أساسًا لدراسة القضاء في الأندلس وإعطاء صورة مُرْضِيَة، إلى أي حد[2]. للوهلة الحالية بالإمكان تناول الجوانب المتعددة للقضاء في الأندلس فقهًا وتاريخًا ولا فصل بينهما، مدعمة بالنصوص وبالوقائع. ذلك بعد مقدمة عامة في أولية

(1) هذه الزيادة بين المعقوفتين إضافة جديدة لم تكن في البحث المنشور، إنما كُتِبَتْ حين المراجعة بتاريخ يوم الأربعاء 18/ 9/ 2013م.

(2) قارنوا: فجر الأندلس، 639 – 640.

القضاء في الإسلام وأصوله وأهميته ومكانته وقواعده وأحواله. دراسة لفقهه الممارَس عمليًّا في واقع الحياة الإسلامية خلال أَعْصُره المتطاولة وأقطاره الممتدة الشاسعة، ثم تَطبيقات لهذه الأمور وغيرها مما يتعلق بالقضاء والقضاة في الأندلس. فتدرس:

خُطة القضاء الكبرى:

= مكانة القضاء والقاضي في المجتمع والدولة (أفرادًا وجماعات).

= قاضي الجماعة وقضاة الأقاليم والكُوَر والثغور.

= شروط القضاء والقاضي.

= قواعد القضاء.

= أُسسه ومقوماته.

= مسؤولياته واختصاصاته.

= استقلاله وعَلاقاته.

= تَطوره ومراتبه.

= خُطط أخرى تابعة للقضاء أو منبثقة عنه وذات عَلاقة به مثل: خُطة الشورى، الحِسْبَة، المواريث، الأحباس (الأوقاف)، صاحب الشرطة، خُطة الردّ (رد المظالم)، التوثيق، الكتابة للقضاء، الفُتْيَا، الصلاة والخَطابة.

= أعراف قضائية عامة: أساليب تناول جوانب القضية وأَطوارها المتعددة.

= القاضي: تولية القاضي وعزله، اختيار القضاة، مراتب القضاة وأَصنافهم، شروط وعوامل ترقيتهم في مدارج القضاء، شخصيته وحياته: هيأته - ملبسه - مُرَتَّبُهُ، نظره في القضية وأركانها، مسؤولياته ومهماته الاجتماعية، نماذج من القضاة في مختلف العهود في الأندلس، صور من الأقضية في مختلف العهود، قضاء غير المسلمين في المجتمع الأندلسي. = مقارنة بين القضاء في الأندلس وغيره من بقية العالم الإسلامي، مقارنة بين القضاء في الإسلام وغيره.

= كل ذلك يقوم على الأمثلة لأنها تظهر حقيقته وأهميته وقيمته والتزامه.
ثم ينتهي المبحث أو يبتدئ بدراسة لمصادر الموضوع وعرض لِمَا وَصَلَنا منها وبيان ما يُعْتَبَر مفقودًا.

= <u>مكانة القضاء في الأندلس:</u> كانت مكانة القضاء في الأندلس عالية؛ لأنه من الخُطط الجليلة والأمور السَّنِيَّة، يحترمها الجميع ويجدون فيها الحِمَى والاطمئنان وينفرون مما يسيء إليها. كان القضاة من أعلام المجتمع فهمًا وعلمًا واستقامةً وشعورًا بالمسئولية، إليهم يلجأ الناس لا سيما في الملمات. هذه الأمور لا تأتي بالتعليم لكن تقوم على بناء اجتماعي ونفسي معين.

استعراضنا لحياة القضاة يوضح هذه الصفة، كذلك هذا البناء. أثنى كُتّابُنا عليهم وأشادوا بفعالهم وحسن أقضيتهم. يَذْكُرُ ابنُ بَشْكُوال في: «الصلة» (576 – 577، رقم: 1270) في وَصف قاضي الجماعة بقرطبة: ابن رُشْد الجَد (450 – 520هـ) أَنَّه كان: «من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت والهدي الصالح... وكان الناس يلجئون إليه ويعوِّلون في مهماتهم عليه وكان حَسَنَ الخلق سهل اللقاء كثير النفع لخاصته وأصحابه، جميل العشرة لهم حافظًا لعهدهم كثيرًا لبرهم».

مهما التاثت الأمور أو توقع أحد الانحراف فليس ذلك في القضاء؛ إذ كان يُعْزَلُ من تثبت عليه شبهة أو التواء أو هبوط، في تمسكه بالإسلام وضعف في التزامه أو هزال في تقواه أو تحيز في قضائه. لذلك يَصف المَقَّري تمسك أهل الأندلس في هذا الأمر وحرصهم على مستواه فيقول في: «نفح الطيب» (217/1): «وأما خُطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخُطط عند الخاصة والعامة؛ لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي، هذا

وضعها في زمان بني أُمية، ومن سلك مسلكهم، ولا سبيل أن يتسمى بهذه السمة إلا من هو موال للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة فلا يُطلق على حاكمها مُسَدّد خاصة، وقاضي القضاة يقال له: قاضي القضاة وقاضي الجماعة».

لكن غير واضح ما إذا كان: «قاضي القضاة» مستعملًا في الأندلس، إلا أن يكون ذلك في سِنيّ الأندلس الأولى[1]. مِن حق الأندلسيين - وغيرهم من مسلمي بلدان العالم الإسلامي الأخرى - أن يُشيدوا بمناقب قضاتهم[2]. اعتبرت خُطة القضاء من جلائل الخُطط وأعظمها وأسناها، فهي تلي الخلافة[3]. كان القضاء في عُصور الإسلام وأقطاره مستقلًّا في الشكل والمضمون، قاضي الجماعة في الأندلس هو قاضي العاصمة قرطبة يتمتع بالاستقلال وقوة الكلمة وصولة الحق يستشيره الخليفة، أو هو يُشير عليه في أمور كثيرة. ينيبه الخليفة في تولي قيادة الغزوات أو مسائل إدارية في العاصمة يخوله الخليفة مسئولياتها حين يغيب. لكن قاضي الجماعة لا يتولى منصبه إلا بعد تمرسه في كثير من الأحيان في مناصب قضائية أو تولي خُطة الشورى أو خُطط أخرى بالقضاء قبل ذلك. قضاة المناطق الأخرى في المدن والأقاليم وغيرها مستقلون أيضًا، حتى عن سلطة قاضي الجماعة بقرطبة، وإن كان يُستشار في تعيينهم وشؤونهم الأخرى أو قد يُستشار أيضًا علماء وفقهاء عُرفوا بمكانتهم وعلمهم واستقامتهم[4].

هناك ظاهرة ذات أهمية كانت واضحة على الدوام خلال العصور في الأندلس، هي الأخرى تستحق الدراسة. تلك هي توافر أُسر أندلسية قَدَّمت كُلٌّ

---

(1) قارنوا: نفح الطيب، 5/ 270، 385.

(2) نفح الطيب، 3/ 159.

(3) مقدمة ابن خلدون، 2/ 735، 737. العز والصولة، عبدالرحمن بن زيدان، 2/ 9.

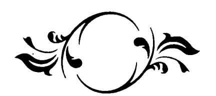
(4) نفح الطيب، 2/ 10.

منها أعلامًا كثيرة في عَصر واحد وخلال قرون فُرادى وجماعات، في ميدان علمي أو اجتماعي أو أكثر. هذا يشير إلى بناء المجتمع وسموه العلمي والاجتماعي وارتفاع مستواه واهتمام الجميع به يسلمونه جيلًا إلى جيل. إننا نجد عددًا من الأسر الأندلسية اشتهر أعلامُها بالقضاء توارثوه عِلْمًا وفقهًا، أهَّلَهم ذلك لممارسته عمليًّا وتوليه في مدينة أو أكثر. من هذه البيوت أو الأسر التي ظهر منها قضاة عديدون، أمثال: آل الليثي بقرطبة وبنو جَحّاف في بلنسية وآل عبدالعزيز في بلنسية وبيت ابن العربي بإشبيلية وآل الوَقَّشي في طليطلة وبلنسية وبنو رُشْد في قرطبة وبنو حَمْدين بقرطبة وبنو المُناصِف في بلنسية ومرسية وقرطبة ومدن أخرى وبنو ابن جُزَيّ في غرناطة وبنو أبي عاصم في غرناطة وآل النُّبَاهي في غرناطة وغيرهم. عديد من هذه الأسر كان منها قاضي الجماعة مثل بنو فُطَيْس وبنو رشد وآل النُّبَاهي. كم من هؤلاء كانوا صورًا في المجتمع ووجهًا له، قاموا بدور في أمور الناس والوقوف في أحداث الأندلس موقف الصدارة والمشاركة في حلها وتوجيهها وجهة خيرة صالحة.

هكذا تتبين مكانة القضاء وأهميته في حياة المسلمين، حيث كان القضاة -إضافة إلى عملهم- يشاركون الناس في قضاياهم ويقفون معهم لحل مشاكلهم وتوجيه أمورهم، كان لهم الأثر الواضح في توجيه حياة المسلمين والمشاركة في إقامتها على المَحَجّة. كان هذا النوع من الرجال معروفًا في المكانة والأمانة والصلاح والاستقامة، هم أهل الفقه والمعرفة قَلَّ منهم من لم يُؤلِّف أو يُدرِّس ويُوجِّه ويُعلِّم، بهذا ولهذا المستوى من العلمية والخلقية. كانت أشد الأمور هم أسرع هروعًا إليها وأكثر حضورًا فيها واستعدادًا لتحمل أعبائها، ذلك هو الطابَع العام، حتى إذا اقتضى الأمر بذل النفس والتضحية بما لديهم. لذلك كانوا يشاركون في

الأعمال الحربية أيضًا متطوعين. ولا غرابة إذ ما داموا أكثر الناس فقهًا وعلمًا فهم أكثر حِمْلًا. العلم وَحْدَه لمن يحترمه مسئولية تامة لجعلهم بهذه المكانة؛ إذ العلم للعمل. لذلك أيضًا كانوا يُسْتشارون في الأمور العامة. كان لحكام الأندلس مجالس شورى تؤخذ فيها آراء القضاة أو من يُعيَّن لهذا الأمر منهم أو من غيرهم في الأحداث والقضايا المختلفة.

خُطة الشورى: من الخُطط المهمة في الأندلس، وهي إحدى الخُطط المتعددة التابعة لخُطة القضاء الكبرى. كان قاضي الجماعة – مكانه قرطبة العاصمة - هو الرئيس الأعلى لعديد من الأمور، وإن باشرها غيرُه في بعض الخُطط الأخرى أو القضاء في غير العاصمة. لدى القضاة الآخرين في الكُوَر والأقاليم الاستقلال المحدود فيما يبدو. قد يكون تولي قضاء الجماعة بعد الممارسة لعدد من خُطط توابع القضاء أو القضاء ذاته في بعض المدن، طبعًا مع توفر الشروط الأخرى العلمية والشخصية والخلقية مع الاستقامة والتقوى. حين انحسرت الأندلس في مملكة غَرْناطة استمرت هذه الخُطط وبقي منصب قاضي الجماعة ومكانه العاصمة غَرْناطَة. لدينا ثَبْتٌ غزير بأسماء من تولى القضاء في مختلف المدن وقضاء الجماعة بقرطبة وفي غيرها، من الممكن أن تُدْرَسَ منه عمومًا ومن قضاة الجماعة بعض النماذج. لعله يتيسر ذلك - بعون الله تعالى - بعد وقت إنجاز دراسة قاضي الجماعة بقرطبة: منذر بن سعيد البلوطي (265 – 355هـ = 878 – 966م)، جعل البعض ولادته سنة 273هـ (886م). دراسة هذا القاضي نموذج طيب لدراسة القضاء والحياة القضائية في الأندلس***



موارد ومراجع بحث:
«القضاء ودراسته في الأندلس»

«القرآن الكريم».

سُنَنُ التِّرْمِذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (209 - 279هـ)، بإشراف عزت عبيد الدعاس، حمص، 1387 هـ = 1969م.

صحيح مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القُشَيْري النيسابوري (206 - 261هـ)، بإشراف محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، 1375هـ = 1955م.

الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب (713 - 776هـ)، تحقيق محمد عبدالله عِنان، القاهرة، 1375هـ = 1955م.

أخبار القضاة، وَكِيع (306هـ)، تحقيق عبدالعزيز مُصطفى المراغي، القاهرة، 1366هـ = 1947م.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالبَر (368 - 463هـ)، تحقيق محمد علي البَجَّاوي، القاهرة، 1380هـ = 1960م.

الأعلام، خير الدين الزِّرِكْلي، القاهرة، 1957م.

إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قَيِّم الجَوْزِيّة (691 - 751هـ)، بإشراف محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة، 1374هـ = 1955م.

البداية والنهاية في التاريخ، ابن كثير (701 - 774هـ)، القاهرة، دون تاريخ.

بغية المُلْتَمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ابن عَمِيرَة الضّبِّي (599هـ)، مجموعة: تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم: 6، القاهرة، 1966م.

- تاريخ علماء الأندلس، أبو الوليد ابن الفَرَضِي (351 - 403هـ)، مجموعة: تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم: 2، القاهرة، 1966م.

- تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمه عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955م.

- تذكرة الحُفَّاظ، شمس الدين الذهبي (673 - 748م)، الهند (حيدر آباد الدكن)، 1375هـ = 1955م.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عِيَاض (476 - 544هـ)، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، بيروت، 1384هـ = 1965م.

- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأَبَّار (595 - 659هـ)، طبعة العطار (من تراث الأندلس، رقم: 5)، القاهرة، 2375هـ = 1955م.

- تهذيب التهذيب، ابن حجر العَسْقَلاني (773 - 852هـ)، الهند (حيدر آباد الدكن)، 1325هـ.

- جذوة المُقْتَبِس، الحُمَيْدِي (420 - 488هـ)، مجموعة: تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم: 3، القاهرة، 1966م.

- الحُلَّة السِّيَراء، ابن الأَبَّار (595 - 659هـ)، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1963م.

- حياة الصحابة، محمد يوسف الكانْدَهْلَوي، بإشراف محمد علي دَوْلَة، دمشق، 1388هـ = 1969م.

- سِيَر أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي(673 - 748هـ)، القاهرة، تحقيق إبراهيم الأبياري، 1957م.

- الصلة، ابن بَشْكُوَال (494 – 578هـ)، مجموعة: تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم: 4، القاهرة، 1966م.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد (168 – 230هـ)، بيروت، 1377هـ = 1957م.
- العز والصولة في معالم نُظم الدولة، عبدالرحمن بن زَيْـدَان، الرباط، 1382هـ = 1962م.
- عمر بن الخطاب قاضيًا ومشرعًا، محمد عارف مصطفى فهمي، القاهرة، 1970م.
- فجر الأندلس، الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1959م.
- القضاء في الإسلام، محمد سلام مدكور، القاهرة، 1384هـ = 1964م.
- القضاء والقضاة، محمد شهير أرسلان، بيروت، 1389هـ = 1969م.
- قضاة قرطبة، ابن حارث الخُشَنِي (361هـ أو بعدها)، مجموعة: تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم: 1، القاهرة، 1966م.
- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، ابن حارث الخُشَنِي (طبعة العطار)، القاهرة، 1372هـ.
- الكتيبة الكامنة، لسان الدين ابن الخطيب (713 – 776هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1963م.
- المَرْقَبة العليا فيمن يستحق القضاء والفُتْيَا، أبو الحسن النُّبَاهي (713 – بعد 792هـ)، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: تاريخ قضاة الأندلس، القاهرة، 1948م.
- معجم البلدان، ياقوت الحَمَوي (574 – 626هـ)، بيروت، 1376هـ = 1957م.

- المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد المغربي الأندلسي (610 - 685هـ)، (بالاشتراك مع آخرين من بني سعيد)، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة، 1964م.
- المُقْتَبِس من أنباء أهل الأندلس، ابن حَيَّان القرطبي (377 - 469هـ)، قطعة منه، تحقيق ودراسة الدكتور محمود علي مكي، القاهرة، 1390هـ = 1971م.
- مقدمة ابن خَلْدُون، ابن خلدون (732 - 808هـ، تحقيق ودراسة الدكتور علي عبدالواحد وافي، القاهرة، 1386هـ = 1966م.
- ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، ابن حزم الأندلسي (384 - 456هـ)، تحقيق سعيد الأفغاني، دمشق، 1379هـ = 1960م.
- النظم الإسلامية: نشأتها وتطورها، الدكتور صبحي الصالح، بيروت، 1965م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، أحمد المَقَّري التِّلِمْساني (986 - 1041هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1388هـ = 1968م.
- وفيات الأعيان، ابن خِلِّكان (608 - 681هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1969م.

نُشِرَ هذا البحث: «القضاء ودراسته في الأندلس» في مجلة: «كلية الإمام الأعظم» - بغداد، العدد الأول، 1392هـ = 1972م. تَمَّتْ مراجعته ليكون أحد بحوث كتاب «أندلسيات».



الأندلسُ قَضاؤه وقُضاتُه

القضاء الإسلامي عمومًا والأندلسي منه، موضوع جديد على البحث والدراسة والتقديم في ميادين كثيرة، حتى مواقع التدريس. يكاد يكون مُبْعَدًا، بقدر أهميته ومكانته وتوفر مادته العلمية، إذ لَيبدو شِبْهَ مهملٍ إلى حدٍ كبير. أسبابٌ عِدّة تُضْفِي عليه أهميةً كبرى. كما لا بد أن يُنْظَرَ خلال تقديمه الانتفاعُ به حاضرًا، تُزَيّن به الميادين: ترتيبَ سَمْتٍ وتناولَ أُسلوبٍ واتساعَ شُمُولٍ متكامل، وإقامةَ بناءٍ واحتمالَ أعباءٍ وتحقيقَ ارتقاء. يتبين ذلك خلالَ إلقاءِ نظرة فاحصة على نشأته وتوسعه في المشرق الإسلامي ومغربه الأندلسي سواء. كل ذلك يَتِمّ تناوُلُه منذ أيام الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقديمُ نماذجه ونوعيته وسِماته وصِيَغه. يجري التركيز خلال الحديث عن متعلقاته وارتباطاتها، وشواهد مُعْتَمَداته واستشهاداته من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة. ذلك أمر باعتباره واحدًا من نِتاجات الحضارة الإسلامية، حضارة التوحيد والعقيدة والالتزام الواضح المتعامَل في المجتمع.

يتضح الأمر جليًّا من اطلاع عام على أيٍّ من جوانب الحضارة الإسلامية ومنهجها ومنجزاتها، مثلما مواقعها وأماكنها وبلدانها، تجدها بذات الطبيعة، ذلك لتوَحُّد مرجعيتها، هذا ما نجده في الأندلس بوضوح كامل. الحضارة الإسلامية هي وَحْدَها التي تمتلك كل هذه المؤهلات، حضارة إنسانية ذات السبق والابتكار والتَميُّز، بكل الألوان الإيمانية والخلقية والسلوكية، بنِتاجاتها الجميلة الكريمة العظيمة وموازينِها وميادينها ومحاضنها، بها تحيا وعلى هديها تقوم وبمضامينها تلتزم وتدوم. تجدها رائدة للخير، إلى حدٍّ يمكن القول: إن القضاء فيها يُعْلِنُ خيريتَها الشاملة التي لا تُبارَى، ورغمه فإن باطنَها ومُكْنَتَها وقوتها دومًا أفضلُ وأمكن وأعلى

من ظاهرها، أي: طاقتها المدخرة Potential Energy، لا حدود لمُكْنَتها في خيريتها المترقية، كل ذلك تجده في موضوعنا عن: «الأندلسُ قضاؤه وقُضاتُه».

بذلك هي أو غيرها عكس ما عداها، خارج حدود الإسلام، تلك التي: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (الكهف، 18)، إذ من أين يا تُرى يأتون بغيره، وكل ينفق مما عنده.

لابد من الإشارة إلى أن الحضارة الإسلامية – والأندلسية شاهد لها - حضارة مؤسسات، القضاء واحد من كرائمها. المؤسسات الحقة النقية المرتبطة بأعلى مرجعية، لا تحيد عنها في كل الأحوال وبدون مبررات، القضاء واجهة له كبرى. باعتباره أحدَ درر مؤسسات الحضارة الإسلامية الفذة، أمر غير ما يَدَّعي البعضُ من تجاهل جانب أو أكثر من مواصفاتها وظواهرها وأدواتها وسِماتها المتحركة المحركة، دليلها الفذ ومبانيها العالية المادية والمعنوية ورائعتُها الحضارية عديمة المثال. ثم ماذا يا تُرَى صَنَعَتْ مؤسسات الحضارات الأخرى ومنها الحضارة الحديثة، مؤسساتٌ سَوّغَتْ لحد كبير الانحرافات والعداوات والعدوانات دون مبرر.

الحضارة الإسلامية هي حضارة المؤسسات، أحدُها قضاؤها الشامخ. لكن حتى لو كانت الحضارة الإسلامية دون مؤسسات فلا يمثل ذلك لها عيبًا؛ لأن ما ينطبق عليها لا ينطبق على غيرها ولا يتوفر لهذا الغير. منابعُ هذه الحضارة الإسلامية وبناؤُها ومكوناتُ التزاماتها متفردةٌ متميزةٌ مترقية، تمتلك ما يُغنيها عن ذلك الذي حُرِم منه غيرُها. كل ذلك يُمَلّك هذه الحضارة مواصفاتٍ مُسْتَمَدةً من منهجها الرباني، الذي يُكَوّن لدى أهلها بناءً كريمًا مُوَجِّهًا حافظًا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة، 8).

هذا البناء يمنحها تفردًا بالقوة النوعية والفاعلية والرقابة الذاتية، يغنيها به وزيادة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون،60). سألت أُمُّ المؤمنين عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسولَ الله، أهم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟ قال: «لا يا بنتَ الصِّدِّيق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون (الله تعالى) أَلَّا يَقْبَل منهم: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون، 61). أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن.

لدى المقارنة إليكم هذه الرائعة وما أكثرها: وضع أبو القاسم خلف بن القاسم بن سهل الأندلسي القرطبي ابن الدَّبَّاغ (393هـ = 1003م) كتابًا عن شُرَيح القاضي (78هـ = 697م): «أقضية شُرَيح»، لعله مفقود. لتولي شريح القضاءَ، اختيار له قصة رائعة وجميلة وطريفة كذلك، ذلك: أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ذهب إلى سوق الخيل في المدينة المنورة ليشتري حِصانًا، فساوم واتفق مع أعرابي على شراء فرسه، فركبه ليجريه بنفسه فعطب. أعاده للرجل، قال له: خُذْ فرسك. فقال الرجل: لا. قال عمر: اجعل بيني وبينك حَكَمًا. اختار الرجل: شُرَيْحًا، تحاكما إليه. قال شريح: يا أمير المؤمنين حُزْ ما ابتعتَ أو رُدَّ كما أخذتَ «(بحالته السليمة)». قال عمر: وهل القضاء إلا هكذا؟ سِرْ (لشريح) إلى الكوفة، فبعثه قاضيًا.

فَقَدَ الخليفةُ الراشد عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دِرْعَه، ثم وجده عند نصراني، جاء به إلى هذا القاضي شُرَيْح، وقفا معًا أمامَه، قال الخليفة: إنها درعي لم أَبِعْ ولم أَهَبْ. سأل القاضي النصرانيَّ: ما تقول فيما يقول أميرُ المؤمنين؟ قال: ما الدرعُ إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. التفت القاضي إلى أمير المؤمنين يسأله: يا أمير المؤمنين! هل من بَيِّنة؟ ضحك وقال: أصاب شريح، ما لي بَيِّنة!! فقضى شريح بالدرع للنصراني، الذي أخذ الدرعَ ومشى خارجًا بها!!! لكنه ما أن سار عنهم

خُطُواتٍ، حتى عاد ليقول: أَمَّا أنا فأشهدُ أن هذه أحكامُ أنبياء، أميرُ المؤمنين يُدينُني إلى قاضيه فيقضي عليه!!! أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، ما الدرع إلا دِرْعُك يا أمير المؤمنين، أتبعتُك وأنت منطلقٌ به، فأخرجتُه من بعيرك. قال الخليفة: أما إذا أسلمت فهي لك. هكذا ترون ثمار هذا البناء الإسلامي ونوعيته وتفرده التي تُقدَّم دومًا هذا النِّتاج المتميز: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم، 24 - 26).

هذا التوجه والفهم والواقع كان ماثلًا في عالم الإسلام وحضارته، منه الأندلس إحدى أو من أوائل جواهر هذا العالم الكبير. حتى لقد رفض العديد من العلماء القضاءَ حين عُرِضَ عليهم؛ خوفًا من وقوعهم في حقوق الناس، من أمثال الإمام أبي حنيفة النُّعْمان (151هـ)، ثم: القاضي أبو بكر محمد بن بشير المَعافِري الأندلسي (198هـ)، وأبو محمد يحيى بن يحيى الليثي (234هـ)، الذي إليه انتهت رياسة الفقه بالأندلس، والإمام الحافظ القُدْوة شيخ الإسلام أبو عبدالرحمن الأندلسي القرطبي بَقِيّ بن مَخْلَد (276هـ)، وغيرهم كثير وكثير.

إذن يمكن القول: القضاء الأندلسي وقضاته أَحَدُ دُرَرِ هذه الحياة الإسلامية وحضارتها الراقية المترقية ومناراتها السامقة العالية، لارتباطها بالإسلام واستمدادها منه وقيامها على عقيدته وشريعته: عبادةً وأخلاقًا ومعاملاتٍ ماثلة ممثَّلة.

اعتاد المجتمع الأندلسي الذي أقامه الإسلامُ، به كان وجوده، رعايةَ الحقوق كافة مثله تمامًا لغير المسلمين. وَجَدُوا فيه الظل الوارف، والعيش الأمين والكنف

اللين، يوم كان لا يتوفر ذلك لأي قوم في مجتمعاتهم. كم من القضاة من امتنع ومنع أميرًا وخليفة أندلسيًّا أن يحقق له ما أراد من أمر قد يكون مباحًا شراءَ أرض أو رغبة، امتنع القاضي وتوقف، مما جلب الشكر للقاضي. أرأيتم كيف مَنع فقهاءُ قرطبة وقضاتُها الحاجبَ المنصورَ محمد بن أبي عامر (392هـ = 1002م) مِنْ شِراء: «أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة».

ظهر في الأندلس أعلام من القضاة كثيرون، عُرِفَ منهم المئات إن لم يكن الآلاف، ألْتَقِط من فِئاتهم وأوقاتهم وأحداثهم، هذه الأمثلة البينة:

(1) مهدي بن مُسْلم: من مُسْلِمة الإسبان ومن أقادم القضاة في الأندلس أيام الولاة، قال له الوالي الأندلسي: عُقْبَة بن الحَجَّاج السَّلُولي (123هـ)، أحد الولاة الذين اسْتُشْهِدوا خلف جبال البُرت (Pyrenees, Pirineos)، حين استقضاه على قرطبة واستخلفه عليها نائبًا عنه، أَمَرَه بالقضاء بين أهلها. كان ابنُ مُسْلِم (من أهل العلم والورع والدين المتين. كما عُرِفَ بعُلُوّ مقدرته الأدبية وتمكنه في الفقه. لذا طَلَبَ منه الوالي عُقْبَة أن يكْتُبَ عهدَ القضاء قائلًا له: «أُكتب عهدَكَ لنفسك»، كتبه ابنُ مُسْلِم بخط يده. أوصى الواليَ فيه «الظاهر أن القاضي مهدي كتب الكتاب بنفسه كأنه موجه من الوالي عقبة، ضمنه توجيهات الوالي، تولى مهدي بن مسلم كتابتها من لسانه»، مما جاء فيها أنه وجهه وأوصاه: «بتقوى الله وطاعته والبحث عن مرضاته في السر والعلانية، معتصمًا بحبله المتين وعُرْوَتِه الوُثْقَى، موفيًا بعهده متوكلًا عليه واثقًا به متقيًا منه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل، 128). وأمره أن يتخذ كتابَ الله وسنةَ نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا يَهْتَدي بنورهما، وعلمًا يَعْشُو إليهما وسراجًا يستضيءُ بهما، فإن فيهما هُدَىً من كل ضلالة وكشفًا لكل جهالة، وتفصيلًا لكل مشكل وإبانة لكل

شبهة، وبرهانًا ساطعًا ودليلًا شافيًا ومنارًا عاليًا، وشِفاءً لِمَا في القلوب وهدىً ورحمةً للعالمين»). صار هذا العهد فيما بعد مرجعًا، مما يُعْتَبَر أَصلًا من أُصول العهد في القضاء. شبيهًا برسالة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في القضاء إلى أبي موسى الأشعري (52هـ = 672م).

(2) **أبو أيوب سليمان بن الأسود** (273هـ = 886م) المشهور بعدله. مواقفه كثيرة أذكر منها هذه اللوحة الجمالية العجيبة:

محاكمة عباس بن فِرْناس (274هـ = 887م) المشهور بمحاولات الطيران: اتَّهَمه أناسٌ لغرابة ما كان يقوم به من تجارب ومبتكرات وغموضها عن بعضهم، أثارت عليه نفرًا قد أَشْكَلَ فَهْمُهم لها؛ لجهلهم وإشكالها عليهم. اشتكوه إلى القاضي القرطبي: سليمان بن الأَسْوَد الغافقي، المشهور- مثل بقية القضاة - بعدله ووَرَعه واستقامته، الذي عُمِّر مئة عام[1]، عندها جرى استدعاؤه، كانت جلسة فذة، استُعْرِضَتْ فيها أقوال الاتهام والدفاع والشهود، كان بين الشهود الأمير محمد[2] (273هـ) بن عبدالرحمن الأوسط نفسه، حضر وجلس كأحد الشهود!!!

إذن: «عُقِدت على عباس بن فِرناس وثيقة، شَهِدَ بذلك عليه من العامة جماعةٌ، عند سليمان بن أَسْوَد، فمنهم مَنْ قال: سَمِعْتُه يقول: مَفاعيلٌ مَفاعيلٌ، ومنهم مَنْ قال: رأيتُ الدمَ يفور من قناةِ داره، إلى أُحْموقاتٍ من غَبْراءَ شهودٍ عليه، ذَوي جهل وفَدامة، كشفهم القاضي عنه، فلم يجد طائلًا. وشاور الفقهاء فيما قُيِّد منها، فلم يَجِدْ إلى عقابه سبيلًا، فأفلتَ عباس بجُرَيْعة ذَقنِه»[3].

---

(1) تاريخ علماء الأندلس،155-156. تاريخ قضاة الأندلس، 56-59.

(2) الحُلَّة السِّيَراء،1/ 119.

(3) المقتبس، ابن حَيَّان، 1/ 2/ 243. الغبراء: عوام الناس. الفدامة: الغباء. أفلت بجريعة ذقنه: نجا من التلف.

قال ابنُ فرناس، للذين اتهموه بأعماله الكيماوية وتراكيب موادها، وجِدَّة أشكالها وأحوالها، لاستخراج أمور متكونة من ذلك، ببديهية مُسَلّمة: لو أتيتُ بالطحين ووضعتُه بالماء وعجنتُه، ليكون منه العجين، وأضعه على النار في التنور ليصبح خبزًا، وهو مختلف الحال، أيكون ذلك مُحَرّمًا أم لنفع الناس؟ قالوا: لنفع الناس. قال: هذا ما أصنعه لأستخرج ما ينفع الناس. إنه يمزج الشيءَ بالشيء ويستعين بالنار على ما مُزِجَ، فيأتي مما أَمْزُجُ شيءٌ فيه منفعة للمسلمين. ثم شَرَحَ لهم أوامر الله تعالى ونبيه محمد ﷺ، في أن يعمل كل إنسان مسلم ما يتفق مع مواهبه، وأن مَنْ مَلَكَ عِلْمًا ولم ينفع به المسلمين فقد أَثِمَ؛ لأن العمل بمقدار الكفاءات من الفروض الكِفائية. عندها حكم القاضي والفقهاء في الجلسة ببراءة عباس بن فرناس وأثنوا عليه وحثوه على أن يستزيد من عمله وتجاربه. كما شَهِدَ له الأمير محمد بذلك. حيث خرج بريئًا بل وقد شجعه القاضي للمضي في هذا السبيل، وعَمَلِ كُلِّ ما ينفع الأُمة. لم يتكرر ذلك بعده أبدًا، لا عليه ولا على غيره وقد فهموا.

(3) منذر بن سعيد البَلُّوطي (265-355هـ)، قاضي الجماعة بقرطبة. قاضي الجماعة بقرطبة أرفع منصب قضائي في الأندلس، يقابل قاضي القضاة في المشرق. تولى القاضي البلوطي قبل ذلك وظائف منها إدارية ودبلوماسية وقضائية، تُوِّجت بقضاء الجماعة بقرطبة. كان عالمًا جليلًا وفقيها مرموقًا وخطيبًا بليغًا وأديبًا وشاعرًا يرتجل الشعر الجيد: «مع العلم البارع والمعرفة الكاملة واليقين في العلوم والدين والورع وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق. كان لا تأخذه في الله لومة لائم وقد استسقى غيرَ مرةٍ فسُقي»[1]. تولى قضاء الجماعة لمدة «ستة عشر

---

(1) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 16/ 173-174-178. نقلًا عن ابن بشكوال من كتابه: «الصلة».

عامًا، لم يُحْفَظْ عليه فيها جَوْرٌ في قضية ولا قَسْمٌ بغير سَوِيّة ولا ميلٌ بهوى ولا إصغاءٌ إلى عناية» كما كان ثابت الحجة وذا منظر جميل وخلق حميد وتواضع لأهل الطلب وإقبال عليه، وكان مع وقاره التام فيه دُعابة مستملحة وله نوادر مستحسنة» . مواقفه كثيرة معروفة، مع الجميع في كافة الأحوال، من ذلك أن الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله، لَمَّا بنى مدينة الزهراء وتأنق بها وأكثر الإنفاق عليها، وكان القاضي خطيبَ الجمعة في مسجدها، عَرّضَ فيها بالخليفة، وتلا قولَ الله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (الشعراء، 128 - 130). ثم إن الناصر - مع كل ذلك - لم يقبل مشورة ابنه ولي عهده بعزل هذا القاضي البلوطي قائلًا: إني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبين الله شفيعًا مثل منذر[1] .

(4) أبو المطرف: عبدالرحمن بن بِشْر بن غَرْسِيَه، المعروف بابن الحَصَّار (422هـ = 1030م)، قاضي الجماعة بقرطبة، من مُسْلِمَة الإسبان، أثنى عليه العديد من المؤرخين.

(5) أبوعمر: يوسف بن عبدالله بن محمد عبدالبَرّ (رجب 362 - 463هـ = 978 – 1071م): الإمام العلامة حافظ المغرب شيخ الإسلام، صاحب التصانيف الفائقة. طلب العلم وأدرك الكبار وطال عمره وعلا سنده وتكاثر عليه الطلبة. جمع وصنف ووثق وضعف، سارت بتصانيفه الركبان. صَحِبَ ابنَ الفَرَضِي (403هـ = 1012)، لازمه وأخذ عنه كثيرًا من علم الحديث وعلم الأدب. خضع لعلمه العلماء، تلقى العلم على كبار العلماء، وحَدّثَ عنه الكثير، منهم ابن حزم الأندلسي والحافظ أبو علي الغساني والحافظ أبو عبدالله الحُمَيْدي (488هـ) الذي قال عنه: «أبو عمر فقيه

---

(1) نفح الطيب، المَقَّري، 1/ 364-376، 570-571 - 576، 2/ 16 - 22.

حافظ مُكْثِر عالم بالقراءات وبعلوم الحديث والرجال» (والرواة). دأب ابن عبدالبَر في طلب الحديث وافْتَنَّ به وبرع براعة فاق بها مَنْ تقدمه من أهل الأندلس، كان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه والمعاني، سكن المغرب مدة ثم عاد إلى الأندلس فسكن دَانِيَة Denia وبَلَنْسِيَة Valencia وشَاطِبَة Jativa. وقد تولى قضاء مدينة أُشْبُونَة (لشبونة) Lisbon, Lisboa عاصمة البرتغال اليوم، مدةً. بلغ رتبة الأئمة المجتهدين حيث كان إمامًا دَيِّنًا ثقة متعففًا عَلَّامَة متبحرًا صاحب سُنَّة واتباع. وكان إمام عَصره وواحد دهره. قيل إنه لم يكن بالأندلس مثله في الحديث وهو أحفظ أهل المغرب. له مؤلفات كبيرة وكثيرة في الحديث والفقه والتاريخ منها كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» و«جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله» و«الدرر في اختصار المغازي والسِّير». وقال عنه ابن حزم الأندلسي: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه، نفع الله بعلمه ومؤلفاته وتدريساته، وهو أحد من روى الحديث الشريف في بيعة العقبة: «بايَعْنا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السمع والطاعة في اليسر والعسر والمَنْشَط والمَكْرَه وألَّا ننازع الأمرَ أهلَه وأن نقول أو نقوم بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم».

(6) أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد بن سعيد الأندلسي الوَقَّشي (489هـ = 1096م)، كان دَمِث الأخلاق حَسَنَ المُعاشرة واسعَ المعرفة بفنون العلم والأدب عالمًا باللغة والنحو والأدب ومعاني الشعر حافظًا للحديث بارعًا في الفقه وفي الفرائض قديرًا في المنطق والفلسفة ومُحَقِّقًا لعلم الحساب والهندسة والموسيقى. أديبٌ بليغٌ وشاعرٌ مُجيدٌ يحومُ على المعاني ويسوقها في التراكيب السهلة. مِنْ أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الأشعار والعَروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض وغيرها، وهو كما قال الشاعر في وصفه:

وكــان مــن الـعـلـوم بـحـيـث يُقْضَى لــه في كُــلِّ عِــلْـمٍ بـالـجـمـيـع

= يذكر المَقّري واحدةً من طرائف الوَقّشي الذكية التي تدل على سرعة البديهة: «حضر يومًا مجلس ابن ذي النون، فقُدِّمَ نوع من الحلوى يُعْرَف بآذان القاضي، فتهافت جماعة من خواصِّه عليها يقصدون التندير به، وجعلوا يُكثرون من أكلها، وكان فيما قُدِّم من الفاكهة طبق فيه نوعٌ يُسمى عيون البقر، فقال له المأمون: يا قاضي أرى هؤلاء يأكلون أُذنيكَ، فقال: وأنا أيضًا آكل عيونهم، وكشف عن الطبق، وجعل يأكل منه، وكان هذا من الاتفاق الغريب» العجيب جدًّا.

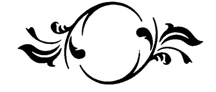
(7) أبو عبدالله محمد بن يَحيَى بن بكر الأشعري (741هـ=1340م)، قاضي الجماعة بغرناطة. أحد العلماء الشهداء في معركة طَرِيف

La Batalla del rio Salado

(يوم الاثنين 7 جمادى الأولى 741هـ = 1340/10/30م). «فُقِدَ رحمه الله تعالى في المَصاف يوم المناجزة بِطَرِيف». ذُكِرَ أنه وقع عن بغلة وأراد أحدُهم إنهاضه، قال له: انصرف هذا يوم الفرح، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾. وهو أحد أشياخ الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب.

إن مجتمعًا يكون علماؤه وقضاته وفقهاؤه بهذا المستوى من الالتزام، بمنهج الله تعالى وولائه له والحفاظ عليه، يجعل هؤلاء حُرَّاسًا وقادة حقيقيين له، يُقَدِّمُونَ ذلك على كل أمر، لا تخاف عليه. يواجه الأحداث والمشاكل، يتولى عِلاجَها وحِمايتَها والتقدمَ بها عاليًا. ذلك ما جعل الأندلس تقاوم جموع المشاكل الداخلية والخارجية لقرون، مما لم يُوقِعه ويتوقعه. يتكشف بذلك سر من أسرار هذا المنهج الرباني الكريم الذي يميط اللثام عن قوته ومَنَعَته ومناعته أمام مشاكل الحياة والرغبة في إقامة حياة إنسانية تسعد بني البشر أجمعين***

تم نشر مختصر هذا البحث: «الأندلس قضاؤه وقضاته» في مجلة: «الكويت» الشهرية التي تصدرها وزارة الإعلام، العدد: 336، ذو القعدة 1432هـ = أكتوبر 2011م. ثم جَرَتْ مراجعتُه إعدادًا ليكون بتمامه ضمن البحوث المضافة لهذا الكتاب: «أندلسيات».



يَحْيى الغَزَال[1]

يَحْيَى بن حَكَم الجَيَّاني[2] (154 - 250هـ = 770 - 864 م): السياسي اللبق. شاعر الأندلس وحكيمها. عُمِّر قُرابة مائة سنة. عاصر خمسة أُمَراء هم: عبد الرحمن (الأول) الداخل وهشام والحكم وعبد الرحمن (الثاني) الأوسط ثمّ ابنه محمد. يقول في ذلك:

أَدركـــتُ بـالمِصْرَ مـلوكًـا أربعهْ ... وخـامـسًـا هـذا الـذي نحـن معهْ

لُقّب بالغَزَال لجماله (وَسامته) وحسن هيئته، كان طويلًا قَويَّ البنية. دخل ذات يوم على الأمير عبد الرحمن الأوسط (238هـ = 852م) فحيّاه قائلًا: جاء الغَزَال بحسنه وجماله. وطلب إليه أن يُجيز[3]، قال الغزال:

قـال الأمـيـرُ مُـداعـبًـا بمقالهِ ... جـاء الـغـزالُ بحسنـه وجمالـهِ

أيـن الجـمـالُ مـن امـرئ أربـى على ... مُـتـعـدّد السبعيـن مِـنْ أحوالهِ

أيـن الجـمـالُ لـه الجـمـالُ مِـنِ امرئٍ ... ألـقـاه ريـبُ الـدهـر في أغـلالـهِ

وأعـــاره مِـن بـعـد جـدّتـه بِـلَـىً ... وأحـــال رونـــقَ وجـهـه عـن حـالـهِ

★★★

كم يحزّ الألم في نفوسنا حين نعلم أنّ أكثر نِتاج شاعرنا الفذّ قد فُقِدَ. كما تتملكنا الدهشة لجهلنا بأخباره وتاريخه، قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط، الذي تولّى الحكم بين 206 و238هـ (822 – 852م).

---

(1) نُشِرَ في مجلة: «صوت الإسلام»، بغداد، 1965م.

(2) انظروا ترجمته: نفح الطيب، المَقّري، 2/ 254 – 262.

(3) الإجازة في الشعر: أن يزيد الشاعر على كلام غيره بعد فراغه منه، أتمّ بيتًا أو أكثر، أتى مُطارِحُه بصدره أو أوّله.

الغَزَال شخصية ممتازة نادرة متعددة الجوانب، ملتزمة بأخلاقيات الإسلام، سَمْتًا عامًّا واضحًا - كغيره من أمثاله - كما سنراه ماثلًا. فهو السياسي البارع والدبلوماسي الناجح (والغيور الشجاع). كان ذكيّ الفؤاد سريع البديهة قويّ الحجّة حاضر النكتة. كما كان شاعرًا مطبوعًا وحكيمًا مجرِّبًا، يُرْسِلُ الشِّعرَ على سجيته دونما تكلّف، بعيدًا عن الزخرفة والرتوش، عميقَ المعنى صادق العاطفة، سَلِسَ الأُسْلُوبِ مطعَّمًا بتجاربه الطويلة مزدانًا برقة نفثات قلبه الذكي وروحه المرحة.

سنلمس ذلك خلال ما يُعرض من شعره ويُذكر من أحداث كان بطلَها. كان بحقٍّ شاعرَ الأندلس وحكيمَها في عصره. جاء شعره تعبيرًا عميقًا لحياته المملوءة بالمخاطر، ووصفًا أخّاذًا لتصاريف زمانه وتقلبات دهره، وصورةً صادقة لشخصيته التي أَبَتْ التذلّل والخضوعَ، مع قدرةٍ على اختراع المعاني وإشاعة روح الفكاهة، في أحرج المواقف.

الحقُّ تلك وغيرُها صفاتٌ عاشها المجتمعُ الأندلسي المسلم، وهو بها غني. أُمورٌ رَبَّى الإسلامُ عليها أهلَه فتفرّدوا بها. مِنْ ذلك ما رواه ابنُ دِحْيَة في كتابه «المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب»، ملخّصه: أنّ الأميرَ عبدَ الرحمن الأوسط ولّاه قَبْضَ الأعشار واختزانَها، فارتفعت الأسعار بسبب القحط، باع الغَزَال كلّ الطعام المخزون. ثمّ نزل الغيث ورَخُصَ الطعامُ؛ إذ لمَّا أُعلم الأميرُ بصنعه قال: خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعامًا. أَبَى الغزالُ وقال: إنّما أشتري لكم من الطعام عدد ما بعتُ من الأمداد. لكنّ الأمور انتهت بحمله إلى سجن قرطبة، فبعث إلى الأمير بقصيدة مطلعها:

بعض تصابيك على زينبِ ... لا خير في الصبوة للأشيبِ

ثمّ يمدحه بقوله:

مَــن مُـبْـلِـغٍ عـني إمــامَ الهُـدى — الــــوارثَ المجــدَ أبًـــا عـــن أبِ
إنـــي إذا أَطْـــنَـــبَ مُـــدّاحُـــه — قَـصَـدْتُ في الـقـول ولم أُطـنـبِ
وأصـبــح المــشــرق مــن شـوقـه — إلـيـك قـد حــنّ إلى المـغـربِ

ثمّ يذكر موضوع الطعام فيقول:

إن تـــرد المـــال فـإنــي امــرؤ — لم أجمــع المـــال ولم أكـسـبِ
إذا أخـــذتَ الحـــقّ مـــنّي فلا — تـلـتـمـس الـربــح ولا تـرغـبِ
قـــد أحـــســـنَ الله إلـيـنــا معًـا — إن كــان رأسُ المــال لم يـذهـبِ

فاستحسن الأمير ذلك وأطلق سراحه.

شعره كشخصيته متعدّد الأغراض، من حكمة وتاريخ وزهد إلى غزل وهجاء وغيرها. إذا كان هجاؤه بعيدًا عن الفحش، فموسوم بالسخرية والتهكّم. من ذلك ما يرويه ابنُ عَبْدِ رَبِّه في العِقْد (الفَريد): أنّ القاضي مُعاذًا وَلَّى أوقافَ قُرطبة رجلًا ظنّه خَيِّرًا، فخابَ ظنُّه، فقال الغَزَال:

يـقـول لـي الـقـاضـي مُـعـاذٌ مشاورًا — ووَلّى امرءًا فيما يَرَى من ذوي الفضلِ
فديـتـك مــاذا تحـسـبُ المـرءَ صانعًا — فقلت: ومـاذا يصنـع الـدبّ بالنحل
يــدقّ خـلايـاهــا ويـأكــل شَهْدَهـا — ويـتـرك للذبان ما كـان من فضلِ

اعتُبِر شاعرُنا من الرواد الأوائل الذين أنتجوا في ميدان الشعر القصصي أو القصص الشعري، الذي نجده مبثوثًا فيما بقي لنا مِنْ نِتَاجِه الذي ضاع أكثره. يروي لنا ابن عَمِيرَة الضبّي في بُغية المُلْتَمِس أنّ حبيب بن أحمد الشُّطَجَيْري (حوالي سنة 430هـ) جمع ديوان شاعرنا ورتّبه على حروف المعجم، لكنّه مفقود لشديد الأسف. كما إنّ أُرْجُوزتَه عن تاريخ الأندلس - ويا لسوء حظ الأدب العربي أو العالمي

- لاقت نفسَ المصير. ذكر المَقَّري[1] نقلًا عن ابن حَيَّان القُرْطُبي (469هـ) أنّ ليَحْيَى ابن حَكَم الشاعر المعروف بالغَزَال في فتح الأندلس أُرجوزةً حسنة مطوّلة، نَظَمَ فيها ذِكْرَ السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعِدَاد الأُمراء عليها فأجاد وتقصّى. أمّا حِكَمُه فتطالعنا حين نقرأ شعره. يحدّثنا مثلًا عن القصة القديمة الحديثة (التفاضل بين زوج كبير غني وفتىً شاب فقير)، قائلًا:

وخـيِّرهـا أبـوهـا بـين شيـخٍ	كـثـيرِ المـال أو حَـدَثٍ فـقـيرِ
فـقـالـت خُـطـتـا خـسـفٍ ومـا إنْ	أرى مـن حـظـوة للمستخيرِ
ولـكـن إن عَـزَمْـتُ فـكـلّ شـيء	أحـبّ إلـيّ مـن وجـه الـكـبـيرِ
لأنّ المـرء بـعـد الـفـقـر يُـثـرى	وهـذا لا يـصـير إلى صـغـيرِ

***

تتجلّى قوّة صفاته الشخصية في سفارتيه:

الأولى: إلى ملك القُسْطَنْطِينِيّة Costantinople سنة 225هـ (840م)، خلال حكم الأمير الأندلسي عبد الرحمن الأوسط.

الثانية: إلى النورمان (الاسكندنافيون = الدانماركيون The Vikings)، الذين اعتاد المؤرخون المسلمون - لا سيما الأندلسيون - نَعْتَهم بـ(المجوس). استغرقت هذه السفارة عشرين شهرًا. اكتسب خلالها تجارب جديدة أنتجت لنا شعرًا طريفًا. ملخصها: أنّه في سنة 230هـ (845م) هاجم النورمان الأندلسَ غفلةً، في نحو ثمانين مركبًا وتوغّلوا حتى مدينة إشبيلية Sevilla, Seville، فقتلوا ونهبوا وفتكوا بالناس حتى استطاع الأندلسيون تجميع قواهم لحرب الدخلاء، وردّهم وأحرقوا كثيرًا من سفنهم وقتلوا قائدهم. أمام ذلك وَفَدَتْ رُسُلُهم على الأمير عبد الرحمن

(1) نفح الطيب، 3/ 182 (تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1408هـ = 1988م).

الأوسط، تطلب الصلحَ والصداقةَ وتَبادُلَ الرُّسُل. تمشّيًا مع الآية الكريم ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال(8/مدنية)،61]، تَمَّ الصلحُ وأُرسِلَ وفدٌ برئاسة الغَزَال، مع هدية ثمينة. سار مَرْكَبُهم برِفْقَة مركب رُسُل النورمان. لم تذكر المصادر مَن الذين كانوا مع الغَزَال غير يَحيى بن حبيب. في البحر قابلتهم عواصف شديدة وأحدقت بهم الأخطار ومدّ الموت أصابعه إليهم، لكنّهم نجوا بأعجوبة، بقَدَرٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **ورعايته. يسجّل الغَزَال ذلك شعرًا لطيفًا ممزوجًا بالفكاهة حتى في الشدائد:**

قـــال لــي يَحـيـى وصِـــرْنـا ... بـــين مــــوجٍ كـــالجبـــالِ

وتـــولّـتـنــــا ريـــــاحٌ ... مـــن دَبـــــورٍ وشَمـــــالِ

شَـقّـــتْ الـقِـلْـعَـين وانبـــتّـت ... عُـــــرى تـلــك الحـبـــالِ

وتمـــطّـــى مــلــكُ المــوتِ ... إلــيــنــا عـــن حِـيـــالِ

فرأينا الموت رأي العـــيـــن ... حـــالًا بـعــد حـــالِ

لم يــكــن لــلــقــوم فـيـنـا ... يـــا رفـيــقـي رأسُ مـــالِ

❧ ثمّ وصلوا بلادَ النورمان (الدانمارك Denmark حاليًا). يَطّلع – الغزالُ والوفدُ معه - هناك على عادات جديدة وبلاد غريبة. لقد أُعجِبَ به القومُ أيّما إعجاب. استدعى الملكُ الوفدَ لمقابلته: «فاشترط الغَزَالُ عليه ألّا يسجدوا له – كعادة القوم هناك - ولا يُخْرِجَهُمَا عن شيء من سنّتهما»[1] فأجابهم إلى ذلك. فلما مشيا إليه قعد الملك لهما في أحسن هيئة وبَيَّت خُطّة يحتال بها على السفير ويحمله على السجود له، دون إثارة انتباهه. أمر بالمدخل الذي يُفضي إليه، ضُيِّق حتى لا يدخل عليه أحد إلّا راكعًا. فلم يَغِبْ ذلك عن ذكاء الغَزَال. فسار حتى وصل إليه، وبلباقةٍ جلس إلى الأرض ومدَّ رجليه وزحف على إلْيَتِهِ زحفةً. فلما جاز البابَ استوى واقفًا،

(1) المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب، ابن دحية الكلبي، 133 – 141 – 15 (تحقيق الأبياري ورفيقه).

والمَلِكُ قد أعدّ له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة. فما هاله ذلك بل قام بين يديه وحيّاه بما أُعجب به، قال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم. أردنا أن نذلّه - يعني بالاحتيال عليه ليسجد (ينحني) - فقابل وجوهنا بنعليه.

هناك في الدانمارك ناقش علماءَهم فبكّتهم. حتى إنّ امرأة الملك - واسمها نُود (Nud) - أُعجبت به. تكرّرت مقابلتهما ووصل بها الإعجاب إلى حدّ الوله فكانت لا تصبر عنه يومًا حتى توجِّهَ فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم، حتى خاف أصحابه عليه وحذّروه.

سألَتْه يومًا عن سِنِّه فقال مداعبًا: عشرون سنة! كان يناهز السبعين، فقالت: ومن هو من عشرين سنة يكون به هذا الشيب؟ فقال: وما تنكرين من هذا؟ ألم تَرَيْ قَطُّ مُهرًا يُنتَج وهو أشهب؟ فضحكت وأُعْجِبَتْ بقوله، فقال في ذلك:

كلفتَ يا قلبي هوى متعبا	غالبتَ منه الضيغم الأغلبا
إنـي تعلّقت مجوسية	تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله لي حيث لا	يَلْقى إليها ذاهب مذهبا
يا نود ياروض الشباب التي	تطلع من أزهارها الكوكبا
يا بابي الشخص الذي لا أرى	أحلى على قلبي ولا أعذبا
قلت لها يا بابي إنّه	قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجبًا بقولي لها	وإنّما قلت لكي.. تعجبا

هكذا ينجح في سفارته أيّ نجاح ويعود الوفد إلى الأندلس.

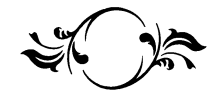
قيل إنّه كان يميل إلى اللهو، ويختلف إلى مجالس الشراب - لعلّ ذلك في شبابه، مما يستبعد تمامًا - بل قيل إنّه لم يذق للخمر طعمًا، لكنه يقول:

وبــالله لــو عُــمِّـرت تـسـعـيــن حجّةً إلى مثلها ما اشتقت فيها إلى خمرِ
ولا طَــرِبَــتْ نـفـسـي إلى مِــزْهَــرٍ ولا تحنّن قلبي نحو عُودٍ ولا زَمْرِ
وقــد حـدّثــونـي أنّ فـيـهــا مــرارةً وما حاجة الإنسان في الشرب للمُرِّ

الحقيقة أنّه قد عُمِّر تسعين سنة وزاد عليها، فنراه حين تأخذ الشيخوخة بتلابيبه يَرثي شبابه الذاهب ويبكي ضعفه المتزايد بشعر يفيض حسرة وأسى:

ألــسـتَ تـرى أنّ الـزمــانَ طواني وبـــدّلَ خَـلْـقِــي كـلَّــه وبَــرانــي
تَحَيَّفني عضوًا فعضوًا فلم يدع سوى اسمي صحيحًا وَحْدَه ولساني
ولو كانت الأسماءُ يدخلها البِلى لقد بَلِـيَ اسمــي لامـتـداد زماني
ومــا لـي لا أَبْـلَــى لتسعين حجّة وسبــع أتـت مــن بعدهــا سنتانِ
إذا عــنّ لـي شـخـص تخيّـل دونه شبيـه ضبـاب أو شبيـه دُخَــانِ
فيا راغبًا في العيش إن كنت عاقلا فـلا وعـظ إلَّا دون لحــظ عِيانِ

أليست هذه الحياة النشطة الحافلة بالنِّتاج والخُلُق التي تقودنا إلى خطوط شخصية عظيمةً، جديرة بأن تسجَّل بيد باحث دقيق في كتاب يأخذ مكانه، تقديرًا لصاحبه وخدمة لتراثنا الأندلسي الجليل !!؟ ***



العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزَنْطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري [1]

الأندلس: جاء اسم « الأندلس» على الراجح من الوَنْدال (Vandals)، القبائل التي احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية (Iberian Peninsula إسبانيا والبرتغال اليوم). سُمّيَتْ باسمهم (Vandalusia)، أي بلد الوَنْدال، نحتها المسلمون - بعد فتحهم إياها - إلى: «الأندلس». تُطْلَقُ «الأندلس» - جغرافيًّا في مصطلح التاريخ الإسلامي عادةً - على كل تلك المناطق التي سَكَنَها المسلمون وحَكَمُوها مِنْ شِبْه الجزيرة الإيبيرية. تشمل كُلَّ البرتغال تقريبًا والقسمَ الأكبر من إسبانيا، على تفاوت في ذلك[2]. ربما أُطلقت «الأندلس» على شبه الجزيرة كافة، التي عُرِفَتْ لدى بعض الكتاب المسلمين باسم: «الجزيرة الأندلسية». تُعَدّ الجزائر الشرقية أو جزر البِلْيَار[3] (ميورقة ومنورقة واليابسة) جزءًا من الأندلس. بينما تعني «الأندلس» حضاريًّا وجودَ المسلمين الطويل الأصيل فيها، حيث وَفَّر ذلك النِّتاج الإنساني النبيل والحضارة الرفيعة التي خَلّفَها المسلمون وعَبَّروا عنها بأكثر مِنْ أُسلوب، خلال القرون الثمانية من وجودهم هناك. كانت الأندلس فيها المَعْبَر المزدحم لجوانب من هذه الحضارة إلى الغرب. إذ كان قبلها يرفل بحلل الجهل وينعم بالهمجية

(1) نشر هذا البحث في: «مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد»، العدد 22، مدريد، 1983 - 1984. ثم زِيد ليكون كتابًا في 144 صفحة والحمد لله. هنا ينشر كما ورد في المجلة المذكورة.

(2) راجع (لكاتب البحث):

Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad period*, A. A. EL-Hajj, 32-3.

(3) تعرف بالإسبانية Islas Baleares (Mallorca, Menorca, Ibiza).
وبالإنكليزية Balearic Islands.

ويقتات على الظلم والظلام. لَيْتَ انتفاعَه بها كان شاملًا كاملًا، وأصيلًا قويمًا وعميقًا سليمًا.

امتدت يدُ الإسلام الرؤوم إلى الأندلس في رمضان المبارك سنة 92هـ (711م)، انضم الى أحضان العالم الإسلامي. جميل أن يُكتب هذا البحث الآن في شهر رمضان المبارك سنة 1392هـ[1]، عين الشهر الذي تم فيه ذلك الحدث الإنساني السامق، قبل ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، حين سار المد الإسلامي الكريم الوضيء، يحمله أبناؤه البررة إلى كل مكان، يحطم الطواغيت، من كل لون، ويحرر الإنسان من أي جنس، فيحييه بالمعاني الإلهية ويضعه على شريعة الله المحجة البيضاء، ويغرس أرضه نورًا وحقًّا وعدلًا وصدقًا وعلمًا وفضلًا. سار جيش العقيدة الإسلامية فيه بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر وآخرين، تَمَّ لهم فتحُها خلال سنوات أربع أو تزيد. دخل أهلُ البلاد في دين الله أفواجًا، تدافعت جموعُهم أمواجًا، في حمل راية الإسلام خفاقة إلى ما وراء جبال البُرْت في الأرض الكبيرة (فرنسا وما تلاها).

حبذا لو احتفل العالم الإسلامي، في أية بقعة منه، بذكرى فتح الأندلس، المناسَبة الخالدة والمأثرة الماجدة، منتفعين بأصالتها وصدقها والمعاني الكريمة التي أورثتها، مستلهمين العقيدة الإسلامية التي صاغتها وشريعتها التي أنبتتها. بهذه العقيدة تستقيم حياتُهم وتتحقق كرامتُهم ويعلو شأنُهم ويزرعون بفضل الله تعالى خيرًا لآخرتهم. بها ينطلقون إلى أمم الأرض يؤدون رسالتهم ويحررون أهلها من الطغيان الذي حل بهم ويحطمون أصنامها. وسائل الإعلام عندهم متوفرة، لا يعوزهم غير صدق العقيدة وعمق الرغبة وحرارة الإيمان وحنين الروح ووضوح الفكر وعلو الهمة.

---

(1) كُتب هذا البحث في رمضان – شوال 1392هـ، ثم نُقِّح يسيرًا وزِيد عابرًا في شوال 1395هـ. يُعَدّ ليكونَ كتابًا بإذن الله تعالى، وقد كان والحمد لله رب العالمين.

تقلّبت الأندلس بعد فتحها في عهودها المعلومة. فما ينتهي عهد الولاة فيها - كانت خلاله بلدًا في دولة الإسلام - حتى يبدأ عهد الإمارة، بقيادة مستقلة السياسة، الاستمرار بحكم عبد الرحمن الداخل الأموي وأبنائه حتى أوائل القرن الرابع الهجري إذ كان قيام الخلافة الأندلسية في العقد الثاني من القرن الرابع الهجري (316هـ). ثم كان استبداد أو استحواث أو انفراد الحاجب المنصور محمد ابن أبي عامر في الثامن منه، تلته قيام ممالك الطوائف التي مزّقت الأندلس وكادت أن تؤدي به سريعًا، لولا أن قيض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **دولًا إسلامية في عُدْوة المغرب، من المرابطين والموحدين وبني مَرين؛ لتنهض بواجب العقيدة في تقديم العون لإخوانهم الأندلسيين، لكن الأندلس سقطت، بعد جهاد كبير وجهد مرير، سنة 897هـ (1492م).**

لئن انفصلت الأندلس عن عالمها الإسلامي سنة 138هـ (756م)، بالتقسيم السياسي لكيان الدولة الإسلامية العام، فقد بقيت مرتبطةً معه تمامًا بكل روابط العقيدة الإسلامية وما تنشِئُه مِنْ وَحْدَةِ المشاعر والوُجْهَة والهدف، وتُوَحِّد الأسس الثقافية والبنية الاجتماعية، وصلات القربى في وشيجة صادقة أزرت بهذا التقسيم السياسي الطارئ الناشئ.

لم يكن هذا الارتباط من نِتاج أو نتائج المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة والمصير الواحد. كلها قُلَّبٌ حُوَّلٌ بُدَّل لا تملك أصلًا ثابتًا ولا تعرف جذرًا نابتًا، فلا تلبث أن تزول وتتبدل أو تغور وتتحول. كانت للأندلس مع كل العالم الإسلامي في المجالات كافة صِلاتُها المستمرة وعَلاقتُها الأُخوية، عميقةَ الوُدِّ، صادقةَ الرِّفْد، دائمةَ القُرْب، وإن بَعُدت الشُّقة ونأت الدِّيَار وتناثر الدَّيّار.

وُجِدت للأندلس أيضًا عَلاقات - مُواجهة أو صداقة - مع عديد من مناطق العالم الآخر: غير الإسلامي. لاسيما المجاورة منها في القارة الأوربية، التي قلما كانت للبعيدة منها مواجهات حربية مع الأندلس. بينما لم تَخْلُ من عَلائق صداقة ومسالَمة بين الفَيْنَة والأخرى، حين تدعو الحاجة أو يتعين غرض، سواء في المجال السياسي أو الثقافي. بل مجرد احتواء الصداقة واكتساب المودة؛ للاطمئنان والشعور بالأمان. كانت هذه الدول الأوربية تقيم الصلات لصالحها، حين ترى فيها نفعَها. ما كانت تمتنع - سيما القريبة منها - عن نقضها إذ تجد ذلك مفيدًا وممكنًا، أو الطرف الآخر ضعيفًا. بل تُمارِس الاعتداء المباشر أو بالتعاون، على الأقل تقوم بالتحرش والتحريض أو تمد يد العون لكل عصيان.

كانت الدول الأوربية - الغربية والشرقية سواء - من بين هذه التي لها عَلاقات ونشاط سَفاري ملحوظ، لاسيما الغربية، التي استوفيتُ بحثَها في رسالة الدكتوراة المطبوعة بالإنكليزية[1]. من دول شرقي أوربا، التي كانت لها عَلائق مع الأندلس، الإمبراطورية البيزنطية (Byzantine Empire)، انحسرت سلطتُها وتركزت قوتُها في تركيا الحالية، بصورة رئيسة بعد المَدِّ الإسلامي الذي اجتهد مبكرًا لاستيعاب العاصمة القُسْطَنْطِينِيَّة (Constantinople). استحق الخليفةُ العثماني محمد الثاني الفاتح لَقَبَه بافتتاحها سنة 857هـ (1453م)، حيث كانت نِهايتها. هذا المبحث يُخَصَّص للحديث عن عَلاقات الصداقة بين الأندلس وبيزنطة (منذ فتح الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، وهو ما لم أكتبه قبلًا.

<u>الإمبراطورية البيزنطية</u>: الإمبراطورية البيزنطية من دول شرقي أوربا، ذات عَلاقات الصداقة المتقطعة مع الأندلس. كان البَلاط البيزنطي فيها هو الآخذ

---

(1) المشار إليها في الحاشية في أول هذا البحث الحالي.

بالمبادرة والخاطب للود، ساعيًا وراء منفعة مجتهدًا في تحقيق هدف. خلال هذه المدة - التي يعنى بها هذا البحث، لإلقاء الضوء على العَلاقات فيها- توارثت حكمَ الإمبراطورية البيزنطية عدةُ أُسَر: الأيسورية (99 - 186هـ = 717 - 802م) والعَمُورية أو الفَريجية (186 - 253هـ = 803 - 867م) والمقدونية (253 - 449هـ = 867 - 1057م)[1].

كان قيام الإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية الشرقية في نهاية القرن الرابع الميلادي[2]، متخذة من بيزنطة، وهي القُسْطَنْطِينِيَّة[3]، لها عاصمة. أقامها الإمبراطور قُسْطَنْطِين (Constantine) سنة 330م محل مدينة بيزنطة القديمة[4]، التي منحت اسمَها للعاصمة الرومانية الجديدة وإمبراطوريتَها أحيانًا كثيرة. توفّر لدى الكتاب المسلمين كثير من المعلومات عنها وعن تأسيسها، لعل لهم السبق في ذلك. يقول أبو عبيد البكري (405-487هـ) الجغرافي الأندلسي الكبير: «ثمّ مَلك بها قُسطنطين الأكبر فانتقل إلى بيزنطية وبنى عليها سورًا وسماها القُسْطَنْطِينِيّة»[5]. كانت لهذه الإمبراطورية مواجهات وعَلاقات مع الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر من تاريخها. إذ كان الكثير من البلدان الخاضعة لبيزنطة ميدانًا للفتوحات الإسلامية التي حملت النور والخير الوفير إليها ونقلتها إلى طور الإنسانية الكريمة والإسهام في الحضارة الرفيعة. دخل الناس من أهلها في دين الله

---

(1) راجع: أوربا العصور الوسطى، سعيد عبدالفتاح عاشور، 1/ 408 ـ 428 (التاريخ السياسي). الإمبراطورية البيزنطية، نورمان بينز، 57 ـ 61.

(2) أوربا العصور الوسطى، 1/ 45، 59، 110

(3) سُمِيّت أحيانًا روما الجديدة، وهي الأسِتَانة أو إسطنبول (إسلامبول = إسلام بول حاليًا).

(4) أوربا العصور الوسطى، 1/ 43.

(5) جغرافية الأندلس وأوروبا*، (كتاب المسالك والممالك)، أبوعبيد البكري، 193-194.

أفواجًا وعلت في آفاقها راية التوحيد خفاقة. سارت حركة المد الإسلامي - عَبْر الشمال الإفريقي- إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حاملة إليها الخير.

العلاقات الدبلوماسية:

لم يُعْثَر في النصوص المتوفرة - المتعلقة بهذه المدة - أيُّ نشاط دبلوماسي دائم (أو بمعنى: متتابع) أو عَلاقات ودية مستمرة أو سفارات متصلة من أي نوع، بين الأندلس وبيزنطة. لكن وُجِدت عَلاقات ودية عمومًا، أنتجت سفارات متقطعة في عهدي: الإمارة، أيام الأمير عبدالرحمن الثاني الأوسط (حكمه: 206 - 238هـ = 822 - 852م) والخلافة: أيام الخليفة عبدالرحمن الثالث، الناصر لدين الله (300 - 350 = 912 - 961 م) وابنه الحكم الثاني (350 - 366هـ = 961 - 976م)، الخليفة المعروف المستنصر بالله والدولة العامرية.

أخذت بيزنطة زمام المبادرة في هذا النشاط، الذي كان جُلُّه لديها ذا طابع سياسي نفعي، رغم اختلاف المظهر. دعت المصلحة البيزنطية للقيام بهذا النشاط، إما طالبة يد العون من الأندلس للمساعدة في إنجازها أو راغبة في إنشاء صداقة وتأكيد مودة لتحقق بها هدفًا مباشرًا أو فيما بعد. متقربة بما تراه يُرضي السلطة الأندلسية ويشرح صدرها لذلك، بكلام متودد حملته رسالةُ وفدِها، أو هدايا من كل نوع مرغوب؛ لتجتلب وُدَّ قُرْطُبة وتحتلب صداقتَها. تَجَشَّم أعضاءُ بعثتها إيصالَه.

بلغت الأندلس الإسلامية - بعد الدولة الإسلامية الأم - قمة عالية في القوة السياسية والحضارية في العالم كافة تَخْطُب الأممُ والدول وُدَّها وتسعى لصداقتها، يوم أَخَذَتْ بالإسلام عقيدة ومنهاجًا، واطَّرَدت قوتُها وسعادتُها بمقدار الأخذ به. كان ذلك من وراء تحقيق إنسانية الإنسان وتوفير كرامته.

حَظِيت بعضُ الوفود القادمة إلى الأندلس بسفارة جوابية من السلطات الأندلسية، رافقت الوفد في عودته إلى بلده. هذا ما حدث أكثر مِنْ مَـرَّة لوفود بيزنطية زارت الأندلس، فيما وصلنا من مراجعنا عدةُ شواهد. يحتوي البحث سردًا لتسع سفارات بيزنطية قَدِمت الأندلسَ، أمكن التعرف عليها خلال المدة (الإمارة والخلافة)، حتى نهاية القرن الرابع الهجري. أَرسلت الأندلسُ مع بعضها سفارةً جوابية.

عصر الإمارة: السفارة الأولى

أول سفارة بيزنطية حفظتها النصوص المتوفرة لدينا، تلك التي وصلت الأندلس أيام الأمير عبدالرحمن الأوسط، الذي: «أقام أبهة المملكة ورتب رسومها»[1]. بلغت الأنـدلـس مكانة عـالـيـة، وهـي تصعد سلم الازدهـار وظهـرت صـور الأمور بشكل أكثر قوة، برزت أساليب الحياة بجوانبها السياسية والحضارية. استعدّت الأندلس لاستقبال الوفود القادمة. تتعلق هذه السفارة بجزيرة أقريطش (كريت Crete). أَرْسَلَ سفارةً عام 225هـ (840م)، الإمبراطورُ البيزنطي توفلس (ثيوفلس Theophilus، 214 ـ 228هـ = 829ـ 842م)، من الأسرة العمورية (الفريجية). تسميه الرواية الإسلامية الأندلسية تَوْفِلِس[2]، ورد عند الذهبي (673 ـ 748هـ) تِيوفِيل[3]. الاعتماد بصورة رئيسة في هذه السفارة على ما أورده ابن حَيَّان القُرطبي (377 ـ 469هـ)، صاحب كتاب «المُقْتَبِس» وغيره من المؤلفات. ابن حَيَّان من بين المؤرخين الذين كان لهم اهتمام واضح بهذا اللون من النشاط (الدبلوماسية). للأسف ضاع أكثر إنتاجه، منها خبر هذه السفارة، غير نتف متناثرة ورسالة

---

(1) نهاية الأرب، النويري، 22/ 52.

(2) نفح الطيب، المقري، 1/ 346.

(3) العبر في خبر من غبر، الذهبي، 1/ 371، 386.

الإمبراطور البيزنطي إلى الأمير الأندلسي[1]، حسبما يشار إليه في موضعه. هناك - من غير شك - مؤرخون سبقوا ابنَ حَيَّان إلى ذكر هذه السفارة، ضاعت مؤلفاتهم مثله. يبدو أنّ بعض من دَوَّنوا أخبارًا عن هذه السفارة كان ابن حَيَّان مصدرًا لهم ومُعتمَدًا عندهم. من المؤكد أنّ لهذه السفارة هدفًا أو أكثر، يبغي توفلس أن يحقق منها ما هيأته ظروف ودعت إليه أحداث. يظهر أنّ نزول جماعة من الأندلسيين

---

(1) حَصَلَ المستشرقُ ليفي بروفنسال (É. Lévi-Provençal) على قطعة من السِّفْر الثاني [القسم الأول منه] لمُقْتَبِس ابن حَيَّان، من خِزانة القرويين في فاس المعمورة، حوالي سنة 1937م واحْتَجَنَها لنفسه على أمل نشرها. منذ وفاته (1956م) حتى الآن لايُعرف لها مكان. هذه القطعة - إن لم تكن ناقصة الأول - تقع في 188 ورقة. تغطي ما يزيد على نصف قرن (181-232هـ)، تحتوي الشطر الأعظم من إمارة عبدالرحمن الأوسط (206 - 238هـ).

تقع قطعة أخرى من المقتبس - تتمة السِّفْر الثاني في 95 ورقة (189 - 284 ورقة) تغطي 38 سنة (232 - 267هـ)، أواخر حكم الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط (238 - 273هـ). مقدمة الدكتور محمود علي مكي في تحقيقه هذه القطعة من المقتبس، 2/ 147 - 148. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، 1/ 132. لَدَيّ صورة ضوئية (Microfilm) من هذه القطعة.

كانت القطعة الأولى المفقودة تحتوي على كل ما يتعلق بسفارة الغَزَال إلى القسطنطينية، التي - على ما يذْكر الأستاذ عِنان (دولة الإسلام، 1/ 283) - تقع تفاصيلها في الأوراق 161 - 163. أخبرني الأستاذ عِنان، خلال لقائي به - صيف 1963 م - في القاهرة، أنه كان قد استعار القطعة الأولى من ليفي بروفنسال ونقل منها بعض النصوص، فيها شذرات تتعلق بسفارة الغَزَال هذه إلى القسطنطينية. وتفضل مشكورًا فأرسل إليّ نصًّا متعلقًا بها، سيرد في مكانه من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

انتفع بروفنسال في بحوثه ومؤلفاته بالقطعة التي كانت لديه، وللأسف فإنه لم ينقل النص الذي استعمل مضمونه من هذه القطعة بل ذكر المعلومات بمعناها، مع عبارات ملتقطة من النص الأصلي، إلا ما ندر. لو نقل النص لما كانت هذه الخسارة التي سببها استبداده بتلك النصوص لاسيما بعد التقاطه إياها من خزانة القرويين العامة، بروفنسال يذكر أحيانًا أخبارًا دون إيراد مصدرها كما ستأتي الإشارة إليه.

لعل الله تعالى ييسر العثور على هذه القطعة أو على نسخة أخرى لها يوما ما. [تمّ الحمد لله العثور على القسم الأول من السفر الثاني. انظروا: كتاب العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، 13] لغياب النص الكامل ستبقى الصورة الممكن رسمها غير ساطعة، اعتمادًا على نتف من هذه القطعة وغيرها، مما نقله المؤرخون عن ابن حَيَّان أو غيره من أصول التاريخ الأندلسي.

جزيرة إقريطش التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، واستقرارهم فيها منذ عام 212هـ (827م) كان السبب المباشر المهم، إن لم يكن الفريد.

حدثت موقعة عمورية[1] (Ammoruim) عام 223هـ (838م). قادها الخليفة العباسي أبو إسحاق محمد المعتصم (رجب 218 - ربيع الأول 227هـ)[2] ابن هارون الرشيد متولي الخلافة بعد أخيه المأمون، فكانت كُفًا ورَدًّا على غدرة توفلس (ثيوفيل بن ميخائل) ملك الروم - صاحب السفارة الحالية - وذَبْحِه المسلمين في زِبَطْرَة (Zapetra) وغيرها، بمئة ألف من الروم قادهم بنفسه[3]. حين بَلَغها: «قَتَلَ مَنْ بها من الرجال وسَبَى الذريةَ والنساءَ وأغارَ على أهل مَلْطِية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المُسْلِمات، مَثّلَ بمن صار في يده من المسلمين وسَمَل أَعينَهم وقَطَع أُنوفَهم وآذانَهم»[4]. في وقعة عمورية كانت قصيدة أبي تمام البائية التي مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباءً مِن الكُتُبِ　　　في حدِّه الحدُّ بين الجدِ واللعبِ

لعل في وقعة عمورية يكمن الدافع والمثير، في قصة إقْرِيطِش ينطوي السبب والهدف. كان لزيادة نشاط هؤلاء الأندلسيين قوةٌ أخرى في الدفع والإثارة، هي قصة تحتاج إلى بعض التفصيل.

في الضِّفَّة اليسرى من نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) بقُرطبة في الرَّبَض القِبْلي (الجَنوبي) رَبَض شَقُنْدة[5] (Secunda) كان الهَيْج أو الوَقْعة

---

(1) مدينة عمورية أصل الأسرة الفريجية (العمورية).

(2) العبر، الذهبي،1/ 400،386. مآثر الانافة في معالم الخلافة، القَلْقَشَنْدِي، 1/ 319. انظر تفاصيلها في: الكامل في التاريخ، ابن الاثير، 6/ 480 _ 488.

(3) العبر، الذهبي، 1/ 386.

(4) الكامل، 6/ 479.

(5) نفح الطيب، 1/ 465. ورد الوصف أيضًا عند المقري (نفح، 1/ 256) بـ«قرية شقندة بعُدْوَة النهر».

«الشَّنْعَاء»[1]، يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان 202هـ (818/3/25م) ضد الأمير الحَكَم الأول (180.206هـ). لِمَا بدا في بعض تصرفاته من الصرامة والتسلط، أو العبث، أحنقت عليه الكثير من الناس وعلماء الأمة وفقهائها، وقفوا فيها ضده بل كانوا في المقدمة. حتى كان أهلُ الرَّبَض أو غيرهم بقرطبة يغمزونه أو ينادون عليه[2]، بل ذُكِرَ: «أنه كان من المجاهرين بالمعاصي، السفاكين للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والعلماء»[3].

دارت في هذا المكان معركة قاسية أَزهقت الأرواح. لمّا هدأت الحال وسكنت النفوس أجلى الحَكَم أهلَ هذا الحي فتفرقوا في الأندلس والشَّمال الإفريقي[4] لعل فريقًا منهم (مع) أو من بحارة أندلسيين غيرِهم أبحروا إلى الإسكندرية (مصر)، منها إلى جزيرة إقريطش[5]. على أثرها أمر الحَكَم بهدم الرَّبَض القِبْلي «فأعيد بَطْحَاءَ

---

(1) الحلة السيراء، ابن الأبار، 1/ 44.

(2) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي وأسرته، 1/ 43. أعمال الأعلام، ابن الخطيب، 2/ 15. نهاية الأرب، 22/ 37.

(3) نفح، 1/ 342 (نقلا عن ابن حزم). انظر: نَقْط العروس، 73. كذلك: المغرب، 1/ 44. العبر، ابن خلدون، 4/ 274. نفح، 1/ 339.

(4) اشترك في هذه الوقيعة العديد من العلماء والنبهاء. نفح، 1/ 339. منهم الفقيه المحدّث يحيى بن يحيى الليثي (234هـ)، لجأ إلى طُلَيْطُلَة (Toledo)، حين أُعْطِيَ الأمان عاد إلى قرطبة. تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 2/ 180. نفح، 2/ 10، 15. الفقيه طالوت بن عبدالجبار المَعَافِري الذي عاد إلى الظهور في المجتمع بعد عام من اختفائه بقرطبة. التكملة، ابن الأبّار، 1/ 345. الذيل والتكملة، ابن عبد الملك الأنصاري، 4/ 150. نفح الطيب، 2/ 639. نهاية الأرب، 22/ 39. كان منهم بعض سلف ذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب (776هـ) الذين رحلوا - إثْرَ الوقيعة، مع من رَحَلَ - إلى طليطلة ثم بعد قرنين إلى لَوْشَة (Loja) قرب غَرناطة (Granada). نفح، 5/ 10، 15. لسان الدين ابن الخطيب، عنان، 30، 287.

(5) البيان المغرب، 2/ 77. الحلة السيراء، 1/ 45. نفح، 1/ 339، 5/ 16. تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور أحمد مختار العبادي، 67 ـ 75. الإشارة هنا إلى القسم الذي كتبه الدكتور السيد عبدالعزيز سالم.

مَزْرَعة»[1]. لهذه القسوة وصفه ابن حزم الأندلسي (456هـ) بالعصيان والسفك، كما مر. ثم ندم الحكم الرَّبَضي (لَقَبٌ ألصقته به الوقيعة) على ما اقترف، فلم يَطِبْ عيشًا[2] حتى وفاته في 27 ذي الحجة سنة 206هـ[3].

فتح هؤلاء المسلمون وغيرُهم الجزيرةَ (جزيرة كِريت Crete) وطهروها من الشرك والوثنية وأخرجوها من الظلمات إلى نور الله المبين. لا نعرف إلا القليل من أسمائهم أو قادتهم. يذكر ابن الأبّار - نقلًا عن الرازي - أنّ محمد بن عيسى ابن دينار الغافقي، من أهل قرطبة. كان فقيهًا زاهدًا، حج وحضر افتتاح إقريطش، فاستوطنها[4].

نزل الأندلسيون، بآلافهم الكثيرة[5] جزيرة إقريطش سنة 212هـ[6]، بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب[7]، البَلُّوطي[8]، يُعْرَف: «ابن الغَلِيظ»، توارث

---

(1) الحلة، 1/ 44. كذلك: المغرب، 1/ 42.

(2) الحلة، 1/ 46. البيان، 2/ 80. نفح، 1/ 342. الذيل والتكملة، 4/ 152.

(3) راجع عن هذه الوقيعة: الحلة، 1/ 44ـ7. البيان، 2/ 75ـ7. المغرب، 1/ 42. أعمال الأعلام، 2/ 15ـ6. نفح، 1/ 336، 2/ 11، 639، 5/ 15ـ16. دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 243ـ247.
Histoire des Musulmans d'Hispagne, R. Dozy, I, 300-1. Histoire de L'Espagne Musulmane, É. Lévi-Provençal, I, 163-73 (Sp. tr., E. García Gómez), Historia de España, IV, España Musulmana, 108-12.

(4) التكملة، 1/ 356 (رقم: 956). نقله المقري: نفح، 2/ 149.

(5) أوصلها البعض إلى خمسة عشر ألفًا. راجع: أعلاه، حاشية رقم 26.

(6) هي نفس السنة التي ابتدأ فيها فتح جزيرة صقلية بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات بن سنان، الخراساني الأصل، واستُشهد هناك.

(7) من رسائل ابن حزم (384 - 456هـ) في فضل الأندلس (نفح، 3/ 162)، المقري ينقلها كاملة. جذوة المقتبس، 301 (رقم: 688) (= بغية الملتمس، 407، رقم: 1165). الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال، 103. المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية، الدكتور حسين مؤنس، المجلة التاريخية المصرية، 4/ 1/ 137. جغرافية الأندلس وأوروبا* (من كتاب المسالك والممالك)، 318ـ40. ورد اسمه عند الحموي (معجم البلدان، 1/ 336-337) «أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي».

(8) نسبة إلى كُورَة فَحْص البَلُّوط (بالإسبانية El Valle de los Pedroches) شَمال غرب قرطبة من بطروش =

أبناؤه حُكْمَها وكانت إقريطش خالية فعَمَرُوها[1]. لحق بهم المسلمون من مناطق أخرى «فأوطنوها معهم»[2] أقاموا فيها دولة زاهرة ومدنًا عامرة، منها عاصمتهم الخندق (Candia). ذَكَرَ ابنُ حَوْقَل (بعد 367هـ) في كتاب: « صورة الأرض» فَتْحَ المسلمين لها وجهادَهم فيها:» وجزيرة إقريطش حرة مذ كانت، وفُتحت في أيدي المسلمين، ولم يقم للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج. وأهلها في غاية الجهاد وفي حين الهدنة والمُسالمة مصونة في شرائط بينهم غزيرة مقرونة بالقهر والاستظهار»[3]. نشروا فيها الإسلام وعليها رفرفت بنودُه. وعُمِّرت ما يزيد على القرن والثلث[4]. يَظْهَرُ نشاطُ المسلمين في هذه الجزيرة وفي الدعوة إلى الله تعالى وتمسكهم بشرعه من قول الإصطخري (أواسط القرن الرابع الهجري) الذي يشير إلى أنّ الجزيرة كلها أصبحت مسلمة ودخل أهلها في دين الله أفواجًا، إلا قليل منهم. فغدت جزيرةً مُسْلِمة تدين لله تعالى رب العالمين. «وسكانها جميعًا مسلمون أهل غزو، وبين أظهرهم نُبَذٌ من النصارى كما يكون في بلدان المسلمين»[5] استمر المسلمون فيها حتى أسقطها البيزنطيون سنة 350هـ[6] (961م) في حملتهم بقيادة نَقْفُور فوقاس (Nicephorus Phocas) قائد الإمبراطور رومانوس الثاني (Romanos II)، 348 ـ 352هـ = 959 ـ 963)[7] الذي خَلَفَ أباه قُسْطَنْطِينَ

=(بطروج) (العبر، 4/ 451) مدينة فحص البلوط. معجم البلدان، 1/ 337، 663. كذلك: الروض المعطار، 45، 139، 140، 142، 143. يذكر الاصطخري (المسالك والممالك، 36) أنّ: «فحص البلوط كورة خصبة واسعة ومدينتها غافق». فهل بطروش هي غافق أو غيرها؟

(1) الحلة، 1/ 45. المغرب، 1/ 42.

(2) الحلة، 1/ 45.

(3) صورة الأرض، 184.

(4) المجلة التاريخية المصرية، 4/ 1/ 138. دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 245.

(5) المسالك والممالك، 51. كذلك: معجم البلدان، 1/ 337.

(6) جذوة المقتبس، 301 (= بغية، 407). نفح، 3/ 162. المجلة التاريخية المصرية، 4/ 1/ 138.

(7) أوربا العصور الوسطى، 1/ 421. تسمية الرواية الأندلسية أرمانوس. انظر الحاشية السابقة.

السابعَ الأُرْجُواني (300 - 348هـ = 912 - 959م)، حيث أَخَذَ حاكمَها عبدالعزيز ابن شعيب بن حفص أسيرًا الى القسطنطينية؛ ليقضي بقية أيامه[1]. في ذلك يقول ياقوت الحموي (626هـ) حين الحديث عن جزيرة إقريطش بأنها: «كانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم إلى أن أَناخ عليها (نقفور) بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع وتَمَلّك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة 349هـ في اثنين وسبعين ألفًا، منهم خمسة آلاف فارس ولم يزل محاصرًا لها حتى فتحها عَنْوَة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة 350هـ فقَتَلَ ونَهَبَ وسَبَى وأَخَذَ صاحبَها عبدَالعزيز بن شعيب من وُلْد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي وأمواله وبني عمه وحمل ذلك كله إلى القسطنطينية وقيل إنه حَمَل إلى القسطنطينية من أموالها وسبى أهلها نحو من ثلثمئة مركب وهدموا حجارة المدينة وألقوها في الميناء الذي دخلت مراكبهم فيه لئلا يدخل فيه بعدهم عدو»[2].

وَجَّه قُسطنطين هذا أكثر من سفارة إلى الأندلس، أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر، كما يأتي بيانه. لكن ما دَوْرُ الخلافة الأندلسية (وبقية مناطق العالم الإسلامي) في حماية مسلمي إقريطش أو مساعدتهم؟

تلك خلاصة قصة افتتاح المسلمين لجزيرة إقريطش (جَنوب اليونان حاليًا). قصةٌ حَمَلَتْ الدافعَ القوي وحَوَتْ ثناياها القصدَ المهم للسفارة البيزنطية إلى قرطبة الإسلامية سنة 225هـ (840م).

كان تَوْفَلِس يَرْمِي مِنْ وراء إقامة حُسْنِ الصلة مع قرطبة، الانتفاع بالجفوة السياسية القائمة بين السلطتين الإسلاميتين: الأندلسية والعباسية؛ لتحقيق

---

(1) العبر، 4/ 98، 274، 451، 512 ـ 513. جذوة، 301. راجع الحاشية السابقة.

(2) معجم البلدان، 1/ 337.

هدف إخلاء إقريطش من الأندلسيين الراحلين عن الأندلس، أو بعد ما جرى لهم فيه وبَتَّ صلتَهم أو صَرْمَها مع سلطة قُرْطُبة. هو لا يشير - أَبدًا بأي حال - إلى وجود معاهدة بين الأندلس وبيزنطة تقوم ضد أخرى، تجمع بين الخلافة العباسية ودولة الفِرَنْجة، كما سيأتي بيانه.

المصادر الإسلامية غنية بتسجيل الأحداث ووقائعها للعالم الإسلامي ولغيره في تلك الأيام. حتى ليُعْتَبَر ما دَوَّنه الكتَّابُ المسلمون عن الأمم غير الإسلامية وسَجَّله جغرافيوهم ورحَّالتُهم عن أحوالها والأحداث في بلدانها مادة قوية معتمدة لدى الأقوام المعنية.

مع أنّ السفارة البيزنطية الحالية وجوابها من أحداث الأندلس، فإنّ ما وصلنا عنها - سالمًا من الفقدان - في مصادرنا الأندلسية، وعموم الكتابات الإسلامية ذات الأجواء الحضارية والبيئة التي اعتادت التدوين، تُعْتَبَر قليلةً وغيرَ مُكْتَمِلة. أما المصادر الأوربية فهي في هذا فقيرة. هذا عَرضٌ لوقائع هذه السفارة، حسبما يمكن الباحث تجميعَه من المصادر والدراسات المختلفة. أرسل توفلس صاحب القسطنطينية سفارته إلى قُرطبة، مع هدية ورسالة حَمَلَها قَرْطِيوس الرومي (Qartiyus)، سفيره وترجمان بَلاطه[1].

مدد المعلومات عن هذه السفارة بعضُ النصوص لاسيما نص ابن حَيَّان، معتمَد بروفنسال فيما كتبه عنها. للأسف فإنّ بروفنسال لم ينقل لنا النص، بل انتفع به في سرده لأحداثها وصياغة أحكامه وسوق شروحه عنها. بينما يقتضي البحث الرصين الأمين أن ينقله بنصه، لكنه فرقه بنقل بعض عبارات ابن حَيَّان،

---

(1) دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 282 ـ 283. الإسلام في المغرب والأندلس، 97، 100، 118.
Hostoire, Lévi-Provençal, I, 251 (Sp. tr. IV, 162).

شيخ المؤرخين الأندلسيين، حتى ليصعب علينا أحيانًا التعرف عليها. وستجري الاستعانة ببعض المصادر التي دَوّنَتْ خبرَ هذه السفارة، نقلًا عن ابن حَيَّان، مباشرة أو بالواسطة أو غيره.

يَذْكُرُ المَقَّري في نفحه موجزًا مضغوطًا عنها يقول: «وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلتَه ويُرغِّب في مُلْكِ سَلَفِه بالمشرق من أجل ما ضَيَّق به المأمون والمعتصم حتى إنه ذكرهما له في كتابه له وعَبَّر عنهما بابني مَراجل ومَاردة، فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغَزَال من كبار أهل الدولة، وكان مشهورًا في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصل، وارتفع لعبدالرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس»[1]. نجد هذا النص باختصار عند ابن خَلدون[2]، مما يشير إلى أنه والمَقَّري نقلاه عن مصدر واحد، الراجح من مُـقْـتَـبِـس ابن حَـيَّـان. أو أنّ المَقَّري نقله عن ابن خَلدون أو تابَعه في نقله.

أرسل توفلس «ملك الروم الكبير وصاحب القسطنطينية»[3] سَفارتَه إلى قُرطبة مع هدية ورسالة حملها سفيرُه وتُرْجُمان بَلاطه قَرْطِيوس الرومي، الذي وصل العاصمة الأندلسية سنة 225هـ (840م)، الظاهر عن طريق البحر. لا نعرف - على وجه اليقين - عددَ وهيئة السفارة البيزنطية وهل كان قَرْطِيوس وحده هو السفارة - كالذي ذَكَرَتْه رسالةُ الأمير الجوابية - أو كان هو رئيسها؟ لم تصل إلينا رسالة توفلس، إذ لا نجدها في المصادر المتوفرة لدينا حتى الآن. لكن نستطيع

(1) نفح الطيب، 1/ 346 ـ 347.

(2) العبر، 4/ 282. قارن: المغرب، 1/ 48. حيث يذكر في حوادث السنة العاشرة ومئتين عن الأمير عبدالرحمن الأوسط أنّه: «وَصَله كتابُ صاحب القسطنطينية يذكر ما كان بين السَّلَفين في المشرق والأندلس فجاوبه بكتاب فيه إنحاء على المأمون والمعتصم».

(3) الإسلام في المغرب والأندلس، 97.

أن نتبين فحواها من الرسالة الجوابية التي كتبها الأمير الأندلسي ووصلتنا. أمر يحمل الأهمية الكبيرة ويبعث الارتياح ويثير البهجة لتوفر هذه الوثيقة، لاسيما في دراسة النشاط السَّفاري. أسرف الإمبراطور البيزنطي في استثارة الأمير الأندلسي فأغراه ومَنّاه،. أغراه في مُلْك سَلَفه في المشرق، ومناه في المعاونة، ورغب إليه عقد معاهدة صداقة وارتباط تعاون ضد الخلافة العباسية، يقوم الأمير الأندلسي – في مقابل ذلك – بِرَدّ جزيرة إقريطش التي نزلها النازحون الأندلسيون[1]. الذين يعرفون التاريخ الإسلامي ويُقيمون بحوثَهم على الحقائق ناهجين سبيل العلماء الأسوياء لا يصعب عليهم أن يتوقعوا النتيجة السلبية لهذه السفارة وعدم الاستجابة لها. لعل انغلاق الطرق وانقطاع الأسباب هي التي دعت توفلس لتوجيهه مثل هذه السفارة الى البَلاط الأندلسي، التي تمثل ضربة يائس ورمية مفلس عاجز. يبدو أن هزيمة توفلس وسلفه ميخائيل الثاني Michael II (205 ـ 214هـ = 820 ـ 829م)، في عدة معارك أمام قوة مسلمي إقريطش[2] ألجأه إلى الاستعانة بالسلطة الأندلسية. وإنّ عجزه أمام حفنة من مسلمي الأندلس كان مثار دهشة الأمير عبدالرحمن الأوسط نفسه[3].

لعل تَوْفِلس - في هذا الأسلوب - أهمل المُثُل الكريمة لتنحرف مع الالتواء الحليف لكل طارق، المساير لأية وسيلة؛ لتحقق هدفًا في رخص السياسة أو سوق النخاسة. كما هو في الوقت الذي وجه سفيره إلى الأندلس أرسل سفراءه إلى بلاط لويس الفِرَنْجي (المنعوت في المصادر الفِرنجية بالصالح أو التقي) وإلى البندقية لعمل تحالف ضد المسلمين في إفريقية وصقلية[4].

(1) نفسه، 97 ـ 98.

(2) العرب والروم، فازيليف، 60 ـ 62.

(3) راجع الرسالة الجوابية في: الإسلام في المغرب والأندلس، 118.

(4) العرب والروم، 157، 161 ـ 164.

لا يبدو أنّ الأمير الأندلسي كان على معرفة بهذا الإجراء، وهو أمر لم يُحطْه تُوْفِلس به عِلمًا، لكن السياسة الكَيِّسة فَوّتَتْ هذه الفرصةَ وأطاشت السهام. إذ كيف يمكن أن تقوم سلطات الأندلس الإسلامية بطرد مسلمين (أندلسيين) من مكان مضى على استقرارهم فيه أكثر من عشر سنين. اكتفت هذه السلطات بإخراجهم إلى حيث يريدون، وهم لم يحملوا ضدها سلاحًا؟ ذلك أيضًا من أجل الإمبراطور البيزنطي. ثم كيف نأمل أن تقوم سلطات الأندلس بتجهيز الجيوش للنزول في حروب مدمرة مع الخلافة العباسية يقتتل فيها المسلمون، في الوقت الذي لا توجد فيه مواجهات أو حتى احتكاك؟ أمر رغم وضوحه لم تفكر فيه السلطات الأندلسية، مع ما ورد عن عبدالرحمن الداخل من أنّ هذا الأمر راود خياله وأنّه سنة 163هـ أظهر: «التجهز للخروج إلى بلاد الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية، منهم، وأخذ ثأره»[1]، مما يصعب توثيقُه.

كان الارتباط في العقيدة بين المسلمين في المشرق والمغرب أقوى من ذلك وأكبر، من السهولة إيراد أمثلة لهذا الموقف في السياسة الإسلامية[2]. هذا العامل مهم جدًّا في فهم عديد من القضايا، ومُفَنِّدٌ لارتباطات مزعومة تفتقد كل سند تاريخي، ولا تملك دليلًا غير الظن المتصدع[3].

أما الهدايا - لعلها كانت كثيرة ضخمة - التي حاول توفلس بها زيادة التأثير على الأمير الأندلسي، كما يُلَوِّح عنه بروفنسال[4]، كانت عُرْفًا دبلوماسيًّا،

---

(1) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 6/ 62. كذلك:
Histoire, Lévi-Provençal, I, 131 (Sp. tr., IV, 86).

(2) انظر: Andalusian diplomatic relations*,184-5.

(3) قارن: الإسلام في المغرب والأندلس، 104. المجلة التاريخية المصرية، 4/ 1/ 167.

(4) الإسلام في المغرب والأندلس، 100.

لاسيما عند المسلمين، وإلا فسطحية في السياسة وخطأ في وزن الأمور أن يستعملها من أجل ذلك الإمبراطور مع سلطات إسلامية، حتى مع قبوله عند غيرهم.

☜ عادت السفارة البيزنطية بهدايا الأمير الأندلسي الضخمة الكثيرة الوفيرة المضاعفة، تلك سنة تكريم معروفة مألوفة اعتُبِرت من رسوم الدبلوماسية الإسلامية، لا ينالها رئيس الوفد بل كل فرد فيه.

☜ الحفاوة البالغة، التي لقيتها سفارة تَوْفِلس، رَسْمٌ آخر أصيل وعُرْفٌ كريم وأدبُ ضيافة، له عند المسلمين المكان المشهود ودرجة الوجوب. وهي خلق دعا إليه الإسلام ومارسه المسلمون، وغدا عندهم طبيعة. لم تكن هذه الحفاوة بسبب ضخامة الهدية التي لا نعرف كنهها. فهل احتوت كذلك كتبًا وأعمدة رخامية أو مواد أخرى، استُعملت في بناء مسجد قُرطبة الجامع أو غيره، كما نلاحظ في سفارة قادمة؟ يتوهم بروفنسال[1] أنّ الهدية بَعثت في قلب الأمير الأندلسي السرور والكبرياء! ولا يُعرف معتمدُه في مثل هذه الاستنباطات المُتَخَيَّلَةِ المُجْحِفة.

☜ نجهل تفصيلات كثيرة عن سفارة توفلس مثل طريق ووسيلة وصولهم الأندلس، ولا نعرف عن المدة التي أنفقها الوفد في قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية، أو عن نشاطه خلالها، أو بعد قيامه بإنجاز أمور أخرى جانبية أو أساسية.

☜ تابَعَ رَدُّ الأمير الأندلسي رسالةَ الإمبراطور البيزنطي بالاستقصاء فِقْرة فِقْرة. وهو أمر يُعِينُ بوضوح على فهم محتوياتها. ذَكَّرت الرسالةُ - كما يُلحظ ذلك واضحًا من الجواب - الأميرَ الأندلسي بمُلْكِ أجداده الذاهب بالمشرق وما جرى لهم مع العباسيين، فأغراه باستعادته ووعده بمعاونته. حَمَلَ فيها على الخليفتين: المأمون، ومِنْ بَعْدِهِ أخيه المُعْتَصِم. سماهما باسم أمهما: المأمون بابن مَراجِل والمُعْتَصِم

(1) الإسلام في المغرب والأندلس، 100.

بابن مَارِدة[1]. كما طلب إليه تُوْفِلس أن يحقق له هدفه في طرد الأندلسيين من جزيرة إقْرِيطِش.

غريب أن يصف بروفنسال - مع التأويل - ردَّ الأمير الأندلسي بالخلو من المجاملة السياسية، واصفًا الرسالة البيزنطية بالدهاء. وبينما الرسالة ليست جديرة بهذا الوصف، بل بالصفة الأولى- ويخليها من المجاملة والخبرة والدراية السياسية - أجدر[2].

رغم سعة الحصيلة العلمية الأندلسية لدى بروفنسال وثرائه من مادتها وكثرة نِتاجه فيها، إلا أنّه لا يمكن اعتبارُه دومًا نزيهًا أمينًا ولا ثقةً دقيقًا. وطريقةُ نقله لنصوص هذه السفارة وأسلوب عرضه واحدٌ من الأدلة. لعل هذا وَفّرَ في بعض دراساته نوعًا من الغموض أحيانًا، ومِنْ تساهل الدارسين أحيانًا أخرى تجاه شطط أحكامه واعتساف آرائه إن لم يكن ادعائه.

ارتأت السلطة الأندلسية - اهتمامًا بهذه المبادرة ورَدًّا عليها وإظهارًا لمكانتها، وأخذًا بالمجاملة وتعرفًا على بَلاط القُسْطَنْطِينِيَّة - أن تُرْسِلَ سفارةً جوابية برفقة سفيرها العائد يحتضن هدايا كثيرة فضلًا عما في هذه الرسالة الجوابية من تلبية لطلب الإمبراطور البيزنطي. حمل سفراءُ الأندلس رسالةَ الأمير متوجهين إلى القسطنطينية[3]. لا نكاد نعرف شيئًا عن كنه الهدايا، لكنها كانت غنية، حوت شيئًا مما امتازت به الأندلس، أُمورًا ثمينة تُتْحِف الإمبراطورَ وتدعوه إلى الفرح.

---

(1) مآثر الإنافة، 1/ 209، 217.

(2) قارن: الإسلام في المغرب والأندلس، 102.

(3) انظروا كذلك:

Andalusian diplomatic relations*, 60, 63, 72 n. 5, 170 n.7, 186 ff., 210 n. 2, 211 n.2, 212 ns. 425, 231:

فجر الأندلس، حسين مؤنس، 436.

Histoire, Lévi-Provençal, I, 352 (Sp. tr., IV, 225-7), 21, 155 (Sp. tr., IV, 353).

أما الرسالة، التي يفوح منها الهدوء وبعد النظر وتُنْبِئُ عن الالتزام بالسمت الإسلامي المجيد، فليس من الشطط الظن بأنها غير كاملة، لاسيما مقدمتها، حسبما يسوقها بروفنسال.

لا نعرف غير اسم اثنين من أعضاء السفارة الأندلسية. أَشَارتْ إليهما رسالةُ الأمير دون تسمية، ربما لم يصحبهما ثالث. رَأَسَ هذه السفارة شخصيةٌ معروفة في التاريخ الأندلسي؛ لقوتها ومكانتها العلمية والأدبية. الشاعر الموصوف بأنّه: «حكيم الأندلس» لعصره يَحيى بن حَكَم البكري الجَيَّاني المشهور بلقبه: «الغَزَال» لجماله، الذي عُمِّر دون المئة عام قليلًا (154 - 250هـ)[1]. عُرِف بتمرسه بأفانين الدبلوماسية، وقد وُجِّه في سفارة أو أكثر غير هذه، منها تلك التي ذهبت برئاسته إلى بلاد النورمان (الدانمارك Denmark، Dinamaka) سنة 230هـ (845م)[2].

سار الغَزَال نحو القُسْطَنْطينيّة، وبصحبته سَمِيُّه يحيى بن حبيب، الذي تندر معرفتنا عنه، فيصفه ابن حَيّان بـ«صاحب المُنَيْقِلة». أما المنيقلة فهي: نوع من الساعات. لعل هذا يقود إلى الظن (أو تأكيده) بأنّ ابن حبيب كان من علماء الرياضيات والفلك والمعرفة بالأنواء وعلوم تجريبية أخرى، لم يكن الغَزَال محرومًا منها[3]. انتقل الوفد الأندلسي صحبة السفير البيزنطي قَرْطِيوس الرومي من قُرطبة إلى ساحل الأندلس الشرقي.

لا نعرف الطريق الذي سلكته السفارة الأندلسية في ذَهابها إلى القُسْطَنْطِينيّة. لكنّ الراجح - اعتمادًا على نص ابن حَيّان - أنّه ركب البحر عن

---

(1) نفح الطيب، 2/ 254.

(2) see: Andalusian*, 171 ff.

(3) See: Andalusian*, 167, 176. الإسلام في المغرب والأندلس، 100.

طريق كُورة مُرْسِيَه (Murcia) تُدْمِير (Tudmir)[1] في رحلة شاقة، انتهت بهم إلى القسطنطينية[2].

جزء صغير من نص ابن حَيّان عن هذه السفارة يتعلق ببداية الرحلة، تكرم مشكورًا وبعثه إليَّ الأستاذ محمد عبدالله عِنان برسالة مؤرخة في 1963/8/29، هي من جملة نُقُول احتفظ بها لنفسه، عن قطعة من مُقْتَبِس ابن حَيّان أعارها إياه بروفنسال، وتَوَلَّت إلى الفُقدان. هذا النص مع قصره بالغ الأهمية، وهو: «وسار الغَزَال وصاحب المُنَيْقِلة عن طريق تُدْمِير ورسولُ ملكِ الروم معهما ليركبا البحرَ من الشاطئ الشرقي».

يعني هذا أن الوفد الأندلسي، صحبةَ قَرْطيوس الرومي: انتقل من قُرطبة إلى مدينة مُرَسِيَه، حيث أعد لهم مركبًا مناسبًا مزودًا بما يحتاجون وبالبَحّارة المَهَرة. رَكِبوا البحرَ نحو الشرق عبر المتوسط إلى جَنوب صقلية فجنوب اليونان إلى بحر إيجه (Aegean Sea) ثم إلى بحر مَرْمَرة (Sea of Marmara)، خلال مضيق الدردنيل (Dardanelles) حتى القسطنطينية، لعله نفس الطريق الذي جاء به قَرْطِيوس، وركبه الوفد الأندلسي في عودته إلى بلده.

---

(1) تقع مدينة مُرْسِيَه (Murcia) قرب الشاطئ الجنوبي الشرقي للأندلس، على البحر المتوسط. وهي مدينة مُحْدَثة ابتناها الأمير عبدالرحمن الأوسط (206 – 238هـ) سنة 210هـ (نصوص عن الأندلس، العذرى. كذلك: البيان، 2/ 82. الروض، 181. المغرب، 1/ 48، 2/ 245) أو بعدها. غدت مدينة مرسيه قاعدة كورة مرسيه المتصلة بالبحر المتوسط. كانت تُعْرَف قبل ذلك كُورَة تُدْمِير (نصوص عن الأندلس، 1، 6. صفة الأندلس من نزهة المشتاق، الإدريسي، 194. نفح، 1/ 164، 166). قاعدتها مدينة أُرْيُولَه (Orihuela)، وركوبُ البحر في كُورَة مُرْسِيَه وتَرْكُه لها من قَرْطَاجَنَّة الحَلْفاء (Cartagena) من عمل تدمير (نصوص، 6)، «وهي فَرْضة مدينة مرسيه». (صفة الأندلس، 194. الروض، 151. قارن: المغرب: 2/ 274). وفَرْضة مدينة مرسيه: ميناؤها. وتبعد عنها ما ينيف عن الستين كيلو مترًا.

(2) الإسلام في المغرب والأندلس، 105.

هناك في بَلاط القسطنطينية يَستقبل الإمبراطورُ توفلس الوفدَ الأندلسي الذي سلمه هدايا الأمير عبدالرحمن الأوسط ورسالتَه الجوابية، التي سبقت الإشارة إليها. أُسْكِن الوفدُ الأندلسي أحدَ قصور القسطنطينية، يسميه ابن حَيَّان «أكاديمية من مرمر»، كما يقول بروفنسال[1]. صِحَّتُها: كدُمْيَةٍ مِن مَرْمَر. كما في أصل المخطوطة التي عُثِرَ عليها.

اطَّلَع الوفد الأندلسي في القسطنطينية وبَلاطها. أثناء إقامته. على الأمور وتَعرَّف على الأحوال. أنفق مدةً نجهل مقدارها، قد تكون طويلة أو قصيرة، كما نجهل مدة الرحلة في الذهاب والإياب. لعل كامل مدة إقامة السفارة استغرقت شهورًا غير قليلة[2] أو أكثر. المعقول في مثل هذه السفارات أن تستوفي مدة تجاوز السنة[3]. سيرد خبر سفارة أندلسية أيام الخليفة الناصر اتجهت إلى بيزنطة وعادت بعد سنتين[4]، ربما كانت أُسندت لها مهام أُخرى. تمت لقاءات ومناقشات حول عدة أمور، تَعرّف كُلٌّ من الطرفين وجهةَ نظر الطرف الآخر، لعل قَرْطِيوس كان فيها التُّرْجُمان. حَدَثَ للغَزَال في البَلاط البيزنطي أحداث يقتضبها بروفنسال. منها أنّ الغَزَال اشترط لمقابلة توفلس ألَّا يَسْجُدا له ولا يَخْرُجا عن سنتيهما. احتيل على الأمر فَوُضِع مدخل منخفض حتى لا يدخل إلى الإمبراطور أحد إلا راكعًا. فَطَن الغَزَال للأمر. لَمَّا رأى ذلك، جَلَس على الأرض وقدم رجليه ثم تقدم زحفًا على إليته حتى جاز الباب، فاستوى واقفًا. لم يُرْبِكْه ما مُلِئَ به المجلس من السلاح الحافل والزينة الكاملة. أثار صنيعُ الغَزَال دهشةَ الإمبراطور، وأعلى مكانته عنده[5]. مرة

---

(1) الإسلام في المغرب والأندلس، 108.

(2) قارن: دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 283.

(3) انظروا: المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي، 149. العبر، 4/ 310 (= نفح، 1/ 365).

(4) انظروا: Andalusian diplomatic relation*s, 182,219-20.

(5) الإسلام في المغرب والأندلس، 106.

أخرى يشرب الغَزَالُ الماء في حضرة الإمبراطور فيُقدَّم له بكأس من ذهب مزدان بأحجار كريمة، يحتفظ به لنفسه في كُمِّ عباءته؛ اتباعًا لعادة جارية لمثل هذه المناسبة. لا يروق تصرفُه الإمبراطورَ الذي يستفسر عن هذا التصرف، حين يُوَضِّح الغَزَالُ ذلك يشير الإمبراطور عليه بالاحتفاظ به.

تَحْضُر - في لقاءٍ آخَرَ مع الإمبراطور - زوجتُه الإمبراطورة تيودورا (Theodora) مع ابنها ميخائيل (Michael، الثالث فيما بعد). يُعْجَب الغَزَالُ بجمالها ويَشْرَح ذلك لتوفلس مما يُدخل السرورَ إليه. ثم يقول في ابنها قصيدة[1] ليس من السهولة الأخذ بها دون مناقشة.

كل هذه الأمور وغيرها يذكرها بروفنسال بأسلوبه دون إيراد كلام ابن حَيَّان بنصه، مما يقلل من جدية مناقشتها أو التعليق عليها والاستنباط منها[2].

نجد طرفاً من مُقْتَبِس ابن حَيّان حَفِظَه المَقَّري في نفحه[3]، وشذورًا عند غيره[4]. لعل نَقْل النفح عن المُقْتَبِس يعني أنّ المُقْتَبِس (ربما بكل أجزائه كان أحد مراجع المَقَّري، تِلِمْسان 986 - القاهرة 1041هـ)، حين إقامتيه بفاس طلبًا للعلم (1009 - 1010هـ و1013 - 1027هـ)[5]. فهل استعمل نسخة القرويين التي أضاعها بروفنسال أم غيرها. لأنّ المَقَّري أَلّفَ كتابَه: «نفح الطيب» في المشرق (دمشق والقاهرة)، أو كان ينقل من حفظه أو بالواسطة أو حَمَلَ معه بعضَ المصادر؟ يبدو

(1) الإسلام في المغرب والأندلس، 108 ـ 110.
(2) للمزيد راجعوا طرفًا من هذه المناقشات في: Andalusian*, 191-9.
(3) نفح الطيب، 1/ 346، 2/ 258.
(4) المغرب، 1/ 48، 2/ 57 ـ 58. جذوة، 374.
(5) نفح، 1/ 5 ـ 6 (مقدمة المحقق)، 7/ 136.

وكأنه ينقل مباشرة، مما قد يشير إلى أنّ نَسَخًا من المقتبس كانت موجودة، لعلها تعود إلى الظهور يومًا ما إن شاء الله تعالى.

يُمْضِي الوفد الأندلسي أشهرًا، نجهل عددها، ولا نعرف نشاطه وماجرى له خلالها غير أمور قليلة. يعود بعدها ـ من حيث ذهب ـ إلى حاضرة بلده قرطبة مُفضيًا إلى الأمير الأندلسي نتائج هذه السفارة وأنباءَ الرحلة المثيرة.

لكن لا نعلم بِمَ عاد الوفد الأندلسي، وهل حمل رسالة أخرى من صاحب القسطنطينية إلى الأمير الأندلسي، تلك رغبته في رسالته الجوابية؟ يمكن أن يُقرِّر أنّ الوفد الأندلسي عاد وَحْدَه.

هكذا تنتهي أنباء هذا النشاط السَّفاري المتبادل بين قرطبة والقسطنطينية، التي أَخَذَت المبادرةَ فيه، لإنجاز هدف فَشِلت في تحقيقه. كان المؤمل أن تُدركه أو تتوقعه قبل تجشم عبئه، لِمَا رأت من طبيعة الارتباط بين العالم الإسلامي، الذي ما فَتِئَ يُعْطِي الأدلة ويقدم الأمثلة والدلائل لأمثال هذه المواقف. إنّها محاولة مُلِحَّة لم تعبأ بنوع السبيل فازت بالخيبة وأدركها الإخفاق وقَصُرت عن إدراك الواقع وقَصَّرت في الأخذ بالأسلوب الواضح والمسلك الوجيه. لكنها من ناحية أخرى أَوجدت صلات هادئة ربما شاركت في التمهيد لنشاط مماثل في المستقبل. كما أضافت بعض المعلومات عن القسطنطينية وأحوال بَلاطها، ربما احتوت على وصف جغرافي أو اجتماعي لتلك العاصمة وأهلها، لعلها فُقِدَت. البحث عن المخطوطات وكشفها يُطْلِق هذه المعلومات من أسار الفُقْدان.

حاول بعض الكتاب الغربيون، تابَعَهم آخرون معتَمِدون ـ مما اعتمدوا عليه ـ هذه السفارة وما قيل أيضًا من تبادل الهدايا والسفراء بين شارلمان (151 ـ 199هـ = 768 ـ 814م) والرشيد (169 ـ 193هـ = 785 ـ 809م) إيجاد صورة خيالية

عن عَلاقات قامت بشكل معاهدات ثنائية مزدوجة، تربط - في حِلْفٍ مزعوم - بين الأندلس والقسطنطينية من جهة ضد حلف آخر يربط بين الخلافة العباسية والدولة الكارولونجية، قيل: ذلك كان منذ أيام الرشيد وشارلمان، مع عدم توفر إشارة لهذا عند المؤرخين المسلمين المشارقة والمغاربة بضمنهم الأندلسيون. إنّ طبيعة تكوين العالم الإسلامي وارتباطه وماجريات أحداثه التاريخية لا تسمح لهذا الافتراء. لا يتسع المجال هنا لبسط المناقشة في هذا الأمر. تَعَرَّض بعضُ الدارسين لهذا التحالف وناقشوه[1]، فلم يكن إلا ضربًا من الوهم والخيال ينقله إلى مصافِّ الأسطورة.

عصر الخلافة

سَرَى الازدهار في الأندلس في نواحي الحياة كافة. ذلك أمر معهود ومألوف. حيث يحل الإسلام يكون النمو والازدهار، يُحيل الأرض المَوَات خِصْبًا أخضر ويصيغ البشر صياغة جديدة تسمو به مُحَلِّقَةً في عالم الخير والبناء الشامل. بدأت ظهور الرسوم والأعراف الدبلوماسية في الأندلس في صور مختلفة، منذ وقت مبكر، وبقيت خَيِّرة كريمة طوال التزامها بالخط الخلقي المسلم. بلغت الأندلس في عهد الخلافة - في القرن الرابع الهجري، حَكَمَ الأندلسَ عبدُالرحمن الناصر وابنُه الحَكَمُ المستنصر وبنو عامر- شأوًا بعيدًا ومكانة عالية في التقدم الضارب أطنابه في كل ميدان. منذ أيام الخليفة عبدالرحمن الثالث، الناصر لدين الله (300 - 350هـ = 912 - 961م)، بلغت درجة رفيعة إلى حد الأبهة أحيانًا. في مستهل ذي الحجة سنة 316هـ (929م) كان إعلان عبدالرحمن الثالث قيامَ الخلافة الأندلسية وكَتَبَ كتابَه إلى جهات الأندلس بذلك، وتَسَمّى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله[2].

---

(1) العصر العباسي الأول، عبدالعزيز الدوري، 94، 149 - 156، 221 - 222. المجلة التاريخية المصرية، 4/ 1/ 157 - 167. كذلك: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، عنان، 218 ـ 224.

(2) العبر، 4/ 298 (= نفح، 1/ 353). دولة الإسلام، 2/ 429 ـ 430.

وَصَفَ هيبةَ الدولة ومكانتَها - أيامَ الخليفة الناصر- عددٌ من مؤرخينا. عَلَتْ مكانةُ الأندلس وظهرت مركزًا حضاريًّا وقوة سياسية، رعاها الحُكَّام وحماها الأندلسيون وبذل لها الجميع مُكْنَتَهم، بحرص شديد في ظل الإسلام وضوء عقيدته. قاد الخليفة الناصر لدين الله ذلك الموكب: «وهابته أمم النصرانية»[1]. ذَكَرَ مؤرخونا تَكرُّر وُرُود السفارات مِن مختلف الأمم والبلدان، لاسيما غير الإسلامية -المجاورة منها والبعيدة- أمثال ابن حَيّان القُرطبي وابن خَلدون. عن هؤلاء وغيرهما نقل المَقَّري، صاحب نفح الطيب، نجتزأ من ذلك بعض النصوص. «ومدت إليه أُمَمُ النصرانية مِن وراء الدروب يدَ الإذعان، وأوفدوا إليه رسلَهم وهداياهم من رومة والقُسْطَنْطِينيّة في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته، ووصل إلى سُدَّته مُلوكُ الجَلَالِقَة من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قَشْتالَة وبَنْبَلُونَهْ وما إليها من الثُّغور الجَوفية، فَقَبَّلوا يدَه، والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه، وامتطوا مركبه»[2]. يروي المَقَّري في هذا ما: «ذكر ابنُ حَيَّان وغير واحد أن مُلْكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تَبْقَ أمةٌ سمعت به من مُلوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى، فإنه هاداه ورغب في موادعته»[3].

في هذين النصين إشارة - غير محددة - إلى سفارات قدمت من القسطنطينية إلى الأندلس، بها قسطنطين السابع، لعلها لا تعدو السفارات التي يتناولها الحديث

---

(1) العبر، 4/ 309 (= نفح، 1/ 364).
(2) العبر، 4/ 299 (= نفح، 1/ 354).
(3) نفح، 1/ 366. كذلك: أزهار الرياض، المقري، 2/ 258.

التالي. أضحت الأندلس تمثل زعامة العالم الإسلامي[1]، وازدهرت العَلاقات بين الأندلس والقسطنطينية في عصر الخلافة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). كانت وفود القسطنطينية تتقرب إلى قرطبة وتسعى لعقد صلات المودة معها، بعد الذي عرفته عن الأندلس، من أي سبيل. ربما عمن أرسلهم الناصر إلى القسطنطينية وغيرها لجلب مواد بناء لمدينة الزهراء ومسجد قُرْطُبَة الجامع، قَبْلَ السفارات التالية التي أرسلها قسطنطين أو خِلالَها أو بَعْدَها، كما سيأتي بيانه في السفارة الخامسة.

تُجْمِع المؤلفاتُ الأندلسية، التي تحدثت عن نشاط القسطنطينية الدبلوماسي مع قرطبة أيام الناصر، على ذكر سفارة أرسلها صاحب القسطنطينية، قسطنطين السابع (300-348هـ = 912-959م) المعروف بالأُرجواني («Porphyrogenitus purple») أي: لابس الأُرجوان. تختلف تلك المؤلفات في تاريخ ورود هذه السفارة. جعلها البعض سنة 336هـ (947م)، كذلك فعل ابن خَلدون[2]. ذكر المَقَّري أنها في صفر سنة 338هـ (949م)[3]. أما ابن عِذاري فيضعها في نفس التاريخ السابق (338هـ)[4]، لكنه ذَكَرَ سفارةً سنةَ 334هـ (945م)[5]، من غير إشارة إلى اعتبار سفارتين، إلا أنهما تشتركان عنده في بعض الأوصاف والأحداث وكأنه تحدّث مرتين عن سفارة واحدة. بينما نجد وصفًا مقتضبًا، مشابهًا لِمَا ورد في الكتب الأخرى، لسفارة القسطنطينية، في أعمال الأعلام لابن الخطيب[6]، من غير إشارة

(1) دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 451.
(2) العبر، 4/ 209. كذلك: نفح، 1/ 364.
(3) نفح، 1/ 366.
(4) البيان المغرب، 2/ 219.
(5) البيان، 2/ 313.
(6) أعمال الأعلام، 2/ 37.

إلى تاريخها. يتحدث الطبيب ابن جُلْجُل عَرَضًا عن هذه السفارة يجعلها سنة 337هـ (948م)[1].

حين يتوفر السِّفْر الخاص لهذا النشاط من مُـقْـتَـبِـس ابن حَـيّـان، أو غيره من المصادر الأولى التي تناولت هذا الموضوع سيُكْشَف اللثام عن الصواب في الأمر ويذهب الغموض والحيرة اللتان تتركها هذه النصوص. يتعلق السفر الخامس من المُقْتَبِس، الموجودة خطيته الوحيدة حاليًا في المكتبة الملكية بالرباط بالسنوات الثلاثين الأولى من حكم الخليفة الناصر لدين الله. تقع أخبار هذا النشاط في السِّفْر السادس الذي ندعو الله تعالى الوصول إليه يومًا ما، لعله قريب.

مهما يكن من أمر بالإمكان أن تُسْتَشَفَّ الحقيقةُ أو بعضُها مِن خلال إشارات وردت في النصوص السابقة. تُمكِّن من القول بأنّ السفارات البيزنطية الوافدة إلى قرطبة أيام الناصر كانت أكثر من واحدة، وأنها انحسرت في السنوات العشرين الأخيرة - أو قبلها بقليل - من خلافة الناصر، حين بلغت شهرته الآفاق. واجتذبت الأندلسُ أنظارَ الأمم والدول، بعد أن غدت مركز الزعامة في العالم الإسلامي - أو في غربيه – لِمَا حققه من إنجازات حضارية وما تمتع به من القوة السياسية والعسكرية. كان بَلاط القسطنطينية ممن سعوا لإقامة صلات صداقة بقرطبة وعقد أواصر المودة معها وإيقاع المؤالفة منها. استمرت هذه الرغبة. لأي سبب. بقية عصر الخلافة. لدينا أخبار متناثرة ومقتضبة عن سفارات بيزنطية حضرت قرطبة في مناسبات شتى ولأهداف متنوعة.

---

(1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 3/ 75. طبقات الأطباء والحكماء، ابن جلجل، يط (المقدمة)، 2/ 22.

السفارة الثانية

ذَكَرَ ابنُ خَلدون - خلال حديثه عن وفود متعددة أخرى قَدِمَتْ قُرْطُبة - أنّ سفارة قُسطنطين السابع الأُرجواني (بن ليو السادس بن باسيل الأول) وفدت حاضرةَ الأندلس سنة 336هـ (947م)، أيام الناصر[1]. يصف ابن خَلدون احتفالَ الناصر لاستقبال الوفد واستضافته. كان حفلُ لقائهم مشهودًا مذكورًا قام فيه الخطباء، فتلكأ بعضهم وتقدم القاضي منذر بن سعيد البَلُّوطي الذي عَرَفَ له الناصر مكانتَه. ثم عاد الوفد البيزنطي مع وفد أندلسي مرافق في سفارة جوابية، عادت إلى الأندلس بعد سنتين، مع وفد بيزنطي آخر جديد. واضح من كلام ابن خَلدون الذي يقتبسه المَقَّري في نفحه[2]، أنّ مُقْتَبِس بن حَيّان، الذي سبقت الإشادة به، كان أهم مصدر لهذه المعلومات[3]. العبارة الأَخيرة - نص ابن خَلدون - غنية الأهمية، لأنها تُلقي بعضَ الضوء على ما يكتنف هذا النشاط، وتُعين في دراسة السفارة التالية (الثالثة).

أما نَصُ المَقَّري الآخر، المَزيد المُفَصَّل، في نفح الطيب أيضًا، الذي يكرر بعضه - مع اختلاف قليل وزيادة مفيدة واضحة - في أزهار الرياض[4]، يحدثنا فيه - بشقيه في الموضعين - عن سفارة وفدت على الناصر من قسطنطين السابع. يضع تاريخها في صفر 338هـ (949م)، مع إدراكه للتفاوت في التاريخ، الذي يبدو أنه يعتبره مجرد اختلاف في التاريخ لسفارة واحدة. كما يظهر بأنّ هذا الشرح الذي يبسطه المقري مأخوذ عن أصول عِدَّة مؤرخين لا نملكها الآن، أبرزهم ابن حَيّان - الذي يخصه

---

(1) العبر، 4/ 309 ـ 310.

(2) نفح الطيب، 1/ 364 ـ 365.

(3) نفح، 1/ 366. أزهار الرياض، 2/ 258.

(4) نفح، 1/ 366 ـ 369. أزهار، 2/ 258 ـ 261.

بالذكر - غير واضح ولا مؤكد في نص المَقَّري، من أنّ التاريخ الثاني (338هـ) لهذه السفارة مأخوذ عن ابن حَيَّان، كما أنّه غير قاطع إذا كانت سنة 338هـ هي تاريخ سفارة أخرى. بل يبدو المقري وكأنه يُرَجِّح اعتبار سنة 338هـ تاريخًا آخر لنفس سفارة سنة 336هـ. لذلك المَقَّري يُفصِّل ما أجمله ابنُ خَلدون، الذي اعتاد الاختصار في مثل هذه الأحداث، يوم كانت المصادر متوفرة فيُحيل عليها. المرجح أن هناك سفارتين من الإمبراطور البيزنطي قُسطنطين السابع: الأُولى في سنة 336هـ والثانية في سنة 338هـ. وأنّ الوصف المفصل الذي أورده المَقَّري - منقولًا عن عدد من المؤرخين - يخص السفارة الأولى، المؤرخة سنة 336هـ المستعار منها. بل ليبدو أنه يعتبرها واحدة والاختلاف في تاريخها. الوهم في اعتبارهما واحدة، إما من المَقَّري أو من المؤرخ الذي نقل عنه، لا أظنه يكون ابن حَيَّان. يؤكد هذا نص ابن خَلدون الخاص بالسفارة المؤرخة سنة 336هـ، الذي أَجمل هذه التفصيلات صراحةً وأحال على كتاب ابن حَيَّان بصورة رئيسة. يذكر في إشارته كافة الأخبار التي فصلها المَقَّري واعتبرها متعلقة بسفارة كانت سنة 338هـ.

فهل كل هذه التفصيلات تكررت في السفارتين؟ ذلك مالا يبدو مقنعًا، وإن كان لا يمتنع وجود تشابه بينهما. الأمر المحير أنّ ابن خَلدون لا يذكر سفارة أخرى في سنة 338هـ، لو فعل ذلك لحل الإشكال كليًّا ونهائيًّا. من هنا لا يمكن اعتبار هذا التفصيل - الذي أورده المَقَّري - خاصًّا بسفارة بيزنطية أخرى وردت قرطبة سنة 338هـ. المقري نفسه لم يجزم به بل قال: «فالله أعلم أيهما أصح». إنّه أسلوب جميل يشير إلى الدقة والأمانة وعدم الادعاء، مع بيان الرأي بتواضع. ذلك أحد مواصفات الأسلوب الإسلامي عند أهله من الكتّاب، على اختلاف ميادينهم وتخصصاتهم.

يمكن اعتبار هذا التفصيل خاصًّا بسفارة القسطنطينية لسنة 336هـ. هذا يُبيح إيرادَه (بمعناه) هنا، وصفًا مفصلًا لها. يكاد يكون المَقَّري الوحيد . من بين المصادر المعروفة الآن. الذي حفظ هذه التفصيلات. إنه عمل يشكر عليه ويستوجب أن ندعو الله له بحسن الجزاء. نجد في نفحه وأزهاره كذلك، العونَ في التعرف على تفصيلات تخص النشاط الدبلوماسي للأندلس فيما يتعلق بهذه السفارة وكثير غيرها.

يَصِف المَقَّري كيف تأهب الناصر لاستقبال وفد القسطنطينية في لقاء فخم وقبول حسن وكرم في الضيافة. أرسل الناصر - زيادة في التكريم - وفدًا برئاسة الفقيه يحيى بن محمد بن الليث إلى مدينة بَجّانة (Pechina) على البحر المتوسط؛ لتلقي سفارة القسطنطينية والاحتفاء بها والقيام بخدمتها، ومرافقتها خلال الطريق إلى قُرطبة. لعل الوفد البيزنطي توقف في بَجّانة ريثما يَعلم الخليفةُ بوصوله، لِتُتخذ الترتيبات وتُوضع الرسوم. ذِكْرُ بَجَّانَة - على الساحل الجنوبي الشرقي للأندلس، أول مدينة يصلها الوفد البيزنطي - يُشير أنّ السفارة جاءت إلى الأندلس عن طريق البحر عَبْر المتوسط. هو نفس طريق السفارة الأولى الذي عاد معها الوفد الأندلسي برئاسة يحيى الغَزَال، وإن اختلف الميناء. لمّا اقترب الوفدُ من قرطبة خرج للقائهم عدد من القادة ورجال الدولة، وأُنزلوا في دار ضيافتهم في مُنْيَة الحَكَم (= الثاني، المستنصر بالله، فيما بعد) ابن الخليفة الناصر وولي عهده. تُعرف هذه المُنْيَة (أو القصر) بـ: مُنْيَة نَصْر الواقعة «بعُدْوة الرَّبَض إلى جانب مقبرة الرَّبض العتيقة»[1]، أي ربض شَقُنْدة (Secunda). لعله وُكِل إلى الحكم مهمة تنفيذ الرسوم الخاصة بالوفد والسهر على راحته. وَضَعَ على باب المُنْيَة ستة عشر

(1) المقتبس، ابن حيان، 3/ 38. كذلك: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبدالعزيز سالم، 1/ 208 ـ 209.

رجلًا، اختص كل أربعة منهم بواحد من أعضاء السفارة. يشير هذا إلى أنهم كانوا أربعة، لا نعرف اسم أحد منهم.

كان الناصر في قصره في مدينة الزهراء التي ابتناها، تقع عند أقدام جبل العروس[1] على بُعْدِ نحو ثمانية كيلومترات شمال غربي قُرطبة[2]. رَحَلَ الناصر إلى القصر الخليفي بقرطبة لمقابلة وفد الروم الذي من المقدر أنه أُحيط علمًا بكل ما يتعلق به وبمنهجه. كان الاحتفال لاستقبال الوفد في 11 ربيع الأول سنة 336هـ (بداية/9/947م). رَكِبَتْ العساكر، من مختلف المراتب، تحمل الأسلحة في أتم شكل وأجمل هيئة وظهر القصر بالزينة الكاملة والفُرُش، كان ذلك يومًا مذكورًا عند القرطبيين وآخرين من أهل الأندلس. قعد الناصر بقصر الخلافة القرطبي لاستقبال الوفد في قاعة السفراء في المجلس الزاهر، يحف به - يمينًا ويَسارًا - ولي عهده الحكم وبقية الأبناء.

حضر الوزراء والقادة والقضاة والفقهاء والعلماء ورجال الدولة، حسب مراتبهم ومكانتهم، زُين المجلس بأفخر الزينة. أقبل الوفد البيزنطي محفوفًا بالرعاية وسط هذه الأُبهة. قَدِموا - على ما يبدو - إلى الخليفة للسلام عليه، الذي بدوره حياهم وسأل عن حالهم، وطلب إليهم الجلوس. تُبُودِلتْ عبارات التحية والتَّرْحاب قبل أو بعد الجلوس، كما هي العادة المتبعة. أخذ الوفد البيزنطي مكانه في مجلس، لابد أن يكون أُعد له، قرب أو مقابل مقعد الخليفة. لعل الخليفة أَجرى الكلام مع الوفد حول السفارة ووصولها ووجودها في قرطبة، سأل عن القيصر قسطنطين وحاله. كل هذه الأمور وأمثالها، مما لم يرد الكلام عنها في النصوص، يمكن - لمن درس موضوع الدبلوماسية في الأندلس - تقديرُها أو التعرفُ عليها من المعهود في مثل

(1) وهي جبال قرطبة، وتعرف بالإسبانية Sierra de Cordoba.

(2) نفح الطيب، 1/ 523. قرطبة حاضرة الخلافة، 1/ 233. دولة الإسلام، 2/ 435 وبعدها.

هذه المناسبات. قُدِّمت للخليفة هدايا قسطنطين أمامه في هذه المناسبة أو أشير إليها وجرى ذكرها، ورسالتَه المثقلة الصفة. كان كل ما في الرسالة مكتوبًا باليونانية (الإغريقية)(؟). كُتِبَتْ الرسالة بالذهب في رَقٍّ سماوي اللون، وطَيّ الرسالة مُدْرَجة مصبوغة، كُتب بالفضة وَصْفُ الهدايا وعددها. على الرسالة طابع ذهب، على وجه منه صورة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعلى الوجه الآخر صورتا قسطنطين السابع وولده رُومانُس (Romanus، الثاني فيما بعد). الرسالة موضوعة داخل دُرْج فِضِّي منقوش، ذهبي الغطاء فيه صورة قسطنطين، بديعة الألوان مُزَجَّجَةٌ أو معمولة من الزجاج. ووُضع هذا الدُرْج داخل جِعبة مكسوة بالديباج، كُتِب عليها اسم المرسل (قسطنطين وابنه رومانس) والمُرْسَلة إليه (الخليفة الناصر). للأسف فإنّ مثل هذه الأمور ضاعت ولم يبق لنا منها إلا وَصْفُها. أورد ابن الخطيب خبرها بإيجاز واضح: «ووَصَلَ إليه رسولُ ملك القسطنطينية العظمى؛ راغبًا منه في إيقاع المؤالفة. فقعد له المقعد الشهير الذي لم يتهيأ مثلُه لملك قبله، فدخل الرسول عليه وقد بُهِتَ لهول ما عاينه، ودفع إليه رسالتَه مُودَعة في دُرْج ذهب كثير التصاوير، وكان الكتاب في رَقٍّ سماوي اللون مكتوبًا بالذهب وعليه طابع ذهب، في إحدى وجهيه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين»[1].

لعل الخليفة اطلع على الرسالة وعلى الهدايا أو مفرداتها في الحال أو فيما بعد. كما يمكن أن يكون جرى ذكر لمهمة السفارة وما يرجون من ورائها، لعل هذا كان مدونًا في الرسالة. غير منتظر أن تكون جرت مفاوضات أو مناقشات طويلة في الحفل الترحيبي الأول من وصول السفارة. من المؤمل أن يكون في أعضاء السفارة البيزنطية من يعرف العربية، إن لم يكن كلهم. ربما خُصص لهم مُتَرْجِمٌ ودليل

(1) أعمال الأعلام، 2/ 37.

رافقهم أثناء هذا الاستقبال. مع أنّ النصوص الأندلسية التي لدينا سكتت عن هذا الجانب في سفارتنا الحالية. أما المصادر الأوربية فهي نادرة حتى فيما يتعلق بماجريات هذه الأحداث عندها. الدراسات الحديثة، في بعض أحكامها، اعتباطية ولا تخلو من انتقاص أو غمز.

كان من الترتيبات - قد تولاها الحَكَم - التي أُعدت لهذا الحفل أن يقوم الخطباء من الفقهاء ورجال العلم في هذا المجلس، مبينين مكانةَ الخلافة والأندلس وأحوالها ونعمةَ الله على أهلها بدين الإسلام وما حقق لهم من خير وفضل، وغيرها من الأمور التي تناسب هذا المقام. لعل هذا الأسلوب كان في الأندلس عُرْفًا جاريًا ورسمًا ماضيًا[1]. عَيّنَ الحَكَمُ الفقيهَ: محمد بن عبدالبَرّ الكَسْتِيَاني (363هـ)[2] لإلقاء خطبة في هذا الحفل. لكنه ما إن وقف ليدلي بخطبته حتى أغمي عليه[3] لشدة انبهاره. طُلب إلى إسماعيل بن القاسم أبي علي القالي (288 - 356هـ)، وافد بغداد وصاحب الأمالي والنوادر، رأب الموقف[4]، لكنه ما أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى انقطع به الكلام وأُرْتِجَ عليه القولُ[5]. من الفقهاء الذين حضروا الاحتفال مُنذر بن سعيد البَلُّوطي (273 - 355هـ). كان البلوطي خطيبًا بارعًا وشاعرًا بليغًا، متكلمًا قوي الجَنان رائع البيان، قام - من غير تكليف - ووصل كلام القالي بخطبة بليغة، استشهد فيها بأبيات - ربما ارتجلها - نقلتها عدد من مصادرنا عن ابن حَيّان وغيره[6]. كانت هذه

---

(1) انظر مثالًا آخر: نفح الطيب، 1/ 393.

(2) راجع: ترتيب المدارك، القاضي عياض، 4/ 9. قارن: التكملة، ابن الأبار، 1/ 371 (رقم: 1013).

(3) المرقبة العليا، أبو الحسن النباهي، 66. نفح الطيب، 1/ 368. أزهار، 2/ 273.

(4) ترجمته في نفح الطيب، 3/ 70، 75.

(5) انظر: العبر، 4/ 309. نفح الطيب، 1/ 368. جذوة، 348 (= بغية الملتمس، 465).

(6) راجعها في: المرقبة العليا، 66 ـ 68. نفح، 1/ 369 ـ 374.

المناسبة سبب تعلق الخليفة الناصر بالبلوطي، عَلَتْ منزلته لديه، إلى أن ولاه قضاء الجماعة بقرطبة[1] سنة 339هـ[2]. بذلك تُنهي مصادرنا أخبار هذا الحفل، وتكاد به تنتهي معرفتنا عن أحداث هذه السفارة، لولا أن ينفرد المَقَّري في أزهار الرياض فقط، يذكر لقاءات أخرى تصل إلى الخمسة[3]. لكن العبارة المتعلقة باللقاء الأخير يحيط بها القلق. ثم يبقى ما دار في هذه المقابلات محاطًا بكثير من الغموض. تعود السفارة البيزنطية إلى بلدها من نفس الطريق البحري الذي أتت منه، بعد إقامة في حاضرة الأندلس، تُوهم عبارة أزهار الرياض أنها تزيد على السنة والنصف[4].

لكن مهمة الباحث لا تقف عند هذا الحد. غير معروف يقينًا المدة التي قضاها الوفد البيزنطي في قرطبة، بعد اللقاء الترحيبي هذا. ليست لدينا معلومات عن اللقاءات الأخرى التي جرت لهذا الوفد، مع الخليفة الناصر أو لغيره من المسؤولين، لاسيما ولي العهد الحَكَم، أمر يصعب نفيه. ثم ما هي الموضوعات التي دارت حولها المناقشات ومن أجلها حضر الوفد، غير عَقْدِ المودة وإقامة صداقة. كما يُشار إلى تجديد حسن الصلة التي كانت لدى سلف قسطنطين السابع، وهو سبب غير قوي، رأينا الحرص على المؤالفة في سفارة توفلس أيام الأوسط.

هنا مسألة أخرى مهمة، نص رسالة قيصر القسطنطينية. غير معروف فحوى رسالة الإمبراطور البيزنطي، ولا الهدف الأكيد. غير الصداقة. الذي أُرسلت من أجله هذه السفارة. هل كان من أهدافها قضية مسلمي إقْرِيطِشْ، الذين مازالوا فيها، وقت هذه السفارة؟

---

(1) نفح، 1/ 372 ـ 373.
(2) قضاة قرطبة، ابن حارث الخشني، 120.
(3) أزهار، 2/ 258 ـ 261.
(4) أزهار، 2/ 261.

أما عن هدية قُسطنطين للخليفة فلا نَعرف ماهيتَها، مهم هنا ما ذكره البعض من أنها احتوت كتابين. الغريب أنّ هذا أمر لم يذكره هؤلاء المؤرخون، إلا أن يكون ذِكْرُهم له ذَهَبَ مع الكنوز الضائعة أو المدفونة. غير أنّ الطبيب الأندلسي ابن جُلْجُل (332 ـ نهاية القرن الرابع الهجري) هو الوحيد، على ما يبدو، الذي يذكر عَرَضًا مقطعًا من رسالة قسطنطين، التي حملتها هذه السفارة حين الحديث عن أحد الكتابين، يتحدثُ في الطب. الظاهر أنّ الكتابين كانا ضمن هدايا هذه السفارة التي ـ حَسَبَ ابن جُلْجُل ـ كانت سنة 337هـ (948م). المرجح أنه يعني سفارتنا الحالية التي وردت سنة 336هـ. ذكر ابن جُلْجُل خبر السفارة وسطورًا قليلة من نص رسالة القيصر قسطنطين تتعلق بالكتابين، وإن كان يُفْرِد المُرْسِل ويجعله رومانس بن قسطنطين السابع صاحب السفارة. جاء ذلك في مقدمة كتاب ابن جُلْجُل الموسوم: «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس» التي حفظها ابن أبي أُصَيْبِعة في كتابه: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»[1] الكتابان هما:

الأول: كتاب «الحشائش» في النباتات (Materia médica) لديسقوريدس (Dioscorides) اليوناني. كان الكتاب باللغة اليونانية التي يندر عارفوها يومئذ في الأندلس.

الثاني: كتاب في التاريخ باللغة اللاتينية (Historiarum Livri Septem adversos taganos) تأليف هروشيش (Paulus Orosius) مؤرخ إسباني في القرن الرابع والخامس الميلادي. قِلَّةُ العارفين أوعَدَمُهم باللغة الإغريقية في الأندلس دعت الناصرَ يرغب إرسالَ مَن يعرفها مِن القيصر قُسطنطين لترجمة

(1) عيون الأنباء، 3/ 75 ـ 76. مقدمة تحقيق كتاب: طبقات الأطباء والحكماء (بع).

كتاب الحشائش. لا مشكلة مع كتاب هيروشيش لتوفر العارفين باللغة اللاتينية في الأندلس. يوضح ذلك ما نقله ابن جُلْجُل من نص رسالة القيصر إلى الناصر، هذا يعني أنّ الرسالة كانت معروفة أو مدونة، مع بقاء الاستغراب في عدم ذكر الآخرين لما يذكره ابن جُلْجُل، أمرٌ يستوقف الباحث لوضع علامة استفهام تبحث عن جواب. يدعو إلى إعادة النظر في أمر الكتابين أو في متعلقاتهما.

مما جاء في رسالة قُسطنطين السابع - فيما ينقله ابن جُلْجُل - قوله: «إن كتاب ديسقوريدس لا تُجْتَنى فائدتُه إلا برجل يُحسن العبارة باللسان اليوناني. ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك مَن يُحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب، وأما كتاب هروشيش فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي»[1]. حين طلب الناصر عارفًا بالإغريقية أرسل إليه قسطنطين راهبًا لهذا الغرض، كما سيأتي بيانه. لكن بأي لغة كُتبت هذه الرسالة؟

بهذا تنتهي وقائع وجلُّ متعلقات أول سفارة كانت بين الأندلس والقسطنطينية - سنة 336هـ (947م) - في عصر الخلافة الأندلسية، هي الثانية بينهما في النشاط السفاري العام منذ وجود المسلمين في الأندلس. الظاهر أنها نفس السفارة التي ذكرها ابن عِذاري في بيانه سنة 334هـ (945م)[2]. كل الأخبار التي ذكرها ابن عِذاري - بعد الحذف الكثير والاختصار- مذكورة في وصف السفارة الحالية، وهو لا يعني غيرها. هي نفس السفارة التي يَحْسَب ابن جُلْجُل أنها كانت سنة 337هـ (948م). مادام ابن جُلْجُل لا يقطع بهذا التاريخ، الذي انفرد به، فلا يؤخذ قاعدة. لعله كتب هذا الكلام والمصادر ليست بقربه ليعود إليها بل

---

(1) عيون الأنباء، 3/ 76، طبقات الأطباء (ك).

(2) البيان، 2/ 213.

اعتمد على معلوماته السابقة عنها. أهمل فيها اسم الملك الأصيل فجعله أرمانوس (Romanus) بدلًا من قسطنطين السابع، بينما هو أمر ثابت لم يختلف فيه المؤرخون، لم يكن ابن جُلْجُل مؤرخًا.

لكن لماذا وضع ابن عِذاري تاريخها سنة 334هـ بدلًا من 336هـ، التاريخ الذي اعتُمد في الدراسة الحالية لهذه السفارة. لم يَذكر ابن عِذاري مصدرَه. بينما يذكر ابن خَلدون، الذي اعتمد في وصفه وتاريخ السفارة عنده ابنَ حَيّان مصدرًا له. لعل ابن عِذاري لم يكن متثبتًا، أو وقع الخطأ في النقل أو النسخ. لكن الذي يزيد هذا الأمر صعوبة أنّ ابن عِذاري يَذكر سفارةً بيزنطية في أحداث سنة 338هـ (949م)، باختصار أكثر مُكَرِّرًا ذات المعاني والملامح للسفارة السابقة. قد يشير هذا إلى أنّ الوصف الوارد عن السفارتين عند ابن عِذاري يخص سفارة واحدة. لعل اختلاف تاريخها في المصادر هو الذي ساق ابن عِذاري إلى هذا، لم يُشِرْ هو نفسُه إلى سفارة سنة 338هـ بأنها الثانية من قيصر القسطنطينية، ولو أنّ ذلك ليس قاطعًا.

لكن السفارة التي تبدو أنها كانت سنة 338هـ أو بعدها (أو كليهما)، سفارة بيزنطية أخرى إلى قُرطبة كما ستأتي مناقشتها. لعل عدم وجود وصف واضح، جعل ابن عِذاري يكرر الوصف ويستعير بعضه من السفارة السابقة، وإن كان هذا ليس بالقوي، لاسيما وأنّ ابن عِذاري مؤرخ ثَبْت ذكي. يقابل هذا الإشكال أنّ ابن خَلدون، الذي نقل أخبار سفارتنا الحالية وحدد لها سنة 336هـ تاريخًا، لم يذكر سفارة أخرى في 338هـ - أو في سنة محددة بعدها - جاءت من بيزنطة إلى قُرطبة أيام الناصر، لكنه ذَكَرَ سفارةً أخرى أيامَ الناصر، دون تاريخ محدد. لم يزد ابن خَلدون، الذي اعتاد اختصار مثل هذه الأمور، على الإشارة إلى الثانية، لعله اعتَبَرَ تفصيلَ الوصف تكرارًا أمرًا مقبولًا. لا يبدو خطًّا اعتبار سنة 336هـ، التي

حددها ابن خَلدون، تاريخًا لهذه السفارة؛ لأنّه ينقل عن ابن حَيَّان بشكل أَوعب من ابن عِذاري. عن ابن خَلدون ينقل المَقَّري دون أن يُخَطِّأه، مع أنّ المقري اطلع على تاريخ آخر لهذه السفارة أو غيرها. لكن لماذا لم ينقل المَقَّري مباشرة عن مُقْتَبِس ابن حَيّان الذي كان تحت يده، على ما يبدو؟ أو كان ينقل عنه بالواسطة؟ لعله نقل من هنا وهناك.

الخلاصة : أنّ سنة 336هـ هي تاريخ هذه السفارة الحالية. إنّها الأولى التي كانت من بيزنطة إلى قُرطبة أيام الخليفة الناصر، رغم التباين في تاريخها وتفصيلاتها، التاريخ الذي ذكره ابن خَلدون ونقله المَقَّري في نفح الطيب وأزهار الرياض. إنّ التفصيلات التي أجمل خطوطَها ابنُ خَلدون وذكرها . مجملًا ومفصلًا . مؤرخون غيره تخص هذه السفارة، وليست سفارة أخرى كانت سنة 338هـ، التي ربما أخذت شكلًا آخر، مشابهًا أو مختلفًا.

رغم التفاوت في التفصيلات ومراحل الاستقبال إلا أنّ هناك تشابهًا جامعًا، بين المصادر كافة تقريبًا، في المعاني والأحداث والعبارات أحيانًا كثيرة. مما يدل على التضافر والنقل عن ثقة مُطَّلِع مشاهد، واحد أو أكثر، كابن حَيّان القُرطبي وغيره، ممن سبقوه وأخذ عنهم كآل الرازي، أو عاصروه أو أتوا بعده، نالت يدُهم مثلَ هذه المحفوظات الوثائقية.

حين يَتْرُكُ وفدُ قسطنطين قُرطبة يعود إلى بلده، صحبةَ سفارة أندلسية يرسلها الناصر، جوابًا على مَقْدَمهم، كما حدث في السفارة المزدوجة السابقة سنة 225هـ أيام الأمير عبدالرحمن الأوسط. مع عدم ورود ما يتعلق بالعودة وطريقها، لكن يظهر بأنّه نفس الطريق البحري، عبر المتوسط. سلكت السفارةُ البيزنطية

الحالية والسفارات قبلها، طريقَ الوفود التالية الأخرى. لا نعرف أي تفصيل عن ذلك ولا متى كانت العودة أو صفتها.

معرفتنا لهذه السفارة الأندلسية الجوابية مستمدة من عبارة موجزة وردت في نص ابن خَلدون السابق ذكره. هي: «ثم انصرف هؤلاء الرسل، وبعث الناصر معهم هشام بن كُلَيْب الجاثَليق ليجدد الهدنة، ويؤكد المودة، ويُحْسِن الإجابة»[1]. بينما نجد النصَّ نفسَه عند المَقَّري منقولاً عن ابن خَلدون مختلفًا نوعًا مّا، وهو: «ثم انصرف هؤلاء الرسل، وبَعَثَ الناصر معهم هِشام بن هُذَيْل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة»[2].

يُستفاد من العبارة السابقة بشكليها أنّ هذه السفارة الجوابية أعربت عن قبول عرض الصداقة وعَبّرَتْ عن حسن المجاملة والمعاملة، كما نَقلت هدية الخليفة الحافلة الثرية، التي لا نَعرِف محتوياتها، ولابد أنّها حملت رسالته التي لا ندري خبرًا عنها ولا عن فحواها.

أمّا عن السفير الأندلسي، فلا نعلم ما إذا كان وَحْدَه أو مصاحَبًا. ليس لدينا أيّة معلومات عن هذه الشخصية. لم تتوفر معلومات عنه في الصورتين الواردتين عن اسمه. لعل كلمة: «الجاثليق» في اسمه - حسب رواية ابن خَلدون - مأخوذٌ من الكاثوليكي، لعله يكون مسلمًا من أصل نصراني[3]. فهل هِشام هو - حسب رواية المَقَّري - أخو يحيى بن هذيل الشاعر المشهور (385 أو 386هـ)[4]؟

---

(1) العبر، 4/ 310.

(2) نفح الطيب، 1/ 365.

(3) العبر، 4/ 315.

See: Histoire, Lévi-Provençal, II, 150 (Sp.tr., IV, 350).

(4) جذوة المقتبس، 381 (رقم 908).

مهما يكن من أمر فقد اتضح أنّ الناصر أرسل سفارة جوابية ذهبت إلى القسطنطينية مع وفدها العائد. غير أنّنا لا نعرف تفصيلات عن طبيعتها وكنهها غير ضئيل من المعلومات التي تعطيها صفة: «سفارة مجاملة». لكن لعل هناك أمورًا أخرى دعت الخليفة الناصر أن يتكلف توجيه سفارة تَحْمِل مشقة السفر راكبة ثَبَجَ البحر في طريق شاق، متوقع الأخطار بعيد.

السفارة الثالثة

اختلاف تاريخ السفارة السابقة (الثانية) أمرٌ يُلْفِت النظرَ ويدعو الباحث للتأمل. هل يعني ذلك بذاته ورود أكثر من سفارة بيزنطية إلى قُرطبة، أيام الناصر، في سنوات قليلة متتابعة تقريبًا؟ إنّه ممكن تمامًا. لكن المربك أنّ الوصف في كلها - رغم الاختلافات التفصيلية - متشابه عمومًا، في ترتيباته وأحداثه ووصفه وماجرياته، بل حتى في بعض عباراته. ليس لدينا نص واضح يحسم الأمر. لكن الاختلاف في تاريخ السفارة يبحث عن حل ويدعو إلى الاقتراح؛ لوجود أكثر من سفارة بيزنطية قَدِمَتْ إلى قُرْطُبة في النصف الثاني من أيام الخليفة الناصر لدين الله. حتى من غير التنبيه لهذا الاقتراح أو التفكير فيه. هناك عبارة موجزة تعطينا مفتاحًا لإزالة الارتباك وتأكيد الاحتمال وتأصيل حقيقته.

هذه العبارة الموجزة نجدها في نص ابن خَلدون - الذي نقله المَقَّري، وسبق الاقتباس منه والإشارة إليه أكثر من مرة - المتعلق بالسفارة. بعد أن رحل وفد قسطنطين السابع عن قرطبة عاد هذا الوفد إلى القسطنطينية، بصحبة وفد أندلسي أرسله الخليفة الناصر. لعله مجيب على أمور أثارها قسطنطين، استحقت الإجابة عليها والتفاهم حولها بسفارة جوابية، أنجزت الهدف وأحكمت أداء المهمة، كما أشير إليه. الظاهر أنّ المهمة كانت كبيرة اقتضت الوفد الأندلسي أن ينفق

لها سنتين مع مدة الطريق ذهابًا وإيابًا أو بدونها، وإن كان الأول أكثر انسجامًا مع النص. في عودة الوفد الأندلسي - من سفارته الجوابية - إلى قرطبة كانت بصحبته سفارة بيزنطية أخرى أرسلها قسطنطين السابع.

المؤرخُ الوحيدُ - ممن وصلنا إنتاجه - الذي ذكر هذا الخبر هو ابن خَلدون - باقتضاب جِدٌّ شديد - في جملة قصيرة مبهمة. بعد أن يروي خبر السفارتين المتبادلتين، البيزنطية السابقة، وجوابها الأندلسية، يقول: « ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين»[1]. يُشِيرُ هذا النص بصراحة إلى سفارة أخرى حضرت من بيزنطة إلى قرطبة. فهل أنّ وفد هذه السفارة البيزنطية كان نفس وفد السفارة السابقة؟ وهل جاءت لعين الهدف أو لأمور أخرى، وما هي؟ لكن متى وصلت هذه السفارة البيزنطية إلى قرطبة، وماذا عملت، وأية رسالة أو هدايا حملت، وأين أقامت، وكيف استقبلت، وماذا أنجزت، وكم من الوقت أمضت، متى عادت منفردة أو مُصاحَبَةً لوفد أندلسي؟ كل ذلك نجهله تمام الجهل. ليس لدينا من المعلومات عن هذه السفارة ما تسمح لنا بمناقشتها. لكن فيما يتعلق بتاريخ وصولها الأندلس أمر ممكن الحديث عنه.

إذا اعتبرنا سنة 336هـ (وفي شهر صفر منها) تاريخًا مقبولًا لوصول سفارة قسطنطين الأول إلى الأندلس (الثانية) واحتسبنا الرسوم واللقاءات التي أخذت بها وأنجزتها هذه السفارة، ثم عودتها إلى القسطنطينية مع وفد أندلسي، جوابي المهمة والصفة. إذا وضعنا تاريخ عودتها إلى القسطنطينية في أواسط سنة 336هـ. حسب ما أورده المَقَّري في نفحه وأزهاره[2]. تكون هذه السفارة الحالية (الثالثة) قد وصلت إلى الأندلس أواسط سنة 338هـ (949م)، اعتمادًا على عبارة ابن خَلدون

(1) العبر، 4/ 310. نفح، 1/ 365.

(2) نفح الطيب، 1/ 366. أزهار الرياض، 2/ 258 ـ 261.

السابقة. أمّا إذا اعتبرنا أواسط سنة 338هـ تاريخًا للسفارة السابقة، فإنّ تاريخ السفارة الحالية يكون أواسط سنة 340هـ (951م)، ظاهر الأمر هذا احتمال مرجوح وضعيف السند. لكن هل السفارة البيزنطية الحالية هي التي جاءت بالراهب نقولا (Nicolas) لترجمة كتاب إغريقي، كما سيأتي بيانه. هكذا فإنّ هذه السفارة مغلقة المداخل مجهولة الأحداث غامضة الحال.

السفارة الرابعة

إذا كانت سنة 338هـ تاريخًا مقبولًا لوصول ثاني سفارة بيزنطية إلى قُرطبة يرسلها الإمبراطور قسطنطين السابع، وأنّها لم تحمل الراهب نقولا، بل كانت سفارة دبلوماسية جاءت لتعزيز عَلاقة وتأكيد مودة وحل مشكلة، فإنّه بالإمكان اعتبار حضور نقولا إلى الأندلس - منفردًا أو مصاحَبًا - كان في سفارة أخرى بعد هذا التاريخ (338هـ). هذا طبعًا إذا أخذنا بقضية إهداء كتابي ديسقوريدس وهروشيش وقَبِلْنا متعلقاتها، منها وصول نقولا إلى قرطبة. لعل الهدية كانت مع السفارة البيزنطية لسنة 336هـ. ينفرد بذكر هذه الهدية وما ترتب عليها ابنُ جُلْجُل في مقدمة كتابه: «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس»، كما يرويه ابن أبي أُصَيْبِعة. يخبرنا أنّ وصول نقولا إلى الأندلس كان سنة 340هـ. لمَّا لم يكن في الأندلس من يعرف الإغريقية بقي كتاب الحشائش لديسقوريدس في خزانة الناصر الذي طلب من قسطنطين إرسال مَنْ يعرفها. لعل طلب الناصر تم هذا في جواب السفارة البيزنطية السابقة التي حضرت سنة 338هـ. رَغِبَ الناصر إلى قسطنطين أن يرسل إليه من يعرف الإغريقية واللاتينية، فبعث الإمبراطور إلى الناصر براهب كان يسمى نقولا، فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلاث مئة[1].

(1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 3/ 76. طبقات الأطباء والحكماء (المقدمة) كا، 2، 22.

يبدو في بعض المعلومات التي يقدمها ابن جُلْجُل - كما ينقلها ابن أبي أُصَيْبِعة - الضعف وقلة الانسجام. لكن هل نقولا (Nicolas) حَضَرَ وَحْده. أم ضمن وفد بيزنطي جاء إلى الأندلس لهذا الغرض فقط أو مع مهمات أخرى؟ كل ذلك لا تقدم لنا النصوص المتوفرة عنه جوابًا. يخبرنا نَصُّ ابن جُلْجُل السابق أنّ نقولا بقي في الأندلس حتى وفاته في صدر دولة المستنصر بالله الحَكَم (الثاني) (350 - 366هـ). كان ابن جُلجُل على عَلاقة به[1]. هكذا تُتْرَك صورةُ هذه السفارة ناقصةً، قد لا تخلو من القلق. تبقى عشر سنوات من حُكْم الخليفة الناصر لدين الله، بعد هذه السفارة، لا نجد فيها نشاطًا دبلوماسيًّا بين الأندلس وبيزنطة.

السفارة الخامسة

ليست لدينا أخبار صريحة عن سفارة بيزنطية أخرى حضرت إلى الأندلس، أيام الناصر، من قسطنطين السابع، أو من ابنه رومانُس الثاني. بالإمكان أن يتأول الباحث توقف النشاط السفاري بينهما بعد السفارة السابقة، حتى وفاة الناصر، منتصف القرن الرابع الهجري.

لكن لدينا نتف من الأخبار وشذور من المنقولات عن مواد بناء، جُلبت إلى الأندلس من القسطنطينية؛ لتُسْتعمل في بناء مدينة الزهراء، التي أنشأها الناصر، وللزيادات التي قام بها في مسجد قرطبة الجامع. جلبها إلى الأندلس رسلُه الذين وجههم - في وقت واحد، أو في أوقات متفاوتة - إلى بلدان عدة، منها القُسْطَنْطِينِيَّة، أو كانت هدية من صاحبها. الراجح أنّ مواد البناء المجلوبة إلى الأندلس من القسطنطينية - شراءً أو إهداءً من صاحبها - كانت خلال حكم الإمبراطور قسطنطين السابع (300 - 348هـ = 912 - 959م) الذي عاصر حُكْمُه

---

(1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 3/ 77. طبقات الأطباء والحكماء.

خلافةَ الناصر (300 - 350هـ = 912 - 961م) إلا قليلًا. بل ليبدو أنّ ذلك تم قبل ورود سفارات قسطنطين إلى الأندلس أو خلالها حتى سنة 340هـ (951م).

جُلِبَتْ إلى الأندلس من القسطنطينية مواد بنائية متعددة الأنواع، سواء ما كان منها هديةً أو شراءً. يمكن إيرادها - من المصادر المبثوثة فيها - على الشكل التالي:

زاد الخليفةُ الناصر زيادتَه المشهورة في المسجد الجامع القرطبي[1]، وزَيَّن قبلة المسجد بالفُسَيْفُساء (Mosaic, Mosaico) التي أهداها له صاحب القُسطنطينية، حسبما تذكره مراجعنا. يقول الإدريسي حين الحديث عن المسجد الجامع القرطبي: «ولهذا المسجد الجامع قبلة يُعْجِز الواصفين وصفُها، وفيها إتقان يبهر العقولَ تنميقُها وكل ذلك من الفُسَيْفُساء المذهب والملون، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبدالرحمن المعروف بالناصر لدين الله، الأموي»[2].

لكن لا نعرف متى كانت هذه الهدية ولا كيف تمت. وهل كانت هذه الفُسَيْفُساء ضمن الهدايا التي حملتها إحدى سفارات قسطنطين السابع السابقة، أرسلها ابتداءً أو بناءً على طلب من الناصر، منفردة أو مع مواد بناء أخرى لمدينة الزهراء؟ تلك أمور لا نملك لها جوابًا مريحًا. لعلها كانت هدية استحسن قسطنطين إرسالها الى الناصِر. يُذكر موضوع وصول الفُسَيْفُساء لمسجد قُرطبة الجامع أنه أيام الخليفة الحَكَم الثاني. اعتَبَر بعض الدارسين أنّ الخبرين متعلقان بحالة واحدة أيام الناصر[3]. لكن الذي يبدو أنّ كليهما واقع. فهناك حالتان: الحالة

(1) البيان المغرب، 2/ 228.

(2) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق، 209) (= وصف المسجد الجامع بقرطبة، 6). كذلك: الروض، 154. فرحة الأنفس، ابن غالب، مجلة معهد المخطوطات العربية، 1/ 2/ 298. نفح، 1/ 547.

(3) قرطبة حاضرة الخلافة، 1/ 34 ـ 26 وبعدها.

الأولى، أيامَ الخليفة الناصر، والحالة الثانية: أيامَ الخليفة الحَكَم المستنصر، هذه غير تلك.

جُلِبت أيامَ الناصر بعضُ مواد بنائية لمدينة الزهراء، التي ابتدأ بناءها، من القسطنطينية في مناسبة أو أكثر، كان فيها حوضان فيما يبدو.

1. وَجّهَ الخليفةُ الناصرُ أحمدَ الفيلسوف أو غيرَه لجلب: «الحوض المنقوش المذهب من الشام، وقيل: من القسطنطينية، وفيه نقوش وتماثيل على صورة الإنسان، وليس له قيمة»[1].

2. يقول المَقَّري: «وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية»[2]. فهل أحمد الموجَّه إلى القسطنطينية في كلا الحالين هو عين الشخص؟ أهدى صاحب القسطنطينية «اليتيمة» (صهريج أو حوض كبير)[3] للناصر؛ ليزين بها مجلس قصر الخلافة الزهراء. كانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصرَ بها ليونُ ملكُ القسطنطينية»[4]. لكن الواضح أنّ مُهْدِي اليتيمة ليس ليون (ليو السادس 273 ـ 300هـ = 886 ـ 912م)، بل قسطنطين السابع. ولعل أصل النص «اليوناني»، كما ورد عند ابن عِذاري: «وأمّا اليتيمة التي كانت في المجلس البديع، فإنّها كانت من تحف قيصر اليوناني صاحب القسطنطينية، بعث بها للناصر مع تحف كثيرة سَنِيّة. فسبحان من لا يَبيد ملكُه ولا ينقطع عزُّه!»[5]. ربما كلاهما صحيح ولا خلط بينهما أو فيهما. أهدى صاحب

---

(1) نفح، 1/ 526، 568 ـ 569. أعمال الأعلام، 2/ 38.

(2) نفح، 1/ 568. أعمال الأعلام، 2/ 38.

(3) نفح، 1/ 527.

(4) نفح، 1/ 527، 541.

(5) البيان المغرب، 2/ 232.

القسطنطينية (قسطنطين السابع) عددًا من السواري، استُعملت في بناء مدينة الزهراء: «وذكر المؤرخ أبومروان ابن حَيّان صاحب الشرطة: أنّ مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة وحاملة ومحمولة، ونَيِّف هو اثنتا عشرة على ثلثمائة سارية، قال: منها ما جلب من مدينة رُومة ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية»[1]. لكن لا نعلم إذا كانت بعض هذه الهدايا جَلَبَها سفراء القسطنطينية إلى قرطبة مع مبعوثين أندلسيين أو بدونهم. الظاهر أنها أو أكثر جُلِبَتْ بواسطة مبعوثين أندلسيين ذهبوا لهذا الغرض، لم يذهبوا مع سفارات الأندلس الجوابية. لعل بعضها كانت هدية تَقدَّم صاحبُ القسطنطينية بإهدائها معهم إلى الخليفة الناصر من غير طلب، والأخرى كانت تلبية لطلب هؤلاء المبعوثين، وربما إهداءً أيضًا. كما يبدو أنّ هذه الإهداءات كانت في سفارة واحدة، جُلِبَتْ موادُّها عن طريق البحر[2].

لو استطعنا معرفة تاريخ زيادة الناصر في مسجد قُرطبة الجامع لأعاننا ذلك على تعيين تاريخ هذه السفارة الأندلسية. لكن لم نتبين ذلك بل نجهله. الظاهر أنّ هذه السفارة - إن كانت متأخرة - تمثل آخر نشاط دبلوماسي بين الأندلس والقسطنطينية أيام الناصر الذي كان المبادر فيها، وهذا يعني أنّ ما يقرب من عشر سنين (أيام الناصر) كانت خالية من هذا النشاط.

---

(1) نفح الطيب، 1/ 566. كذلك: أزهار، 2/ 268.
وفيه: «وذكر.. ومحمولة، ونَيِّف على ثلاث مئة سارية زائدة. وفَسَّر بعضهم هذا النَّيِّف بثلاث عشرة، منها ما جُلب...».
(2) نفح، 1/ 569.

السفارة السادسة

كانت هذه السفارة أيام الحكم المستنصر (الخميس 3 رمضان 350هـ - 3 صفر 366هـ)، الذي وَجّهَ وفدًا إلى صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة لجلب الفُسَيْفُساء وصانع لها، لمسجد قرطبة الجامع، حين زاد فيه الخليفة الحَكَم وحَسّن وجَدَّدَ[1] نجد خبر هذه السفارة الأندلسية عند عدد من مؤرخينا[2]، لكن تبقى بعض القضايا دون بيان. مهما يكن من أمر، فإنّ هذه النصوص تدعو إلى اعتبار أنّ سفارة الحَكَم هذه غيرُ سابقتها أيام الناصر. لكن هذه المرة تسعفنا النصوص لمعرفة تقريبية بتاريخ زيادة الحَكَم، مما يعيننا على معرفة تاريخ تقريبي لهذه السفارة[3]. في أيام الناصر الأخيرة توفي قسطنطين السابع (348هـ = 959م). وَرِثَه ابنه أرمانوس (رومانوس الثاني 348-352هـ = 959-963م)، الذي وجه حملة قوية للقضاء على سلطان المسلمين في جزيرة إقريطش (كريت) سنة 350هـ (961م)[4]. إذا كان الخليفة الحكم المستنصر قد افتتح خلافته بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، «وهو أول عهد أنفذه»[5]، ابتدأ اتخاذ الاستعدادات، يكون من المعقول أنّ سفارته وصلت القسطنطينية خلال سنة 351هـ (962م)، أيام رومانوس هذا. لكن هناك استفهامان ممكن إثارتهما:

الأول: هل كانت الأندلس حتى ذلك الوقت تجهل صناعة واستعمال الفُسَيْفُساء، وبحاجة إلى من يعلمها إياها[6]؟ لاسيما وقد مر استعمال الناصر

---

(1) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، 63.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، 4/ 1/ 65.

(3) انظر: البيان، 2/ 241.

(4) نفح، 3/ 162.

(5) البيان، 2/ 233.

(6) راجع، نفح، 1/ 202.

لها[1] وسبق استعمال المسلمين لها مبكرًا في المشرق، منذ أيام الوليد بن عبدالملك (86 - 96هـ) الذي استدعى صناعًا بيزنطيين[2]. إلا أن تكون استعانةَ زيادة وتأكيدًا في الإتقان أو تفننًا في صناعتها.

الثاني: كيف يُرْسِل الحَكَمُ وفدًا لجلب مواد بِنائية لزيادته في مسجد قرطبة الجامع من أرمانوس الذي حارب مسلمي إقريطش وسفك دمهم وقضى على سلطانهم؟ فهل أنباء هذا الحدث لم تكن وصلت الأندلس بعد؟ ذلك ما يدعو إلى اختبار هذا الموضوع.

السفارة السابعة

كلُّ أو جُلُّ الأسباب السابقة التي دعت بَلاط القسطنطينية إلى المبادرة في إرسال سفرائها إلى قرطبة مازالت قائمة، طوال عصر الخلافة الذي استمر نحو قرن. إلا ما كان من إجلاء مُسْلِمة إقريطش، وهو أمر كبير. أما من ناحية قُرطبة، لعله ليس من السهل تصور أخذ المبادرة في توجيه سفارة إلى القسطنطينية. إلا أن يكون هدفُها متعلقًا بما جرى لمُسلمة إقريطش والتباحث في حمايتهم وتأمين مصيرهم. فهل حدث ذلك؟ هذا ما دعى إلى إعادة تقويم بعض الأخبار المتعلقة بالسفارة السابقة.

لكن السفارة الحالية كانت المبادرة فيها للقسطنطينية أيضًا. فهل اعتزم البَلاط البيزنطي إزالة جفوة حدثت مع قرطبة، وكشف غيوم لَبّدَت جَوَّ الصداقة السابقة؟ ذلك ما لا تسعفنا النصوص الحالية فيه.

---

(1) أعلاه، 335.

(2) البيان، 2/ 237. المقدمة، ابن خلدون، 3/ 1070. رحلة ابن بطوطة، 88.

يُتْحِفنا ابنُ حَيّان القرطبي - في سِفْر غير تام من مُقْتَبِسه - بخبر هذه السفارة، في نص يزيل بعض صعوبات، أثقلت صورةَ سفاراتٍ سبقت. ابن حَيَّان ممن اهتم بتسجيل هذا النوع من النشاط. يذكر لنا: أنّه في يوم الأحد 23 جمادى الأولى، سنة 361هـ (972/3/8م) وَصَلَ إلى قرطبة رسولُ يوحنا الأول الشميشق (John I Tzimaskes، 358 - 366هـ = 969 - 976م)، المتغلب على العرش البيزنطي، بعد قتله الإمبراطور نُقْفُور الثاني فوقاس (352 - 358هـ=963 - 969م). كان يوحنا قبل ذلك يشغل منصب الدمستق (Domesticus) أي رئيس حرس القصر الإمبراطوري وقائد الجيش العام[1].

لعل ابنَ حَيَّان معتمدُنا الوحيد في هذه السفارة التي يقول عنها:

«وفي يوم الأحد لسبع بقين من جُمادى الأولى، وصل إلى قُرطبة قُسطنطين المَلَقي، رسول صاحب القُسطنطينية، المقدم على مملكة الروم، فسعى في قتله هذا الملك، الذي أنفذ رسوله هذا إلى الخليفة المستنصر بالله، واسمه أبو السمسقين. وليس من أهل بيوت مملكتِهم بل كان هو الدمستق ليعفرن قبله فانتزى مكانه، فَكَرَّمَ الخليفةُ رسولَه وأمر بإنزاله في مُنْيَة البنتي، وأُجْرِيَت عليه الجراية الواسعة»[2]. رغم أهمية هذا النص كما ورد، الذي شُوِّهَتْ فيه أثناء النسخ بعضُ الأعلام والكلمات، إلا أنّه يترك عدة متعلقات بالسفارة دون بيان. فلا نعلم عن مهمتها وماجلبت معها، واستقبالها ومباحثات قامت بها، والمدة التي أنفقتها، وما الذي توصلت إليه، ثم متى وكيف عادت؟ لكن المتوقع أن توفرت الرعاية في الإقامة والكرم في الضيافة، احتفالاً

(1) أوربا العصور الوسطى، عاشور، 1/ 423. الإمبراطورية البيزنطية، بينز، 62، 177، 405.
Historia Arabe Española, F. Codera, IX, 196-7. Histoire, Lévi-Provençal, II. 181-2 (Sp. tr., IV,303).

(2) المقتبس، ابن حيان، 71 ـ 72 (بيروت، 1965).

أقيم لاستقبالها، ومقابلات تمت جرى خلالها وبعدها التفاهم، وأجيبت مطالبهم ورسالتهم، التي حملوها إلى مرسلهم مع هدايا له ولهم. تلك رسوم وأسلوب وعُرْفٌ جَرَتْ عليه وتَبَنِّيهِ دوامًا الدبلوماسية في الأندلس في طابَعٍ صافٍ أصيل.

السفارة الثامنة

حين التفتيش، عن نصوص أخرى تتعلق بهذا النشاط، توفر نص مقتضب غامض لابن الكَرْدَبُوس (أواخر القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي) نُشر حديثًا. يذكر خبرَ سفارة وردت إلى الأندلس أيام تغلب الحاجب المنصور، محمد بن أبي عامر (366 ـ 392هـ = 976 ـ 1002م)، على حكم الأندلس.

يقول حين الإشادة بالمنصور: «حتى دانت له أقاصي بلاد الشرك، ودخلت له بالسلم تحت الملك إلى أن وافاه رسول صاحب القسطنطينية العظمى»[1]. إذا كان من السهل معرفة صاحب القُسطنطينية، مرسل هذه السفارة، وهو باسيل الثاني (Basil II، 366 ـ 416هـ = 976 ـ 1025م)، فلا يُعْرَفُ شيء عنها ولا تاريخها ولا الأمور الأخرى المتعلقة بهدف السفارة وصفتها، وما جرى لها في الأندلس وكيف؟ لكن هل هناك أي خلط بين هذه السفارة والتي تليها؟ من الصعوبة الإجابة على ذلك في ضوء المعلومات الحالية. لم يتوفر نص آخر يخص هذه السفارة أو يعين على إزالة شيء من الغموض حولها. كما لا نعرف المصدر الذي نقل عنه ابن الكردبوس هذه المعلومات. لكن يصح التوقع بوجود سفارة أو أكثر قدمت من بيزنطة إلى قرطبة خلال حكم المنصور العامري، استمر حوالي ربع قرن. لعلها، بعد أن أحسن استقبالها وإتحافها، أجيبت بسفارة جوابية عادت معها، أو عادت مودعة بالحفاوة.

---

(1) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، 63.

السفارة التاسعة

يبدو من النصوص المتوفرة: أنّ السفارة الحالية هي آخر نشاط دبلوماسي بين الأندلس وبيزنطة أيام الخلافة. لا يُدْرَى ما إذا كان هناك أي نشاط من هذا النوع بعد الخلافة الأندلسية. كما أنّ النصوص لم تبين إن كان المنصور قد احتاج أي مواد بنائية لزيادته في مسجد قرطبة الجامع، أو في ابتنائه مدينة الزاهرة. يكون قد أرسل سفراءه لطلبها إلى القسطنطينية أو غيرها. النص المهم الخاص بهذه السفارة نجده عند ابن بَسَّام في «الذخيرة». الظاهر أنّه نقله عن ابن حَيَّان القُرطبي، حيث يصرح، في الفقرة السابقة لهذا النص بالنقل عنه. لو توفر ما كتبه ابن حَيَّان عن هذه الأمور التي أَوْلاها عنايةً خاصة، لأزال عنها كثيرًا من الغموض مُبَيِّنًا لها.

وَصَلَ الأندلسَ سنة 396هـ (1006م)، رسولُ صاحب القسطنطينية، باسيل الثاني، مرسل السفارة الآنفة. جاء ليجدد الصلة السابقة ويؤكد الصداقة. جلب معه هدايا ورسالة مكتوبة بالذهب، ولعل تلك عادة لأباطرة بيزنطة يُظهرون بها غناهم، وأسلوب يعبرون عن شعورهم في تقدير الصلات الأندلسية. كان مما جلب الوفد البيزنطي - ليتقرب به إلى هذه السلطات، ويحقق منها ما يريد - مجموعة من أُسارى المسلمين كانوا لدى بيزنطة. كانت السلطات البيزنطية تعلم مقدار السرور الذي يسوقه هذا الأمر إلى سلطات قرطبة، لذلك فعلوه. حديث الذخيرة عن هذه السفارة حين يرد نشاط عبد الملك المظفر في رد تحرشات إسبانيا الشمالية: «... وضَحَى عبد الملك يومئذ بمدينة سالم. ووافاه هناك رسولُ الروم من القسطنطينية بكتابه إليه، يسأله المواصلة على سبيل سلفه من ملوك المروانية. وساق له هدية وعدة من أُسارى الأندلس طير عليها بأطراف جزائره البحرية، فسر عبد الملك بذلك، وإذا كتابه مكتوب بالذهب على رسم ملوك الروم الذي فاق الصنعة»[1].

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، 4/ 1/ 65.

نلاحظ أنّ هذه هي السفارة البيزنطية الوحيدة التي تم لقاؤها واستقبالها من قبل حاكم الأندلس خارج قرطبة، في مدينة سالم (Medinaceli) ففيها كان يعسكر بجيشه حاكمُ الأندلس عبدُالملك المظفر (392 ـ 399هـ = 1002 ـ 1008م)، الذي وَرِث أباه الحاجب المنصور، للقيام بنشاط حربي في شَمالي شبه الجزيرة الإيبيرية. لعل السفير البيزنطي وصل قرطبة، فلم ينتظر عودة المظفر إليها، فوافاه إلى مدينة سالم.

مع أنّ هذا النص أوضح من سابقه، المتعلق بالسفارة الثامنة، إلا أنّ الغموض يبقى من نصيب جوانب فيها. فلا نعرف كيف ومتى صرف الوفد البيزنطي، وهل كانت لهم لقاءات أخرى في قرطبة، بعد عودة عبدالملك إليها؟ لاشك في أنّ الوفد البيزنطي حُفَّ بالرعاية وحسن الاستقبال والضيافة الكريمة وَوُدِّع عائدًا إلى بلده، حتى شواطئ الأندلس على البحر المتوسط، منفردًا أو مصاحَبًا.

★★★

بهذا تنقطع أخبار وفود بيزنطية أخرى، قدمت الأندلس في عهد الخلافة. لا ندري مقدار النشاط الدبلوماسي مع هذه الجهة في العهود التالية في الأندلس.

★★★

هكذا ينتهي هذا البحث الذي روعي فيه عدم الإطالة. لم تُقْتَبَس بعضُ النصوص، كان الأوفق إثباتها، وأُجلت ملاحظات ومناقشات وتفصيلات كان الأَنْفَعَ تَدوينُها. زيادة على نصوص ودراسات أخرى ليست متوفّرة هنا. حين تتاح كتابته، بحيث يستكمل هذه الأمور، سيكون أكثر وفاءً وأتمّ شمولًا.

★★★

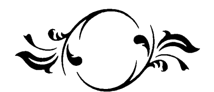
الآن اطلعنا من خلال هذا البحث على طرف مِن ميدانٍ لحياة المسلمين في الأندلس، خلال القرون الثلاثة الأولى من وجودهم فيها. إنّه ميدان سياسي وحضاري

مهم، بحاجة إلى عناية الباحثين لتجلية جوانبه، والتعرف عليه في أضوائه وَجَوِّه الكريم الذي أنبته.

لعل في هذا البحث بعض الإسهام فيه، الأمل - بعون الله تعالى - يتيسر إكماله وكتابته بشكل أوسع يصل حجمه إلى كتاب أو على الأقل كتيب مستقل، لعل ذلك - إن شاء الله سبحانه - غير بعيد، وقد تجمعت معلومات إضافية جيدة تتعلق به.

وفَّقنا الله تعالى جميعًا لِلخير وأخذ بيدنا نحو السداد وأرشدنا للصواب، إنّه نعم المولى ونعم النصير. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كُتِبَ هذا البحث: «العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري»، استجابة لرغبة لجنة إصدار كتاب تذكاري بمناسبة بلوغ العَلَم العَلَّامة المجاهد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان سِنَّ السبعين، لعله ظهر فيه. ثم نُشِرَ في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد (= صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد)، العدد الثاني والعشرون، 1983 - 1984م. بعدها جرى التوسع فيه أُدْرِجَت فيه معلومات ووثائق جديدة وقسم من مخطوط نادر من: «مُقْتَبِس» ابن حَيَّان القرطبي (469هـ = 1067م ليكون كتابًا بنفس العنوان، قام بنشره المجمع الثقافي في أبو ظبي سنة 1424هـ = 2003م. كل الحمد لله تعالى رب العالمين.



المُورِسْكِيُّون
في المصادر والمخطوطات الأندلسية

(4/1): المورسكيون: (ESP. LOS MORISCOS, ENG. THE MORISCOS) **مصطلح يعني: المسلمين الأندلسيين الذين بَقَوْا في الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم). بعد سقوط غَرناطة (897هـ = 1492م)، عاشوا تحت السلطة الإسبانية الكنسِيَّة الرسمية السياسية. واجهوا ظلمَ وقهرَ ومحارقَ «محاكم التفتيش» الباغية الجافية المُغالِيَة** (ESP. INQUISICIÓN , ENG. INQUISITION).

مصطلح: «المورسكيون»[1]: مأخوذ من الكلمة الإسبانية:

(EL MORO, LOS MOROS = ENG. THE MOOR, THE MOORS) **= المسلم الأندلسي، المسلمون الأندلسيون. إذ حين أصبح المسلم الأندلسي - بعد سقوط غرناطة - ضعيفًا صغيرًا أسيرًا، اشتُقَّت منها صيغة التصغير الإسبانية:** EL MORISCO – LOS MORISCOS **= المسلم الأندلسي الصغير، المسلمون الأندلسيون الصغار: صيغة المفرد والجمع. استُعملت صيغة التصغير بكلّ اللغات منها العربية: بكلّ اشتقاقاتها، بنفس المعنى الإسباني. أما كلمة المُدَجَّنون** LOS MUDEJAR(E)S**: فهم المسلمون الذين عاشوا تحت السلطة النصرانية، بَقَوْا في المدن الأندلسية، التي سقطت قبل غَرناطة.**

يُمثِّل الموضوعُ إسهامًا مهمًّا في ميدانه، حيث يُجَلّي مَظْهَرًا عِلْميًّا مهمًّا وعلامةً بارَّة، تُجاهَ مُسْلِمةِ الأندلس، الذين ملأوه خيرًا وازدهارًا وحضارةً ومنارًا،

---

(1) انظروا: محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها*، 27، 43، 45، 50، 54، 61. هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة ظروفها وآثارها*، 42. النجمة(*) بعد الكتاب تعني: أنه لكاتب البحث.

إبداعًا وإمتاعًا فريدًا كريمًا وسبقًا علميًّا وحضاريًّا وإنسانيًّا، في كافة الميادين المعروفة والجديدة المستنبتة، حضارة ودود ولود، مدى ثمانية قرون.

كانت مكافأتُه أفحشَ ظُلْمٍ عَرَفَه شعبٌ خلال التاريخ القديم والحديث على السواء. بقيت – رغم كُلِّ ذلك - شرائحُ وقبائح ومقالح (نماذجُ متدنية رَثَّة)، تُمارِسُ ذلك على الأرض هنا وهناك.

أَمَّا بالنسبة لِمَا لَقِيَه مُسْلمةُ الأندلس - بعد ذَهابهم سِياسيًّا- أمام ارتكابات محاكم التفتيش الآثمة. إذا كان الاتجاه يقوم على الإنصاف للمظلوم والإدانة للظالم، إن ذلك أقل ما يجب. أمرٌ وجهدٌ ضروري ومهم لدرجة قصوى، كما يُقدِّم فوائدَ جَمة ذاتَ حدود ومنافع متنوعة تخدم الحياة وتقويها وتقومها. مهمةُ بارة واجبُ المؤرخ الثَّبْت المتوقد المتحقق. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالظالم والمظلوم كلاهما يلتقيان عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقفان أمامه ليحكم بينهما بعلمه المطلق وعدله الكامل الكمال، لا يُظْلَمُ عنده أَحَدٌ أبدًا بحال ما.

المرجو أن يحقق أي بحث فيه خُطُواتٍ واسعة رصينة وأمينة في هذا الاتجاه، إلا أنَّ عدمَ تحقيق ذلك – لأسباب غير علمية - يعني أن واقع البحث التاريخي في القضية المورسكية ما زال يحيا متعثرًا في مهاوي محاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية وشناعاتها. مَنْ يُرِد أن يُسهم فيه بموضوعية واستعداد جاد وصبر مكيث لابد بعون الله تعالى أن يقدم مفيدًا، سيما وقد توفرت مادة علمية يمكنها إمداد ذلك.

موضوع المورسكيين جديدُ الاهتمام نوعًا ما، لا سيما بهذا الشكل المتحري المنظم المقصود. الكتابات الفِرنجية المعاصرة غير قليلة فيه، بعضها متقادم. كَثُرَ

هذا الاهتمامُ في السنوات الأخيرة. لكن البحوث المعاصرة بالعربية قليلة، آخذة في النمو.

انطلاقًا من متابعتي للبحث المتخصص، جَرَت إثارةُ الاهتمام به منذ بضع سنوات، بعد الانتهاء من كتابي: «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غَرناطة»، الذي غَطَّاه منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية غَرناطة (92-897هـ = 711-1492م)، حيث تبدأ المأساةُ المورسكية، بذا جرى التنبيه لها والحث عليها.

مأساة المورسكيين مأساة شعب وأمة ودِين، تثير الغرابة وتدعو إلى معرفة آثار الضلال على الإنسان. الإنسان الذي إذا ما مَلَكَ مسؤولياتٍ وتَمَلّك إمكانياتٍ - هو ما جرى في دواوين محاكم التفتيش، التي تُطلعنا على أحوال خلفياتِ القائمين بالمحاكمات وممارسة القتل البشع - يتحوّل عند ذاك إلى غُول مُرعب، يَظْهَرُ أشدَّ وحشيةً وضراوةً من الوحوش الكواسر. حيث كُلُّ مَنْ يَسْتَهينُ بالقتل يكون قد هَبَط بعيدًا، وهو كاذب منحرف العقيدة وإن احتمى بها، سِتارًا واحتيالًا ونفاقًا. لا تكفُّ أذاه المَوْرود غيرُ مُكْنَةٍ وقوةٍ وخبرةٍ، ليست للانتقام بل للهداية والرعاية والحماية الحازمة الواعية المدبرة، ورَدِّ كيد الاعتداء إلى نحر فاعله خائبًا، قوةٌ افتقدها المورسكيون، لم يملكوا أيًّا من مقوماتها، إذ غَدَوْا عُزّلًا.

لَكَم قاستْ الإنسانيةُ، طالما كانت بعيدةً عن هداية الله تعالى، هُدَى الإسلامِ الذي لا إنقاذَ بدونه، بلا خلاف لدى الإنصاف والخضوع للاعتراف، في الحكم الرصين المكين الأمين.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَه أعلمُ كم نفوسٍ أَزْهَقَتْها محاكمُ التفتيش وأَعراضٍ هتكتها وأموالٍ نهبتها وقِيَمٍ أهدرتها ووحشيات ارتكبتها ودماءٍ سفكتها، أشار إليها محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المورسكي، الذي وُلِدَ وشَبَّ وتعلم تحت ظلمها

وظلماتها وقهرها، ورأى تلك المحارق والمخارق والمغارق بعينه، كما دونها بقلمه، في خاتمة كتابه: «الأنوار النبوية في آباء خير البرية»[1].

ما حالةُ النقص في المعلومات التي اعترت القضية المورسكية وقلةُ المصادر عن مُسْلِمة الأندلس بعد السقوط، إلا ثمرةً مُرَّة لمحاكم التفتيش الباغية وسياستها الرعناء الجاهلية الجهول.

إن محاكم التفتيش بطبيعتها الشائنة، ليس فحسب لم تستطع أن تَرُدّ أدنى مقدار من الفضل للإسلام والمسلمين في الأندلس، وإن جهلته بل تجاهلته ابتداءً وعادته وحقدته وحاربته. لكنها فوق ذلك تفنّنت في الانتقام البشع الموغل ممن أبدعه ووفره وأنتجه. لا شك أنها من أعداء أنفسهم والبشريةِ وعقيدةِ الإنسان الفاضلة الطُّهُور. فهل يكون السبب أن توفر الخير والقيم والحضارة يثير حقدها وحنقها وحسدها، يزداد ذلك كلما ارتقت وأنتجت به وعَمَّرت تزداد انتقامًا ووحشية وقسوة يجعلها تستسيغ كل أنواع الارتكابات المتوحشة، لكن العجيب أن يتم كل ذلك التوحش والإثم والذنب باسم الدين الذي هو بريء من كل ذلك براءة الذئب من دم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

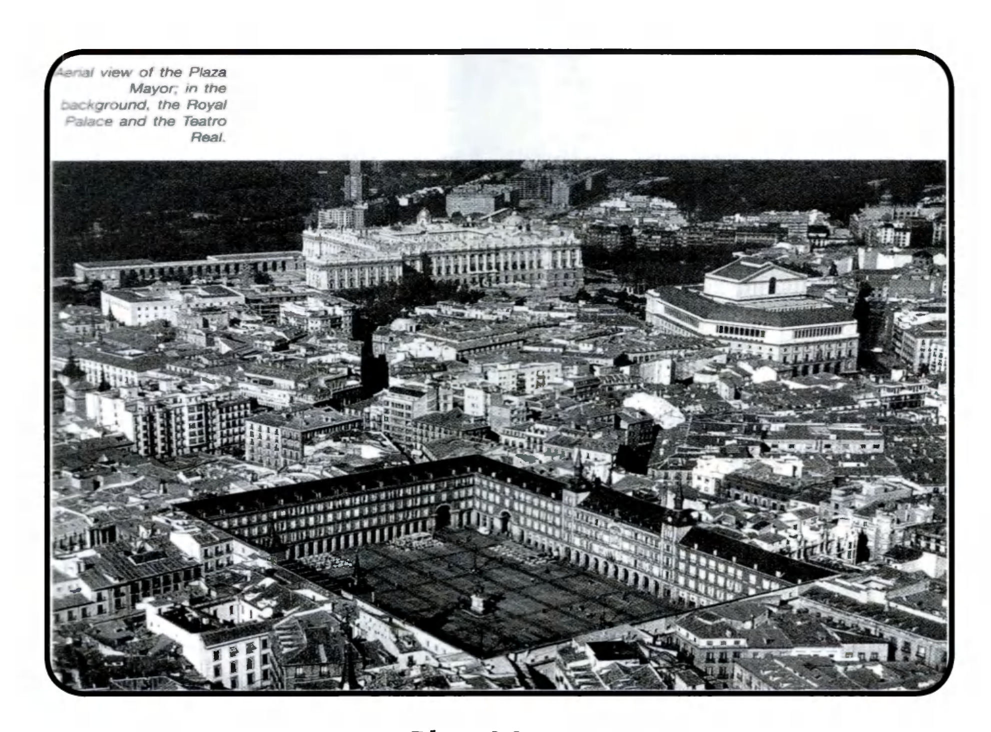
من العجيب الغريب أنه لم تَقُم في إسبانيا والبرتغال، وما يلتحق بهما، حركةٌ من النصارى أنفسِهم تقاوم مَعَرَّة محاكم التفتيش فيهما بالذات، تردها صغيرة حسيرة، بل كانت تقام الأحفال فيهما لشهود أعمال الحَرْق المقدسة!!! بالنار للأحياء، التي سَمَّوْها باطلًا وزورًا: Auto-de(da)-Fe (من أحفال الإيمان). أَحْرَقوا بها كُلَّ ما له أَيَّة صلة بالإيمان، ابتداءً مِن الكتاب ومَن كَتَبَه ولكل ما أنتجه وكافة ما أبدعه والمنهج (الإسلام) وما بَناه. أي: لا لِما سَطَّرته يراعةُ الإنسان

---

(1) ما يزال مخطوطًا، لديّ منه نسخة مصوّرة (ميكروفلم MICROFILM).

خلال القرون الزاهيات فحسب، بل للإنسان نفسه الذي كرّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كُلُّ ذلك باسم الدين البريء من كل ذلك كليًّا.

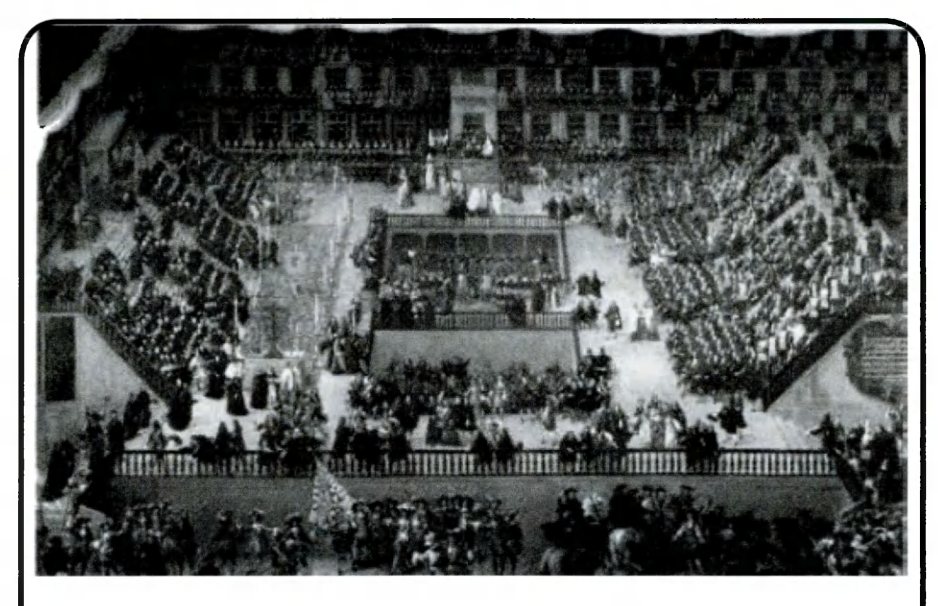
كثيرًا ما كان يتم هذا الحرق في ساحات المدن الكبرى، منها ساحة مدريد الكبرى المعروفة: الساحة الكبرى Plaza Mayor، التي تمثل قلب مدينة مدريد Madrid (مَجريط) الإسلامية[1].



منظر جوي لساحة مدريد الكبرى Plaza Mayor: قلب المدينة الإسلامية: مجريط، إحدى الساحات التي كانت تقام فيها محارق التفتيش

(1) مدينة مدريد الحالية، عاصمة إسبانيا اليوم. لذا فهي العاصمة الأوربية التي بناها المسلمون الأندلسيون سنة 245هـ (859م). اتخذها الملك فيليب الثاني عاصمةً لإسبانيا سنة 989هـ (1561م). اسمها الأندلسي: «مَجْرِيط»، مدينة مزدهرة عامرة. التاريخ الأندلسي*، 325.





مدريد: متحف البرادو، El Museo del Prado, The Prado Museum رسم يمثل حرق المسلمين الأندلسيين(المورسكيون Los Moriscos) في الساحة الكبرى(La Plaza Mayor)، الساحة التي كانت تمثل قلب مدريد(مجريط) الإسلامية!!! في حفل يسمونه من أعمال الإيمان(Auto de Fe). اللوحة من رسم: Francesco Rizi سنة 1650م

يوم كانت الحياة الإسلامية قائمة في الأندلس بالذات، حتى في الأيام المرتبكة كانت الرعاية لغير المسلمين فيه واضحة مؤكدة.

ألم يَمنع فقهاءُ قُرطبة الحاجب المنصورَ بن أبي عامر (392هـ = 1002م) شراءَ أرضٍ موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة[1]؟!! ويرفض الفقيهُ ابنُ رُشْد الجَدّ (520هـ) معاقبةَ بعضِ نصارى أهل الذِّمّة استدعوا ألفونسو بن رُدْمِير لغزو الأندلس (519هـ = 1125م)، وانضم بعضهم لجيشه، في غزوته الفاشلة لتدمير الأندلس، اكتفى بتغريبهم مدة[2].

(1) انظروا: التاريخ الأندلسي*، (الطبعة الجديدة، 2010م)، 619 – 620.

(2) التاريخ الأندلسي*، 466 – 468.

هذا – وأمثاله جِدٌّ كثير - بعضُ ما قَدَّمه الإسلامُ لأهل مجتمعه، مسلمِهم وغيرِ مسلمهم دومًا، دون أدنى استثناء[1].

المرجو من بحثنا هذا اليوم متابعةُ الإنصاف وخدمةُ الحقيقة بشجاعة وجَرْأة وعلمية مُحْكَمة. هذا هو عمل المؤرخ المَكِيث الثَّبْت الأمين؛ لتعويض بعض ما فات في سالفات الزمان. لدينا وسائلُ مُعِينَة ومصادرُ مهمة يمكن أن يُنْشِيءَ بها الدارسون شيئًا غيرَ قليل، ثمّ يعلو البناء**.

(4/2): لقد توفرت في الحاضر مصادرُ أكثر وأفضل وأعدل، تُعِين الدارسين على رسم صورة أقرب للحقائق، كما قُدِّمت بحوثٌ خَطَتْ في هذا الموضوع المجهول خطواتٍ كريمة. المؤتمرُ ولَجْنَتُه القائمة، من أكبر المساهمات فيه، لقاءُ متخصصين وتعارفُ باحثين، لتبادل الآراء وإظهار الوثائق. تنوعت الدراسات حوله، مُتناوِلةً جوانبَ مهمةٍ منه، تُكَوِّن العنايةُ بمصادره عمودًا مُعْتَمَدًا لكافتها.

صَدَرَتْ دراساتٌ كثيرة عن موضوع «المورسكيين» باللغات الفِرنجية وقُدِّمت دراسات جامعية. بجانب ما عانَى أحيانًا من الإهمال وقلة الاحتمال، عانى من شِحّة المصادر والوثائق. لكن مع الزمن كانت تزداد العنايةُ وتَظهر مصادرُ جديدة. يومًا بعد يوم، يَفْرَح الدارسون والمهتمون بشيء من هذا أو ذاك.

تبويبُ مَصادِره المخطوطة والمطبوعة العربية وغيرها: إلى:

(1): سِجلّات وأراشيف Archivo, Archives محاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية. حبذا لو تُخْدَم بعمل فهارس ونَشْر ما يمكن للمهم نماذجًا، مع توفير سهولة تناولها.

(2): المؤلفات القديمة والحديثة، لا سيما بأقلام شهود عِيان.

---

(1) انظروا: دول الطوائف، محمد عبد الله عنان، 282. حضارة العرب، غوستاف لوبون، 570.

(3): ما بقي من آثار ومشاهدات حتى اليوم، لها بهذا الأمر عَلاقة، من مواقع وأشخاص تناقلوا عنها أهمَّ الأخبار.

(4): المؤلفات الإسلامية، لا سيما الأندلسية وكذا الغربية، المطبوعة والمخطوطة سواء، ابتداءً من سقوط المدن الأندلسية، ثم غَرناطة. هذه المؤلفات على نوعين، حسب مادتها العلمية:

أولًا: المصادر المتعلقة بالمجادلات (Polemica, Polemic)، أو المفاضلات والمفاصلات وكشف الشبهات؛ دفاعًا عن الإسلام[1].

هذه تُقَدِّم أخبارًا تاريخية، قد تصل قلةً إلى شَذَرات وقَطَرات، لكنها لهذا الموضوع نجدة، يكون بعضها مفقودًا. عُرِف من كتب المفاضلات حتى الآن عدد جيد، مثل:

= «السيف الذي اشتهر على من طغى وكفر»، لعل نفسه كتاب: «ناصر الدين على القوم الكافرين»[2]، شهاب الدين أحمد بن قاسم الحَجْرِي(الحَجَرِي)، المعروف: آفوقاي (Abogado = محامي، قانوني)، غادَرَ الأندلس سنة 1007هـ (1598م) قبل الطرد الأخير (الكبير) سنة 1018هـ = 1609م، نحو عشر سنين، متوفًّى بتونس نحو 1050هـ = 1640م.

---

(1) هذا ما قد يسمى بـ: «مقارنة الأديان» عِلْمًا قائمًا بذاته، حيث يُعْتَبَرُ ابنُ حَزْم الأندلسي (456هـ = 1064م) مُمَثِّلًا أَحَدَ رُوّاده أو مؤسسيه. «أندلسيات»*، 1/ 120ـ 122.

(2) نشر هذا الكتاب مرتين في السنوات الأخيرة.

الأولى: في المغرب بتحقيق الدكتور محمد رزوق (الدار البيضاء، 1987).

الثانية: في مدريد بتحقيق الدكاترة: شورد فان كوننكز فلد وقاسم السامرائي وخيرارد فيخرِز، من جامعة ليدن LEIDEN, LYDEN (هولندا).

= «مَقامع الصُّلْبان» للخزرجي[1].

= «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» لعبد الله التُّرْجُمان[2].

= «النور الباهر في نصرة الدين الطاهر»[3]. يوسف الحكيم، الأندلسي المهاجر إلى المغرب، الحَبْر اليهودي الذي أسلم بُعَيْد الطرد الأخير(الكبير)[4].

= مخطوطة بدار الكتب المصرية، لم أطلع عليها أُخبِرتُ بها سنة 1981م، من قبل الدكتور علي عبد العظيم، لعل عنوانها: «لماذا أسلمت؟».

= لدينا كتاب: الحسام (السيف) الممدود في الرد على أحبار اليهود[5]، تأليف (الشيخ) محمد عبد الحقّ الإسلامي السبتي الأَسْلَمِي المكنى بالمهدي، كان حَبْرًا يهوديًّا فأسلم مع كافة أُسرته، ألَّفها في سبتة (أواخر القرن 8هـ= 14م).

---

(1) أبوعبيدة أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (582هـ = 1186م). حُقِّق الكتاب مرتين:
الأولى: في القاهرة (1972م و1975م)، تحقيق الدكتور محمد شامة.
الثانية: في تونس (1975)، تحقيق عبد المجيد الشَّرْفي.

(2) كان اسمه انسيلموا تُرْمَيدا FRAY ANSELMO TURMEDA. حُقق هذا الكتاب ثلاثَ مَرّاتٍ، نُشِرَ قبل سنوات، لديّ صورةُ مخطوطتِه.
الأولى: نشره (في روما، 1971) مع ترجمة، الدكتور M. DE EPALZA.
الثانية: نشره في القاهرة محمود حماية (دار المعارف).
الثالثة: بتحقيق الدكتور عمر وفيق الداعوق، رسالة ماجستير.
ثم اطلعت بعد نسيان على أقدم طبعة له في القاهرة (مطبعة التمدن بعابدين، القاهرة دون تاريخ).

(3) قارن: ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، محمد المَنُوني، 2/ 110 ـ 111.

(4) شغلني وأهمني واستوقفني كثيرًا البحث عن آحاد – نساءً ورجالًا وأطفالًا – أسلموا أثناء الاضطهاد والمتابعة والتنكيل التي حشدته محاكم التفتيش الماردة الشاردة المروعة، جندت كثيرًا من الناس لخدمة أهدافها الشريرة لشناعاتها وتحكمها وبطشها!!! وَجَدْتُ والحمد لله فُرادَى.

(5) انظروا: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، محمد المنوني، 219ـ220. نشر في مدريد (1998م) بتحقيق. ESPERANZ ALFONSO حصلت على نسخة منه (3/ 10/ 2000م) من المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد:
(CONSEJO SUPERIOR DE INNVESTIGACION CIENTIFICAS = CSIC

= «رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب الحبيب»، محمد الأنصاري الأندلسي.

= مراسلة مهمة قوية جرت بين راهب فرنسي والفقيه الأندلسي أبي الوليد الباجي (474هـ=1081م)[1].

= هناك الكثير من الأخبار التي نجدها مبثوثة هنا وهناك. لابن حزم الأندلسي باعٌ كبير ومشاركات مشهودة في هذا الميدان.

غير هذا اللون كتابات الموركسيين والمُدَجَّنين ذات الموضوعات الأخرى. كُتُبُ الفقه المتنوعة والأدب شعرًا ونثرًا، لا تخلو من معلومات مفيدة. الصيغة القَشْتاليّة كُتِبت بالحروف العربية أو: الأعجمية القَشْتاليّة، سواء كتبها مسلمون أصلًا، أو ممن أسلموا في العهود الأندلسية الأخيرة[2]، في ظل ظروفها. أمر يثير الدهشة، له مدلول وأي مدلول.

---

(1) انظروا: دول الطوائف، محمد عبدالله عِنان، 282. مجلة الأندلس الإسبانية، بحث بالإنجليزية للأستاذ دنلوب.

(2) أعني: أيام الاضطهاد التفتيشي الجاهلي البغيض. مُعْتَبِرًا أن من أسلم من أهل البلاد قبل ذلك هم والقادمون: مسلمون أَصلًا. لعله كان المتوقع من هؤلاء أن يكتبوا العربية بالحرف اللاتيني Transliteration. لكن الظاهر أن رغبتهم في الحفاظ على العربية وحرفها دعتهم لهذا البديل.



الصفحتان الأوليان من كتاب فى « الأدعية النبوية » مكتوب بالألخميادو ، وفى نهايته بالعربية الركيكة أنه كتب سنة ٩٩٧ ﻫ (١٥٧٩ م) ، ومحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٥٣٠٦ .

من كتاب: نهاية الأندلس، محمد عبد الله عنان/ 497.

ثانيًا: الكتب التي اهتمت بالقضية الموريسكية ضمن موضوع آخر، أو التي قصدت الجانب التاريخي لها أصلًا وكلية.

هذه وتلك جميعًا بحاجة إلى عناية وتعريف ونشر ودراسة. تضم كتابات الأندلسيين الذين عاصروا رَدَحًا من سني أحداثها وعاشوها تحت وطأة محاكم الظلم التفتيشي. هم شهود عِيان، معلوماتهم عينية عيانية غنية، من مثل الفصل الختامي في أكثر من كتاب مخطوط:

= «**الأنوار النبوية في آباء خير البرية**»[1]. **أبو عبد الله محمد بن عبد الرفيع الأندلسي، غادر إلى تونس، لعله بعد الطرد الأخير(الكبير)، الذي استمر عدة سنوات - أو قبله بعقود**[2] **- المُتوفَّى بمكة سنة 1052هـ = 1643م.**

= «**العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**»[3]. **كتبه باللغة الإسبانية بتونس: الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي الموركسي (نحو: 1025هـ = 1616م)، المعروف: «الرَّيّاش»، أَصله من نَوْلِش، من إقليم غَرْناط**[4]**، عَرَّبه سنة 1048هـ (1639م) أحمد بن قاسم بن أحمد الفقيه قاسم الشيخ الحَجَري (بعد: 1048هـ = 1638م)، المعروف: الشِّهابُ الحَجْرِي (الحَجَري) من قرية الحجر، إحدى قرى غَرناطة**[5] **مُضيفًا إليه أخبارًا تاريخية جيدة ومهمة في بدايته ونهايته.**

---

(1) توجد نسخته المخطوطة ربما الوحيدة (لعلها بخط مؤلفه) في الخزانة العامة بالرباط (المغرب) رقم 1238ك. في صفحته الأخيرة: «وقع الفراغُ مِنْ جَمْعِه وتحرير فصوله وكَتَبَه عَشِيَةَ يوم الجمعة الزهراء بحضرة تونس العلية الخضراء [السادس من شعبان] عام 1044هـ[1634م]... على يد جامعه وكاتبه العبد إلى الله محمد الرفيعي الشريف الجعفري الأندلسي المُرْسِي الأشعري المالكي الغَوْثِي طريقةً ومذهبًا واعتقادًا ومولدًا، وبأحد الحرمين الشريفين إن شاء الله مدفنًا آمين آمين آمين». 362 - 363. فيها بخط آخر: «المتوَفَّى يوم الإثنين لثلاث مَضَيْنَ من رجب سنة 1052هـ». الأعلام، الزِّرِكْلي، 6/ 204. نقل هذا الفصل محمد بو جَنْدار في كتابه: «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح»، المغرب، الرباط.

(2) نهاية الأندلس، محمد عبدالله عِنان، 394 - 409، 501.

(3) توجد له مخطوطات، لعل من أجودها نسخة الخزانة العامة بالرباط برقم: ج 87 (لديَّ نسخة مصورة).

(4) نهاية الأندلس، 502. الأعلام، 1/ 30.

(5) نهاية الأندلس، 502 - 503. الأعلام، 1/ 198 - 199. كتب عِنان بحثًا: «مِنْ تراث الأدب الأندلسي الموركسي: كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1971م، العدد: 16/ 11 - 19، سنة 1971.



نموذج من صفحات الكتاب المذكور والأخرى لوحة تحتوي صورة المدفع الهراس حين انطلاقه على أحد الحصون وإلى جانبه عدد من القنابل. بحث الأستاذ محمد عبدالله عنان، مجلة معهد الدراسات الإسلامية،

= «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»، الشهاب الحَجْرِي. يصف فيه محنة المسلمين المورسكيين المأساوية، ويحكي قصة هروبه من الأندلس إلى المغرب. هذا الكتاب مفقود، لعله يُعثر عليه يومًا ما، يحتوي كتابُه «ناصر الدين» غير قليل منه. نُقلت شذرات في:

= كتاب: «جواهر الكمال»، الكانوني.

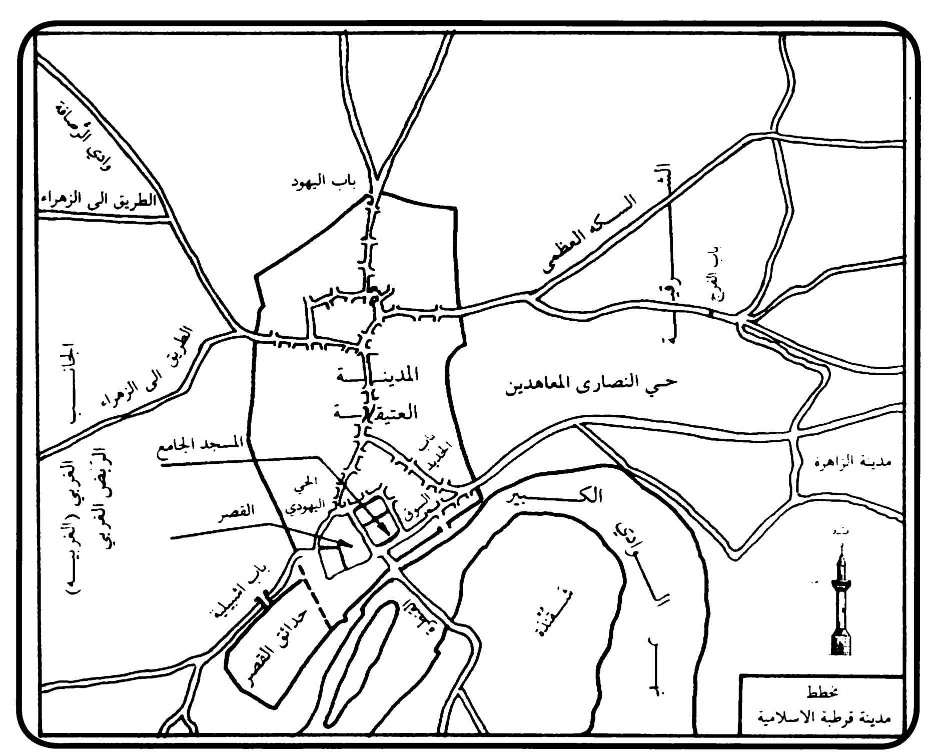
= «نزهة الحادي»، محمد الإفراني.

= «صفوة مَن انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر» الإفراني.

= «زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان»، محمد العَيَّاشي المِكناسي (1139هـ = 1726م)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د 2152 م. لديّ صورة خطيته، صعبة القراءة جدًّا. انظروا فيها: 93، 105.



✍ يضاف إلى ذلك ما كان من مراسلات وكتابات متفرقة ورسوم وصور ونقوش على الحجر وأدوات وملابس وبقايا ومواقع، مثل: وجود بُرْج في قُرطبة حتى اليوم، كان يُلْقَى مِنْ أعلاه بعضُ مَن تَحْكُم عليهم بالموت محاكمُ التفتيش من المسلمين[1].



✍ كذلك موضوع اكتشاف آلاف الجثث في مقبرة جماعية تحت ساحة كنيسة يرينا (LLERENA). المرجَّح عندي أنهم ضحايا محاكم التفتيش أواخر أيامها، حين سئمت منهم[2]. يضاف لذلك أنه لعل هذه ليست المقبرة الجماعية الوحيدة.

---

(1) محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها*، 46.

(2) نفسه، 65 ـ 74.



هذه إحدى الصور المأخوذة للجثث التي وجدت في مقبرة كنيسة يرينا التي اكتُشِفَتْ سنة 1979م

يُضم لتلك المصادر ما كتبه الإخْوَة في الشَّمال الأفريقي من مذكرات ودراسات وترجمات ومقالات ومراسلات شعرًا ونثرًا وكتب الرحلات والفَتاوَى، مثل:

= «أسنى المَتاجر في بيان أحكام مَنْ غَلَبَ على وطنه النصارى ولم يُهاجِر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر»[1]، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التِلِمْساني الوَنْشَريشي (914هـ).

---

(1) نشرها محققه الدكتور حسين مؤنس، في: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس، 1377هـ=1957م. تجدونها في كتاب الونشريسي: المِعْيار المُعْرِب والجامع المُغْرِب عن فتاوى أهل إفريقية =

= كُتِبَ عن المهاجرين الأندلسيين وما قاموا به من أعمال وجهاد، وما قَدَّمه لهم إخوانُهم وعاونوهم فيه. مع ما قدمته الدولةُ العثمانية وجهودها في هذا الأمر، كالأخوين: عُرُوج وخير الدين بَرْبَروسا.




رسم الأخوين بربروسا: اليمين خير الدين، واليسار عُرُوج

4e/Arudsch-barbarossa.jpg/http://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/4

4e/Khair_ad_Din.jpg/http://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/4

= ما كتبه بعضُ سُفَراء المَغْرِب إلى إسبانيا مثل:

= كتاب: «رحلة الوزير في افتكاك الأسير»، الوزير السفير محمد بن عبدالوهاب الغساني الأندلسي الفاسي (1119هـ = 1707م).

= كتاب: «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد»، السفير أحمد بن المهدي الغَزَّال (1191هـ = 1777م).

إن كل هذه المعلومات لو تجمعت تُعْتَبَر قياسًا مادةً قليلة لموضوع طويل معقد: كالمورسكيين، إلا إنه أمام حالة الندرة للمصادر تُصبح مادة جيدة للدارس.

=والأندلس والمَغْرِب، 2/ 119 ـ 141. تحقيق جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، بيروت، 1401هـ =1981 م (دار الغرب الإسلامي).

يجتمع منها ومِنْ بقية الأنواع معلومات لا بأس بها، تُعين الدارس على كتابة جيدة إلى جانب:

= ما يُنتفع كذلك بكل مَنْ خَدَمَ هذا الميدان.

= المَقَّري الذي لقي بعض الأندلسيين في فاس وغيرها، أودع مادةً جيدة كتابيه: «نَفْح الطيب» (ج 4). و«أزهر الرياض» (ج 1).

= يبقى قائمًا البحث عن المفقود والجديد. نسأل الله تعالى يوفق فيه.

(4/3): المصادر الأندلسية تكاد تكون طبيعية، حيث إن المورسكيين حُرِمُوا مِنْ كل ما هو إسلامي، فضلًا أن يكتبوا أي شيء مما يُعانُون. تَراهم فعلوا ما تتطلبه الضرورة القصوى لدينهم، كتبوا بالعربية والأعجمية القَشْتاليّة، إلى حد أنهم أخفوا الكتب والأوراق في أماكن غريبة، في الأرض أو مبنية في السقوف والحيطان. مِنْ طرائف ما ذُكر قبل عدة سنوات في مدينة أو قرية: «خراكوا»، قرب مدينة بلنسية Valencia، اصطدمت سيارة بحائط قديم فتهدم وظهرت فيه مخطوطات أندلسية، لم أعرف مصيرَها.

كيف يمكن بعد ذلك للمورسكيين أن يكتبوا تاريخَهم، بين مطاردات ووحشيات وأنياب محاكم التفتيش؟

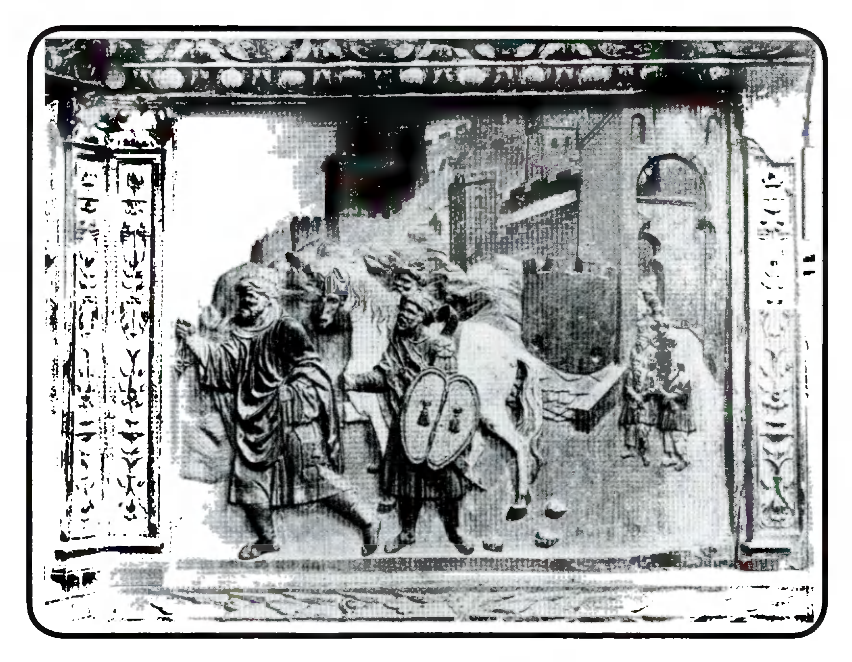
هذا السلوك والإصرار المتناهي المؤمن للمورسكيين، يشير إلى مقدار اعتزازهم بالإسلام والتضحية من أجله. لم يمكن أن يكتبوا معاناتهم من السلطتين المتعانقتين سِفاحًا: السلطة الرسمية والسلطة الكنسية، وإن كنتُ لا أُبعد أنهم كتبوا شيئًا، ذهب أو ما يزال ينتظر الظهور يومًا ما.

تَيَسّر بفضل الله تعالى الاطلاعُ على مخطوطات هذا الموضوع والحصول على صور(ميكروفيلم) بعضها، كما أُشِيرَ إليه.

هذه المؤلفات المطبوعة والمخطوطة مهمة جدًّا لإلقاء ضوء جديد ابتداءً للموضوع، مُؤَكِّدَةً بعضَها ومصححة ومُزَودة بعضَها الآخر؛ حتى تظهر الحقيقة كاملة ومُثبَّتة وواضحة.

من المهم نشرُ ما يُعرف من هذه النصوص، والبحث عن غيرها. كيما يجد الدارس فيها المورد والجدة والثقة.

بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية - قبل غَرناطة الحبيبة - وسوء المعاملة التفتيشية ووحشياتها المُوغِلة التي لَقِيَها المسلمون على يد السلطة النصرانية (كنسيةً وحكوميةً)، بدأ الرحيل إلى المدن الأندلسية الأخرى أو إلى المغرب. تَجَمَّع في غَرناطة منهم عدد كبير، بَانَ مصيرُها مُبَكِّرًا، قبيل سقوطها الكبير. عند بلوغ التَّماس.



يمثل هذا الرسم استسلام مدينة غرناطة سنة 897 هجري = 1492م. وهو موجود في كاتدرائية غرناطة
. Cathedral of Granada = Catedral de Granada.

وهو أصل مسجدها الأعظم في قلب المدينة المحول إلى كنيسة. أخذ صورة اللوحة قديمًا في تاريخ غير معروف: الإسباني Torres Molina

رحل بعض العلماء، لا يبدو رحيلُهم أفضلَ اختيارٍ لهم، أمثال:

- **القَلْصادي**: (891هـ = 1486م).
- **ابن الأزرق**: (896هـ = 1491م).
- **الوادي آشي المُؤرِّخ**: (896 هـ = 1491م).
- **بنو داود البَلَويّة، الابن: أبو جعفر (هجرته 894هـ وفاته بعد 908هـ=1502م).**

آخرون ذَكَرَهم المَقّري في: «أزهار الرياض»[1].

(1) أزهار الرياض، 1/ 71.

تجد والحمد لله معلومات مهمة في كتاب: «هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة، ظروفها وآثاره*».
جَرَى إحصاء العلماء الذين هاجروا من الأندلس أو هجروها، كانوا ثلاثة عشر عالمًا، هاجر بعضُهم بأُسَرهم. انظروا: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة*، 115 وبعدها.

إذا صَحَّ تقديري لعدد المسلمين في الأندلس لدى سقوط غَرْناطة بنحو ستة ملايين أو يَزيد، فإن الكثرة الغالبة منهم ذهبت موزَّعة بين الترحيل والتقتيل، الذي تم - في كثير منه - حرقًا بالنار أحياءً وجماعيًّا. بل وتجميعًا لأهل حي أو قرية أو مدينة، نساءً ورجالًا شيوخًا وأطفالا[1] لعل ذلك تكرر مثلما ذَكَرَ صاحب: «نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر» (مجهول المؤلف)[2]، البقية القليلة ذابت.

قامت محاكم التفتيش بدورها البغيض المتوارَث، تجاوزت ثلاثة قرون، ابتدأت في إسبانيا ثم في البرتغال. أَحْرَقَتْ كُلَّ شيءٍ: الإنسانَ والإيمانَ والرَّوْحَ والرَّيْحان، كُلَّ النِّتاج المكتوب بكل وسيلة باغية، بحُمَّى مَسْعورة مغرورة مجرورة نحو آسن المستنقعات.

العلماء دومًا القدوة في الثبات رغم معرفتهم بالمصير الموت المحقق، كما فعل العديد منهم الذين واجهوا الموت رغم المغريات التي تقف عند تَنَصُّرهم. كما حدث للإمام المواق الذي عُرِضَتْ عليه أكياس الذهب، قُتِلَ بعد شهور من سقوط غرناطة[3].

ثَبَتَ المورِسْكِيّون في هذا الخضم العاتي، يخططون للحفاظ على دينهم بغاية من التصميم، كما بينه أَحَدُهم محمد بن عبد الرفيع في كتابه المشار إليه أعلاه: «الأنوار النبوية في آباء خير البرِيّة»**.

(4/4): بدأت مَحاكِمُ التفتيش والسياسةُ الكنسية - بعد إخلاف العهود الموقعة تكرارًا لسنين - إتلافَ كُلِّ عاملٍ لحماية الإسلام، في النفس والبيئة والحياة،

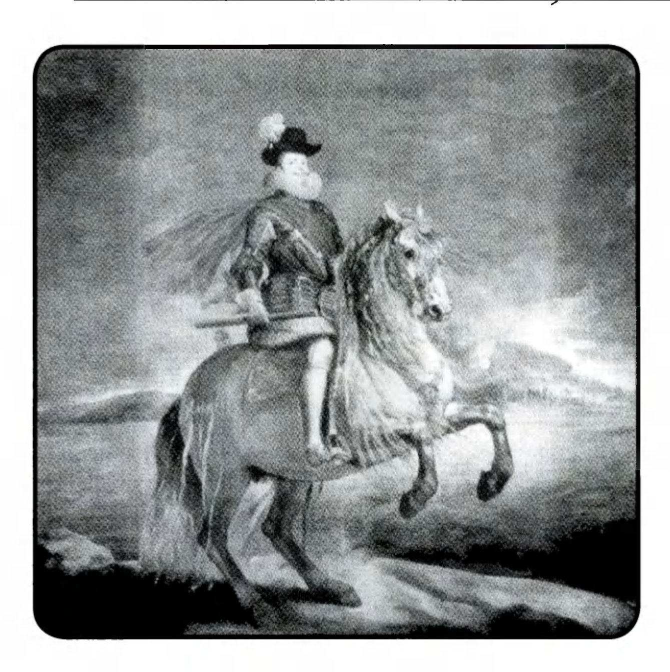
(1) ذكر ذلك المَقَّري في نفح الطيب، 4/ 527.

(2) يبدو أن المؤلف تعمد إغفال اسمه خوفًا من متابعات محاكم التفتيش، حيث انتهى من كتابته سنة 947هـ (بعد سقوط غرناطة بنحو خمسين عامًا). يُعْتَبَر شاهدَ عِيان لأحداث غرناطة الأخيرة وما تلاها. ساهم بجهاده في المعارك، كما شاهد ما تبعها من إجراءات محاكم التفتيش. الكتاب يعتبر وثيقة غاية في الأهمية والفائدة. انظروا: نهاية الأندلس، محمد عبدالله عِنان، 195 - 196.

(3) انظروا: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة*، 92 وبعدها، 119، 262.

أولها إحراق الكتب، وبكل ما يدرج بما عُرف اليوم بتعبير: «تجفيف المنابع»، ثم بدأت عملية التنصير والتقتيل حرقًا، لمن يرفض ذلك. تقدمت الوسائل وتأكدت فكان التهجير والترحيل والموت حرقًا، هو الحُكْم الاعتيادي السهل التأتي. الحُكْمُ بذلك يعني: الحرقَ أحياءً جماعيًّا، كما عند ابن عبد الرفيع.

ثم كان صدور قرار الطرد الأخير أو الكبير سنة 1018هـ = 1609م، الذي أصدره فيليب الثالث ملك إسبانيا. نُفِّذ في السنة التالية. نقل ابن عبدالرفيع نص هذا القرار مترجمًا بالعربية، مما جاء فيه على لسان الملك في قراره: «عدم رجوعهم رجوعًا صالحًا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وَصايانا ورَأَيْنا عِيانًا أن كثيرًا منهم قد أُحْرِقوا بالنار لاستمرارهم على دين الإسلام»[1].

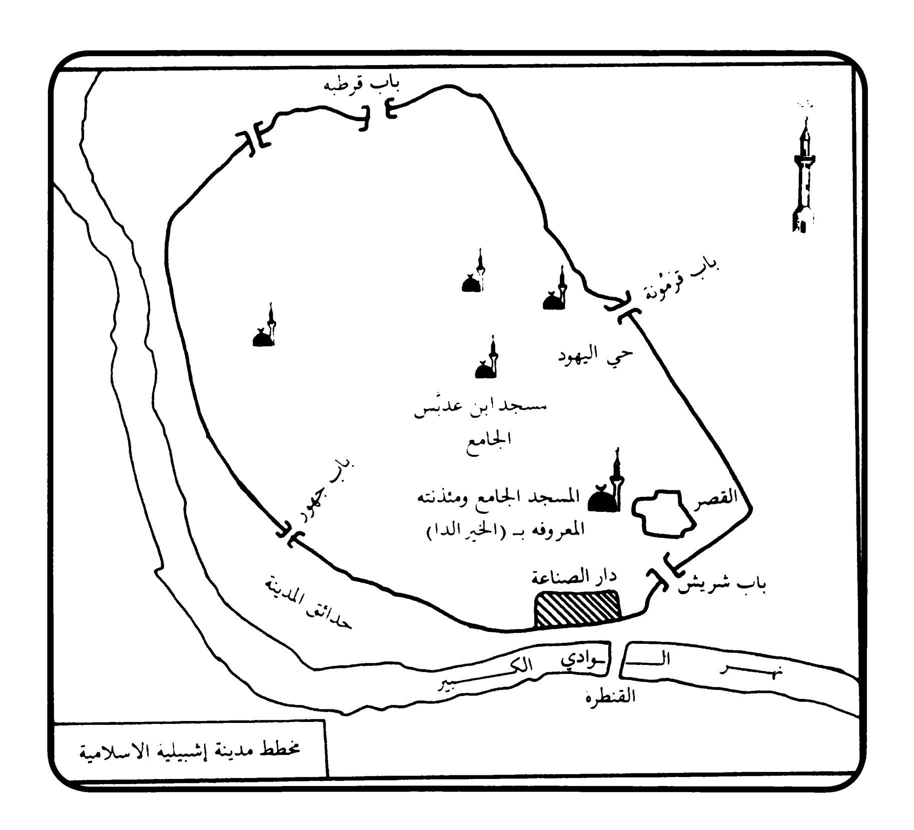


رسم لملك إسبانيا فيليب الثالث Felipe III الذي أصدر قرار النفي المشهور سنة 1018هـ = 1609م، يقضي بطرد من بقي من مسلمة الأندلس الموريسكيون فيها. الرسم في متحف البرادو (Museo del Prado) مدريد، بريشة دييجو بلاثكث Diego Velázquez، تم إنجازه بين سنة 1634 و1635م.

---

(1) الأنوار النبوية، 331 وبعدها.

قبل سقوط غَرناطة استَعْبَدوا مَن بقي من المسلمين في المدن الذاهبة: المُدَجَّنُون. كانت محاكم التفتيش قد تكونت في شَماليِّ إسبانيا، قبل سقوط غَرناطة[1]، تسلطت على المسلمين والنصارى البروتستانت واليهود، لكنها عاملت المسلمين بأشد وطأة وأوسع نِقمة وأقسى إجراء، حتى قبل إنشائها. تعاملت بنفس الروح التي قادت إلى إنشائها، ثم أصدرت القرارات الباغية المتصاعدة تدريجيًّا وتِباعًا، وكثرت أعدادها في الأندلس، حيث أول محكمة تفتيش خلال السقوط في إشبيلية سنة 880هـ = 1475م التي سقطت قبل ذلك سنة 646هـ = 1248م.



مخطط مدينة إشبيلية الاسلامية

(1) جَرَى ذلك رغم وجود معاهدة جرى التوقيع المتكرر عليها من قبل كافة السلطات. انظروا: التاريخ الأندلسي*، 606 وما بعدها.

حتى عُذِّب ومُثِّل وقُتِل مئات الآلاف - على أقلّ تقدير - خلال القرون الثلاثة وبعدها، تلك التي تلت سقوط غَرناطة سنة 897هـ = 1492م، خلال الترحيل والتهجير القسري، مثله التقتيل والتحريق الجماعي لكل الأعمار.

دُون أدنى اعتبار لأي معنى ولا أية قيمة للإنسان وإبداعاته أو للإيمان، لاسيما للمسلم بالذات. لعل آخر حرق أو قتل رسمي شُوهد، كان عام 1835م، أي بعد ربع قرن من قرار إلغاء محاكم التفتيش الأول سنة 1808م (الفرنسي)، الذي يبدو أنه لم يَرُقْهم، نَدِمُوا أو أُجبِروا عليه.

جَنَّدت محاكمُ التفتيش فئات الناس، لم يكتفوا بأخذهم المسلمين عبيدًا، بل جعلوهم عِبرة لها وقودًا. أَوْقَدَتْ المجتمعَ وأحرقت إنسانيته بادعاءات خاوية فأفسدته، حين استعملته لأهدافها المجبولة، ما زالت آثارها النفسية قائمة حتى اليوم، أهلكت الحرث والنسل.

حافظ المسلمون - بعد غَرناطة وقبلها - على دينهم الذي لم يتهاونوا فيه أبدًا، كان عندهم أعزَّ من حياتهم. لو كانت مكانته مثل حياتهم أو معيشتهم لتهاونوا بها، أمام ذلك الخوف القائم والرعب القاتل، حتى الذين عاشوا مُدَجَّنين منهم في مدن سقطت مبكرًا مثل طُلَيْطِلَة، أصروا على الالتزام، استمرارًا وانتقالًا، كل جيل لتاليه، رغم معرفتهم نتيجة ذلك: الموت حرقًا أحياءً، لأقل الأشياء أحيانًا، مثل: الخِتان وعدم الذهاب إلى الكنيسة أو الامتناع عن أكلات معينة أو تناولها مثل الكَسْكَسُون، حتى الصمت يُودِي بصاحبه.

يبدو أنّ مَن تَنَصَّر منهم كان قليلًا جدًّا، إن وُجِدَ يَوْمَها، من الضعاف والمنافقين الذين أغرتهم الكنيسة واستعملتهم.

تَحمَّل المورسكيون أشد أنواع التقتيل والهتك والحرق؛ حفاظًا على إسلامهم. وإن استجابوا ظاهرًا لبعض الأمور حِفاظًا على دينهم، فأظهروا النصرانية وأبطنوا الإسلام.



أُخِذَتْ هذه الصورة من مجلة المجتمع الأسبوعية الكويتية، العدد: 1968، 1432هـ = 2011م.

غير بعيد أن يكون لدى أحفاد أولئك حتى الآن حنين، بمجرد إحساس الواحد أن أصوله إسلامية. حتى لقد قال بعضهم (بالمعنى): إننا لو أزلنا طِلاءَ حوائطنا لتبين تحته أثر الإسلام، أو حككنا جلودَنا لوجدنا تحتها ذاتَه وآثارَه.

من خير ما قيل في ذلك ما ذكرته الدوقة الإسبانية البارعة الفارعة المتجرعة من مدينة شَذُونَة! Medina Sidonia ابنة محافظها الهمام (هي كاثوليكية الآن)، قالت: إنها مسلمة الأصل كذلك أسرتها بل إنَّ كُلَّ الإسبان تقريبًا كذلك.

لقد التقيتُ بعدد من هؤلاء الإسبان، يَصْدُقُ عليهم هذا القول بوضوح. البحث المستمر لأمثالهم، واستخراج وظهور وثائق جديدة من كل نوع سيؤكد هذا ويوضحه. إلى عهد قريب كانت العادات الموروثة ما زالت تمارس، حتى بعض الأمور التعبدية وبواقعها الفعلي العملي التطبيقي. كذلك وجدت بعض العادات الاجتماعية العامة التي انتقلت عبر الأجيال الكثيرة.



يَذْكُر شكيب أرسلان[1]: أنه حتى نحو بدايات القرن العشرين الميلادي، كانت بعضُ قرى مدينة طليطلة Toledo (سبعون كيلًا جَنوب غربي مدريد) يذبحون الأكباش يومَ عيد الأضحى المبارك.

جاهد المورسكيون أعلا جهادٍ وأغلاه وأنداه، وهم تحت المطارق. لم يكونوا يومًا ساكتين، إنما كانت لهم مُحاولات ومواجهات جَلَبت لهم الموت ولم تصدّهم.

(1) الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية، 1/ 382.

لَكَم قامت من ثورات وبُذلت من نفوس تَعْلَم مصيرها مبكرًا، للحفاظ على الدين. لا يجوز اعتبار المورسكيين في دفاعهم معتدين، في عمليات رد أو انتقام، بل فاسألوا كيف ومتى ولماذا؟ أم أن الحاكم مهما طغى وبغى واعتدى وعتا فلا مسئولية عليه، أو هو مصون غير مسئول؟ كما لا يجوز اعتبارهم مقصرين من ناحية أُخرى بحال من الأحوال، كما يقول ويتقوَّل مَنْ جهِلوا هذا التاريخ.

كم من المورسكيين إذا واجه الأذى يزداد شجاعة، مثل: الشاب خوان الابن من عائلة الكامبنيرو Los Compañero في مدينة سَرَقُسْطة Zaragoza، التي أُحْرِقَ من نسائها ورجالها وأطفالها الكثير. عندما حُكِم عليه بالموت حَرْقًا بالنار مع غيره سنة 1582م، رمى الصليب الذي أُجبر على حَمْله، رفع سَبّابتَه يقرأ الشهادة قبل الموت.

إذا كان الأندلس: «دارَ جِهادٍ وموطنَ رِباطٍ» وموئلَ حضارة وازدهار[1]، فإنه بعد غَرناطة يعيش بأهل جهاد وموطن إنسانية مهداة، عانت وجاهدت وضَحَّت. ذلك ما يؤكده ابنُ عبد الرفيع الذي يُفهم من كلامه أنهم كانوا يبتدعون الأساليب المناسِبة لكل حالة، رغم الحرب والقسر والكسر، وإصدار قرارات الأطراد (جمع طَرْد) المتكررة والحرق والهتك والفتك. أما الشهاب الحَجْرِي، فتراه يُعَبِّر عن علو أملِ وعملِ أهل الأندلس وحبهم للجهاد، وإن غُلبوا على أمرهم. لذلك كانوا مستمرين في مراسلة إخوة الشَّمال الإفريقي والخلافة العثمانية.

---

(1) انظروا: الروض المِعْطار في خَبَرِ الأقطار، ابن عبدالمنعم الحِمْيَرِي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، 33.

توفرت معلومات عن مراسلات عدة جَرَتْ مع الخلافة العثمانية[1] وغيرها، لاسترداد الأندلس وإنقاذهم. كانوا مستعدين للجهاد، حتى لقد رأى الشيخ الشهاب الحَجْرِي أن ستة وعشرين ألفًا من جيش المنصور الذهبي السعدي (950 - 1012هـ = 1549-1603م) كافٍ لاستعادة الأندلس. ذلك ما ينقله الإفراني في كتابه: «نزهة الحادي» عن كتاب: «رحلة الشِّهاب إلى لقاء الأحباب»[2].

كان العلماء هم القدوة في كل الأمور والمواجهات.

لم يرحل المسلمون من الأندلس ابتداءً، بل منهم مَنْ أصرّ على البقاء وجعل نفسه حاميًا، كأُسْرَة الكامبنيرو في سَرَقُسْطَة وأسرة بني غِيش في مُرْسِيَة MURCIA، أو وادي الرَّقُّوطي، حتى بعد الطرد الأخير، ليس الطرد الوحيد، كما يفهم من كلام ابن عبد الرفيع.

كانت آمالُهم دومًا متيقظةً وإيمانُهم متدفقًا وتضحياتهم متفوقة، حيث حافظوا على دينهم والتزامهم -لو قلة منهم- على لغتهم حروفًا. كان بعضهم فقيهًا وراعيًا للآخرين، نساءً ورجالًا وأطفالًا، يتولون التدريس والرعاية ويستعملون كل إمكانية وطاقة للحفاظ على دينهم وأهله، ولو افتدوه بالنفوس. إنّ الأجيال التالية التي التزمت نشأت تحت وطأة مظالم محاكم التفتيش، بقيت تحافظ على هويتها الإسلامية بقوة، أدركوا أنهم لا يستطيعون مواجهتَها فانشغلوا بالحفاظ

---

(1) أورد المقري بعضًا منها، حيث مما تجد فيه قَصيدة فوق المئة بيت وُجِّهت إلى بايزيد الثاني (1512م). أزهار الرياض، 1/ 108 – 115. نهاية الأندلس، 346.

(2) ينقل الإفراني عن الشهاب الحجري قوله: «إنّ جزيرة الأندلس استردادُها من أيدي الكفرة سهل واسترجاعُها منهم قريب. ولَمَّا دخلتُ أيام المنصور مَراكُش، وجدتُ عنده من الخيل نحو [تسعة] وعشرين ألفًا، فلو تحركت همته لفَتَحَها لاستولى عليها في الحين». نزهة الحادي، 118. انظروا: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة*، 78.

على دينهم وتوريثه أبناءَهم. عاشوا بنوع ارتباط. إنه لعجيب أن يعيشوا والسلطة والمجتمع (المحرَّض المُسَعَّر أو المُغَيَّب) ضدهم من قبل الكنيسة، بكليته أو أكثريته. لم يكن محدودًا، لا من حيث المساحة ولا العدد، بل يكون شاملًا. الدارس حياتَهم إن لم يَعْجَب من هلاكهم سوف يعجب لاستمرارهم.

لا تَعْجَبَنْ مِن هالكٍ كيف هوى　　　بل فاعجبنْ من سالم كيف نجا[1]

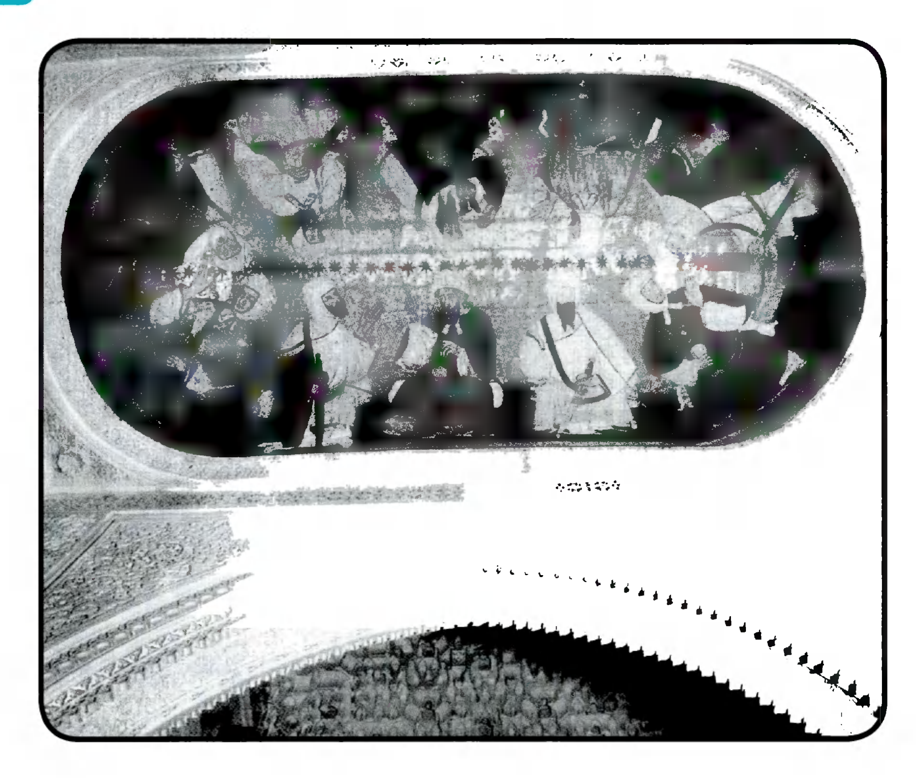
إن كتابات المورسكيين التاريخية تدل على علو همة وإيمان صادق وشوق ممتد ومتجدد واحتمال بعِزَّة. إن هذا الوصف شامل ومع العلم يزداد رغم الظروف. لم تَرِدْ إلا إشارات خفيفة إلى موضوع التخلي، من النساء والرجال والأطفال.

ظهرت همتُهم عالية، حين هاجر من هاجر منهم إلى أرض الأحباب (المسلمين)، في المغرب الإسلامي الكبير وغيره من أنحاء العالم الإسلامي الواسع العريض. أنعشوا الحياةَ وعَمَروا وجاهدوا بَرًّا وبحرًا، ازدهرت بهم الحياة، يدًا بيد مع إخوانهم الذين استقبلوهم خير استقبال وأكرمه وأروعه، اعتبروه واجبًا إيمانيًّا.

إن شِحَّة معلوماتنا وقلة مصادرنا، زيادة على ظروف علمية مبعثرة مشذرة، تجعل الكتابة في قضية المورسكيين - لا سيما معالجة مثل هذا الجانب: (المصادر)- عسيرة وشاقة جدًّا. لكي تكون أكثر نضوجًا ووضوحًا وحضورًا، هي بحاجة إلى إمكانيات ومقتضيات تقود لتوفيرها.

---

(1) هذا البيت من مقصورة ابن دُرَيْد (محمد بن الحسن، 321هـ = 933م). هناك بيتان آخران (لغيره، كلّ منهما لشاعر)، ممكن الاستشهاد بهما هنا في هذا المعنى:
يقول الصحابي الجليل الشاعر: الأسود بن سريع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:
فإن تَنْجُ منها تَنْجُ مِن ذي عظيمةٍ وإلّا فإنّي لا إخالُكَ ناجيا
يقول المتنبي(354هـ = 965م):
فإن أسلم فما أبقى ولكن سَلِمتُ من الحِمام إلى الحِمامِ



رَسْمٌ رائعٌ فريدٌ وجميلٌ يُزيّنُ سقفَ إحدى قاعات قصر الحمراء (غَرْناطَة): قاعة المُلوك Hall of Kings, Salon de los Reyes (جِوار ساحة الأُسُود). الظن الأكبرُ أَنَّ هؤلاء العشرةَ المرسومين (كل جانب خمسة) هم من العلماء المسلمين بيدهم السيوف، أو من ملوكهم، بذلك سُمّيَتْ القاعةُ. غيرُ معروفٍ تاريخُ رَسْمِها ولا الرَسَّام الذي قام بذلك. تَجاذَبَتْ نِسْبَةَ رَسْمِ هذه الصورةِ أكثرُ مِنْ جهة. عِدّةُ أدلة تُشير لابد أَنَّها رُسِمَتْ بِيَدٍ مُسْلِمة. كذلك غيرُ معروفٍ راسِمُها ولا تاريخُ رَسْمِها. يبدو أَنَّ تاريخَ رَسْمِها كان أواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، إن لم يكن قَبْلَه بعدة عُقود، ذلك ما أُرَجِّحُهُ. كان سقوطُ غَرْناطَة العَرُوسُ الباكيةُ الحزينةُ سَنَةَ 897هـ (1492م). ثم هناك قضية جِدُّ مهمة تتعلق بطريقة رسمها، ذلك أنها: لم تُرْسَمْ على قِماشٍ أو حَجَرٍ أو خَشَبٍ ثم أُلْصِقَتْ بالسقف كما يبدو،

لكنها رُسِمَتْ مباشرةً في موضعها الحالي كما هي في السقف، مما يزيد في قيمتها الفنية التي تدل على براعتها المدهشة.

لذلك هذه الدراسة تجري في الوجهة التي يُراد لها إن شاء الله تعالى، لكن المرجو أن تكون أكثر سعةً ونوعًا وتقصيًا. حتى يُدْرِك البحثُ مستوًى أكثر استيعابًا لكل ما يكون جيدًا من الجديد، دونه جهود طويلة وجلسات مضنية ومصادر ووثائق (لاسيما المخطوطة)، تحقيقًا أقصى ما يمكن حسب ما يتهيأ من منابع المعرفة إن شاء الله تعالى.

النية معقودة - بحمد الله تعالى - لمتابعة كُلِّ ما توفر من جديد مفيد بعون من الله تعالى. أرجو الله جَلَّجَلَالُهُ أن يهيأه؛ ليبلغ البحثُ وموضوعُه الجدير بالاهتمام المدى العلمي الرفيع الرصين الأمين.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين***

نُشِرَ هذا الموضوع: «الموريسكيون في المصادر والمخطوطات الأندلسية»، بكثير من الاختصار، مجلة المجتمع الكويتية، على أربع حلقات، الأعداد: 1965 - 1968، رمضان 1432هـ = 2011م. يُنْشَر هنا بتمامه مع كافة الموضحات المحتويات. كان ابتداءً بحثًا مقدمًا للمؤتمر العالمي الثاني الذي عقد في تونس /9/ 1983م، أُلقِيَ خلال انعقاده. ثم جَرَى توسعه وتحسينه ومراجعته مرات عدة حتى أَخَذَ هذا الحال الذي نُشِرَ به الآن.



ابن حيان القرطبي مؤلفاته ومنهجيته

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أيها الحفل الكريم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنّ ابنَ حَيَّان أحد أئمة التاريخ الإسلامي والأندلسي، كتب ابنُ حَيَّان مؤلفاتٍ وَرَدَ ذِكْرُها مهما كان عددها: المقتبس والمآثر العامرية والبطشة الكبرى وغيرها، ثم أهمها المتين في ستين مجلدًا، وصلتنا منه عن ابن بسام وغيره منقولاتٌ مهمة، لعل اسمَ هذا الكتاب مقتبسٌ من قول الله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

★★★

هنا أتقدم بخصوص المؤلفات باستنتاج - إن كان صوابًا - فهو فتحٌ من الله تعالى عليّ، ذلك أنّ ابنَ حَيَّان أَلّفَ كتابًا واحدًا هو «المَتِين»، الكتب الأخرى إما أقسام منه أو مختصرات[1]، هذه بعض الأدلة:

1. **يدلّ اسم المُقْتَبِس على أَنّ ابنَ حَيَّان اقتبسه من المتين، فهو مختصر منه.**
2. **أنّ ابن بسام . وهو أديب ومؤرخ ممتاز، عِفّةَ لسان ودقّةَ ميزان وأقر بالعرفان، مع الاستقامة لا يقل عن ابن حَيَّان . لم يذكر المُقْتَبِس في ذخيرته.**
3. **ينقل ابن بسام نصوصًا لابن حَيَّان وينوه به ويقول بأنّه من تاريخه الكبير أو من تاريخه، وهو يقصد المتين.**
4. **إذا كان كتاب المتين في ستين مجلدًا فعن ماذا سيكون، إذا لم يكن شاملًا لكل تاريخ الأندلس، منذ الفتح الإسلامي لها، حتى وقت تأليفه قبيل وفاة ابن حَيَّان بأعوام، الذي كانت وفاته سنة 469هـ = 1076م.**

★★★

(1) هكذا كان اجتهادي يومها ووجهة نظري، لكن لا يمنع اختبار هذا الاستنتاج أمام غيره وأمثاله.

عرفنا ابن حَيَّان - مما بَقِيَ من كتابات ووصلنا خلال الرحلة الشاقة ومما كتبه عنه المؤرخون الذي اطلعوا له على نصوص أكثر- امتازت كتاباته بأسلوبها المتقن ومنهجيتها الواضحة العلمية الأمينة.

تاريخه تحليلي كالذي عن مدينة بَـرْبَـشْـتـرُ Barbastro، وهو ملتزم وهادف وشهادة عِيان لعصر الطوائف بقلم مرهف صدوق، واضح الالتزام بالإسلام. كما يمتاز عمومًا بتحريه ودقته وتوثيقاته وشمول كتاباته وإيراد أخبار انفرد بها أو ممن انفرد بها. حسب المراجع التي وصلتنا، كما أنّه ملمّ بالتاريخ الإسلامي العام جيد الفهم له حسن التصور، وهو قوي في أحكامه وصفاء نظرته وصحة موازينه... كَتَبَه بأسلوب الحوليات والموضوعات وكان كثيرَ الاختلاط والارتباط والاتصال بالناس والتلاقي بهم، على جميع المستويات، لاسيما أهل المسؤولية والجهاد والقائمين بالمجتمع ورعايته، وأنّ اتصالاته واطلاعاته ومراسلاته ومندوياته انتفعت بوسائل مهمة، وأنّ اهتمامه مسلمًا ومؤرخًا أهلته لذلك، عواملَ وأسبابًا واضحة قوية «اللهم إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع» (حديث شريف). كل ذلك جعل لكتاباته أهمية وثائقية ودراسية وفكرية وحضارية خاصة للحياة الإسلامية ومجتمعها.

جاء ما كتبه عن ممالك الطوائف مُعَبِّرًا عن حالهم ومصورًا لدقائق أمورهم ومحللًا معللًا وضعَهم وأسبابَها، يدل على عمق وسعة معرفة وقوة كما هو في حديثه عن بَرْبَشْترُ Barbastro في ذخيرة ابن بسام. لقد حركت هذه المأساةُ البربشترية نفسَه بالمشاركة الملموسة، يدل ذلك على المتابعة ليس باعتبار مهنته مؤرخًا بل باعتبار صلته بالأمر ومشاركته فيه، كان كلامه حيًّا ومتحركًا وجريئًا يدلّ أيضًا على أنّه موجود في المجتمع ومعه، محتكًا به مسؤولًا عن ذلك أصالة، امتلأت نفسه الفاضلة حَمَلَها قلمُه المتأنق، هذه صفة العلماء في الحضارة

الإسلامية ومجتمعها و«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». وَجَّه النصيحةَ واللومَ الشديد لملوك الطوائف وكل الفئات التي عاونتهم في ذلك، ووجه الناس لتلافي الأمر وأشاد بالمواقف الطيبة، كما فعل حين الحديث عن بَرْبَشْترُ.

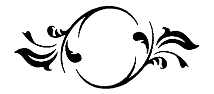
إنّ هذه المواصفات لا تتم في أي مكان أصالة وقوة وصدقًا وجرأة - إن كانت تتم - مثلما تتم في الإسلام ومجتمعه، أمر طبيعي لمن لا يخشى في الله لومة لائم، صفةُ علمائنا وبناؤهم، في غير هذا يضيع العلم ويبرك القلم.

لم يكن علماؤنا أهلَ لسان مجرد، بل أهل عقل وجَنان وتقوى لله تعالى وإيمان وأهلَ وَرَعٍ، تملأ مواقفَهم ومسالكَهم، كانوا دومًا للناس كنفًا ومؤئلًا وراعيًا ومربيًا، إضاءات مجتمعه وحراس دربه وسادّي خَلته ومداوي علته وسَهارى ثغوره وحاملي همومه ورافعي رايته ومصابيحه ونجومه. كان تواجدهم في المجتمع أكثرَ وَقْتَ المعامع، حتى إنّهم ملؤوا سُوحَ القتال والجلاد والجهاد، بكل أنواع البذل. هذا هو فعل العقيدة الإسلامية الربانية وليس الأرضية. إذا غابت هذه العقيدة فلا تتوفر بأي عامل من عوامل التخصص وتنوع الوسائل والإمكانيات. علماؤنا في أمتنا الإسلامية وحضارتها هم القادة الحقيقيون للمجتمع المسلم، لم يتخلوا عنها يُصْبِحُ المجتمعُ بدون قيادة، كانوا خِيرَةَ قادته وأئمته، فهم وارثو النبوة ومُوَرِّثُوهَا، فأي مكانة وأمانة ومنزلة مُؤَهَّلَةٍ مؤتمنة، هم الخير وأهله ومعلمون، وخيار العلماء خيار الخير كما ورد في حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حاز ابنُ حَيَّان الكثير من هذه الصفات، ظاهرةَ الآثار ملموسةً قويةً جادةً في كتاباته التي وصلتنا ونُقِلَ إلينا منها بواسطة العديد من الكتاب والمؤلفين والمؤرخين والأدباء، كما أنّ مؤلفات ابن حيان امتازت بمنهجيتها الجيدة وجوانبها المتنوعة وشمولها وعمقها وصدق نظرتها وبُعد تحليلاتها.

﴾ مما ذَكَرَه وأجاد فيه أنّه حَذّرَ من مصير الأندلس، لِمَا رأى من حال ملوك الطوائف وتوقع سوء العاقبة، لعل تَوَقُّعَهُ وما رأى كان أقصر مما جَرَى، حيث رأى قرب النهاية غيرَ بعيد. لعلّ ظاهر الأمور كانت أمامه تقود لمثل هذا، لولا إرادة الله تعالى وحكمتُه إذ أنسأ في الأجل الأندلسي، لكن مهما يكن فلا يبدو أنّ ابن حيان ولا غيرُه كان يتصور أو وَرَدَ على ذهنه الذي جرى بعد سقوط غرناطة وما اقترفته محاكم التفتيش الإسبانية الصليبية في الأندلس. رَحِمَ الله تعالى ابنَ حَيَّان وأجزل ثوابَه وغفر لنا وله. كل الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد الهادي الأمين، واجمعنا اللهم به يوم الدين بفضلك ومنّك آمين ***

قُدِّم وألقي هذا البحث: «ابن حيان القرطبي مؤلفاته ومنهجيته» في مؤتمر ابن حيان الذي عقد في الرباط سنة 1981م ونُشِرَ (مع بحث آخر عن محاكم التفتيش) هناك في مجلة: «المناهل» المغربية في العدد 29.



خواطر مسجدية أندلسية: منزلة الأندلس وأغواره

☜ الأندلسُ كلمةٌ تَعَدَّدَتْ مدلولاتُها وتنوعت إيقاعاتُها، على كثرتها وإلفتها، هي مُطْرِبة كأدبها، عذبة كزلال مائها، ندية كهواء جوها، مخضرة كجمال حدائقها، مزهرة كروعة حضارتها. لها - مع كل ذلك - وقع مؤثِّر ومعبِّر، في نفس كل أحد، لا سيما المسلم.

☜ تُشارِك في ذلك أسباب كثيرة مستنبَطة مستخرَجة - فهل منها أنّها أول، أو من أوّل - ما ضاع من بلاد الإسلام، بعد طول إقامة للإسلام ومجتمعه بمكوناته المتعددة، بعد اعتناق أهلُ البلاد الإسبانُ الإسلامَ، مما جعل للإسلام وللمسلمين فيها ذلك الوجود الحضاري الكريم الغني الرائع. حاول الجميع وعملوا للحفاظ عليه بكل جهدٍ، واجهوا كل الأحداث والكوارث والمنحدرات وأقالوا الكثير من عثراتها، لوقاية المجتمع منها، بتضحياتهم وحضورهم وبذلهم النفس قبل النفيس، لكن كثرة الأثقال التي فاقت المُكْنَة وتجاوزت الأعباء المتتابعة، تراكمت وأغرقت وأناخت حتى تجاوزت الحدود المستوعِبَة، أو لكثرة ما لقي المسلمون على أيدي الأعداء، احتمالًا وجهادًا ضد الصليبية الأوربية العمياء، ومحاكم التفتيش الكنسية والحكومية الدموية البلهاء، الإسبانية والبرتغالية والبابوية؟

☜ لعلّ كلّ هذا وغيرَه، جعل الأندلسَ بهذه المكانة والإثارة والتعلق، مما يجعلنا نقول - بأمل يتبعه عمل، في ضمير المستقبل - مرددين ما قاله كُتّابُنا حين يذكرونها ويستحضرونها بحسرة وأمل وسعي: «ردّها الله للإسلام وردّ الإسلام إليها».

ربما يكون وقعُها أوسعَ من ذلك مكانًا وإنسانًا، هي – الأندلس هو كذلك - ضَرْبٌ على حبال وصالها النفيس الأنيس، تُثير نَغَمًا على وتر مشدود، أو صوتًا يُخْرِجه فمٌ ممسوك، أو جَلْجَلَةٌ تنبثق من قلب مجروحٍ ونفس متحفزة وتَوَجُّهٍ مَتأمِّل فاضلٍ كريم.

كلّ ذلك يمتزج بصور مبهمة غائمة، أو صيغ واضحة ناضحة، بالإدراك والاعتبار قوي بما حَدَثَ ودار، من خلال معلومات في الوُرْدِ والإصدار.

كانت هذه بعض الخواطر الفياضة، تدفقت حين عُرِضَتْ أمامَ الحضور، في أمسية أندلسية، مَشَاهِد من المسجد الجامع القرطبي، بأعمدته المعتدلة القامة، الرشيقة الأنيقة القَوام، الحمّالة لِمَا فوقها من أثقال البنيان ومتاعب الزمان وعَبَث الإنسان، بقوة وأمانة والتزام، تتوج رؤوسَها فرحةٌ نشوانة، لسقفها الجليل الجميل، يشرئب نحو صمتها التاريخي البارد الظليل، فيه أسراب وأقوام الحمام ترسل وتسريل بترانيم الهديل.

ألا تراها وتراه خيرَ علامةٍ وعَلاقة، تربط الماضي بالحاضر نحو مستقبل مشرق، يُقيِّض الله له من يكرمه، ويُشرِّفه بحمل هذه الأمانة الكبرى. أصل الإنسانية الكريمة، ومُنقِذٍ شريفَ الحياة، وهادي الركب إلى البر العميم الحميم، في الحياة وفي الأخرى دار النعيم.

نَهَضَتْ هناك خواطر توالت، مُدْلِيَةً بمعانٍ كثيرة، مبتهجة مؤملة مؤهلة. المسجد الجامع القرطبي يُطِلّ على النهر الأمير وواديها الكبير، ومياهه ذات الصوت الجهير، على صفحته اليمنى، ما يزال دولاب ناعورها التاريخي. كان ينقل الماءَ العَذْبَ إلى حيث الحياة، حدائق فيحاء وبساتين غنَّاء، ماجت دَلالًا ولَمَعَتْ، أشجارًا وثمارًا وأزهارًا، تحفّ بالمسجد وتميل عليه تعانقه بعفة محبتها التي لا تنضب.

المسجد الجامع القرطبي وبقية المساجد المتآخية المحبة- كأنها تخاطبك أيها الإنسان، في كل حال - تنظر إلى صورتها، معروضة أمام ناظريك على هذه الشرائح (Slides (Slices. أبلغ منها زيارة هادئة تشهدها عيانًا، تتفق لها المعاني في تلك النظرات منك وإليك. أهي عتاب أم لقاء بعد غياب، أو دعوة من الأحباب؟ كلّ ذلك واضح في بيان أي بيان!

هذا المسجد الجامع القرطبي -وأمثالُه في المراجع- كم امتلأت أروقتُها وصحونها بأجيال المصلين، متراصِّين بالمناكب والأقدام كالبنيان المرصوص، مشدودين بحبل الإيمان. هي عين الصفوف التي اصطفت للجهاد - بعد جهاد النفوس - أعلنتها منارات الحياة الكريمة، شقّت طريقها إلى برّ الإيمان بنور القرآن.

هذه المساجد كم أظلّت أروقتُها في حلقات الدروس، تشق كلمات الأساتذة والشيوخ بهدوئها وهديرها المرموق حالكَ الأجواء ومغاليق النفوس، لتستقر بذورُ الحياة، طَفَحَ الحَقُّ بنوره فأنارها وملأ الدروبَ تجارةً رابحة، أغناها وحماها بقوافل الدعاة الأماجد الأُباة. هذه المساجد على الدوام نابضة بالحياة تناديك لتمد إليها أياديك وتسقيك ينابيعها فترويك، تنهض إنسانًا كريمًا وبانيًا رحيمًا وعَدلًا مستقيمًا.

قرطبة الأمجاد والأنجاد: لكم أشاد الجغرافيون والمؤرخون والكتاب والأدباء والشعراء بقرطبة، ذات المجد العريق، التي ماجَتْ ساحاتُها بأعلام الأخيار والأبرار، من كل الميادين. كذلك بالمسجد الجامع البهي الأبي الكريم، واحدًا من مفاخر قرطبة العديدة المجيدة، بل والأندلس كله والعالم الإسلامي أجمع. قرطبة الأمجاد ذات المفاخر والمزاهر والمنائر، العالية بارتفاعها الشامخ وبنائها وندائها الفارح بكل بديع ورفيع ووديع.

خلال الكتابة والتنقيح - لهذا البحث البهيج - جال قلم كاتب هذه السطور خصيصًا، بأبيات سافرة غامرة جاهرة بالإشادة بها وبمسجدها، كان ذلك والقلم يجري رفيقًا بيد حَنُون، وأنامل الحب فوق أوتار ثابتة أصيلة متناسقة، تُطْلِق برشاقة نغمات رقيقات بخفة وعذوبة، تدعوك لقراءتها بعناية. هكذا تكون الأجواء، حين تُشْرِق شمسُ الإسلام ويعمها بضوئه نورُ الله المبين، أناشيد القوة والوفاء، أنغامًا اقتبسوها يرددونها، منشدين الأمجادَ القرطبية:

قُرطبةَ الأمجاد تِيهًا في الورى ... في كُلِّ يومٍ فاتِحٌ وشهيدُ
أنتِ التي قد قَدَّمَتْ أَفْلاذَها ... مواكبُ الفتحِ هُدًى ونشيدُ
أُمٌ بأرحامِ الدُّعاةِ أَنْجَبَتْ ... في كُلِّ بَيْتٍ سَيِّدٌ وعميدُ
سِرُّ الحضارةِ التي باحاتُها ... من كُلِّ صِنفٍ عابدٌ ورشيدُ
ذاك على فُلْكِ الحياةِ مُتَوَّجٌ ... في ظِلِّ شَرْعٍ أسُّهُ التوحيدُ
المسجدُ الميمونُ داعٍ للذي ... يَسْعَى إلى إنْقاذِهِ ويُعِيدُ
يا مَوْطِنَ العِلْمِ الأصيلِ دِيمَةً ... تَرْوِي الدروسَ تالِدٌ وجديدُ
ماءٌ زُلالٌ لذةً في شُرْبِهِ ... تَشْفي النفوسَ بها وتُفِيدُ
تَرْوي لنا كُلَّ أَمْرٍ حُجَّةً ... فيها الأصيلُ طارفٌ وتليدُ
وتُقيمُ مجدَ الحقِّ طِيبٌ ذِكْرُهُ ... على مَدى الأيام وهو سَديدُ
فكل ذاك واضح في سَمْتِهِ ... لا يَنْثَني في عُرْفِهِ التمجيدُ
والقوةُ مَجْبُولةٌ في ذاتِهِ ... يَحْيا بها ذِكْرًا وهو مُريدُ
يا زائرًا في باحةٍ مُخْضَرَّةٍ ... هذا عمودُكَ للقرونِ يَجُودُ
فادْخُلْ تَمَهَّلْ للزيارةِ راغبًا ... لَثْمَ العُهُودِ هل تَراهُ يَعُودُ؟
لم تَعْرِفْ النفسُ يأسًا مَرّةً ... حتى ولا وَهْمًا إليهِ يَقُودُ

فـامْـلأْ إهـابَـكَ بـالـدعـاءِ مُـنْشِدًا[1]   واقْــرأْ مِــنَ الآيــاتِ أنــتَ تَـزِيـدُ

مكانة المسجد وامتدادها: المسجد أساس العمران في المدينة المسلمة، أساس كلّ حياة وتقدم وتحفز وعمران في كافة الألوان في المجتمع المسلم. مثلما تكون عمارة النفس وطهارة القلب أساس كلّ شيء في الحياة. يدخل المسلم المسجد بهذه الروح المتحفِّزة، حيث يغدو مأوى الطاهرين وموئل الصالحين، ينطلقون منه لتعمير الحياة بألوان الخير والأفانين. يوم قامت الحياة الإسلامية نَمَا كُلُّ شيءٍ بسرعة مذهلة، وبنوعية مُؤَهَّلَةٍ نادرة خَيِّرة بارَّة دارَّة، كان منها هذه العمارة المسجدية الكريمة وغير المسجدية. تعبير عن عمارة النفس الإنسانية بنور الله والتجمل بشرعه والاتباع لمنهجه. كان هذا الجانبُ الَفتيّ أَحَدَ واجهات العمارة المادية، تتلمس فيها آثارَ الخير وضياءَ البصيرة ونورَ اليقين، التي أقامتها العمارة الإنسانية الفاضلة بشرع الله المبين.

كانت لتلك المشاهد المُصوَّرة - التي عُرِضَتْ أمامكم، لمسجد قرطبة الجامع وقصر الحمراء بغرناطة الفيحاء - خواطر كامنة مثارة، جَرَتْ على النفس واللسان في الأمسية الأندلسية، أتاحت الفرصة لتسيطر هذه المعاني الكريمةُ الفارعة، قويةَ الحقائق فواحة الأعاجيب الماثلة رغم حالها، تَرَوْنَها بجمالاتها الكامنة في النفس المُتْرَعة، العاشقة لمقوماتها الربانية، ترجو ثوابَ الله وتدعوه أن تكون عنده مقبولة.

إنّ بقاء هذه الآثار حتى اليوم بارَّةً - رغم الأهوال والنكبات، شَمِلت وعَمَّت وطَمَّت - دليلًا على أصالتها، يا لهول ما لَقِيَتْ مِنَ العَنَتِ والإرهاق، مثلما لَقِيَتْ حضارة الإسلام ومجتمعاته وعلومه، وما لقي الإسلام إنسانًا وبنيانًا وعمرانًا في كلّ لون.

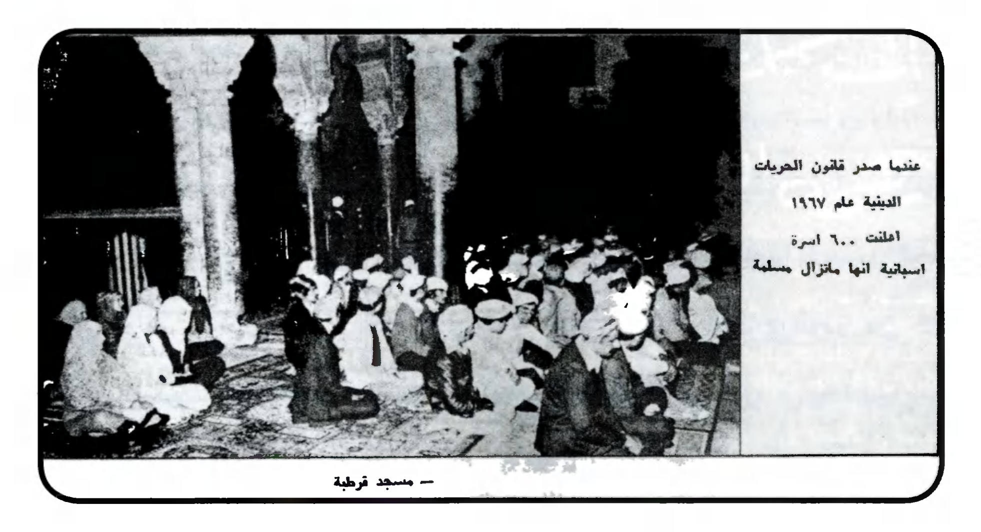
---

(1) مدريد: فجر الخميس، 30/ 12/ 2010م.

عمارة الإنسان وأصالته: تَمَثَّلَتْ هذه الأصالةُ الإسلامية في هذا المتبقى من عمارة البنيان، مثلما تمثلت في سُلّمٍ من النِّتاج الفكري، ثمرةَ عمارة القلم والبيان ماثلةً للعِيان، كما تمثلت في بقية ما تَبَقّى من وَلاء في عمارة الإنسان، في إطار الحنين المَشُوق إلى حقيقة الإسلام. حين صدر قانون الحريات الدينية أو المذهبية - سنة 1967م في إسبانيا - أعلنت ستمائة أسرة إسبانية أنّها ما تزال مسلمة! الله أكبر هذا الدين حين يستقرّ في النفس ويملأ القلبَ ويُقْبِل عليه الإنسانُ تُعْلِن روعةَ الإيمان، ذلك مما جاء في بعض الصحف، مما كان يدعو للمتابعة للتعرف عليه وتوثيقه.

كان ذلك كذلك، رغم ما أذهبت تلك الطواغيت عن كُلِّ ما يَمُتّ للإسلام بصلة. في كِلا الحالين تجري إرادة الله وحكمته وهو أحكم الحاكمين: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف،21).

رأينا في صور الشرائح في تلك الأمسية جانبًا من الفنية في الحياة الإسلامية، فيما تبقّى من العمارة الإسلامية الأندلسية، كانت فائقة، مثلما ابتداءً فارهًا على غير مثال. يوم انطلق المسلمون يحملون الدعوة إلى كلّ مكان، ما كانوا يملكون من هذه الأمور شيئًا، لكنهم بسرعة مذهلة وبهمة عالية تعلموا وعَلَّموا، أقاموا كلّ لون من الهندسة المعمارية وغيرها؛ لأنّهم أوّلًا عَمَّروا نفوسهم وحياتهم بالإسلام، ابتنوها بشرع الله، أقاموها على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بقيادة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أنشأوا كلّ ألوان العمارات والمنارات على أحسن مثال بمنتهى الجمال، فنًّا وقوة وبراعة.



نُقِلَتْ هذه الصورة من مجلة: «الإصلاح»، المجلة الإسلامية الجامعة الشهرية، دولة الإمارات – دبي، العدد: 34، صفر 1401هـ = 1980م.

فيا لروعة هذا الدين، إنّه معجزةٌ أنزل الله تعالى كتابَها، وَحْيًا مباركًا من لدن عليم خبير، حمّلها رسولَ الله ﷺ، أوحى إليه وآتاه النبوة فكانت خيرًا وبركة على أهل الأرض أجمعين، مسلمين وغير مسلمين، مهما عقّها العاقّون وتَنَمّر البغاة الظالمون.

إنّ فنية البناء التي شهدناها شرائح، لمسجد قرطبة الجامع، وبعض أحياء الحمراء، كانت رائعة بألوانها وأزهارها، فما من مثيل. لكنها على الواقع الميداني أَجمل وأَوقع أثرًا، رغم أنّ المتأخر من القرون الطويلة العسيرة كان قاسيًا جافِيًا مُنْهِكًا، مَرَّتْ بها بعد دفءٍ ممتلءٍ بالحنين والحب الرصين.

قيام المسجد الجامع القرطبي ووصفه: المسجد الجامع بقرطبة ابتدأ بناءَه عبدُالرحمن الداخل سنة 168هـ (783م) وأقام قبلته مِنْ قَبْلُ التابعيُّ الجليل حَنَش بن عبد الله الصنعاني (100هـ = 718م) مهندس المساجد ومقيم المباني في الغرب الإسلامي، أحد المجاهدين في فتح المغرب والأندلس.

وَصَفَ العديدُ من الجغرافيين المسلمين - لا سيما الأندلسيين - المسجد الجامع القرطبي، بأوصاف جميلة يستحقها، بل يربو عليها. أورد المقّري (1041هـ = 1631م) صاحب كتاب «نفح الطيب»، مضامين ومنقولات شَيِّقة. أمّا الشريف الإدريسي (560هـ = 1165م)، قدّم في نُزْهَته وصفًا جيدًا ودقيقًا لهذا المسجد الجامع القرطبي - الذي تلقّى العلمَ فيه - قال بأنّه: «يَحار فيه الطَّرْفُ ويَعْجِزُ عن حسنه الوَصْفُ». المسجد كما وُصف إن لم يكن أكبر وأكثر. حيث أورد في كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، عباراتٍ شتى تُظْهِرُ ذلك، أثناء تفصيلاتِ شرحِه لمبانيه ومواقعه وجمال معماريته. يقول في قرطبة: «وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنيةً وتنميقًا وطولا وعرضًا... ولهذا المسجد الجامع قبلة تُعْجِزُ الواصفين أوصافُها وفيها إتقان يبهر العقولَ تنميقُها... ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله... ولهذا الجامع عشرون بابًا... وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغريبة الصفة الجليلة الأعمال الرائعة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مئة ذراع... ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلّا إذا وصلا الأعلى منها».

البناءُ بناءُ الإنسان والافتخارُ به: إنّ السموّ في الفنية المعمارية يناسبه سموّ أكبر في أمور الحياة؛ لأنّ فيه فنية الفطرة التي لم تُرِدْ أن تُصَبّ يومًا في الإطار المادي: هي من عجب، زال أكثرها بزوال ناسها الذين خلّفوها. كما أنّ الإنسان عمومًا، في العبادة لا يعتني بالمظهر دون المخبر وهو الأساس. القوة في هذه الناحية تتمثل في مَخْبَرِها وحقيقتها وثمرات أعمالها. هذه الآثار القائمة ليست خير ما كان موجودًا، منها ومن غيرها، إنّما هي بقية لبعض أوجه التعبير عن كوامن الخير

ودوافع البر، في بناء كريم وسمت رائع رصين، أقامه الإسلام في حياة الإنسان في كل مكان. ابنُ حَزْمٍ القرطبي الأندلسي (456هـ = 1064م) يفخر بذلك، على كل موقع من بلاد خارج العالم الإسلامي، معبّرًا عنه مناديًا:

يا جَوْهرَ الصين سُحْقًا فقد غَنِيتُ بياقوتةِ الأندلس

حافَظوا عليها وافتدوها وهُرِعوا لنصرتها، وهو ما علينا اليوم القيامُ به، مثلما قاموا به، مشاطرين الركب الكريم الميمون ونهتف معتزين! سُحْقًا وبُعْدًا لمذاهب الشرق والغرب معًا ومهلًا لحضارتهما وكلّ حضارة أخرى، يوم اكتفيتُ واغتنيتُ وسموتُ بالإسلام وحضارته. قيمة الحضارة بما تحمله من قيم إنسانية فاضلة، تلك لا تكون إلّا بالارتباط بالله تعالى والأخذ بمنهج الإسلام. إن كنّا نقدّر كلّ قيمة ونعرف قدر كلّ علمية، لا يمكن أن نبخس الناس أشياءهم.

الدعوة هنا إلى إقامة القيم الإنسانية، للانتفاع بما توفر للإنسان وسَخَّر الله سبحانه له، في حقائق علمية ومكتسبات مادية وأدوات تقنية. حضارةُ الإسلام يومَ امتلكت الحقائقَ الفاضلة سعت بسرعة إلى توفير كلّ ذلك، بسبق مشهود لذلك العصر الحضاري المشهود، اسْتَبَقَتْ به القرون.

دراسة هذه الجوانب: إنّ هذا اللون من الفن العتيد، وكلّ ألوانه الأخرى، بأبعادها وامتدادها الثَّرِّ، بحاجة إلى خدمة وعناية حين دراستها بصدق، مثل العمل بمقتضياتها ودراستها لامتلاك حياتها، لا بد أن تكون ضمن الإطار الإسلامي؛ إحياءً لهذا الجانب وخادمة له وعاملة من أجله، ابتداء من النفس الإنسانية وسمتها الكريم، وهذا هو الاحتفال الحق الذي نريد. ففي الإسلام والعيش في أجوائه، كما تحلّق الروح والفكر والنفس، يحلّق البدن والحياة بالارتقاء. إنّ الارتقاء المادي - نوعًا وكَمًّا ولونًا - سيكون واضحَ الشكل قائمًا على الأساس الأُخْرَوِي، إنساني النزعة

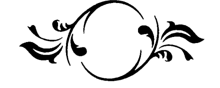
طاهرَ الاتجاه نبيلَ الهدف. إنّ أيّةَ محاولة لتجريد هذه الأمور من صفتها وصبغتها الإسلامية ومن ارتباطها الرباني، عملية غير علمية، مهما كان الغرض والجهة: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة، 138).

إنّ هذا الفن المعماري أحد الوجوه لفن الحياة الكريمة الإنسانية الربانية، وحيدة فريدة بارعة. الفن المؤثر تنظر إليه الحياة لتحيا به بعين الأمل، تقوم على الإيمان الذي هو: «ما وقر في القلب وصدّقه العمل» كما ورد في حديث الرسول الكريم ﷺ. ماذا علينا عمله؟ الآن ونحن في بداية القرن الخامس عشر الهجري - نهاية عَقْدِه الأول - أقام ويُقيم المسلمون الاحتفالات المتعددة له. أمر لم يعتده السلف الصالح؛ لأنّهم كانوا في حفل دائم يحتفلون في كل تصرفاتهم وسلوكهم وجهودهم، يَسْعَون ويَحْيَوْن لدينهم، وقد زينوا به حياتهم بميادينها الواسعة. لعل هذا القرن الحالي - إن شاء الله سبحانه وتعالى وبعونه الكريم - تُقْبِل فيه أعلام الإسلام وترتفع راياتنا متقدمة بحضارته إلى الأنام، وهو الاحتفال الحق بهذا القرن وبكل قرن. لعل بادرة الصلاة في مسجد قرطبة الجامع، بداية لعودته إلى المرابع والطلائع الإسلامية، التي نرجو لها اتساع عملها المتقدم؛ لتحيا بنور الله وتنطلق به بين الناس، هادية بهديه المنير.

الآن وقد مرّ على فتح الأندلس (92هـ = 711) - بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر وطَريف بن مالك وغيرهم من القادة والجنود العاملين المجاهدين - ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، كان الفتح الأول، ليأتي القرن الحالي بالفتح الجديد إن شاء الله رب العالمين، على أيدي المؤمنين من كل لون وجمع؛ ليرتبطوا برباط الإسلام ويرفعوا رايته ويتمثّلوا دعوته ويفتدوه بحياتهم، بعد أن باعوها له رخيصة بحب وصدق وفداء: ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الروم، 4-5). **لقد صدق الله العظيم وعده الكريم***

كان هذا البحث: «أُمْسِيَة أندلسية» ابتداءً - على ما أذكر - محاضرة أُلقيت في المجلس الوطني في أبو ظبي بدعوة من وزارة الأوقاف هناك أثناء زيارة وفد من الجالية الإسلامية في إسبانيا نحو سنة 1981م. تم عرض صور أندلسية عن طريق الشرائح الملونة Slices. ثم أفرغت من الكاسيت لتنشر في مجلة: «الإصلاح» الإماراتية في دبي، العدد 34 - صفر 1401هـ. بعدها رُوجِعَتْ ونُقِّحَتْ وزِيدَتْ حيث نشرت في مجلة: «الخيرية»، التي تصدرها الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - الكويت العدد: 11، رجب 1410هـ = فبراير 1990م. جَرَتْ مراجعتها الآن هنا في يوم الجمعة 2013/8/24م، وأخرى فيما بعد؛ لتكون ضمن البحوث المُعَدّة المُضافة لكتاب: «أندلسيات». وكل الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات.



أمسية أندلسية: ارتسام صورة الأندلس

الأندلس لَحْنٌ شَجِيّ طريد، ونغم ندي فريد، اِعْزِفْه كيفما تُحِبّ وتريد. اِمزجه واعْرفه تمامًا واكْتب علامتَه سُلَّمًا، وتغنّ به مفعمًا، وضع لوحتَه مُتَرْجِمًا، وارسم صورته مُعَلِّمًا، وارفع شراعَه مُفْهَمًا، وامسك غرسَه بُرْعُمًا، ناظرًا ومُعتبِرًا ومتبحرًا:

إن شئت، فَافعله على أدبها اليوم، شعرًا ونثرًا.

أو شئت، على ظلالها، طِيبًا وعِطْرًا.

أو رَغِبْتَ، على خير مياهها، وَرْدًا وزَهْرًا.

أو أردت، على أديم مُحَيّاها الكريم، جَمالًا وسِحْرًا.

أو اِرْتَأَيْتَ على صفحات حدائقها الغنَّاء، تغريدًا ونشرًا.

أو على سنابك خيل المجاهدين، كَرًّا وفَرًّا.

أو على صفحات القضاء الفاضل، مُثُلًا وصُوَرًا.

أو فوق منابر النور فيها، تُشرق بالحق، دعاءً وذِكرًا.

أو فَرِحًا بمواقف أعلامها - نساء ورجالًا وأطفالًا - إقدامًا وبِرًّا.

أو شئت، على علمائها ومعلّميها وعلومها.

أو من على عمائرها، وجهًا من وجوه حضارتها.

أو أردت على أخبارها التي دوّنَتْها.

بل لعلّك تَوَدّ، على مَقارِع محاكم تفتيشها - بعد السقوط الخجول - قِطَعًا وكِسَرًا.

أو في ساحات محارقها المعلنة، نارًا وحَجَرًا.

لا كَرًّا ولا فَرًّا، بل تَسلّطًا وقَهْرًا.

كُلُّ هذا وغيرُه، ممزوجًا بمكانتها وصِلَتِها بنا وبالعِبرة فيها، أو المتبقّى من آثارها في أرضها أو مدفونًا فيها أو مخبوءًا في نفوس أهلها، مبثوثًا في لغتها أو على ما سَلِمَ من مناظر بنائها أو عواطف أبنائها: بنينَ وبناتٍ شبابًا وشَوَابًا، وَشْيًا في الآذان، ووَشْمًا في أي جزء من الأبدان، أو رنينًا تَحُسّه في كلّ مكان.

لتكن هذه الأبيات التالية، جَرَى بها القلم، مفتاح عزف نديّ متساوق طويل، وباكورةً مُلحنة ربيبةَ مجدٍ بَلِيل، في نَغَمٍ حُرٍّ متجاوب، وأدبٍ ثَرٍّ متجاذب، وفروسيةِ بِرٍّ متواثب، وأنشودة رجولة وبطولة، تروي وقائع الصلحاء البهاليل، والبُناة المَقاديم، تتدافع خطواتُهم، وتتتابع رغباتُهم وتترافع هممُهم للتضحيات المتنوعة والأيادي المتوضئة والهتافات المتوثبة المتبوئة، على درب الفداء متهنئة، تروم البناء وتتعطش للعطاء وتتسارع للنداء، متمايلة متضوعة الأوراد، ومتماثلة متآلفة الإنشاد، ومتفاعلة متدانية الإرفاد، تجعلها فارعة بارعة، وهي متسامرة بهذه المقدمات، متسايرة بأبهى الخُطوات، ومُتَضافِرة بأغلى التضحيات، وهي تجول وتقول:

نَغِّمْ إنْشادَكَ واعْزِفْهُ	واضْرِبْ وَتَرَ الحقِّ تَعْرِفْهُ
فَحَنينُ فؤادِكَ مَوْصُولٌ	لا تُمْسِكْ عنه وتُطْرِفْهُ
والرُّوحُ نَفَسٌ إذْ تَسْري	مَهْمَا شِئْتَ لا تُوقِفْهُ
أَمْ حِينَ تَغَيَّبَ مَقْهُورٌ	لم تُدْمِ الجسمَ وتُنْزِفْهُ
آثارُهُمْ لا ما غابَتْ	إنْ يَبْغِ عَدُوٌّ تُدْنِفْهُ
أثَرُ الإسلامِ هُنا باقٍ	مهما قَطَّعْتَ وتُتْلِفْهُ
فاقدم بنفسكَ تَلْقاهُ	عزيزَ الهِمّةِ تُعْجِبْهُ

ذكريات أتت واستقرت: تلك ذكريات عزيز، قريب بعيد، حقائق ماثلة، في رؤيتها فريد، لمن أراد أن يضيف زيادة لمستزيد. ما أكثر ما يثير هذا العزيزُ على النفس،

فيها من المعاني الجليلة المفيدة المعتبرة، تلوّنت بألوان شتى وعَبَّرت عن معانٍ أجلى، حلوة أو مرّة. كلّما كان هذا العزيز أصيل القيمة معروف الشيمة، يرتبط مع الإنسان بأبرك صلة وأوثق عروة وأعرق رباط، كانت المعاني أكثر اعتبارًا وأشدّ ازدهاراً وأبعد إغزاراً، لا تفتأ عن الامتداد والازدياد ترتدي من عين اليَنْبُوع، متعددة الجوانب، طيبة المآدب، متجددة الأثواب. أمر جَرَى في أمسية كريمة، ضمّت مجموعةً أخيارًا، حضرت لتستمع جميل الأخبار، تستمتع لعزفٍ على أحلى الأوتار.

امتداد الغُرْبة وألوانها: جرى استعراض لحال الإسلام والمسلمين في إسبانيا الأندلس، الفردوس المفقود، وهو موجود، يزداد - بعون الله تعالى - وجودُه ظهورًا، ويزدان حبورًا. تعرّفنا على نخبة، ساروا في خير درب، يعلّمون أنفسَهم دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبه يعملون وله يسعون. بجانب كلّ ما عليهم من واجبات وما يتحمّلون من الغربة، بكل أثقالها وأحوالها وهمومها، مما سبق أن عبّر عنه شاعر أندلسي:

أنا في الغربة أبكي ... ما بكت عينُ غريب

طوبى لمن؟ لكن ربما مع ذلك نجد هؤلاء لا يبكون، بل هم فرحون؛ لأنّهم التقوا على طاعة الله تعالى وتحابوا فيه، انطلقوا بشرعه في الحياة في الملتويات والشِّعَاب، التي تاه فيها الكثير، من دارسين وسائحين وعاملين. ساحت بهم الآثام، وسَرَحَتْ بهم الأقدام، سقطوا في حفائرها حين أداروا ظهورَهم لشرع الله المنير، على علم أو جهل، مهما كان التبرير. إنّ مثل هذا الموكب الخيّر- حين يتوفّر اليومَ أو مستقبلًا في ضمير الزمن وإن صَغُرَ وهذه تباشيره - يقوم بمهمة البناء ورفع اللواء إن استقام وعلى الدوام يمتدّ صوته للجميع بالنداء. كم من عائد إلى الدرب على هديره، ورَجَعَ آبقٌ في البيداء إلى داره، وآوَى طريدٌ إلى سريره، ليجد نفسه على طبيعتها، تحنّ إلى فطرتها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الروم،30).
مستغربًا مِنْ فِعْلِها ذاك، حين استمتع بإنسانيته، أراقها الآخرون على درب الزلق والقلق والهلاك، بثمن بخس ومتعة هزيلة مرذولة مركونة، نجا من كلّ ذلك، في سلوك الطريق الكريم والصراط المستقيم. إنّه الدرب الوحيد بين الملتويات وعلى الدوام جديد، أمام المنعطفات المنزلقات، في كلّ حال غابرٍ أو آت. إنّه نور الله وشرعه وكتابه الذي: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ (فصلت، 41-42). يَحسّ بالاستعلاء الخيّر على الصغائر والكبائر وبالعزّة الإيمانية الأبية والهمّة الإسلامية العطوف، تريد السُّقْيَا للآخرين والريّ للعِطَاش اللاهثين، والظلّ النديّ لمن لفحتهم حُرْقَةُ الهجير، انطلقت تتحرّك لتقيم المرتع الخصيب والمأمن البار، في تلك الديار. أصغينا في تلك الأمسية، بلهفة وثّابة عن تلك الجهود، يقوم بها أولئك النفر القليل، جدّ قليل، الأمل أنّهم - بعون من الله العزيز سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - يكثرون كلّ يوم، ويحققون - بفضل الله الكريم الرحيم مع الأيام - المزيد، أوضحه لنا المحاضر: أحد المقيمين في تلك الديار الحبيبة الغريبة، غربة هذا الدين.

اليوم - في خطى متئدة، وأحيانًا مُهَدَّدَةٍ - نلمح تباشير العودة، لنفر من أهله، إلى الظل الظليل والنَّدَى البليل والنور الأصيل، وإلَّا فستعود الغربة ويعم الضياع لمن يبتعد من بقاع النور ونبع الخير ودرب النعيم، في كلا الدارين.

نَتَفٌ مِنَ الأخبار أمامَ النظّارة: عَلِمْنا من أخبارهم ما قَدَّم صورةً مشرقة، عن حقيقة المسلم حين يلتزم بدينه ويفيء إليه ويركن عليه، يسير بقوّة وعزّة، تنبئ عن مُكْنَة تُمْسِكُه؛ ليقف في وجه التيار المتخلّف والمتغلّف، مهما تزيّا بأثواب حضارة اليوم، ومهما جرف ليجرفها المسلم وكيفما عتا ليردها، طالما زاد وبغى ليأخذها

وينظف الأرض منها. يكون ذلك مع الأحداث والأشخاص والأوضاع، كلما كبرت تبدو صغيرة، أمام هذا الدين وأهله، حين يتحرّك به إنسان بصدق يتمثّل، تقرؤه في السلوك قبل المنطوق، لا يعرف على الدوام غير هذا الحال. هذا ما يجب أن يكون عليه المسلم إذا صَدَقَ وفَقِهَ وجَدَّ. يقدّم الصورة الصادقة، التي يَرَى الناسُ فيها حقيقةَ الإسلام، تعلو على كلّ التُّرَّهات، وتسمو فوق أي انحراف. تُوَفِّر صيغةَ الحضارة الأصيلة - غير الزاهية الكذوب – تَظْهَرُ في إنسان الحضارة الرفيعة متلألئة مشرقة، كالشامة وضوحًا باهيًا، تتميّز عن الآخرين.

بهذا عَرَفَ الناسُ الإسلامَ حاضرًا وغابرًا، انتشر وانتصر واستقرّ، لا بد منه ليتكرّر ويظهر، وهو الأمل اليوم أن يُرى ويُنظر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف،9). علمنا ذلك وتعلّمناه، ليس من طلبتنا وجاليتنا الإسلامية في الأندلس فحسب، إنّما في الكثير من بلدان العالم غير الإسلامي، لا سيما الغربي وكذلك الشرقي إلى حدّ ما. الحياة تمضي انتظارًا، لتنعم بالنور دِثَارًا، فهل من مستجيب للنداء الحبيب، في صقل النفس، تنطلق بالدعوة إلى الخير النقيّ، والتقدّم الأبي، المفعم بألوان الرقيّ؟

ذلك ما يجب أن يقوم به كل أحد ممن يريد الخير لنفسه ولغيره ليكون من الأفاضل والأماثل، مما يجب أن يكون عليه أهل الغربة من الجالية - طلابًا وأضرابًا أنجابًا - بكلّ أنواع النشاط الخيّر يعاونهم الآخرون، فهم جميعًا المحور لدعوة الناس هناك، إلى نور الله المبين، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعين.

مضمار الانطلاق بالراية: هل يعني ذلك أنّ الراية الإسلامية ستنطلق من أرض جديدة، لم تكن للإسلام قبلًا، أو كانت له يومًا، تُلْفِتُ أنظارَ مَنْ يَحْيَوْنَ على أرض الإسلام، قَلَّ العاملُ فيهم، وإن كثر اليوم، أو سيكون بعده؟ لَكَم هذه وتلك تنبؤنا عن

نموّ العقول بعد الذبول، في أرض الله، في أي بقعة من تلك الديار. هذا هو المهمّ، يتّسع بعد ذلك ريّها وتزداد مواقعها وتخضرّ مرابعها؛ لتعمّ الأرض كلّها بالخير والحضارة والإنسانية البَرَّة. قد تَعْجَب فَرِحًا وتَطْرَب مَرِحًا وتنتشي نخوةً إيمانية، حين تعلم أنّ هذا المُحاضر من الجالية المسلمة في إسبانيا الأندلس الذي قضى نحو عشرين عامًا في الغربة وما يزال، هو الآن طبيب متخصص في فرع مهمّ، يقوم بتلك الجهود، وهو يعلم أنّ الطبّ الحقيقي المهمّ الأقدم، هو طبّ النفوس ودواء الحياة الحقّ، ينقذ من كلّ الأدواء ويرتقي في السُلَّم الرباني، سليمَ النفس معافى؛ ليزرع الحياة حضارة ونورًا، يُعِدّه لسعادة الدارين. طريق لا يَعْرِفُ اللونَ ولا يرتبط بالتراب، لا يلتقي على عروق نخرة وعظام بائرة. كما يعتني بطب الأجسام إلى حدّ عالٍ إنساني كريم، لكن كذلك عنايته بطب النفوس والقلوب، وداخل الإنسان أكثر.

أنت ترى أولئك الغَيَارَى الرُّوَّاد الأمجاد وأمثالَهم، في كلّ تلك الديار - وراء السهوب والسهول وخلف البحار - وتشهدهم وتحمدهم وترقب الأمل فيهم جميعًا وأفعالهم. التقوا على هذا الدين بلا نسب يجمعهم، أو مصلحة تلمهم أو ملذات تسوقهم. اجتمعوا على دين الله تعالى وتحابوا في الله سبحانه، ولأجله وبه تماسكوا، آصِرَةٌ أخوية جليلة بليلة وجماعة ربانية، ومجتمع حب في الله يفتدون شرعه، الغالي عندهم لدين الله مسترخَص، ذلك الأملُ فيهم. تلتقي بهم فترى فيهم الأبيض والأسود، الشرقي والغربي، من كلّ اللغات أو أكثريتها، ارتبطوا بخير رباط، ليرابط كُلٌّ على ثَغْرٍ يسده ووجه يحميه، وعمل يبديه. يعتبرون دراستهم وأعمالهم طريقًا لخدمة هذا الدين- الطلاب منهم في كثرتهم - يدرسون دراسات وتخصصات علمية، لم يتعلموا منها الإسلام، لا سيما هناك. بل كان ذلك لأنفسهم، التقوا عليه وبدأوا يرون كل ما في الوجود، حيث الإنسان خاضعًا لإرادة الله تعالى وقدرته، يرون فيه

عظمته جَلَّ جَلَالُهُ ، عَرَفُوا مكانة الألوهية لله رب العالمين، أدوا حق العبودية له، يقومون بما يجب على المسلم أن يقوم به وما على غيرهم - أهل التخصصات الإسلامية - أوجب. بجانب كلّ مسلم ثَغْرَةٌ يقوم عليها، حارسًا أمينًا ومجاهدًا كريمًا. هل هذه صورة قائمة أم تراها مأمولة منتظَرة؟

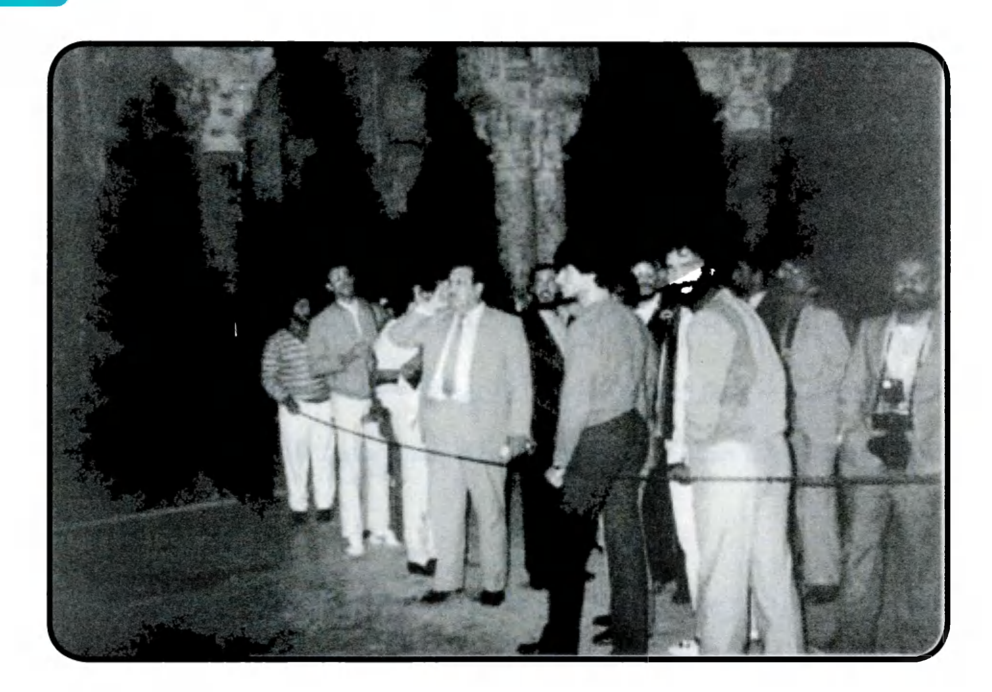
الفردوس المأمول الموعود: المأمول أو المطلوب من هؤلاء الغرباء الكرام في بلد الفردوس الأندلسي - فراديس أرض الله - يقومون بألوان النشاط، يستحقون منا كلّ تأييد وتشجيع، نشدّ أيديهم، أن تكون لهم هناك جهود ميمونة ملحوظة بين الجالية الإسلامية وأهل تلك البلدان - منها الأندلس المأمول - تعريفهم بالإسلام، يَدْخُل الإسلامَ منهم في كلّ أمد جديد، عائدين إلى دارهم القديم الأمين، أُخْرِجوا منها بقوة السلاح والتسلّط القاتل المبيد، لم يكد يبقى منهم ديّار أو نافخ نار، في ظاهر الأمر ووضح النهار. نفرح أن نراهم يترجمون وينشرون ويحدثون، لكن المهم أن يكون بالسلوك قبل اللسان، عليه هنيئًا لهم إن كانوا كذلك ولكل من يخطو بنفسه نحو الإسلام خطوة مع الآخرين، في كل بقعة من بقاع أرض الله الواسعة، لتستنير بنوره المبين: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور، 40). الحمد لله رب العالمين على ما أنعم علينا بهذا الدين، ونرجوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعيننا على أداء واجبنا نحوه، على أحسن ما يكون إن شاء الله تعالى.

حين يكون المسلم، على صورة أفضل والتزام جليل، فإنّ الله القوي القدير يفتح له المغاليق من الأبواب، يَلْقَى العونَ من الآخرين.

كيف أثمرت المساعي: ومن جميل ما قامت به الجالية هناك. منذ نحو عشر سنوات. إقناع السلطات الإسبانية لإقامة صلاة عيد الأضحى المبارك في المسجد

الجامع القرطبي. حَدَثٌ مهم جدًّا إذا ما علمنا حال السلطات هناك وتعصّبَها الصليبي الأعمى، بقية التعصّب القاتل الذي قاد إلى الفتك بالمسلمين وإبادتهم. فهي هذه الأيام تمنع فردًا أن يصلّي فيه، حتى لو كان يريد تحية المسجد لعله بدأ يتغير اليوم أمر مرجو. نَمَا إلى المعرفة أنّه في الستينات حين أَدَّاها أحد المسؤولين، في زيارته الرسمية لهذا المسجد الجامع، احتجت تلك السلطات على ذلك. يا للغرابة والاستبداد والانتهاك، لكن ارتفع الأذان والحمد لله رب العالمين.

في أوائل عام 1978م حين قام كاتب هذه السطور ووفد جامعي من جامعة الإمارات العربية المتحدة في العين (طالبات) في رحلة الأندلس، بزيارة المسجد الجامع القرطبي، مَدَّ سجادتَه وأخذ يصلي تحية المسجد بلهفة ونهم، منعه مراقب في المسجد العتيد من ذلك. جَرَت مناقشة لم يأبه له أو لها، استمر في صلاته، كما رغب وأراد، حتى أتم بغيتَه، السائحون وزوار المسجد بأنواعهم ينظرون إليه مندهشين. تكرر هذا أوائل عام 1985م، مع وفد جامعي من نفس الجامعة (طلاب)، كذلك جَرَى منعُه، لكنه أتمّ أداءه صلاة تحية المسجد والناس حوله متحلقون. لا بل حَدَثَ أكثرُ من ذلك: أنّه رفع صوته بالأذان عاليًا عند أو تحت سقف المحراب العجيب الغريب الذي بناه (351 - 354هـ) الخليفة العالم الكريم المجاهد الحاكم الجليل المبجل اليعسوب الخليفة الحَكَم (350-366هـ= 961-976م) المستنصر بالله. كان هذا الأذان النداء الخالد كأنّه قد فَجّرَ برنينه القرون الصوامت.



● المسجد الجامع القرطبي: مِثْلُ كُلِّ مَرافق الحياة الإسلامية الباهرة وميادينها المزدانة بالروائع، يَشُدّ معمارُه انتباهَك في كل مكان وبكافة الأنواع. مثل معمار الحياة الإنسانية وبناء النفس فيها. والعمارة المدنية يعبر فنُها لك عن حقيقة مبناها من الدقة والرقة والجمال. ذلك ما عَرَفَتْه الحياةُ الإسلاميةُ وتمكنتْ منه في كل أداءآتها، بمقدار الالتزام بثوابت هذا الدين، عمارةُ كافة المواقع، المساجدُ أحنُها- إن لم تكن أولَها- فخامتُها لاتتميز بالضخامة والحجم والتجسيم، بل بما فيها من فنية وروعة وسَبْق، على غير مثال، إبداع متميز أَخّاذ، بناءُه وَجْهٌ من أوجه البناء الإنساني المضيء.

● المسجدُ الجامع القرطبي: بَدأ بناءَه عبدُالرحمن الداخل سنة 168هـ(784م). استمر من بعده وارثوه بإنجازات وعمارة وتَوْسعاته لما يزيد عن قرنين من الزمان. ما يزال يتمتع بكثير من روائع فنياته، رغم ما أصابه من تدمير متنوع وتشويه متراكم وإهمال جاثم، من يد الإنسان أكثر منه من تقادم القرون والأعوام. رغم كل ذلك ما يزال باهراً فارهاً رائعاً، ولو أنه يكاد يدعوك من وراء ذلك كله.

ألا ما أجمل الأذان يرتفع في أعالي الفضاء، في كل مكان، وفي المسجد الجامع القرطبي، بعد انقطاعه نحو سبعة قرون، من باحات المسجد الكبير، ربيب

الحياة الإنسانية الفاضلة، وبيت العلم والجهاد والفن الشامخ الأصيل، والمُثُلُ القَيِّمَة العالية، موئل البرِّ والنور، ينشرها على ما حوله في السُّوحِ والميادين والنِّجَاد والوِهاد، مع تيار مائه فينقيه، يخالط نسيم هوائه فيصفيه، يحمل النور إلى كل نبت فيحييه، بعد أن صمتت مئذنته - أو صومعته، كما يسميها أهل الغرب الإسلامي - عن النداء الندي، في هاتيك البقاع والديار تحوطها البحار، كل تلك القرون العجاف، الصامتة صموت القبور أو البيَت المهجور، عاشت في الديجور، غابت مرابعها الأندلسية، نورُ الشمس وغارَ ماءُ الخير قُرابة خمسة قرون، لعلها تبدأ من جديد.

اليوم يعود ذلك النداء متهدج الصوت متدرج الموج، يرتفع حينًا نابضًا، تنهمر له العَبَرات، راجيًا أن تعود العهود ليس كدَيْماتٍ متناثرة في السماء، إنّما غيومًا غنية غامرة عامة مباركة خَيِّرة مترعة، ينهمر ماؤها في كل مكان دائمة الإدرار مزدهرة الإثمار عالية الأنوار. أخيرًا لقد وَصَلَتْ إلى الأسماع اعتراف السلطات الإسبانية بالإسلام دينًا في إسبانيا سنة 1989م، والحمد لله رب العالمين، هذا يعني الكثير ويقدم الكثير جِدُّ كثير- مما يقدمه مجالات رحيبة وجديدة أصيلة، تجول فيها بحرية وثبات- الأمل أن يتم ذلك في البرتغال وغيرها - كما تمّ في بلدان أوربية وغربية أخرى، مثل بلجيكا وكندا كما يبدو- هي فرصة تنتظر همة المسلمين هناك- نرجو الله تعالى وندعوه أن يفتح بهذا ميادين جديدة يستطيع المسلمون من خلالها خدمة هذا الدين لخير أنفسهم والإنسانية وبناء الحضارة الفاضلة الخيرة الكريمة.

هذه بوادر بَعَثَتْ بها تلك الأمسيةُ الندية في الحديث عن المتعلقات الإسلامية في الأندلس الحبيب والأندلس الجديد، ثم انهمرت خواطر لدى عَرْض شرائح عن

الآثار الإسلامية، فيها جوانب من هذا المسجد العتيد - المسجد الجامع القرطبي - الذي أراده الله جَلَّجَلَالُهُ ليبقى علامة لكثير من المعاني الغَرَّاء تَحْدو المسلمين لإعادة صورته البيضاء، حين يُشْرِقُ عليه الضياء ليَجِدَ وما دَرَسَ منه، تترعه مياهه الفياضة تكرعه أفواه المؤمنين مقبلين على محرابه الأمين من قوافل المجاهدين ركبوا كل المُتُون.

هم يكررون على الدوام «يا خَيل الله اركبي»، حملوا حديث السلاح بكل نوع كريم، ضَرَبُوا في الأرض يُزِيلون أشواكَها ويقتلعون أوصابَها، يزرعونها نباتَ برٍّ وحباتِ خَير، تَزْدَهِر أعوادُها وترتفع أمجادُها وتَغْدَقُ على الناس من جديد أرفادَها.

قرطبة عاصمة الأشهاد والأمجاد والجهاد: ألا ترى حكمةَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كل ذلك. فمع أنّ سقوط قرطبة كان سنة 633هـ (1236م) - هي العاصمة الجوهرة - ومسجدها الكبير أكبر المساجد في الأندلس طرًّا وفي العالم الإسلامي خبرًا، يسعى الحقد الصليبي لمحوه كونه أملًا للنفوس، ما زال يقارع وينازع ويدافع، ليبقى - بفضل الله تعالى - ثباتًا أبيًّا قويًّا، أمام القرون المُدْلَهِمَّةِ.

لكنه - وهو أكبر مسجد - شامخًا بَقَى، وأوسع أماكن العبادة أثرًا سَرَى، وأنضر المساجد سعةً حتى اليوم انْبَرَى، سقطت بعده وبعد قرطبة بيد التعصب الصليبي بمدة - قلت أو كثرت - مدنٌ عدّة وكذا غرناطة، بما يزيد على القرنين والنصف من الأعوام، لكنها لم يبق من مساجدها إلَّا القليل، أو تحولت إلى كنائس، أو اندرست وزالت مِنْ على الأرض، حتى ما تكاد أحيانًا، تتبين خبرَها أو حدودَها أو حالَها. لكن المسجد الجامع القرطبي أراد الله له أن يبقى علامة وإشارة، لعلها بداية لموكب النور يبدأ المسير في الطريق الكريم، هكذا يزداد خيرًا كلّ يوم بعون الله تعالى ولطفه ومَنّه.

﴿ إنّه وعد الله، مهما تأخر الزمان وانتصب في طريقه من العقبات، فالله جَلَّ وَعَلَا هو المعين. الحق قادم وثغر المؤمن له باسم. إنّه الهداية، تعمّ أرض الله عما قريب، إن شاء الله تعالى رب العالمين، تُشْرِقُ الأرضُ بنور الله المبين ساطعة منيرة لا تغيب. ذلك المسجد بقية الخير، تَفَلّت من يد المَنُون، لَفَّتْ عليه أكفانَها، نبع القوة من كل لون كريم، تأبّى على الطغيان المبير، مستودع الحياة أحيط بأسلحة الإبادة لا تُبْقِي ولا تَذَر.

﴿ لكنها إرادة الله جلّت قدرته، ناطقة بكل لسان وأبلغ بيان، وِرَاثة الخير الدفين للسلف الأمين إلى عباد الله الصالحين، آمنوا بالمنهج الرباني وتنادوا لحمل هذه الراية، مهما كان الحال والمآل. وعند الله حسن الثواب، مع الأحباب والأصحاب المطيعين لله رب العالمين والرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء، 69). **صدق الله العظيم*****

كانت هذه المحاضرة في نفس مناسبة المحاضرة السابقة وفي وقت متقارب، أُعِدّتْ بَعْدَها لتنشر في مجلة: «الخيرية» التي تصدرها الهيئة الخيرية الإسلامية – الكويت، العدد: 12، شعبان 1410هـ = مارس 1990م. ثم رُوجِعَت أكثر من مرة حتى الآن 2015/4/20م لتُنْشَر ضمن بحوث: «أندلسيات».



العُلَماءُ والتَجربةُ الأندلسيةُ

الفتح الإسلامي مَعالمُ خَيْرٍ ومَكارِمُ بِرٍّ، سارت الفتوحات الإسلامية - عَبْرَ المناطق والبلدان - ترفع رايةَ الإسلام وتنشره بين الأنام. أَمْرٌ لا يَتِمّ إلّا ببيع النفس خالصًا لله تعالى والارتقاء بها بهذا الدين الإلهي الكريم، في ميادين الحياة كافة وفي مجتمعه الرباني المجيد.

الفَتحُ الإسلاميّ للأَندلُس أطَايب وحقَائب: بذا وصل المسلمون الأندلسَ، فاتحين ناشرين دينَ الله الحق سنة 92هـ (711م). سرعان ما فُتحت الجزيرة الأندلسية فتحًا أغلبه صُلحًا، خلال أربع سنوات أو تزيد، وأَخَذ أهلُها - وأغلبهم الغالبة نصارى - يدخلون في دين الله أفواجًا، كلما فهموه ورأوا مُثُلَه في حامليه، من خلال التعامل الكريم والخلق الرفيع، مرتقين إلى أعلاها وأنقاها، مترفِّعين عن سفاسف الأمور.

كان المجتمع المسلم في الأندلس ثمرةً لذلك، في كل اتجاه كريم، خلال القرون الثمانية، عَرَفَتْ فيها تلك الأرض خيرَه - التي طابت بالإسلام - أثمرت وأينعت أبركَ الثمار وأفضلَ نِتاج وأروعَ حياة وأعطرَ زهرات. كانت بعضُ مآثرها وجوانبها، التي وصلت - عَبْرَ الأندلس - إلى أوربا أقامت حضارتها، علامةً على روعة هذا الدين وفضله، حتى لمن لم يدخله، خارج مجتمعه وداخله. حيث تمتع هؤلاء بالحرية والتسامح، وحصلوا على ما فيه من خير وبِرٍّ وعِلْمٍ، لكل مَن استظل أروقتَه أو امتدت إليه يَدُه الدافئة الرؤوم. احْتَقَبَتْ أوربا من علوم المسلمين وحَمَلَتْ من جهودهم ونَقَلَتْ من مؤلفاتهم، ما كان أساسًا فريدًا لكل تقنياتها ومبتَدعاتها ومآثرها، لا بديل لها غيره.

<u>بين الانتصار والانحسار:</u> مَرَّ الأندلسُ - خلال حياته الإسلامية - بألوان من الظروف وتنوع من النتائج وأطوار من المواجهات وأشكال من الالتزام، عَرَفَت فيه أيضًا مرارة التخلف عن الالتزام والضعف، وعن عَدَم الأخذ أحيانًا بتمام وكمال منهج الإسلام، والانحراف عن خطه الخلقي الكريم بأي مقدار، الذي كان مددَها على الدوام. انتهى الأمر -لأسباب داخلية وخارجية- إلى الانهيار. تكاد تنفرد الأندلس ببعض هذه الأسباب، التي قادت إلى ذَهاب دولته وزوال سلطته سنة 897هـ (1492م). لكن لم تكن تلك نهاية النهاية، بل التقت نهايات ببدايات. انفردت الأندلس ببعض ظروف قادت لسقوطها، بل انفردت تمامًا بشكل متسع وحزين لِمَا لقيته بعده، في إنسانها وعُمرانها وحضارتها ونضارتها، مكافأة غير كريمة، بل عاقَّة ومتوحشة، على ما قدمته من إنجازات وحققته من مُثُل وأرسته من أعراف، لا يمكن أن تتوفر إلَّا بهذا الدين. وفَّرته لكل أحد، حيث سعت الكنيسة بسلطاتها للقضاء على كل ذلك، ما دام إسلاميًّا ويتصل بالإسلام نابع منه.

<u>قيادةُ العُلَماءِ وشُهُودُهم:</u> من ظواهر الحياة الإسلامية المألوفة الطبيعية الأصيلة، موقف العلماء في قيادة المجتمع الإسلامي وحمايته. كانت هذه الظاهرة الفاضلة الكريمة المضيئة في الأندلس بداية هادية. لعله أكثر ظهورًا، أيام الملمات والشدائد، يخوضون المعارك ويقودون المعامع يتقدمون ويبذلون؛ تقوًى لله تعالى وقربى، الأمثلةُ على ذلك وفيرة وخطيرة وجديرة.

العلماء هم علماء الشريعة - بكل مستوياتهم وتخصصاتهم وإسهاماتهم - الذين رعوها، في حفظ أُمتها وأُمتهم، خافوا الله في حياتهم وبذلوا اجتهادهم وجهدهم وجهادهم؛ طلبًا لرضا الله تعالى. فهم أكثرُ الناس مسئوليةً وأَوَّلُهم واجبًا

وأسبقُهم استجابة. لكن المسئولية - لكل أحد من المسلمين - بقدر علمه وطاقته وإمكانياته «كُلُّكُم رَاعٍ وكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

لكن عند ظهور علامات السقوط الأخير في الأندلس العزيز الذي توقّعه العديد، منذ بضعة عقود أو قرون قبله مبكرًا ومذكرًا جَدّت ظاهرة أخرى مهمة، لها أثرها، مثلما لها أسبابها. العديد من العلماء الأعلام هاجروا من الأندلس قبيل السقوط حين لاحت في الأفق بـوادرُه، وبعده حين حلت على أرضـه خيلُه ورَجِلُه. يقدر عدد مَن هاجر منهم بالعشرات. بعضهم خارج حياته الأندلسية ترك أعمالًا مكتوبة، كانت مصدرًا مهمًّا وأصيلًا. بعضهم الآخَـر قـاد جهادًا مشهودًا، كان واضحًا ومستميتًا؛ قيامًا بواجبهم نحو إخوتهم الذين بقوا في مقرّهم الأندلسي لأي سبب، في أرض الإسلام لكن قيادةَ مثل هذا الجهاد - خارج الأندلس، وربما بدون تنسيق - يجعله قليل الأثر ضعيف التأثير خفيف الوزن، بعد أن تركوا ما هو أوجب في داخل الأندلس مع أهلها.

هذه التجرِبة - العمل من الخارج - مختلفة عن أختها أيام الطوائف، التي كانت للعلماء مجاهدتهم وجهادهم ومواجهتهم - في الأندلس ذاتها - مع حكامها ومعايشتهم مع أهلها؛ لبنائهم وردهم إلى الحق والارتقاء بهم، حتى أصبح ذلك تيارًا قويًّا متدفقًا ومنطلقًا، امتد - بطبيعته وأصالته ونظرته - لاستدعاء إخوة العُدْوة في المغرب؛ لنصرتهم ومعاونتهم في رد الخطر وطَيِّه وتبديده، مما أطال عمرَ الأندلس قرونًا، على رأي بعض مؤرخينا. جَرَى إحصاءُ ما يزيد على العشرة من هؤلاء العلماء الذين هاجروا - من الأندلس تفْضيلًا، بعد سقوط غَرْناطة - قاموا بجهاد مأثور، أو تقدموا بنتاج أَرَّخوا فيه الأحداث، كان واحدهم فيها شاهدَ عِيان. يمكن تقدير عدد المسلمين في الأندلس - بعد سقوط غَرْناطة - بما يزيد على ستة

ملايين، متركزين أكثرهم في مملكة غرناطة ذاتها، متناثرين في أنحاء أخرى من مدن الأندلس وقراها ومعاقلها. كيف إذًا يمكن ترك هؤلاء - مِن قِبَل العلماء - لُقْمةً سائغة للأعداء- إن كان بعضهم - من هؤلاء العلماء. قد بَقِي وأبى الهجرة إلى الخارج واحتملوا واجبهم وتحملوا تكاليفه وأحسنوا تمامًا الأداء. كما أن هذه الأوضاع لا تَعْدِم أن تُقَدِّم قيادات جديدة، لكنها - وإن كانت سديدة - فلا يمكن أن تستغني عن خبرة وأثر وجهد أولئك الذين هاجروها أو هَجَروها. بقاؤهم كان لازمًا وضروريًّا ومُغَيِّرًا مَجْرَى الأحداث ومسارَ الوقائع وعنفَ المواجَهة.

العُلَماء كَهْفٌ للأَبنَاء وَهدَفٌ للأَعداء: إذا كان بعض الهجرات قد تمّ حول السقوط، فلا يدعو ذلك لأن يغدو كأنّه كان للبعض سُنّةً سابقة أو تجرِبة ممارَسَة أو جدوى مأمولة. مهما كانت ضيقة. استمرت حتى بعده بقرون أو يزيد. لكن فيما سبق كان مَن هاجر وسلك هذا الطريق وأسس هذا الاتجاه قلة قليلة. ربما هم من أقوى العلماء وأرقاهم وأعلاهم بجانب قلتهم القليلة لم يكن له أثر؛ لوجود مَن يقوم مقامَهم وأكثر ومِن غير أن يؤثر. بجانب ذلك فقد انغمر أولئك المهاجرون - في كثرة منهم - وانزووا واختفوا. علمًا أنّ هجرتهم ليس بالضروري كانت فرارًا أو هروبًا بل اختيارًا، كما لم تكن دربًا ولا حَلًّا ولا أملًا. من هنا اختلف الوضع والأثر والثمر.

لكن من ناحية أخرى، إنّ هذه الهجرة -التي رافقت سقوط غَرْناطة، أخر معقل للمسلمين في الأندلس يومَها - كان قد أُجبر بعضُهم على الهجرة فيما بعد، في كل طَرْد تفرضه السلطات الإسبانية – رسمية أو كَنَسِيّة - حتى كان الطرد الأخير (أو الأَوْلَى الكبير) سنة 1018هـ (1609م) الذي شَمِلَ العُلماء وغيرَهم. وإن كان في الحقيقة ليس الأخير الأخير، إلّا أن يكون الأخير الكثير الكبير الذي اتُّخِذَ

فيه قرار رسمي بشمول واهتمام وإجلاء. لم تكن هذه الأطراد حظ الناجين منها بأسلم من حظ الذاهبين بها، كما أنّه لم يكن حال المطرودين فيها بأحسن من الذين تخلفوا عنها وصُدوا وأُبقوا.

الذي بقي - اختيارًا أو قهرًا - لقي مع المسلمين الموريسكيين كُلَّ ألوان العذاب. جَرَت على أهلها تحت سطوةِ محاكم التفتيش الغاشمة الظالمة، التي كان القتل - حرقًا وجماعيًّا وعلنيًّا، في احتفال ديني إيماني (Auto-da-Fé) كبير منتصر - مألوفًا، لكل مَن يُشَكّ أنّه ما يزال على الإسلام، بممارسته أيَّ شيء من مناسكه وأخلاقياته ومعيشته. منهم مَن اختار البقاء وصمم عليه؛ رعايةً للمسلمين شمولًا، توريثًا للدينِ الحق وتثبيتًا لأعلامه الأحرار من جيل إلى جيل.

يُقصد بالموريسكيين (كلمة إسبانية LOS MORISCOS) المسلمون الذين بقوا في الأندلس، تحت السلطة النصرانية بعد سقوط غَرْناطة، واحتملوا مخارق ومآزق ومحارق محاكم التفتيش الإسبانيةَ التي صُبَّت عليهم طوال ثلاثة قرون ونصف أو يزيد.

لقد عُرِضَتْ - قبل أشهر (أواخر سنة 1989م) ولأول مرة وبأهمية كبيرة - أدوات التعذيب لمحاكم التفتيش الإسبانية في مدينة بلنسية Valencia في الأندلس على البحر المتوسط، فاتني حضورُها المهم.

حين بدت بوارق السقوط أو مآزقه أو مؤشراته، ظهر لبعض العلماء أنّ الرحيل - عندهم لأيّ سبب - أفضل. إذ لم تعد فائدة من البقاء أو المواجهة أو الوقوف أمام قُوى الفتك والهتك والتنكيل، طابَع القُوى النصرانية الغاشمة في إسبانيا والبرتغال، التي واجهت مملكة غرناطة الصغيرة بمدّها الصليبي الذي ساندته بعض جهات في أوربا وبابويتها، بإمكانيات لا تستطيع المجموعة الإسلامية

الوقوف بها أمام الاكتساح الهائج الذي ينوي الشر ويغدر ويدمر. ما هي إلَّا سنوات وتقع غَرْناطة تحت وطأة تلك القوى المتجبرة المتبربرة المتنمرة.

الأُمَّةُ تَتقَوّى بعُلَمائها: هجرة هؤلاء العلماء، مثلما مهدت الطريق لهجرة الآخرين إلى المغرب والشمال الإفريقي عمومًا وبقية العالم الإسلامي، كذا بعض البلدان الأوربية في أوقاتٍ، مثلما هَوَّن ذلك وأتاح. بمجال أكبر وأوسع وأشد. اضطهاد السلطة الرسمية والكنسية للمسلمين الذين تبعثروا وتناثروا وتضرروا. إذا كانت قد توفرت قيادات ودعاة كرام، حافظت - بشكل ما، وإلى حين بأي مقدار - على هوية المسلمين وعلى وقوفهم ثابتين، في أشكال المواجهات، إلى حد ثورات، وَفَّرَتها المجموعات المتبقية في المدن المتعددة، تُعْتَبَر مفيدة جدًّا. إذ أن بقاء أولئك العلماء والتصاقهم بالمجتمع الإسلامي - أُبُوَّة إيمانية ومسئولية ربانية وتبعة دينية - كان سيكون له ثماره البعيدة، التي لعلها تُغَيِّر وَجْهَ تاريخ تلك المنطقة ويُقدِّم معطياتٍ أخرى، وحَفْر مَسار عميق ومستمر في الحفاظ على تلك المجموعة ومدها بالمعرفة والثبات والتَجْرِبة.

هُرُوب شَئوم وعَجْزٌ مَلوم: قد تكون هنالك ظروف تستدعي هجرتَهم، لكن يبدو أن هنالك موجباتٍ أكبرَ تستدعي بقاءَهم. مع أنّ هؤلاء العلماء لم يهاجروا هروبًا، بل اجتهادًا واتجاهًا كان. فهم وإن قاموا - بعد هجرتهم بمهمات جهادية أو دعوة إليه، أو تحضير لصالح المسلمين، أو مَهَّدوا طريقَهم إلى المناطق، وسجلوا نَمَطَ حياتهم الجديدة، حيث حَلُّوا - لكنهم في نفس الوقت فتحوا باب الرحيل دون حرج بشكل فيه الكثير من التشتت والتوزع، جَعَلَ السلطات الجديدة في إسبانيا تكون أكثر جَرْأة وأمضى قمعًا في تنفيذ مخططها الرهيب.

لعل ظاهرةَ: «المورسكيين» وأسلوبَهم في الحفاظ على دينهم - بإظهار النصرانية وإبطان الإسلام كان ثمرة بأي مقدار لتلك الهجرة، أمام أساليب التحريق والتمزيق والتفريق، التي اتبعتها السلطات الكنسية والرسمية في إسبانيا، بعد السقوط الأخير. مهما تكن من موجبات - لتلك الهجرة المُنْكَبّة - إلّا أنّه ليبدو أنّ بقاء أولئك العلماء أدعى وأجدى وأبعد أثرًا، لا سيما في ذلك التوقيت في بدايات المواجهات الحارة الحادة المدمرة. ربما يكون بقاؤهم - بجانب قيادتهم وجهادهم - مَحَثًّا في تماسك الجماعة المسلمة واستطاعتها الوقوف ضد محاكم التفتيش ومحارقها وعمليات الإذابة والإبادة - فردية أو جماعية - بالحرق أو القتل، الذي جرى بكل جرأة ووحشية متجاوزة؛ استهانةً وعداوةً وحقدًا وصليبية. تلك التي استمرت ما يزيد على ثلاثة قرون، شَمَلت كُلَّ ما يتعلق بالإسلام، ما يحمله أهله في النفس وما بقي في الحياة من نِتاج ومتاع وإبداع، بل كل ما تخلف في الأرض ظاهرًا وباطنًا.

العُلَماءُ احتفاء واختفاء: هذه القوى الغاشمة - كعادتها على الدوام - تَوَدّ هي نفسُها أن يختفي العلماء من المجتمع المسلم؛ ليسهل عليها القيام بإجراءاتها التعسفية. وجودهم يصد ويبدد تلك القوى الباغية، دومًا ووضوحًا قائمًا. الذي يشد ذلك ويقويه ويحفظ الجماعة ويمسكها هم العلماء. تلك ظاهرة متفردة في التاريخ الإسلامي، ماضيه وحاضره ومستقبله، يحتفي بها ويشتهي توفرها ويدعو لبقائها. تلك طبيعة التكوين الإسلامي وبنائه لأتباعه. وإن كانت المسئولية عامة، لكن العلماء يحملون القسط الأوفى منها.

قِيَادَةُ العُلَماءِ إبلالٌ أو إذلال: ذلك واضح جدًّا، وجود العلماء في قيادة الأمة المسلمة إنعاش وإبلال وذَهابهم تمزق وإذلال، يَحْتَفِي بوجودهم المسلمون، وتختفي

وحدتها وربما بوجودها، بذهابهم منها وانزوائهم عنها. فيما سبق من تاريخ الأندلس كان العلماء هم الذين صانوه من حالة الضَّياع الأولى، أيام الطوائف المُنْكَرَة. كان العلماء هم حصنَه وحصانته وصيانته. إنّ مجيء المرابطين إلى الأندلس وحدوث معركة الزّلّاقة Sagrajas (479هـ = 1086م)، كانت ثمرة جهود العلماء، الرعاة الدعاة الهداة، ابتداءً من أبي الوليد الباجي (474هـ) وأمثاله، إلى كل الجهود الأخرى المباركة الكريمة. لكن لولا البناء الإسلامي للأمة كافة ما كان سَيَتِم من ذلك شيء أبدًا.

هجرة علماء الأندلس - لدى سقوط غَرْناطة - كانت أُسلوبًا تتمناه السلطة الإسبانية - الرسمية والكنسية - أزاح مِن أمامها الجدار الرصين وقت الصدمة الأولى، وهيّأت النفوس لسلوك طريقها الذي مهدته للهجرة، منذ ما قبل سقوط غرناطة، مثل أسرة ابن الأزرق (896هـ = 1491م). وهجرات آخرين ورحيلهم - الذي بعدها أكدته - مثل أسرة الحسن الوزان (957هـ = 1550م).

كُلُّ ذلك أعطى تَجْرِبةً ذاتَ أهمية، لم يستجب لهم جميع العلماء. منهم مَن أباحها، ومنهم مَن رفضها وأصرّ على البقاء، رغم الموت الزؤام - المتوقع مقدمًا واضحًا - على كل المستويات. فهل نَعْتَبِر هؤلاء العلماءَ كانوا في ظروف أباحت لهم ذلك أم اجتهدوا فوجدوا ذلك أفضل أم نَعْتَبِر رحيلَهم نوعًا من الفرار يوم الزحف أو به شبيه؟

هذا الموضوع ما يزال بحاجة إلى متابعة وبحث لمعرفة كافة ملابساته وأمثلته والانتفاع بدرسه وخبرته وعِبرته ومعرفة ثماره؛ لأخذ الحَيْطة والانتفاع، يؤكد مكانة العلماء ويحدد مسئولياتهم الكبرى، أولًا أمام الله الرحمن الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليكون ذلك عِبْرةً نافعة للعصور والأجيال والأحداث.

إننا ندعو الله تعالى أن يقي الأمة المسلمة ويحميها من نفسها ويحفظها من أعدائها، ونرجو الله الرشاد ونسأله العون، والحمد لله رب العالمين***

نُشِرَ هذا البحثُ: «العلماء والتجربة الأندلسية» في مجلة: «الخيرية» التي تُصدرها الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية – الكويت، العدد: 14، شوال 1410هـ = مايو 1990م. ثم رُوجِعَ الآن 2013/8/24م ليُنْشَر ضمن بحوث: «أندلسيات».



المُقْتَبِس في أخبارِ الأَنْدَلُس

لابن حَيَّان الأندلسي

غِنَى المكتبة الإسلامية متفرد وثراؤها متميز، في نوعيته وكميته، وتعدد ميادينه وآفاق إنسانيته وجمال وجهته. مَن يَعْرف الإنسان المسلم في عقيدته وشريعته وتاريخه وطبيعته لا يتوقع غير ذلك. تَجِدُ المِصْداقَ في مطالعةٍ لدواوين حضارته ونِتاجه وأعلامه، حيث يظهر ذلك السمت الطبيعي الفريد متوفرًا عامًّا ومألوفًا.

المجتمع الإسلامي أقام حضارته وحياته على العلم النظيف والمعرفة الحقة والفقه العميق، المنتشر في أجوائه المقيم لبنائه والممسك لأحيائه. كَثُرَتْ الأعلام وطَفَحَ النِّتاج وأقيمت المكتبات العامرة، غَدَتْ الكتبُ والمكتباتُ فنًّا إسلاميًّا وسمتًا حضاريًّا وبضاعة إنسانية، أقامها هذا الدين في مجتمعه وتميّز بها.

تعددت فنونُ التأليف وتنوعت مناهجُه وتعمَّرت ميادينُه. كان من هذه الألوان فَنُّ التاريخ العام منه والخاص، كذا تاريخ الأعلام، لعصر أو عصور وبلد أو بلدان ولفن أو فنون أو ميدان. لعل الله يوفق في عرض الأمثلة لكل ذلك أو بعضِه. من نماذج أمثلة التاريخ العام لدينا الكثير، لعموم العالم الإسلامي ومنه أيضًا التاريخ العام لبلد من بلاد الإسلام، من هذا كتاب: «المُقْتَبِس» لابن حَيَّان الأندلسي مؤرخ الأندلس المولود في قرطبة سنة 377هـ (987م)، المتوفَّى بها سنة 469هـ (1076م). وَرَدَ كتابُ المقتبس بكسر الباء كما قرئ بفتحها. لدينا من الأعلام والنِّتاج في كل تلك الميادين ثَبْتٌ طويل، من كل تخصص عمومًا ألوانُ الكتابات التاريخية كذلك، مما يُعْتَبَر فنًّا إسلاميًّا ابتناءً وطريقةً ومنهاجًا، لهم طريقتهم ومنهجيتهم. للحضارة الإسلامية في بقاعها وأعصارها المؤلفاتُ التي

زَخَـرَتْ بها المكتباتُ الإسلامية خلال تاريخه، ذهب منها الكثير وبقي القليل وهو كثير جِدُّ كثير.

تاريخ الأندلس بألوانه أَقلُّه في مؤلفات المشارقة وجلّه وأجله في مؤلفات المغاربة، لا سيما الأندلسيون، لدينا أندلسيون كتبوا تاريخ الإسلام عمومًا من أمثال ابن الخطيب (776هـ) وابن العربي (543هـ) القاضي الإشبيلي ومؤلفات أخرى اعتنت بتاريخ الأندلس خصوصًا من أمثال ابن حَـيَّـان في أكثر من كتاب منها هذا الكتاب «المُقْتَبِس في تاريخ بلد الأندلس». يُعْتَبَر ابنُ حَيَّان مِنْ أئمة المؤرخين الأندلسيين، جاء وَصْفُه في كتاب ابن سعيد الأندلسي (685هـ): أنّه شيخ الأدب والمؤرخين في الأندلس، كما وَصَفَه الحُمَيْدي (488هـ) بأوصاف مُؤَهِّلَةٍ لذلك.

في الوقت الذي استأثر مؤرخُنا بمؤهِّلات عالية تستوجب حديثًا لها شاملًا، يتبيّن أنّه قد أبرزت مواصفاتُه أثرَها في كتاباته ومعرفته الشاملة وتحليلاته ودقته وصراحته، التي ترعرعت في ظل عمقه وفقهه الإسلامي وتمسكه، جعلته أَحَدَ أعلام التاريخ ليس معرفةً وشمولًا فحسب بل وكذلك دقةً وعمقًا والتزامًا، اعتمد فيما كتبه على أنجع الوسائل وأعرقها أنتج مُدَوَّنَةً لعصره في القرن الخامس الهجري (11م)، حيث عاصر ملوك الطوائف وانتفع بالإمكانيات والوسائل. كَتَبَ لهذا القرن وغيره شاهِدَ عِيان يتابع ويراقب ويتأكد ويراسل ويتحرى ويتفحص. كذلك أحسن الاختيار واشتمل على المعلومات فيما أَرَّخ للقرون السابقة في تاريخ الأندلس. أكثر المؤرخون النقل من مؤلفاته واكتفى بعضهم بالنقل عنه فيما استوفاه. ممن فعل ذلك ابن بَسَّام الشَّنْتَريني (542هـ) في كتابه: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» (جزيرة الأندلس) الذي يُعَدّ موسوعة في الأدب الأندلسي ومرجعًا في تاريخه، لا سيما أنّ مصدرَ نَقْلِه كتبُ ابنِ حَيَّان التي فُقِدَتْ، إلَّا قليل منها. كان ابنُ حَيَّان

عالمًا وعَلَمًا واسعَ الدِّراية شديدَ العناية، كما يتبيّن من خلال ما بقي لنا من كتاباته التي فُقِدَ أكثرُها والتي تدلّنا على أدبه الرفيع وأسلوبه الرصين وأصالته الواضحة وسعة علمه وتحريه وقوة تحليلاته. اشتهر ابنُ حَيّان بالتاريخ الذي حمل لواءَه في الأندلس، له العديد من المؤلفات في هذا الفن، فُقِدَ الكثير منها. موسوعته التاريخية المفقودة «المتين» الذي يقع في ستين جزءًا، بقيت منه منقولات لدى ابن بسام في «الذخيرة» وابن الخطيب في «أعمال الأعلام» وغيره.

بحث عن أجزاء الكتاب: خيرُ ما يُعَرِّفُنَا الآن به وبِنِتاجه كتابُه «المقتبس في أخبار بلد الأندلس» الذي يقع في عشرة أجزاء تغطي كلّ التاريخ الأندلسي، إلى عصر الطوائف. لكن للأسف لم يصلنا منه غير أربعة أجزاء غير كاملة، بعد تحرٍّ ومتابعة وراء المخطوطات والحرص عليها، كُلُّها مطبوعة والحمد لله الرحمن الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رب العالمين، ذلك كله من لطف الله تعالى. الأمل ما زال قائمًا بالعثور على مزيد من أجزاء هذا الكتاب وغيره من كُتُبِ ابن حَيَّان القُرْطُبي، أو مما فُقِدَ من المكتبة الأندلسية الإسلامية سواه. هذه الأجزاء المطبوعة لم تتوفر في وقت واحد أو مكان معين، كما يتبيّن ذلك من تاريخ ومكان طبعها. فيها كثير من النقص كما هو واضح من استعراضها في بداية أو نهاية الأجزاء أو خلال صفحاتها. كُلُّ هذه الأجزاء المطبوعة كانت من نسخ نعرف حتى الآن أنّها وحيدة، توفرت من فضل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أُنْقِذَتْ مما كان يتهدّدها من خطر الفقدان لأي سبب قبل طبعها، لكل من هذه الأجزاء قصة ليس هنا موضع شرحها. هذه الأجزاء المتوفرة:

- جزء يُظنّ أنّه من السابع أو الثامن، يتعلّق بخمس سنوات من خلافة المستنصر بالله، الخليفة الحَكَم الثاني، من سنة 360 - 364هـ (970 - 974م)، نُشِرَ

في بيروت سنة 1385هـ (1965م). كثير من هذه الأجزاء فيها نقص يَعُوق الفهم أحيانًا أو يغيب معلومات أو يشوّه غيرها نظرًا للنقص والحذف والضياع. نَقَلَ كثير من المؤلفين والمؤرخين عن هذا الكتاب وغيره لابن حَيَّان. هنالك أجزاء أخرى.

الجزء الثاني نُشِرَ في بيروت سنة 1394هـ (1973م) وهو يتحدث عن ماجريات الأمور لأواسط القرن الثالث الهجري في الأندلس.

الجزء الثالث ويتحدث عن بقايا هذا القرن وقد طبع هذا الجزء في باريس سنة 1937م. هذان الجزءان الثاني والثالث أصغر من غيرهما.

الجزء الخامس ويتعلق بثلاثين سنة من أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، نُشِرَ حديثًا في مدريد سنة 1979م (هذا العام)، يعتبر هذا أكبر الأجزاء الأربعة التي وصلتنا.

شمولية في المعلومات: يَتَبِع ابنُ حَيَّان في كتابه: «المُقْتَبِس» الحديثَ عن التاريخ على الحَوْلِيّات عامًا عامًا. لكنه يستوفي الحوادث المهمة مستقلة أو في موضعها لدى تناوله لها في البداية، وإن استغرقت حوادثُها أعوامًا طويلة ثم يُشير إليها ويميل عليها، حين يَرِدُ ترتيبُها في الأعوام التالية، كما يتحدّث عن أمور متعددة مستقلة وعن بعض الأعلام. يمتاز بجودة تحليلاته وشمول معلوماته وإحاطته بالأحداث التاريخية وماجريات الأمور بدقة وتفصيل، كذلك بصواب نظرته ودقّة تحليلاته وتعليلاته وأصالة رأيه وعدالة نقده ونزاهة حكمه وصراحة قوله وجرأة بيانه وعمق فقهه وجودة أسلوبه وجمال عرضه ووضوح تمكُّنه.

كتاب: «المُقْتَبِس» يُغْنِيك عن كثير غيرِه بكل ذلك، وبالمعلومات الوافرة التي يقدمها والصياغة الواضحة والعبارة القوية، كما يُزَوِّدُكَ بمعلومات مهمة قد ينفرد أو يتميز بها. كما تراه يُعْطِي اهتمامًا لأمور تعتبر اليوم ذات قيمة علمية

وأفق واسع ومنهج متقدم. بجانب عنايته بالأعلام وأحوال المجتمع والإنجازات والأخبار التي تدلّ على تَحَرّيه والاطلاع المباشر الدقيق للمواقع والأحداث والتدوين الواضح للمعلومات عن الأشخاص، وأَخْذُ ذلك أيضًا ومراجعتُه مُعْتَمِدًا على المراجع الخاصة وأهل العلم فيه، وأخذُها دقيقةً، اعتنى بأمور ذات أهمية تُدوِّن هنا باختصار، مع أنّ لتاريخ الأندلس متطلباتٍ وطبيعةً وجوانبَ لها خاصيةٌ معينةٌ لإحاطتها ببلدان غير إسلامية ومخالطتها غير المسلمين، جوارًا ومواجهةً في عَلاقات سلمية وحربية، تَمُتّ إلى تلك الدول مجموعات في داخل المجتمع الأندلسي قلّت أو كثرت في أي عصر من العصور، هذه الدول الأوربية كثيرًا ما تجمعت في مدّ صليبي حربي متدفق إلى الأندلس. كثيرًا ما مَدَّتْ إلى الأندلس يَدَ الحاجة، أرسلت الوفود تطلب الودّ والرعاية والصداقة، حتى كثرت بعثاتُها ووفودُها إلى الأندلس، راغبة وطالبة ومتقربة. هذا اللون كان وفيرًا في العصور التي أَرّخَ لها ابنُ حَيّان، واضح الاهتمام بها، فيما تبقى لنا من كتاب: «المُقْتَبِس» في الأجزاء الأربعة المشار إليها. الذي يتضح اهتمامُه - بجانب غيرها أيضًا - بأمور لها أهميتُها التاريخية وقيمتُها العلمية ودقتُها المنهجية نخصّ منها:

1 - قدّم لنا معلومات مهمة ودقيقة ومحددة في الجزئيات والكليات عن تاريخ إسبانيا النصرانية متناثرًا، حين تَعنُّ مناسبةٌ أو في موضع خاص، منهجيةً وأصالةً واهتمامًا، كما قَدَّم معلوماتٍ عن بقية التاريخ الأوروبي في مناسبته، تَدلُّ على معرفة جيدة وإلمام بذلك، في وقت كانت المؤلفات الأوربية قليلة أو منعدمة، مما جَعَلَ المؤرخين الأوربيين وحَثهم ليهتموا بهذا وأمثاله، مما جاء في المُدَوَّنَاتِ الإسلامية والأندلسية، التي قد تنفرد في بعضها وتكون معتمَدة بل وذخيرة لمن يكتب

في تلك الأمور المتعلقة بالتاريخ الأوروبي. هذا شأن كثير من المؤرخين المسلمين في تناولهم لتاريخ أو شؤون البقاع الأخرى.

2 - أَوْلَى ابنُ حَيَّان أهميةً واضحة في تدوين أخبار النشاط الدبلوماسي للأندلس، أشار لقضايا مهمة ونواح ذات قيمة علمية وحضارية خاصة، مع تفصيلات وتحليلات تُعْتَبَر ذخيرةً للمؤرخ الحديث تجعله يحتضنها ويدخرها لكتابته وتأليفاته. دَوَّن ابنُ حَيَّان هذا النشاط مع دويلات إسبانيا الشمالية «النصرانية» وبقية الدول الأوربية التي تبادلت وتتابعت وتكاثرت وفودها إلى الأندلس، وصف ذلك بدقة وجمال وأمانة نجدها في هذه الأجزاء المتبقية، في ما نُقِلَ عنه، لا سيما كتاب «نفح الطيب» للشيخ المَقّري التِلِمْساني (1041هـ) صاحب الموسوعة دائرة المعارف الأندلسية. يأتي ذلك في وقت وحال أنّنا لا نجد لتلك الأمور تدوينًا في كتابات الجانب الأوربي، مما يعطي قيمة أكبر لهذه المعلومات الدقيقة التي أَوْرَدَها ابنُ حَيَّان، التي كانت المورد الأكبر وربما الوحيد للمشتغلين الأوربيين بهذا التاريخ.

3 - اعتنى ابنُ حَيَّان بموضوع الخُطط الأندلسية الإدارية التنظيمية والعمرانية والظواهر الحضارية الأخرى مع العناية بأعلام هذه الميادين وغيرها، لا سيما القضاة والحُجَّاب والوزراء والعلماء وكذلك الأمراء، مع شرح أعمالهم وما قدموه من إسهام عام وفي خاصة أحوالهم وبيئاتهم، كلّ ذلك يعتبر الآن معلومات مهمة للمكتبة الأندلسية، في موضوعات ما تزال تتطلب عناية الباحثين وفي موضوع القضايا الإدارية وأحوالها.

4 - اهتم ابنُ حَيَّان بإثبات الوثائق الرسمية بنصوصها، حيث استطاع الحصول على كثير منها وهو أمر مهمّ الآن. عليه يُعْتَبَر كتاب: «المُقْتَبِس» هذا موردًا لمن يريد أن يجمع الوثائق الأندلسية في كتابات عصرية، كما فعل بعض المؤلفين في

عصر من عصور التاريخ الإسلامي، أو جانبًا من جوانبه. أَجْرَى ابنُ حَيَّان كُلَّ ذلك وما التفت إليه مُزَوَّدًا بالإحصاءات ما أمكنه واستطاع إليه سبيلًا.

ابنُ حَيَّان واحدٌ من أعلام الأمة الإسلامية، يُعَبِّر عن صورةٍ حقيقية لبناء ذلك المجتمع المسلم في هذا الجانب الحضاري الإنساني الكريم، الذي لا ينفك يعبّر عن هذه المقومات الإسلامية في ابتناء الحضارة الإنسانية الرفيعة، كما لا ينفكّ عن هذه المُثُل الكريمة التي رباه عليها الإسلامُ مِنَ العمق والشمول والصدق لا يخاف في الله لومة لائم، مُحْتَمِلًا في ذلك ما يبذله من جهد وما يلقاه من عَنَتٍ وما يجرّ إليه من مواجهة؛ لأنّ ذلك أمانةٌ ومهمةٌ له وهدف يسعى إليه يلتزم به، باعتباره جزءًا من عقيدته لا يمكن التخلي عنه، ابتداءً من طلبة العلم بأصوله ومقوماته ومواصفاته حتى أدائه وتقديمه وبيانه للناس، تدوينًا أو إلقاءً أو إملاءً في صورة فذة قوية من كل جانب، مضيئة في كل حال ومشرقة على الدوام، بغير هذا لا نجد لونًا من النِّتاج في قوته وحالته وسَمْته، مما يفتقر إليه عمومًا المؤرخ الحديث في أي بقعة في العالم لا تُغْني عنه وسائلُ الحضارة المدنية ولا انتماؤه إلى بلد أو جامعة أو حَمَلَة لشهادة من أي مكان. كل ذلك لا يغني عن الصدق والأصالة والالتزام بالتقوى، سِمَاتُ المؤلِّف المسلم الذي رأيناه في ابن حَيَّان وغيره، ونراه بأي مقدار في كتابات المُحْدَثِينَ السائرين على هذا الدرب الأمين والله تعالى الموفق***

نُشِرَ هذا البحث: «كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان القرطبي»، في جريدة الاتحاد الإماراتية في رمضان سنة 1979م. تَمَّتْ مراجعته وتدقيقه وترتيبه الآن (2013/8/24) لتقديمه للنشر في: «أندلسيات».



طَوْقُ الحَمَامَة لابن حَزْمٍ الأندلسي

الحضارة الإسلامية مليئة بالخير والبركة والحياة البَرَّة، غنية في ميادينها الرفيعة مصطبغة بهذا الشرع الحنيف المُنيف، بدت مضيئةً بهذا الإبداع المتميز والسمت المتفرد، بارعةً فارعة بأبعادها العميقة والامتداد الأصيل. كان من ذلك كثرة الأعلام فيها من النساء والرجال والأطفال، حسب التخصص والاستعداد والطاقة برسم الإسلام، زينوا الحياة بإنسانيتها الربانية وابتنوها بالخير وعَمَرُوها بالمعروف في المواقف والتشييد والنِّتاج، سعوا إليها وجَهَدوا فيها وضحوا لها باسم الله تعالى وعلى منهجه القويم وشرعه الكريم. هذه الجَدارة وَضَعَتْهم في مَصاف الأعلام القدوة والرواد الأسوة، خير أعلام عرفتها الإنسانية حتى اليوم وبعده بهذا الاستقرار. خَلَّفوا لنا سِيَرَهم الإنسانية مثلما أورثونا نِتاجهم الفاضل الجليل، يستمد منه الناس خلال العصور، مسلمون وغير مسلمين. كان نِتاج علماءِ أمتنا الإسلامية غزيرًا كريمًا مشرقًا، لا يدانيه نِتاجُ أيةِ أمة خلال التاريخ السابق والماثل ولا اللاحق. هذه واحدة من ظواهر الحضارة الإسلامية ثمار العيش بهذا الدين.

من أعلام هذه الأمّة ابن حزم الأندلسي (384 ـ 456هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة منها كتاب «طَوْقُ الحَمَامَةِ في الأُلفة والأُلَّاف» (في الحب والمحبين) موضوع الحديث. وُلِدَ ابنُ حَزْم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم) في مدينة قُرْطُبة عاصمة الأندلس العتيدة، في بيت علم وفقه، سَمْت البيوت الإسلامية عمومًا والأندلسية كذلك، وإن تفاوتت كَثْرَةً، لكن بدون حرمان. كانت دار ابن حزم منتدى العلماء والمفكرين والفقهاء، نَفَعَه الله بذلك كثيرًا وأفاد منه، انتباهًا وابتناءً واتجاهًا. أشار أحد أئمة التاريخ الأندلسي ابنُ حَيَّان القرطبي (469هـ = 1076م)، معاصرُ ابن حزم وبلديّه بأنّ ابن حزم من أصول نصرانية غير بعيد، هذا

يُشير إلى استمرار دخول الناس في الإسلام على الدوام، يجد كل أحد الباب مفتوحًا والميدان متسعًا للتقدم في المجتمع المسلم، حتى ليُصْبِح أَحَدَ الأعلام فيه ومن قادته المرموقين وأئمته، ابتداءً ممن دخل الإسلام أو من ذرياتهم.

تلقى ابن حزم العلوم الإسلامية على شيوخ كثيرين معروفين، برع في كثير منها وألف في عديد من الفنون، لذلك يُعْتَبَرُ واحدًا من العلماء الموسوعيين في حضارتنا الإسلامية. دَرّسَ ابنُ حزم وحاضر وناقش في أكثر من مكان في الأندلس، لا أعرف له خارجها رحلةً غير جزيرة ميورقة الأندلسية Mallorca، كما ناقش علماء النصارى واليهود وأفحمهم. له حلقات دراسية معروفة تَخَرّج بها تلاميذ غَدَوْا أعلامًا. إلى جانب ذلك شارك في أحداث الأندلس وخاض معركته وسعى لِلَمّ شمله أثناء عصر الطوائف أوائلَ القرن الخامس الهجري (11م) لسنوات عدة. هذا هو سمت المسلم لا سيما العلماء، تراهم في الأحداث والمجتمع يعمل أَحَدُهم له ويسعى من أجله ويتقدم الحشود، عقيدةً وعبادةً وجهادًا. مع ذلك خَلَّف ابن حزم مما تبقى منها ما يربو على ثلاثين من مؤلفاته الأصيلة الفنية الرائدة، يقع العديد منها في أجزاء أو مجلدات. مثل: «جوامع السيرة» و: «المحلَّى» و: «طوق الحمامة». هذه من تلك التي وصلتنا لكن غيرَها فُقِدَ، المتبقى منها مطبوع وغيرها مخطوط. ذَكَرَ ابنُه الفضل أبو رافع شهيد معركة الزَّلّاقة Sagrajas (479هـ = 1086م): أنّ مؤلفات والده تقع في أربع مئة مجلد!! قَدّرَها ابنُ حَيَّان أنّه: «كَمَلَ من مصنّفاته في فنون العلم وقر بعير».

تنوعت ميادين مؤلفات ودراسات ابن حزم في فنون واسعة وإن غلب عليه وعليها الفقه. كانت له مدرسة فقهية معروفة لها أتباع، كان ابن حزم إمامًا لمذهب الحزمية، وأَحَدَ أصحاب المذهب أو الفقه الظاهري المعروف في الفقه الإسلامي.

ابن حزم أديب معروف شاعرًا وناثرًا، له ديوان شعر غير مطبوع ربما غير موجود. ذَكَرَ ذلك الحُمَيْدي تلميذه المقرب الذي جمعه على حروف المعجم موجود أو مفقود. العديد من قصائده مبثوثة في بعض كتبه، في كتابه «طوق الحمامة» تجد الكثير من الصور الأدبية الشعرية والنثرية، بجانب المعلومات التاريخية، خلال عرضه لمعلومات في إطار موضوع الكتاب: «الحب والمحبين»، وكل ما يمت لذلك من أمور ومتعلقات وأحوال. ابن حزم أحد العلماء المسلمين الذين اعتنوا بهذا الموضوع وبينوه وقَدَّموا سَمْتَه الإسلامي، الذي يقوم على العِفَّة المبنية على العقيدة والخوف من الله تعالى؛ إذ لا عفة في النفس والبدن والحياة بدون ذلك. ممن كتب في ذلك ابن قَيِّم الجَوْزِيّة (751هـ) في كتابه: «روضة المحبين». كما تجد فصولًا متناثرة من كتاب: «صَيْد الخاطر» لابن الجَوْزِي (597هـ)، اشتملت بعض قضاياه. لابن الجوزي أيضًا كتاب آخر فيه سماه: «ذَمّ الهَوَى».

جَعَلَ العلماءُ المسلمون الحُبَّ أنواعًا كثيرة، أعلاها «الحُبُّ الإلهي»، أي حُبُّ الله تعالى وحب ما أوحاه وحب رسوله الكريم ﷺ، المبعوث رحمة للعالمين. كل ما عداه من ألوان الحب الفاضلة قائم على ذلك وسائر في ظله وإلَّا فهو خلل وزلل. الرسول الكريم ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». من المؤلفات في الحب الإلهي (روضة التعريف بالحب الشريف) لابن الخطيب الوزير الغَرْناطِي (776هـ). كل عفة في هذا الحب قائمة عليه، كُلُّ أهل العفة من المحبين هم من أهل الله الطائعين، منهم ابن حزم الأندلسي كما هو واضح من كتابه: «طَوق الحمامة». هذا الحب من الإنسان للإنسان الرجل والمرأة قائم على العفة، أحد ثمار الإيمان بالله تعالى والخشية منه سرًّا وعلانية.

لهذا اللون الكريم من الحب مواصفاتٌ وأحوالٌ وأحداثٌ هي موضوع كتاب: «طَوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي الذي بث فيه كثيرًا من تَجَارِبه دليلًا على استعلائه بإيمانه عَفًّا تقيًّا قويًّا. الكتاب أيضًا - من هذه الناحية - أشبه بالمذكرات الشخصية، كما أنّه يَذْكُر فيه من الأحداث والأخبار التاريخية ما له فائدة جليلة عن التاريخ الأندلسي وتاريخ ابن حزم وأسرته وديارهم القرطبية في غير ما حَيٍّ (رَبَضٍ) هي من أحيائها.

كما تقلب ابن حزم (قرطبة: رمضان 384- مُنْت لِيشَم Casa Montija، من أعمال مدينة لَبْلَة[1] Niebla بالأندلس، شعبان 456هـ = 994 - 1064م)[2] في أحوال متنوعة وأعمال متعددة، من قرطبة Cordoba إلى شاطبة Jativa إلى قرية (بادية) منت ليشَم من كُورَة لَـبْـلَة حيث أقام يُدرِّس ويصنف فيها حتى وفاته سنة 456هـ (رحمه الله تعالى)، بلغ ابن حزم من العمر اثنين وسبعين عامًا، تَمَلّك

---

(1) الإحاطة، 4/ 111-116. نفح، الطيب، 1/ 167-168. دول الطوائف، 431-433.

(2) نفح الطيب، 2/ 77-84. الذخيرة، 1/ 136-142. الإحاطة، 4/ 111-116. سير أعلام النبلاء، 18/ 184-212. المُغرب، 1/ 354-357. الصلة، 2/ 31-33 (رقم: 891). جذوة المقتبس، 449-459 (رقم: 709). كانت بلدية قرطبة سنة 1963 قد احتفلت بابن حزم وأقامت له تمثالًا بالحجم الطبيعي بلباس العلماء قرب باب إشبيلية Puerta de Sevilla (قديمًا باب العطارين)، حيث الحي الذي كان يسكنه ابن حزم ويمر منه حين يذهب إلى المسجد الجامع القرطبي. أزيح الستار عن هذا التمثال خلال احتفال كبير اشترك فيه محافظ قرطبة ورجال الدولة والعلم في إسبانيا مع عدد من سفراء الدول العربية والإسلامية فيها، مع آلاف القرطبيين وغيرهم، ذلك صباح يوم 12/ 5/ 1963م. كتب على القاعدة الحجرية التي يقوم عليها التمثال بالعربية بالخط الكوفي العبارة التالية: «بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة أبي محمد علي بن حزم القرطبي، تقدم مدينة قرطبة أعظم آيات التقدير لمن تعتبره علمًا من أعلام ثقافتها». كانت وفاة ابن حزم الأندلسي أواخر شعبان سنة 456هـ = 1064م، في بلدة أسرته الأصلية منت ليشم Casa Montija من أعمال مدينة لبلة Niebla قاعدة كورة (محافظة) لبلة بولاية الغرب الأندلسية. كما أقيمت له لوحة تذكارية باللغة الإسبانية أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التي أقيمت مكان المسجد الذي كان يتوسط حي بلاط مغيث، الحي الذي عاش فيه ابن حزم في صباه، كما نظمت في هذه المناسبة عدة ندوات دراسية وطائفة من الحفلات الاجتماعية الفخمة.

سَكَنًا ومنزلةً، بجانب تجواله الكثير في مناطق وثغور الأندلس الأخرى باتجاهاتها وأحوالها.

لعله يمكن تعيين تاريخ تأليف كتابه المرموق: «طَوْقُ الحَمامَة في الأُلْفَة والأُلَّاف» (في الحُبِّ والمُحِبِّين) المتوفر اليوم مُخْتَصَرُه من مخطوطةٍ وحيدة معروفة عالميًّا في مكتبة جامعة لايدن (Lyden, Lieden) هولندا، الذي يحمل صفةَ الأدبِ العالمي والتجربةَ الأدبيةَ، النادرُ تواجدُها في الآداب العالمية الأخرى كافة، نادر في موضوعه، كَتَبَه أيامَ إقامته في مدينة شَاطِبة Jativa، نحو سنة 418هـ = 1027م. يوم كان سِنُّه حوالي ثلاثين عامًا. كتاب: «طوق الحمامة» مطبوع بالعربية أكثر من طبعة، كما نشر بلغات أخرى. انتقل هذا الكتاب بشعره العاطفي وما فيه من تحليل لخُلُقِ الحُبِّ الإسلامي إلى أوربا، تُرْجِم إلى لغات أوربية عِدَّة وإلى الروسية أيضًا. يتحدث كتاب: «طوق الحمامة» عن الحب والمحبين بأسلوب قوي عميق، حيث يَبْرُزُ ابنُ حَزْمٍ عَلَمًا في بيان هذا الجانب الإنساني. يَرْوِي لنا في هذا الكتاب تَجارِبَه وتجارِب غيره.

«طوق الحمامة» قائم على الصدق والعمق والتَّجْرِبة، الحب العفيف الذي عاناه ابن حزم وتسجيلُه نظراتِه التحليلية في كتاب يجعل منه مُوَجِّهًا في الحب الشريف ومداويًا لقلوب المحبين وأرواحهم من الطراز العالي، يحدثنا بصراحة عن حبه ومعاناته فيه، وكيف أنّه خرج من ذلك كله عَفًّا طاهِرَ الثوبِ، كان له من دينه واق، ومن قلبه الكبير المؤمن دليل مشرق منير، كان كما يقول الرافعي:

قلبي يحب وإنّما ... أخلاقُه فيه ودِينُه

طَوْقُ الحَمَامَة وأقسامُه : ينقسم كتاب: «طَوْق الحمامة» ثلاثةَ أقسام من حيث الموضوع، تقع كلّها في ثلاثين بابًا.

القسم الأول: في أصول الحب: عشرة أبواب: الكلام في ماهية الحبّ - علاماته- مَن أحبّ في النوم - مَن أحبّ بالوصف - مَن أحبّ من نظرة واحدة - من لا يحبّ إلّا مع المطاولة - التعريض بالقول - الإشارة بالعين – المراسلة - السفير.

القسم الثاني: يتعلّق بأعراض الحبّ وصفاته المحمودة والمذمومة: اثنا عشر بابًا: طيّ السرّ - الإذاعة والكشف – الطاعة – المخالفة - المساعد من الإخوان – الوصل – القُنوع – الوفاء – الغَدْر - مَن أحبّ صفة لم يُحبّ بعدها غيرها ما يخالفها – الضَّنَى - الموت.

القسم الثالث: يتعلّق بالآفات الداخلة على الحبّ، ستّة أبواب: العاذل – الرقيب – الواشي – الهَجْر – البَيْن - السَّلْو. خَتَمَ الكتابَ ببابين: باب عن الكلام في قبح المعصية وباب في فضل التعفّف.

يكشف الكتاب عن قابلية ابن حَزْم الأدبية كما يكشف عن عمق نظراته وجمال تحليلاته النفسية وصدقها وهو يعرض بصراحة كثيرًا مِن التجارب التي عاناها وتجارب غيره مع دراستها ما دامت هي واقعة ومتكرّرة، غير منكرة إذا كانت سليمة الاتجاه.

يُعتَبَرُ كتابُ «طَوْق الحمامة» نموذجًا عالي العِفَّة في معاني الحبّ، وأحواله العاطفية ومواصفاته القلبية. وَصَفَ كلّ ذلك بأسلوب الشاعر الرقيق والأديب العميق والخبير الذي ذاق أحوال الهوى العُذري وخاض غِمارَه في مَدّهِ وجَزرِهِ وفَيْضِه وغَيْضِه، كان خلاله نَاسِكًا لا يُفارِقُه نُسْكُه، يرفض كلّ صلة لا تقوم على التقوى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف،67). الحبّ العفيف نبيل رفيع معروف في الإسلام وله أعرافه وأحواله الطَّهُور، كان ذلك شائعًا عند مسلمي

الأندلس، حُبٌّ يقوم على العِفَّة التي يُعْتَبَر «وجودُها دليلًا قاطعًا على ما يكمن في نفوس الشعوب الإسلامية من مثالية عظيمة».

للإسلام تربيته الواقعية المتّسقة مع طبيعة النفس الإنسانية التي يهذّبها ويرعاها بأسلوبه الفذّ المتميِّز؛ للإبقاء على هذا الحّب الطاهر والمحافظة عليه عفيفًا نظيفًا نزيهًا، لا يبيع المسلم دينه بحبّه. على هَدْيٍ من هذه الروح حثّ الإسلام على اقتران المتآلفين بالزواج، وعدم الوقوف أمام تكوين عشّ الأُلفة، ما كان من مواصفاته هذا الهدف. للإسلام فلسفته الخاصة التي ينفرد بها كما هو الحال في كلّ شأن.

ما أن تَنَعَّمَ ابنُ حَزْمٍ بحلاوة هذا العشّ النديّ الدافئ الساكن حتى حرقه، مما أجّج عاطفته وأسال على لسانه الشعر الجميل والأدب البليل العميق في صدقه المشرق في صوره وتصوّره. بعضُ عوامل تُظْهِر المكنون ملأت النفس بالشَّجْوِ والشُّجُون تدفع بالتعبير إلى الألسنة والأقلام تُسْمَعُ وتُقْرأُ خلال القرون.

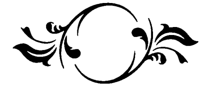
احتوى «طوق الحمامة» الحب التقي وديوانَ الهوى النقي، لعل مؤلفه أراد به أن يكون منهجًا إيمانيًّا تقيًّا يسير عليه المحبون. جَعَلَ ابنُ حَزْمٍ آخِرَ أبوابه: « فضل التعفّف» ليكون كما يُعلِّل ذلك في بداية الكتاب: «خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك مُفْتَرَض على كلّ مؤمن».

الجدير بالشباب المسلم، فتياننا وفتيات جميعًا: أن يتدبّر جميعُهم معانيَ هذا الكتاب الرفيعة ويَعْتَبِر اتجاهَه السليمَ ويقيم حياته على الجادة المستقيم:

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة،197) ***



نُشِرَ هذا البحث: «كتاب طوق الحمامة في الأُلفة والأُلاف» لابن حزم الأندلسي، في جريدة: «الاتحاد» الإماراتية حسب طلبهم، بتاريخ 1979/8/8م، يقدم هنا الآن (2013/8/25م)، بعد مراجعته وتدقيقه وترتيبه ليكون أحد بحوث كتاب: «أندلسيات»، كل الحمد لله تعالى رب العالمين.



قائمة نسب ابن حزم الأندلسي

أبو عمر الوزير أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب (ذوالقعدة 402هـ)

|

الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن غالب (456هـ = 1064م)

|

أبو رافع الفضل (479هـ) أبو أسامة يعقوب أبو سليمان المصعب سعيد

شهيد معركة الزلاقة

|

علي أحمد

(التكملة، 128/1)

أحمد (545هـ)

(التكملة، 132/1، رقم: 151)

العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وإيطاليا

في المدة الأموية[1] من هنا بدأت المقارنة

(138 - 366هـ = 755 - 976م)

ليس لدينا معلوماتٌ مُدَوَّنَةٌ - ما عدا نُتَفًا - عن عَلاقات دبلوماسية قامت بين إيطاليا (Italy) والأندلس (Andalusia). لعله من المتوقع - إلى حد ما - ألَّا توجد عَلاقات وُدية أو حربية، قوية مستمرّة بين البلدين، كما هو الحال مع إسبانيا الشّمالية أو بلاد الفِرنج (Franks)، نظرًا للجوار وقيام احتكاك ومصالح مشتركة أو مشاكل تقتضي التفاهم والحلّ، مما لم يكن قائمًا بين إيطاليا والأندلس. حينما وُجِدَ هذا الاحتكاك والمصالح المشتركة بين إيطاليا ومسلمي صقلّية أو إفريقيا مثلًا، قامت بينهما بعضُ العَلاقات وإن كانت ربما مؤقتة، سواء مع دول (دوقيات) إيطاليا، خاصة في الجَنوب[2] أو مع الدولة البابوية[3]. كل المعلومات التي نملكها

(1) نُشِرَ في مجلة تطوان (للأبحاث المغربية الأندلسية)، التي تُصدرها وَزارةُ التعليم العالي بالمملكة المغربية، الرباط (العدد الحادي عشر، 1971). البحث مأخوذ - مع بعض اختلاف - من فصل في رسالتي الدكتوراة المطبوعة ابتداءً باللغة الإنجليزية.

Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad Period*, Beirut, 1970.

ثم ظهرت الرسالة الدكتوراة بالعربية بعنوان: «العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية»، المجمع الثقافي - أبو ظبي، 1425هـ = 2004م.

(2) انظروا: المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجَنوب إيطاليا، 76، 77، 147.

Mann, The Lives of the Popes, vol. III, 281, 285, 296, 321 ff.

(3) كما حدث مثلًا مع البابا يوحنا الثامن (872 - 882م) في حوالي 878م. انظروا:

Gregorovius, History of the City of Rome, vol. III, 184; Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia. vol. I, 593.

لم تكن إيطاليا في هذه المدة، خاضعة لسلطة واحدة بل كانت فيها عدّة دوقيات مستقلّة، بالإضافة إلى الدولة البابوية (روما وما حولها). عاشور، أوربا العصور الوسطى، 1/ 328 وبعدها.

عن قيام عَلاقات وُدية: إيطالية – أندلسية، نجدها في عصر الخلافة القُرطبية[1]، خاصة أيام عبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ = 912 - 961م).

أغلب هذه المعلومات في الحقيقة - إن لم تكن كلّها - تكاد تكون مغلقة مبهمة، عبارة عن خبر في جملة واحدة، ربما تكون عَرَضيّة، على الأغلب الأوضح، دون ذكر لأسباب ذلك النشاط الدبلوماسي أو أهدافه أو نتائجه، دون تعيين لتاريخه أو اسم الحاكم الإيطالي الذي قام به، فضلًا عن عدم ذكر أية تفصيلات عن الكيفية التي تمّ بها هذا النشاط. لعلنا كنا نتوقع وجود تبادل سفاري بين إيطاليا - بسلطاتها المختلفة - والأندلس، أكثر من النصوص التي لدينا، خاصة بين الدولة البابوية، التي كانت تمثّل - بجانب السلطة الزمنية في داخل حدودها[2] - زعامة العالم المسيحي، وبين الخليفة الناصر، الذي كان واحدًا من أقوى حكّام العالم الإسلامي إن لم يكن أقواهم عالميًّا طرًا – فكيف الأمر بغيره. ليس بعيدًا عن الصواب أن يُفترض وجود مثل هذه العَلاقات؛ إذ النقص - على ما يظهر - في قلة تلك المعلومات التي وصلتنا عن أخبار هذه العَلاقات.

---

(1) كان حُكّام بني أمية في الأندلس يُسَمَّون بالإمارة، الناصر أول من تلقب بالخلافة وإمارة المؤمنين في الثاني من ذي الحجّة 316هـ (16/ 1/ 929م). انظروا: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 19 – 30. ابن عذاري، البيان، 2/ 198. ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 298. المَقَّري، نفح الطيب، 1/ 330. ابن سعيد، المُغرِب، 1/ 177. ابن الأبَّار، الحُلَّة السِّيَراء، 1/ 198. عِنان، دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 392. كذلك:
Una Crónica Anonima de ‘Abd al-Rahman III le-Nasir, p. 195; González Palencia, “El Califato Occidental ”, revista de Archivos, vol XXVI, p. 192; Levi- Provencal, Historia de España: España Musulmana, tomo IV, 321; Imamuddin, A Political History of Muslin Spain, 98-9.

(2) Bryce, The Holy Roman Empire, p. 131; Gregorovus, op. cit., vol. III, 321, 328; Duchesne, The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes, pp. 126, 223, 225.

كذلك: عاشور، أوربا، 1/ 169.

يَذْكُرُ دوزي Dozy أنّ الناصر دخل في عَلاقات وُدية مع ملك إيطاليا (في الشمال): هُوج البروفنسيHugues (Hugh) of Provence، دون أن يُقدِّم أيةَ تفصيلات أخرى[1]. على أساس أنّ المصلحة المشتركة دفعت إلى قيام هذا التحالف بين الطرفين. إن السبب المباشر، الذي دَفَعَ للتحالف، الموقفُ المتماثل لكل منهما، تُجاه الخلافة الفاطمية[2]. على الرغم من معقولية قيام صلات ومعاهدات بين الطرفين، إنّي لم أجد في كل من المصادر الأوربية والإسلامية ذكرًا لهذا التحالف أو ما يمكن أن يتناظر معه. دوزي لم يذكر المصدر الذي استقى منه هذا الخبر، كلّ الذين ذكروه بعد ذلك نقلوه عن دوزي[3]. ذلك ما يقلل الثقة بالخبر المتعلق بقيام مثل هذا التحالف أو وجود تلك المعاهدة. لدينا مصدر يُخْبِرُنا أنّ هُوج البروفنسي هذا، في حوالي سنة 331هـ = 941م[4]، عَقَدَ معاهدةً مع الدولة الإسلامية التي أسّسها بعض المجاهدين (المغامرين) الأندلسيين في فراكسنيتُوم (Fraxinetum) «جبل القِلال»، قرب خليج سنت تروبز (St. Tropez)، شمال شرقي مرسيليا (Marseilles)، شمال مدينة طولون Toulon، حيث تقوم اليوم - على ما يظهر

(1) Dozy, Spanish Islam, p. 434.

(2) هاجم الفاطميون جَنَوَة سنة 935م المدني، المسلمون في جزيرة صقلية، 138. كذلك:
Camridge Medieval History, vol. III, 155; Liudprand, The Works of Liudprand of Cremona, p. 144.
من ناحية أخرى كان الناصر في حالة حرب مع الفاطميين. لعله اتخذ كل الاحتياطات لدفع خطرهم، مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 2/ 121 - 125.
Lévi-Provençal., Al-Andalus, pp. XI, 366-73; Gonzalez Palencia, Historia de la España Musulmana, pp. 46-7; Hitti, History of the Arabs, p. 521.

(3) العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 5/ 207 - 208. تاريخ المسلمين، سالم، 288.

(4) Liudprand, op. Cit., p. 187; Reinaud, Muslim Colonies, pp. 130 ff.
كذلك: تاريخ غزوات العرب، شكيب أرسلان، 174. دولة الإسلام، عنان، 2/ 428.

- قرية «كارد فرينيه» (Garde-Frainet)[1]. دوزي لم يذكر تاريخًا لمعاهدة هوغ مع الناصر، لكن يظهر أنّها كانت سفارة في وقت مّا بعد 935م، تاريخ مهاجمة الفاطميين لجَنَوَة[2] ربما قبل 942 م.

✍ ليفي بروفنسال[3] يَجْعَلُ هُوجَ هذا المقصودَ بـ«أُفوُهْ» في نصّ ابن خَلدون: «وآخر [يعني رسولًا آخر حضر إلى بَلاط الناصر] من ملك الفِرنجة وراء المَغْرِب، وهو يومئذ أُفوُهْ»[4]. لكن هذا الوصف «مَلِك الفرَنْجة وراءَ المَغْرِب» لا ينطبق على هوج الذي كان حاكم منطقة البروفنس Provence (جنوب شرقي فرنسا)[5]، الذي أصبح ملكَ إيطاليا (القسم الشمالي) سنة 926 م[6]. بل ينطبق على هيو الكبير (956 م) الذي كان حاكم دوقية (إمارة) باريس. هذا بالإضافة إلى أنّ السفارة الذي ذَكَرَها ابنُ خَلْدُون يمكن وَضْعُها - قياسًا لما يجاورها من أحداث في النص - حوالي 342هـ (953 م)، بينما هوج هذا، الذي عقد معاهدة مع الناصر، تُوفّي يوم 10 نيسان (أبريل) 948م[7]. من هذه المناقشة يتبين أنّ هذه السفارة التي ذكرها ابن خلدون كانت من هِيو الكبير إلى الناصر وليست من هُوج.

---

(1) راجع عن هذه الدولة.

Liudprand, op. Cit., pp. 130.; Amari, op. Cit., vol. I, p. 46.

كذلك: شكيب أرسلان، نفسه، 160 وبعدها. عنان، نفسه، 2/ 425 وبعدها.

(2) Cambridge Medieval History, vol. III, 155; Liudprand, op. Cit., p. 144.

كذلك: المدني، نفسه، 138.

(3) Levi- Provencal, Historia de Espana, vol. IV (Espana Musulmana), pp. 352, 368, No. 167.

(4) العبر، ابن خلدون، 4/ 2/ 310 (نقله المقري، النفح، 1/ 342).

(5) Cambridge Medieval History, vol. III, p. 136; Liudprand, op. Cit., pp. 138, 143.

(6) Cambridge Medieval History, vol. III, pp. 139, 156.

(7) Cambridge Medieval History, vol. III, p. 158.

تذكر الرواية الإسلامية - أثناء الحديث عن بناء مدينة الزهراء: المدينة الخليفية، التي ابتدأ الناصر بناءَها في محرم سنة 325هـ = /936/11 م، ذلك البناء الذي استغرق أربعين سنة[1] - أنّ السواري التي استعملت في بناء مدينة الزهراء، التي بلغ عددها حوالي 4300 سارية[2]، كان أربعون منها هدية من مَلِك رُومة[3]. يكاد يكون من المحقّق أنّ تاريخ هذه الهدية كان خلال الخمس والعشرين سنة الأولى من مدة بناء مدينة الزهراء، تقابل النصف الثاني من حكم الخليفة الناصر. لكن من الصعوبة تعيين هذا التاريخ. لا يُسْتَبْعد أن تكون هذه الهدية قد جلبت مع سفارة روما التي حضرت إلى قرطبة بصحبة سفارات من أقطار أوربية أخرى، لم يُعيَّن لها تاريخ، ساقها ابن خَلدون في حديثه العام عن الناصر، كانت هذه السفارات حضرت إلى بَلاط قرطبة بالهدايا؛ طالبةً الصداقة والسلم[4]. أمّا إذا لم نَعْتَبِر خَبَرَ هذه السفارة من باب الحديث العام عن الناصر، واعتمدنا على

---

(1) Balbas, Historia de España, vol. V (España Musulmana), p. 424; Imamuddin, op. cit., p. 103.

(2) ابن حيان (نقله المقري، نفح، 2/ 102). البيان المُغْرِب، 2/ 231. فرحة الأنفُس، ابن غالب، مجلة معهد المخطوطات (الجامعة العربية)، 1/ 301. دولة الإسلام، عنان، 2/ 398. كذلك:

Balbas, op. Cit., p. 434; Lane-Poole, The Moors in Spain, p. 140.

(3) ابن غالب، نفسه. نفح الطيب، المَقَّري، 2/ 102. دولة الإسلام، عِنان، 2/ 399. كذلك:

Balbas, op. Cit., p. 434; Lane-Poole, op. Cit., p. 140.

يظهر مُحَقَّقًا أنّ «مَلِك رُومة» هنا هو البابا، إذ قد ورد هذا الاستعمال صريحًا عند ابن رُسْتَه حين الحديث عن روما - نقلًا عن هارون بن يحيى - في: الأعلاق النفيسة 7/ 128. كذلك: تحفة الألباب، أبو حامد الغرناطي، المجلة الأسيوية 194، Journal Asiatique (1925).

(4) العبر، ابن خلدون، 4/ 2/ 299 (نقلها المقري، نفح، 1/ 331). يظهر أنّ ابن خلدون نقل هذا الخبر عن ابن حيان، كذلك:

Palencia, Revista de Archivos, vol. XXVI, p. 195; Reinaud, op. Cit., p. 151; Hitti, po. Cit., p. 524.

من الواضح أن ابن خَلدون يقتبس المعلومات من ابن حيّان.

مكان ذكرها من الأحداث المجاورة لها في النصّ، وإذا كان بالإمكان استنتاج تاريخ لهذه السفارة - على ضوء ما تقدم - فمن المحتمل أن يكون حضورها إلى قرطبة (من روما) حوالي سنة 334هـ (945م)، أو ربما بعد ذلك. لعلّ مرسلها - على هذا الاعتبار - البابا مارينُوس الثاني (946 - 942 Marinus II م)[1]، أو أجابيتُوس الثاني (955 - 946 Agapitus II)[2].

يَذْكُرُ ابن خَلدون - لعله ينقل عن ابن حَيّان - أنّ سفارةً حَضَرَتْ إلى بَلاط الناصر، من سلطات روما طالبة الصداقة وحسن الصلة، من غير ذكر لتاريخ أو اسم الحاكم الذي أرسلها فيقول: «ووصل بعده [بعد سفارة حاكم برشلونة Barcelona] رسولُ صاحب رُومة يطلب المَودَّةَ فأجيب»[3]. من حديث ابن خَلدون، بالقياس على الأحداث السابقة لذكر هذه السفارة، يمكن وضعها في حوالي 343هـ (954م). على ذلك تكون هذه السفارة قد أُرسِلَت من قِبَل البابا أجابيتُوس الثاني[4]. أمّا الأغراض الأخرى لهذه السفارة، هل هي جواب لسفارة بعث بها الناصر إلى روما، أو هي نفسُها السفارةُ السابقة، كُلُّ ذلك من الصعوبة البَتُّ فيه على ضوء المصادر التي لدينا.

---

(1) عن هذا البابا راجع:

Mann, The Lives of the Popes, vol. IV, pp. 218-23.

(2) عن هذا البابا راجع:

Mann, The Lives of the Popes, vol. IV, pp. 218-23.

(3) العبر، ابن خلدون، 4/ 2/ 311. المقري، 1/ 343. كذلك:

Gayangos, The History of the Mohammedan dynasties in Spain, vol. II, p. 140: Levi-Provencal, Historia de Espana, IV, p. 352; Murphy, History of the Mahometan Empire in Spain, p. 102.

(4) يَعْتَبِر عِنان (دولة الإسلام، 2/ 417) هذه السفارة من قبل البابا يوحنا الثاني عشر، دون أن يناقشها، ولا يظهر أنّ الأمر كذلك. إذ لو كان كذلك، لَمَا كان مثل هذا الحديث الذي دار بين هذا البابا (يوحنا الثاني عشر) وبين الطرطوشي، الذي مَضَى ذِكْرُه، إلّا لاتخذ هذا الحديثُ شكلًا آخر.

يُورِدُ لنا العُذْري - في نصّ اكتُشِفَ حديثًا - مقطعًا عن مقابلة وُدِّيَّةٍ - كانت غير رسمية - تَمّتْ بين الرَّحّالة (أو التاجر) اليهودي (أو المسلم): إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُرْطُوشي وبين ملك الروم برومية [روما][1]. الذي أفهم من هذا النص أنّها مقابلة تَمَّتْ مع البابا يوحنا الثاني عشر John XII (بابويته: 955 - 964م)[2]، في سنة 350هـ (961م). يُعْتَقَد أنها كانت مقابلة خالية من أيّ طابع رسمي أو حتى شبه رسمي. هذه المقابلة لم تكن بين الطُّرْطُوشِي وأوتو الكبير (Otto I, the Great) إمبراطور ألمانيا (حكمه: 936 - 973)[3]. أُورِدُ هنا نَصَّ العُذْري الخاص بهذه المقابلة دون التعليق عليه[4]. يقول العُذري: «وقد رأيتُ من قِدَم[5] خبرها أنّ إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُّرْطُوشي أخبر أنّ ملك الروم برومْيَة سنة خمسين وثلاث مئة من الهجرة قال له: إني أُريد أن أُرْسِلَ إلى أمير المؤمنين بالأندلس قُومِسًا حاذقًا بهدية، وإنّ مِن أعظم حوائجي عنده، وأجَلّ مطالبي قِبَلَه وذلك أنّه صحّ عندي

---

(1) عن الطرطوشي راجع مثلًا: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مؤنس، المجلدان 7 - 8، 272 - 276. كذلك:
Encyclopedia Britannica, vol. VI, p. 554; Rapoport, The Slavonic Review, vol. VIII, p. 331 ff.

(2) عن هذا البابا راجع: أوربا، عاشور، 1/ 302 كذلك:
Mann, The Lives of the Popes, vol. IV, pp. 241-72.

(3) عن الإمبراطور أوتو الكبير راجع: أوربا، عاشور، 1/ 298 وبعدها. كذلك:
Encyclopedia Britannica, vol. XVI, p. 964.

(4) قمت بدراسة مستفيضة عن هذه المقابلة، مبنية على نص العُذري هذا وعلى الدراسات التي ظهرت عن الطرطوشي بلغات عدة.

(5) ضمير الهاء هنا يعود إلى شجرة زيتون مقدسة في ساحة في كنيسة كانت تقع قرب مدينة لورقة (Lorca) التي تقع حاليًا بين مدينتي غرناطة (Granada) ومرسية (Murcia) في جنوبي شرقي إسبانيا. عن مدينة لورقة راجع الروض المعطار، الحميري، 171. معجم البلدان، ياقوت، 7/ 342. كذلك:
Levi- Provencal, Encyclopedia of Islam (Old. Ed), vol. III, p. 32

أنّ في القاعة الكريمة كنيسةً وفي الدار منها زيتونةٌ إذا كان ليلةُ الميلاد[1] نَوّرَت وعَقَدَتْ وأطعمتْ من نهارها[؟] فأَعْلم أنّ لشهيدها محلًّا عظيمًا عند الله عَزَّوَجَلَّ فأَضرعُ إلى معاليه في تسليل أهل تلك الكنيسة ومُداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لي هذا فهو كان أجلَّ عندي من كلّ نعمة في الأرض»[2].

النصوص التي وَرَدَت في أعلاه عن العَلاقات الدبلوماسية بين إيطاليا والأندلس كلّ ما لدينا عن هذا الموضوع. لا يستبعد أن تكون هناك سفارات أخرى قد تبودلت بين البلدين، خاصة في أيام الخليفة الناصر وابنه الحَكَم المستنصر، المتوفَّى سنة 366هـ (976م)، قد ضاعت أخبارها، كما ضاعت أخبار أحداث أخرى كثيرة. لعله - فيما يأتي من الأيام - يكشف عن نصوص مصدرية أصلية تُلقي ضوءًا جديدًا على هذا الموضوع، كما ألقت غيرها من النصوص التي تم اكتشافها في السنوات القليلة الماضية، التي كان من بينها نص العُذري القَيِّم*** كيمبرج (إنجلترا) في 20/ 7/1965م.

أولًا- المصادر العربية:

1. ابن الأَبَّار، الحلة السيراء، ت. حسين مؤنس، القاهرة، 1963م، الجزء الأول.
2. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ت. ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.
3. ابن خلدون، العبر، بيروت، 1958، المجلد الرابع، القسم الثاني.

---

(1) يعني ليلة ميلاد النبي عيسى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(2) نظام المرجان، العذري، 7 - 8. عن هذه القصة راجع أيضا: الروض المعطار، الحميري، 171. آثار البلاد، القزويني، 556، أوردها حين الحديث عن لورقة. القزويني يسميه إبراهيم بن أحمد الطرطوشي، مما يجعل الدارس يميل إلى الاعتقاد بأنّ الطرطوشي كان مسلمًا وليس يهوديًّا أو أنّه كان يهوديًّا ثم أسلم. عن الطرطوشي هذا راجع أيضًا:

Canard, Etudes d'Orientalisme dedies a la memoire de Levi-Provencal, vol. II, pp. 503-508.

4. ابن رُسْتَه، الأعلاق النفيسة، ت. دي خويه، ليدن، 1891، الجزء السابع.
5. ابن سعيد الأندلسي، المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ت. شوقي صنيف، القاهرة، 1953، الجزء الأول.
6. ابن عذاري، البيان المغرب، ت. ليفي بروفنسال وكولان، 1951، الجزء الثاني.
7. ابن غالب الأندلسي، فرحة الأنفس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات (الجامعة العربية)، القاهرة، 1955، المجلد الأول، العدد الثاني.
8. أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ت. فران، المجلة الأسيوية، Journal Asiatique باريس، 1925، المجلد 207.
9. الحِمْيَري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار، ت. ليفي بروفنسال، القاهرة، 1929.
10. سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962.
11. شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، القاهرة، 1352هـ. يعتمد بصورة رئيسة على كتاب رينو. انظروا أسفل، رقم: 39.
12. عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي)، القاهرة، 1961م.
13. العبادي، أحمد مختار، «سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس، 1377هـ = 1957م.
14. العُذْرِي، أحمد بن عمر بن أنس، نظام المرجان في المسالك والممالك، ت. عبدالعزيز الأهواني، (تحت الطبع)، أشكر مدير المعهد؛ لمساعدته وإعطائي ملازم هذا الكتاب.

15. عِنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1960م، الجزء الثاني.

16. عِنان، تَراجِم إسلامية، القاهرة، 1947م.

17. القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، 1280هـ = 1960م.

18. مجهول، مُدَوَّنَةٌ مجهولةُ المؤلف عن عبد الرحمن الناصر، ت. ليفي بروفنسال وغرسيه غوسى، مدريد - غرناطة، 1950م، بعنوان: تاريخ مجهول لعبدالرحمن الثالث الناصر: Un Cronica de Abd Al-rahman III, Al-Nasir

19. المدني، أحمد توفيق، المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، تونس، 1365هـ.

20. المقري، نفح الطيب، ت. محي الدين، القاهرة، 1949م، الجزء الأول والثاني.

21. مكي، محمود علي، التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني، 1373هـ = 1954م.

22. مؤنس، حسين، «الجغرافية في الأندلس»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلدان 7 - 8، 1959 – 1960م.

23. ياقوت الحموي معجم البلدان، القاهرة، 1906م، المجلد السابع.

ثانيًا- المصادر الأجنبية:

24. Bryce, J., The Holy Roman Empire, London, 1904.

25. Dozy, R. Spanish Islam (Eng. Tr. from the Frech by F. G. Stokes), London, 1913.

26. Duchesne, L., The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes (Eng. Tr. from the French by A. H. Mathew), London, 1908.
27. Encyc… The Jewish Encyclopedia, 1904, vol. VI.
28. Encyclopedia Britannica, 1904, vol. VI.
29. Encyclopedia of Islam – see Levi-Provencal.
30. Gayangos, Pascual de, The History of the Mohammedan dynasties in Spain (extracted from Nafh At-Tib), London, 1843, vol. II.
31. Gregorovius, F., History of the City of Rome in the Middle Ages (Eng. Tr. from the German by A. Hamilton), London, 1895, vol. III.
32. Imamuddin, S.M., A Political History of Muslin Spain, Dacca (Pakistan), 1961.
33. Lane-Poole, S., The Moors in Spain, London, 1897 (The Story of the Nations, No. 6).
34. Levi- Provencal, E., Lorca, Encyclopedia of Islam (Old. Edition), 1936, vol. III.
35. Liudprand, Bp. of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, (Eng. Rt. From Latin by F. A. Wright), London, 1930.

36. Mann, H. K., The Lives of the Popes in the Early Middle Ages, London vols. III (1906) & IV (1910).

37. Murphy, J.C., History of the Mahometan Empire in Spain, London, 1816.

38. Rapoport, S., "The Narrative of Ibrahim –Ibn-Yakub , The Slavonic Review, London, 1929, vol. VIII, No. 23.

39. Reinaud, J., Muslim Colonies in France, Nothern Italy and Switzerland (Eng. Tr. from the French by H. K. Sherwani), Lahore (Pakistan), 1964.

40. Cambridge Medieval History, vol. III. (The Kingdom of Burgundy, by L. Halphen & Italy in the century, by C. W. Previte-Orton).

41. Canard, M., "Ibrahim Ibn Ya'qub", Etudes d'Orientalisme dedies a la memoire de Levi-Provencal, Paris, 1962, vol. II.

42. Amari, M., Storia dei Musulmani di Sicilia. Catania (Sicily), 1933, vol. I

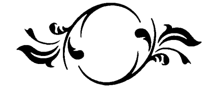
43. Balbas, L.P., Arte Hispanomusulman, Historia de Espana (ed. By R. M. Pidal), tomo V, Espana Musulmana, Madrid, 1957.

44. Levi- Provencal, E., "La Pohitica Africana de Abd al-Rahman III", Al-Andahus, Madrid, 1946, vol. XI, fasc. 2.

45. Id., Historia de España (ed. By R.M. Pidal), tomo IV, , España Musulmana, (Sp. Tr. from the French by E. Garcia Gomes), Madrid, 1957.

46. Palencia, A. Conzález, "El Califato Occidental", Revista de Archivos, Madrid, 1922, vol. XXVI.

47. Id., Historia de España Musulmana, Barcelona, 1932.



الكُتُبُ والمَكتَباتُ في الأندلس[1]

انطلق المسلمون بإيمانهم العميق بالله تعالى وبرسالته الخالدة، التي امتلأت بها نفوسُهم وازدانت فِعالُهم، إلى الحياة يشيدونها بالخير ويملأونها بالمحبّة وينيرونها بالمعرفة الحقّة. عَمَروا الأرضَ بالفضائل وأضاءوا دياجيرَها، كشفوا عنها ظَلامَها عبادةً لله، جَعَلوا ليلَها كالنهار بعد أن كان نهارُها كالليل الحِنْدِس شديدِ الظلام. وضعوها على المحجّة، ولاتَ غيرُها، كما أشار إلى ذلك الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في معنى حديثه: «تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك».

محرابُ المسلم كُلُّ الأرض على رَحْبِها، ما دام يتقرّب في عمله إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويتوجّه بقلبه إليه. ذلك سرّ هذا الإسلام يدركه أهله ولا يغيب عن مراقب. يقول ابن حزم الأندلسي (قرطبة، 384 – مَنْتَ لِيشَم Casa Montija - كُوْرَة لبله Niebla، شعبان 456هـ = 994 - 1064م)، حين الحديث عن نِتاجه: « لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنُسَمِّيها، والمرادُ بها رَبُّنا جلّ وجهه»[2].

العمل عند المسلم شِقُّ الإيمان وثمرتُه، به يرتفع ويسمو ويَعْمُق ويصفو ويُصبح هادفًا نافعًا: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع»[3]. يغدُو العمل جزءًا من العقيدة التي لا ترتضي غير الدقّة والإخلاص والأمانة، كما تدعو إلى الإنفاق

---

(1) نُشِرَ هذا البحثُ: «الكُتُبُ والمَكْتَباتُ في الأندلس» في مجلة كلية الدراسات الإسلامية (بغداد، 1392هـ= 1972م)، العدد الرابع. أصله محاضرة ألقيت بتاريخ 28/ 10/ 1389هـ في قاعة المحاضرات العامة بجامعة الرياض.

(2) نفح الطيب، المقَّري (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968)، 3/ 177.

(3) من حديث شريف.

المتطوع الحريص على هيئةٍ من الشمول فريدة. ومَن لم يمارس لونًا من المعرفة كان هالكًا: «اغْدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًّا ولا تكن الخامسة فتهلك»[1].

الحديث عن العلم في الإسلام مستفيض وبحره زاخر لا يغيض، ليس ها هنا موضعه؛ إذ هذا الحديث عن الكِتاب إحدى ثماره. الكتاب وعاء العلم ومستودعه، يحفظه ناقلًا من السلف إلى الخلف جيلًا بعد جيل. كما أنّ إدراكَ العلمِ وفهمَه وتمثّله وتسخيرَه لنفع الإنسان ومعرفة مكانته في الوجود هو الغاية، الكتاب وسيلة إيصاله، لا لحمله أسفارًا. يُعبِّر عن هذا المعنى الرحالةُ والجغرا في الأندلسي أبو حامد الغَرناطي (غرناطة، 473 ـ دمشق، صفر 565هـ = 1080 ـ 1169م) بقوله[2]:

العِلْمُ في القلب ليس العلمُ في الكتبِ ... فلا تكن مُغْرَمًا باللهو واللعبِ

فاحفظهُ وافهمه واعمل كي تفوز به ... فالعلمُ لا يُجتنى إلَّا مع التعبِ

[كما أشار إلى هذا المعنى الشاعر المكثر العالم الأديب، يرتجل الشعر بديهة، أبو مروان عبدالملك بن إدريس الأَزْدي الجَزيري[3] (394هـ=1003م). العالم الأَديب البليغ الكبير الكاتب الشاعر العبقري الفذ من أكابر البلغاء وذوي البديهة، من أهل قرطبة. أكثرُ شعره يدور حول فنون الحكمة والمديح والوصف. قصيدته الفذة المشهورة «الآداب والسنة» وتمجيد العلم وفضله، كتب بها إلى بنيه يوصيهم وأهلَه بهذه المعاني منها:

وبضُمَّرِ الأَقلامِ يَبْلُغُ أَهلُها ... ما ليسَ يُبْلَغُ بالجياد الضُّمَّرِ]

---

(1) حديث شريف، رواه الطبراني والبزار ورجاله موثقون.

(2) نفح الطيب، 2/ 236.

(3) جذوة المقتبس، 248 – 249. بغية الملتمس، رقم: 1058. الذخيرة، 1/ 103، 3/ 508، 4/ 36 – 43. المغرب، 1/ 321. نفح، 1/ 529 – 530، 586 – 588، 601، 3/ 95، 260، 4/ 66، 306. إعتاب الكُتَّاب، 193 – 196. الروض المعطار، 391. جمعت هذه القصيدة المتناثرة من كافة هذه الكتب المذكورة فيها محاولًا تنسيقها، فكان هذا ما وجدته، لعل لها بقية.

إنّ كثرة الكتب وتنوّعَها واهتمام أمّةٍ ما بها، نتيجةٌ طبيعية لمستواها العلمي العالي شيوع المعرفة فيها وإكرامها لرجال العلم وأهله وتشجيعهم واستقبال القاصدين لها والنازحين من حامليه وطلابه.

سَمْتُ العلماء: عُرِفَ الأندلس كغيره من البلدان الإسلامية بـ: «كثرة علمائه، ووفور أدبائه، وجلالة ملوكه، ومحبّتهم في العلم وأهله، يعظّمون من عظّمه علمُه، ويرفعون من رفعه أدبُه»[1]. من مأثور الأمثلة ما ترويه كتب التاريخ عن العالم اللغوي: «المذكور بالديانة والفقه والورع»[2] أبي غالب تَمّام بن غالب المعروف بابن التَّيّاني (قرطبة- المَرِيّة Almeria، إحدى الجُمادتين 436هـ = 1045م) أنّه صنّف كتابًا جليلًا: «تلقيح العين»، كان ساكنًا مدينة مُرْسِيَة. لمّا وقف على هذا الكتاب الأميرُ: أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، أيام تغلّبه على مُرْسِيَة Murcia، أرسل إلى ابن التياني ألفًا من الدنانير الأندلسية مع كِسْوَة، على أن يزيد في ترجمة الكتاب عبارة: «مما ألفه تَمَّام بن غالب لأبي الجيش مجاهد»[3]. لكنّ أبا غالب ردّ على الأمير مجاهد الألف دينار والكسوة وقال: «كتاب صنّفته لله ولطلبة العلم أصرفه إلى اسم ملك؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا»[4]. كان أن زاد التَّيّاني في عين مجاهد وعَظُمَ في صدور الناس. يذكر الحُمَيْدي[5] أنّ التياني قال بهذه المناسبة: «(والله لو بُذِلَت لي الدنيا على ذلك ما فعلتُ ولا استجزتُ الكذب؛ فإنّي لم أجمعه

---

(1) نفس المصدر، 3/ 157.
(2) نفح الطيب، 3/ 172. وفيات الأعيان، ابن خلكان (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1969م)، 1/ 300.
(3) جذوة المقتبس، الحميدي (القاهرة، 1372هـ = 1952م)، 172.
(4) المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي (تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1953م)، 1/ 166.
(5) نفسه.



له خاصة، لكن لكلّ طالب عامةً) فاعْجَبْ لهمّة هذا الرئيس وعُلوّها واعْجَبْ لنفس هذا العالم ونزاهتها».

الورقُ وأهميتُه: ما من شكّ أنّ هنالك ارتباطًا بين الكتب والورق. كثرتُها تدلُّ على تقدُّم صناعة الورق وازدهارها وكلّ ما يتعلّق بها، مِنْ: «صناعة الوَرَّاقين المُعانِينَ للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصّت بالأمصار العظيمة العمران»[1]. المسلمون: «هم الذين يستخدمون فقط هذا الورق المُبْتَكَر»[2]، إنّهم أولو الفضل على العالم في هذه الصناعة، فهم الذين صنعوا الورق من القطن والكَتّان[3]. اشتهرت الأندلس بمصانع الورق وتميّزت بهذا الإنتاج بعضُ المدن، مثل: غَرناطة Granada وبَلَنْسِيَة Valencia وطُلَيْطُلَة Toledo وشَاطِبَة Jativa[4] التي كان: «يُضْرَبُ بحسنها المثل ويُعْمَلُ بها الورق الذي لا نظير له»[5].

شُمولُ العلمِ وغزارتُه: تعدّدت في العالم الإسلامي (غربيه وشرقيه) مراكزُ الإشعاع العلمي في مختلف ميادينه[6]. أغنت قريحةُ المسلمين عالَمهم بالمؤلفات.

---

(1) مقدّمة ابن خلدون (تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1387هـ = 1967م)، 3/ 1096.

(2) «المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية» خوليان ربيرا، ترجمة الدكتور جمال محمد محرز، مجلّة معهد المخطوطات (الجامعة العربية)، المجلد الرابع، الجزء الأول (القاهرة، 1377هـ = 1958م)، 80.

(3) نهاية الأندلس، محمد عبدالله عِنان (القاهرة، 1958م)، 429.

(4) نهاية الأندلس، عِنان، 429. «البردي والرق والكاغد في إفريقية التونسية»، حسن حسني عبد الوهاب، مجلّة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثاني، الجزء الأول (القاهرة، 1375هـ = 1956م)، 44.

(5) نفح الطيب، المقري، 1/ 166.

(6) راجعوا: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، محمد جمال الدين سرور (القاهرة، 1967م)، 201 وبعدها.

كانت نِتاجاتهم - زيادة على وفرتها - تمتاز بالأصالة والدقّة. طَفَحَ بها العالمُ الإسلامي[1]، وفي الأندلس - وارث حضارته - طَمَا منها بَحْرٌ زاخر.

هذا البحث يتناول الحديث - بشكل عام شامل - عن الكتب في الأندلس باعتبارها أهَمَّ أداةٍ مهمّة لتداول العلم وحفظه، يتناول اهتمام المسلمين بهذه الحصيلة ومكانتها، حتى غدت هواية عامّة بين أفراد المجتمع، نساءً ورجالًا وأطفالًا، على اختلاف مستوياتهم العلمية، حيث تأثّر بذلك غير المسلمين في المجتمع الأندلسي. كما يتعرّض هذا البحث للحديث عما بقي لنا من هذا النِّتاج. يتناول البحثُ أيضا – بلمحات - المؤلفاتِ وأنواعَها وموضوعاتِها وقيمتَها العلمية وإحصاءَها والمؤلفين ومكانتَهم ومقدارَ نِتاجهم، إذ لدينا في هذا الميدان ما يُبْهِر العقولَ، ليس هنا موضع تفصيل.

الحافظ بَقِي بن مَخْلَد القُرطبي (قرطبة، رمضان 201 - جمادى الآخرة 276هـ = 817 - 889م)، أحد الأعلام الموسوعيين صاحب التآليف الحِسَان[2] الكثيرة التي: «صارت قواعدَ للإسلام لا نظير لها»[3]، منها كتابُه في: «تفسير القرآن» الكريم، الذي يَقْطَعُ ابنُ حَزْمٍ دون استثناء بـ: «أنّه لم يؤلَّف في الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطَّبَري ولا غيره»[4]. لقد بلغ هذا التفسير عشرات المجلدات، لا أعرف لأي جزء منه مكانًا. ابن حزم بدوره بلغت تآليفُه - التي ضاع

(1) مثلًا يذكر ابن كثير في حوادث سنة 631هـ (البداية والنهاية، 13/ 140)، حين الحديث عن المدرسة المستنصرية، بأنّه: «وُقِفَتْ خزائنُ كتب لم يُسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها».

(2) جذوة المقتبس، الحميدي، 167 (ترجمة رقم: 331).

(3) نفح الطيب، المَقَّري، 3/ 169 (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس).

(4) المصدر السابق، 3/ 168.

أكثرُها - أربعَ مئة مجلد في ثمانين ألف ورقة[1]، منها كتاب: «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»، تاريخ للعقائد ودراسة مقارنة: «وهو عِلْمٌ لم تعرفه أوربا إلّا في القرن [الثالث عشر الهجري] التاسع عشر الميلادي»[2].

كذلك في العلوم المختلفة، في الطب لدينا قائمة طويلة من الأطباء وكذلك الصيادلة، لكثير منهم أو لكلّهم عدّة مؤلفات بَلَغَتْ الغاية في قيمتها العلمية، نجد بعضهم في كتاب: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، و«طبقات الحكماء والأطباء» لابن جُلْجُل، قولوا مثل ذلك في الرياضيات والهندسة والفلك وغيرها[3].

بعضُ المؤلفين وَصَلَتْ مؤلفاتُهم العَشَرات، بَلَغَ بعضُها عشرات وربما مئات الأجزاء[4]، كالقاضي الإشبيلي أبي بكر ابن العربي (إشبيلية Sevilla، شعبان 468 - فاس، ربيع الآخرة 543هـ = 1075 - 1148م)، الذي تُعَدُّ مؤلفاته حوالي الأربعين، منها: «أنوار الفجر في تفسير القرآن» في ثمانين (وقيل: تسعين) جزءًا[5]. ابنُ حَيَّان القُرطبي (قرطبة، 377 - قرطبة، ربيع الأول 469هـ = 987 - 1076م)، من كتبه: «المَتين» في تاريخ الأندلس ويقع في ستين مجلدًا[6]. لأحمد بن أَبَان بن سَيِّد صاحب شرطة قُرطبة (382هـ= 992م) كتاب: «السماء والعالم» في مئة مجلد: «على الأجناس في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة»[7]. أحمد بن عبد الملك

---

(1) راجعوا: أندلسيات*، 1/ 122.

(2) الإسلام في إسبانيا، لطفي عبد البديع (القاهرة، 1958م)، 42.

(3) راجعوا مثلًا: نفح الطيب، المَقَّري، 3/ 160 - 186، 374 - 377.

(4) راجعوا مثلًا: نفح الطيب، المَقَّري، 2/ 563، 691 - 694.

(5) نفح الطيب، المقري، 2/ 35. مقدّمة كتابه: «العواصم من القواصم» بتحقيق محب الدين الخطيب، 27.

(6) المقري، نفسه، 3/ 181، 193.

(7) المقري، نفسه، 3/ 172، 381. جذوة المقتبس، الحميدي، 381 (ترجمة رقم: 964).

ابن هاشم الإشبيلي (قرطبة، جُمادى الأولى 401هـ = 1010م): « جَمَعَ للحَكَم أميرِ المؤمنين كتابًا حَفيلًا في رأي مالك سماه: (الاستيعاب) من مئة جزء»[1]، جمعه له مع مؤلف آخر عن «شرح المستخرجة»، قال ابن عِذاري في «البيان المُغْرِب»[2]، نقلًا عن غيره، بأنّه: «تأليف لم يسبق أحد من العلماء إلى مثله ينيف على المئة جزء». و«المُسْتَخْرَجَة» التي تُعْرَف بـ: «العُتْبِيَّة»، من تأليف الفقيه الأندلسي محمد ابن أحمد بن عتبة المعروف بالعُتْبي(ربيع الأول 255هـ = 868م)[3]. كما يُذكر بالمناسبة ما يذكره المَقَّري في: «نفح الطيب»[4]: أنّ عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألّف كتابًا في مئة جزء وسماه: «النُّصْرَة لمذهب إمام دار الهجرة».

يورد لنا ابنُ بَشْكُوال في كتابه: «الصلة» خبرًا مُدْهِشًا له دلالتُه الكبيرة وفيه التأكيد الواضح لهذه الظاهرة لدى علمائنا، ظاهرة الكثرة في التأليف، مع الاحتفاظ بالمستوى العلمي الرفيع وأصالته. يحدثنا عن قاضي الجماعة بقُرطبة: أبي المُطرِّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْس بن أَصْبَغ بن فُطَيْس (348 - 402هـ) وعن مؤلفاته فيقول بأنّه: «جمع كتبًا حسانًا منها: كتاب: «القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن»، في نحو مئة جزء ونيف، وكتاب (المصابيح في فضائل الصحابة) مئة جزء و(فضائل التابعين لهم بإحسان) مئة جزء وخمسون جزءًا، و(الناسخ والمنسوخ) ثلاثون جزءًا، و(الإخوة من المحدثين والتابعين ومن بعدهم من الخالفين) أربعون جزءًا، و(أعلام النبوة ودلالات الرسالة) عشرة أسفار، و(كرامات الصالحين ومعجزاتهم) ثلاثون جزءًا، و(مسند حديث محمد

(1) الصلة، ابن بشكوال، القاهرة، 1966م، 23.

(2) الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1967م، 74.

(3) المقري، نفسه، 2/ 215 ـ 6. الحميدي، نفسه، 36 - 37.

(4) 2/ 521.

ابن فطيس) خمسون جزءًا، و(مسند قاسم بن أصبغ العوالي) ستون جزءًا، و(الكلام على الإجازة والمناولة) عدّة أجزاء. وغير ذلك من تواليفه. نقلت تسميتها من خطّ يده»[1]. للأسف لا يعرف الآن لهذا الثبت لأيٍّ من كتبه وجود.

لا يبدو أنّ هناك ضرورةً قصوى تقود إلى استبعاد مثل هذا الأمر الذي نجده لدى عدد من علماء الأندلس الذين عُرِفُوا بكثرة مؤلفاتهم. ابنُ فُطَيْس كَرَّس حياتَه للعلم، مع حرص وإتقان يقوم على الإيمان المفتِّق للطاقات، مع ذكاء وَفَّرَتْ للانتفاع به الأسبابُ الأخرى المادية وغيرها، في مجتمع كُلُّ ما فيه يشجّع على العلم، جَوٌّ علمي عالي المستوى.

يذكر ابنُ بَشْكُوَال عن القاضي ابن فُطَيْس كذلك بأنّه: «كان عالمًا بالحديث والتقييد له واسع الرواية. كتب الحديث عمرَه كُلّه»[2] زيادة إلى: «سعة الرواية والحفظ والدراية. وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده، ومُسْتَمْلٍ بين يديه على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق والناس يكتبون عنه»[3]. كما: «كان من جهابذة المُحَدِّثين وكبار العلماء المُسْنِدين، حافظًا للحديث وعلله، منسوبًا إلى فهمه وإتقانه، عارفًا بأسماء رجاله ونَقَلَته، يَبْصُرُ المُعَدَّلين منهم والمُجَرَّحِينَ، وله مشاركة في سائر العلوم، وتَقَدُّم في معرفة الآثار والسير والأخبار وعناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث المشهورة والحكايات المُسْنَدَة، جامعًا لها، مجتهدًا في سماعها وروايتها»[4]. كما يَذكر ابن بَشْكُوال بأنّه: «كان حسن الخط، جيد الضبط، جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس».

(1) الصلة، 311 – 312 (ترجمة رقم: 682).
(2) الصلة، 312.
(3) الصلة، 310.
(4) الصلة، 310. كذلك: تاريخ الفكر الأندلسي، جنثالث بالنثيا، (ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، 1955)، 395.

باستعراضنا لكتب التَّراجِم الأندلسية نجد ظاهرة الكثرة في التأليف معتادة. القاضي أبو الوليد الباجي (بَطَلْيَوْس Badagoz، ذو القعدة 403 المَرِيّة Almeria، رجب 474هـ = 1013 - 1081م)[1]. العَلَّامة الثَّبْت ابن حَزْم القُرْطُبي (456هـ)، «صاحب المصنفات»، الذي يقول عنه الحافظ شمس الدين الذهبي (الذهبي نفسُه كثيرُ التأليف جيّدُه، تُوفي في دمشق سنة 748هـ) بأنّه: «كان إليه المنتهى في الذكاء وحِدَّة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذاهب والمِلل والنِّحل، والعربية والآداب، والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة والدقّة والسُّؤْدَد والرئاسة والثروة وكثرة الكتب»[2]. حتى لقد أَخْبَرَ: «ابنُه الفضل أنّه اجتمع عنده بخطّ أبيه من تواليفه نحو أربع مئة مجلد»[3] كما أشير للتو، و«كَمُل من مصنّفاته في فُنون العلم وِقْرُ بَعير»، كما يقول بَلَدِيُّهُ ابنُ حَيَّان القُرطُبي[4]. كذلك أبو عمر يوسف بن عبد البَرّ (قرطبة، ربيع الآخرة 368 - شاطبة، ربيع الآخر 463هـ = 978 - 1071م) صاحب العلم الغزير والمؤلفات الكثيرة. في رسالة ابن حزم القرطبي المهمة جدًّا: «في فضل الأندلس» وغيرِها إيضاح أكثر وتفصيل أكبر[5].

هل نعْتَبِر من المبالغة ما ذكره المَقَّري في «نفحه»[6] حين الحديث عن عبد الملك بن حبيب السُّلَمِيِّ (238هـ = 852م)، له من العمر ثلاثٌ وخمسون سنة، من أنّ تآليفه بلغت ألفاً؟ إذا كان شعب – مثل حال الأندلسيين - نساؤه ورجاله وأطفاله، كُلُّهم يقرأ ويهتمّ بالعلم، يتذوّقه ويستمتع بقراءته ومدارسته وفيه الآلاف من

---

(1) نفح الطيب، 2/ 69.
(2) العِبَر في خبر مَنْ غَبَر، 3/ 239 (تحقيق فؤاد سيد، الكويت، 1961م). نفح الطيب، المقري، 2/ 78.
(3) نفح الطيب، المقري، 2/ 78. العبر، 3/ 269.
(4) نقلًا عن الذخيرة لابن بسام (القاهرة، 1939م)، 1/ 1/ 141.
(5) راجعوا: نفح الطيب، 3/ 156 – 186.
(6) 2/ 5 – 6.

العلماء والمتخصصين في كلّ ميدان، يؤلفون ويكتبون بوفرة غزيرة وأصالة باهرة وتمكّن نادر، نتوقّع سَيْلًا من النِّتاج جارفًا واهتمامًا بالعلماء والعلم، وسيلة ذلك الكتاب.

كان الأندلس قبلةَ العلماء والمتعلّمين والدارسين، ليس من العالم الإسلامي فقط ولكن من خارجه أيضًا. غدا العلم والكتاب مصدرَ فَخْرٍ وميدانَ سِبَاقٍ، به ترتفع مكانة الإنسان ويُعرف موضعُه. حتى المدن كان التفاخر بينها بالعلم والكتب، بذلك امتازت قرطبة التي: «يُبَارِي فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتائب»[1]. «وبها أُنشئت التأليفات الرائقة، وصُنِّفت التصنيفات الفائقة»[2]. «وهي أكثرُ بلاد الأندلس كتبًا، وأشدُّ الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة»[3].

يَرْوِي لنا المَقَّري في: «نفح الطيب»، نقلًا عن أبي الفضل التيفاشي، مناظرةً جَرَتْ بين أبي الوليد محمد بن أحمد بن رُشْد الحفيد القاضي الفيلسوف (مراكش، صفر 595هـ= 1198م) وبين أبي بكر ابن زُهْر الطبيب (507 - مراكش، ذو الحجة 595هـ = 1198م) في المفاضلة بين قرطبة وإشبيلية، قال له ابن رُشْد: «(ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأُرِيدَ بَيْعُ كتبه حُمِلَتْ إلى قُرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقُرطبة فأُريدَ بيعُ آلاته حُملت إلى إشبيلية). قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتبًا»[4]. كثيرًا ما افتخر أهل الأندلس بإنتاجهم الفكري وحبهم

(1) نفح الطيب، المقري، 1/ 461.

(2) نفسه المصدر.

(3) نفسه، 1/ 462.

(4) نفسه، 1/ 155، 463.

للكتب واهتمامهم به. لابن حزم القرطبي والشَّقُنْدي وابن سعيد الأندلسي وغيرهم رسائل معروفة في ذلك[1].

شغف أهل الأندلس بالكتب: أصبحت الكتب في الأندلس موردًا رائقًا وسوقها نافقًا والبذل فيها جودًا وإن كثر، والسفر لأجلها نزهة، والسهر في تدبيجها متعة. كان ذلك عامًّا بين النساء والرجال والأطفال وعموم الناس وخاصّتهم، حكامًا ومحكومين علماءَ ومتعلّمين. منهم المُكْثِر والمُقِلّ الذي يسير مع من قال[2]:

يكفي من الحُلي ما قد حَفَّ بالعُنُقِ

غدت للعلم في الأندلس المكانة العالية ولأهله التقديم ولمجالسه التقدير. للكتاب عند هؤلاء جميعًا مأوى كريم ومنتدى منير. كان الاعتزاز بالكتاب عاليًا ومألوفًا وعامًّا، حتى إنّ الجغرافي الأندلسي أبا عُبَيْد البَكْرِي (شَلْطِيش Saltes، 405 – قرطبة أو إشبيلية 487هـ = 1014 - 1094م) الذي كان: «جميل الكتب مهتمًّا بها كان يمسكها في سَباني الشَّرْب وغيرها إكرامًا لها وصيانة»[3]. بل أصبح جَمْعُها والحصول عليها سببًا للمنافسة، ليس فقط للدراية بل وأيضًا لإشباع جُمُوح الهِواية. يَروي المَقَّري في «نفح الطيب»[4]، نقلًا عن ابن سعيد الأندلسي: «أنّ الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خِزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلَّا لأن يقال: فلان عنده خِزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر به».

---

(1) انظروا: نفح الطيب، 3/ 156-222.

(2) نفح الطيب، 3/ 225.

(3) الصلة، ابن بشكوال، 287. الحُلّة السِّيَراء، ابن الأبَّار (تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963)، 2/ 180-185-187. «سَباني الشَّرْب: المناديل الكبيرة التي كانوا يستعملونها أثناء الطعام. كانت تتخذ من رفيع القطن أو الكتَّان، هي أغلى السَّبَاني».

(4) 1/ 462 – 463. ما ينقله المقري عن ابن سعيد غير موجود في مغربه المطبوع.

يَنْقُل المَقَّري أيضًا في «نفحه»[1] عن الحضرمي قصّةً طريفة في هذا الباب يقول: « أقمتُ مرّةً بقُرطبة، ولازمتُ سوقَ كتبها مدّة أترقّب فيها وُقُوعَ كتابٍ كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وَقَعَ وهو بخطٍّ جيدٍ وتسفيرٍ مليح، ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا، أرني مَن يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فدنوتُ منه، وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركتُه لك فقد بَلَغتْ به الزيادة بيننا فوق حدّه، فقال لي: لست بفقيه ولا أَدري ما فيه، ولكنّي أقمت خِزانة كتب، واحتفلت فيها لأَتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يَسَع هذا الكتاب، فلما رأيتُه حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أُبالِ بما أَزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير».

اهتمّ الحُكَّامُ في الأندلس بالعلم والمكتبات وشجّعوا عليها وبذلوا بسخاء لاقتنائها، من داخل الأندلس وأرسلوا إلى خارجها من يجلبها لهم. أرسل عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238هـ= 822 – 852م) عباس بن ناصح إلى المشرق ليلتمس بعض الكتب ويستنسخها[2]. يومَ قَدِمَتْ سَفَارةُ إمبراطور الدولة البيزنطية إلى قُرطبة سنة 336هـ (947م) لم يجد قسطنطين السابع ما يتقرّب به إلى الخليفة الناصر لدين الله خيرًا من إهدائه بعض الكتب[3]. هكذا كان ماضينا الأندلسي الزاهر وغيره، حيث

(1) 1/ 463.

(2) المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي، 1/ 45، 324. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم (بيروت 1962)، 313. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عِنان، (القاهرة، 1389هـ = 1969م)، 1/ 281.

(3) نفح الطيب، 1/ 364 – 366. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (مدريد، 1386هـ = 1967)، 36. مجلة معهد المخطوطات العربية، ربيرا، 4/ 1/ 86. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عِنان، 2/ 504-507.

كان العلم والاهتمام به جزءًا من العقيدة الإسلامية. أمّا اليوم فالاهتمام به جدّ قليل حتى بين المتعلّمين. الكتب والاهتمام بها سبب للعلم والمعرفة وثمرة لها، الأصل أن تنمو لدينا المَلَكَتان لكي لا نعيش عالة، بل نكون أهلًا لحمل الإسلام ورسالته واستمرار حضارته، ذلك اليومَ مطلبٌ مهم وأمل المستقبل، لا بالنسبة للمسلمين فقط بل لأهل الأرض كافة.

كثرة المكتبات في الأندلس: كَثُرَتْ المكتبات في الأندلس، حتى لقد وُجِدَتْ منها الخاصة والعامة. ذَكَرَ البعضُ: أنّ عدد المكتبات العامة في الأندلس أيام الخلافة بلغت سبعين مكتبة[1]. طبعًا كثرت حوانيت الكتب في قُرطبة وغدت أسواقها حافلة بالحركة[2].

أضخم مكتبة في الأندلس طرًّا هي المكتبة الرئيسة في قرطبة التي رعاها أُمراء الأندلس وخلفاؤهم منذ أيام عبد الرحمن الداخل ثمّ الأوسط ثمّ ابنه الأمير محمد فالناصر فالحَكَم المستنصر[3]، الذي أثراها أيّما إثراء. كان له وكلاء في الأقطار الإسلامية المختلفة يجلبون إليه الكتب. هو الذي بعث بطلب كتاب: «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، أرسل هذا إلى الحَكَم المستنصر نسخة منه قبل أن يُخْرِجه إلى العراق[4]. كان الحَكَم يقترح على أهل العلم ليؤلفوا الكتب في مختلف الموضوعات، كما فعل مع محمد بن حارث الخُشَني (361هـ =971م) صاحب كتاب:

---

(1) دولة الإسلام في الأندلس، عِنان، 2/ 509. مجالي الإسلام، حيدر بامّات (ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، 1956)، 113. قارنوا: ربيرا، نفسه، 5/ 1/ 77. الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي (القاهرة، 1950م)، 1/ 260.

(2) دولة الإسلام في الأندلس، عِنان، 2/ 506. كذلك: تاريخ العرب (مطول)، فيليب حتى، بيروت، م1965م، 2/ 626.

(3) عِنان، نفسه، 1/ 281، 2/ 504 - 505.

(4) الحلة السيراء، ابن الأبار، 1/ 201-202. نفح الطيب، المقري، 1/ 386.

«قضاة قرطبة وعلماء إفريقية»[1]. محمد بن يوسف الوراق (363هـ = 973م) الذي ألّف له ديوانًا ضخمًا في: «مسالك إفريقيا وممالكها»[2]. أو أنّ هؤلاء العلماء كانوا يؤلفون للحَكَم ككتاب: «الحدائق» لأحمد بن محمد بن فَرَج الجَيّاني[3].

يذكر المسعودي في: «مُرُوجُ الذهب»[4] أنّه حين وصلت سفارة من الإفرنج (فيما وراء جبال الْبُرت Pyrenees) إلى بَلاط قُرطبة عام 328هـ = 939م أيام الخليفة الناصر لدين الله طلب ابنُه الحكم المستنصر (كان وليًّا للعهد) إلى السفير، الراهب غُدْمَار، أن يضع له كتابًا عن بلاد أو ملوك الإفرنج، أو أنّ الراهب غُدمار ألّفه وأهداه إليه. كان الحَكَم يُعِير المؤلفين ما يحتاجون إليه من المصادر[5]. مما وَصَفَ به المَقَّري[6] الحَكَمَ أنّه: «كان محبًّا للعلوم، مكرمًا لأهلها، جَمّاعًا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله... وأقام للعلم والعلماء سوقًا نافقة جُلِبَتْ إليها بضائعه من كل قطر».

كان الحَكَمُ: «حسن السيرة فاضلًا عادلًا مشغوفًا بالعلوم حريصًا على اقتناء دواوينها يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان. ونفق ذلك لديه فحُمِلَتْ من كلّ جهة إليه»[7]. «اجتمع لديه من نفائس

(1) مقدمة الكتاب (القاهرة، 1372هـ)، 6-11.

(2) نفح الطيب، المقري، 3/ 163. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مؤنس، 83. بغية الملتمس، ابن عَمِيرَة الضَّبِّي (القاهرة، 1967م)، 141.

(3) جذوة المقتبس، الحميدي، 97. المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي، 2/ 56. نفح الطيب، المقري، 4/ 48. بغية الملتمس، الضبي، 151 (رقم الترجمة: 331).

(4) 2/ 147 (طبعة شارل بلّا، بيروت، 1966م). تاريخ غزوات العرب، جوزيف رينو (ترجمة شكيب أرسلان، بيروت، 1966)، 34 - 35.

(5) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، سالم، 314.

(6) نفح الطيب، 1/ 385 - 386.

(7) الحلة السيراء، ابن الأبار، 1/ 200 - 201. كذلك نفح الطيب، 1/ 394 - 395.

الكتب في مختلف العلوم، ما لم يجتمع لأحد قبله. ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفي عن استيعاب العدد العظيم، من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ الحَكَم على مقربة من القصر صرحًا عظيمًا خاصًّا بالمكتبة، افتنَّ المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه»[1].

يَذْكُر ابنُ حَزْمٍ القُرطبي (456هـ = 1064م) في كتابه: «جمهرة أنساب العرب»[2]: « أنّ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كلّ فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلّا ذكر أسماء الدواوين فقط». جاء في كتاب نفح الطيب[3] للمقري بأنّ الحكم المستنصر: «جمع من الكتب ما لا يُحَدّ ولا يُوصَف كثرةً ونفاسةً، حتى قيل: «إنّها كانت أربع مئة ألف مجلد، وأنّهم لمّا نقلوها أقاموا ستّة أشهر في نقلها، وكان عالمًا نبيهًا صافي السريرة».

كانت للمظفّر بن الأَفْطَس صاحب بَطَلْيَوْس Badagoz، أيامَ الطوائف (460هـ = 1067م)، مكتبة فخمة احتوت على الكتب المنتقاة. كان هو نفسه: «كثيرَ الأدب، جَمَّ المعرفة، محبًّا لأهل العلم، جَمّاعة للكتب، ذا خزانة عظيمة»[4]. يَروي المَقَّري في: «نفحه»[5] بأنّ ابن الأفْطَس هذا: «ألّف في فنون الآداب كتابًا في نحو مئة مجلدة»، كما ذكر أنّه: «في نحو خمسين مجلدًا»[6]، رغم مسؤولياته.

---

(1) دولة الإسلام، عِنان، 2/ 505 - 506.

(2) 100 (تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1382هـ = 1962م). قارنوا: نفح الطيب، 1/ 385.

(3) 1/ 395. كذلك: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب (تحقيق محمد عبد الله عِنان، القاهرة، 1375هـ = 1595م)، 1/ 486.

(4) نفح الطيب، المقري (نقلًا عن ابن حيان القرطبي)، 3/ 380.

(5) 3/ 181، 194، 380.

(6) نفح الطيب، 1/ 442.

كان هذا الكتاب محتويًا على كثير من العلوم، أشبه بدائرة معارف، ويعرف بـ: «الكتاب المظفري» نسبةً إليه.

☜ عن وزير المَرِيَّة (أيام حكم الصقالبة الطوائف): الكاتب أبي جعفر أحمد ابن عباس (427هـ = 1035م) يقول المَقَّري في «نفح الطيب»[1] بأنّه: «كان حسن الكتابة، جميل الخط، مليح الخطاب، غزير الأدب، قويّ المعرفة، مشاركًا في الفقه، حاضر الجواب، جَمّاعًا للدفاتر، حتى بلغت أربع مئة ألف مجلد، وأمّا الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها».

☜ عن ابن فُطَيس الذي سبق ذكره يقول ابنُ بَشْكُوال[2] عن عبد الله بن حَيّان الأَرْوَشي نزيل بلنسية Valencia (487هـ = 1094م)، من أنّه: «كانت له همّة عالية في اقتناء الكتب وجمعها. جَمَع من ذلك شيئًا عظيمًا». يقدّم لنا ابن عَمِيرة الضَبِّي (599هـ) في كتابه: «بغية الملتمس»[3] زيادة في المعلومات عن الأَرْوَشي المتعلّقة بهذا الشأن. ينقل ذلك من كتاب تاريخ لابن عَلْقَمة الأديب الشاعر والمؤرخ البَلَنْسي (428 ـ 509هـ = 1037 ـ 1115م). على ذلك فإنّ ابن علقمة كان معاصرًا للأروشي وسَكَنا نفسَ المدينة (بلنسية)، يقول الضبي: «إنّ ابن ذي النون صاحب بلنسية أخذ كُتُبَ الأروشي من داره وسيقت إلى قصره، وذلك مئة عِدْل وثلاثة وأربعون عِدْلًا من أعدال الحمالين، يقدّر كلّ عدل منها بعشرة أرباع. وقيل إنّه كان قد أخفى منها

---

(1) 3/ 535. كذلك: الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 267. المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد، 2/ 206.

(2) الصلة، 288.

(3) 344. كذلك: الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية، شكيب أرسلان، (القاهرة، 1358هـ = 1939م)، 3/ 88.

نحو الثلث». يُرجَّح أنّ تاريخ ابن علقمة هذا هو كتابه القيم: «البيان الواضح في المُلِم الفادح». كتاب مفقود عُثِرَ على قطع منه[1].

أورد أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري المَرّاكُشي (703هـ = 1303م)، في كتابه: «الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة»، حين الحديث عن أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي (569هـ = 1173م) بأنّ أبا العباس هذا: «كان مُحَدِّثًا مُكْثِرًا ثقةً ضابطًا مقرئًا مجوّدًا حافظًا للفقه ذاكرًا لمسائله عارفًا بأصوله مُتَقدِّمًا في علم الكلام عاقدًا للشروط بصيرًا بعللها حاذقًا بالأحكام كاتبًا بليغًا شاعرًا محسنًا آنق أهل عصره خطًّا وأجملهم فيه منزعًا، وكتب من دواوين العلم ودفاتره مالا يُحصى كثرة وجودة وضبطًا»[2]. ذُكر عنه أيضًا أنّه كان: «مقتنعًا باليسير راضيًا بالدون من العيش مع الهمّة العالية والنفس الأبية، على هذا قطع عمره، وهذا كان دأبه إلى أن فارق الدنيا ولم تكن همّته معروفة إلَّا إلى العلم وأسبابه، فاقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطّه الرائق»[3]. كان هؤلاء العلماء بالرغم من حاجتهم للوقت في اكتساب العلم والعكوف عليه، تحصيلًا وتأليفًا وتدريسًا، يقومون باستنساخ كثير من الكتب لمؤلفين آخرين، بجانب كثرة مؤلفاتهم. كما يشير النصّ السابق، بل حتى في أسفارهم التي قد لا يكون طلب العلم هدفَها الأول. ثمّ إنّ كلّ ذلك كان يتمّ بجانب عمل يمارسه العالِم يعتاش منه، سواء كان عملًا حرًّا كالتجارة، أو وظيفة كالقضاء وغيره. كانت للقضاء شروط: الفقه والعلم من ضمنها. يبدو أنّ

---

(1) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار (نشر العطار، القاهرة، 1375هـ = 1955م)، 1/ 411 رقم 1165. دول الطوائف، محمد عبد الله عنان (القاهرة، 1389هـ = 1969م)، 251.

(2) الذيل والتكملة، 1/ 225 (تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، بدون تاريخ). كذلك: الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 189.

(3) الذيل والتكملة، 1/ 229.

اشتغال العلماء بالتحصيل العلمي والتأليف والتدريس، لم يكن هو مصدر عيشهم إلَّا ما قد يكون من جِرايات. حتى ليبدو من نِتَاجهم واهتمامهم كأنّهم متفرغون جزئيًّا أو كليًّا للعلم وخدمته على الدوام.

هذه الوضعية ترينا الهمّة العالية والسعي الحثيث وراء العلم وأسبابه، مما يؤكد المعنى الذي سبق ذكره: طلب العلم في المجتمع المسلم والاهتمام به يمثّل أحد ظواهر هذا المجتمع وحضارته، التي ميّزها الإسلام وجعل المجتمع الإسلامي يَعتبر هذه الأمور جزءًا من عقيدته، وأنّ حضارته وتاريخه مرتبطة بهذه العقيدة ومن ثمارها، ولا بد على هذا الأساس يجب دراستها. لذلك كنّا نجد هؤلاء العلماء عند كلّ موقف تتطلّبه مصلحة الإسلام والمسلمين، حتى ميادين القتال وسُوح الاستشهاد فقد كان بينهم وبينها إلْفة ونسب. كان منهم مَن يتصدّرها كما يتصدّر مجالس العلم، كلا الأمرين يصدران عن نبع واحد وينطلقان من روح واحدة.

نجد في تاريخنا تواتر الاهتمام بتدوين العلم وطلبه في السفر غير المكرّس للعلم، بل من أجل هدف آخر يتخذ فرصة ينتفع بها علميًّا. من ذلك ما يذكر صاحب كتاب: «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي[1]، حين يتحدث عن أبي العباس أحمد بن أحمد بن خلف الحَضْرَمي، من أهل إشبيلية المعروف بابن رَأْس غَنَمَة (643هـ = 1245م). يقول بأنّ أبا العباس: «رحل إلى المشرق في حدود الخمس والتسعين وخمس مئة، مرافقًا الشهيد أبا بكر بن أحمد الكناني... فأديا فريضة الحجّ ولقيا هنالك بقايا الشيوخ فأخذا عن طائفة منهم، وقفلا إلى الأندلس واستصحبا فوائد جمّة وغرائب كتب لا عهد لأهل الأندلس بها انتسخاها هنالك،

(1) 1/ 28 - 29.

وتوافقا على أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه رفيقه أو يقابله استعجالاً لتحصيل الفائدة».

العناية بالمكتبات: إدارة المكتبات كانت من المهام الكبيرة يُوَلّاها خيارُ الرجال علمًا وفضلًا، واعتُبِرت إحدى الخُطط (الإدارات) المهمّة. من ذلك ما يذكره ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة»[1] حين الحديث عن أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري، فيروي بأنّ الخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي الكُومي (ولادته: 490هـ – ولايته: 524هـ - 558هـ = 1096 - 1129 – 1163م)[2]. «ولّاه قضاء غَرناطة ثمّ صرفه عنها إلى قضاء إشبيلية صحبة ابنه وليّ عهده أبي يعقوب، ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب ألزمه خُطّة الخزانة العلمية وكانت عندهم من الخُطط الجليلة التي لا يُعيَّن لتولّيها إلّا عِلْيَة أهل العلم وأكابرهم»[3]. سَبَقَ أن عَرَفْنا شيئًا عما كان يتمتّع به هذا الصقر الأنصاري في الفضل والعلم. كان غزير العلم إذا جلس للتأليف: «تفجّرت منه بحور علم لا يكدّرها الدِّلاء. وله تصانيف مفيدة تدلّ على إدراكه وجودة تحصيله وإشرافه على فنون من المعارف»[4]. له تصانيف جيّدة منها: «أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار»، أتمّه ابنُه[5]، كما كان شاعرًا مُجيدًا عالي الرتبة فيه[6]. لمّا كانت المساجد بمثابة دور للعلم، فمن الطبيعي أن تكون فيها المكتبات يستعملها الطلبة في دراساتهم[7]، باعتبارها مكتبات عامة.

---

(1) 1/ 228. كذلك: الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 190.
(2) التاريخ الأندلسي*، 491، 493، 501.
(3) الخزانة هي: المكتبة. الآن نجد هذا المصطلح مستعملًا في المغرب بنفس المعنى.
(4) الذيل والتكملة، 1/ 230.
(5) الذيل والتكملة، 1/ 227. الإحاطة، 1/ 192.
(6) الذيل والتكملة، 1/ 230.
(7) مجلة معهد المخطوطات العربية، ربيرا، 5/ 1/ 77.

المكتباتُ البيتية: ازدانت بيوتُ الأندلسيين بالكُتُب، اشتهرت كثيرٌ من المكتبات الخاصة للنساء والرجال، علماء ومتعلّمين، حتى إنّه كان لبعضهم جماعة خاصة من الورّاقِين وغيرهمُ يقومون باستنساخ الكتب. على هذا من البديهي أن تُزَيّن دارُ كُلِّ عالمٍ - مهما كان ميدانُه - بمكتبة فخمة تُعْتَبَر أثمنَ ما في بيته، ينفع بها نفسَه وأهل بيته والآخرين. بل إنّ الكثير منهم تميّز وعُرف باقتنائه لمكتبة كبيرة مُتَخَيَّرَة. هذا الأمر يَرِدُ لدى العديد من مصادرنا التي تتحدّث عن العلم والعلماء. ابن بَشْكُوال يذكر في كتاب: «الصلة»[1] عن أحمد بن محمد بن عبد الله بن قُزْمَان (429هـ = 1037م) بأنّه: «جَمَعَ كتبًا حسانًا كثيرةَ النفع على مذاهب أهل السنّة، ظهر فيها علمُه، واستبان فيها فهمُه». كما يُذْكَر[2] مثل ذلك عن هشام ابن عبد الرحمن بن عبدالله المعروف بابن الصابوني (423هـ = 1031م)، يصفه بأنّه كان: «دَؤوبًا على النَّسْخ، جَمّاعةً للكتب جيدَ الخط».

يَذْكُرُ المَقّري في: «نفحه»[3] عن ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن عبدالرحمن بن الحكيم (708هـ = 1308م)، الذي تولّى الوزارة لسلطان غرناطة محمد الثالث (المخلوع)، بأنّه: «كانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب، وصبابة باقتناء الكتب، جَمَعَ من أمهاتها العتيقة، وأصولها الرائقة الأنيقة، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أَحَدٌ سواه، ولا ظَفَرَتْ به يداه». كان ذو الوزارتين كاتبًا بليغًا وشاعرًا اشتهر بالأندلس ذكره وقد: «أحيا معالمَ الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تُشغله السياسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع، وأفرط في اقتناء

---

(1) 45.

(2) الصلة، 650.

(3) 5/ 499.

الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها»[1]. هذا الذي ذُكِرَ من اقتناء العلماء للكتب يرد الحديث عنه لدى العديد، من أمثال ابن بَشْكُوال وغيره في آخرين كثير. لدينا ثَبْتٌ طويل جدًّا من العلماء الذين كانت لهم عناية باقتناء الكتب وهم أنفسهم قد أَثْرَوْا «المكتبة الإسلامية» بمؤلفاتهم الضخام التي رفعتهم إلى مصافِّ العلماء الأعلام.

بينما كان كلّ ذلك وأمثاله يجري في الأندلس: « كانت أوربا النصرانية لا تعرف من العلوم إلّا مبادئ بسيطة مقصورة بالأكثر على رجال الدين»[2]. حتى إنّ ملك فرنسا شارل الخامس المعروف بالحكيم (782هـ = 1380م): «لم يستطع أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسع مئة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصًّا بعلم اللاهوت»[3]. يظهر من ذلك أنّ المكتبات الخاصة كانت منتشرة جدًّا، وهي تفوق جدًّا عدد المكتبات العامة. بل إنّ من هذه المكتبات الخاصة لكثرة محتوياتها من الكتب وفرط العناية بها كانت لها مبانٍ خاصة بترتيب معيّن. تُذْكَرُ من هذه المكتبات الخاصة مكتبة القاضي ابن فُطَيْس الذي شيّد مبنىً خاصًّا لها و: «وضع تصميمه بحيث يَسْمَح برؤية جميع خزائن الكتب من مكان معيّن، وطَلَى مدخلَ المكتبة وسقفَها وجدرانَها وشرفتَها والوسائد الوثيرة والأبسطة باللون الأخضر»[4]. وفي ذلك يقول أبو الحسن النُّباهي في كتابه: «المَرْقَبَة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفُتْيَا»[5] حين يترجم لابن فُطَيْس بأنّه: «كان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، ملبّس كلّه بالخضرة: جدرانه وأبوابه، وسقفه وفرشه وستوره ونمارقه.

---

(1) نفح، 5/ 504.

(2) تأريخ العرب، فيليب حتي، 2/ 633.

(3) حضارة العرب، غوستاف لوبون، 434.

(4) مجلّة معهد المخطوطات العربية، ربيرا، 4/ 1/ 90.

(5) 88 (تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948). كذلك: الصلة لابن بشكوال، 312.

وكلّ ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها، وبهذا المجلس كان أُنسه وخَلْوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ». عيّن لهذه المكتبة أمينًا أو حافظًا هو من أفاضل الأدباء، وجعل لها فهارس منظّمة، وعمل فيها مجموعة من النساخين كان: «له ستّة وَرّاقين ينسخون له دائمًا، وكان قد رتّب لهم على ذلك راتبًا معلومًا. وكان متى علم بكتاب حسن عند أحدٌ من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه. فإن قدر على ابتياعه وإلّا انتسخه منه وردّه عليه»[1]. كان لا يسمح بسهولة بإعارة كتبه لأحد خارجها، و: «إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير فإن صرفه وإلا تركه عنده»[2].

هكذا نلاحظ بوضوح - مما مرّ بنا - أنّ أمناء المكتبات والمشرفين عليها كانوا عادة من أهل التصانيف ومن العلماء الأجلّاء، الذين لهم في العلم والفضل مكانة وإسهام. بل لَيَبْدو أنّه من المألوف أن يكون الورّاقون (النسّاخون) على درجة عالية من المعرفة والعناية بالعلم. هذا محمد بن عيسى بن محمد الحضرمي الوراق كان أحد النساخين عند أبي المطرّف بن فُطَيْس، قاضي الجماعة بقرطبة، المذكور آنفًا. لقد كانت للحضرمي: «عناية كثيرة بسماع العلم وتقييده وروايته وكان رجلًا صالحًا ثقة، وكان حسن الخط، جيّد الضبط. وكان ينسخ للقاضي الراوية أبي المطرّف بن فُطَيْس كتبه، ويقيّد مقاله»[3]. كان هذا الحضرمي الوَرَّاق إمامُ مسجد بني فُطَيْس في قرطبة وسكناه بدربهم. كان القاضي ابن فُطَيْس يتلقّى عنه:

---

(1) الصلة، 310.

(2) الصلة، 311. مجلة معهد المخطوطات العربية، ربيرا، 4/ 1/ 90.

(3) الصلة، ابن بشكوال، 481. للعلم من المهم أن يُشار أن قاضي الجماعة بقرطبة ابن فُطَيْس من أسرة نصرانية أسلمت، ظهر منها أعلام من النساء والرجال على ما يبدو. حيث إن أكثر أهل البلاد لا سيما النصارى اعتنقوا الإسلام، موضوع مهم قمت بدراسته، ممكن التوسع فيه.

«ويحدّث عنه ابن فُطَيْس في كتبه فيقول: حدّثنا الحضرمي، يعني إمامه هذا»[1].

هذا دليل التواضع في طلب العلم مع الصراحة. ظاهرة أخرى نجدها في المجتمع المسلم: لا يأنف أحد من أخذ العلم ممّن هو أدنى منصبًا أو مكانة علمية منه ما دام عنده بأمرٍ ما معرفة ودراية. لم يُحْرَم من حيازة الكتب وامتلاك المكتبات حتى أصحاب الدخل المحدود ولا أصحاب الأعمال المتواضعة. هذا معلم مدرسة قليل المورد: «هو محمد بن حزم كان يعيش على ما يكسبه في تدريس الأطفال. كان يساعده ابنُه في تعليم الصبيان وابنتُه في تعليم البنات. خصّص بعضَ ما يستطيع ادّخاره لشراء الكتب. كانت له مكتبة منظمة فيها كتب قيمة يُغْبَطُ عليها»[2].

نَشْرُ الكتاب ودوافعه : كان تقديمُ العون للحصول على الكتب لطلبة العلم سنّةً متبعة وعرفًا محمودًا، رغم الاحتياج إليها. المجتمع الكريم لا يبخل بالخير، بل يسعى إليه ويحتسبه. هذا أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموي المعروف: ابن الرومية (إشبيلية، 637هـ)، من أولئك النصارى الذين اعتنق أجداده الإسلام. كان ممّن تحلّى بهذه الصفة المحبة للخير، كان إمامًا في الحديث ومتقدّمًا في علم النبات. له في كلّ منهما تصانيف جيّدة، كان: «كثير الكتب، جَمّاعًا لها في كلّ فنّ من فنون العلم، سمحًا لطلبة العلم، ربما وهب منها لمُلْتَمِسه الأصل النفيس، الذي يعزّ وجوده؛ احتسابًا وإعانة على التعليم، له في ذلك أخبار منبئة عن فضله وكرم صنعه. وكان كثير الشغف بالعلم، والدؤوب على تقييده ومداومته، سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته، وحاجات الناس إليه؛ إذ كان حسن العلاج

---

(1) نفسه.

(2) ريبرا، نفسه.

في طبّه المورود الموضوع؛ لثقته ودينه»[1]. كانت فكرة الاحتساب (أي جعل العمل لوجه الله تعالى) في التأليف، كما في التدريس، واضحة بيّنة دوامًا، دفعت المسلمين أيضًا إلى التفوّق والعمق والإنتاج الغزير الوفير مع البذل لهذا الشأن جهدًا وإنفاقًا ورِحْلَةً.

من لطائف ما يُروى في ذلك، ما فعله أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد بن الحَذَّاء القرطبي، ربما تكون صحتها: ابن الحَذَّاء: حادي الإبل (416هـ) في سَرَقُسْطَة والمدفون فيها: «بباب القبلة على مقربة من قبر حَنَش بن عبد الله الصنعاني رحمهما الله»[2]. «كان أبو عبد الله بن الحَذَّاء أحدَ رجال الأندلس فقهًا وعلمًا ونَباهة، متفننًا في العلوم يقظًا، ممن عُني بالآثار وأتقن حَمْلَها، وميّز طرقَها وعللَها»[3]. له عدّة مؤلفات، كان قبل وفاته: «عَهِدَ أن يدفن بين أكفانه كتابه المعروف بـ (الإنباه على أسماء الله) فنُثِرَ ورقُه وجُعِلَ بين القميص والأكفان، نفعه الله بذلك»[4].

<u>وَقْفُ الكتب</u>: كان عدد من أصحاب المكتبات يُحبِّس (يُوقِفُ) مكتبته بعد وفاته، كما فعل قاسم بن سعدان (347هـ = 958م) حيث أوقف مكتبته عند الوفاة على الطلبة. يذكر عنه ابن الفَرَضِي في كتابه: «<u>تاريخ علماء الأندلس</u>»، أنّه: «كان ضابطًا لكتبه متقنًا لروايته حسن الخطّ جيّد الضبط، عالمًا بالحديث بصيرًا بالنحو والغريب والشعر، ولا أعلم بالأندلس أحدًا عَنَى عِنايَتَه، ولم يزل في نَسْخٍ

---

(1) الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 215 - 216. يقال في ابن الرومية ما قيل في القاضي ابن فُطَيْس، وأمثالهما كثير جدًّا.

(2) الصلة، ابن بشكوال، 507.

(3) نفسه، 506.

(4) الوافي بالوفيات، الصفدي (باعتناء س. ديدرينغ، بيروت، 1389هـ = 1970م)، 5/ 196. الصلة، 507.

ومقابلة إلى أن مات ولم يحدّث، وحَبَّس كتبه، كانت مُوقَفَة عند محمد بن محمد ابن أبي دَلِيم»[1].

المرأةُ الأندلسية وعنايتُها بالكتب: بينما - حتى في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) - اعتبر ريكاردو دي بيري، جامعُ الكتب الإنجليزي، المرأةَ حيوانًا بغيضًا يكره العلم، نجد قبل هذا التاريخ ببضعة قرون كانت المرأة الأندلسية متعلّمة وعالمة ومعلّمة، تعتني هي أيضًا - كأخيها الرجل - بجَمْعِ الكتب ونَسْخِها[2]. بل قَبْلَ هذا التاريخ بسبعة قرون، يوم جاء الإسلام وَضَعَها في مكانتها اللائقة وحقّق لها إنسانيتَها، في أفق كريم، بشكل عملي مارسته بصورة لم تكن لتصلها بالمطالبة والمقاومة والصراع قرونًا طويلة، وحتى الوقت الحاضر ولا في المستقبل، بدون الإسلام الذي أنزله الله تعالى هبةً للإنسان ونعمة تفضّل بها عدلًا ونعمةً ومِنّةً. كانت لُبنى (374هـ)، كاتبة الخليفة الحَكَم المستنصر(366هـ = 976م) المشهورة، تعتني وتهتمّ بجمع الكتب، وهي أديبة. فـ: «كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عَروضية، خطاطة جدًّا»[3]. وعائشة القرطبية بنت أحمد بن محمد بن قادم (400هـ). قال ابن حَيّان القُرطبي في «المُقْتَبِس» بأنّه: «لم يكن من حرائر الأندلس في زمانها من يَعْدِلها فهمًا وعلمًا وأدبًا وشعرًا وفصاحة وعِفّة وجزالة وحصافة... وكانت حسنة الخطّ تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعتني بالعلم، ولها خِزَانةُ علم

(1) 1/ 299، رقم: 1070 (مدريد، 1890).
(2) راجعوا: مجلة معهد المخطوطات العربية، 4/ 1/ 92 - 93.
(3) الصلة، 692 (رقم: 1529).

كبيرة حسنة، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة»[1]. كذلك سميّتها التي أسّست في قرطبة مكتبة من أشهر المكتبات الخاصة في وقتها[2].

سَرَتْ هذه العادة ومارَسَها المُسْتَعْرَبُون في الأندلس (غير المسلمين) من اليهود والنصارى في المجتمع الأندلسي، كانت كثرة منهم تجيد اللغة العربية وتتذوّق إنتاجها. وفي وثيقة (عُرِفَتْ باسم Indiculus Luminosus، أي: الدليل المنير) كتبها أحد قسس النصارى البارو القرطبي سنة 240هـ (854م)، يصف فيها هذا الأمر من أنّ هؤلاء النصارى الذين تعلموا العربية واستعملوها في حياتهم اليومية وكادوا أن ينسوا لغتهم الأم اللاتينية، كانوا «يبذلون أموالًا طائلة في تأسيس مكتبات عظيمة»[3].

كان وزير غرناطة Granada اليهودي إسماعيل بن النِغْرِيلَة الإسرائيلي «جمّاعة للكتب»[4]. كما كان هذا وزير باديس بن حَبُّوس الصِّنْهاجِي (465هـ = 1073م) صاحب غَرناطة أيام الطوائف. خَلَّف إسماعيلُ هذا ابنَه يوسف في الوزارة. فكانت له مكتبة جليلة تُعَدّ من كبرى المكتبات الخاصة في وقته[5]. يُعْتَبَر استعمالُ يوسف في الوزارة وأبيه من قبله، وأمثال ذلك، من الأخطاء الكبيرة التي كانت لها نتائج سيّئة[6].

---

(1) نقلًا عن: الصلة، 692 (رقم 1531). كذلك: نفح الطيب، المَقّري، 4/ 290. دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 506.

(2) مجلّة معهد المخطوطات العربية، ربيرا، 4/ 1/ 93.

(3) المصدر السابق، 5/ 1/ 69.

(4) الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 447.

(5) الإحاطة، 1/ 447. دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 507. دول الطوائف، عنان، 137. مجلة معهد المخطوطات العربية، ربيرا، 5/ 1/ 70.

(6) الإحاطة، 1/ 445 – 448. التبيان (مذكرات الأمير عبد الله، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955)، 30 – 55. دول الطوائف، عنان، 127 – 137.

الاهتمام بالكتاب - ناقلِ المعرفة ووعاؤه - متأصّلٌ في نفوس المسلمين، وهو ثمرة طبيعية وأصيلة حيث يكون الإسلام. لذلك فإنّ مسلمي الأندلس بعد سقوط غَرناطة، رغم المقاومة الشديدة الوحشية والمبيدة التي لا تبقي النفوس فضلًا عن الكتاب، نجدهم يحتفظون إلى حدّ مُكْنَتهم بهذا الاهتمام.

العناية بالخط: إنّ هذا الاهتمام بالكتب – دون شكّ وتردد - ساعد على ظهور فنون الخط والتجليد وتجويدها. وإنّ الخطّ الأندلسي (وفي عموم الغرب الإسلامي) يختلف عنه في الشرق الإسلامي، ويضطلع بهذه المهمّة أولئك الذين يهتمّون بهذا الفنّ. تفنّن الأندلسيون في الخطّ وتأنّقوا بتجويده، وليس ذلك بالنسبة للورّاقين والوراقات فحسب- لأنّه مهنتهم - بل بالنسبة للآخرين. وفيما سبق وروده عن العلماء أعلاه تكرّرت الإشارة إلى كثير منهم بأنّه كان: «حسن الخطّ». ذلك يشير إلى أنّه كانت لهم به عناية.

أُحْصِيَ في أحد أرياض (أحياء) قرطبة البالغة واحدًا وعشرين رَبَضًا وُجِدَ أنّه: «كان بالربض الشرقي من قُرطبة مئة وسبعون امرأة كلّهنّ يكتبن المصاحف بالخطّ الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها؟»[1]، مع ملاحظة صعوبة الخط الكوفي ودقّته.

ضخامة التأليف: إنّ هذه الحصيلة الضخمة المتمثّلة في الأعداد الكبيرة من الكتب، وما وصلنا غير قليل، تَوّجَها العلم الواسع ذو المستوى الرفيع في الأندلس. ليست نِتاجًا سهلًا أو يسيرًا بل هو عصارة العقول الكبيرة والنفوس الكريمة التي علّمها الإسلام كيف تحبّ العلم وتخدمه، تجويدًا وعطاءً وحفظًا وحرصًا خلال

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي (تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963)، 456 – 457.

أجيال عديدة. ما كان بالإمكان مثله لولا ارتقاء مستوى العلم والاهتمام به على ضوء الإسلام وهديه. استجابة لإسلامهم وانسجامًا مع عقيدتهم وفهمهم الكريم؛ إذ أن كل ذلك بدوره جزء منها. التأليف الجادّ ذو الأصالة عملية اعتصار تكون شاقّة، على الأقلّ في أحيانها الكثيرة. النِّتاج الكثير ظاهرة تستحقّ الاهتمام وتستأهل التقدير، تدلّ على الأصالة والعمق والغزارة، لدينا مع ذلك بعض إشارات بديعة لها دلالتها الخاصة.

يُرْوَى أنّ الوزير الغرناطي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السَّلْماني لسان الدين ابن الخطيب (لَوْشَة Loja: بنت غَرناطة) على بعد خمسة وخمسين كيلو مترًا إلى الغرب من غرناطة، رجب 713 – ربيع الأول النبوي أو الثاني 776هـ = 1313 ـ 1374م)، ألّف كتابه: «أعمال الأعلام»، من ثلاثة أجزاء، كلّه أو بعضه، في أربعين يومًا[1]. إن صحت مدة الكتابة لا يدخل فيها جمع المادّة العلمية. القسم الأندلسي منه مطبوع في أكثر من ثلاث مئة صفحة، يعتبر من المراجع المهمّة في التاريخ الأندلسي[2].

العلامة ابن خَلدون (تونس، رمضان 732هـ ـ القاهرة، رمضان 808هـ = 1332 – 1406م) معاصر ابن الخطيب وصديقه، كتب مقدّمته (الذائعة الصيت، باللغة العربية واللغات الأخرى، التي نقلت إليها سواء)، التي تعتبر سببًا كبيرًا في مكانته وشهرته العلمية، في خمسة شهور. تقع في حوالي ألف صفحة من القطع الكبير المألوف (17 × 24 سم). يقول ابن خَلدون في نهاية المقدّمة: «أتممت هذا

---

(1) مقدّمة محقّق الكتاب (القسم الأندلسي)، ليفي بروفنسال.

(2) طبع منه القسم الخاصّ بالشمال الإفريقي تحت اسم: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، نُشِرَ في الدار البيضاء (المغرب)، 1964م، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكَتَّاني. أمّا القسم الأول الخاص بتاريخ الشرق الإسلامي ما يزال مخطوطًا.

الجزء الأول [المقدّمة] بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدّة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مئة. ثمّ نقّحته بعد ذلك وهذّبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوّله وشرطته: وما العلم إلّا من عند الله العزيز الحكيم»[1].

هلّا يستحقّ منا هذا السلف الكريم التقدير والاحترام، الممزوج بالإعجاب الداعي إلى الاقتداء، في هذه الضخامة والوفرة والثراء والإنتاج، مع الدقّة والعمق والأصالة طابَعًا غَلّابًا. لعلّه أيضًا محفزًا لنا إلى دراسته ونشره والانتفاع به بكلّ وجه. إنّ ما ذُكِرَ لم يكن من باب الحصر بل فقط على سبيل الاستشهاد والتمثيل للتدليل:

ولـو أبـصـروا لـيلـى أقـرّوا بحسنها　　　وقـالـوا بـأنـي في الـثـنـاء مُقَصِّرُ[2]

★★★

مصير هذا النِّتاج: لكن أين ذهب كلّ هذا التراث الضخم؟ انتهى أكثره تلفًا وتدميرًا وحرقًا، لكن رغم ذلك، القليل المتبقّي كثير وفير. نحن نعرف أسماء كتب كثيرة لا نعلم لها وجودًا وبعضًا آخر قليل جدًّا. بقيت لنا منه الترجمة الأوربية وذهب الأصل العربي[3].

قامت في الأندلس وعدد من الدول الأوربية - خلال عدّة قرون - حركة نشطة لترجمة الكتب العربية في العلوم المختلفة إلى اللاتينية أو غيرها. مركز الترجمة

(1) مقدّمة ابن خلدون (تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1388هـ = 1968م)، 1/ 227، 4/ 1475.
(2) نفح الطيب، المقري، 3/ 153.
(3) راجعوا: فجر الأندلس، حسين مؤنس (القاهرة، 1959)، 561. له أيضا: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلدان 7 - 8، 1959 - 1960م)، 253-257. له: السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، مجلة الجمعية التاريخية المصرية (القاهرة، 1950)، 3/ 1/ 65. دول الطوائف، عنان، 252.

في طُلَيْطُلَةِ Toledo استمرّ حوالي قرنين من الزمان يقوم بهذه المهمّة، حتى إنّ بعض الكتب بقيت تدَرَّس في بعض الجامعات الأوربية لخمسة قرون أو أكثر[1]. كما انتقلت المخطوطات العربية الكثيرة إلى مختلف المكتبات الأوربية، التي لديهم الكثير منها حتى اليوم. كم من كتاب نسخته الوحيد موجودة لديهم!

يبدو أنّ بداية انتقال المخطوطات العربية إلى أوربا كان مبكرًا، منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري. تضمّ مكتبات إسبانيا والبرتغال اليوم على رفوفها الآلاف الكثيرة، وبعضها غير مفهرس ولا معروف. كما تمتلك متاحفها كثيرًا من التحف والآثار الأندلسية، التي ما زالت تقوم على أرضها حيّة نابضة ناطقة بمجد، يندب حظّ أهله في نفسه أو حظّ نفسه في أهله.

مكتبة الإسكوريال El Escorial في إسبانيا (شمال غرب مدريد نحو خمسين كيلو مترًا) أُولى هذه المكتبات ومن أضخمها. تضمّ الآن قسمًا من كتب المكتبات العامة والخاصة في الأندلس، التي نجا من الإهلاك على يد التعصّب الأعمى. ذلك أنّه بعد أعوام قليلة من سقوط غرناطة سنة 897هـ (1492م)، آخر الحواضر الإسلامية العتيدة في الأندلس، بدأ الحكام المتنمرون من الإسبان النصارى بتنفيذ الخطّة المبيّتة لتنصير المسلمين والقضاء على كلّ مقوّماتهم. اتَّبَعَت لكلّ منهم الأسلوب الذي يُرى أنّه أكثر فعالية، دون النظر إلى بشاعة الطريق وفقدانها لأيّة صفة إنسانية. الوسيلة التي اتُّبِعت في الكتب الحُكْمُ الذي أصدره رئيس الكنيسة الإسبانية المطران خِمينِس دي ثسنيروس Ximenes de Cisneros سنة 904هـ (1499م). جَمَعَ كُلَّ ما يمكن من الكتب في رحبة باب الرملة Bibrambla أكبر ميدان في غَرناطة واحتفل بإحراقها في حفل من أعمال الإيمان Auto-da-fe[2].

(1) حضارة العرب، غوستاف لوبون، 569.

(2) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، عنان (القاهرة، 1381هـ = 1961م)، 430.

تفاوت عدد المخطوطات التي أُحْرِقَتْ في هذه العملية من خمسة آلاف إلى ما يزيد على المليون مخطوط. لكن ربما يؤخذ على أنّها ما كانت تقلّ عن مئة ألف أو مئاتها مخطوط[1]. يُتَوقّع أنّ عددًا آخر أُعدم حرقًا أو تدميرًا في مختلف الظروف الأخرى، سبقت ذلك أو لحقته لاستمرار الحال. ثمّ إنّ بقية يسيرة جدًّا من الكتب حُملت فيما بعد إلى مكتبة قصر الإسكوريال الذي أسّسه الملك فيليب الثاني Felipe II في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). يقع على بعد خمسين كيلو مترًا شمال غرب مدريد. بعد حوالي نصف قرن من ذلك، في أيام الملك فيليب الثالث Felipe III، استولت السفن الإسبانية في المياه المغربية على سفينة كانت تحمل مكتبة مولاي زيدان سلطان مراكش. كانت تحتوي حوالي ثلاثة آلاف مخطوط أو أكثر[2]. وصلت مجموعة المخطوطات العربية في مكتبة الأسكوريال بضعة آلاف. في سنة 1082هـ (1671م) شبّ حريق في القصر أكل أكثر هذه المخطوطات ولم يترك إلّا حوالي ألفين منها، هي التي تحتويها المكتبة العامة في ذلك القصر الآن. كانت أبواب هذه المكتبة موصدة أمام القرّاء والباحثين، لعلّه خشية: «أن تتسرّب روح التفكير الإسلامي إلى تفكير إسبانيا النصرانية»[3]. لكن أبيح استعمالها للباحثين فيما بعد.

هنالك مخطوطات أخرى كثيرة في مختلف العلوم والفنون، ليس فقط في إسبانيا وأوربا بل كذلك في الشمال الإفريقي وغيره. ثروة ضخمة بحاجة إلى جهود إحياء بنشرها ودراستها والتعريف بها. ذلك واجب المسلمين، دولًا وشعوبًا

---

(1) نهاية الأندلس، عنان، 316. الآثار الأندلسية، 430. قارنوا: حضارة العرب، غوستاف لوبون، 274.

(2) نهاية الأندلس، 392. كذلك: رحلة الأندلس، حسين مؤنس (القاهرة، 1963م)، 331 – 334. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد 9 – 10/ 460 – 462.

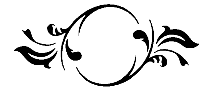
(3) نهاية الأندلس، عنان، 504 – 505.

ومؤسسات علمية في كلّ مكان. بإمكان الباحثين والأساتذة الإسهام في ذلك، كلّ في تخصّصه.

★★★

رأينا في العرض السالف بعض جوانب التراث وحصيلة من الفكر الإسلامي في بقعة من بقاع الإسلام قامت على العقيدة، أحيت نفوسًا وأزهرت أرضًا وأقامت مجدًا وأنشأت حضارة سامقة رائدة يوم كان كلّ ما حولها بائدًا، غير بلاد الإسلام. خلّفت لنا تراثًا ضخمًا وصلنا منه نتف، وَعَيْنا بعضها واهتممنا بأقلّه مما نحن بحاجة إلى إحيائه والانتفاع به. ليكن سببًا في إحياء النبع الإسلامي في نفوسنا، نؤدّي دورنا ونقوم بالمسؤولية كما قام بها أولئك الأبطال ومن سبقهم في الموكب الميمون لهذه الأمّة المباركة، وكثير ما هم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام،90) ***

نُشِرَ هذا البحث: «الكتب والمكتبات في الأندلس» في: «مجلة كلية الدراسات الإسلامية»، بغداد – العدد الرابع، 1392هـ = 1972م. كان في الأصل محاضرة أُلْقِيَتْ في قاعة المحاضرات بجامعة الرياض بالسعودية بتاريخ 28 شوال 1389هـ = 1969م.



الأندلس رمضانه واحتضانه[1] هذه التي تبقى مَنْ حُرِمَ الأجرَ في رمضان فاته الكثير

ينتصب رمضان في التاريخ الإسلامي - متربعًا مترفعًا متجمعًا - بقامته المديدة وصفحاته المجيدة وأيامه الرشيدة، فخورًا عملاقًا، بل مشتاقًا لأيامه الخالدات في تاريخه كلّه، بها يتبختر ويتنوّر ويتمايل، دلالًا واعتدالًا.

رمضان بين الأقران: كلّ الشهور فخورة مثله، لكنّه يتميّز عنها لأكثر من سبب. مثلما هو أفضلها، وصيامه كبير الثواب، العمل فيه أفضل ومضاعف الأجر: «كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصيام فإنّه لي وأنا أجزي به» (حديث قدسي، رواه أحمد ومسلم والنسائي). فيه ليلة القدر من أعظم الليالي. كلّ الأشهر فيها أمجاد ومفاخر (رمضانية)، لكنّه يزيد عليها أنّه شهر الصيام الذي فرضه الله تعالى على المسلمين، يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية للهجرة، قبل غزوة بدر بشهر ونصف، فيه يكون الانصراف للعبادات المتنوّعة بميادينها الكثيرة.

---

(1) نُشِرَ هذا البحث: «الأندلس رمضانُه واحتضانُه»، في مجلة (الجذور) التي كانت تصدر في الأُردن، العدد الثامن عشر، شوال 1412هـ = / 4/ 1992م، تمَّتْ مراجعتُه ليكون ضمن البحوث المضافة في كتاب: «أندلسيات». تتلو هذا البحث ستةُ موضوعاتٍ إخوةٌ أمثالُه، تتحدث عن رمضان المبارك في الأندلس، كُتِبَتْ في أوقات متفاوتة لذات المناسبة السنوية الرمضانية، نُشِرَتْ وقُدِّمت في مجلات عدة مهتمة، بتكليف تمت الاستجابة له دون تردد، تتناول في مجموعها نفس الموضوعات الرمضانية الأندلسية، تجدون في كل منها مما يحتقب من الجديد خلال التنقيب عن المعاني والأخبار والأحداث بإضافات جديدة، كما إنها جاءت لا تخلو من تشابه وإن احتوت على جِدَّة لا يخلو أَحَدُها من ذلك. هذا التنوع في عرض الموضوع يفسح المجال للتعرض على أساليب من العرض متنوعة، حتى في التعبير عن معانٍ مستجدة متجددة، زادًا لمن يريد أن يرى مثل ذلك التناول من العرض لنفس الموضوع بأساليب وأشكال وأفكار، بتعابير متمايزة متناوبة متنافسة، متنوعة متعاونة متلاحمة لتقديم هذا الموضوع لإغنائه بالمعاني.

شهر رمضان المبارك كالصحابة بين الأمّة، لهم شرف الصحبة، ورمضان ذهب بنصيب كبير، صدّاحًا ميّاحًا فيّاحًا. فيه أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القرآن الكريم: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة، 185). فيه ليلة القدر في العشر الأواخر منه، هي خير من ألف شهر: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر، 3).

موسم ذلك كلّه؛ لأنّ العمل الخالص لله تعالى أجره مضاعف فيه، تميّزه عن الشهور الأخرى يأتي من هذا الباب. مبارك مضاعف ميسور، وإلّا فالأيام كلّها أيام لله تعالى وأشهرُه، العمل في كلّها مقبول ومأجور إلّا أنّه هناك أزمنة وأمكنة - من كلّ لون - تتربّع مكانةً خاصة متميزة، العمل فيها مضاعف الأجر والمثوبة. لعلّ لهذا جعل الله تعالى أحداثًا مهمّة تقع فيه، تأكيدًا لمكانته وبركته والأجر فيه وإظهارًا لتميّزه وإعلاءً لأمره لتكون محثًّا إلى الخيرات والحسنات. رمضان موسم مَنْ حُرِمَ الأجر فيه، فاته الكثير.

بجانب أنّه وقت للتفرّغ والتركيز على كُلٍّ هذا، موسم لها وانقطاع عن ملذات ومتع وغذاء، يقوم فيها يقدّمها المسلم. كلّ هذه الأفعال عبادة، خلالها يقوم بأداء العبادات المعتادة يجعل هذا وغيره أجوره أكثر. من هنا يتسابق المسلمون لأدائها ويقدّم أحدهم غاية ما يستطيع، إنّه قياس لإعلاء طاقة المسلم، حتى يحيا بها في الحياة في بقية أيام السنة وأعوامها على منوالها. هذا ما نلمحه في العبادات الأخرى كالحجّ مثلًا، كي ترتقي وتتقدّم، بالنية والعمل والممارسة؛ ليصبح ذلك عنده صفة وخلقًا وقمّة يرتقيها بسهولة ومقدرة وحزم، لا ينزل عنها. لو نزل يعود قبل رمضان أو في رمضان. هذه واحدة من وسائل الإسلام في التربية، عملية تمارس لا معلومات تتدارس.

هَدْيُه ﷺ وسنّته في رمضان: الرسول الكريم ﷺ، قدوتنا وإمامنا وهادينا، مثلما في الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته صَبَرَ واحتمل وأكل من الجوع أوراق الشجر وشدّ على بطنه - أكثر وقبلَ غيرِه - الحجر، في الصلاة تورّمت قدماه من القيام، كذلك في الصيام كان هديه وسنّته ﷺ - هو قدوتنا المهتداة - الإكثار من العبادة بأنواعها، كان ﷺ: «يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفّاه الله عَزَّوَجَلَّ ثمّ اعتكف أزواجه من بعده» (رواه البخاري ومسلم)، حيث كان يعتكف (ينصرف للعبادة) فيها في المسجد، لا يدخل البيت إلّا لحاجة، رَوَتْ أُمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «وإنْ كان رسول الله ﷺ لَيُدْخِلُ عليّ رأسَه وهو في المسجد فأُرَجّله، وكان لا يدخل البيت إلّا لحاجة إذا كان معتكفًا» (أخرجه البخاري). كما رَوَتْ أم المؤمنين عائشة: «كان النبيّ ﷺ إذا دخل العشر شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله» (أخرجه البخاري ومسلم). اقتدى به الصحابة والتابعون ومَنْ بعدَهم من الرجال والنساء والأطفال.

كان ﷺ دومًا كريمًا وجوادًا: «وكان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، وهو أجود بالخير من الريح المرسلة».

تبرز لدى المسلم هذه الصفات التي هي طاقات عنده ويمارسها دائمًا، لكنّه يركّزها مشهودة، يراها الناس فيه، تكون هذه طاقة عندهم واستعدادًا لديهم، تأتي الفتوحات النفسية تنطلق نحو كلّ أنواع الفتوحات الأخرى، فيعرف الاحتمالات والاحتمال.

<u>رمضانيات السيرة الشريفة</u>: في الحرب - خلال رمضان المبارك - كان ﷺ يقوم بالفتح بقوّة أبية متمكّنة، كما جرى في غزوة بدر (2 هـ) وفتح مكة (8هـ)، وإن

كان المعهود أنّ المسلمين يفطرون من أجل نصرة الدين، فهم صائمون كمفطرين، فطرهم طاعة أخرى، الفطر هنا أوجب وأرحب وأثوب: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر كلّه» (حديث شريف أخرجه مسلم). فهم طوع الأوامر الربانية ويلبّون ما هو أقرب إلى الله تعالى وأرضى له، مهما كانت صعوبته أو سهولته، كم من مناسبة أفتى فيها علماء الأندلس في تقديم الجهاد - ذروة سنام الإسلام - على الحجّ، وسلكوه أخذًا به.

أمجاد رمضانية: في التاريخ الإسلامي أمجاد الفتوحات المتنوّعة من العسكرية والنفسية والعلمية، في إطارها الإنساني المتكامل المتفاضل، كما في الشهور الأخرى، لكن تميّز رمضان بأمثالها. ليس لأمّة أو دين ما يدنو من رمضان الذي اختصّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به الإسلامَ المميّز، هو كذلك دومًا، طاعةً وارتقاءً وجهادًا امتلأت به صفحات التاريخ الإسلامي والأندلسي. يجري استعراض بعض الأحداث والفتوحات الرمضانية في التاريخ الأندلسي ما أمكن وتوفر حسب المتاح، إن شاء الله تعالى وبإذنه الكريم**.

رمضانيات أندلسية: إذا كان رمضان في الأندلس لم يخل من أحداث مرّة، فإنّ الأحداث المجيدة فيه كثيرة متكاثرة، وهي مرموقة متفاخرة. في رمضان سنة 91هـ (710م) كان عبور سرية طَرِيف بن مالك (أبو زُرْعَة) لقيادة الحملة الاستكشافية، من سبتة Ceuta إلى الأندلس، في (500) خمسمائة جندي، فيهم مئة فارس، ثمّ عَبَرَ طارقٌ بجيشه في رجب سنة 92هـ، حيث جَرَتْ في رمضان منها، حيث معركة الفتح الكبرى جنوبي إسبانيا.

هذه بعض الأحداث الرمضانية في الأندلس: معركة الفتح الكبرى معركة وادي البَرْباط Barbate التي قادها طارق بن زياد سنة 92هـ (711م)،

المعركة الفاصلة التي جَرَتْ مع الجيش القُوطي في جنوبي إسبانيا، الأمر الذي يأتي تفصيله بعد. عبور موسى بن نصير - كذلك في رمضان - إلى الأندلس بجيش فاتح نجدةً لطارق، بثمانية عشر ألف جندي، سنة 93هـ (/6/ 712م).

عدّة أمور تخصّ الفتح الإسلامي في الأندلس جَرَتْ في السنة التالية (94هـ = 713م). ابتداءً ولاية السَّمْح بن مالك الخَوْلاني للأندلس في رمضان سنة مئة هجرية، أيام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (102هـ)، استُشْهِد السمحُ في جنوبي فرنسا مجاهدًا في مدينة طولوشة الفرنسية Toulouse، يوم التروية أو عَرَفَة سنة 102هـ (721م).

كانت معركة بلاط الشهداء (تور - بواتييه Tours-Poitiers)، استمرّت عشرة أيام في شعبان - رمضان المبارك سنة 114هـ (10 - 11/ 732م)، لعلّي أفردها بمقال مستقلّ، إن شاء الله تعالى.

كان ظهور النورمان The Vikings (الهجوم الخامس) على سواحل الأندلس بداية رمضان سنة 360هـ (961م).

قيام مملكة غرناطة أواخر رمضان سنة 635هـ (1238م)، في جنوب شبه الجزيرة الأندلسية.

إنّ كلّ نصر يكون للإسلام هو بذاته عيد للمسلمين، كونه في رمضان يعني يلتقي العيدان: عيده وعيد انتصاراته الكريمة العظيمة.

مجد المرأة المسلمة: من الفتوحات العلمية في رمضان في الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس، وما وراء البُرْت Pirinees, Pereneos فرنسا وما بعدها). ابتدأ بناءُ جامع القرويين في فاس بالمغرب. بُنِيَ أوّل يوم على أساس أنّه جامع وجامعة،

أقدم جامعة إسلامية، طبعًا أقدم جامعة في العالم كافة، بنته الفاضلة فاطمة بنت محمد الفِهْرِيّة، كلّه من مالها الخاص الحلال الصافي، حيث ابتدأت بناءَه في رمضان سنة 245هـ (859م)، استمرّت صائمة طوال مدّة البناء حتى تمامه واكتماله.

<u>رمضان زينات وأنوار:</u> لرمضان في الأندلس - خلال القرون الثمانية عمرها الأول المليء بالخير، مثلما في بقية العالم الإسلامي وأجياله- مكانة وأعراف وأنوار وأمهار مباركة بارة. المجتمع كان يتزيّن بأنواع الزينات الجمالية والحياتية والاجتماعية، تنشط النفوس بالخير والكرم والعلم الكريم، في جوامعها وجامعاتها، جامع قرطبة - هو جامعتها العتيدة - بأعمدته الرشيقة وسواريه الرفيعة المترفّعة ومواقعه المتحلّقة، مزدهر ومثمر ومعمر. مرّت على الأندلس أحداث خلال رمضان كثيرة منها الفتوحات المتنوّعة المعروفة، لكنّ رمضان ترك لغيره الكثير المثيلات، أمثال معركة الزلّاقة، التي جرت في رجب الخير يوم الجمعة سنة 479هـ (10/23/ 1086م)، التي أنسأت (أطالت) في عمر الأندلس أربعة قرون أخرى. جَرَتْ أيضًا بعض الأحداث المرّة فيه، ووقعت نكبات شديدة، كما مرّت بالأندلس وأهله فيه أيام عنيفة، لا سيما بعد سقوط غرناطة (897هـ - 1492م)، تكالبت عليه الصليبية بزعامة الكنيسة والبابوية كذلك، بقيادة الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا Fernando & Isabella.

<u>فتح الأندلس:</u> لقد أتمّ الله تعالى هذا الفتح العظيم ابتداءً للمسلمين في رمضان، تباشيره كانت في المعركة الأولى حول نهر البَرْبَاط Barbate بقيادة طارق بن زياد، تتتابع عملياتها مارّة بثلاث مراحل:

الأولى: الحملة الاستطلاعية: حملة طريف بن مالك (أبو زُرْعَة) الاستكشافية، حيث بعد أن وافق الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ) ـ من مراسلات موسى بن نصير، والي الشمال الإفريقي ـ على أن يختبرها بالسرايا خوفًا على المسلمين، جهّز موسى الحملة التي قادها طريف من مدينة سبتة Ceuta ـ على مضيق جبل طارق Strait of Gibraltar ـ بالمغرب إلى الأندلس، رَسَتْ سفنُه بجنودها الخمسمائة – مع خيولهم المئة ـ في الجزيرة التي عُرِفَتْ باسمه، وبكلّ اللغات وحتى اليوم (جزيرة طريف Tarifa)، البعيدة عن المضيق، مكان العبور. بدأ يرسل سراياها في اتجاهات عدّة لاختبار الحال وجَمْعِ المعلومات. نزولهم في هذه الجزيرة يدلّ على خطّة مدروسة، أنسب لهذه المهمّة، لابدّ أن طريفًا ـ بجنده الميامين الأطهار ـ بقي أيامًا أو أكثر. الذي يبدو أنّ هذه الجزيرة لم تكن مأهولة. استعمال الخيول كانت للضرورة ولازمة للمهمّة التي تدلّ عليها. من الممكن أن يكونوا قد تخفّوا، كان لهم أدلّاء من أهل البلاد. هذا يقود إلى استنتاج أنّ بعض أهل تلك البلاد دخل الإسلام قبل هذا الفتح، لعلّ منهم من كان مع سرايا الجيش الإسلامي، أو قَدِمَ معهم من شمال إفريقيا. بعدما أنجزت الحملة مهمّتها ـ خلال مدّة نجهلها، لكنّه ممكن أن تقدّر بالأيام إن لم يكن الأسابيع ـ عادت بالمعلومات التي رُسِمَتْ الخطط التالية على ضوئها.

الثانية: حملة الفتح: بدأ موسى بعد ذلك بالتجهيز لحملة الفتح. عبرت الجيوش الإسلامية من سبتة بالمغرب إلى الأندلس أفواجًا تتبعها أفواج، ابتداءً من رمضان ـ على ما يبدو – حتى كان آخرها في رجب الخير سنة 92هـ بصحبة القائد طارق، ملتحقًا بمن سبقه من دفعات لترسو على جبل كالبي Mons Calpe

الذي عُرِفَ عندها بجبل طارق Gibraltar وبكافة اللغات أيضًا مكافأة دنيوية على هذا الجهاد. ما عند الله تعالى للمجاهدين والفاتحين أكبر.

هكذا كان آخر فوج عبر به طارق بن زياد، الذي لا نعرف عنه غير قليل، بربري من قبيلة نَفْزَة، لكنه وُلِدَ مسلمًا، لابد أنه عُرِفَ بجهاده في المغرب خلال الفتوحات السابقة ونَشْرِ الإسلام فيه، حتى استحق أن يختاره موسى بن نُصَيْر قائدَ الحامية العسكرية الإسلامية في طنجة Tanger، ثم قائدًا لفتح الأندلس. عَبَرَ طارق المضيق من سبتة إلى الجبل المنتصب كالأسد أمامه، مؤخرته إلى البحر المتوسط ورأسه إلى المحيط الأطلسي، كأنه قادم من المتوسط بعد أن جال ليتجه إلى الفتوحات على الأطلسي، شبه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula (إسبانيا والبرتغال اليوم) وما بعدها.

بشارات الفتح الأندلسي: يُذْكَر أن طارقًا رأى وهو في سفينته - خلال سِنَة من النوم ألمت به - رسول الله ﷺ يبشِّره بالنصر ويوصيه بأهل البلاد. هذا الجيش - بقيادة طارق بن زياد، في فَهْمٍ مؤكد لابن حزم الأندلسي (456هـ = 1064م) ضمنها رسالته في فضل الأندلس، التي أوردها المَقّرِي (1041هـ) كاملة في كتابه: «نفح الطيب» - تحقيقٌ لثانية اثنتي نبوءتين للرسول الكريم ﷺ زفهما الحديث الشريف الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر، ملوكًا على الأسِرَّة». رؤيا رآها النبي الكريم ﷺ مرتين. الأولى: تلك التي تحققت، أشارت إلى فتح جزيرة قبرص Cyprus سنة 28 هـ في خلافة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه، بقيادة معاوية بن أبي سفيان. كانت فيهم أم حرام. التي بُشِّرت بذلك

. وقد اسْتُشْهِدَتْ هناك. الثانية: هم فاتحو الأندلس. التقت النبوءة المعجزة ببشارة رؤيا الفتح.

طارق والخطط المبتكرة: حين وصل طارق إلى الجبل وأراد النزول بجنده، وجد جيش القوط Goths, Godos، الذي نازل الجيش الإسلامي - قبل وصول طارق - على الجبل في عدة معارك بقيادة أكبر قائد قوطي، بعد لذريق Rodrigo, Rodric مليكهم، عسكري مجرَّب معروف اسمه تُدْمِير Tudmir. القوط الغربيون أمة حربية لم تكد تعرف الهزيمة في كافة الأحداث العسكرية والمعارك التي خاضتها. هم الذين سَماهم (هم أو غيرهم ممن سبقهم) بعضُ المؤرخين الأندلسيين - مثل ابن حَيَّان القُرْطُبي (469هـ = 1076م) - البشتولقات، تعني Visigoths القُوط الغربيين الذين احتلوا شبه الجزيرة الإيبيرية وسكنوها، قبل الفتح الإسلامي بحوالي ثلاثة قرون. ماذا يفعل طارق أمام جند القوط الذين منعوه من النزول واللحاق بالجيش الذي وصل ويشتبك في معارك معهم!!! هذا قد يعني ذهاب الفتح وإيقاف عملياته وقد يباد أو يحاط بالخطر.

طارق من القادة الذين يبتكرون الخطط البارعة في المآزق والمواقف الحرجة منها في الحال، تلك ميزة واضحة للقادة المسلمين، إحدى ثمار بنائهم الإسلامي. بذاك أمر القائد طارق الجيش بالرجوع إلى المضيق والإقامة لهزيع من الليل، كأنه يعود إلى المغرب و(الحرب خدعة)، هذا هو مفهوم حديث الرسول الكريم ﷺ. ثم في آخر الليل يعود إلى الجبل، ليس من مكان النزول ولا من المكان الذي حاول فيه أولاً، بل من خلف الجبل الذي يكاد يكون قِوامه عموديًّا، ليصعد هو والجند من هناك: «فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون». لكننا لا نعرف ماذا صنع بالدواب أو كيف نزلت على الجبل بخطة أخرى، يدل هذا دلالة واضحة

على المعرفة الجيدة للمواقع والجبل والأرضية، مبنية على المعلومات التي عادت بها سرية طريف. هل يُعْتَبَر ذلك مِثْلَ عبور خالد بن الوليد صحراءَ الشام الكبرى (13هـ = 634م) وعبور سفن فتح القسطنطينية (857هـ = 1453م) المثلث الأرضي البري بقيادة محمد الفاتح الخليفة العثماني؟ فوجئ القوط بذلك. التحق طارق وجنده بالجيش الإسلامي الذي سبقه. من الممكن أن تكون قد جَرتْ لطارق ومن معه بعضُ المواجهات حتى التحق ببقية الفاتحين الكرام. لولا نوعية هؤلاء الجند - الذين يَعْرِفُ نوعيتَهم - لما كان لِطارق أن يضع مثل هذه الخطة، حيث لا يمكن أن يقوم بها وبأمثالها غيرُهم ومن على شاكلتهم أبدًا. بإجماع المؤرخين كان عدد الجيش الإسلامي الفاتح سبعة آلاف. سار بهم مجتمعًا ومتجهًا من الجبل (جبل طارق) إلى السهل داخل إسبانيا، متجهًا إلى الشمال (تجد تفصيلات ذلك وغيرها في كتاب: «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»، لكاتب هذه السطور. وصلت أخبار تجمّع القوط وحشوده الضخمة لمعركة، اعتبروها فاصلة، لعلّهم أُنذروا بوصول المسلمين قبل عبور طارق أو بعد حملة طريف، لذلك كان جمعهم وافرًا، عددًا وعُدّة، بقيادة الملك لذريق.

كتب طارق إلى موسى بن نُصَيْر يستنجده ليمدّه بجند آخرين، تحرّكت النجدة - التي حسب لها - حالا، من مدينة سبتة كذلك بقيادة طريف بن مالك (قائد الحملة الاستطلاعية) بخمسة آلاف جندي، لترسو سفنُهم على جبل طارق هذه المرّة، حيث يبدو أنّه خَلَصَ للمسلمين فلم يتركوا خلفه إلّا مناطق فتحوها، لاسيما الجبل المنيف المعروف.

فِرْيَةُ حرق السفن: كان كلّ هذا العبور بسفائن صنعها المسلمون، هم أهل خبرة وصناعة متقدّمة فيها، جرّبوا الفتوحات البحرية، لا يعقل أن تكون مستعارة.

بجانب ما يدلّ على أنّها سفنهم، مما يؤكد تمامًا ويدلّ على أنّ طارقًا لم يحرق السفن إطلاقًا، أمر يتنافى مع كلّ منطق واعتبار، ومع معاني الفتوحات الإسلامية وأهدافها ومجرى الأحداث والسَّمْت الإسلامي الكريم الذي ليس فيه مثل هذه الحالات. هذا يشير أنّه لا بدّ من إعادة النظر في الأحداث الكثيرة ووضعها موضعَها الصحيح، في التاريخ الإسلامي والأندلسي على وجه الخصوص. ليس حرق سفن طارق إلّا أسطورة غريبة، لم يَرْوِها أيٌّ من المؤرخين الأندلسيين. أوّل من رواها - نقلًا عن مجهول - الشريف الإدريسي (560هـ = 1164م) الجغرافي الفذ العالمي الشهير، في القسم الأندلسي من كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، دون ذكر مصدره. مع ما رأينا من الحاجة المستمرّة للسفن في الأحداث السابقة هي كذلك أساسية لهم في الأحداث اللاحقة، ثمّ إنّ لدى المسلمين من دوافع الفتح المرتبطة بالإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحبّ الموت في سبيله جهادًا، ما يفوق بمراحل ما قد يُحْدِثه حَرْقُ السفن من دفع، بل على العكس، إنّ حرقها يؤذيهم ويثيرهم ويسخطهم على القيادة.

المواجهة بين الجيشين (المرحلة الثالثة): تجمّع الجيش الإسلامي واقفًا أمام الجيش القُوطي، الذي واجهه في سهل متّسع فيه بحيرات وأنهار، حيث حدّد الجيش القوطي مكان المعركة، لكن لا بدّ أنّ القيادة الإسلامية العسكرية في الأندلس اختارت المكان المناسب. كانت عِدّة الجيش الإسلامي كلّه باتفاق المؤرخين (12) اثني عشر ألف جندي، جلّهم من المسلمين البربر وقلّة من المسلمين العرب؛ حيث إنّ المسلمين البربر - قد تأخّر إسلامهم - أرادوا خدمة الإسلام والجهاد فيه، ليلحقوا ببعض ما قدّم إخوانهم المسلمون العرب من قَبْل له.

موازنة ومقارنة: عِدّة الجيش القُوطي لا تقلّ عن مئة ألف، بل إنّ بعضهم أوصلها إلى ما يزيد على مئتي ألف جندي. مع ذلك اختلاف الروايات في عدد الجيش القوطي لا يشكّل قضية، حيث يمكن تأويله بأنّ الجيش المقاتل مئة ألف، الباقي معاون واحتياط ويقوم بالواجبات الأخرى. لَدَى الموازنة بين الجيشين لا يمكن أن يتصوّر أحد أنّ النصر سيكون للمسلمين، فضلًا عن أن يكون عظيمًا وعجيبًا وغالبًا، إذ تمّ ذلك في ظل هذا التفاوت الكبير:

- التفاوت الكبير بين الجيش الإسلامي والقوطي في العدد: اثنا عشر ألف مقابل مئة ألف أو يزيدون.

- العُدّة كذلك ومنها: أنّ الجيش القوطي كان كلّه تقريبًا خيالة، بينما الجيش الإسلامي كان كلّه تقريبًا رَجّالة أو على الأقل أكثره كذلك.

- لا بدّ أنّ الأسلحة الأخرى ومواد الإعاشة لدى القوط كانت أفضل وأوفر وأكثر.

- القتال جرى في أرض مألوفة للقوط يعرفون مداخلها ومخارجها وطبيعتها.

- زيدوا على ذلك الروح المعنوية لجند القوط كانت عالية؛ إذ ما كانوا يشكّون بالنصر وأَخْذ المسلمين، وأنّ الغلبة تكون لهم، إلى درجة أنّهم جلبوا معهم العربات والدواب تحمل الحبال لكتاف وشَدِّ وقَيْدِ أَسْرَى المسلمين الكثيرين، إذ احتاروا فيما يفعلون بهم! كانوا متأكّدين تمامًا من هذه النتيجة!! فهم لم يَعْرِفُوا الهزيمة؛ لأنّ القوط الغربيين خاصة أمّة حربية معروفة، ذلك أَمرٌ كان أكبر ما تتميّز بها في تاريخها كلّه. لكن هذا الذي جَرَى كان شبيهًا بالفتوحات الإسلامية الأولى

مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، اللتين لم تكونا لتزولا أمام أيّ أحد بله العرب، الذين استُعمروا لهؤلاء وهؤلاء، لولا الإسلام الذي به غدوا أحرارًا . كلّ من آمن به وحمله: بشرًا جديدًا أو وليدًا آخر. هذا يدلّ على أنّ القوط لم يكونوا ضِعافًا في المعركة - لا سيما وهي فاصلة - كما يحاول بعض الكَتَبَة ليّ أعناق الأحداث ولفّ حقائقها المنظورة، وطيّ منطقها الواضح، لتسير في دروب مظلمة ملتوية مشبوهة. هذا يدعو إلى إعادة النظر في أحداث التاريخ الإسلامي والأندلسي على وجه الخصوص، هذا الفتح العظيم الكاسح المعجز بالذات.

عنصر فريد: لكن الميزان - في الموازنة الجديدة - ضمّ شيئا جديدًا وعنصرًا فريدًا، نوعية ما عرفوها ولا ألفوها من قبل، جعل هؤلاء القوط - وكلّ أحد غيرهم - ضعافًا أمام المسلمين، هو: الإيمان العظيم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبمنهج هذا الدين الذي أنزله على الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ قد جرّبوهم في المعارك المتعدّدة على الجبل والمواجهات لدى أوّل نزولهم عليه، ربما قبل طارق. كان الجيش القوطي بقيادة أكبر قائد عسكري: تُدْمِير Tudmir الذي سُمِّيت مقاطعة إسبانية باسمه وهو حاكمها، الذي كان يُهْزَم في كلّ المعارك. كما كان قد كتب إلى لذريق ليعلمه: « بأنّ قومًا لا يُدْرَى أَمِنْ أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليَّ بنفسكَ» . هذا - على ما يبدو - سبب مهمّ في هذا الحشد الضخم الذي هيّأه القوط، لو كانوا يعلمون ألا طاقة لهم بحربهم لسلكوا سبيلًا آخر.

هذه هي صورة المعسكرين: الإسلامي والقوطي. إنّه لمجرّد الفرق في أيّ من هذه الأمور ويقبل المسلمون المنازلة يجعلهم أقوياء أوفياء أمناء، نوعية فريدة ليسوا بحاجة إلى حرق السفن، دافعًا للحرب والاستماتة. إنّه الإيمان الذي يدفعهم دفعًا،

يطيرون إلى الجنّة يرغبون فيها، بنفس الروح يحافظون على السفن أشدّ المحافظة لأسباب كثيرة غَدَتْ واضحة الآن.

هل نعيد الاعتبار بخطبة طارق بن زياد المليئة بالسجع المصطنع المغلوط؟

خطبة طارق الشهيرة: على نفس هذا الفهم تغدو الخطبة المروية في هذه المعركة للقائد طارق، كثير منها يبدو هَذَرًا من القول. لدى الاطلاع عليها من خلال هذه المعاني والاعتبارات يرفضها الدارس قبل أن يتقدّم الدليل إليه.

الخطبة لم تتضمّن آية أو حديثًا، مليئة بالسجع المصطنع المتكلّف المغلوط غير المألوف، في ثمانية مقاطع، الأمر الذي يشير إلى الوضع المتأخّر الجاهل بالأندلس وتاريخه.

ترون فيها طارقًا يَعِدُهم بالملذات والبنات الجميلات!؟ أيّ جهاد هذا يا تُرَى؟

كما أنّ الخُطبة قد تشير إلى أخطاء في الخُطة والهدف. بجانب أنّ النصّ المتداول لم يورده مؤرّخ أندلسي، بل رواه مؤرخ مشرقي متأخّر هو ابن خلّكان (681هـ = 1282م) في كتابه «وفيات الأعيان» نُقِلَتْ عنه، بعض النصوص الأندلسية، في ذات الشأن، تخالف هذا النصّ. يُورِدُ المَقّري في: «نفح الطيب» أبياتًا خاطب وخطب بها طارق جيشه تحمل معاني إسلامية واضحة.

<u>المواجهة : قتال ونزال:</u> في مثل هذا الوضع بدأت المواجهة وكان اللقاء المتفاوت، في سهل فسيح متّسع، لليلتين بقيتا من رمضان (28 رمضان سنة 92هـ = نحو 17 - 20/7/ 711م). استمرّت المعركة ثمانية أيام من القتال الشديد العنيد من قبل

الطرفين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء،104).

كان المسلمون أثبت وأصبر وهم بالنصر أجدر، يقول ابن عِذاري (بعد 712هـ = 1302م) في كتابه: «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجّالة ليس فيهم راكب إلّا القليل، فاقتتلوا اقتتالًا شديدًا حتى ظنّوا أنّه الفناء». يقول ابن الشبّاط (681هـ): «فاقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالًا شديدًا وصَبَرَ الفريقان جميعًا صبرًا عظيمًا ثمّ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ نصره على المسلمين».

هذا يدلّ ويؤكّد أنّ القوط لم يكونوا ضِعافًا، كما يحاول تمريره بعض المؤرخين، لإلغاء قوّة المسلمين الإيمانية وتميّزهم بهذا الدين ونوعيته وروعة انتصاراته. كما يؤكّد كذلك إنصاف المؤرخين المسلمين في الاعتراف بما عند عدوّهم. بدوره يؤكّد أنّ المسلم أفضل من يكتب حتى تاريخ الأمم الأخرى، بذكر الحقائق كاملة، ويعطي صورة أفضل وسِجلّا أشمل للأحداث؛ ليقدّم فهمًا أجود، هذا ما نجده متوافرًا فيما كتبه المسلمون عن الأمم الأخرى، تاريخًا وبلادًا ومجتمعًا، مما جعل تلك الأمم وأهل تلك البلدان يعتنون ويعتزّون ويترجمون ما دوّنه المسلمون عنهم، الشواهد على ذلك جد كثيرة طافحة.

استغرقت المعركة العيد كلّه، حيث انتهت يوم الأحد الخامس من شوال ولمدّة ثمانية أيام. الذي يبدو أنّ التشتّت الذي حلّ بالجيش القوطي كان في هذا اليوم الذي فيه قُتِلَ ملكهم لذريق ولم يُعْثَر له على خبر أو أثر أو دليل. إذ أنّ تتمّتها كانت في اليوم الذي بعده، حيث أنزل الله تعالى نصره على المؤمنين.

كانت هذه المعركة (معركة وادي البَرْبَاط) فَتْحَ الفُتوح، بالنسبة لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula (الأندلس = إسبانيا والبرتغال اليوم)، نصر عظيم لم يكن سهلًا ولا هيّنًا ولا منتظرًا، من الآخرين أبدًا بأي حال من الأحوال. خالف كلّ الحسابات والقوانين والأعراف العسكرية، لدخول عامل جديد وفريد ومديد في الأمر، هو الإيمان بالله تعالى وكتاب الله العظيم ونبيّه الكريم ﷺ، الإيمان الكامل بالإسلام والأخذ بالجهاد - ذروة سنام الإسلام - سبيلًا ودليلًا ومجدًا أثيلًا.

في ساحة معركة وادي الرباط العظيمة وشهداء المعركة: قدّم المسلمون في هذه المعركة ثلاثة آلاف شهيد، جاءوا – من أجل خدمة الإسلام ونشره وبيانه - ينشدون الموت في سبيل الله. هؤلاء بغير حاجة إلى حرق السفن ولا حرق البخور، ولا حرق أو هدم الجسور ولا خُطبة تَعِدُ بالمتع والملذّات واقتناص الحسناوات: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ (آل عمران، 140). الشهيد من شهد بأحقية الإسلام وآمن به وحماه بنفسه، مجاهدًا من أجله حتى الموت. ليس معناه ما استقرّ عند البعض - من المستشرقين والغربيين والمستغربين - في معنى محدود ومكدود ومردود، من الخسف والتجنّي والتدنّي.

كان ميدان المعركة متسعًا شَمِلَ مواقع متعددة من نهر وبحيرة وسهل، تقع ضمن كُوُرَة (محافظة) شَذُونة Sidonia وفيها مدينتها Medina Sidonia في سهل الفرنتيرة Frontera جنوب بحيرة الخندق Janda ونهر (وادي) بَرْبَاط Barbate المتّصلة به.

اتساع ميدان المعركة معركة بَرْبَاط أو وادي لَكُهْ Gudalete دليل على عنفها مثلما يدل عليه طول مدّتها ذات الأيام الثمانية. من هنا ذكر المؤرخون

عدّة مواقع لموضعها، كلّها تقع في ميدانها. هذا النهر وادي البَرْبَاط الذي جَرَتْ حوله أعمال عسكرية لها، يصبّ أو يقع في المحيط الأطلسي عند الطرف الأغر Trafalgar شمال شرق مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras وجزيرة طريف Tarifa، إلّا أنّ الجزيرة الخضراء وجبل طارق يقعان عند فم مضيق جبل طارق من جهة المتوسّط في الشاطئ الإسباني (الأوربي)، مثلما تقع مدينة سبتة Ceuta عليه من الجانب المغربي (الإفريقي)، بينما تقع جزيرة طريف عند فم المضيق من جهة الأطلسي في الجانب الإسباني، مثلما تقع مدينة طنجة Tanger المغربية عليه من الجانب المغربي (الإفريقي).

هذا السهل الفرنتيرة Frontera هو الذي جَرَتْ فيه المعركة وتقع ضمنه جميع الأماكن المذكورة لها. وادي (نهر) البَرْبَاط كان مركز الميدان الفسيح. لعلّه فيه غَرِقَ لُذْرِيق ملك القُوط، ربما بعد مقتله.

بعد المعركة: جَرَتْ بعد ذلك متابعة فلول جند القوط في الميدان وبعده، كما جرى ترتيب الأمور ونظر النتائج ومراجعة الأحوال؛ للانطلاق السريع الفوري في الفتح وعدم إتاحة الفرصة ليتجمع العدو ويلم فلوله ويرد أمله ويضم عدوله. هذا جعل الجيش الإسلامي يتوجه إلى الشمال من أرض المعركة بثقله، بعد أن ترك حاميات في المناطق المفتوحة، للضبط والربط والدعوة، حيث كان الجيش الإسلامي فاتحًا للنفوس. دعاةً بسلوكهم ولسانهم، لهذا أتوا وبهذا دخل الناس في دين الله أفواجًا.

لكنّ طارقًا لم ينس خطورة هذا الحال، وقد يظن أحد إمكانية ما تأخذه غَرَّة النصر، بل في نفس الوقت أرسل عدّة سرايا شرقًا وغربًا، قاصدًا التوجّه نحو العاصمة طُلَيْطُلة Toledo. لم تكن تهمّه الغنائم كثيرًا - إذ لم يأت لأجلها- ولا

تصحّ موضعًا للاتهام، ولا تستحقّ المناقشات الكثيرة لولا الرغبة في تشويه تاريخنا الإسلامي المجيد. لذلك أهمّ ما حازوه العُدد الحربية، أوّلها الخيول التي كانت قليلة لديهم، لم يبقَ من الجند الإسلامي أحد إلّا وله فرس، يركبها ويحارب عليها في المرحلة القادمة الكبيرة المتتابعة.

البعوث والسرايا: اتّجه طارق إلى مدينة إسْتِجّه Ecija - التي تجمّع فيها جيش القوط، بعد معركة البَرْبَاط - مارًّا بعدد من المدن فاتحًا لها، بعد حصار ومعارك متعددة متفاوتة القوة: مدينة شَذُونَة Medina Sidonia فمَوْرور Moron إلى قَرَمُونة Caramona فإشبيلية Sevilla التي تقع (هي وقرطبة وغرناطة) على نهر الوادي الكبير Guadalguivir فُتِحَتْ صلحًا، واصلًا إلى مدينة إسْتِجّة، حيث دارت معركة عنيفة مع القوط المنهزمين وفتحت المدينة. من إسْتِجّه وجّه طارق سراياه لمدن أخرى:

- سرية مدينة قرطبة Cordoba قِوامها سبعمائة فارس بقيادة مغيث الرومي فافتتحها، بعد أن عبر نهر الوادي الكبير، وقت زيادة مائه.
- سرية مدينة مالقة Malaga.
- سرية كورة إلبيرة Elvira عاصمتها غرناطة Granada.
- سرية كورة تدمير Tudmir وعاصمتها أريولة Orihuela (مدينة مرسية Murcia الحالية). لعلّ هذه فُتِحَتْ مِنْ قِبَل سريتي مالقة وإلبيرة بعد إتمامهما فتحًا، فتحت جميعها بعون وفضل الله تعالى ونصره.
- لا بدّ أنّ هذه السرايا الثلاث أو الأربع، قامت بمهمّات أخرى من أعمال الفتح أو تثبيته والدعوة فيها إلى الله. لا أدري إذا كانت هذه السرايا التحقت بقياداتها

-التي لا أعرف منها غير الأولى- بطارق وجيشه إلى طُلَيْطُلة ومتى؟ الظاهر أنّ منهم من التحق ولو ببعض الجند حالًا أو فيما بعد.

فتح العاصمة طُلَيْطُلة: اتجه طارق من إستجّة إلى مدينة جَيَّان Jaen يريد طُلَيْطُلة Toledo عاصمة القوط. تقع على بعد نحو 70 كم جنوب غرب مدريد Madrid التي لم يكن لها وجود، فهي العاصمة الأوربية التي بناها المسلمون أواسط القرن الثالث الهجري، ذلك في سنة 245هـ (التاسع الميلادي). حيث افتتح طارق طُلَيْطُلة وعامل أهلَها بالعدل والإنصاف والسماحة، سلوك معروف للمسلمين معترف به، حتى من الأعداء للفاتحين المسلمين، صِفةٌ مُمَيِّزَةٌ من صفاتهم الكثيرة الفريدة الواضحة.

قبل أن يستقرّ طارق في طُلَيْطُلة Toledo ذهب لتنظيف وتمشيط المناطق التي حولها - لا سيما شمالًا - من الجيوب. من هنا جال بجيشه في منطقة وادي (نهر) الحجارة Guadalajara (نهر هِنَارِس Rio de Henares حاليًا)، أحد فروع نهر تاجُهْ Tajo حتى وصل إلى مدينة المائدة (قلعة عبد السلام، هي اليوم Alcala dr Henares)، قرب نهر وادي الرملة (Guadarrama) على نحو مئة كيلو متر شمال طُلَيْطُلة، التي عاد إليها ليستقرّ فيها بانتظار أوامر موسى بن نُصَيْر، بعد أن كان على صلة مستمرّة به، وإخباره بكلّ تفاصيل ما يتمّ، طالبًا منه النجدة، حتى ورد أنّه كتب إليه يقول: «الغوث الغوث»، حيث بقي طارق منتظرًا انقضاء فصل الشتاء ووصول موسى إليه بجيشه الثمانية عشر ألف، الذي تمّ في رمضان السنة التالية 93هـ = 712م. لكن موسى لم يتوجّه فورًا إلى طارق بل قام بفتح ما لم يتمّ فتحُه؛ خوفًا من محاصرة القوط للمسلمين، تمّ اللقاء بينهما بعد سنة من عبور موسى (94هـ)، أي بعد سنتين من عبور طارق إليها؛ لينطلقا معًا إلى

إتمام فتح شبه الجزيرة الإيبيرية حتى نهايته، الذي تمّ فعلًا في أواخر سنة 96هـ وأوائل 97هـ، أي أنّ فَتْحَها استغرق نحو أربع سنوات أو يزيد، ولا بدّ أنّ طارقًا - خلال إقامته في طُلَيْطُلة التي زادت عن السنة - كان يقوم بالترتيب والتنظيم والدعوة إلى الإسلام عمليًّا، رسم الخُطط الجديدة، أتمّها وتدارسها وأكّدها مع موسى بعد لقائهما هناك.

جيش الفتح المؤمن: تمّ ذلك الفتح كلّه بجيش تَعداده نحو ثلاثين ألفًا، مع من اسْتُشْهِد منهم أو بقي لمهمّات الفتح المتنوّعة في المدن المفتوحة؛ ليفتحوا قارّة كبيرة، وعرة الجبال عاتية المراقي كثيرة المصاعب، بأرضها المنحصرة المتصخرة وجبالها الشامخة وأنهارها المنحدرة القاسية، في تلك الأجواء الباردة الغريبة الصعبة، مما حمل بعض المؤرخين الإسبان من المعاصرين إلى القول بوصف هذا الفتح أنّه نزهة عسكرية (Mero Paseo Militar Pure Military Walk.)، لكنّه في الحقيقة نزهة إيمانية بكلّ شدّتها وصعوباتها ومتاعبها، ينطلق خفّة وروعة وقوّة، نحو رضا الله تعالى، مما جعلهم ينظرونها كذلك فيقولون قولتهم تلك، هم على هذا المعنى الإلهي الكريم الحكيم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب، 23). هذه الأيام بالذات (يوم تمت كتابتُها سنة 1425هـ = 2008م)، التي جَرَتْ فيها معركة وادي البَرْبَاط Guadalete، قبل ألف وثلثمائة وخمس وثلاثين سنة هجرية.

الخلاصة: بقيت هناك أحداث كثيرة تستحق التدوين، لا تنحصر في المعارك بل شاملة لأمور كثيرة، في الحياة العامة وفي كل ميادينها، تخص الأفراد عمومًا، والأعلام منهم على وجه الخصوص، في جميع الميادين، خلال العصور الأندلسية كافة التي لم تتوقف عن تقديم المنجزات من كل نوع، جعلت الحياة الإسلامية

متميزة بفضلها ومنجزاتها ومبتكراتها، ذلك بسبب بنائها على منهج الإسلام عقيدةً وشريعةً وتعاملًا خلقيًّا. كلما كان المسلمون أكثر التزامًا كانوا أروع انتصارًا وأعلى إنجازًا سابقًا لعصرهم، نوعيةً ومقامًا وكَمًّا. لكن شرح ذلك يطول واستيعابه يتطلب عشرات الأحداث الماثلة الفارهة.

العديد من الملازم الفواحة لعله يسع مجلة المجتمع الغراء أن توفر لها المساحات اللازمة على صفحاتها المتسعة لكل نافع وكريم جلي المعاني. القول بارك الله في كل من يغنيها ويشارك في دفعها للأمام رقيًّا في مهمتها. الدعوة للقائمين عليها عاملين وكُتّابًا وقراءً بالسداد والرشاد وجمال الاستعداد وحسن الاجتهاد وغَناء المِداد.

هكذا - بعد هذا الاستعراض لأمور في التاريخ الإسلامي وابتداء فتح الأندلس - رأيتُ حقائقَ التاريخ المغيَّبة التي حلّت محلّ صفحاته البيضاء، أو غطّتها بالحجاب، فيها قَلْبٌ للحقائق إلى حدّ الأسطورة أحيانًا. ينبغي كتابة تاريخنا بشكل جديد أصيل علميّ، تُعاد فيه الأحكام والنظر في أمور كثيرة وإعادة تقرير مُثُله وتنوير قِيَمِه، هذا كثير ووفير في تاريخنا مما لا مثيل له ولا نظير.

لابدّ، ليس من إعادة كتابته فقط بل من كتابته كتابةً جديدة على أسس علمية موضوعية صابرة، ونظر قويّ عميق أصيل وأسس متوائمة، متلاحمة مع حقيقة هذا التاريخ الذي هو مفخرة الإنسانية كلّها دومًا، تُسْعَد لمثله وترعى فيه ذِمّتَه، تعيد به تحقيق مكرمته ومعجزته وقيمه في عالم الحياة الإنسانية، فاضلة كريمة رائعة.

الظروف مهيّأة الآن والحاجة ماسّة والضرورة لازمة، كلّها تدعو المسلمين - من أهل الطاقات والإمكانيات والتخصصات المتكافئة - للاستجابة لذلك، بحبّ واهتمام وقوّة، بذلًا وسعيًا واستعدادًا لهذا الأمر الجليل الخطير، والله الموفّق للصواب وعليه التوكّل والأمل، راجين قبول العمل***



الأندلس *** أحداثه الرمضانية

(4/1): شَهْرُ رمضان الخَيْرِ والبركة، جوانبه في ذلك كثيرة. ما أكثر الأحداث التي جَرَتْ فيه مباركةً تحمل العِبَرَ والفِكَرَ وخَيْرَ الأثر. تنوعت فيه الفتوحات من كل نوع ومَذاق وميدان، في العلوم والبناء الإنساني والحياتي والارتقاء، والنِّتاج والإنجازات العُمرانية والحياتية والإنسانية والحضارية المتنوعة. لذلك تجد هذا الشهر الكريم واقفًا متميزًا منتصبًا في التاريخ الإسلامي - متربعًا مترفعًا زاهيًا- بقامته المديدة وصفحاته المجيدة وأيامه الرشيدة، فخورًا عملاقًا بل مشتاقًا لأيامه الخالدات في تاريخه المجيد كلّه، بها يتبختر ويتنوّر ويتمايل، دلالًا واعتدالًا.

رمضان بين الأقران: كلّ الشهور فخورة مثله، لكنّه يتميّز عنها لأكثر من سبب. مثلما هو أفضلها، وصيامه كبير الثواب، العمل فيه أفضل ومضاعف الأجر: «كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصيام فإنّه لي وأنا أَجزي به» (حديث قدسي، رواه أحمد ومسلم والنَّسائي). فيه ليلة القدر من أعظم الليالي. كلّ الأشهر فيها أمجاد ومفاخر (رمضانية)، لكنّه يزيد عليها أنّه شهر الصيام الذي فرضه الله تعالى على المسلمين، يوم الاثنين لليلتين خَلَتا من شعبان من السنة الثانية للهجرة، قبل غزوة بدر بشهر ونصف. فيه يكون الانصراف للعبادات المتنوّعة، بميادينها الكثيرة. كالصحابة بين الأمّة، لهم شرف الصحبة، ورمضان ذهب بنصيب كبير، صدّاحًا ميّاحًا فيّاحًا. فيه أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القرآن الكريم: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة، 185). فيه ليلة القدر في العشر الأواخر، خير من ألف شهر: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر، 3). موسم ذلك كلّه؛ لأنّ العمل الخالص لله تعالى أجره مضاعف فيه. تميّزه عن الشهور الأخرى يأتي من

هذا الباب. مبارك مضاعف ميسور، وإلّا فالأيامُ كُلُّها أيام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأشهرُه. العمل في كلّها مبارك مقبول مأجور، إلّا أنّه هناك أزمنة وأمكنة - من كلّ لون - تتربّع مكانة خاصة متميزة، العمل فيها مضاعف الأجر والمثوبة. لعلّ لهذا جعل الله تعالى أحداثًا مهمّة تقع فيه؛ تأكيدًا لمكانته وبركته والأجر فيه وإظهارًا لتميّزه وإعلاءً لأمره لتكون محثًّا إلى الخيرات والحسنات. رمضان موسمٌ مَن حُرم الأجر فيه، فاته الكثير جدًّا.

انقطاع عن الملذات: رمضان وقت للتفرّغ والتركيز على العبادات، موسم لها وانقطاع عن ملذات ومتع وغذاء في نهاره، يقوم فيها يقدّمها المسلم. كلّ هذه الأعمال عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، خلالها يقوم بأداء العبادات المعتادة، يجعل هذا وغيره أجوره أكثر. من هنا يتسابق المسلمون لأدائها ويقدّم أحدهم غاية ما يستطيع؛ حيث إنّه قياس لإعلاء طاقة المسلم، حتى يحيا بها في الحياة في بقية أيام السنة وأعوامها على منوالها. هذا نلمحه في العبادات الأخرى - الحجّ مثلًا واضحًا- كي ترتقي وتتقدّم بالنية والعمل والممارسة؛ ليُصبح ذلك عنده صفةً وخلقًا وقمّةً يرتقيها بسهولة ومقدرة وحزم، لا ينزل عنها. إذا تم شيء من ذلك تراه يعود، بسبب بنائه القويم. هذه واحدة من وسائل الإسلام في التربية، عملية تُمارَس لا معلومات تُتَدارس ولا فلسفات تُذْكَر وتُنْظَر.

أول جامعة في العالم: أُورِد هنا حدثًا نموذجًا متفردًا متميزًا، وإن كان ليس الوحيد - في الحياة الإسلامية – ذلك أن امرأة مسلمة في مدينة فاس المغربية: فاطمة بنت محمد الفِهْرِية وَرِثَتْ مالًا، أرادت أن تنفقه في سبيل الله، بنت به جامعة متكاملة بكل مرافقها، حتى مساكن الطلبة، وبأحسن صيغة معمارية، فهي جامعة تُعْتَبَر إلى اليوم مَعْلَمًا حضاريًّا رائدًا، يرتاده القادمون باهتمام، تلك هي جامعة:

«القرويين» في مدينة فاس، أول جامعة في العالم كله. ليس هذا وَحْدَه هو الشاهد، بل إنها بعد أن تم وضع كافة التصميمات بإشرافها، ابتدأ البناء بداية شهر رمضان المبارك سنة 245هـ (أوائل سنة 860م). الشاهد الآخر هو أنها كانت تشرف على البناء وهي صائمة، المفاجأة في ذلك أن البناء استمر نحو سنة، كانت خلال هذه السنة صائمة حتى تم البناء إيمانًا واحتسابًا تقربًا إلى الله تعالى. هكذا تكون دوافع الأعمال في المجتمع المسلم، كان رمضان مباركًا[1].

هَدْيُه ﷺ وسنّته في رمضان: الرسول الكريم ﷺ قُدوتُنا وإمامُنا وهادينا، مثلما في الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته، صَبَر واحتمل وأكل من الجوع أوراق الشجر وشدّ على بطنه الحَجَر - أكثر وقبل غيره - تورمت قدماه من القيام في الصلاة، كذلك في الصيام كان هَدْيُه وسنّته ﷺ - هو قُدوتنا المهتداة - الإكثار من العبادة بأنواعها. كان ﷺ: « يعتكف العَشْر الأواخر من رمضان حتى توفّاه الله عَزَّوَجَلَّ، ثمّ اعتكفت أزواجه من بعده»[2]. حيث كان يعتكف (ينصرف للعبادة) فيها في المسجد، لا يدخل البيت إلّا لحاجة. روت أُمُّ المؤمنين السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «وإنْ كان رسولُ الله ﷺ لَيُدْخِلُ عليَّ رأسَه وهو في المسجد فأُرَجّله، وكان لا يَدْخل البيتَ إلّا لحاجة إذا كان معتكِفا»[3]. رَجَّل الشَّعْر: سَوَّاه وزيّنه وسَرّحَه. كما روت كذلك أُمُّنا أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «كان النبيّ ﷺ إذا دخل العَشْرُ شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[4]. اقتدى به الصحابة والتابعون ومَن بَعْدَهم من الرجال والنساء والأطفال. كان ﷺ

---

(1) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي*، 30.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) أخرجه البخاري، رقم: 2029.
(4) أخرجه البخاري ومسلم.

دومًا كريمًا وجوادًا «وكان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، وهو أجود بالخير من الريح المُرْسَلة».

تبرز - لدى كل مسلم - هذه الصفات، التي هي طاقات عنده يمارسها دائمًا، لكنّه يركّزها مشهودة يراها الناس لديه، تكون هذه طاقة عندهم واستعدادًا لديهم، تأتي الفتوحات النفسية، تنطلق نحو كلّ أنواع الفتوحات الأخرى، يعرف الاحتمالات والاحتمال.

رمضانيات السيرة النبوية الشريفة: في الحرب - خلال رمضان المبارك - كان ﷺ يقوم بالفتح بقوّة أبية متمكّنة، كما جرى في غزوة بدر (الجمعة 17 رمضان، 2 هـ= نحو 624/4/20م)، وفتح مكة (20 رمضان، 8هـ = 630/2/20م). كان المعهود أنّ المسلمين يُفطرون من أجل نصرة الدين، فهم صائمون كمفطرين، فِطْرُهم طاعة أخرى. الفطر هنا أوجبُ وأرحب وأثوب: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر كلّه»[1]. هم طوع الأوامر الربانية يلبّون ما هو أقرب إلى الله تعالى وأرضى له، مهما كانت صعوبته أو سهولته. كم مناسبةٍ أفتى فيها علماء الأندلس في تقديم الجهاد- ذُروة سنام الإسلام - على الحجّ وسلكوه[2].

أمجاد رمضانية: في التاريخ الإسلامي أمجاد الفتوحات المتنوّعة، من العسكرية والنفسية والعلمية، في إطارها الإنساني المتكامل المتفاضل، كما الشهور الأخرى، لكن تَمَيُّزه الرمضاني بكثير منها وبأمثالها. ليس لأمّة أو دين ما يدنو من رمضان الذي اختُصّ به الإسلامُ المميَّز على جميع الشرائع، هو كذلك دومًا، طاعةً وارتقاءً وجهادًا، امتلأت به صفحات التاريخ الإسلامي والأندلسي وحضارته. تُعْرَض بعض

(1) حديث شريف أخرجه مسلم.

(2) نفح الطيب، المقري، 1/ 186 وبعدها.

أحداث الفتوحات الرمضانية المتنوعة في كافة الميادين في التاريخ الأندلسي فيما يأتي إن شاء الله تعالى **.

(4/2): رمضانيات أندلسية: فتح الأندلس: إذا كان رمضان في الأندلس لم يَخْلُ من أحداث مُرَّة، فإنّ الأحداث المجيدة فيه كثيرة متكاثرة، هي مرموقة متفاخرة. في رمضان سنة 91هـ (710م) كان عبور سَرِيَّة طَريف بن مالك (أبو زُرْعة) لقيادة الحملة الاستكشافية، من سَبْتَة Ceuta إلى الأندلس، في خمسمائة جندي، فيهم مئة فارس. ثمّ عَبَرَ طارقٌ بجيشه في الخامس من رجب سنة 92هـ، حيث جَرَتْ معركة الفتح العظيم الكبرى في رمضان منها.

هذه بعض الأحداث الرمضانية في الأندلس: معركة وادي البَرْباط التي قادها طارق بن زياد 28 رمضان سنة 92هـ (711/7/17م). المعركة الفاصلة التي جرت مع الجيش القُوطي في جنوبي إسبانيا. هذا ما يأتي تفصيله لاحقًا بعدُ إن شاء الله تعالى.

عبور موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس بجيش فاتح؛ نجدةً لطارق بن زياد، بثمانية عشر ألف جندي، في رمضان سنة 93هـ (/6/ 712م).

عدّة أمور تخصّ الفتح الإسلامي في الأندلس، جَرَت في السنة التالية (94هـ).

ابتداءً ولاية السَّمْح بن مالك الخَوْلاني للأندلس في رمضان سنة مئة هجرية، أيام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (101هـ). استُشْهد السَّمْح في جَنوبي فرنسا مجاهدًا، يوم التروية أو عرفة سنة 102هـ.

كانت معركة بَلاط الشهداء (تور - بواتييه Tours - Poitiers)، استمرّت عشرة أيام، شعبان - رمضان سنة 114هـ (/10 - 11/ 732م). لعلّي أُفردها بمقال

مستقلّ، إن شاء الله تعالى. انظروا الخريطة هنا تاليًا التي تبين موقع معركة بلاط الشهداء وخطوط سير حملات الفتح في فرنسا شرقًا وغربًا، ابتداءً من ولاية السمح ابن مالك الخولاني:

كان ظهور النورمان (الهجوم الخامس) على سواحل الأندلس بداية رمضان سنة 360هـ (961م).

قيام مملكة غَرناطة أواخر رمضان سنة 635هـ (1238م)، في جنوبي شبه الجزيرة الأندلسية.

إنّ كلّ نصر يكون للإسلام هو بذاته عيد للمسلمين. كونه في رمضان يعني يلتقي العيدان: عيده وعيد انتصاراته.

رمضان زينات وأنوار: لرمضان في الأندلس - خلال القرون الثمانية، مثلما في بقية العالم الإسلامي وأجياله - مكانة وأعراف وأنوار وأمهار. المجتمع كان يتزيّن بأنواع الزينات الجمالية والحياتية والاجتماعية، تنشط النفوس بالخير والكرم والعلم النافع والعمل المثمر، في جوامعها وجامعاتها. جامع قرطبة - هو جامعتها العتيدة - بأعمدته الرشيقة وسواريه الرفيعة المترفّعة ومواقعه المتحلّقة، مزدهر ومثمر ومعمر. مرّت بالأندلس أحداث خلال رمضان كثيرة منها الفُتوحات المتنوّعة المعروفة. ترك رمضان لغيره الكثير المثيلات، أمثال معركة الزّلّاقة، التي جرت في رجب الخير سنة 479هـ (1086/10/23م)، التي أنسأت[1] في عمر الأندلس أربعة قرون أخرى[2]. جَرَتْ أيضًا بعض الأحداث المُرّة فيه، ووقعت نكبات شديدة. كما مرّت بالأندلس وأهله فيه أيام عنيفة، لا سيما بعد سقوط غَرْناطة (897هـ = 1492م).

---

(1) أطالت، أجلت.

(2) التاريخ الأندلسي*، 403 _ 409.

فتح الأندلس: لقد أتمّ الله تعالى هذا الفتح العظيم ابتداءً للمسلمين في رمضان، وتباشيره كانت في المعركة الأولى حول وادي (نهر) البَرْباط Barbate، بقيادة طارق بن زياد. وتتتابع عملياتها مارّة بثلاث مراحل:

الأولى: الحملة الاستطلاعية: حملة طَريف بن مالك (أبو زُرْعة) الاستكشافية، حيث بعد أن وافق الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ) ـ من مراسلات موسى بن نُصَيْر، والي الشَّمال الإفريقي ـ على أن يختبرها بالسرايا أولًا خوفًا على المسلمين، جهّز الحملة التي قادها طَريف من مدينة سبتة Ceuta على مضيق جبل طارق بالمغرب إلى الأندلس. رست سفنه بجنودها الخمسمائة ـ بخيولهم المئة ـ في الجزيرة التي عُرفت باسمه، بكلّ اللغات وحتى اليوم (جزيرة طَريف Tarifa)، البعيدة عن المضيق، مكان العبور. بدأ يُرسل سراياها في اتجاهات عِدَّة لاختبار الحال وجمع المعلومات. نزولهم في هذه الجزيرة يدلّ على خُطّة مدروسة. هي أنسب لهذه المهمّة مثلما كان النزول في جبل طارق أنسب لتلك المهمة. لا بدّ أن طَريفًا ـ بجنده ـ بقي هناك أيامًا أو أكثر أو أسابيع عدة. الذي يبدو أنّ هذه الجزيرة (جزيرة طَريف) لم تكن مأهولة. استعمال الخيول كان للضرورة ولازمة للمهمّة ويدلّ عليها. من الممكن أن يكونوا قد تَخَفَّوْا، كان لهم أدلّاء من أهل البلاد. هذا يقود إلى استنتاج أنّ بعض أهل تلك البلاد دخل الإسلام قبل هذا الفتح. لعلّ منهم من كان مع سرايا الجيش الإسلامي، أو قَدِم معهم من شَمال إفريقيا. بعدما أنجزت الحملة مهمّتها خلال مدّة نجهلها، عادت بالمعلومات التي رُسِمت على ضوئها الخُطط اللازمة.

الثانية: حملة الفتح: بدأ موسى بعد ذلك بالتجهيز لحملة الفتح. عَبرت الجيوش الإسلامية من سَبْتة بالمغرب إلى الأندلس، كان آخر أفواجهم – بصحبة القائد طارق ـ في رجب الخير سنة 92هـ على دفعات لترسو على الجبل الذي عُرِفَ:

بجبل طارق Gibraltar وبكافة اللغات أيضًا، مكافأة دنيوية على هذا الجهاد. وما عند الله تعالى للمجاهدين والفاتحين أكبر. كان آخر فوج قد عبر به طارق بن زياد، الذي لا نعرف عنه غير قليل. بربري من قبيلة نَفْزَة، حيث وُلد مسلمًا، لابد أنه عُرف بجهاده في المغرب، خلال الفُتوحات ونشر الإسلام فيه حتى استحق أن يختاره موسى بن نُصَيْر قائد الحامية العسكرية الإسلامية في طَنْجة Tanger، ثم قائدًا لفتح الأندلس. عبر طارق المضيق من سَبْتة إلى الجبل المنتصب كالأسد أمامه، مؤخرته إلى البحر المتوسط ورأسه إلى المحيط الأطلسي، كأنه قادم من المتوسط بعد أن جال ليتجه إلى الفُتوحات على الأطلسي، شِبْه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula(إسبانيا والبرتغال اليوم) وما بعدها. يُذْكَر أن طارقًا رأى وهو في سفينته - خلال سِنَة نومٍ، ألمت به فيها - رسولَ الله ﷺ يبشره بالنصر ويوصيه بالرفق بمن معه برعاية أهل البلاد والرفق في التعامل معهم[1].

<u>بشارات الفتح الأندلسي</u>: هذا الجيش - بقيادة طارق، في فَهْم مؤكد لابن حزم الأندلسي (456 هـ) ضَمَّنَها رسالتَه في فضل الأندلس التي أوردها المَقَّري (1041هـ) كاملة في كتابه نفح الطيب[2] - تحقيق لثانية اثنتي نبوءتين للرسول الكريم ﷺ، زفهما الحديث الشريف الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوكًا على الأَسِرّة». تلك الرؤيا التي رآها النبي الكريم ﷺ مرتين. الأولى: وقد تحققت، هي التي أشارت إلى فتح جزيرة قُبْرُص سنة 28هـ في خلافة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقيادة معاوية بن أبي سفيان. كانت فيهم أم

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 46 ـ 57.

(2) نفح الطيب، 3/ 156-179.

حرام - التي بُشِّرت بذلك – ثم استُشهدت هناك. الثانية: هم فاتحو الأندلس. التقت النبوءة المعجزة ببشارة رؤيا الفتح.

طارق والخُطط المبتكرة: حين وصل طارق إلى الجبل وأراد النزول بجنده، وجد جيش القُوط، الذي نازل الجيش الإسلامي - قبل وصول طارق - على الجبل في عدة معارك بقيادة أكبر قائد قُوطي، بعد لُذْريق Rodrigo مليكهم، عسكري معتمَد معروف اسمه تُدْمير Tudmir. القوط الغربيون أمة حربية لم تَكَد تعرف الهزيمة في كافة الأحداث العسكرية والمعارك التي خاضتها. هم الذين سماهم (هم أو غيرهم ممن سبقهم) بعض المؤرخين الأندلسيين - مثل ابن حَيَّان القُرطبي (469هـ = 1076م) - البِشْتولقات Visigoths، تعني: القوط الغربيين، الذين احتلوا شِبْه الجزيرة الإيبيرية وسكنوها قبل الفتح لها بنحو ثلاثة قرون[1]. ماذا يفعل طارق أمام جند القُوط الذين منعوه من النزول واللحاق بالجيش الذي وصل ويشتبك في معارك معهم. هذا قد يعني ذهاب الفتح وإيقاف عملياته وقد يُباد أو يُحاط وتأخذه المخاطر.

طارق من القادة الذين يبتكرون في الحال الخُطط البارعة في المآزق والمواقف الحرجة منها. تلك ميزة واضحة ملحوظة للقادة المسلمين. أمر الجيش بالرجوع إلى المضيق والإقامة لهزيع من الليل كأنه يعود إلى المغرب (الحرب خدعة)، هذا هو مفهومها. ثم في آخر الليل يعود إلى الجبل، ليس من مكان النزول ولا من المكان الذي حاول فيه أولًا، بل من خلف الجبل الذي يكاد يكون قِوامُه عموديًّا؛ ليصعد هو والجند من هناك «فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون». لكنا لا نعرف ماذا صنع بالدواب أو كيف نزلت على الجبل بخطة أخرى.

---

(1) نفح الطيب، 1/ 138-139.

يدل هذا دلالة واضحة على المعرفة الجيدة للمواقع والجبل والأرضية، مبنية على المعلومات التي عادت بها سَرِية طَريف. فوجئ القوط بذلك. التحق طارق وجنده بالجيش الإسلامي الذي سبقه. من الممكن أن تكون قد جَرَتْ لطارق ومن معه بعض المواجهات حتى التحق ببقية الفاتحين.

بإجماع المؤرخين كان عدد الجيش الإسلامي الفاتح سبعة آلاف. سار بهم مُجْتَمِعًا ومتجهًا من الجبل (جبل طارق) إلى السهل، داخل إسبانيا متجهًا إلى الشَّمال[1]. وصلت أخبار تجمّع القُوط وحشوده الضخمة لمعركة اعتبروها فاصلة. لعلَّهم أُنذروا بوصول المسلمين قبل عبور طارق أو بعد حملة طَريف. لذلك كان جمعهم وافرًا عددًا وعُدَّة، بقيادة الملك لُذْريق. كتب طارق إلى موسى بن نُصَيْر يستنجده ليمدّه بجند آخرين. تحرّكت النجدة - التي حُسِب لها - حالًا، من مدينة سَبْتة كذلك بقيادة طَريف بن مالك (قائد الحملة الاستطلاعية) بخمسة آلاف جندي، لترسو سفنهم على جبل طارق هذه المرّة، يبدو أنّه خَلَص للمسلمين، لم يتركوا خلفه إلّا مناطق فتحوها، سيما الجبل المنيف المعروف.

طارق وحرق السفن: كان كلّ هذا العبور بسفائن صنعها المسلمون، هم أهل خبرة وصناعة متقدّمة فيها، جرّبوا الفُتوحات البحرية، لا يعقل أبدًا أن تكون مستعارة. بجانب ما يدلّ على أنّها سفنهم، يؤكد على أنّ طارقًا لم يحرق السفن إطلاقًا. أمر يتنافى مع كلّ منطق واعتبار، ومع معاني الفُتوحات الإسلامية وأهدافها ومجرى الأحداث. هذا يُشير أنّه لا بدّ من إعادة النظر في الأحداث الكثيرة ووضعها موضعَها الصحيح، في التاريخ الإسلامي، والأندلسي على وجه الخصوص. ليس حرق سفن طارق إلّا أسطورة غريبة، لم يَرْوِها أيٌّ من المؤرخين الأندلسيين.

---

(1) تجد تفصيلات ذلك وغيرها في كتاب «التاريخ الأندلسي» لكاتب هذه السطور.

أوّل من رواها - نقلًا عن مجهول - الشريف الإدريسي (560هـ = 1164م)، الجغرافي الشهير عالميًّا، في القسم الأندلسي من كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» دون ذكر مصدره[1].

مع ما رأينا من الحاجة المستمرّة للسفن في الأحداث السابقة هي كذلك أساسية لهم في الأحداث اللاحقة. ثمّ إنّ لدى المسلمين من دوافع الفتح المرتبطة بالإيمان بالله وحبّ الموت في سبيله جهادًا، ما يفوق - بمراحل مهما كانت - ما قد يُحدثه حرق السفن من دَفْع. بل على العكس، فإنّ حرقها يُؤذيهم ويُثيرهم ويُسخطهم على القيادة.**

(4/3): الثالثة: المواجهة بين الجيشين: تجمّع الجيش الإسلامي واقفًا أمام الجيش القُوطي، الذي واجهه في سهل متّسع فيه بحيرات وأنهار، حيث حدّد الجيش القُوطي مكان المعركة، لكن لا بدّ أنّ القيادة الإسلامية العسكرية في الأندلس اختارت المكان المناسب. كانت عِدَّة الجيش الإسلامي كلّه باتفاق المؤرخين اثني عشر ألف جندي، جُلُّهم من المسلمين البربر وقلّة من المسلمين العرب، حيث إنّ المسلمين البربر - وقد تأخّر إسلامهم - أرادوا خدمة الإسلام والجهاد فيه؛ ليلحقوا ببعض ما قدّم له إخوانهم المسلمون العرب من قبل. انظروا الخريطة أمامكم، حيث يظهر فيها موقع المعركة الأولى، معركة وادي البرباط (معركة وادي لَكُهْ) وخطوط الفتح في حملة طارق حتى فتح العاصمة طليطلة وما بعدها.

موازنة ومقارنة: عِدَّة الجيش القُوطي لا تقلّ عن مئة ألف، بل إنّ بعضهم أوصلها مئتي ألف جندي أو يزيد. مع ذلك كله، اختلاف الروايات في عدد الجيش القوطي، لا يشكّل قضية، حيث يمكن تأويله بأنّ الجيش المقاتل مئة ألف، والباقي

---

(1) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، 62.

معاون واحتياط ويقوم بالواجبات الأخرى. لدى الموازنة بين الجيشين لا يمكن أن يُتصوّر أحد أنّ النصر سيكون للمسلمين، فضلًا عن أن يكون عظيمًا وعجيبًا وغالبًا، إذ تمّ ذلك:

- بجانب التفاوت الكبير بين الجيشين الإسلامي والقوطي في العدَد: اثنا عشر ألف مقابل مئة ألف أو يزيدون.
- العُدّة كذلك، ومنها: أنّ الجيش القوطي كان كلّه تقريبًا خَيَّالة، بينما الجيش الإسلامي كان كلّه تقريبًا رَجّالة.
- لا بدّ أنّ الأسلحة الأخرى ومواد الإعاشة لدى القُوط كانت أفضل وأوفر وأكثر.
- جرى القتال في أرض مألوفة للقوط، يعرفون مداخلها ومخارجها وتضاريسها وطبيعتها.
- زِيدوا على ذلك الروح المعنوية لجند القوط كانت عالية؛ إذ ما كانوا يشكّون بالنصر وأخذ المسلمين، وأنّ الغلبة تكون لهم، إلى درجة أنّهم جلبوا معهم العربات والدواب تحمل الحبال لكِتاف وشدّ وقيد أسرى المسلمين الكثيرين، إذ احتاروا فيما يفعلون بهم! كانوا متأكّدين من هذه النتيجة!! فهم لم يعرفوا الهزيمة؛ لأنّ القُوط الغربيين خاصة أمّة حربية معروفة، وهي أكبر ما تتميّز بها في تاريخها كلّه. هذا شبيه بالفتوحات الإسلامية الأولى مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، اللتين لم تكونا لتزولا أمام أيّ أحد بله العرب، الذين استُعمروا لهؤلاء وهؤلاء، لولا الإسلام الذي به غدوا - وكلّ من آمن به وحمله - بشرًا جديدًا أو وليدًا آخر.

هذا يدلّ على أنّ القوط لم يكونوا ضعافًا في المعركة - لا سيما وهي فاصلة - كما يحاول بعض الكَتَبَة ليّ أعناق الأحداث ولفّ حقائقها المنظورة، وطيّ منطقها الواضح، لتسير في دروب مظلمة ملتوية مشبوهة. هذا مما يدعو إلى إعادة النظر في أحداث التاريخ الإسلامي والأندلسي على وجه الخصوص، هذا الفتح العظيم الكاسح المعجز بالذات. لكن الميزان - في الموازنة الجديدة - ضمّ شيئًا جديدًا وعنصرًا فريدًا نادرًا، نوعيةً ما عَرَفُوها ولا ألِفوها من قبل، جعل هؤلاء القوط - وكلّ أحد غيرهم - ضعافًا أمام المسلمين، هو: الإيمان بهذا الدين، إذ قد جرّبوهم في المعارك المتعدّدة على الجبل والمواجهات لدى أوّل نزولهم عليه. كان الجيش القوطي بقيادة أكبر قائد عسكري: تُدْمير Tudmir الذي سمّيت مقاطعة إسبانية باسمه وهو حاكمها، كان يُهزم في كلّ المعارك «وكان قد كتب إلى لُذْريق ليعلمه بأنّ قومًا لا يُدْرَى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وَطِئوا إلى بلادنا وقد لقيتُهم فلتنهض إليّ بنفسك». هذا - على ما يبدو - سبب مهمّ في هذا الحشد الضخم الذي هيّأه القُوط[1]. هذه هي صورة المعسكرين: الإسلامي والقوطي. إنّه لمُجرّد الفرق في أيّ من هذه الأمور ويَقبل المسلمون المنازلة، يجعلهم أقوياءَ أوفياءَ أمناءَ لهذا الالتزام الإيماني، نوعيةً فريدة ليسوا بحاجة إلى حرق السفن، دافعًا للحرب والاستماتة.

إنّه الإيمان الذي يدفعهم دفعًا، يطيرون إلى الجنّة يرغبون فيها، بنفس الروح يحافظون على السفن أشدّ المحافظة؛ لأسباب كثيرة غدت واضحة الآن.

خطبة طارق الشهيرة: على نفس هذا الفهم تغدو الخطبة المروية لطارق في هذه المعركة، كثير منها هَذَر من القول غريب عجيب. لدى الاطلاع عليها من خلال هذه المعاني والاعتبارات، يرفضها الدارس قبل أن يتقدّم الدليل إليه.

---

(1) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، 52.



الخطبة لم تتضمّن آيةً أو حديثًا، مليئة بالسجع المصطنع المتكلّف الغريب المغلوط، في ثمانية مقاطع، مما يشير إلى الوضع المتأخّر الجاهل بالأندلس وتاريخه. ترى فيها طارقًا يَعِدهم بالملذات والبنات الجميلات! أيّ جهاد يكون هذا يا تُرى؟ كما أنّ الخُطبة قد تشير إلى أخطاء في الهدف والنوعية والخُطة.

بجانب أنّ النصّ المتداول لم يورده مؤرِّخ أندلسي، بل رواه مؤرخ مشرقي متأخّر لعله: ابن خِلِّكان (681هـ) في كتابه «وفيات الأعيان»[1] ونُقلت عنه. إنّ بعض النصوص الأندلسية - في ذات الشأن - تخالف هذا النصّ.

كما يورد المَقَّري في نفح الطيب[2] أبياتًا خاطَبَ وخَطَبَ بها طارق جيشَه تحمل معاني إسلامية واضحة مناسبة.

المواجَهة: قتال ونزال: في مثل هذا الوضع بدأت المواجهة وكان اللقاء المتفاوت، في سهل فسيح متّسع، لليلتين بقيتا من رمضان (28 رمضان سنة 92هـ= 711/7/20م). استمرّت المعركة ثمانية أيام[3]، من القتال الشديد العنيد من قبل الطرفين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء، 104).

كان المسلمون أثبت وأصبر وهم بالنصر أجدر. يقول ابن عِذاري (بعد 712هـ = 1313م) في كتابه: «البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب»[4]: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رَجّالة، ليس فيهم راكب إلّا القليل، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى ظنّوا أنّه الفناء». يقول ابن الشبّاط (681هـ = 1282م): «فاقتتل

(1) وفيات الأعيان، ابن خلكان، 5/ 223.
(2) نفح الطيب، 1/ 265.
(3) نفح الطيب، 1/ 259.
(4) انظروا: التاريخ الأندلسي*، 54.

المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالًا شديدًا وصبر الفريقان جميعًا صبرًا عظيمًا، ثمّ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ نصره على المسلمين»[1].

هذا يدلّ ويؤكّد أنّ القُوط لم يكونوا ضِعافًا، كما يحاول تمريره بعض المؤرخين؛ لإلغاء قوّة المسلمين الإيمانية وتميّزهم بهذا الدين ونوعيته وروعة انتصاراته. كما يؤكّد كذلك إنصاف المؤرخين المسلمين في الاعتراف بما عند عدوّهم. بدوره يؤكّد أنّ المسلم أفضل مَن يكتب حتى تاريخ الأمم الأخرى، بذكر الحقائق كاملة، صورة أفضل وسجلّ أشمل للأحداث؛ ليقدّم فهمًا أجود. هذا ما نجده متوفرًا فيما كتبه المسلمون عن الأمم الأخرى، تاريخًا وبلادًا ومجتمعًا، مما جعل تلك الأمم وأهل تلك البلدان يعتنون ويعتزّون ويترجمون ما دَوَّنه المسلمون عنهم، الشواهد على ذلك كثيرة طافحة واضحة، هذه واحدة منها.

استغرقت معركة الفتح الأندلسي العظيم عيد الفطر الكريم كُلَّه، حيث انتهت يوم الأحد الخامس من شوال ولمدّة ثمانية أيام. الذي يبدو أنّ التشتّت الذي حلّ بالجيش القوطي كان في هذا اليوم الذي فيه قُتل ملكهم لُذْريق، لم يُعثر له على خبر أو أثر أو دليل. إنّ تتمّتها كانت في اليوم الذي بعده، حيث أنزل الله تعالى نصره على المؤمنين. كانت هذه المعركة (معركة وادي البَرْباط) فتح الفتوح، بالنسبة لفتح شِبْه الجزيرة الإيبيرية (= الأندلس = إسبانيا والبرتغال اليوم). نصر عظيم لم يكن سهلًا ولا هيّنًا ولا منتظرًا أبدًا بحال. خالف كلّ الحسابات والقوانين والأعراف العسكرية، لدخول عامل جديد وفريد ومديد في الأمر، الإيمان بالله تعالى وكتاب الله العظيم ونبيّه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الإيمان الكامل بالإسلام والأخذ بالتضحية وبالجهاد - ذروة سنام الإسلام - سبيلًا ودليلًا ومجدًا أثيلًا **.

(1) انظروا: التاريخ الأندلسي*، 54.

(4/4): شهداء المعركة: قدّم المسلمون في هذه المعركة ثلاثة آلاف شهيد[1]، جاءوا ينشدون الموت في سبيل الله. هؤلاء بغير حاجة إلى حرق السفن، ولا حرق البخور، ولا حرق أو هدم الجسور ولا خُطبة تَعِد بالمتع والملذّات واقتناص الحسناوات: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ (آل عمران، 140). الشهيد من شهد بأحقية الإسلام وآمن به وحماه بنفسه، مجاهدًا من أجله حتى الموت. ليس معناه ما استقرّ عند البعض - من المستشرقين والغربيين (والمستغربين) - في أي معنى محدود ومكدود ومردود، من السخف والتجنّي والتدنّي.

كان ميدان المعركة مُتَّسِعًا شَمِل مواقع متعددة من نهر وبحيرة وسهل، تقع ضمن كُورة (محافظة) شَذُونة Sidonia وفيها مدينتها Medina Sidonia في سهل الفرنتيرة Frontera جنوب بحيرة الخندق Janda ووادي (نهر) بَرْباط Barbate المتّصلة به. اتساع ميدان المعركة، معركة وادي بَرْباط أو وادي لَكُه Guadalete، دليل على عنفها مثلما يدل عليه طول مدّتها ذات الأيام الثمانية. من هنا ذكر المؤرخون عدّة مواقع لموضعها، كلّها تقع في ميدانها. هذا النهر البَرْباط الذي جرت حوله أعمال عسكرية لها، يصبّ أو يقع في المحيط الأطلسي عند الطَرَف الأغر Trafalgar شمال شرق مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras وجزيرة طَريف، إلّا أنّ الجزيرة الخضراء وجبل طارق يقعان عند فم مضيق جبل طارق من جهة المتوسّط في الشاطئ الإسباني (الأوربي)، مثلما تقع مدينة سَبْتة Ceuta عليه من الجانب المغربي (الإفريقي)، بينما تقع جزيرة طريف عند فم المضيق من جهة الأطلسي في الجانب الإسباني، مثلما تقع مدينة طَنجة Tanger المغربية عليه من الجانب المغربي (الإفريقي). هذا السهل الفرنتيرة هو الذي جرت

---

(1) نفح الطيب، المقري، 1/ 259.

فيه المعركة وتقع ضمنه جميع الأماكن المذكورة لها. نهر البَرْباط كان مركز الميدان الفسيح. لعلّه فيه غَرِق لُذْريق ملك القُوط، ربما بعد مقتله.

بعد المعركة: جرت بعد ذلك متابعة فلول جند القُوط في الميدان وبعده، كما جرى ترتيب الأمور ونظر النتائج ومراجعة الأحوال، للانطلاق السريع الفوري في الفتح، وعدم إتاحة الفرصة ليتجمّع العدوّ ويَلُمَّ فُلُوله ويَرُدَّ وضم عُدوله. هذا جعل الجيش الإسلامي يتوجّه إلى الشّمال من أرض المعركة بثِقَله، بعد أن ترك حاميات في المناطق المفتوحة، للضبط والربط والدعوة، كان الجيش فاتحًا للنفوس. فهم دعاة بسلوكهم ولسانهم، لهذا أتوا وبهذا دخل الناس في دين الله أفواجًا.

لكنّ طارقًا لم ينس خطورة هذا الحال، في نفس الوقت أرسل عِدّة سرايا شرقًا وغربًا، قاصدًا التوجّه نحو العاصمة طُلَيْطُلَة Toledo. لم تكن تُهمّه الغنائم كثيرًا - إذ لم يأتِ لأجلها، لا تصحّ موضعًا للاتهام، ولا تستحقّ المناقشات الكثيرة لولا الرغبة في تشويه تاريخنا الإسلامي المجيد - لذلك أهمّ ما حازوه العُدد الحربية، أوّلها الخيول التي كانت قليلة لديهم، لم يبقَ من الجند الإسلامي أحد دون فرس، يركبها يحارب عليها في مرحلة قادمة.

فتح العاصمة طليطلة: اتجه طارق من إسْتِجَّة إلى مدينة جَيّان Jaen يريد طُلَيْطُلَة Toledo عاصمة القُوط. تقع على بعد نحو 70 كم جنوب غرب مدريد Madrid، التي لم يكن لها وجود فهي العاصمة الأوروبية التي بناها المسلمون أواسط القرن الثالث الهجري (9م)[1]. افتتح طُلَيْطُلَة وعامل أهلها بالعدل والإنصاف والسماحة. سلوك معروف، معترف به، حتى من الأعداء للفاتحين المسلمين. صفة مميزة من صفاتهم الكثيرة الفريدة الواضحة.

(1) التاريخ الأندلسي*، 305-306.

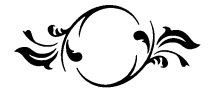
قبل أن يستقرّ طارق في طُلَيْطُلَة ذهب لتمشيط المناطق التي حولها - لاسيما شَمالًا - من الجيوب. من هنا جال بجيشه في منطقة وادي (نهر) الحجارة Guadalajara (نهر هِنارس Rio de Henares حاليًا)، أحد فروع نهر تاجُهْ Tajo، حتى وصل إلى مدينة المائدة (قلعة عبد السلام، وهي اليوم Alcala de Henares)، قرب نهر وادي الرملة (Guadarrama) على نحو مئة كيلو متر شَمال طُلَيْطُلَة، التي عاد إليها ليستقرّ فيها بانتظار أوامر موسى بن نُصَيْر، بعد أن كان على صلة مستمرّة به، وإخباره بكلّ تفاصيل ما يتمّ، طالبًا منه النجدة. بقي طارق منتظِرًا انقضاء فصل الشتاء ووصول موسى إليه بجيشه الثمانية عشر ألفًا، الذي تمّ في السنة التالية 93هـ = 712م. لكن موسى لم يتوجّه فورًا إلى طارق بل قام بفتح ما لم يتمّ فتحه؛ خوفًا من محاصرة القوط للمسلمين. تمّ اللقاء بينهما بعد سنة من عبور موسى، أي بعد سنتين (94هـ = 713م) من عبور طارق؛ لينطلقا معًا لإتمام فتح شبه الجزيرة الإيبيرية حتى نهايته، الذي تمّ فعلًا في أواخر سنة 96هـ وأوائل 97هـ، استغرق فتحها نحو أربع سنوات. ولا بدّ أنّ طارقًا - خلال إقامته في طُلَيْطُلَة التي قد تجاوزت السنة - كان يقوم بالترتيب والتنظيم والدعوة إلى الإسلام عمليًّا، ورسم الخطط الجديدة، التي أتمّها وتدارسها وأكّدها مع موسى بعد لقائهما هناك.

جيش الفتح المؤمن: لقد تمّ ذلك الفتح كلّه بجيش تعداده نحو ثلاثين ألفًا، مع من استُشْهِد منهم أو بقي لمهمّات الفتح المتنوّعة في المدن المفتوحة. ليفتحوا قارّة كبيرة وعرة الجبال عاتية المراقي كثيرة المصاعب، بأرضها المنحصرة وجبالها الشامخة وأنهارها المنحدرة القاسية، في تلك الأجواء الباردة الجديدة الصعبة، مما حمل بعض المؤرخين الإسبان من المعاصرين إلى القول بوصف هذا الفتح أنّه نزهة

عسكرية (Mero Paseo Militar Pure Mlilitary Walk)، لكنّه في الحقيقة نزهة إيمانية بكلّ شدّتها وصعوباتها ومتاعبها، ينطلق خفّة وروعة وقوّة، نحو رضا الله تعالى، مما جعلهم ينظرونها كذلك فيقولون قولتهم تلك: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب،23). هذه الأيام بالذات، هي التي جرت فيها معركة وادي البَرْباط، قبل ألف وثلثمائة وخمس وثلاثين سنة هجرية.

الخلاصة: هكذا - بعد هذا الاستعراض لأمور في التاريخ الإسلامي، وابتداء فتح الأندلس - رأيت حقائق التاريخ المُغَيَّبَة التي حلّت محلّ صفحاته البيضاء، أو غطّتها بالحجاب، فيها قلب للحقائق إلى حدّ الأسطورة أحيانًا. ينبغي كتابة تاريخنا بشكل جديد أصيل علميّ، تعاد فيه الأحكام والنظر في أمور كثيرة وإعادة تقرير مُثُله وتنوير قيمه. هذا كثير ووفير في تاريخنا مما لا مثيل له ولا نظير. لا بدّ ليس من إعادة كتابته بل من كتابته كتابة جديدة على أسس علمية موضوعية صابرة، ونظر قويّ عميق أصيل وأسس متوائمة، ومتلاحمة مع حقيقة هذا التاريخ الذي هو مفخرة الإنسانية كلّها دومًا، تُسعد لمثله وترعى فيه ذمّته، وتعيد به تحقيق مكرمته ومعجزته وقيمه في عالم الحياة الإنسانية، فاضلة كريمة رائعة. الظروف مهيّأة الآن والحاجة ماسّة والضرورة لازمة، كلّها تدعو المسلمين - من أهل الطاقات والإمكانيات والتخصصات - للاستجابة لذلك، بحبّ واهتمام وقوّة، بذلًا وسعيًا واستعدادًا، لهذا الأمر الجليل الخطير، والله الموفّق للصواب وعليه التوكّل والأمل، راجين قبول العمل ***

نُشِرَ هذا الموضوع: «الأندلس وأحداثه الرمضانية»، في مجلة المجتمع الأسبوعية الكويتية، في أربع حلقات، الأعداد: 1817 - 1820، رمضان 1429هـ = 2008م. مع ملاحظة أن هناك شبهًا غير قليل بينه وبين الموضوع قبله، علمًا أنكم تجدون فيه مقدارًا جيدًا من الزيادة النافعة أو التأكيد على معانيه الكريمة إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بفضله وبعونه الكريم.



الأندلس ونفحات من رمضان

ما كانت الحياة في الإسلام وفي مجتمعاتنا الإسلامية وجمال حضارتها موسمية ولا متعلقة أو متوقفة أو مقتصرة ولا مُحْتَكَرة بمناسبات أو أزمنة - وإن كان لجملة من ذلك مكانة خاصة - بل الخير والعمل الصالح، شامل للإنسان المسلم كله وأعماله وحياته وأقواله. لذلك كانت الانتصارات في الحياة الإسلامية والاندفاع نحو الخير والالتزام بشرع الله عامًّا جدًّا. لكن هناك أمكنة وأزمنة لها مكانة خاصة وحرمة تستلزم زيادة في هذا الاتجاه وحلاوة فيه ومسارعة إليه وإكثارًا في الخير، للمزيد من الأجر.

من الأمكنة مكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجد الأقصى، ثم مواقع ارتبطت بذكريات جميلة في التاريخ الإسلامي. من الأزمنة أيام وأشهر مميزة كأيام الحج ورمضان الذي أنزل فيه القرآن، لا سيما ليلة القدر التي أنزل الله فيها القرآن وجَعَلَها خيرًا من ألف شهر. امتلكت هذه تلك المكانة لِمَا جَرَتْ في تلك الأزمنة من أشياء ذات صلة بقضايا إسلامية.

كما استوعب التاريخ الإسلامي أحداثًا وانتصاراتٍ وأمورًا حملت فضلًا وطاعةً وغفرانًا. هذه كلها لها مكانة لسبب أو أكثر ولها حرمة، للأعمال خلالها مزيدًا من الأجر فيها ويضاعف ثوابها، السيئات يضاعف عقابها. هذه ربما يستريح فيها المسلم لينصرف إلى عبادة أو أكثر.

الحج ورمضان عبادتان تتلوهما الأعياد، يتم فيهما العمل والسعي استمتاعًا بنعمة الله ومنصرفًا إلى طاعة ومُمَتِّعًا النفسَ بلذتها، يستريح عندها المسلم. لكن ما دامت هذه عبادة وطاعة فقد وجدنا المسلمين لا يؤجلون واجبًا فيها أو جهادًا

خلالها، بل يقترن ذلك ويَكُون مجمعَ فضائل؛ لأنّها كَلَّها قربى لله تعالى، طَلَبًا للأجر منه، يبحثون عنها والعمل خلالها أشرف وأكرم وأكبر أجرًا إن شاء الله تعالى. مثلما كانت جهادًا، كم منها احتوت على أعمال جهاد. رمضان كالحج من أعمال الجهاد وإن اختلف الشكل والصورة والأداء، لكنها حملت من معانيه وسارت في وجهته وابتغت هدفَه من ذات المنطلق والأداء والتوجه، جَرَتْ فيها من عجائب الأحداث ما يدل على قوة هذه المعاني في نفوس المسلمين، خلال العصور المتطاولة- فردية أو جماعية- وأن تكون جماعة فذلك أوجب وأعجب. تَمَّ بفضل الله تعالى في التاريخ الإسلامي كثير ووفير وشهير.

<u>أمجاد رمضانية أندلسية</u> : السَّمْح بن مالك الخَوْلاني الذي تولى ولاية الأندلس في رمضان سنة مئة للهجرة، كان يقود الجهاد في أرض الفِرَنْجَة (فرنسا) بنفسه حتى أتاه ذو الحجة، استمر في جهاده مستجيبًا لصوت فؤاده حيث صاغت مرضاةُ الله كُلَّ أهدافه، داعيًا إلى الله رافعًا رايته ناشرًا في الورى شريعتَه. استمر على ذلك يقود هذا الجهاد ويتقدم، واضعًا نفسه في معمعته - تلك معاني القيادة - حتى اسْتُشْهِد. يا لله في يوم عرفة سنة 102هـ (721م) عند مدينة طُلوشة Toulouse جَنوبي فرنسا. لقد تفرد أولئك، بهذا الدين الحق، بنوا بذلك الالتزامِ حياةَ المسلمين وأقاموا حضارةَ الإنسان الفاضلة.

<u>أول جامعة في العالم تبنيها امرأة:</u> فاطمة الفِهْرية بَنَتْ من مالها الخاص الخالص جامعًا وجامعة، هو: جامع وجامعة القرويين في فاس بالمغرب، بدأته أول يوم في رمضان سنة 245هـ (860م)، استمر البناء سنة أو تزيد، كانت صائمة خلاله طوال مدّة البناء، لتجمع أكثر من معنى، منها معنى رمضان في غير رمضان، قد

مر بها رمضان فواصلت معناه. عند تمامه صلّت في الجامع شكرًا لله تعالى، ذلك في رمضان من عام 245هـ.

كانت هذه المعاني عامة نهض بها المجتمع الإسلامي، نساءً ورجالًا وأطفالًا، هؤلاء كثيرون وهنّ كثيرات، لكن هذه بعض نماذج تنشر العطر الفواح وأنت تفتح من كتابها صفحات. كان ذلك الكتاب مفتوحًا مستمر التسجيل مع خطوات الزمان، مقروءةً للناس يعيشونها ويحيون فيها وامتلأت بها الصفحات الفاضلة. كم سطرت الحياة الإسلامية وحضارتها - بفضل هذا الدين - من بطولات إنسانية وروائع حضارية ومآثر حياتية، تجلت في كل تاريخها امتدت على بساط الزمان، خضراء عطرة على مدار الأيام خلال الأعوام. كان رمضان عَبِقًا في الأمة الإسلامية على الدوام - ليس وحده كذلك - مثلما في الأندلس مباركًا حيًّا بالمواليد الكريمة من الفتوح والانتصارات في كل ميدان، امتلأت بالفرسان والشجعان، غطت أرضَه بالشهداء والعلماء والعباد والأنجاد والأحباء والأولياء، مواكب خضراء اتجهت إلى الله في كل حركة، طاعة وعبادة ومحبة.

نجد أحداثًا بعضَها فاصلًا احتواها رمضان في التاريخ الإسلامي بعد نزول القرآن فيه، ابتداء من بدر الذي كان يوم الفرقان (الجمعة 17 رمضان 2هـ = 624/4/20م) خلال القرون والأجيال في كافة بقاع العالم الإسلامي كفتح مكة (20 رمضان8هـ = 630/2/20م) كان في رمضان، عودة الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجيش الإسلامي من معركة تبوك كانت في رمضان (9هـ). كذلك وبعد قرون معركة عين جالوت أمامَ المغول جَرَتْ وقائعُها في رمضان من عام 658هـ، كانت كأخواتها مباركة بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هي وأمثالها كثير في رمضان مثلما كثرت في غير رمضان. لكن أن تَجري في هذا الشهر فهو تأكيد لمعانيه وإظهار

لحقيقته وبيان لقوته وعمق أثره والتعلق بمعاني الخير في كل ذلك، إلى حد لا يمكن تحقيقه إلّا بهذا الدين، بصراحة لا تتم إلّا في ظله وبألوان باهية زاهية أصيلة لا تجري إلّا في تياره.

أحداث أندلسية رمضانية: إذا كان الحديث هنا يخص الأندلس أو يطوف به، فقد جَرَتْ خلال القرون الثمانية التي عاشها الوجود الإسلامي فيه حضاريًّا وسياسيًّا وحركيًّا، على رأسه الدولة يحتضنها المجتمع ويقوِّمُها ويصوِّبُها، جرت أحداث كثيرة. كانت أيامها مليئة بالحركة والنشاط والحيوية، حتى خلال أحداثها المرة وأحوالها المكفهرة وظروف كئيبة ألّمت بها، منها في رمضان الذي حمل الروائح الزكية الندية، مثلما جَرَتْ فيه أحداث بائسة كانت أمضى على النفس وأشد وقعًا، هذا موضوع متسع.

معركة بَلاط الشهداء: في رمضان عام 114هـ (732م) وقعت معركة بَلاط الشهداء التي استمرّت عشرة أيام جنوب باريس نحو 200كم بين مدينتي تور وبواتييه عند نهر اللوار بين الجيش الإسلامي بقيادة المجاهد الشهيد عبد الرحمن الغافقي وبين الفِرَنْجَة، بوحشيتهم وصليبيتهم وجموعهم الجرارة بقيادة شارل مارتل، اسْتُشْهِد فيها المجاهد القائد الرائد المسلم الكريم الفاضل. كانت هذه المعركة ذات شبه بمعركة مؤتة (8هـ = 630م)، تدعو الدارسين لإعادة النظر والبحث عن كثير من الحقائق، التي ما تزال بحاجة إلى بحث وتدقيق. كان سقوط مدينة سَرَقُسْطَة Zaragoza - شَمالي الأندلس - في رمضان سنة 512هـ (1118م). كانت أحداث ابتدأت بسقوط بَلَنْسِيَة Valencia في رمضان سنة 634هـ (1236م) وسقوط شَاطِبَة Jativa في رمضان سنة 645هـ (1247م). أي رمضان هذا الذي يمر وأي مفارقات لِمَا سبقت له من ماجريات أَنِسَت به.

الفتح الأندلسي العظيم: جَرَى الفتحُ الإسلامي المبارك للأندلس ووقعت جملة من جلائله في رمضان. سَرِيَّة طَرِيف بن مالك الذي قاد الحملة الاستكشافية من الشمال الإفريقي، مُبْحِرًا من ميناء مدينة سَبْتَة Ceuta على مضيق جبل طارق سنة 91هـ (710م) خلال رمضان ذلك العام، لترسو سفائنه في جزيرة طريف التي حملت اسمه. بعد أداء مهمتها الاستطلاعية عاد ينقل أخبارًا سارة لموسى بن نُصَيْر والي الشَّمال الإفريقي.

ثم كانت الحملة التي تجهزت لفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد واستقرت في موقعها الحربي - بعد رحيلها من سبتة، عَبْرَ المضيق - على جبل طارق Gibraltar، الذي حمل اسم ذلك القائد المجاهد. قاد اثني عشر ألفًا من الجنود المسلمين فرحين بحمل راية الإسلام إلى أول قطعة من أوربا، أرضًا جديدة ينشرون فيها دين الله تعالى، مهللين مكبرين يتسابقون إلى الشهادة بحب كبير. انحدروا بِدَوِيِّهِم الكريم، يُجَلْجِل في الأفق تعطره وتضمخه آيات الله قوية منيرة، من ذلك الجبل إلى الوادي الفسيح حيث وادي (نهر) بَرْبَاط Barbate. في أواخر الثلث الأخير من رمضان كانت المعركة الفاصلة عام 92هـ (نحو 711/7/20م). استمرت ثمانية أيام استوعبت ما تبقى من رمضان إلى شوال خلال العيد، فتح الله عليهم، امتنانًا ببركة هذه الدين نصره الكريم. تقدم خلالها من الشهداء فازوا بالشهادة والجنة إن شاء الله تعالى: ثلاثة آلاف شهيد. أولئك الذين صدقوا البيعة مع الله ربهم وأمثالهم، كانت الحياة الإسلامية وفتوحاتها في كل الميادين, داعية وناشرة عطره بهذا اللون من الرفعة والإقدام والحب لله لا يعرف غير ذلك، عِشْقُ الموت في سبيل الله فكيف بما دونه؟ بهذه الصفة وَحْدَها تُبْنى الحياةُ الإسلامية.

تتابع عمليات الفتح: استمر الفتح الإسلامي يقوده الفاتحون، يجوبون مدائن البلاد الأندلسية ينشرون فيها الضياء، حتى كان رمضان من العام القابل 93هـ (712م)، عَبَرَ موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس قادمًا إليها من سبتة - ميناء الفتوح الدائم - عَبْرَ المضيق ليعسكر في الجزيرة الخضراء Algeciras، حيث يتجمع جند الدعاة والدعاة الجنود فيها، يدرسون الأحوال ويضعون الخُطط وينظمون الأمور لما افتتح من مواقع من عبور طارق إليها قبل عام. حتى إذا ما استكمل جندَه براياتهم، لم يرحل عن الجزيرة التي اخضوضرت بدين الله تعالى. وهو أجمل سبب لاسمها من هذا المعنى إلى خضرة البحر المضيق، حتى أقام فيها مسجد الرايات ربما أول مسجد أندلسي. في سنة 94هـ (713م) في رمضانها جَرَى فتح مدينة ماردة Merida صلحًا، بعد حصار لأشهر سبقت من ذلك العام.

رمضان ومنابت الخير: لا شك أنّه خلال سني الفتح حيث الانتصارات مستمرة، على مدار سنواته الأربع وبعدها جَرَى بعضها في رمضان غير قليل. استمرت السنوات والقرون على الأندلس تدور أعوامُها تحمل الأحداث المتنوعة وتَبْني لَبِناتِ الحياة الكريمة والحضارة المنيرة، متمثلة بكل أشكالها وأحوالها وصورها المضيئة، مُنْبِئة عن الحقائق الفُضْلَى التي امتلكتها في رمضان وغيره، نستوقف بعضها في اختصار يستوعب أخبارها. كم من نصر تعددت ميادينه وأضاءت معانيه واتسعت أخباره جَرَتْ فيه. نصر هو الجهاد رؤساؤه قادته الدعاة والأعلام وحاملو راياته من كل لون، بالسلاح في المعارك وفي ميادين السلم لإقامة الخير والحق والفضيلة عبادة خالصة. في مسجد يُقام وعِلْم ينشر وأداء طاعة وعمل ودعوة لدين الله تعالى، وتدوين بالأقلام على صفحاتٍ بيضٍ أبهى كلام. حق أُقيم ومُثُل تَنْبُت وفضائل تُغرس، تُسقى بماء واحد كريم حلالًا زلالًا، تزدهر الحياة ويعم خيرها لكل من استظل بظلها وعاش

في حماها وتمتع بثراها. كل ذلك يحرسها الدعاة من الميامين والمجاهدين في كل الأحوال والألوان والأنواع، أمر لا بد منه على الدوام. في رمضان من سنة 360هـ (970م) هجوم المجوس الأُرْدُمانيين TheVikings – أولئك النورمان القادمون من بلاد الدانمارك Denmark – على سواحل الأندلس الغربية، صدهم المسلمون وأَبعدوا شَرَّهم عنها فعادوا خائبين.

حدث رمضاني غريب: قبل ذلك في رمضان أيضًا أو قُبَيْله من عام 456هـ (1063م)، حاصر وهاجم هؤلاء النورمان مدينة بَرْبَشْترُ Barbastro شَمالي الأندلس، بعد أن تنصروا. حثهم البابا أسكندر الثاني (Alexander II). إذا أرادوا التقرب دينيًّا أن يقتلوا المسلمين في الأندلس!!؟ دخلوا المدينة بعد حصار أربعين يومًا أو يزيد، استباحوها في أبشع الصور المعروفة عنهم وأمثالهم، التي جَرَتْ خلال ما نعرف مما تم من حروب صليبية في الشرق الإسلامي، إذ ما جرى في الغرب الإسلامي كثيرٌ منها، مُغْرِبٌ في وحشيته. هذه إحدى اللوحات السوداء ارتسمت بيد الأحقاد العمياء، ارتكبوا من المناكر واستباحوا الأموال والدماء وفتكوا بالناس وهتكوا الأعراض، إلى حَدٍّ أنّهم انتقوا آلاف المسلمات الأبكار يوزعونهن هدايا على الزعماء من وحوش الملوك في أوربا يومَها. جَرَى ذلك رغم معاملة المسلمين للمغلوبين في تلك الديار خير معاملة عرفها التاريخ، معبرة عن معاني هذا الدين وتعاليمه السمحة. لكن شاء الله أن يرد الكيد ويجتمع المسلمون بنداء الجهاد الخالد: «الله أكبر» ليتقاطر إلى تلك المدينة في هاتيك الظروف من أيام الطوائف البائسة بسيوف الجهاد وينظفوا تلك المدينة ويغسلوها من النجس ويجلوا عنها تلك الوحوش الكاسرة.

من الغريب أنّه في كل تلك الأحداث استشهد خمسون مجاهدًا من المسلمين. حقًّا إنّ ضحايا الجبن والخوف أكثر بكثير من الإقدام. فأيُّ بونٍ تَرى في الصورة

والمعنى، والجـزاء جـزاء الإيمـان وشجاعته وإقدامـه على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وطلبًا لرضاه والإيواء والاحتماء بظله يوم القيامة إن شاء الله تعالى. هكذا يَجْري هنا السير يتقدم للقارئ شرائح ولقطات من تلك الأمجاد الشامخات خلال هذا الشهر الكريم. في رمضان من عام 528هـ (1233م) أيام المرابطين كانت معركة أفراغه Fraga شَمالي الأندلس التي انتصر فيها المسلمون صفحة من التضحيات والجهاد دفاعًا عن الدين وأهله يقوده المرابطون من الشمال الإفريقي. تمضي السنوات التي دُكَّت فيها كثير من الحصون وتناقصت الديار، لكن ما كانت تخلو من الجهاد وصفحات بيضاء, حتى كانت آخر العِقْد مملكة غرناطة التي ابتدأ تأسيسها مملكةً ببيعة ابن الأحمر في رمضان سنة 635هـ (1237م) حيث تتابعت الأحداث حتى سقوط هذه المملكة في ربيع الأول سنة 897هـ (1492م).

رمضان يبكي أمجاده: تتابع القتل والتشريد والتنكيل بالعقيدة، أقصى وأقسى تنكيل على المسلمين خلال قرون، تلت هذا التاريخ. كان رمضان يجري بصمت كئيب وحس مغلوب ونظر باك على تلك الأمجـاد، حيث يمر وهو يحمل إليهم تلك الذكريات في شتى المواطن والصور والمرابع لِيَقُضَّ مَضجعًا. هم في ذلك البؤس - منكوبين مطاردين خائفين- ضاقت عليهم أرض الله حتى ليكادوا ينسون تلك الذكريات، أو يخافون استحضارها، فما عادوا يرونها، غابت عنهم عَقِبَ غيبة الكثير من أسبابه وحضور أخرى جديدة حفت بهم وأثقلتهم. كم ارتكبت محاكم التفتيش في إسبانيا، أو إن شئتم القول في الأندلس في حق المسلمين، أكبر الآثام في حربها للدين باسم ما ادعت زورًا من دين، حيث قضت على الملايين جاهدة لتطرد الإيمان والنور والخير والحضارة في أرضها ويخيم الظلم والظلام، بعدما زَهَتْ تلك الأيامُ في تلك الأرض بنور الله على مدى ما يزيد من ثمان مئة عام من الأعوام.

الحق لا يضيع: هل يبدو من الغريب أن ترى الآن في إسبانيا - مثلما في غيرها - تباشير الآمال ببداية انبثاق نور التعرف على الإسلام، تحمله قلوبٌ وأيدٍ وأقلامٌ تتبنى مفاهيمًا اعتمدتها علميًّا ودرسته وميزته، مثلما في أنحاء عديدة من عالمنا، يحدوها فهم ورغبة؛ بحثًا عن الحق، لا تجده إلا فيه وفيه وَحْـدَه، تتولى غرسه لاستنبات معانيه، لتزدهر في النفس وتنطلق صافية نقية كريمة، حيثما تستقر في أرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، شجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء. نرجو الله أن يوفق لذلك، لتحمل راياته في الديار عابرة إلى كافة الأقطار. ندعو الله أن يكون ذلك في كل مكان. كل من آمن من أي قوم هو من أهل هذه الراية وعليها حريص ولها عاشق وفي سبيلها مُجاهد ومُدافع ومُضَحٍّ.

رمضان البر والخير: على الدوام كان رمضان شهرَ البِر والخير، يزداد جمالًا بكثرة نعمه عند المسلمين. ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على الدوام ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، لكنه كان أجود ما يكون في رمضان، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه أجود من الريح المرسلة، وكان أكثر ما يكون عبادة فيه، وهو كثير العبادة على الدوام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكثير أعمال الخير. كان ذلك يتم باطراد يوم تمثل المسلمون بكل أوضاعهم ومواقعهم ومسؤولياتهم. معاني رمضان والقرآن الذي أُنْزِل فيه وسيرة الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أرادها الله تعالى أن يكون قدوة حسنة، صورة لهذا الدين فكان خلقه القرآن.

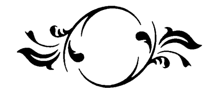
عَوْدٌ على بَدْء: الأمل الآن أن العودة الصادقة لهذا الدين آتية بعون الله تعالى، نشم روائحها ونرى أعلامها ونحس آثارها. تعلم أنّها تسلك طريق الجهاد والاستشهاد في الله وإقامة شرعه وحمل رايات هذا الدين. عندها ستسير أعلام الإسلام في البلاد خفاقة، تحوز جنته ورضاه يوم تلقاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هكذا تكون في الحياة تشيع أمنًا

وحضارة، تُهدي البشريةَ إنسانيتَها وتقيم نور الله في أرضه وتقوده إلى سعادته في الدارين. هي لأهل الأرض من كل الديار والأمصار والأجيال.

إذن لِيَكُن رمضان- وغيره أمثاله كذلك- عَبِقًا مباركًا مليئًا بالأمجاد القائمة على التقوى والطاعة. حاضرًا بيننا استشهادًا وجهادًا في كل ميدان، عندها ينصر الله من ينصره إنّ الله لقوي عزيز. بذلك تُعَطَّرُ كُلُّ الأيام والأعوام بنفحات الخير المباركة، مثل نفحات تلك الأيام المباركة المليئة بالبر والخير العميم، جديدة قوية مليئة بمعاني الإسلام ومناراته، إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين***

مدريد، 2006/07/30م

لا أكاد أذكر أين نُشر هذا الموضوع «الأندلس ونفحات من رمضان»، علمًا أن أكثر هذه الموضوعات كانت تُكتب بتكليف من جهة ما لتقوم بنشره لديها. هكذا كان هذا الاهتمام مثمرًا منتجًا منجزًا مثل هذه الأعمال العلمية النافعة إن شاء الله تعالى.



الأندلس *** في ذاكرة رمضان

(2/1): جهاد في كل ميدان: ما كانت الحياة في الإسلام وفي مجتمعاتنا الإسلامية، بجمال حضارتها الكريمة، موسميةً ولا متعلقة أو متوقفة أو مقتصرة ولا مُحْتَكَرة لمناسبات أو أزمنة، وإن كان لجملةٍ من ذلك مكانة خاصة، بل الخير والعمل الصالح، شامل للإنسان المسلم كله، أعماله وحياته وأقواله... لذلك كانت الانتصارات في الحياة الإسلامية والاندفاع نحو الخير والالتزام بشرع الله أحداثًا عامة، لكن هناك أمكنة وأزمنة لها مكانة خاصة وحُرمة، تستلزم زيادة في هذا الاتجاه ومسارعة إليه وإكثارًا من الخير.

تفاوت في الفضل: من الأمكنة مكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجد الأقصى، ثم مواقع ارتبطت بذكريات جميلة في التاريخ الإسلامي، كبلاد الأندلس وغيرها، ومن الأزمنة أيام وأشهر مميزة كأيام الحج وشهر رمضان، لا سيما ليلة القدر التي أَنْزَلَ الله فيها القرآن الكريم، وجعلها في الأجر خيرًا من ألف شهر. امتلكت هذه الأزمنة والأمكنة تلك المكانة، لِمَا جَرَى فيها من أشياء ذات صلة بقضايا إسلامية. كما استوعب التاريخ الإسلامي أحداثًا وانتصاراتٍ وأمورًا حملت فضلًا وطاعة وغفرانًا. هذه كلها لها مكانة لسبب أو أكثر ولها حرمة، مزيدًا من الأجر فيها يضاعف ثوابها، والسيئات يضاعف عقابها، وهذا مما يستريح له المسلم لينصرف إلى عبادة أو أكثر.

الحج ورمضان عبادتان، تتلوهما الأعياد يكون فيهما العمل والسعي استمتاعًا بنعمة الله ومنصرفًا إلى طاعة، مُمَتِّعًا النفسَ بلذتها، يستريح عندها المسلم... لكن ما دامت هذه عبادة وطاعة فقد وجدنا المسلمين مع ذلك لا يؤجلون واجبًا فيها أو جهادًا خلالها، بل يقترن كلّ ذلك ويكون مجمع فضائل؛ لأنّها كلها

قربى لله تعالى وطلب الأجر والرضا منه، هم يبحثون عنها، بل العمل خلالها أشرف وأكرم وأكبر أجرًا إن شاء الله تعالى.

سَعة معاني الجهاد: مثلما كانت هي جهادًا فكم منها احتوت على أعمال جهاد، ورمضان مثل الحج يُعتبر من أعمال الجهاد، وإن اختلف الشكل والصورة والأداء المرجو، لكنها حملت من معانيه وسارت في وُجْهَتِه وابتغت هدفَه من ذات المنطلق والتوجه!! جَرَتْ فيها من عجائب الأحداث ما يدل على قوة هذه المعاني في نفوس المسلمين، خلال العصور المتطاولة، فردية أو جماعية. أن تكون جماعية فذلك أوجب وأعجب، هذا بفضل الله في التاريخ الإسلامي كثير ووفير وشهير.

نماذج الأعمال والرجال: أرى في استعمال كلمة الرجال ما يدل على حالة معنوية إنسانية عالية تشمل المرأة والرجل والطفل، لذلك قد ترد الأمثلة عامة للجميع. هذا السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني الذي تولى ولايةَ الأندلس في رمضان سنة مائة للهجرة، كان يقود الجهاد في أرض الفِرَنْجَة (فرنسا) بنفسه، حتى أتاه شهر ذي الحجة فاستمر في جهاده، مستجيبًا لصوت فؤاده، حيث صاغت مرضاةُ الله كُلَّ هدفه، داعيًا إلى الله، رافعًا رايته، ناشرًا في الورى شريعته، استمر على ذلك يقود هذا الجهاد، يتقدم ويضع نفسه وجهده وحياته في معمعته.. فتلك معاني القيادة، حتى اسْتُشْهِد هناك يومَ عَرَفَة سنة 102هـ (721م)، عند مدينة طُولُوشَة Toulouse جنوب غربي فرنسا. تفرد أولئك باتِّبَاعهم أوامرَ هذا الدين الحق، بنوا بذلك الالتزام حياة المسلمين وأقاموا حضارتهم.

سبق أن ذكرنا - في عدد سابق منذ فترة - ما فعلته فاطمة الفِهْرية التي بَنَتْ جامع وجامعة القرويين في «فاس» بالمغرب، في أول يوم من رمضان سنة 245هـ من مالها الخاص. كانت هذه المعاني عامة نهض بها المجتمع الإسلامي نساءً ورجالًا وأطفالًا وهم كثيرون وهنّ كثيرات، لكن هذه بعض نماذج تنشر العطر الفواح

وأنت تفتح من كتابها صفحات، كان ذلك الكتاب مفتوحًا مستمر التسجيل مع خطوات الزمان، في أحداث مقروءة للناس يعيشونها ويحيون فيها وامتلأت بها الصفحات، مثلما امتلأت بهم الساحات والميادين.

بُطولات مرقومة معلومة: كم سطرت الحياةُ الإسلامية وحضارتُها - بفضل هذا الدين - من بطولات إنسانية وروائع حضارية ومآثر حياتية، تجلت في كل تاريخها، امتدت على بساط الزمان خضراء عطرة على مدار الأيام خلال كافة الأعوام. «الزلاقة» كانت يوم الجمعة 12 رجب من عام 479هـ (1086/10/23م) ومعركة «الأَرَك» في الأندلس قادها الموحدون ضد المد الصليبي الزاحف، بفضل الله سبحانه، واستشهد فيها جمع كبير من المسلمين، كان ذلك في شعبان من عام 591هـ (1194م).

كان رمضان عَبِقًا في الأمة الإسلامية على الدوام - ليس وَحْدَه كذلك - مثلما في الأندلس مباركًا حيًّا بالمواليد الكريمة من الفتوح والانتصارات في كل ميدان، امتلأت بالفرسان والشجعان، غَطَّى أرضَه الشهداءُ والعلماءُ والعُبَّاد والأنجاد والأحباء والأولياء، مواكب خضراء اتجهت إلى الله في كل حركة طاعة وعبادة ومحبة. إذا كان الحديث هنا يخص إقليم الأندلس أو يطوف به، فقد جَرَتْ خلال القرون الثمانية التي عاشها الوجود الإسلامي فيه، حضاريًّا وسياسيًّا وحركيًّا، على رأسه الدولة يحتضنها المجتمع ويُقوِّمها ويُصوِّبها، جَرَتْ أحداث كثيرة، كانت أيامها مليئة بالحركة والنشاط والحيوية، حتى خلال أحداثها المرة وأحوالها المكفهرة وظروف كئيبة ألّمت بها، منها في رمضان الذي حمل الروائح الزكية الندية، مثلما جَرَتْ فيه أحداث بائسة كانت أقسى على النفس وأشد وقعًا، وهو موضوع متسع. في رمضان عام 114هـ (732م) وقعت معركة «بَلاط الشهداء»، التي استمرّت عشرة أيام جنوب باريس بنحو مائتي كيلو متر، بين مدينتي «تور

Tours» - عند نهر «اللوار Loire» - و«بواتييه Poitiers» - على كلين Clain، رافد فيين Vienne أحد فروعه - بين الجيش الإسلامي بقيادة الإداري الحازم المقدام المجاهد الشهيد التابعي الجليل «عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي»، وبين الفِرَنْجة Franks بجموعهم الجرارة وبوحشيتهم وصليبيتهم بقيادة «شارل مارتل Charles Martel»، اسْتُشْهِدَ فيها القائدُ الفذ «عبدالرحمن الغافقي». كانت هذه المعركة شبيهة بمعركة مؤتة (8هـ = 629م) أيام الرسول الكريم ﷺ. أمور تدعو الدارسين لإعادة النظر والبحث عن كثير من الحقائق التي ما تزال بأشد الحاجة إلى دراسة وتدقيق. كان سقوط مدينة «سرقسطة Zaragoza» في شمالي الأندلس في رمضان سنة 512هـ (1118م)، وسقوط «بلنسية Valencia» في رمضان سنة 635هـ (1237م)، وسقوط «شاطبة Jativa» في رمضان سنة 645هـ (1247م)... فأي رمضان هذا، وأي مفارقات عما سبقت له من ماجريات أَنِسَت به.

تدفُّق المَدِّ الحضاري: جَرَى الفتح الإسلامي المبارك للأندلس ووقعت جملة من جلائله في رمضان، فسرية «طَرِيف بن مالك» الذي قاد الحملة الاستكشافية من الشمال الإفريقي، مبحرًا من ميناء مدينة سبتة Ceuta على مضيق جبل طارق سنة 91هـ (710م) خلال رمضان ذلك العام، لترسو سفائنُه في جزيرة «طريف Tarifa»، التي حملت اسمَه، بعد أداء مهمتها الاستطلاعية عاد ينقل أخبارًا سارَّة «لموسى بن نُصيْر» والي الشمال الإفريقي. ثم كانت الحملة التي تجهزت لفتح الأندلس بقيادة «طارق بن زياد»، واستقرت بعد رحيلها من سبتة - عَبْرَ هذا المضيق - على جبل طارق Gibratar، الذي حمل اسمَ ذلك القائد المجاهد، الذي قاد اثني عشر ألفًا من الجنود المسلمين، فرحين بحمل راية الإسلام إلى أول قطعة من أوربا وأرض جديدة، ينشرون فيها دين الله مهللين مكبرين يتسابقون إلى الشهادة،

انحدروا بدويهم الكريم يجلجل في الأفق، تعطره وتضمّخه وتضيء بنورها الفريد آياتُ الله الكريمة، قويةً منيرةً متلألئةً، من ذلك الجبل إلى الوادي الفسيح، حيث وادي (نهر) «بَرْباط Barbate». في اليوم الثامن والعشرين من رمضان كانت المعركة الفاصلة عام 92هـ (711م)، استمرت ثمانية أيام استوعبت ما تبقى من رمضان إلى شوال خلال العيد. فتح الله عليهم هذه البلاد ببركة جهادهم في هذه الأيام، تقدم خلالها من الشهداء، الذين فازوا بالشهادة والجنة إن شاء الله تعالى، ثلاثة آلاف شهيد، أولئك الذين ممن صدقوا البيعة مع الله ربهم، وأمثالُهم الآخرون، كلهم كانوا يتسابقون للفداء تلبية للنداء. كانت الحياة الإسلامية وفتوحاتها في كل الميادين، داعيةً وناشرةً عِطْرَه، بهذا اللون من الرفعة والإقدام والحب لله، لا تعرف غير ذلك، وعِشْق الموت في سبيل الله تعالى، فكيف بما دونه. بهذه الصفة وَحْدَها تُبْنَى الحياةُ الإسلامية على هُدَى هذا المنهج الرباني الكريم**.

(2/2، الأخيرة): الأندلس في ذاكرة رمضان: أمجاد قامت على التقوى، قيادة الفتح مستمرة: استمر الفتح الإسلامي يقوده الفاتحون يجوبون مدائن البلاد الأندلسية، ينشرون فيها الضياء، حتى كان رمضان من العام القابل 93هـ (712م)، حيث عَبَرَ موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس قادمًا إليها من سبتة، ميناء الفتوح عبر المضيق ليعسكر في الجزيرة الخضراء، حيث يتجمع جند الدعاة والدعاة الجنود فيها، يدرسون الأحوال ويضعون الخطط وينظمون الأمور لما افتتح من مواقع، منذ عبور طارق إليها قبل عام، حتى إذا ما استكمل جندُه العبورَ إليها براياتهم، بدءوا بما يلزم. لم يرحل عن الجزيرة التي اخضوضرت بدين الله، أجمل سبب لاسمها من هذا المعنى إلى خضرة البحر المضيق، حتى أقام فيها مسجد الرايات لاجتماعها بهاتيك الملتقى. في رمضان سنة 94هـ (713م) جَرَى فتح مدينة «ماردة Merida»

صلحًا، بعد حصار لأشهر سبقت من ذلك العام.لا شك أنّه خلال سني الفتح؛ حيث الانتصارات مستمرة على مدار سنواته الأربع أو تزيد، وبعدها عن أحداث جرى منها فيض رمضان غير قليل، استمرت السنوات والقرون على الأندلس، تدور أعوامها تحمل الأحداث المتنوعة وتبني لبنات الحياة الكريمة والحضارة المنيرة، متمثلة بكل أشكالها وأحوالها وصورها المضيئة، منبئة عن الحقائق الفضلى التي امتلكتها في رمضان وغيره، نستوقف بعضها في اختصار يستوعب عنها الأخبارَ.

نَصْرٌ مُتَحَضِّر وإبداعٌ مُتَجَذِّر: كم من انتصارات تعددت ميادينها وأضاءت معانيها واتسعت أخبارها جَرَتْ فيه، نصر هو الجهاد، رؤساؤه قادته الدعاة والأعلام وحاملو راياته من كل لون، بالسلاح في المعارك، في ميادين السلْم لإقامة الخير والحق والفضيلة عبادة خالصة، في مسجد يُقام وعِلْم ينتشر، وأداء طاعة وعمل، ودعوة لدين الله وتدوين بالأقلام على صفحاتٍ بيضٍ أبهى كلام، حق أقيم ومُثُل تَنْبُت وفضائل تُغْرَس تُسقى بماء واحد زلال كريم مَعين، تزدهر الحياة ويَعُمّ خيرُها، لكل من استظل بظلها وعاش في حِماها وتمتع بثَراها. كل ذلك يحرسها الدعاة من الميامين والمجاهدين وفي كافة الميادين في كل الأحوال والألوان والأنواع، أمر لا بد منه على الدوام وفي كافة الأوقات والأعوام حارس لا ينام.

في رمضان سنة 360هـ (970م) كان هجوم المجوس النورمان، من بلاد الدانمارك، على الأندلس فصَدَّهم المسلمون وحَمَوْا الأندلس من شرهم، عادوا خائبين لا يلوون في هذه – مثلما في غيرها - على شيء مما أرادوه. في رمضان أو قُبَيْلَه من عام 456هـ (1063م) حاصر وهاجم هؤلاء النورمان مدينة «بَرْبَشْترُ Barbastro» شمالي الأندلس - بعد أن تَنَصّروا - حثهم البابا «إسكندر الثاني»: إذا أرادوا التقرب وخدمة النصرانية أن يقتلوا المسلمين في الأندلس، الصليبية قديمًا مثلما تفعل

حديثًا لبست أثواب الدين. هكذا دخلوا المدينة بعد حصار دام أربعين يومًا أو يزيد، استباحوها في أبشع الصور المعروفة عن الصليبية التي جرت في الشرق الإسلامي. إذ ما جَرَى في الغرب الإسلامي أكثر منه ومُغْرِب في وحشيته، كانت هذه إحدى اللوحات السوداء ارتسمت بيد الصليبية العمياء. ارتكبوا من المناكر واستباحوا الأموال والدماء، وفتكوا بالناس وهتكوا الأعراض، إلى حد أنّهم انتقوا آلاف المسلمات الأبكار يوزعونهن هدايا على الزعماء من وحوش الملوك في أوربا الصليبية؟!

جَرَى ذلك رغم معاملة المسلمين للمغلوبين في تلك الديار - وأيٍّ غيرها دوامًا - خيرَ معاملة عَرَفَها التاريخ، معبرة عن معاني هذا الدين ومنهجه الرباني الكريم. لكن شاء الله أن يُردَّ الكيدَ ويجتمع المسلمون بنداء الجهاد «الله أكبر»، ليتقاطر إلى تلك المدينة في هاتيك الظروف من أيام الطوائف البائسة بسيوف الجهاد، وينظفوا تلك المدينة ويغسلوها من النجس، ويجلوا عنها تلك الوحوش الكاسرة، ومن الغريب أنّه في كل تلك الأحداث اسْتُشْهِدَ خمسون مجاهدًا من المسلمين، حقًا إنّ ضحايا الجبن والخوف أكثر بكثير من الجرأة والإقدام والتقدم للبذل والتضحية، البون واضح في حقيقته ومدلوله ونتائجه، في الصورة والمعنى، والجزاء جزاء الإيمان وشجاعته وإقدامه على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله؛ طلبًا لرضاه والإيواء، والاحتماء بظله يوم القيامة إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عِبْرَةُ التلقّي والمُحاكاة: هكذا نسير لنتقدم للقارئ بشرائح ولقطات من تلك الأمجاد الشامخات خلال هذا الشهر الكريم. في رمضان من عام 528هـ (1134م) أيام المرابطين، كانت معركة «إفراغه Fraga» شمالي الأندلس التي انتصر فيها المسلمون، صفحة من التضحيات والجهاد دفاعًا عن الدين وأهله، يقوده المرابطون الأنجاد وأهل الجهاد من الشمال الإفريقي.

انفراط آخر العقْد: ثم تمضي السنوات التي دُكّت فيها كثير من الحصون وتناقصت الديار، لكنها ما كانت تخلو من الجهاد وصفحات بيضاء، حتى كانت آخر العِقْد مملكة «غرناطة»، التي ابتُدِئَ تأسيسُها مملكةً ببيعة الشيخ الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر المعروف: «ابن الأحمر» في رمضان سنة 635هـ (1237م)، حيث تتابعت الأحداث المتنوعة مَدًّا وجَزْرًا، حتى الاستسلام أخيرًا، ثم سقوط وتسليم هذه المملكة في الثاني من ربيع الأول سنة 897هـ (1492/1/2م).

محنة التفتيش ومدلولها: تتابع القتل والتشريد والتنكيل المريع بالعقيدة وأهلها، أقصى وأقسى وأفنى تنكيل على المسلمين خلال قرون تلت هذا التاريخ. كان رمضان يجري بصمت كئيب وحس مغلوب ونظر باك على تلك الأمجاد، حيث يمر وهو يحمل إليهم تلك الذكريات في شتى المَواطن والصور والمرابع، ليقضّ مضجعًا ومَهْجَعًا، وهم في ذلك البؤس منكوبون مطاردون خائفون ضاقت عليهم أرض الله، حتى ليكادوا ينسون تلك الذكريات الباهرات النيرات المتكاثرات، فما عادوا يرونها، غابت عنهم عقب تغيرات متنوعة حَلَّت. كم ارتَكَبَتْ محاكمُ التفتيش في إسبانيا والبرتغال - أو إن شئت القول في الأندلس الذبيح - في حق المسلمين أكبر الآثام في حربها للدين، باسم ما ادعت زورًا من دين، حيث قضت على الملايين جاهدة لتطرد الإيمان والنور والخير والحضارة في أرضها، يخيم الظلم والظلام، بعدما زهت تلك الأيام في تلك الأرض بنور الله تعالى، على مدى ما يزيد على 800 عام من الأعوام، امتلأت خيرًا وبِرًّا.

تجدد الآمال والإقبال: هل يبدو من الغريب أن ترى الآن أو فيما بعد في إسبانيا تباشير الآمال- كما في غيرها- ببداية انبثاق نور الإسلام تحمله قلوبٌ من أهلها القائمين، قادمة إليه يومًا تعتنقه، رغم ما خلّفته تلك الأحداث من تغلغل تلك الروح

من مكامن ومواطن الصليبية العجوز العتيقة، التي لا بد أن يَعِفَّ عليها الزمن، بتوفر حسن النظر الذي بدأ يتجدد وينمو ويفرع، تتولى غرسه وتستنبت معانيه؛ لتزدهر في النفس وتنطلق في تلك الأرض الكريمة الندية الأبية، شجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء لتؤتي أكلها جديدًا. كان رمضان على الدوام شهرَ البر والخير، يزداد جمالًا وكثرة ونعمة عند المسلمين.

مستقبلُ الأيام وَلُود: كان ذلك يتم باطراد، يوم تمثل المسلمون بكل أوضاعهم ومواقعهم ومسؤولياتهم مَعانيَ رمضان والقرآن الذي أُنْـزِلَ فيه، وسيرةَ الرسول الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، التي أرادها الله تعالى أن تكون قدوة حسنة، صورةً لهذا الدين العظيم فكان خُلُقه القرآن. الأمل الآن أن تكون العودة الصادقة لهذا الدين آتية بعون الله تعالى، نشم روائحها ونرى أعلامها ونحس آثارها، تعلم أنّها تسلك طريق الجهاد والاستشهاد في الله، وإقامة شرعه وحمل رايات هذا الدين، عندها ستسير أعلام الإسلام في البلاد خفاقة، تحوز جنته ورضاه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إن شاء الله، في الحياة تشيع أمنًا وحضارة تهدي البشرية إنسانيتَها وتقيم نورَ الله في أرضه وتقوده إلى سعادته في الدارين، لأهل الأرض من كل الديار والأمصار والأجيال.ليكن رمضان وغيره كذلك عَبِقًا مباركًا مليئًا بالأمجاد القائمة على التقوى والطاعة، وهو حاضر بيننا استشهادًا وجهادًا في كل ميدان، عندها ينصر الله من ينصره إنّ الله لقوي عزيز. بذلك تتعطر كُلُّ الأيام والأعوام بنفحات الخير، مثل نفحات تلك الأيام الكريمة المباركة المزدهرة، جديدة قوية مليئة بمعاني الإسلام إن شاء الله تعالى. كل الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات***

نُشِرَ هذا البحثُ: «الأندلس في ذاكرة رمضان»، في مجلة المجتمع الكويتية في العددين: 1866 و1867، رمضان 1430هـ = 2009م.

الأندلس ظلال رمضانية

▪ برنامج يومي رمضاني، يَجْلِبُ نَسَماتٍ أندلسية، مُسْتَحْضِرًا مقدماتٍ تقود إلى بعضِ أحداثٍ وصُوَرٍ وصِيَغٍ تَمَّتْ فيه، مما يتعلق بأشق الأعمال الجهادية، جَرَتْ خلال سِنِيِّه المُتَلاحِمة. أُذِيعَ هذا البرنامج من إذاعة القرآن الكريم الكويتية خلال شهر رمضان المبارك في سنة سابقة. لكن يبدو أنه غير مكتمل الموضوع، إذ فقد باقي ملفه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد وعلى آله وصحابته أجمعين ومن تَبِعَ هداه إلى يوم الدين.

الإهداء

▪ إلى كل أهلنا الأندلسيين الذين أحبوا هذا الدين وأحببناهم، خدموه وافتدوه مجاهدين بكل نية وهيئة وهنيهة، ملأوا أرضه خيرًا. افتدوه وعضوا عليه بالنواجذ، حتى وقتَ الشدة، رغم البلاء واللأواء والغوغاء، قاوموا محاكم التفتيش حتى آخر رمق. ذهبوا إلى ربهم يشكون ظلم مَنْ قَدَّموا لهم العلم والسماحة وحضارة الإيمان، بَنَوْا القيم والفضائل والحياة الكريمة لسعادة الإنسان. بذلوا النفس قبل النفيس مُتأبِينَ على كل أنواع الهتك والفتك والحرق. إليهم جميعًا وإلى أمثالهم ممن ما يزالون يَحِنّون إلى تلك المعاني ويفخرون بالانتساب إليها، مثل تلك الأميرة الدوقة الإسبانية وأسرتها القائمة، التي قالت: إنها تنتسب إلى الإسلام، بل إن جُلَّ إن لم يكن كُلُّ الإسبان مثلها نسبًا. لعلهم في يوم يعودون إلى مرابعهم وأحضانهم ومكناتهم، يومٌ مشرق بالنور يقدره الله تعالى ويعين عليه آمين.

تقديم: ما كانت الحياة في الإسلام وفي مجتمعاتنا الإسلامية بجمال حضارتها موسمية، ولا متعلقة أو متوقفة أو مقتصرة ولا مُحْتَكَرة لمناسبات أو أزمنة، وإن كان لجملةٍ من ذلك مكانة خاصة، بل الخير والعمل الصالح شامل للإنسان المسلم كله، وأعماله وحياته وأقواله. لذلك كانت الانتصارات في الحياة الإسلامية والاندفاع نحو الخير والالتزام بشرع الله عامًّا جدًّا. ولكن هناك أمكنة وأزمنة لها مكانة خاصة وحرمة، تستلزم زيادة في هذا الاتجاه وحلاوة فيه ومسارعة إليه وإكثارًا في الخير.

التفاوت في الفضل: من الأمكنة مكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجد الأقصى، ثم مواقع ارتبطت بذكريات جميلة في التاريخ الإسلامي. من الأزمنة أيام وأشهر مميزة كأيام الحج ورمضان الذي أنزل فيه القرآن، لا سيما ليلة القدر التي أنزل الله فيها القرآن الكريم، وجعلها في الأجر خيرًا من ألف شهر. وامتلكت هذه تلك المكانةَ لِمَا جَرَتْ في تلك الأزمنة من أشياء ذات صلة بقضايا إسلامية.

استوعب التاريخ الإسلامي أحداثًا وانتصاراتٍ وأمورًا حملت فضلاً وطاعة وغفرانًا. فهذه كلها لها مكانة، لسبب أو أكثر، لها مثابةٌ وحرمة، الأجر فيها يضاعف ثوابها، والسيئات يضاعف عقابها. هذه ربما يستريح فيها المسلم لينصرف إلى عبادة أو أكثر. الحج ورمضان عبادتان، تتلوهما الأعياد يكون فيهما العمل والسعي استمتاعًا بنعمة الله ومنصرَفًا إلى طاعة، مُمَتِّعًا النفسَ بلذتها، يستريح عندها المسلم. لكن ما دامت هذه عبادة وطاعة فقد وجدنا المسلمين مع ذلك لا يؤجلون واجبًا فيها أو جهادًا خلالها، بل يقترن كلّ ذلك ويكون مجمعَ فضائل، لأنّها كُلَّها قُربى لله تعالى وأجرًا ورضا، هم يبحثون عنها، بل العمل خلالها أشرف وأكرم وأكبر أجرًا إن شاء الله تعالى.

سَعة معاني الجهاد: مثلما كانت هي جهادًا فكم منها احتوت على أعمال جهاد. ورمضان مثل الحج يُعتبر من أعمال الجهاد، وإن اختلف الشكل والصورة والأداء المرجو، لكنها حملت من معانيه وسارت في وُجهته وابتغت هدفَه من ذات المنطلق والتوجه!!! جَرَتْ فيها من عجائب الأحداث ما يدل على قوة هذه المعاني في نفوس المسلمين، خلال العصور المتطاولة، فردية أو جماعية، وأن تكون جماعة فذلك أوجب وأعجب. كُلُّها بفضل الله في التاريخ الإسلامي كثير ووفير وشهير.

نماذج الأعمال والرجال: هذا السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني الذي تولى ولايةَ الأندلس في رمضان سنة مئة للهجرة، كان يقود الجهاد في أرض الفرنجة (فرنسا) بنفسه، حتى أتاه ذو الحجة فاستمر في جهاده، مستجيبًا لصوت فؤاده، حيث صاغت مرضاةُ الله كُلَّ هدفه، داعيًا إلى الله، رافعًا رايته ناشرًا في الورى شريعته. استمر على ذلك يقود هذا الجهاد، يتقدم ويضع نفسه وجهده وحياته في معمعته. تلك معاني القيادة، حتى استشهد هناك. يا لله في يوم عرفة سنة 102هـ، عند مدينة طُلوشة Toulouse جنوبي فرنسا، لقد تفرد أولئك بهذا الدين الحق وبنوا بذلك الالتزام حياة المسلمين وأقاموا حضارتها.

سَبَقَ أنْ ذُكِرَ - في غير هذا المكان - ما فعلته فاطمة الفِهْرية التي بنت جامع وجامعة القرويين في فاس بالمغرب، في أول يوم من رمضان سنة 245هـ من مالها الخاص.

كانت هذه المعاني عامة نهض بها المجتمع الإسلامي نساءً ورجالًا وأطفالًا، وهم كثيرون وهنّ كثيرات لكن هذه بعض نماذج تنشر العطر الفواح وأنت تفتح من كتابها صفحات، كان ذلك الكتاب مفتوحًا مستمر التسجيل مع خطوات الزمان،

مقروءة للناس يعيشونها ويحيون فيها وامتلأت بها الصفحات، مثلما امتلأت بهم الساحات.

بُطولات مرقومة معلومة: كم سطرت الحياةُ الإسلامية وحضارتُها - بفضل هذا الدين - من بطولات إنسانية وروائـع حضارية ومآثر حياتية، تجلت في كل تاريخها امتدت على بساط الزمان خضراء عطرة على مدار الأيـام خلال كافة الأعوام.

كانت معركة الزلاقة يوم الجمعة 12 رجب من عام 479هـ ومعركة الأَرَك في الأندلس قادها الموحدون ضد المد الصليبي الزاحف، بفضل الله سبحانه، استشهد فيها جمع كبير من المسلمين، كان ذلك في شعبان من عام 591هـ.

كان رمضان عَبِقًا في الأمة الإسلامية على الدوام -ليس وَحْدَه كذلك- مثلما في الأندلس مباركًا حيًّا بالمواليد الكريمة من الفتوح والانتصارات في كل ميدان، امتلأت بالفرسان والشجعان، غَطَّتْ أرضَه الشهداءُ والعلماءُ والعُبَّاد والأنجاد والأحباء والأولياء، مواكب خضراء اتجهت إلى الله في كل حركة طاعة وعبادة ومحبة.

نجد أحداثًا بعضها فاصلًا احتواها رمضان في التاريخ الإسلامي بعد نزول القرآن فيه، ابتداء من بدر (2هـ) وخلال القرون والأجيال في كافة بقاع العالم الإسلامي، مثل فتح مكة سنة 8هـ، كان في رمضان. عودة الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجيش الإسلامي من معركة تبوك كانت في رمضان سنة 9هـ. كذلك بعد قرون معركة عين جالوت ضد المغول جرت وقائعها في رمضان من عام 658هـ، كانت كأخواتها مباركة بفضل من الله تعالى. هي وأمثالها كثير في رمضان مثلما كثرت في غير رمضان، لكن أَنْ تجري في هذا الشهر فهو تأكيد لمعانيه وإظهار

لحقيقته وبيان لقوته وعمق أثره والتعلق بمعاني الخير في كل ذلك، إلى حد لا يمكن أن يحدث ذلك إلّا بهذا الدين، بصراحة أو بوضوح أكثر -إن شئتم القول- لا تتم هذه الفتوحات الباهرة المتنورة المباركة، إلّا في ظله وبألوان باهية زاهية أصيلة، لا تجري إلّا في تياره الكريم. لَكَم كنت أود أن أتوسع في البحث عن هذه الأعمال والمنجزات وإبداعات كذلك، أعني في أعمال المجتمع المسلم في الأندلس وغيره، علمية ومعمارية وإنسانية كرائم فخر، لكن للأسف لم تسعفني المصادر المتوفرة الآن. ذلك لفقدانها أو ما زالت على حالها مخطوطة. مثلما أحببت أن يتبين لعموم المجتمع دورُهم البَنَّاء لأعلاء الحياة الإسلامية بعماراتها الناطحات التي لا تُسابق، لا سيما المرأة المسلمة المباركة ميمونة النقيبة البانية النجيبة.

أُخرى مرقومة مظلومة: إذا كان الحديث هنا يخص الأندلس أو يطوف به، فقد جرت خلال القرون الثمانية التي عاشها الوجود الإسلامي فيه، حضاريًا وسياسيًّا وحركيًّا، على رأسه الدولة يحتضنها المجتمع ويقومها ويصوبها، جَرَتْ أحداثٌ كثيرة، كانت أيامها مليئة بالحركة والنشاط والحيوية، حتى خلال أحداثها المُرَّة وأحوالها المكفهرة وظروفٍ كئيبة ألّمت بها، منها في رمضان الذي حمل الروائح الزكية الندية، مثلما جرت فيه أحداث بائسة كانت أمضى على النفس وأشد وقعًا، وهو موضوع متسع.

في رمضان عام 114هـ(732م) وقعت معركة بلاط الشهداء، التي استمرّت عشرة أيام جنوب باريس نحو مئتي كم، بين مدينتي تور وبواتييه عند نهر اللوار، بين الجيش الإسلامي بقيادة المجاهد الشهيد عبد الرحمن الغافقي، وبين الفرنجة بوحشيتهم وصليبيتهم وجموعهم الجرارة بقيادة شارل مارتل، استشهد فيها القائد المجاهد الإداري الفذ المسلم. كانت هذه المعركة ذات شبه بمعركة مؤتة (8هـ)،

تدعو الدارسين لإعادة النظر والبحث عن كثير من الحقائق التي ما تزال بأشد الحاجة إلى بحث وتدقيق مكيث.

كان سقوط مدينة سرقسطة في شمالي الأندلس في رمضان سنة 512هـ. سقوط بَلَنْسيَة في رمضان سنة 635هـ. سقوط شاطبة في رمضان سنة 645هـ. أي رمضان يمر هذا وأي مفارقات عما سبقت له من ماجريات (مجريات) أَنِسَت به.

تدفُّق المَدِّ الحضاري: جَرَى الفتحُ الإسلامي المبارك للأندلس ووقعت جملة من جلائله في رمضان. سَرِيَة طَرِيف بن مالك، الذي قاد الحملة الاستكشافية من الشمال الإفريقي، مبحرًا من ميناء مدينة سبتة على مضيق جبل طارق سنة 91هـ خلال رمضان ذلك العام، لترسو سفائنُه في جزيرة طريف، التي حملت اسمه. بعد أداء مهمتها الاستطلاعية عاد ينقل أخبارًا سارَّة لموسى بن نصير والي الشمال الإفريقي. ثم كانت الحملة التي تجهزت لفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد، واستقرت بعد رحيلها من سبتة - عبر المضيق هذا - على جبل طارق، الذي حمل اسمَ ذلك القائد المجاهد. قاد اثني عشر ألفًا من الجنود المسلمين، فرحين بحمل راية الإسلام إلى أول قطعة من أوربا أرضًا جديدة، ينشرون فيها دين الله مهللين مكبرين يتسابقون إلى الشهادة. انحدروا بدَوِيِّهم الكريم يُجَلْجِل في الأفق تعطره وتضمخه آياتُ الله، قوية منيرة من ذلك الجبل إلى الوادي الفسيح، حيث نهر بَرْباط. في اليوم الثامن والعشرين من رمضان كانت المعركة الفاصلة عام 92هـ، استمرت ثمانية أيام استوعبت ما تبقى من رمضان إلى شوال خلال العيد. فتح الله عليهم امتنانًا ببركة هذا الدين نَصْرَه الكريم، تقدم خلالها من الشهداء فازوا بالشهادة والجنة إن شاء الله تعالى، ثلاثة آلاف شهيد. أولئك الذين ممن صدقوا البيعة مع الله ربهم وأمثالهم الآخرون، كلهم كانوا يتسابقون للفداء. كانت الحياة الإسلامية

وفتوحاتها في كل الميادين، داعية وناشرة عطره، بهذا اللون من الرفعة والإقدام والحب لله، لا يعرف غير ذلك، عشق الموت في سبيل الله تعالى، كيف بما دونه. بهذه الصفة وَحْدَها تُبْنَى الحياةُ الإسلامية على هُدَى هذا المنهج الرباني الكريم.

الخير مستمر منهمر: استمر الفتح الإسلامي يقوده الفاتحون يجوبون مدائن البلاد الأندلسية، ينشرون فيها الضياء، حتى كان رمضان من العام القابل 93هـ، حيث عَبَرَ موسى بن نصير إلى الأندلس قادمًا إليها من سبتة، ميناء الفتوح عبر المضيق ليعسكر في الجزيرة الخضراء، حيث يتجمع جند الدعاة والدعاة الجنود فيها، يدرسون الأحوال ويضعون الخطط وينظمون الأمور لما افتتح من مواقع، منذ عبور طارق إليها قبل عام. حتى إذا ما استكمل جندُه العبورَ إليها براياتهم، لم يرحل عن الجزيرة التي اخضوضرت بدين الله، أجمل سبب لاسمها من هذا المعنى إلى خضرة البحر المضيق، حتى أقام فيها مسجد الرايات لاجتماعها في هاتيك الملتقى. في سنة 94هـ في رمضانها جرى فتح مدينة ماردة صلحًا، بعد حصار لأشهر سبقت من ذلك العام.

لا شك أنّه خلال سِني الفتح حيث الانتصارات مستمرة على مدار سنواته الأربع أو تزيد، بَعْدَها عن أحداث جَرَى منها فيضُ رمضان غير قليل. استمرت السنوات والقرون على الأندلس تدور أعوامها تحمل الأحداث المتنوعة، تبني لبنات الحياة الكريمة والحضارة المنيرة، متمثلة بكل أشكالها وأحوالها وصورها المضيئة، منبئة عن الحقائق الفضلى التي امتلكتها في رمضان وغيره، نستوقف بعضها في اختصار يستوعب الأخبارَ عنها.

نَصْرٌ مُتَحَضِّر وإبداعٌ مُتَجَذِّر ونتاجٌ مُتَحَرِّر: كم من نصر تعددت ميادينه وأضاءت معانيه واتسعت أخباره جرت فيه. نصر هو الجهاد، رؤساؤه قادته الدعاة والأعلام

وحاملو راياته من كل لون، بالسلاح في المعارك وفي ميادين السلم لإقامة الخير والحق والفضيلة عبادة خالصة، في مسجد يقام وعلم يحرر وينتشر، أداء طاعة وعمل، دعوة لدين الله وتدوين بالأقلام على صفحات بيض أبهى كلام، حق أقيم ومُثُل تَنْبُت وفضائل تُغْرَس تسقى بماء واحد كريم، تزدهر الحياة ويعم خيرها، لكل من استظل بظلها وعاش في حِماها وتمتع بثَراها. كل ذلك يحرسها الدعاة من الميامين والمجاهدين في كل الأحوال والألوان والأنواع، أمر لا بد منه على الدوام وفي كافة الأوقات والأعوام حارس لا ينام.

في رمضان سنة 360هـ كان هجوم المجوس النورمان، من بلاد الدانمارك، ذلك على الأندلس، صدهم المسلمون وحَمَوْا الأندلس من شرهم، عادوا خائبين لا يلوون في هذه على شيء مما أرادوه.

في رمضان أو قُبَيْلَه من عام 456هـ حاصر وهاجم هؤلاء النورمان مدينة بَرْبَشْترُ شمالي الأندلس - بعد أن تنصَّروا - حثهم البابا إسكندر الثاني إذا أرادوا التقرب وخدمة النصرانية، عليهم أن يقتلوا المسلمين في الأندلس. الصليبية قديمًا مثلما تفعل حديثًا لبست أثواب الدين. دخلوا المدينة بعد حصار أربعين يومًا أو يزيد، استباحوها في أبشع الصور المعروفة عن الصليبية، التي جَرَتْ خلال ما نعرف في الشرق الإسلامي. إذ ما جَرَى في الغرب الإسلامي كثير منها ومُغْرِب في وحشيته. هذه إحدى اللوحات السوداء ارتسمت بيد الصليبية العمياء، ارتكبوا من المناكر واستباحوا الأموال والدماء وفتكوا بالناس وهتكوا الأعراض، إلى حد أنّهم انتقوا آلاف المسلمات الأبكار يوزعونها هدايا على الزعماء من وحوش الملوك في أوربا الصليبية!!؟ جَرَى ذلك رغم معاملة المسلمين للمغلوبين في تلك الديار خيرَ معاملة عَرَفَها التاريخ، معبرةً عن معاني هذا الدين ومنهجه الرباني الكريم، لكن شاء

الله أن يَرُدَّ الكيدَ ويجتمع المسلمون بنداء الجهاد «الله أكبرُ»، ليتقاطر إلى تلك المدينة في هاتيك الظروف – أيامَ الطوائف البائسة - بسيوف الجهاد وينظفوا تلك المدينة ويغسلوها من النجس ويجلو عنها تلك الوحوش الكاسرة. من الغريب أنّه في كل تلك الأحداث اسْتُشْهِدَ خمسون مجاهدًا من المسلمين. حقًّا إنّ ضحايا الجبن والخوف أكثر بكثير من الجرأة والإقدام والتقدم للبذل والتضحية، البون واضح في حقيقته ومدلوله ونتائجه، في الصورة والمعنى. الجزاء جزاء الإيمان وشجاعته وإقدامه على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله؛ طلبًا لرضاه، والإيواء والاحتماء بظله يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

عِبْرَةُ التلقي والمُحاكاة: هكذا نسير لنتقدم للقارئ بشرائح ولقطات من تلك الأمجاد الشامخات خلال هذا الشهر الكريم. في رمضان من عام 528هـ أيام المرابطين، كانت معركة إفراغه شمالي الأندلس التي انتصر فيها المسلمون، صفحة من التضحيات والجهاد دفاعًا عن الدين وأهله، يقوده المرابطون الأنجاد وأهل الجهاد للشمال الإفريقي.

انفراد آخر العِقْد: ثم تمضي السنوات التي دُكَّت فيها كثير من الحصون وتناقصت الديار، لكنها ما كانت تخلو من الجهاد وصفحات بيضاء، حتى كانت آخر العِقْد مملكة غرناطة التي ابتدأ تأسيسُها مملكةً ببيعة الشيخ الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر المعروف: ابن الأحمر، في رمضان سنة 635هـ، حيث تتابعت الأحداث المتنوعة مَدًّا وجَزْرًا، حتى استسلام ثم سقوط وتسليم هذه المملكة في الثاني ربيع الأول سنة 897هـ (1492/1/2م).

محنة التفتيش ومدلولها: تتابع القتل والتشريد والتنكيل المريع بالعقيدة وأهلها، أقصى وأقسى وأفنى تنكيل على المسلمين خلال قرون، تلت هذا التاريخ.

كان رمضان يجري بصمت كئيب وحس مغلوب ونظر باك على تلك الأمجاد، حيث يمر حاملًا إليهم تلك الذكريات في شتى المَواطن والصور والمرابع؛ ليقضَّ مضجعًا ومَهْجَعًا. هم في ذلك البؤس منكوبين مطاردين خائفين ضاقت عليهم أرض الله، حتى ليكادوا ينسون تلك الذكريات الباهرات النيرات المتكاثرات، فما عادوا يرونها، غابت عنهم عقب غيبة الكثير من الظروف المعتادة لسعيهم. كم ارتَكَبَتْ محاكمُ التفتيش في إسبانيا والبرتغال – أو إن شئت القول في الأندلس الذبيح - في حق المسلمين، أكبر الآثام في حربها للدين باسم ما ادعت زورًا من دين، حيث قضت على الملايين جاهدة لتطرد الإيمان والنور والخير والحضارة في أرضها، يخيم الظلم والظلام، بعدما زهت تلك الأيام في تلك الأرض بنور الله تعالى، على مدى ما يزيد من ثمان مئة عام من الأعوام امتلأت خيرًا وبِرًّا.

تجدد الآمال والإقبال: هل يبدو من الغريب أن ترى الآن أو فيما بعد في إسبانيا – في غيرها كذلك - تباشير الآمال ببداية انبثاق نور الإسلام تحمله قلوب من أهلها القائمين، قادمة إليه يومًا، تعتنقه رغم ما خلعته تلك الأحداث من تغلغل تلك الروح من مكامن وبواطن الصليبية المتنمرة العتيقة، التي لا بد أن يَعِفَّ عليها الزمن، بتوفر حسن النظر، الذي بدأ يتجدد وينمو ويفرع، تتولى غرسه وتستنبت معانيه، لتزدهر في النفس وتنطلق في تلك الأرض الكريمة الندية الأبية، شجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلَها جديدًا إن شاء الله تعالى.

نرجو من الله أن يوفِّق ذلك لتحمل راياته في تلك الديار عابرة إلى ما بعدها من أقطار، ندعو الله أن يكون ذلك في كل مكان، كل من آمن من أي قوم يكون من أهل هذه الراية، عليها حريص ولها عاشق وفي سبيلها مجاهد ومدافع ومضحٍّ.

* كان رمضان على الدوام شهرَ البر والخير، يزداد جمالًا وكثرة ونعمة عند المسلمين. كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدوام ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، لكنه كان أجودَ ما يكون في رمضان، كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه أجودَ من الريح المرسلة، كان أكثر ما يكون عبادة فيه وهو كثير العبادة على الدوام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكثير أعمال الخير في كل الأيام.

* مستقبلُ الأيام وَلُود: أتحدث هنا عن معانٍ وأحداث وظلال رمضانية أندلسية، تتوارد معها وتتداخل وتتعانق أمور أخرى حولها، كل ذلك أُورد له من الشواهد والوقائع والمَشاهد، ما يوضحها ويبينها ويظهر قيمتها العالية الزاكية، أمثلة أستشهد بها. بهذا تُذْكَر قضيةٌ مهمة أكثر من مرة، لكن بشكل مختلف ومتنوع يتم إبراز جانب آخر من الموضوع يتناسق مع القضية التي يستشهد بها، لا يخلو من إضافة وسعة وشرح لم يكن سبق إيراده، حيث أحيانًا قد لا يكون التقديم دومًا زمنيًّا بل موضوعيًّا. هذا يعني حين ذكر أية ظاهرة تجلب لها الأمثلة تتوفر في قضية ذكرت لشاهد فيها وتكرارها تذكر في موقع آخر لشاهد آخر تحتويه هنا.

* ذلك يتم باطراد، يومَ تَمثَّل المسلمون بكل أوضاعهم ومواقعهم ومسؤولياتهم معانيَ رمضان والقرآنَ الذي أُنْزِلَ فيه. وسيرةُ الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي أرادها الله تعالى أن تكون قدوة القدوات وأُسوة حسنة، صورةً لهذا الدين العظيم، كان خُلُقُه القرآنَ.

* الأمل الآن أن تكون العودة الصادقة لهذا الدين آتية بعون الله تعالى، نشم روائحها ونرى أعلامها ونحس آثارها، تَعْلَم أنّها تسلك طريق الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وإقامة شرعه وحمل رايات هذا الدين. عندها ستسير أعلام الإسلام في البلاد خفاقة، تحوز جنته ورضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إن شاء الله. وفي الحياة تشيع أمنًا

وحضارة تهدي البشرية إنسانيتَها وتقيم نورَ الله في أرضه وتقوده إلى سعادته في الدارين، لأهل الأرض من كل الديار والأمصار والأجيال.

ليكن رمضان وغيره كذلك عَبِقًا مباركًا مليئًا بالأمجاد القائمة على التقوى والطاعة، حاضر بيننا استشهادًا وجهادًا في كل ميدان. عندها ينصر الله من ينصره إنّ الله لقوي عزيز. بذلك تتعطر كُلُّ الأيام والأعوام بنفحات الخير، مثل نفحات تلك الأيام الكريمة المباركة المزدهرة، جديدة قوية مليئة بمعاني الإسلام إن شاء الله تعالى. كل الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات***

المعركة الكبرى اقتران: أواخر الثلث الأخير من رمضان سنة 92هـ (711م) كانت المعركة الفاصلة، استمرت ثمانية أيام استوعبت ما تبقى من رمضان إلى شوال خلال العيد وبعده، فَتَحَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم امتنانًا ببركة هذا الدين نصره الكريم. تقدم خلالها ثلاثة آلاف شهيد فازوا بالشهادة والجنة إن شاء الله تعالى. أولئك الذين صدقوا البيعة مع الله تعالى ربهم وأمثالهم. كانت الحياة الإسلامية وفتوحاتها في كل الميادين، داعية وناشرة عِطره بهذا اللون من الرفعة والإقدام؛ إذ الحب لله لا يعرف غير ذلك، عشق الموت في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف بما دونه. بهذه تكون الصفة الكريمة وَحْدَها تُبنى الحياة الإسلامية.

كم من نصر تعددت ميادينه وأضاءت معانيه واتسعت أخباره جَرَتْ في هذا الشهر المبارك الكريم. نصر هو الجهاد، رؤساؤه قادته الدعاة والأعلام وحاملو راياته من كل لون، بالسلاح في المعارك. في ميادين السلم لإقامة الخير والحق والفضيلة عبادة خالصة، في مسجد يُقام وعِلْمٍ ينشر وأداء طاعة وعمل ودعوة لدين الله تعالى وتدوين بالأقلام على صفحات بيض أبهى كلام. حق أُقيم ومُثُل تنبت وفضائل تغرس، تسقى بماء واحد كريم، تزدهر الحياة الفاضلة، يعم خيرها لكل من

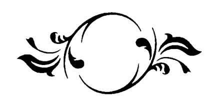
استظل بظلها وعاش في حماها وتمتع بثراها. كل ذلك يحرسها الدعاة من الميامين والمجاهدين في كل الأحوال والألوان والأنواع، أمر لا بد منه على الدوام.

على الدوام كان رمضان شهر البر والخير، يزداد جمالًا وكثيرة خيراته ونعمه عند المسلمين. رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على الدوام ينفق إنفاقَ من لا يخشى الفقر، لكنه كان في شهر رمضان أجودَ من الريح المُرْسَلة، كما كان أكثر ما يكون عبادة فيه وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير العبادة دوامًا، كثير أعمال البر.

كل ذلك كان يتم باطراد يوم تمثل المسلمون بكل أوضاعهم ومواقعهم ومسؤولياتهم معاني رمضان والقرآن الذي أُنزل فيه، وسيرة الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أراد الله تعالى أن يكون قدوة حسنة، صورةً مُثْلَى لهذا الدين، كان خلقه القرآن.

ذلك منهج الله تعالى الأخذ به يقود لسعادة الداريْن، موجه لأهل الأرض أجمعين من كل الديار والأجيال والأمصار. عندها ينصر الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.

بذلك تتعطر كُلُّ الأيام والأعوام بنفحات الخير، مثل نفحات تلك الأيام المباركة المليئة بالخير العميم، جديدةً قوية مليئة بمعاني الإسلام إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين *



رمضان في الأندلس

يتمتعُ شهرُ رمضان بمكانةٍ عظيمة في الحياة الإسلامية وحضارتها وتاريخها، ينتصب متصدرًا فيها: بدَلِّه ودَلاله ودَلالته وقِوامته وأحداثه وشعائره ومَناسِكه المتنوعة، التي تَلِفّ كاملَ الحياة الإسلامية وماجْرَياتها، اعتبارًا ساميًا كريمًا تقوم بما له مِن هذا الاعتبار، منحه الله تعالى إياه، حيث فيه كان نزول القرآن العظيم، الذي يمثل أكبر الأحداث الأرضية في حياة الأمة المُسْلِمة وعموم البشرية، لأهل الأرض أجمعين. إذ أوحاه الله جَلَّجَلَالُهُ **ابتداءً إلى الرسول الكريم** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يوم الإثنين السابع عشر من رمضان السنة الأولى، اليوم الأول للبعثة النبوية الشريفة** ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة، 185).

تحتفظ الذاكرة الإسلامية بحضور وثيق من الارتباط العملي الجاد بشهر رمضان المبارك وأحداثه، لتكون تلك الأحداثُ البارة والانتصاراتُ التي حازتها أجيالُها، مظهرةً رافعةً لِقَدْره، في واقع عَمَليّ، لا تغفل عنه ذاكرةُ الأمة، مما يجعل مكانتَه حاضرةً تملأ النفسَ، دافعًا للحفاظ عليها والعمل لارتقاء مستواها في سلم الرفعة إلى القِمم، بالممارسة العملية والتربية الميدانية والترقية الشرعية بذاتية جاهزة، حتى لكأنه يُذَكِّر حثيثًا بدوام الالتزام والاستمرار على نهجه الساعي دومًا للتقدم، مثل محطات تجري فيه أحداث جِسام حاضرةَ الذِّكْر والتذكير والتذكر.

فرض الله تعالى الصيامَ في شهر شعبان السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة، قبل غزوة بدر الكبرى بنحو شهر أو يزيد، بَدْرٍ التي كانت صباحَ يوم الجمعة سابع عشر رمضان من هذه السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة (نحو18/4/624م).

مما جعلها تُعْتَبَر معركةً فاصلة في مجمل التاريخ الإنساني، فضلًا عن التاريخ الإسلامي كله، ماضيه وحاضره ومستقبله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. الانتصار فيها انتصار الإسلام الكبير المفتوح، كانت يومًا فارقًا له ما بعده!!! ماذا تَرَوْنَ يمكن أن يقال في توافق تاريخ أول نزول القرآن الكريم ومعركة بدر الكبرى؟ هل يكون الفرقان لهذا وليومه لتلك المعركة البدرية الكبرى؟ لعل ذلك ممكن: إنه ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال، 41) له مدلوله المتعانق.

بذلك سار رمضان مع الإسلام حيث سار، يقطع الفيافي والقفار، يَعْبُر الجبالَ والسهول والوديان والأنهار، يُبْحِرُ مُعْتَلِيًا صَهَواتِ المضائقِ والمحيطات والبحار. تُقْبِلُ عليه الأممُ والشعوب إذ رأت معانيَه في أهله. هكذا أقبلَ عليه أهلُ المغرب وحملوه مع إخوانهم إلى الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم)، عَبَرُوا مَضيقَ جبل طارق (Strait of Gibraltar) إليه، فكان الفتح العظيم، حيث نجد هنا شهر رمضان بنكهته الأندلسية الزاكية الجذابة المتميزة.

الأندلس لم يُحْرَم من هذا الاقتران في فتوحاته المتنوعة وباكورتها الفتح الأندلسي العظيم، ألا يَسْرِي هذا الاقترانُ بعد بَدْرٍ على معركة الفتح الأندلسي العظيم!!؟ حيث المواجهة الكبرى، بين المسلمين بقيادة طارق بن زياد وإمارة موسى ابن نصير، وبين القُوط الغربيين (Goths, Godos)، الأمة العسكرية التي لم تعرف الهزيمة من قبل. سبقتها قبل عام حملةٌ استكشافية بقيادة المغربي طَرِيف بن مالك، في رمضان سنة 91هـ. في السنة التالية، تم اللقاء الحاسم في المعركة الأولى معركة وادي بَرْباط (Barbate)، حول مدينة شَذُونَة (Sidonia)، استمرت أكثر من أسبوع، ابتدأت في الثامن والعشرين من رمضان سنة 92هـ (711/7/17م)، حيث: «كانت المُلاقاةُ يومَ الأحد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان، اتصلت الحرب

بينهم إلى يوم الأحد لِخَمْسٍ خَلَوْنَ مِنْ شَوّال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هزم الله المشركين». كان هذا الانتصار له ما بعده، حيث جعله الله تعالى بداية مباركة من بركات الشهر الكريم، انتصار له مذاقه وأهميته وآثاره الشاملة، أراده الله تعالى وهيأ أسبابَه، كان بوابةً رائدةً لتحقيق هذا الفتح الأندلسي المبارك العظيم، متنوعَ الثمار على العالم أجمع مُسْلِمِه وغيرِ مسلمه، حتى اليوم وإلى ما شاء الله تعالى، به كانت بداية إقامة حضارة إنسانية عظمى شاملة لا تزال البشرية تنعم بآثارها البارة الكريمة، دون هذا الفتح وانتصاراته ما كان يبدأ أو يتم شيء هناك، بل ينتهي الأمر إلى خسارة كبرى وما كان هناك أندلس، بل خسائر وانحسارات وتراجعات متلاحقة، هكذا يمكن رؤية هذا الاقتران الفذ المبارك الميمون بوضوح كامل.

استمر الأمر حتى فُتِحَتْ كامل شبه الجزيرة الإيبيرية تقريبًا، إذ أكثر هذا الفتح كان صُلحًا وليس عَنْوَةً، خلال بِضْعِ سنوات، مما جعل أَحَدَ الدارسين الإسبان يَصف هذا الفتح المبارك التحرري التحريري الإنقاذي الحضاري الإنساني الكبير بأنه: «مجرد نزهةً عسكرية»، حيث: «إن المسلمين الأولين لم يَنْقُلُوا الإسلامَ إلى الأمم، ولكن نَقَلُوا الأممَ إلى الإسلام»، أي أن الأمم أقبلوا على اعتناق الإسلام بعد اقتناع كان العِناق.

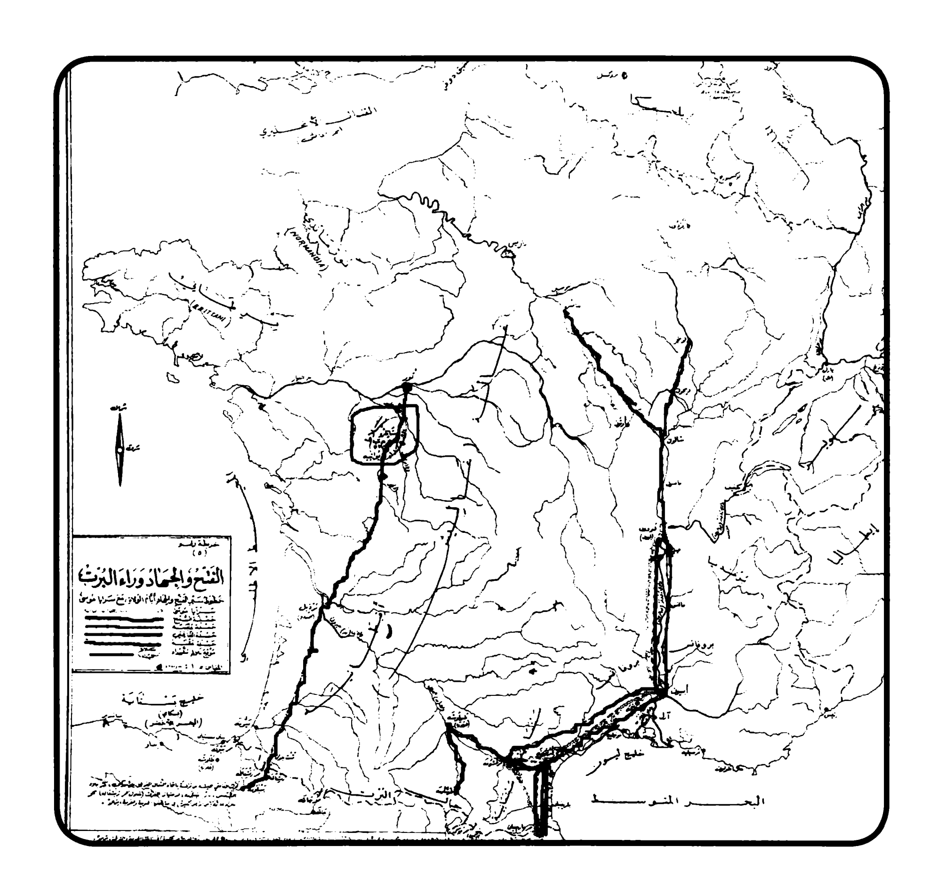
بذلك استقرت الحياة الإسلامية في الأندلس، ويومًا بعد يوم يتضح ذلك ويتأكد، حتى غدت مُسْلِمةُ الأندلس تُكَوّن نحو 95% من المجتمع أكثرهم من أهل البلاد.

هذا وغيره مما كان لرمضان في كافة الأمصار والأعصار والأجيال، حتى اليوم له نكهته بين الأيام والشهور. لعله فيما مضى كان أشدَّ ظهورًا في كل ذلك، الأمل أن يعود لينمو تدريجيًّا بأي مقدار لسابق عهده.

حديثُ اليوم يُقدِّم تعريفًا بأحوالِ شهر رمضان في ماضي حضارتنا الأندلسية (العُدْوَة الأندلسية)، مشيرًا لامتداده حاضرًا نحو المغرب (العُدْوة المغربية)، حيث كان ويكون التلاحم وثيقًا بين العُدْوَتين من خلال الزقاق (مضيق جبل طارق). قَدِمَ الفاتحون من المغرب إلى هذه الجزيرة الأندلسية. كل مُسْلِمَته بها احتموا وإليها رحلوا بعد غرناطة، استقرارًا في بلدانه، وَسَّعوا بعضَها مثل مدينة فاس التي حظيت مبكرًا أصلًا بعُدْوَتين (بين جهتي نهرها): الأندلسيون (القادمون من الأندلس: المدينة القديمة 192هـ على الضفة اليمنى الشرقية من النهر) والقَرَوِيون (القادمون من القَيْرَوان: المدينة الجديدة 193هـ على الضفة اليسرى الغربية من النهر). أنشأ الأندلسيون بعضَ مدنه أو وَسَّعوها مثل مدينتي: شاون وتطاون (تَطوان)، أداروها وحموها وأقاموا فيها المباني والمُنْشَآت والمؤسسات على النَّسَق الأندلسي، حَكَمُوها حُرّاسًا بأنفسهم، مثل: قائدها المؤسس أو المجدد الشيخ المَنْظَري الأندلسي وقريبته المجاهدة عائشة الحرة من أسرته، منها انبعثوا للجهاد ضد الغزو الصليبي.

إليكم هنا حدثًا نموذجًا متفردًا متميزًا، كثيرة أمثلتُها المترقية في الحياة الإسلامية. امرأة مسلمة في مدينة فاس المغربية: فاطمة بنت محمد الفِهْري وَرِثَتْ مالًا كثيرًا، أرادت أنفاقه في سبيل الله تعالى، بنت به جامعة متكاملة بكل مرافقها، حتى مساكن الطلبة، بأحسن صيغة معمارية. جامعة تُعْتَبَرُ إلى اليوم معلمًا حضاريًا رائدًا، يرتاده القادمون باهتمام. تلك هي جامعة القرويين، أوائل جامعات العالم. الشاهد يتجاوز ذلك، إنها بعد أن تم وضع كافة التصميمات بإشرافها، ابتدأ البناء غُرَّة شهر رمضان المبارك سنة 245هـ (أوائل سنة 860م). الشاهد الآخر: أنها كانت تُشْرِف على البناء وهي صائمة، المفاجَأة الكبرى أن البناء استمر نحو سنة، كانت خلالها صائمة طوال المدة حتى تم البناء، إيمانًا واحتسابًا وتقربًا إلى الله تعالى. هكذا تكون دوافع الأعمال في المجتمع المسلم، كان رمضان كعادته مباركًا.

اعتاد مُسْلِمَةُ الأندلس القيامَ بكل متطلبات شهر رمضان، يَشِيدون أمجادَه المباركة، مهما كانت شاقة يُقْبِلون عليها مُرَحّبين فرحين بإنجاز فِعال الخير والبر والجهاد، خدمةً وأجرًا وقربى لله تعالى. كُلُّ مَنْ يطلع على واقع الأندلس وأرضيته ومِحْضَنَه يُعْجَب ويتعجب ويستعجب، موقنًا بكل ذلك. رأيتُ ذلك عِيانًا حين عَبَرْتُ جبالَ البُرْت Pyrenees, Pirineos (الجبال العالية المرعبة، الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا)، تكمن فيها أعلى قِمَمِ شِبْه الجزيرة الأندلسية (الإيبيرية): 3404م. استمر الجهاد في فرنسا: بلاد الغال (Gaul) والأرض الكبيرة (The Vast Land) شرقًا وغربًا، حيث اسْتُشْهِدَ فيها أربعة من ولاة الأندلس، كانوا دومًا قادة الجهاد في تلك الديار.



رغم الاشتغال المستمر بذلك والمعرفة الجيدة بها، أكبرتُ جهادَهم أكثر وأكثر، مقتربًا من رؤية نوعيتهم العالية الشامخة، دعتهم للجهاد المتتالي دون كلل أو ملل أو ثِقَل، بل تم ذلك مع التسابق إليها بأعلى همة وذمة، اجتازوا أوعرَ ممراتها. كل التي كان منها عبورُ الجيش الأندلسي، لاسيما الممر الوعر المعروف: باب شِيزْرو = رُنْشِفالَة (Pass of Roncesvalles)، الذي كان طوله في عَرْض الجبل نحو ستين كم، بقيادة والي الأندلس الفذ المجاهد التابعي الجليل عبدالرحمن الغافقي، شهيد معركة بَلاط الشهداء (Tours-Poitiers)، في شهر رمضان سنة 114هـ (/10-11/732م)، اسْتُشْهِدَ الغافقي آخر أيامها البالغة نحو تسعة أيام.



لوحة استشهاد(Martyrdom) عبدالرحمن الغافقي في معركة بَلاط الشهداء 114هـ = 732م

هذا جانب مما كان يجري في الأندلس خلال شهر رمضان تعبيرًا عن مكانته لديهم؛ احتفاءً واحتفالًا به، مشيرًا إلى كل أشكال الحفاوة بقدومه. فكيف لِمَا هو أسهل من كل ذلك؟ مما يشير إلى نوعية هذا المجتمع وتدفق ينابيع مكونات هذه المرتقيات ومبانيها ومكنوناتها ومنابتها.

كانت البدايةُ الارتواءَ مِنْ مَعِين تلك الينابيع: القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والسيرة النبوية الشريفة: «وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة». ديدنهم الاجتهاد في سلامة الأخذ منها والارتواء دوامًا، عَلَلًا بعد نَهَل. لذا كانت: «خُطّةُ القضاء أعظمَ الخُطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين»، حتى لقد غدا أهلُ الاندلس من الفقه والأخذ به بحيث لا يوجد فيه أي لون من التسول. بلغت مروءاتُهم غايةَ الكرم والضيافة والإيثار: «لهم مروءات على عادة بلادهم، لو فَطَنَ لها حاتِم لَفَضّل دقائقها على عظائمه». عُرِفَتْ بلاد الأندلس باهتمامها المركز بالقرآن الكريم وعلومه وقراءاته طول العام، لكن ذلك كان يزداد في شهر رمضان، تجري له كافة الاستعدادات الشعبية والمجتمعية والرسمية، يُقْبِلُ عليه الناسُ من كل الفئات والأعمار والأجناس. تمتلئ المساجد بمِئاتها، في كل مدينة روادًا مرتادين لحفظه وفهمه وتعلم أحكامه، تتحول إلى عمل تراه في واقع الحياة.

كانت قرطبة رائدة في كل ذلك وغيره، أكثرَ بلاد الله علمًا ومدارس وكتبًا، تضم العشرات من مكتباتها العامة مئات الآلاف من الكتب، إلى جانب المساجد والبيوت التي لا يكاد يخلو منها بيت. كانت قرطبة تضم 21 رَبَضًا(حَيًّا) وُجِدَ في واحد منها مئة وسبعون امرأة يكتبن القرآن الكريم بالخط الكوفي، كانت الجوهرة القرطبية مدينة العلم العالمية الكبرى تضم قرابة ألفي مسجد، يمثل مسجدُها الجامعُ أولَ جامعة شاملة في العالم، المسجد الذي ابتدأ بناءَه الأميرُ عبدُالرحمن الداخل سنة 168هـ، تم بعد سنوات. به تخرج كبار علماء أهله والقادمون أمثال: الراهب الفرنسي جربرت (Gerbert) الذي تولى البابوية باسم سلفستر الثاني (Sylvester II)، والإنكليزي روجر بيكون (Roger Bacon) وغيرهما.

أَمَّا المسجد الجامع القرطبي المعظم عند أهلها، كان فقههم حجة، غدا دُرّةَ مساجد العالم الإسلامي الذي لم يُرَ مثلُه، كما قال المؤرخ الرحالة الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي (560هـ = 1165م)، الذي نَشَأ في قرطبةَ المَجْد وتَعَلّم في أروقة ومجالس وحلقات مسجدها الجامع الجامعة الذي: «يَحار فيه الطَّرْف ويَعْجِزُ عن حسنه الوَصْفُ، فليس في مساجد المسلمين مثلُه تنميقًا وطولًا وعرضًا». حتى ليقال إنه متفوق متقدم متميز في معماره العالمي حتى اليوم، يحتوي على 360 شباكًا على عدد أيام السنة، تدخله الشمس والضوء والتهوية كل يوم. ارتفاع سقفه نحو عشرة أمتار تحمله أعمدتُه المتناسقة التي لا يزيد قطر الواحد منها عن 25 سم، إنه الأعجوبة الكبرى المعمارية العالمية في الزمان والمكان.

بأربعٍ فاقتْ الأقطارَ قرطبةٌ وهُنَّ قنطرةُ الوادي وجامِعُها
هاتان ثنتانِ والزهراءُ ثالثةٌ والعلمُ أكبرُ شيءٍ وهو رابِعُها

هذا المسجد العتيد الجامعة العالمية الذي يُكَوّن حَرَمُه غابةً من الأعمدة بلغت 1417عمودًا، يجلس عندها الأساتذة في كل التخصصات، يغص بالمرتادين نساءً ورجالًا وأطفالًا، يزداد ذلك في شهر رمضان المبارك، لا يكاد يخلو على مدار الشهر الكريم، في كل ساعاته التي تمتلئ بالمَناشِط المتعددة، ابتداءً من العبادات شاملًا كافة شعائره ومناسكه الرمضانية، اتخاذ كافة المستلزمات المترافقة المُلبية لإنجازها بأحسن حالة وجمال وسهولة. «يزدان في شهر رمضان بالثريات تَشِعّ سُرُجُها بمزيد من الضوء، لاسيما في العشر الأواخر من رمضان حيث توقد مزيدًا؟ من الثريات الضخام». يُذْكَرُ ما يفهم منه أنه كان في هذا المسجد الكريم المتميز الفريد مصحفُ الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لعله كان يُخْرَج في رمضان يقرأون فيه، عناية وتكريمًا وتبركًا.

كانت في هذا المسجد أماكن مقاصير مسقفة خاصة للنساء لها أبوابها، ليست أقل من ثلاثة أبواب من مجموع 21 بابًا. يرتدنها أوقاتَ الصلوات، لا سيما في رمضان، يأتين إليها فرادى أو جماعات. تَرِدُ هنا حادثةٌ جميلة لها مدلولاتها، جرت في رمضان، ذلك حين الحديث عن العِفَّة، لا سيما من جانب المرأة مثلما للرجل. ما من شك أن مجتمعًا تحيا العفة في رجاله ويحيون بها، من الأَوْلَى أن تكون قائمة في نسائه. إليكم هذا الموقف:

بينما كانت مجموعة من أهل الأدب يتوسطهم الأديب البارع أبوعامر ابن شُهَيْد (426هـ)، يجلسون عند مدخل باب مِئذنة مسجد قرطبة الجامع ليلةَ السابع والعشرين من رمضان، إذا بشابة من أعيان أهل قرطبة – مع مجموعة وصيفاتها - يرتدن مكانًا في المسجد يتعبدن الله فيه يناجينه ويستغفرنه، كانت الفتاة منتقبة أو محجَّبة، معها ابنها الطفل. لمَّا وقعت عينُها على ذلك المجلس أسرعت بدخول المسجد مرتادة جانبًا مناسبًا فيه، حتى لكأن الشاعر قصدها بهذا الشكل الجميل:

يُخَبِّئن أطرافَ البنانِ مِنَ التُّقَى ... ويَخْرُجْنَ شَطْرَ الليلِ مُعْتَجِراتِ

لمَّا نظرها أبو عامر قال:

وناظرةٍ تحتَ طَيِّ القِناعِ ... دعاها إلى الله بالخير داعي

سَعَتْ خِفْيَةً تَبْتَغي مَنزلًا ... لِوَصْلِ التبتُّلِ والانقطاعِ

فجاءتْ تَهادَى كَمِثْلِ الرَّؤوم ... تُراعي غزالًا بِرَوْض اليَفاعِ

وريعَتْ حِذارًا على طِفْلِها ... فنادَيْتُ يا هذه لا تُراعِي

غزالُكِ تَفْرَقُ منه الليوثُ ... وتَفْزَعُ منه كُماةُ المِصاعِ

فولَّتْ وللمِسْكِ في ذَيْلِها ... على الأرض خطٌّ كظَهْر الشُّجاعِ

كان هذا الاهتمام داخل المساجد وخارجها، يتجدد وينمو ويزداد في رمضان الذي يغدو موسمًا لذلك، باحتفالاته وتجمعاته وطاعاته، شمل كل جوانب الحياة فَرَحًا بهذا الشهر الكريم. المساجد تغص بالعُبَّاد يؤدون الصلوات المفروضة والتراويح جماعة، ثم الدروس بمجالسهم المتجاورة المتحاورة المتكاثرة، ثم بعدها الراغبون وهم كثير يقومون بقية الليل حتى صلاة الفجر، لعل بعضهم من كثرة الاجتهاد في العبادات وتلاوة القرآن الكريم يشدون أُزُرَهم ويوقظون أهليهم ويَكُفُّونَ عن المباحات، يكثرون الاجتهاد في الطاعات، حتى لكأنهم المعنيون:

شَدُّوا المَآزِرَ للقيام بليلهم ... دُونَ النساءِ ولو كُنَّ بأَطْهارِ

هكذا تلتئم المجالس عند حَرَمِه وحول أعمدته وفي باحاته وأفنيته الواسعة. ابتداءً تقام موائد الإفطار الجماعية المفتوحة، يستحضرها ويحضرها العلماء والقضاة والمسئولون. هذه الباحات المسجدية المتسعة المُجَمّلة بتشجيرها، لا سيما النخيل والنارنج والزيتون، لِتَسَع مثلَ هذه المناشط الرمضانية وغيرها. من هنا كانت باحات المساجد متسعة كما هو الحال لما بقي منها: مسجد قرطبة الجامع، باحته التي تمثل تُقَدّر ثلث مساحته الكلية، مثل أخيه الإشبيلي، حتى المساجد الصغيرة نجد باحاتِها واسعة، مِثْلَ مسجد باب المَرْدُوم في طليطلة.

يرد ذكر قنطرة قرطبة الأندلسية التاريخية الشهيرة القائمة حتى اليوم على نهر الوادي الكبير (Guadalqivir)، تلك التي توصل غربي المدينة بشرقيها: حَيُّ شَقُنْدَة (Secunda)، ذات الحدائق والمتنزهات والبساتين يرتادها الناس للنزهة والترويح والفسحة الأسرية، تكون مكتظة في ليالي شهر رمضان المبارك.

كان هذا المجتمع الأندلسي يعمل دومًا بكل مكوناته وفئاته على تقوية الإيجابيات التي تقوم على الفروض والواجبات والمندوبات، تحاصر السلبيات لتنحسر وتحتضر ما أمكن، يزداد الحال في رمضان وتلك من أهدافه المهمة الكبرى.

ثم هناك المُتَنَزَّهَاتُ التي اشتهرت بها مدن الأندلس يرتادها الناس في أوقات منها شهر رمضان، التي قد تكون أحد أماكن الإفطار الجماعية.

شملت رمضانيات الأندلس وأهله كُلَّ جوانب الحياة: أزياءَهم ومآكلَهم وأفراحَهم وأحفالَهم وعَلاقاتِهم الأُسَريّة والاجتماعية عامة، وتواصلَهم لذوي رَحِمِهم وأهليهم ومعارفهم وعامة مجتمعهم. لكن نجد مادة ضئيلة في هذا، نعرف أسبابَ بعضها. من المعلوم أن لأهل الأندلس مذاهبَهم في كل ذلك، مشاركة لغيرهم من بلدان العالم الإسلامي وتفردًا في جملة منها. من ذلك ملابسهم متنوعة بين العمامة والجلباب والقلانس وبدونها، لعل ذلك يكون في رمضان أظهر وأشهر وأكثر. البياض سائد لديهم يتعمدونه في رمضان، اللون الأبيض مفضل لديهم في أمور عدة المفضل في رمضان وغيره وفي اللبس والسكن وسواه.

من اهتمامهم الكبير في رمضان أنهم إذا بلغ اليافع (ذكورًا وإناثًا) العمرَ الذي يُمَكِّنُهُم من الصوم ولو ليوم واحد، فإن أهله يحتفلون بذلك في المنزل وخارجه في موكب، ألبسوه أجمل الملابس وكانهم في حفل عرس. لعلهم يفعلون مثل ذلك إذا حفظ القرآن الكريم أو بعضًا منه.

أما طعامهم فلهم به عناية فائقة متزايدة وتأنق يُظْهِرُ جُودَه وجَودتَه وإجادتَه بشكل متزايد في رمضان، لكافة أنواع الأطعمة والأشربة والحلويات والفواكه، يستعدون له مبكرًا. تجتمع الأسرة في رمضان على المائدة ومن يُدْعَوْن إليها، يقدمون ابتداءً خفائف؛ لإذهاب الظمأ وإبلال العروق وإثبات الأجر، على

مدار الشهر، تتكون مما لابد منه لا تخلو منه مائدة، كالتمر والحليب والشوربة، التي تعرف الآن في المغرب: الحريرة. ثم بعد صلاة العِشاء والتراويح يعودون للعَشاء بأنواع من أطعمتهم.

المطبخ الأندلسي له شهرته في هذه الديار (نُشِرَ مُؤَلَّفٌ فيه)، التي يُكْثِرُ من استعمال ثمر الزيتون (Aceituna) وزيتِه (Aceite)، ذلك الذي جلب المسلمون زراعتَه إليه، اشتهرت به إسبانيا حتى اليوم عالميًّا، مثلما اشتهرت بغيره من الغروس المجلوبة الجمالية كالورود والفواكه بأنواعها حتى الآن، مما يجعلها بحقٍّ سَلَّةَ أوربا وغيرها. لا يزال حتى اليوم تحمل أسماءَها الأندلسية: النارنج = البرتقال (Naranja). بعد هذا ينتقل الإفطار إلى سائر المأكولات التي تَعْتَني بأنواع اللحوم البحرية والمراعي الأرضية، يتميز بها رمضانُ، منها أكلاتٌ ثلاث:

(1): أشهرها حتى اليوم معروفة في إسبانيا، لها بعض المطاعم المتخصصة بها، هي البايبا (Paella)، نشأتها الحديثة مدينة بلنسية كما يذكر بغير تأكيد أنها من الكلمة العربية: البَقِيّة، تتكون من الرُّز المُصَفّر واللحوم البحرية، تُقدّم طَبَقًا رئيسًا.

(2): أَكْلَة أخرى شبيهة بسابقتها يُذْكَرُ أنها أندلسية، معروفة في المغرب، تتكون غالبًا من الرغائف واللفائف والرقائق التي تُلَفّ بها اللحومُ المفرومة والبيضاء، لا سيما الأسماك، تستعمل أكثر في رمضان لكن للدعوات والحفلات، تسمى حديثًا الباستيلا (Pastel)، تعني اليوم بالإسبانية: الحلويات أو المعجنات.

(3): أكلة أخرى مشهورة في إسبانيا تسمى بالإسبانية تورتيا (Tortilla)، تتكون من البَيْض والبطاطا تُخْفَق معًا وتُقْلَى بأي من الزيوت ولها فنياتها الموروثة لأجيالها.

كانت تلك صورة أندلسية تاريخية تحمل عَبَقًا ينتثر طِيبُه في كل مكان حوله، خضرةً وعُمْرانًا وبنيانًا، يسكب حيويتَه في الحياة الإنسانية بكل اتجاه شَمِلَتْ رمضان، تزيده أجواؤه ظهورًا واضحًا بآثاره، حضارة ونضارة وعمارة، حيث أينما سرتم لا تجدون فيه فراغًا.

أخـيرًا يمكن القـول: إن الكثير من ذلك استقر في المغرب حتى اليوم، نقله الأندلسيون إليه عند الرحيل تهجيرًا، لا يعدم زائرُه أن يلمسه في مدنه، لا سيما الشمالية، بشكل لا يفوته، مثلما في الأندلس، وإنْ ربما بعضُها ليس بذلك الوضوح، لكن ما من بُدٍّ أن تَهُبّ عليه منه نسائمُ، تهفهف بأنغامها الناعمة البليلة المدغدغة***

نُشِرَ هذا البحث النادر أو الفريد: «رمضان في الأندلس» - بشيء من الاختصار - في مجلة الكويت (وزارة الإعلام)، العدد: 334، رمضان 1332هـ = /8/2011م.



الأَنْدلسُ نَكَهاتٌ رَمَضانيّة

(4/1): ما أكثر الموضوعات الأندلسية المؤهلة للكتابة فيها، من تلك الأنواع -التي للأسف الكبير - لا تجد لها من المادة العلمية مما تُعين الدارس على تقديم معلومات، كيما تُكوِّن صورةً، فيها بعضُ الارتواء، بل الكثير منها لا نعرف عنها شيئاً، يُنْجِدُنا خَبَرٌ لها، يَرْوي بعضَ قَطْرٍ في فَم متلهف، باقيةً ضمن المجاهيل، حتى يظهر عنها ما يدعو أَحَدًا يتولى البحث فيها؛ لتكوين أية صورة عنها، مهما كانت متواضعة. ذلك لأن ما ضاع مِنَ النِّتَاج الأندلسي المتنوع أكثر بكثير مما بَقِي. لعله يمكن القول: إن الذي أتت عليه حرقًا نيرانُ محاكم التفتيش الإسبانية أكثر مما بقي أضعافًا مضاعفة. بل الذي يبدو أن كثيرًا مما بقي كان من تلك التي نُقِلَتْ مِنَ الأندلس إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي قبل ذَهاب الأندلس. هذا الحريق الذي أتى على هذه الثروة المكتبية العلمية الحضارية الإنسانية المتقدمة الغنية بنِتَاجها في كافة الميادين، بما يقدر بمئات الآلاف من المخطوطات بأقل التقديرات. ما نُقِلَ منها قبل هذه الفاجعة والنكبة العامة إلى أوربا، هي التي منها كانت بذور ومشاتل وبراعم ما تتمتع به حضارة اليوم، من التقنيات والتنظيمات والمنهجيات العلمية والعمرانية والحياتية، إلى جانب مَنْ حَضَرَ منهم إلى الأندلس يَوْمَها طالبًا للعلم. موضوعٌ ما يزال بحاجة إلى دراسة جادة متابعة محتوية لامتلاك العدة اللازمة لدراسته.

لعل البداية في جلب نَكْهَةٍ أو صيغةٍ أو صورةٍ مؤسية، تأتي من حيث انتهت الملاحظة السابقة، ذلك أن تلك الأكداس من الكتب، استمرت محاكم التفتيش تجمعها قَسْرًا من المسلمين، مُدَّة سبع سنوات من 897 – 904هـ = 1492 – 1499م!!!. احتفلت بحرقها في يوم عالمي حزين – يستحق الاحتفال به - في ميدان

باب الرملة Plaza de Bibrambla، في مدينة غَرْناطة. كل ذلك وغيره جَرَى رغم وجود المعاهدة الموقعة من الكنيسة والمَلِكَيْن الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل وأولادهم، لكن ذلك ما كان يعني لديهم شيئًا. حيث أول ما فعلوه - جاري عادتهم ودَيْدَنُهم - أن نقضوا المعاهدة بندًا بندًا[1]. جَرَى ذلك الحرقُ في احتفال سموه من أحفال الإيمان!!! Auto-da-fe، كان ذلك الذي تناول البيانَ لتجفيف منابع الإيمان، ليأتي على الإنسان في أعمال محاكم التفتيش السوداء المتوحشة الحقود. هكذا كانت نهاية غرناطة التي ابتدأت بعد الاستسلام والتسليم، لا يجب الخلط بينهما. تم استسلامها بعد نحو شهر من المفاوضات، بينما كان توقيع معاهدة الاستسلام في 21 محرم 897هـ = 1491/11/25م، تم تسليم غَرناطة في اليوم الثاني من ربيع الأول 897 هـ = 2/ 1/1492م، لينتهي الأمرُ بعدها بترك ملكها أبي عبدالله الصغير Boabdil[2]. لا بد من التفريق بين استسلام غرناطة وتوقيع المعاهدة ثم تسليمها ودخول الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيل بجيوشهما وخروج آخر أُمرائها مع حاشيته وأمراء كثيرين. عندها بدأت الأمور الأخرى كان أولُها نقضَ المعاهدة بندًا بندًا، كان منها ما جَرَى ثم بدأت المواجهات، مرت الشهور والأعوام ثم القرون حتى تم القضاء على كل ما هو إسلامي.

رمضان الذي سُجِّلت فيه أمجادٌ باهرة في الحياة الإسلامية والأندلسية سواء، مرت هنا كئيبة، منها إجراءات محاكم التفتيش التي كانت تحكم بالموت حرقًا على كل من يظهر أنه ما يزال مسلمًا.

حكاية الإمام المَوَّاق: من أوائل مَنْ وَقَعَتْ عليهم ذلك، العلماءُ الأعلام كان منهم الإمام المَوَّاق: عالمُ غَرْناطَة وإمامُها ومِنْ صُلَحائها: أبو عبدالله محمد بن أبي

(1) نفح الطيب، 4/ 527. أزهار الرياض، 1/ 69 وبعدها.

(2) حكايات أندلسية*، 27 - 33. هجرة علماء الأندلس*، 192-193، 217.

يعقوب يوسف المَوَّاق (897هـ = 1492م) إمام جامع غَرْناطَة وفقيهها وخطيبها. ذلك: «أنه لَمَّا استولى النصارى على غَرْناطَة - دَمَّرهم الله - وجَدُوه بها وهو حَيٌّ، فسألوا عمن هو المُقَدَّم بها في العلم فأُشِيرَ بالمَوَّاق، فأمروا بإحضاره عندهم، فامتنع فكَلَّمه الناسُ فحضر عند وزير الطاغية فبسط الوزير له يَدَه فقَبَّلها المَوّاقُ رحمه الله، فلما خرج من عنده أنكره الناس، فلم تلبث يَدُ الوزير الكافر المُقبَّلة أن تَوَرّمت وتَوَجّع منها، فأمر بَرَدّ المَوَّاق إليه وطلب منه الدعاء»!!![1].

لكن الأمر لم ينتهِ عند ذلك، بل عَرَضُوا عليه التنصُّر وله أكياس الذهب، وإلا فالموت!!! فماذا يختار قال: الموت!!! فأخذوه وضربوه ضربًا مُبَرِّحًا حتى أَدْمَوْه، خَيَّروه بين الأمرين، أجاب نفس الجواب، ثم أطلقوه لعله يراجع نفسه فيما بعد. تَمَّ ذلك في مسجده الجامع الذي حُوِّل في الحال إلى الكنيسة الكبرى Cathedral. أتوا بالشيخ المَوَّاق بعد مدة فلم يتزحزح. انتهى الأمر بقتله ربما بين شعبان ورمضان من نفس العام 897هـ = 1492م.

يُلاحِظُ الدارسُ للتاريخ الأندلسي وحياةِ مجتمعه عمومًا - إلى جانب قلة المعلومات - تركيزًا في التشويه، حال بقية التاريخ الإسلامي. لكن لا بد من الاجتهاد في تقديمه بما أمكن من توفر حقائقه. من هنا نعود إلى استعراضه بكل الشمول الممكن للحياة الأندلسية، للوقوف في استراحاته الرمضانية ما أمكن وتوفرت معلومات. ابتداءً من الفتح الإسلامي الأندلسي العظيم.

الإخبار النبوي بفتح الأندلس: لكن هناك بداية سابقة له ذات نكهة ندية بنسائمها الإيمانية المعجزة، تلك هي الإخبار النبوي بوقوعه مبكرًا، في الخبر الآتي فيما روته كتب الحديث الشريف:

(1) نيل الابتهاج، 322. هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة، ظروفها وآثارها*، 92 - 119، 155، 163، 203، 204، 220، 262.

حدثنا عبدالله بن يوسفَ عن مالكٍ عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحةَ، عن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه سمعه يقول: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل على أُمِّ حَرامٍ (خَالتَهُ مِنَ الرضاعة) بنتِ مِلْحانَ فتطعمه، وكانت أم حرامٍ زوجةَ عُبادةَ ابنِ الصامتِ[1]. حيث كان ذلك في هذا الحديث الشريف: دخل عليها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا فأطعمته، ثم جلست تَفْلِي رأسَه قالت: نام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا قريبًا مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما يُضْحِكُكَ يارسولَ الله؟ قال: «ناسٌ مِنْ أُمَّتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحرِ الأخضر مُلُوكًا على الأَسِرّة»، قالت: ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم نام ثانيةً، ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت: ما يضحكك يارسول الله؟ قال: «ناسٌ من أُمَّتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله» كما قال في الأولى، قالت: فقلت: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنتِ من الأوَّلين». خرجت أم حرام مع زوجها غازيًا أولَ ما رَكِبَ المسلمون البحرَ مع معاوية. لَمَّا انصرفوا من غزوتهم قافلين نزلوا الشام، فقُرِّبت إليها دابةٌ لتركبَها فصَرَعَتْها فماتت [فصُرِعَتْ عن دابتها حين خرجت من البحر] فهلكتْ[2].

ربما كان ذلك حين العودة من الجزيرة قبل الخروج منها.

---

(1) يُكنَّى أبا الوليد، أمه قرة العين بنت عُبَادة بن نَضْلَة بن مالك بن العَجْلان، أي: أن أُمَّه أختُ العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة، يكون العباسُ خالَه. عُبَادة بن الصَّامِت العَقَبِي النَّقَبي القائد في كتيبة خير نبي: أحد النُّقَباء، شَهِدَ العَقَبَتين الصغرى والكبرى (بايع في كليهما) وبدرًا والمَشاهِدَ كُلَّها مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجهه عمر إلى الشام قاضيًا ومعلمًا، أقام بحمص ثم انتقل إلى القدس. السيرة النبوية، ابن هشام، 374.

(2) البخاري، كتاب الجِهاد والسِّيَر، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء، أرقام: 2788 – 2789، 2799، 2877، 2894، 6282، 7001، كذلك أرقام: 2800، 2878، 2895، 2924، 6283،7002. مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر، رقم:4934. أبو داود، كتاب الجهاد، باب فضل الغزو في البحر، رقم: 2490. الترمذي، رقم: 1645. النسائي، رقم: 3173 و3174. ابن ماجَه، رقم: 2776. ما بين المعقوفات زيادة من مسلم. مُسند الإمام أحمد، 6/ 423. جامع الأُصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، 6/ 424 – 427(رقم: 6695). كذلك: الطبقات الكبرى، ابن سعد، =

هذه الغزوة البحرية التي حضرتها أُمُّ حَـرَام كانت فَتْحَ جزيرة قبرص (Cyprus) سنة ثمـان وعشرين (28هـ = 648م) للهجرة النبوية الشريفة في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. كانت تلك أول غزوة بحرية يقوم بها المسلمون، تَمَّ فتحُ الجزيرة. يبدو أن هذا الفتح كان صُلْحًا وليس عَنوةً، أو انتهى كذلك. يُذْكَر أن قبر أُمِّ حَرام في تلك الجزيرة يسمونه: «قبر المرأة الصالحة»، يزوره الفِرَنْج تذكيرًا. هذا الحديث الشريف احتوى معجزتين الأولى تحققت في هذا الفتح، حتى لكأن الله تعالى أبقى أُمَّ حَرَام فقط لتحقق معجزةَ الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فمَنْ تكون المجموعة الثانية ومتى تحققت بِشَارتُها؟**.

(4/2): يَذْكُر ابنُ حَزْمٍ الأندلسي (456هـ = 1064م) مُقَرِّرًا: «أن المقصود بالجماعة الثانية حتمًا هم فاتحو الأندلس، ذلك تشريف لها:» وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَّر به وَصْفَ أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأَسِرّة، في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أُمَّ حَرَام بنت مِلْحَان زوجَ أبي الوليد عُبَادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين، حدثته به عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أخبرها بذلك، لكفى شرفًا بذلك، يَسُرّ عاجله ويغبط آجله»[1]. كان هذا الفتح مَجْدًا وشَرَفًا وحضارة للعالم كله حققه المسلمون بفضل الله تعالى، كان فيه التحقيق للمعجزة الثانية في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يُعْتَبَر من دلائل نبوته الكريمة وما أكثرها. تَمَّ تحقيق هذه المعجزة النبوية بكل مراحلها في رمضان سنوات متتالية، كما يتبين لاحقًا إن شاء الله تعالى.

=8/ 318. سير أعلام النبلاء، 2/ 316-317. البداية والنهاية، 6/ 331، 7/ 290 - 291. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، 8/ 222. حياة الصحابة،1/ 592. الأعلام، الزِّرِكْلي، 2/ 172.

(1) نفح الطيب، 3/ 160 - 161.

إنه لمن العجيب أن تكون جميع مناشط الفتح الأندلسي المتتابعة لسنوات، تَمَّتْ في رمضان!!! هل كان ذلك تبركًا اختيارًا مقصودًا؟ لا أُبْعِدُه أبدًا. سبقت أول عمليات الفتح أمورٌ وترتيباتٌ ومراسلاتٌ عدة، لكن قبلها جميعًا، ما كان ليُتِمّ المسلمون منها شيئًا يُذْكَر، لولا ما سبقها وسَبَقَ غيرَها، مما يتعلق بالقاعدة العظيمة المعتادة التي سار عليها المسلمون في فتوحاتهم التحريرية على الدوام، تلك هي أنهم ما كانوا ينطلقون لفتح جديد، إلا يوم يستقر ما قبله باستقرار الإسلام في النفوس، الذي من أجله أتوا إلى هنا وإلى غيره، هو: هداية الناس لهذا الدين ودعوتهم إليه بالسلوك قبل المنطوق. إذا ما أقبلَ أهلُ بلدٍ ما عليه، ودخلوه أفواجًا وغدا كُلُّهم أو جُلُّهم من أهله باختيارهم له وغدوا من أمته الخيرية، أحبوا خدمتَه ودعوتَه، جَرَى التفكير في قيادة مَدِّه الكريم توجهه إلى مكان آخر. هذا يقود إلى تبين قضية مهمة مستنتجة أو منشورة ومُدْرَجة في ثنايا ما بقي لنا من المدَّونات، من أن الفتح الإسلامي كان في أغلبه صُلْحًا وليس عَنْوَةً، علمًا أن ذلك ليس فيه غنائم ويفضله المسلمون ومسئولياته أكثر، مع ذلك فإن الغنائم – لها قواعدها وتشريعاتها - التي كانت تَهُمّ المسلمين تلك التي تعينهم في المواجهات في عمليات الفتح، الخيل والسلاح مثلا[1]، لاسيما في الأندلس. المواجَهة في الفتوحات الإسلامية كانت للسلطة (وجندها ومن معها)، التي تَحُول وتمنع استماعَ الناس إلى كلمة الإسلام، ليترك لهم الاختيار كاملًا الذي هم فيه أحرار تمامًا. الشعوب لم تواجه الجيوشَ الإسلامية خلال الفتوحات، بل كانت حين تسمع بهم يفتحون لهم أبواب مدنهم استقبالًا لهم وترحيبًا واعتبارًا لهم منقذين، كما نوَّه بذلك أحد الكتاب المؤرخين الإسبان من أهل القرن الماضي (العشرين الميلادي). إذن نجد جمهرةً من دارسي الغرب وأمثالَهم ومِنَ الإسبان بالذات، مَنْ نَوَّهَ عمومًا بهذه

(1) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة *، 63.

الأجواء الاجتماعية وحياتها الكريمة السمحة الوفية وفي الأندلس، أَظْهَرَه ونادى به، بصوت مرتفع وبأوضح عبارة دون أدنى تحفظ. يُذْكَرُ منهم المؤرخ الإسباني: «بَلاسْكوَا أَبَانِيز» (أحد علماء القرن العشرين)، نَوَّه بذلك وغيره، مبينًا آثارَ هذا الفتحِ الأندلسيِّ العظيم، وجَلْبَه الخيرَ العميم والعلمَ والحضارة الإنسانية لإسبانيا وأوربا، ثم للعالم كله، حيث تحدث مُشِيدًا بقوةٍ بالفتح الإسلامي، وأنه تَمَّ ذلك صُلْحًا دون حرب في أغلبها مما يقول:

«لقد استقبلتْ إسبانيا أولئك المسلمين الذين قَدِمُوا إليها مِنَ القارَّة الإفريقية استقبالًا حَسَنًا، وسَلَّمَتْهُمُ القُرَى قِيادَتَها بغير مُقاوَمَة ولا عِداء. فما هو إلا أن تقتربَ مجموعةٌ مِنَ العرب [المسلمين] مِنْ إحدى القُرَى حتى تَفْتَحَ لها الأبوابَ وتتلقاها بالتَّرْحاب. لم يكن فتحًا فُرِضَ على الناس برَهْبَة السِّلاح، بل حضارةٌ جديدةٌ بَسطت أيديَها على جميع مرافق الحياة بَسْطًا. كانت غَزْوَةَ [فتح] تَمْدِينٍ ولم تكن غَزْوَةَ قَتْلٍ وتخريبٍ.

فضيلة حرية الضمير: «ولم يتخلَّ أبناءُ تلك الحضارةِ مَرَّةً عن فضيلة حُرِّيَّة الضمير، وهي الأساسُ الذي تقومُ عليه عظمةُ الشُّعوب. فقد قَبِلَ المسلمون في المدن التي مَلَكُوها كنائسَ النصارى وبِيَعَ اليهود. ولم يَخْشَ المسجدُ معابدَ الأديان التي سَبَقَتْهُ، فعَرَفَ حَقَّها واستقرَّ إلى جانبها غير حاسدٍ لها ولا راغبٍ في السيادة عليها، ونَمَتْ على هذا - ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عَشَرَ الميلادي - أجملُ الحضاراتِ وأغناها في العصور الوسطى، ونَهَضَتْ بالبلاد نَهَضَات».

بل إن أحد كبار المؤرخين الإسبان المعروفين أنخل جنثالث بالنثيا Angel González Palencia، يقول في كتابه: Historia de la España

Musulmana منوهًا وَصْفَ الفتح الإسلامي لإسبانيا بأنه: «مجرد نزهة عسكرية «Mero paseo militar»[1]، (= Pure military walk).

هذا كله مما تم في الأندلس مثل كثير غيره. لذلك فإن أكثر من 80% من المدن الأندلسية فُتِحَتْ صُلْحًا، بل إن هناك مدنًا رئيسة مهمة كبرى، لا أعرف عن فتحها شيئًا من مثل مدينة بلنسية Valencia!!!

ثم هناك معلومة فذة مهمة جدًّا، أعانت على ظهورها وشد إزرها وتأكيدها، معلوماتٌ جديدة ظهرت في مخطوط نشر حديثًا، تتعانق مع الفهم العام للموضوع وتتلاحم مع ما لدينا من مفاهيم ونُقُول وآفاق تَشِي كلها بتماسكها وصحتها، تسندها أكثر من موقف وحادثة وحالة، إلى جانب الجو العالم لأجوائها ومواجهتها: تلك هي أن ما لقيه المسلمون في هذا الفتح المبارك من متاعب ومتاهات وصعوبات، بحاجة إلى بحث جديد واكتشاف معلومات غائبة لتوفير البحث العلمي – مثل كل ما سبقه – ما كان لهذا الفتح أن يتم أبدًا بحال لولا نوعية هؤلاء الجند في إيمانهم بهذا المنهج الرباني القرآني الفريد، وهَبُوه كُلَّ شيءٍ واسترخصوه من أجله ويرون كل ذلك قليل لقدره. لذلك أمثلة جُلَّى، منها:

(1) كيف أمكن لجيش - لا يتجاوز اثني عشر ألفًا، كثرةً منهم متطوعون، أتوا من وراء البحر ليقاتلوا جيشًا تَعْداده مئة ألف أو يزيدون من جند القُوط، عُرِفَ بعسكريته ومراسه، التي لم يُهْزَم ولا مرةً واحدة طيلة قرنين من الزمان قبل هذا الفتح العظيم. كل ذلك وهو يقاتل في أرضه التي يَعْرِفُ دروبَها وتضاريسَها وطبيعتَها، العُدَّة كلها والمَدَد والسند منه قريب، خبرته العسكرية ممتدة وروحه المعنوية عالية جدًّا، لم يخامره شك أبدًا في انتصاره على هؤلاء القادمين، خلال يوم

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 128.

واحد؛ ليغدوا كلهم جميعًا بين قتيل وأسير، حتى إن القُوط جلبوا معهم عربات تحمل الحبال لكتاف أسرى المسلمين لكثرتهم، تستمر المعركة حامية قرابة عشرة أيام لم يظهر لمن يكون النصر إلا في أواخرها حيث كان للمسلمين وقد أنزله الله تعالى عليهم.

(2) حين جاء طارق بالفوج الأخير ليرسو على الجبل وقف الجيش القوطي في وجهه ولم يسمح له بالنزول، فماذا يفعل أمامَه؟ أَمَرَ مَنْ معه أن يُبْحِروا عائدين إلى المغرب، حتى حَلَّ الظلامُ - في ذلك الزمان - توقف ثم عاد في الليل من خلف الجبل حيث يكون القطع عموديًّا، طلب إلى الجند أن يتسلقوه بالمجاذيف وحبال البراذع ويسحب الواحد منهم الآخر!! مَنْ يَرَى الجبلَ من هناك لا يكاد يصدق لولا أنه قد حدث. طارق كان يعرف نوعية الذين معه، لولا ذلك ما كان يمكن أن يُطاع، وما كان ليفكر أبدًا في تنفيذ مثل هذه الخُطَّة.

(3) أين كانت تختفي الأفواج التي سبقت طارقًا في العبور، التي كانت كلما أتى فوج يواجَه بالحرب من قبل أمهر قائد قوطي تُدْمِير Tudmir، في جميعها كان ينهزم أمامهم فرارًا؟ تَعَجّب من ذلك، مما دعاه أن يكتب إلى مليكه لُذْرِيق (Rodrigo Rodric) وهو عسكري معروف قائلًا له: «أيها الملك أدركني فقد حل بأرضنا قوم لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء»، نعم إنهم من أهل الأرض بمنهج السماء.

إذن بعد استقرار الإسلام في الشمال الإفريقي جَرَتْ مراسلات بين موسى ابن نُصَيْر (والي الشمال الإفريقي) وبين الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك، انتهت بموافقة الخليفة، مما جعل موسى يبدأ بالخطوات العملية، كان أولها توجه حملة استكشافية بقيادة طَريف بن مالك بربري - مغربي قبائلي أمازيغي

(من سكان البلاد) - مكونة من خمسمائة جندي منهم مئة فارس، رحلوا من مدينة سَبْتة Ceuta - الواقعة على فَم المضِيق من جهة البحر المتوسط - عَبْرَ مضيق جبل طارق Gibraltar ليرسو بسفنه في رأس أرضي ناتئ في المحيط الأطلسي عُرِفَ باسمه Tarifa، قام بالمهمة بتفاصيل نجهلها وعاد إلى موسى بالأخبار السَارَّة، كان ذلك في رمضان سنة 91هـ (710م).

(4/3): ثلاث خطوات رئيسة لفتح الأندلس كلها في رمضان: عندها على ضوء المعلومات التي جاءت بها حملة طَرِيف بدأ التجهيز الفعلي للحملة الحاسمة. نلاحظ فيها - مما نلاحظ - أن ترتيبات الحملة كانت فيها عجائب، كل منها تحمل من المدلولات ما له أهمية كبرى ذات مضامين، تُفْصِح عن نوعية البناء الإسلامي مما لا تحتاج إلى شروح، منها:

(1) أن هذه الحملة العالمية الفاصلة تاريخيًّا، انطلقت مثل سابقتها من مدينة سبتة التي لم تكن محررة (مفتوحة)، حيث كان يحكمها يُلْيَان Julian مِنْ قِبَلِ القُوط Goths, Godos، لم تكن سبتة قد فُتِحَتْ بَعْدُ!!؟ بينما طنجة Tanger - الواقعة على فم المضيق من جهة المحيط الأطلسي - سبق فَتْحُها مِنْ قِبَل الوالي السابق التابعي الكريم الشهيد: عُقْبَة بن نافع (63هـ = 683م)، قبل نحو ثلاثين عامًا.

(2) أن جميع الحملات التي انطلقت للقيام وإتمام هذا الفتح الأندلسي العظيم، كانت مباركة وأتمت مهماتها في رمضان، فهل كان ذلك محسوبًا ابتداءً تبركًا وإظهارًا لمعانيه ومقامه وأيامه، استنزالًا لعون الله تعالى فيه استكثارًا للأجر واحتفاءً واقترانًا؟

(3) كانت حَمَلاتُ الفتح الثلاثُ من الحكمة والإحكام والإعداد والإبرام وحسن الترتيب والانسجام كأنها حَبّاتٌ في عِقد كريم، زاهٍ بالقيم العليا والهمم المثلى والإرادة الأملى، تثير العجب والإعجاب بهذا الإقدام الذي حبب إليهم الفداء، يتسابقون فيه إلى الاستشهاد من كل باب. مما يجعل إعادة النظر في كل المعلومات المعروفة في موضوعه، من أكبر الضرورات العلمية التي تتطلبها الدراسة الأكاديمية.

إذن هكذا تبدأ التحضيرات لعمليات الفتح الكريم، جالب الأنوار البهية إلى هذه الديار، تحررها من الظلمات المتراكمة فيما وراء البحار. كانت حملة طارق - بعد الحملة الاستكشافية - التي أعقبت الاستمرار في إتمام المتابعة، لاستكمال المشروع الحضاري الإنساني التحرري التنويري الباهر الكريم. جَرَى التحضير بكل الخبرة والدقة وعلو الهمة، حيث تقرر إرسال الأفواج المتتابعة من مدينة سبتة لتنزل في جبل طارق، كان آخرها الفوج الذي فيه طارق بن زياد نفسه، لعله بين رجب وشعبان. طارق هذا بربري شهم مجاهد شجاع مغوار، متقدمًا لخدمة الإسلام، يَعْشَق إيمانَه ويتمنى إعلاءَ راياتِه وتثبيتَ أعلامِه حيث استطاع. كان طارق أميرَ الحامية الإسلامية في مدينة طنجة، في زَهرة شبابه، عمره ثمانيةٌ وعشرون عامًا، خَبَرَه الوالي الأمير موسى بن نُصَيْر في فتوحات المغرب. لم يكن تعيينُه من قِبَل الخلافة، رغم ما كان من توفر غيره من المسلمين الآخرين (العرب) أهل الخبرة والسابقة والفقه والمواقف والمشاركات الكثيرة والسن العالية والأدوار البانية، لا بد أن كانت هناك معانٍ بها قَدَّمه الأميرُ موسى، لم يعترض أحد على ذلك أبدًا. هكذا كان عبور هذه الأفواج التي لا أعرف عددها، ولا أي شيء مما يتعلق بها، كيف

كانت تنزل في الجانب الإسباني وكيف كانت تواجَه وتواجِه!!؟ لا أملك من أخبار كل ذلك إلا أقل من القليل.

رؤيا القائد طارق: أتصور تخيلًا طارقًا: كان فارِهَ الطول أبيض مثل ثيابه أشقر الشعر أزرق العينين يلبس العمامة بذُؤابتها فوق ظهره. انظروا وقرروا واحزروا: مَنْ ياتُرَى إذن هؤلاء الذين كانوا في رؤيا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثانية؟ يؤكد ابن حَزْم الأندلسي (456هـ = 1063م) أنهم فاتحو الأندلس، في تلك الحملات التي توجهت للفتح الأندلسي العظيم، كما سبقت الإشارة إليه. حدث ما حدث وقت عبوره المضيق، ذلك أنه لدى عبور طارق بن زياد مع آخر الأفواج عبورًا، في حملته تلك (5 رجب سنة 92هـ = 711م)، أو تكون قد بدأ التحضير لها وجَرَتْ لها ما جَرَى، كانت بين رجب الخير وشعبان الباسم[1]، حين أخذته غَفْوَة - خلال عبوره المضيق الذي سُمِّيَ والجبل باسمه وبكل اللغات: مضيق جبل طارق Giblartar – رأى رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رؤيا يوصيه بمن معه والرفق بأهل البلاد، كما أنه رأى الصحابة يمشون على الماء، تصديقًا للرؤيا الأولى والثانية. كانوا في عبورهم «ملوكًا على الأسرة»، في ثقتهم وتمكنهم وانتصارهم. كان انتصارًا عظيمًا. كانت المعركة في شهر رمضان من نفس هذا العام، كما يأتي بيانه، إن شاء الله تعالى.

في رمضان كذلك كان عبور موسى، معاونةً لطارق في إتمام الفتح الأندلسي العظيم، حيث التقيا قرب مدينة طليطلة Toledo العاصمة يومَها. بعد استراحةِ دراسةٍ لوضع بقية ترتيبات الفتح، انطلقا معًا بجيشهما لإتمام فتح شبه الجزيرة الأندلسية الإيبيرية Iberian Peninsula. يستقر الحال لتغدو الأندلس بلدًا مسلمًا، بدخول غالبية أهله الإسلامَ باختيارهم ويصبحون جزءًا من أمته الخيرية،

---

(1) التاريخ الأندلسي*، 51. هذه الأحداث تفاصيل كثيرة ليس هنا موضع شرحها.

يبنون حياتهم على شريعته ويقيمون أكبر وأروع وأرحم حضارة عرفتها البشرية، مشاركةً مع أجزاء العالم الإسلامي الأخرى، أورثت الحياةَ الحاضرة ما لديها اليوم، مما تنعم به من الخيرات المباركة، التي أساءت أحيانًا استعمالها بابتعادها عن منابعها ومنابتها ومحاضنها.

كان ذلك الفتح الأندلسي العظيم في رمضان المبارك، معركة قامت عليها القلة القليلة بقيادة طارق بن زياد. مثلما تلتها بعدها بسنة في رمضانها كذلك، حملةٌ قادها موسى بن نُصَيْر لترسو سفنُ حملته في مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras.

إذا كانت من بركات شهر رمضان سنة 91هـ (710م) في الحملة الاستكشافية بقيادة طريف بن مالك، تلك المنجزات التي حملت الأخبار السارة التي جلبت الفتح المنير فتح القلوب لشرع الله المبين، وحملة طارق بن زياد التي أنجزت الفصل الأول منه في النصر الكبير في رمضانه سنة 92هـ (نحو 711/7/20م) التالي الذي أسس لما يليه، كانت حملة موسى بن نصير الرمضانية سنة 93هـ (712م)، كأنها احتفال بهذا النصر الذي تقوم بإتمامه، بالتعاون مع السابقات، لتحتفل ببناء أول مسجد في إسبانيا لعله تم في رمضان من نفس العام، إشهارًا بإسلاميتها وإعلانًا وإعلاءً بالنداء الخالد من على مئذنة مسجده مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء، دليلًا على أن كل ذلك يتم نشرًا لهداية الإنسان كل إنسان، تلك هي مهمة الفتوحات. من أكبر الطرائف واللطائف والظرائف أنه كان مع الجيش الفاتح واحد من الصحابة، يسمونه: المُنَيْذِر الإفريقي ومجموعة غير قليلة من التابعين منهم موسى بن نصير نفسُه.

يجري توقف قليل لإلقاء نظرة تكاد تكون ملازمة لهذا الحدث الكبير: حَدَث الفتح الأندلسي العظيم، فيما كان له من آثار كبار وثمار واعتبار، أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تتم لتُحْدِثَ تغييرًا فريدًا في العالم ومستقبلِه وكرائمه الحضارية الإنسانية البَارَّة، بمدلولات باهرة جاهرة، تقتضي حسنَ النظر في أبعادها حين تُعْرَضُ سليمةً، علميةَ الوجهة متأنيةَ الأحكام عاليةَ التوثيق. بذلك يمكن رؤية منجزاتِ هذا الدين بمنهجه الرباني القرآني الفريد، ينثر خيره على الإنسان حتى وهو عنه بعيد بل وعنيد، خيرُه دائم على العالمين في كل حال. كيف حين يأخذ ويحيا به منهجًا لحياته إيمانًا واحتسابًا قائمًا بذاته.

الآن ربما لنا عَوْدٌ على بَدْءٍ ثم بَدْءًا نعود به لِمَا كنا فيه، في صورة ممهورة، ذات طابَع مرقوم، له أهمية ممتدة عالية المقام. في نظرة شاملة لترابط عقود التاريخ الإسلامي والأندلسي. يجري ذلك بكل ما فيه من مضامين مهتدية متماسكة الأطراف، وإن اختلفت طُعُومُها، تُسْقَى بماءٍ واحد. يتخللها رمضان الكريم، يطل عليها ببركاته الربانية التي ما برحت تحفه بمعانيها ونفحاتها المتضوعة بالعبق الميمون، الذي لا ينضب، مادام يستمد حيويته من المَعِين المتدفق، بالخير الموسوم بالبركة والاستقامة والتنور شامخِ البِنَاء.

فرقان.. وفرقان: يتمتعُ شهرُ رمضان بمكانةٍ عظيمة في الحياة الإسلامية وحضارتها وتاريخها، ينتصب متصدرًا فيها: بدَلِّه ودَلاله ودَلالته وقِوامته وأحداثه وشعائره ومَناسِكه المتنوعة، التي تَلِفّ كاملَ الحياة الإسلامية وماجْرَياتها، اعتبارًا سامِيًا كبيرًا، منحه الله تعالى إياه، فيه كان نزول القرآن العظيم، الذي يمثل أكبر الأحداث الأرضية في حياة الأمة المُسْلِمة وعموم البشرية، لأهل الأرض أجمعين. إذ أوحاه الله جَلَّ جَلَالُهُ إلى الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتداءً من يوم الإثنين

السابع عشر من رمضان السنة الأولى للبعثة النبوية الشريفة ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة، 185). فَرَضَ الله تعالى الصيامَ في شهر شعبان السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة، قبل غزوة بدر الكبرى بنحو شهر. كانت معركة بَدْرٍ صباحَ الجمعة سابع عشر رمضان السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة (نحو624/4/18م). تُعْتَبَر بدر معركةً فاصلة في مجمل التاريخ الإنساني، فضلًا عن التاريخ الإسلامي كله، ماضيه وحاضره ومستقبله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. الانتصارُ فيها انتصارُ الإسلام الكبير المفتوح، له ما بعده!!! لعل توافق: «الفرقان» تاريخ أول نزول القرآن الكريم مع: «الفرقان» في بدر الكبرى ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال، 41)، له مدلوله المتعانق. بذلك سار رمضان مع الإسلام حيث سار، تُقْبِلُ عليه الأممُ والشعوب إذ رأتْ معانِيَ هذا الدين في أهله. أقبلَ عليه أهلُ المغرب وحَمَلُوه مع إخوانهم إلى الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم)، عَبَرُوا مضيقَ جبل طارق (Gibraltar) إليه، كان الفتح العظيم. حيث نجد هنا شهر رمضان بنكهته الأندلسية الذكية الجذابة المتميزة.

الأندلس لم يُحْرَمْ من هذا «الاقتران» في فتوحاته المتنوعة، باكورتُها الفتح الأندلسي العظيم بالخير العميم، بين المسلمين بقيادة طارق بن زياد وإمارة موسى بن نُصَيْر، وبين القُوط الغربيين (Goths, Godos)، الأمة العسكرية التي لم تعرف الهزيمة من قبل. سبقتها قبل عام حملةٌ استكشافية بقيادة المغربي طَرِيف ابن مالك، في رمضان سنة 91هـ (710هـ). في السنة التالية، تم اللقاء الحاسم في المعركة الأولى الكبرى، حول مدينة شَذُونَة (Medina Sidonia)، استمرت أكثر من أسبوع، ابتدأت الثامن والعشرين من رمضان سنة 92هـ (711/7/17م)، حيث: «كانت المُلاقاةُ يومَ الأحد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان. اتصلت الحرب بينهم إلى

يوم الأحد لِخَمْسٍ خَلَوْنَ مِنْ شَوّال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هَزَمَ الله المشركين».

كان هذا الانتصار له ما بعده، جعله الله تعالى بدايةً مباركةً مِنْ بركات الشهر الكريم، انتصارٌ له مذاقه وأهميته وآثاره الشاملة، أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهيأ أسبابه. كان هذا الفتح الأندلسي المبارك متنوعَ الثمار على العالم أجمع، مُسْلِمِه وغيرِ مسلمه، حتى اليوم وإلى ما شاء الله تعالى. به كانت بداية إقامة حضارة إنسانية عظمى شاملة، ما تزال البشرية تنعم بآثارها البارة الكريمة. هكذا يمكن رؤية هذا الاقتران الفذ المبارك الميمون بوضوح كامل.

استمر الأمر حتى فُتِحَتْ شبه الجزيرة الإيبيرية، بمجموعها صُلحًا في أكثرها وليس عَنْوَةً، خلال بِضْعِ سنوات، مما جعل بعض الدارسين الإسبان يَصف هذا الفتح المبارك التحرري التحريري الإنقاذي الحضاري الإنساني الكبير بأنواع النعوت ثناءً عليه، حيث يمكن القول: «إن المسلمين الأولين لم يَنْقُلُوا الإسلامَ إلى الأمم، ولكن نَقَلُوا الأممَ إلى الإسلام»، حيث أقبلت الأمم على اعتناق الإسلام اقتناعًا.

بذلك استقرت الحياة الإسلامية في الأندلس، يومًا بعد يوم، يتضح ذلك ويتأكد، حتى غدت مُسْلِمةُ الأندلس تُكَوّن نحو 95% من المجتمع أكثرهم من أهل البلاد**.

(4/4): حديثُ اليوم يُقدِّم تعريفًا بأحوالِ شهر رمضان في ماضي حضارة الأندلس (العُدْوَة الأندلسية)، مشيرًا لامتداده حاضرًا نحو المغرب (العُدْوة المغربية)، حيث التلاحم وثيقًا بين العُدْوَتين. قَدِمَ الفاتحون من المغرب إلى الأندلس. كل مُسْلِمَته به احتموا وإليه رحلوا بعد غرناطة، استقرارًا في بلدانه، وَسَّعوا بعضَها مثل مدينة فاس التي حظيت مبكرًا أصلًا بعُدْوَتين (بين جهتي نهرها): الأندلسيون

(القادمون من الأندلس: المدينة القديمة/192هـ/ على الضفة اليمنى الشرقية من النهر)، القَرَوِيون (القادمون من القَيْرَوان: المدينة الجديدة /193هـ/ على الضفة اليسرى الغربية من النهر). أنشأ الأندلسيون بعضَ مدنه أو وَسَّعوها مثل مدينتي: شاون وتطاون (تَطوان)، أداروها وحموها وأقاموا فيها المباني والمُنْشَآت والمؤسسات على النَّسَق الأندلسي، حَكَمُوها حُرّاسًا بأنفسهم، مثل: قائدها المؤسس المجدد الشيخ المَنْظَري الأندلسي وقريبته المجاهدة السيدة الفاضلة عائشة الحُرَّة مِن أسرته، منها انبعثوا للجهاد ضد الغزو الصليبي.

بناء جامع القرويين: إليكم هنا حدثًا نموذجيًّا متفردًا متميزًا، كثيرةٌ أمثلتُها المترقية في الحياة الإسلامية. امرأة مسلمة في مدينة فاس: **فاطمة بنت محمد الفِهْري** وَرِثَتْ مالًا كثيرًا، أرادت إنفاقه في سبيل الله تعالى، بَنَتْ به جامعةً متكاملة بكل مرافقها، حتى مساكن الطلبة، بأحسن صيغة معمارية. جامعة تُعْتَبَرُ إلى اليوم مَعْلَمًا حضاريًّا رائدًا، يرتاده القادمون باهتمام. **تلك جامعة القرويين**، أوائل جامعات العالم. الشاهد يتجاوز ذلك، أنها بعد أن تم وضعُ كافةِ التصميمات بإشرافها، ابتدأ البناءُ غُرَّة شهر رمضان المبارك سنة 245هـ (أوائل سنة 860م). الشاهد الآخر: أنها كانت تُشْرِف على البناء وهي صائمة؛ المفاجَأة الكبرى أن البناء استمر نحو سنة، كانت خلالها صائمة طوال المدة حتى تم البناء؛ إيمانًا واحتسابًا وتقربًا إلى الله تعالى.

معركة بَلاط الشهداء: اعتاد مُسْلِمَةُ الأندلس القيامَ بكل متطلبات شهر رمضان، يَشِيدون أمجادَه المباركة، مهما كانت شاقة يُقْبِلون عليها مُرَحّبين فرحين بإنجاز فِعال الخير والبر والجهاد، خدمةً وأجرًا وقربى لله تعالى. كُلُّ مَنْ يطلع على واقع الأندلس وأرضيته ومِحْضَنه يُعْجَب ويتعجب ويستعجِب، موقنًا

بكل ذلك. رأيتُه عِيانًا حين عَبَرْتُ جبالَ البُرْت Pyrenees, Pirineos (الجبال العالية المرعبة، الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا)، تكمن فيها أعلى قِمَم شِبْه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية: 3404م. استمر الجهاد العجيب في فرنسا: بلاد الغال (Gaul) والأرض الكبيرة:

La Tierra Grande = La Tierra Mayor (The Vast Land) شرقًا وغربًا، حيث اسْتُشْهِدَ فيها أربعةٌ من ولاة الأندلس كانوا دومًا قادةَ جهادِ تلك الديار.

رغم الاشتغال المستمر بذلك والمعرفة الجيدة بها، أكبرتُ جهادَهم أكثر وأكثر، مقتربًا من رؤية نوعيتهم العالية الشامخة، دعتهم للجهاد المتتالي دون كلل أو ملل أو توقف. تم ذلك مع التسابق إليها بأعلى همة وذمة وتضحية، اجتازوا أوعرَ ممراتها، كان منها عبورُ الجيش الأندلسي، لاسيما الممر الوعر المعروف: باب شِيزْرُو (Portus Cisereus) رُنْشِفالَة (Pass of Roncesvalles)، الذي كان طوله في عَرْض الجبل نحو ستين كم، بقيادة والي الأندلس المجاهد التابعي الجليل عبدالرحمن الغافقي، شهيد معركة بَلاط الشهداء (Tours-Poitiers)، في شهر شعبان -رمضان سنة 114هـ (/10-732/11م)، اسْتُشْهِدَ فيها الغافقي آخر أيامها البالغة نحو تسعة أيام غنية بالأحداث.

هذا جانب مما كان يجري في الأندلس خلال شهر رمضان تعبيرًا عن مكانته لديهم، احتفاءً واحتفالًا به، مشيرًا إلى كل أشكال الحفاوة بقدومه. مما يشير إلى نوعية هذا المجتمع وتدفق ينابيع مكوناتِ هذه المرتقيات ومبانيها ومكنوناتها ومنابتها.

كانت البدايةُ الارتواءَ مِنْ مَعِين تلك الينابيع: القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والسيرة النبوية الشريفة: «وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة». دَيْدَنُهم الاجتهادُ في سلامة الأخذ منها والارتواء دوامًا، عَلَلًا بعد نَهَل. لذا كانت: «خُطّةُ القضاء أعظمَ الخُطط عند الخاصة والعامة؛ لتعلقها بأمور الدين»، حتى لقد غدا أهلُ الأندلس من الفقه والأخذ به بحيث لا يوجد فيه أحد أميٌّ، نساءً ورجالًا وأطفالًا. من العجيب كذلك لم يكن يوجد – على ما يبدو - أي لون من التسول. بلغت مروءاتُهم غايةَ الكرم والضيافة والإيثار: «لهم مروءات على عادة بلادهم، لو فَطَنَ لها حاتم لَفَضّل دقائقَها على عَظائمه».

عُرِفَتْ بلاد الأندلس باهتمامها المُركَّز بالقرآن الكريم وعلومه وقراءاته طول العام، لكن ذلك كان يزداد في شهر رمضان، تجري له كافة الاستعدادات الشعبية والمجتمعية والرسمية، يُقْبِلُ عليه الناسُ من كل الفئات والأعمار والأجناس. هذه الجوهرة قرطبة تمتلئ مساجدها بمِئاتها- مثلما كل مدينة - روادًا مرتادين لحفظه وفهمه وتعلم أحكامه، تتحول إلى عمل تراه حيًّا في واقع الحياة.

كانت مدينة قُرْطُبَة رائدةً في كل ذلك وغيره: «أكثرَ بلاد الله (علمًا ومدارسًا ومكتبات) وكتبًا»، تضم العشرات من مكتباتها العامة مئات الآلاف من الكتب، بجانب المساجد والبيوت. كانت قرطبة تضم واحدًا وعشرين رَبَضًا (حيًّا)، وُجِدَ في واحد منها مائة وسبعون امرأة يكتبن القرآن الكريم بالخط الكوفي. كانت الجوهرةُ القرطبية مدينةَ العلم العالمية الكبرى تضم قرابة ألفي مسجد، يمثل مسجدُها الجامعُ أولَ جامعة شاملة في العالم، المسجد الذي بدأ بناءَه الأميرُ عبدُالرحمن الداخل سنة 168هـ، تم بعد سنوات. به تخرج كبار علماء أهله

والقادمون أمثال: الراهب الفرنسي جربرت (Gerbert) الذي تولى البابوية باسم سلفستر الثاني (Sylvester II)، والإنكليزي روجر بيكون (Roger Bacon) وغيرهما.

أَمَّا مسجد قرطبة الجامع المعظم عند أهلها، كان فِقْهُهم حجةً، غدا دُرّةَ مساجد العالم الإسلامي الذي لم يُرَ مثلُه، كما قال المؤرخ الرحالة الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي (560هـ = 1165م)، الذي نَشَأ في قرطبةَ المَجْد وتَعَلّم في أروقة ومجالس وحلقات مسجدها الجامع الجامعة الذي: «يَحار فيه الطَّرْف ويَعْجِزُ عن حسنه الوَصْفُ، فليس في مساجد المسلمين مثلُه تنميقًا وطولًا وعرضًا». حتى ليقال إنه متفوق متقدم متميز في معماره العالمي حتى اليوم، ارتفاع سقفه نحو عشرة أمتار تحمله أعمدتُه المتناسقة التي لا يزيد قطر الواحد منها عن 25 سم، إنه الأعجوبة المعمارية العالمية الكبرى الغالية العالية الباقية في كل الزمان والمكان.

بأربعٍ فاقتْ الأقطارَ قرطبةٌ	وهُنَّ قنطرةُ الوادي وجامِعُها
هاتان ثنتانِ والزهراءُ ثالثةٌ	والعلمُ أكبرُ شيءٍ وهو رابِعُها

هذا المسجد العتيد الجامعة العالمية الذي يُكَوّن حَرَمُه غابةً من الأعمدة بلغت 1417عمودًا، يجلس عندها الأساتذة في كل التخصصات، يغص بالمرتادين، نساءً ورجالًا وأطفالًا. يزداد ذلك في شهر رمضان لا يكاد يخلو على مدار الشهر الكريم في كل ساعاته التي تمتلئ بالمَناشِط المتعددة، ابتداءً من العبادات شاملًا كافة شعائره ومناسكه الرمضانية، اتخاذ كافة المستلزمات المترافقة المُلبية لإنجازها بأحسن حالة وجمال وسهولة. (يزدان في شهر رمضان بالثريات تَشِعّ سُرُجُها بمزيد من الضوء، لاسيما في العشر الأواخر من رمضان حيث توقد مزيدًا

من الثريات الضخام). يُذْكَرُ ما يفهم منه أنه كان في هذا المسجد الكريم المتميز الفريد مصحفُ الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لعله كان يُخْرَج في رمضان يقرأون فيه، عناية وتكريمًا تبركًا.

العَفاف.. شعرًا: كانت في هذا المسجد أماكن مقاصير مسقفة خاصة للنساء لها أبوابها، ليست أقل من ثلاثة أبواب من مجموع 21 بابًا. يرتدنها أوقاتَ الصلوات، لا سيما في رمضان، يأتين إليها فُرَادَى أو جماعات. تَرِدُ هنا حادثةٌ جميلة لها مدلولاتها، جرت في رمضان، ذلك حين الحديث عن العفة لا سيما من جانب المرأة مثلما للرجل. ما من شك أن مجتمعًا تحيا العفة في رجاله ويحيون بها، من الأَوْلَى أن تكون قائمة في نسائه. العِفَّة التي تعني هنا المعنى المتعلق بالعَلاقة بين الرجل والمرأة. هذه العفة لم تتوفر أبدًا إلا في العالم الإسلامي وحضارته، باعتراف دارسين غربيين وإسبان، هي من مفاخره الكثيرة التي ينفرد بها في العالَمِين طول الزمان وحتى الآن ودومًا، إليكم هذا الموقف: بينما كانت مجموعة من أهل الأدب يتوسطهم الأديب البارع أبوعامر ابن شُهَيْد (426هـ)، يجلسون عند مدخل باب مِئذنة المسجد الجامع القرطبي ليلةَ السابع والعشرين من رمضان، إذا بِشَابَّةٍ من أعيان أهل قرطبة - مع مجموعة وصيفاتها- يرتدن مكانًا في المسجد يتعبدن الله فيه يناجينه ويستغفرنه، كانت الفتاة منتقبة أو محجبة ومعها ابنُها الطفل. لمَّا وقعت عينُها على ذلك المجلس أسرعت بدخول المسجد مرتادة جانبًا مناسبًا فيه، حتى لكأن الشاعر قصدها بهذا الشكل الجميل:

يُخَبِّئن أطرافَ البَنانِ مِنْ التُّقَى ... ويَخْرُجْنَ شَطْرَ الليلِ مُعْتَجِراتِ

لمَّا نظرها الشاعر أبو عامر قال:

ونـاظـرةٍ تحـتَ طَـيِّ القِنـاعِ ... دعـاهـا إلى الله بـالخير داعـي

سَعَتْ خِفْيَةً تَبْتَغي مَنزلًا ... لِوَصْلِ التبتُّلِ والانقطاعِ
فجاءتْ تَهادَى كمثل الرَّؤوم ... تُراعي غزالًا بِرَوْض اليَفاعِ
ورِيعَتْ حِذارًا على طِفْلِها ... فنادَيْتُ يا هذه لا تُراعِي
غزالُكِ تَفْرَقُ منه الليوثُ ... وتَفْزَعُ منه كُماةُ المِصاعِ
فولَّتْ وللمسْكِ في ذَيْلِها ... على الأرض خطٌّ كظَهْر الشُّجاعِ

تعرَّض لذكر العِفَّة عديد من شعراء الأندلس أولهم العلماء، باعتبار تواجدها في المجتمع. أبو عمر أحمد بن محمد بن فَرَج الجَيَّاني (366هـ = 976/9م) قال أبياتًا تمثل أجمل التعبير والكناية بالعفة الواقعية الصادقة المُمارَسَة، تدل على شاعرية عالية إذ أجاد فيه، كَتَبَ وأَلَّف لكنه ضاع كل ذلك، صاحب كتاب: «الحدائق»[1]، كنز الأدب المفقود يَرِدُ ذِكْرُه وقته مبينًا أهميته، إن شاء الله تعالى[2]:

وطائعةُ الوصالِ عَفَفْتُ عنها ... وما الشيطانُ فيها بالمُطاعِ
بَدتْ في الليلِ سافرةً فباتتْ ... دياجي الليلِ سافرةَ القِناعِ
وما مِن لحظةٍ إلَّا وفيها ... إلى فِتَنِ القلوبِ لها دَوَاعِ
فَمَلَّكْتُ النُّهى جَمَحَاتِ شَوْقِي ... لأَجْرِيَ في العَفافِ على طِباعي
وبِتُّ بها مَبيتَ السَّقْبِ يَظْما ... فيمنعُهُ الكِعامُ من الرَّضاعِ
كذاكَ الرَّوْضُ ما فيهِ لمثلي ... سوى نَظرٍ وشَمٍّ من مَتاعِ
ولستُ منِ السوائمِ مُهْمَلاتٍ ... فأتَّخذُ الرياضَ مِنَ المَراعي

---

(1) نفح: 3/ 196، 437، 4/ 46. تاريخ الأدب، 4/ 283. السقب: ولد الناقة الذكر حديث الولادة. الكعام: ما يُجعل على فمه كيلا يأكل.

(2) المغرب، 2/ 56. جذوة المقتبس، 92 – 93 (أخوه سعيد 200 – 201 وأخوه الآخر عبدالله 222، كلهم أدباء علماء). نفح الطيب، 3/ 196، 437، 4/ 46.

- مما قال ابن فَرَج الجياني في العِفَّة كذلك[1]، وأنشده الفقيه ابن حزم الأندلسي (456هـ) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْمٍ بن غالب[2]:

بأيِّهما أنا في الشُّكْرِ بادي ... بشُكْرِ الطَّيْفِ أم شُكْرِ الرُّقادِ
سَرَى وازدادَ في أمَلي ولكنْ ... عَفِفْتُ فلم أجِدْ منهُ مُرادي
وما في النومِ من حرجٍ ولكنْ ... جَرَيْتُ من العَفافِ على اعتيادي

- وقال في النسيب (الرقيقُ من الشِّعْر المُتَغَزَّلُ به في النساء):

وما زالَ الهوى سَكَنًا لقلبي ... أَفِرُّ إليه من نُوَبِ الخُطوبِ
وأَلْتَذُّ الغَرامَ المَحْضَ منهُ ... وأسْتَحْلي به حتى كُروبي
كذاكَ الحُبُّ ضَيْفٌ ليس يأتي ... إلى غيرِ الكِرامِ من القلوبِ

= لعل هذا شبيه بشعر متنوع لابن الأَبَّار، من ذلك قوله[3]:

= وأَطَعْتُ سُلْطانَ العَفافِ تَكَرُّمًا ... والمرءُ مَجْبُولٌ على عاداتِهِ
= قد صِيْغَ من دُرِّ الجَمال ... وصِيْنَ في صَدَفِ العفافِ
وعَصَيْتُ سُلْطانَ الهَوَى ... وأَطَعْتُ سُلْطانَ العَفافِ

حديث العفة متسع، لكنه يتوَّج هنا ببعض ما كتبه ابن حزم الأندلسي، الذي تحدث عنه وأشاد به في كتابه الفذ: «طوق الحمامة في الألفة والألاف» وأتى بأمثلة كثيرة كما استشهد بنفسه فيقول: وإني لأعرف هذا وأتقنه ومع هذا، يعلم الله وكفى به عليمًا، أني بريء الساحة سليم الأديم صحيح البَشَرة نَقِيّ الحُجْزَة، وإني أُقْسِم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قَطُّ، ولا يحاسبني

(1) الذخيرة، 2/ 113. نفح الطيب، 3/ 437. يريد في البيت الثالث أنه: «لمَّا عَفَّ في اليقظة جَرَى على عادته في النوم».
(2) جذوة المُقْتَبِس، الحُمَيْدي، 93. نفح الطيب، المَقَّري، 3/ 437، 4/ 48.
(3) الذخيرة، 113-114.

ربي بكبيرة الزنا مذ عَقَلْتُ إلى يومي هذا، والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى، والمستعصم فيما بَقِي»[1].

إذن هكذا يقول ابن حزم الأندلسي متحدثًا عن عفته المعهودة: «ويَشْهَد الله أنني ما حللت إزاري على محرم»، رغم أن ذلك كان ممكنًا[2]، لكنه الرقابة الذاتية الإيمانية التي يُنْشِئُها هذا الدين الإلهي العظيم، الإسلام هو وَحْدَه الذي يمكنه مثل هذا، ذلك الذي نجده في الحياة الإسلامية.

أورد ابن حزم الأندلسي: نماذج عدة فارهة نازهة منها: في كتابه المذكور طَوْق الحَمامة. يتحدث ابن حزم[3] عن نفسه بالوقائع عن تجارب مَرَّتْ به وأخرى لغيره، مما يُشير إلى وفور ذلك في الحياة الإسلامية والأندلسية منها. تمر بك في كتاب ابن حزم هذا: «طوق الحمامة في الأُلْفة والأُلَّاف» حكايات مستغربة أخرى غير ذلك، ولا أُبْعِد أنها دخيلة. من إحدى حكاياته المجَرَّبة في العفة الشَمَّاء يقول: وقد ضمني المبيت ليلة - في بعض الأزمان- عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جارية (بنت شابة جميلة) من بعض قراباتها، من اللاتي قد ضمتها معي النشأة في الصبا، ثم غِبْتُ عنها أعوامًا كثيرة. وكنت تركتها حين أعصرت (بلغت شبابَها وأدركت)، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب، ففاض وانساب وتفجر عليها ينابيع المَلاحة (البهجة وحسن المنظر)، فترددتْ وتحيرتْ (امتلأت وزاد جمالُها)، وطلعتْ في سماء وجهها نجومُ الحسن فأشرقت وتوقدت وانبعثت في خديها أزاهيرُ الجمال فتمتْ واعتمتْ (اكتملت وتم طولها)، فأتت كما أقول[4]:

(1) طوق الحمامة، 164 – 165 (رسائل ابن حزم، 1/ 272).

(2) طوق الحمامة، 165.

(3) طوق الحمامة، –161 164.

(4) الخَرِيدةُ، جمعها: خُرَّد: اللؤلؤة لم تثقب، بمعنى: البِكرُ العَذْراء. الحُور: جمع حَوْراء: من النساء: البيضاء، لايقصد حَوَر عينيها. الحَوَر: شدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها.

خَـرِيـدةٌ صاغها الـرحمـن مـن نورٍ   جَلّـتْ مَلاَحَـتُـهـا عـن كـلّ تقديرِ
لـو جائني عملي في حُسْنِ صورتها   يومَ الحساب ويوم النفخ في الصور
لـكـنـتُ أحـظـى عـبـاد الله كلِّهِمُ   بـالجـنـتـين وقـرب الخُـرّدِ الحُـورِ

= كانت من أهل بيت صَباحَة (جَمال)، ظهرت على صورة تُعْجِز الوُصّاف، وقد طَبَّق وصفُ شبابها قُرْطبةً. فبت عندها ثلاث ليال متوالية، ولم تُحْجَب عني على جاري العادة في التربية. فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب (يميل للهو ويرجع) إليه مرفوض الهوى ويعاوده منسِيُّ الغزل[1]. لقد امتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفًا على لُبِّي أن يزدهيه الاستحسان. لقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماعُ إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل، وفي ذلك أقول:

= لا تُـتْـبِـعِ الـنـفـسَ الهـوى   ودَعْ الـتـعـرضَ لـلـمِـحَـنْ
إبـلـيـسُ حـيٌّ لم يمـتْ   والـعـيـنُ بـابٌ لـلـفـتَنْ
= وقـائـلٍ لـيَ هـذا   ظـنٌّ يـزيـدك غَـيًّـا
فـقـلـت دَعْ عـنـك لَـوْمـي   ألـيـسَ إبـلـيـسُ حـيّـا

هذا هو المعنى الحقيقي لهذه القيم والمثل والأخلاقيات، رغم أنها ممكن لكنه (ولكنها) يهجرها ويعافها، تلك هي عِفَّة ابن حَزْمٍ وأمثاله المعهودة المشهودة[2].

مَوائد الإفطار الجماعية: هكذا إذن كان هذا الاهتمام في الأندلس وغيره، داخلَ المساجد وخارجَها، يتجدد وينمو ويزداد في رمضان الذي يغدو موسمًا لذلك باحتفالاته وتجمعاته وطاعاته، شَمِلَ كُلَّ جوانب الحياة فَرَحًا بهذا الشهر الكريم. المساجد تغص بالعُبَّاد يؤدون الصلوات المفروضة والتراويح جماعة، ثم الدروس

---

(1) الغَزَلُ: الشغف بمحادثة النساء والتودد إليهن. الغَزِلُ: من يقوم بذلك ويتعلق به.
(2) طوق الحمامة، 144.

بمجالسهم المتجاورة المتحاورة المتكاثرة، ثم بعدها الراغبون وهم كثير يقومون بقية الليل حتى صلاة الفجر، لعل بعضَهم من كثرة الاجتهاد في العبادات وتلاوة القرآن الكريم، يشدون أُزُرَهم ويوقظون أهليهم ويكُفُّون عن المباحات، يُكْثِرون الاجتهادَ في الطاعات بإقبال كبير وفير، حتى لكأنهم المعنيون:

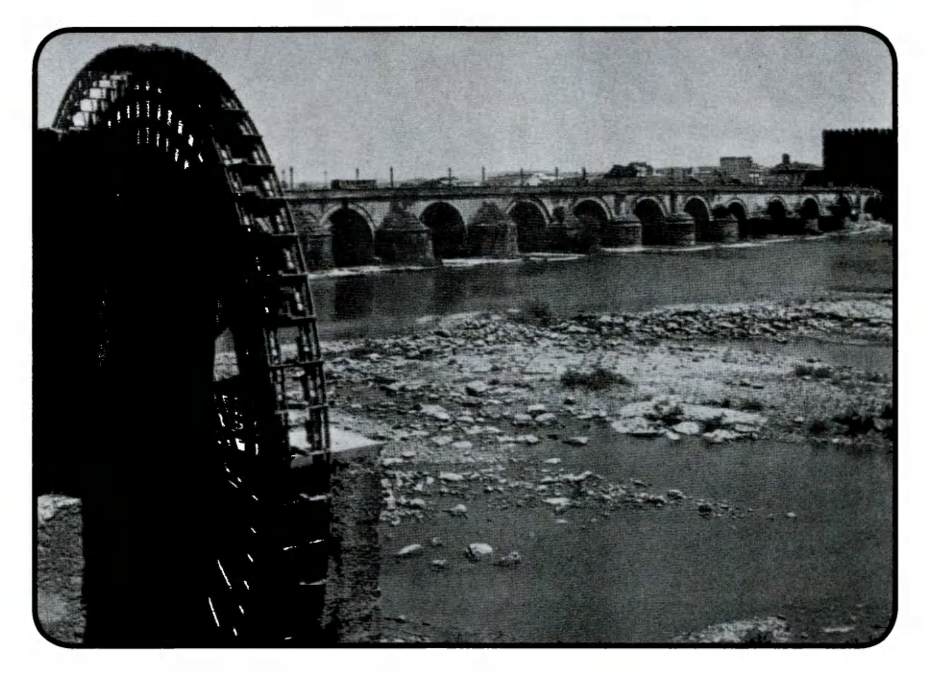
شَـــدُّوا المَـــآزِرَ لـلـقـيـام بليلهم ... دُونَ الـنـسـاءِ ولـو كُـنَّ بأَطْهارِ

تلتئم المجالس عند حَـرَمِ المسجد الجامع القرطبي وحول أعمدته وفي باحاته وأفنيته الواسعة. ابتداءً تقام موائد الإفطار الجماعية المفتوحة، يستحضرها ويَحْضُرُها العلماءُ والقضاةُ والمسئولون. هذه الباحات المسجدية المتسعة المُجَمّلة بتشجيرها، سيما النخيل والنارنج والزيتون، لتَسَع مثلَ هذه المناشط الرمضانية وغيرها. باحات المساجد متسعة، كما الحال لِمَا بقي منها اليوم: مسجد قرطبة الجامع، باحته التي تُقَدّر ثلث مساحته الكلية، مثل أخيه الإشبيلي، حتى المساجد الصغيرة نجد باحاتِها واسعة.

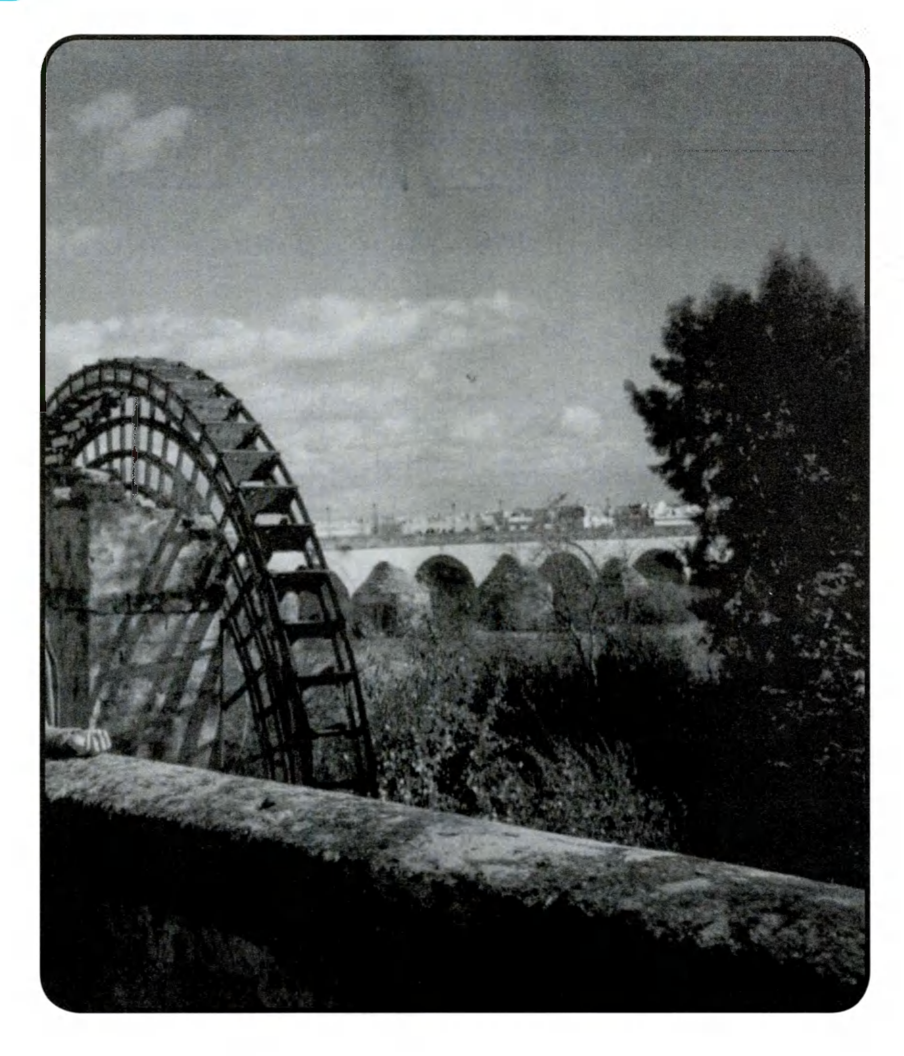


منظر جوي لكامل المسجد الجامع القرطبي المتبقي حتى اليوم، يظهر من ورائه الوادي (نهر) الكبير والقسم الشرقي من مدينة قرطبة المسمى شَقُنْدَة Secunda

يرد ذكر قنطرة قرطبة الأندلسية التاريخية الشهيرة القائمة حتى اليوم على الوادي (نهر) الكبير (Guadalqivir)، تلك التي تُوصِل غربي المدينة بشرقيها: حَيُّ شَقُنْدَة (Secunda)، ذات الحدائق والمتنزهات والبساتين يرتادها الناس للنزهة والترويح والفسحة الأُسَريّة، تكون مكتظة في ليالي رمضان.



قرطبة: صورة الناعورة على النسج التاريخي مع منظر الوادي (نهر) الكبير وقنطرته الشهيرة



قرطبة: قنطرةُ الوادي وناعورته: أُخِذَتْ هذه الصورة خلال زيارة قرطبة أواخر 12/2002م. ترى فيها: قنطرة قرطبة، (فوق الوادي (نهر) الكبير Guadalquivir Rio)، ذات الأصل الروماني المتهدم. أعاد بناءَها والي الأندلس الشهيد، السَّمْح بن مالك الخَوْلاني (102هـ = 721م) بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز (101هـ). تكرر تجديدها مرات. تقوم فوق نهر قرطبة: الوادي الكبير، إلى جَنوب المسجد الجامع القرطبي (هي من الجامع في قبلته: جَنوبه). أقواسها سبع عشرة قوسًا. تحاذي

القنطرةَ – جانب أيمن النهر – الناعورةُ الضخمة الفخمة التي كانت ترفع المياه من النهر الى قناة، لتنساب في أنابيب تحمله إلى بَعض أحياء قرطبة وحدائقها. أُعِيدَ شكلًا إقامة هذه الناعورة حاليًا في مكانها القديم، على نسق سالفتها تمامًا جسمًا ورسمًا. التاريخ الأندلسي*، 148- 149.

كان المجتمع الأندلسي يعمل دومًا بكل مكوناته وفِئاته، على تقوية الإيجابيات التي تقوم على الفروض والواجبات والمندوبات، وتحاصر السلبيات لتنحسر وتحتضر ما أمكن، يزداد الحال في رمضان وتلك من أهدافه المهمة الكبرى.

المتنزهات: ثم هناك المُتَنَزَّهَاتُ التي اشتهرت بها مدن الأندلس، يرتادها الناس في أوقات منها شهر رمضان التي قد تكون أحد أماكن الإفطار الأسرية كما الجماعية.

شملت رمضانياتُ الأندلس وأهلِه كُلَّ جوانب الحياة: أزياءَهم ومآكلَهم وأفراحَهم وأحفالَهم وعَلاقاتِهم الأُسَريّة والاجتماعية عامة، وتواصلَهم لذوي رَحِمِهم وأهليهم ومعارفهم وعامة مجتمعهم. حبث نجد مادة جِدُّ ضئيلة في هذا. من المعلوم أن لأهل الأندلس مذاهبَهم في كل ذلك، مشاركةً لغيرهم من بلدان العالم الإسلامي وتفردًا في جملة منها. من ذلك ملابسُهم، متنوعةً بين العمامة والجلباب والقَلانِس وبدونها، لعل ذلك يكون في رمضان أظهر وأشهر وأكثر. البياض سائد لديهم يتعمدونه في رمضان، اللونُ الأبيضُ مفضلٌ لديهم، اللبس والسكن وسوى ذلك.

صَوْم الطفل: من اهتمامهم الكبير في رمضان أنهم إذا بلغ اليافع العمرَ، الذي يُمَكّن من الصوم ولو ليوم واحد، فإن الأهل يحتفلون بذلك في المنزل وخارجه

في موكب، وقد ألبسوه أجمل الملابس وكأنهم في حفل عُرس. لعلهم قد يفعلون مثل ذلك إذا حَفِظ القرآنَ الكريم أو بعضًا منه.

أما طعامهم فلهم به عناية فائقة متزايدة وتأنق يُظْهِرُ جُودَه وجَودتَه وإجادتَه بشكل متزايد في رمضان، لكافة أنواع الأطعمة والأشربة والحلويات والفواكه، يستعدون لها مبكرًا. تجتمع الأسرة في رمضان على المائدة ومَنْ يُدْعَوْن إليها، يقدمون ابتداءً خفائف (لإذهاب الظمأ وإبلال العروق وإثبات الأجر)، على مدار الشهر، تتكون مما لابد منه لا تخلو منه مائدة، التمر والحليب والشوربة، التي تعرف الآن في المغرب: الحريرة. ثم بعد صلاة العِشاء والتراويح يعودون للعَشاء بأنواعٍ من أطعمتهم.

المطبخ الأندلسي: للمطبخ الأندلسي شهرته في هذه الديار (نُشِرَ كتابٌ فيه)، الذي يُكْثِرُ من استعمال الزيتون (Aceituna) وزيتِه (Aceite)، الذي جَلَبَ المسلمون زراعتَه إلى الأندلس، اشتهرت به إسبانيا حتى اليوم عالميًّا، مثلما اشتهرت بغيره من الغروس المجلوبة: الجمالية كالورود والفواكه بأنواعها، مما يجعلها بحقٍّ سلة أوربا وغيرها، ما تزال حتى اليوم تحمل أسماءَها الأندلسية: النارنج = البرتقال (Naranja). بعد هذا ينتقل الإفطار إلى سائر المأكولات التي تَعْتَني بأنواع اللحوم البحرية والمراعي الأرضية، يتميز بها رمضانُ، منها أكلاتٌ ثلاث:

(1): أشهرها حتى اليوم في كافة إسبانيا، لها بعض المطاعم المتخصصة بها، هي البايبا (Paella)، نَشْأتُها الحديثة مدينةُ بلنسية Valencia أُمُّ البرتقال، كما يذكر بغير تأكيد أنها من الكلمة العربية: البَقِيّة. تتكون من الرُّز المُصَفّر واللحوم البحرية، تُقدّم طَبَقًا رئيسًا.

(2): أَكْلَةٌ أخرى شبيهةٌ بسابقتها يُذْكَرُ أنها أندلسية، معروفة في المغرب، تتكون غالبًا من الرغائف واللفائف والرقائق، التي تُلَفّ بها اللحومُ المفرومة والبيضاء لا سيما الأسماك، تستعمل أكثر في رمضان لكن للدعوات والحفلات، تسمى حديثًا الباستيلا (Pastel)، تعني اليوم بالإسبانية: الحلويات أو المعجنات.

كما أن لديهم أكلة أخرى عُرِفَتْ بها الأندلس، لعلهم كانوا يكثرون منها في رمضان، يلتقون عليها في مجالسهم يتفننون في إتقانها تحضيرها شكلًا ومكوناتٍ وتقديمًا: نوع من الفطائر عُرِفت بالمجبنات، تصنع من الطحين تحشى بالجبن مع العسل. حتى أنه لمكانتها وحضورها وإجادتها لديهم، جرى ذكرها في شعرهم بأسلوب اختباري يأخذ شكل الأحاجي الفزورات والتندر، لدينا نماذج عدة شعرية لهم واردة:

منها ما قاله ابنُ الأَبَّار[1]: الإمام العلامة البليغ الحافظ المُجَوِّد المقرئ مَجْد العلماء الكاتب المنشئ: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القُضاعي الأندلسي البَلَنْسِي (658هـ=1259م)، من أسرة علم وفقه وتقوى تَلَقّى العلم من أبيه وروى عنه الكثير، تتلمذ على مشاهير علماء عصره من المحدثين والأدباء، من نجباء تلامذة شيخ المحدثين المجاهد الشهيد أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي المحدث الأديب الشاعر، لازَمَه وتَخرَّج به، رَثاه بأجود الشعر. سَفَرَ ابنُ الأَبَّار بين أهل بلنسية والملك النصراني وكتب المعاهدة بينهما، كما سَفَرَ إلى تونس لاستجلاب نجدة لإغاثة بلنسية المحاصَرة، أدّاها خيرَ أداء. قَصيدتُه السِّينِيَّةُ الشهيرة مما تدل على شاعريته. له المؤلفات الرائعة، شاعر فائق المعاني مُرتَجِل لها، يقول في المُجبَّنات[2]:

---

(1) المغرب، 2/ 309 – 312. نفح الطيب، 2/ 589، 594، 3/ 303 – 304. أزهار الرياض، 3/ 204. شذرات الذهب، 5/ 295. سير أعلام النبلاء، 23/ 336 – 339.

(2) أزهار الرياض، 3/ 221. المجبنات: فطائر أندلسية معروفة لأهلها تُصْنَعُ من الجُبْن، ربما مع العسل. الحلة، 2/ 291. نفح الطيب، 1/ 184.

بِنفسيَ مُثْلِجاتٌ للصدورِ لها سَمْتانِ من نارٍ ونورِ
حَوامِلُ وهي أبكارٌ عَذارَى تُزفُّ على الأكُفِّ مع البُكورِ
كبَرْدِ الطَلِّ حين تُذاقُ طَعْمًا وفي أحشائها وَهَجُ الحُرُورِ
لها حالان بين فمٍ وكَفٍّ إذا وافتكَ رائعةَ السُّفورِ
فتغرُبُ كالأهلةِ في لَهاةٍ وتطلعُ في يمينٍ كالبُدُورِ

بمناسبة شعر المُجبَّنات، عديد من الشعراء نظموا لها الأشعار، يدل أنها أكلة من الحلويات كانت مرغوبة معروفة شائعة، في كافة العصور الأندلسية، من ذلك ما قاله قاضي الجماعة بحضرة غرناطة الإمام الحجة الأعرف المؤرخ الناظم الناثر الراوية: أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن الأزرق الغرناطي - لعله يأتي حديثه لاحقًا في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى- نَظْمُه في المُجبَّنات، كأنه ببراعة يخاطب ويداعب ويقارب محبوبة له، أسلوب معهود لَدَى الأندلسيين في خطابهم ومحادثتهم وتوجهاتهم للأشياء المُحَبَّبَةِ لديهم وكأنها مَحْبُوبةٌ يَتَغَزَّلُ بها، دليلًا على أمور منها مكانة المرأة عندهم، إحدى معاني وثِمار غَرَسَها منهج الإسلام لديهم[1]:

ورُبَّ مَحْبُوبَةٍ تَبدّتْ كأنها الشمسُ في حِلاها
فأعجبْ لحال الأنام: مَنْ قدْ أحبَّها منهمْ قَلاها

(3): أكلة أخرى مشهورة في إسبانيا تسمى بالإسبانية تورتيا (Tortilla)، تتكون من البَيْض والبطاطا، تُخْفَق معًا وتُقْلَى، بأي من الزيوت ولها فنياتها الموروثة لأجيالها.

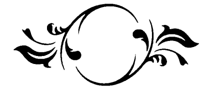
---

(1) أزهار الرياض، 3/ 319.

كانت تلك صورةً أندلسية تاريخية تحمل عَبَقًا ينتشر طِيبُه في كل مكان حوله، خضرةً وعُمْرانًا وبنيانًا، يسكب حيويتَه في الحياة الإنسانية بكل اتجاه، تزيده أجواءُ رمضان ظهورًا واضحًا بآثاره، حضارةً ونضارةً وعمارةً، حيث أينما سرتم لا تجدون فيه فراغًا.

أخيرًا يمكن القول: إن الكثير من ذلك استقر في المغرب حتى اليوم، نقله الأندلسيون إليه عند الرحيل تهجيرًا، لا يَعْدِم زائرُه، أن يلمسه في مدنه، لاسيما الشمالية، بشكل لا يفوته، مثلما في الأندلس، لكن ما مِنْ بُدٍّ أن تَهُبّ عليه منه نسائمُ، تهفهف بأنغامها الناعمة ***

نُشِرَ هذا الموضوع: «الأندلس نكهات رمضانية» - بكثير من الاختصار في كافة محتوياته - في مجلة المجتمع الكويتية الأسبوعية في أربع حلقات، الأعداد: 2060 - 2063، رمضان 1434هـ = 2013م.



الأندلس ومحاكم التفتيش

فتح المسلمون الأندلس (شِبْه الجزيرة الأندلسية = شبه الجزيرة الإيبيرية = أسبانيا والبرتغال اليوم)[1] سنة 92هـ = 711م. لم يكن فتح هذه الجزيرة عملاً سهلًا، قارة مساحتها نحو ستمائة ألف كلم مربع (أسبانيا 505 + البرتغال 92). لولا روعة الإسلام الذي بنى تلك النوعية من الجند، بذلك السلوك الفريد. رحب الناس بهم واعتبروهم منقذين محررين، ما خاب ظنهم. تم فتحها في أقل من ست سنوات، أمام تلك الجيوش القوطية الضخمة بأعدادها وتجهيزاتها المتنوعة، في أرضهم، يعرفون طبيعة تضاريسها ودروبها ومناخها مداخلها ومخارجها، المَدد من كل نوع منهم جد قريب.

لم يكن الفتح الإسلامي للأندلس إذن حدثًا عسكريًّا، بل كان إحداثًا فريدًا نوعيًّا له ما بعده، لها ولِمَا حولها، اجتماعيًّا وحضاريًّا وإنسانيًّا، به تميزت الأندلس في كل اتجاه واعتبار، به ازدهرت وازدهت وأثمرت أينعَ ثمار وأكرمَها وأطيبَها، حتى غدت يومًا ما أرقى وأقوى وأزهى بلدٍ في العالم.

قلةٌ مِن الجند لا تزيد عن اثني عشر ألفًا تواجه مئة ألف أو يزيدون، مُجَرِّبَة مُدَرَّبَة خبيرة بأفانين الحرب وأحوال البلد، المدد بكل أنواعه متوفر لديهم وقريب. القُوط (Eng. Goths, Esp. Godos) أمة عسكرية، لم تكد تعرف الهزيمة طيلة قرنين من الزمان، إلا أمام المسلمين. كان النصر – بفضل الله وعونه – واضحًا، رغم شدة القتال[2] لنحو تسعة أيام. لذلك وَصَفَ الفتحَ الإسلامي أحدُ مؤرخي الإسبان

---

(1) Esp. Peninsula Iberica, Eng. Iberian Peninsula

(2) سبق الفتح الإسلامي حملة استطلاعية إلى إسبانيا (شبة الجزيرة الإيبيرية) بقيادة أبي زُرعة طَـريف بن مالك في رمضان 91 هـ (710م). ثم بعد عام كانت حملة الفتح بقيادة طارق بن زياد، كانت معركة وادي

بأنه (مجرد نزهة عسكرية)[1]. أقبل أهل البلاد على الإسلام ودخل أكثرهم فيه، طواعيةً ومحبةً واختيارًا، كانوا من جنده العاملين وأفراد أمته المجاهدين، ظَهَرَ منهم الأعلام العلماء والكتاب والأدباء، من أحب البقاء على دينه حرًّا كريمًا سعيدًا، مارسوا أمور دينهم بحرية كاملة، أَدوا شعائرهم ولهم حياتهم، عاشوا خيرَ حياة ما كانوا يحلمون بها ولا يجدونها حتى في المجتمعات التي ينتمون إليها، دينًا وقومًا وبلدًا، دراساتهم التلمودية (اليهود) واللاهوتية (النصارى) نمت وانتعشت وكُتبت كما يودون، لهم في ذلك مدارسهم ومعابدهم وتجمعاتهم، سَعَدُوا بهذا التسامح الإسلامي الأصيل المعهود المشهود.

تَلاحَمَ المسلمون تآلفًا في المجتمع الأندلسي بكل قومياته، في بوتقة واحدة في هذا الجو الإسلامي الفريد الجديد. قامت هناك حضارة فريدة ملأت الميادين بأنواع النِتاجات والمواقف الإنسانية والبطولات، أنشأت مجتمعًا نوعيًّا فريدًا جديدًا وحضارة إنسانية رائعة، أتمت بناء الإنسان وأغنته تكريمًا وعزةً. ثم أهدى الإسلام - من خلال الأندلس ومن خلال غيره من عالم الإسلام - العلومَ المتنوعة (Sciences, Ciencias) والتقنيات المتعددة والإنجازات العالية الكثيرة الكبيرة في نواحي الحياة الواسعة إلى بقية أنحاء أوربا، كانت أساس حضارتها - أو قُولوا مدنيتَها الحالية - التي تتباهى اليوم بها على العالم، ليس لديها شيء آخر تعطيه سواها. لكن للأسف لم تكد تعرف الفضل لأهله، لا سيما الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم، تتبعها بقية أوربا والغرب)، بعد أن ذهب الإسلامُ عنها، كان الأكثرُ استمتاعًا بفضل الإسلام

بَرْباط الفاصلة يوم الأحد 28 رمضان لينتهي القتال يوم الأحد بعده، 5 شوال. انظروا كتابي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، 56 وبعدها.

(1) Historia de la España Musulmana, A. Gonzalez Palancia, Barcelona,1932,p.11 "Mero paseo militar"
(Eng. Pure Military walk).

أشَد عداءً له، طردًا معكوسًا أو عكسيًا. ردته للمسلمين فيها: هتكًا وفتكًا وسفكًا، يتبدى واضحًا ولا ينكره الإسبان أنفسُهم أو على الأقل المنصفون منهم ومن غيرهم، بل منهم من أدانها وتبرأ منها.

المرجو اليوم أن تنتفع الجالية المسلمة في إسبانيا بهذه المشاعر لدى المنصفين من الإسبان والبرتغاليين، لا سيما بعد أن اعترفت إسبانيا بالإسلام دينًا منذ سنة 1989م، حيث المعاهدةُ التي وَقَّعها الملكان الكاثوليكيان فرناندو الخامس وزوجته إزابيل[1] مع السلطة الأندلسية بيد آخر ملوكها في غَرناطة: أبو عبدالله الصغير[2] التي تقع في 67 بندًا[3]، بها تم تسليم غَرناطة الأبية الحبيبة الغريبة سنة 897هـ = 1492م، لكن المعاهدةَ نُقِضَتْ بندًا بندًا من قبل السلطات النصرانية، واحدَةً فواحدة جملةً، لدى أول فرصة. كان ذلك بعد تكرار توقيعها لأكثر من مرة، من قبل المَلِكَيْن وأولادهما ومجموع الرهبان، بل حتى من رأس الكنيسة الإسبانية وربما حتى البابا. بدأ هذا النقض تدريجيًّا ولم يكن قد جَفَّ حبرُها بعد، حتى وصل بعد نحو ست سنوات أن بدأ بتنصير المسلمين قسرًا: «ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروةً عروةً إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصُّر سنة ألف وأربعمائة وتسع وتسعين [1499م]، بعد أمور وأسباب، أعظمها وأقواها عليهم

---

(1) Eng. The two Catholic Monarchs (kings): Ferdinand (V), el Catolico , of Aragon and Isabella, of Leon and Castile. Sp.Los dos Reyes Catolicos: Fernando (V), el Catolico, de Aragon y Isabel la Catolica de Leon y Castilla.

(2) هو: أبو عبدالله محمد (الحادي عشر) آخر ملوك غرناطة، يعرف بالأسبانية عادة: أبوعبدالله الصغير Boabdil, el Chico.

انظروا كتابي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، 270، 524-525،529 وبعدها. كذلك كتابي: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها وآثارها)*، المجمع الثقافي، أبوظبي 1424هـ= 2003م، 67 وبعدها، 81، 157، 217،192،186.

(3) نفح الطيب، المقري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1408هـ = 1988م، 4/ 525.

أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرًا للكفر [نعوذ جميعًا بالله][1]. هذه المعاهدةُ - وإن نُقضت منهم - لا تعتبر ملغاةً، المفروض الانتفاع بذلك من قبل السلطات الإسلامية المهتمة والجالية الإسلامية في إسبانيا.

ثم إنهم إثر نقض هذه المعاهدة (معاهدة استسلام وتسليم غَرناطة)[2]، استمرت الاضطهادات وتنوعت وتدرجت للقضاء على كل ما هو إسلامي.

بعد الاستسلام والتسليم بسنوات قليلة أُحرقت الكتب في أكبر ساحة في غرناطة (ميدان باب الرملة Plaza de Bibarrambla (Bibrambla))، ثم كان إصدار الأوامر والمراسيم والإجراءات غير بعيد، بالإجبار على التنصُّر، لا يُقبل غيره، وإلا فالرحيل من الأندلس، لم يكن الراحل بأفضل حال ممن بقي في الداخل. ابتدأت محاكم التفتيش[3] بالقضاء على المسلمين - بشكل رئيس وإن وصلت لغيرهم كذلك - التي كانت مهمتها البحث والتجسس على الناس لسجنهم وتعذيبهم وحرقهم!!!

---

(1) نفح الطيب، 4/ 527.

(2) هناك خلط أو لَبْسٌ لدى بعض القدماء والمُحْدَثين في أمر تاريخ سقوط (Fall = Caida) مملكة غرناطة (Granada)، بين:

(أ) الاستسلام أو التنازل (Submission or Capitulation=Capitulacion)، وعقد معاهدة الذل التي كان توقيعها في 21 محرم 897، هـ= 25 نوفمبر (تشرين الثاني)1491م، وبعد نحو شهر من المفاوضات السرية؟!! والعلنية. هل كان عبثًا عقد مؤتمر مدريد عام 1991م، يقع بعد مرور خمسمائة عام على سقوط الأندلس !!؟

(ب) و(بين) تسليم غرناطة (الاستيلاء) ومفاتيحها: (Surrender, Rendition=Rendicion, Entrega (Dia de la Toma))، في الثاني من ربيع الأول (النبوي) سنة 897هـ = 2/ 1/ 1492م. راجع: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة*،193،192،186.

(3) هي بالإنجليزية: The Inquisition، بالإسبانية La Inquisicion.

لكن قيام محاكم التفتيش (محاكم التحقيق، دواويـن التحقيق) في الأندلس - لِتَعَقُّبِ كلِّ من ليس كاثوليكيًّا - بدأ قبل استسلام غرناطة، عازمين على ألا يبقى للإسلام في شبه الجزيرة الأندلسية ذكر أو أمر أو أثر ما. هي امتداد لها من الدول الأوربية، حيث سبقت نشأتها مبكرًا في بلدان أوربية في القرن الثالث عشر الميلادي (1215 م)، طُبِّق أولًا في إيطاليا وألمانيا وفرنسا ثم في شمالي إسبانيا (أرغون Aragon)[1]، حيث أُنشئت محكمة تفتيش في إشبيلية (Seville, Sevilla) سنة 885هـ = 1480م أو قَبْلَها، كانت إشبيلية قد سقطت سنة 646هـ = 1148م، ثم في بقية أنحاء الأندلس. موضوع محاكم التفتيش في الأندلس مخيف، حيث طاردت واضطهدت ومحقت لتقضي على كل ما هو غير كاثوليكي، طاردت اليهود، لكن بأقل من ذلك، والبروتستانت أيضًا، لكن سطوتها وبطشها المتوحش الشنيع المريع كان على المسلمين فيها، هم المقصودون هناك، وَصَفَتْهم بالكفر والزندقة والهرطقة (Unorthodoxy) (نعوذ جميعًا بالله) مدعية أنها بالقتل تُطَهرهم !!! استمر هذا لأجيال وأجيال مع المسلمين، حتى كان إلغاؤها رسميًّا سنة 1251هـ = 1835م، أي أنها استمرت نحو 365 سنة، لكنها بقيت تقتل سِرًّا، حتى بشكل جماعي، وتدفنهم أحياءً، بعد تعذيب وتقتيل وتقطيع.

هكذا يلاحظ بوضوح كيف أنه في الوقت الذي كان المجتمع الإسلامي في الأندلس يتمتع بالخير والحق والعدل ووَجَد فيه غيرُ المسلمين التسامحَ الفريد والحياة الحلوة الرغيدة والأمن[2]، كانت أوربا تسبح في بحر الدماء وأودية الحرائق

---

(1) راجع: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبدالله عنان، القاهرة، 1386هـ = 1966م، 329 وبعدها.

(2) انظروا: بحثي عن: «الأقليات غير الإسلامية في المجتمع الأندلسي»، في كتابي: أندلسيات (المجموعة الثانية)، بيروت، 1389هـ = 1969م، 19 - 36.

وتِيه العذاب، على يد أهل دينهم، بل ومن سلطاتها الدينية، من الكنيسة وبرعاية البابوية التي كانت تجر الناس جرًّا إلى هذا الشؤم والمتاهات والضياع، حتى تَفَلَّتَ الناسُ منها وهربوا، ليس منها فقط بل من كل دين، مما كان سببًا في انتشار الإلحاد والعَلمانية ومعاداة كل دين (دومًا نعوذ بالله من كل ذلك وأمثاله). غدت اليوم هي تلاحقهم وترضخ حتى للهوهم وكل ممارستهم التي لا يقرها أي دين أو قيم، كانت تمتلكهم فامتلكوها. هذا وذاك باطلًا.

كانت السلطات النصرانية في إسبانيا (تتبعها البرتغال) تُصدر القوانين تباعًا تُحرِّم كُلَّ ما يتعلق بالمسلم حتى منعت العربية والعادات الإسلامية اليومية، حتى الملابس والغُسْل والنظافة، بها يؤخذ مرتكبها، فهي عندهم دليل على إسلامه. ثم كان التنصُّر[1]، أو الرحيل ثم التنصُّر أو القتل. كان المسلمون في الأندلس يُظهرون النصرانية ويُبطنون الإسلام، هم الذين عُرفوا بالإسبانية: «الموريسكيون»[2] أي المسلمون الصغار أو الضعفاء، أي: المسلمون المُتَخَفّون (Crypto-Muslims). كل من كان يُعثر عليه أو يُعرف أنه ما يزال مسلمًا يُحكم عليه بالموت حرقًا، لا ينفعه الإنكار. نال هذا المصيرُ النساءَ والرجالَ شيوخًا وأطفالًا من سن 15 إلى 75 وأكثر. كان العذابُ الذي يمر بهذا الإنسان أشدَّ من الموت، الذي كانوا يتمنونه[3]. ذَكَرْتُ طَرَفًا من ذلك في كتابي: محاكمُ التفتيش الغاشمةُ وأساليبُها. كانت الكنيسةُ ورجالُها وجندُها، ابتداءً من البابوية، هم الذين يقومون بذلك كله. لهم

---

(1) Catholicizi, Catholicizing, Catholicizetion = Catolizar

(2) هم بالإنجليزية: The Moriscos or Moriscoes (little Moors) = Crypto Muslims،
وبالإسبانية: Los Moriscos (Los Musulmanes Pequeños)= Los Musulmanes Secretos.
وبالفرنسية: Les Morisques.

(3) راجعوا كتاب: محاكم التفتيش، الدكتور علي مظهر، القاهرة، 1366هـ = 1947م، 111، مواضع كثيرة منه.

جندهم المنبثون في كل مكان، يداهمون البيوت في أي وقت ودون استئذان، على كل أحد يعرف شيئًا عن هذا لابد أن يبلِّغ، من لا يبلغ مذنب ومأخوذ ومعذب، حتى الولد على أبيه والزوجة على زوجها. كان الحرق يُنَفَّذ في حفل عام، يُعلن عنه ويُدعى إليه ويحضره عموم الناس ورعاة الكنيسة والأمراء والمُلوك والمَلِكات، يحتفلون بذلك اليوم، في حفل سُمّي من أحفال الإيمان[1].

كانوا يحتفلون بذلك ويستمتعون والناس تحترق، ينشدون التراتيل الكنسية ضمن تقاليد خاصة بهذه المناسبات. يتم ذلك بشكل جماعي، حيث يوضع المحكومون عليهم فوق تل من الحطب وتُشعل فيهم النار، وهم يتلوون ويتضورون ويولولون، وهؤلاء يقومون بالحرق. والغوغاء بقيادة الكنيسة، ينتشون يرتلون أناشيد الدين ... أيُّ دين هذا؟؟؟ هذا هو التاريخ الأوربي وسلطاته، بل لا يكاد له فرق أساسي حتى اليوم، إلا الاختلاف في الشكل لا في المضمون.

للأسف إن أوربا منذ تسلمت النصرانية تسلمتها شكلًا لا حقيقة فيها ولا روح، مُحَرَّفةً وَثَنِيَّةً من خلال المجامع الكنسية (مجمع نيقية 325م) حضره الإمبراطور قسطنطين الذي تحول من الوثنية مباشرة فألبسها النصرانيةَ، ثم مجمع القسطنطينية الأول 381م ثم مجمع أَفُسُس: (Epheses): الأول 431م والثاني 494م، مجمع خَلْقيدونية (Chalcedoine) سنة451م)، خرجت كلها

---

(1) Atuo-da-fe, Auto-de-fe,

تعني: الفعل أو الحفل الإيماني، وهو: الاحتفال الذي يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محاكم التفتيش، وغالبًا ما يكون- لاسيما في الأندلس- بالحرق والأكثر بشكل جماعي، كما (سيرد) بشهادة شاهد عيان. ويتم ذلك بعد اعتقال وتعذيب وطلب الاعتراف. يعتبر كل ذلك والاعتقال حقًا ومتاحًا لهم ومُسَوَّغًا، يُصدرون أمرهم كما يريدون. وحق الاعتقال هو:

حق الاعتقال = Eng. Warant for arrest = Sp. Auto de Prision =

يصدرون أوامر كما يحبون، أمر الاحتجاز والسجن:

de detencion Eng. Warant for arrest = Sp. orden

تتبنى الوثنية وتحميها. هذا ما قاله العديد من كتاب النصرانية ودارسيها والعارفين بها. تَضَخّم يومًا بعد يوم عند البابوية وهي تسوس أهل دينها في أنحاء أوربا وغيرها، بالتسلط حتى أقامت محاكم التفتيش في أوربا، التي عاقبت على الأقل ثلاثمائة ألف، أُحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياءً، وآخرون بالقتل وغيرهم بالسجن والتعذيب، تنال كلَّ ذي رأي يخرج على تعاليمها حتى لو لم يكن في الدين، لم يكن ذلك من مهمتها أو اختصاصها: كعلوم الفلك والفيزياء والطبيعة، التي انتقلت إليها من العالم الإسلامي، لاسيما الأندلس. كان المسلمون يبتدعونها ويتعاملون بها ويطورونها وهؤلاء يقضون عليها وعلى القائلين بها. لإسلامية هذا العلم أيضًا قامت الكنيسة ضده وحَرَقَت أهله، وعوقب بالحرق كل من أصر عليها. كان غاليلوا[1] سيقع فيه لولا اعتذاره أمام البابا وهو جاثٍ على ركبتيه متبرئًا من آرائه. كل ذلك لقوله بأن الأرض ليست مركز الكون وأن الشمس لا تدور حولها - كما تقول الكنيسة وتريده - إنما الأرض هي تدور حول الشمس. النظرية أو القانون الذي قال به العلماء المسلمون قبل ذلك بقرون. كما صدر أمر الحرق على العالم الفلكي البولندي كوبرنكس[2] الذي سبق بنفس القول، لكن الموت عاجله فأنقذه منهم! كما أُعدم بالحرق حيًّا لنفس السبب الفيلسوف والعالم الفلكي الإيطالي جيوردانو برونو[3] بعد سجن وعذاب داما ست سنوات، غير هؤلاء

---

(1) Galileo Galilei عالم الفلك الإيطالي (1642-1564 م) الذي أيد كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس. وكان كل هذا بعد انتقال العلوم الإسلامية إلى أوربا.

(2) كوبرنيكوس (كوبرنكس Nicolaus Copernicus، 1543-1473م) العالم الفلكي البولندي الذي قال: إن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس وحول نفسها.

(3) جيوردانو برونو (1600-1548م) Giordano Bruno الفيلسوف والعالم الفلكي الإيطالي. عن هؤلاء وغيرهم انظر كتاب: موقف الإسلام والكنيسة من العلم، عبد الله المشوخي، الأردن، 1402 هـ = 1982م، 138 وبعدها.

كثير. إذا كانت هذه الأحداث المحزنة مبكيةً فاضحك وشر البلية ما يضحك. من موضوع صكوك الغفران

(Eng. Indulgence = Sp. Indulgencia) وقـرارات الحـرمـانِ .Sp Excomunion = Excommunication Eng. مثلما كانت تقام في إسبانيا مصارعة الثيران في ساحة مدريد الكبرى (Plaza Mayor) (الإسلامية - مجريط) كانت تقام في نفس الساحة محارق محاكم التفتيش، منها تلك التي أقيمت سنة 1680م بحضور الملك شارلس الثاني وبحضور المَلِكة زوجته، حيث استعرض 150 محكومًا مسلمًا قُدِّموا أُحْرِقَ منهم عشرون.

إن كثيرًا ممن يسأل أين ذهب المسلمون في الأندلس بعد ثمانية قرون، بنوا فيها تلك الحضارة وأنشأوا ذلك المجتمع وأقاموا تلك الحياة الكريمة، هَدَوْا النـاسَ أهلَها إلى نور الله المبين وأتموا الفتوحات المتنوعة وأسسوا العلومَ كُلَّها، مما كان أساسَ الحضارة الحديثة في كافة تقنياتها ومناهج علمها التجريبي. إن حرب هؤلاء الكنسيين للوجهات الإنسانية وفطرتها، هم الذين كانوا قد فتحوا الباب للأفكار الضالة المنحرفة، حَمَلَها أن عاشت فيما بعد في هامش الحياة الإنسانية، بعد أن لَعِبَتْ بعواطف الإنسان ودفعت بها بعيدًا، وأفسدت الحياة وقمعت الفطرة التي فطر الله الناس عليها تلك النظريات التي صدرت من أهلها ووجدت صداها في الأجواء[1]، من مثل: نظريات دارون وفرويد وماركس وانجلز وبرجسون وهاكسلي

(1) مَسخت هذه النظريات الكثير من البصائر وسحقت من النظر والحضارة، التي لا تتبنى قيمًا فاضلة، ثوابتًا في حياتها لا تدوم. ومن أين تأتيها (وأنى لها بها)؟ ومن أي دين حق ؟ فالتي لا تقوم على دين حق تكون خالية من القيم العليا التي لا تكون ابتداءً إلا بالإيمان بالله واحدًا فردًا مشرعًا. وإلا فهي تنهار ولا تخلف غير الآثار الحجرية لتدل عليها وعليهم، عبرة وأمثولة (وقد خلت من قبلهم المَثُلات) [الرعد:6]، الأفكار التائهة التي تلوكها بعض الألسنة ويستغرب منها ذوو الأَفهام والبصائر والألباب (أولوا الألباب). ولغفلتهم يفخرون بها فهي خير ما عندهم ككل جاهلية في التاريخ، قادتهم إلى تِيهِ نَكِدٍ ركبت

ودوركايم وسارتر[1]. لعل ما صنعته الكنيسة بتسلطها واحتكارها الدين الذي عبثت به وتصرفت، ومن آثارها محاكم التفتيش، جعل الناس يتمنون الخلاص منها ومن نِيرها ومن أفكارها أو لتقولوا خزعبلاتها. كانت تلك النظريات التي شَطَّت بالحياة الإنسانية والأحياء وحقائقها، أفسدت نظرة الإنسان إلى نفسه وحياة مجتمعه وكونه. فأين ذهبت تلك القرون الزاهيات في الأندلس وكيف انتهت بهذه الصورة، كأنها لم تكن؟ لكن الذي يطّلعُ على ما صنعته محاكم التفتيش من الإبادات لكل شيء ومظهر ومكمن له بالإسلام صلة، لا يستغرب بل يعجب لو رأى شيئًا باقيًا يمتُّ لذلك، وقد بقى فعلًا:

لا تَـعْـجَـبَنْ مِـن هـالـكٍ كيف هَوَى   بـل فـاعْـجَـبَنْ مِـن سـالمٍ كيف نجا

إن بقاء بعض المآثر المبثوثة هنا وهناك لدليل على روعة ما بناه الإسلام في هذه الديار، دليل مؤكد على قوته وعمقه وأصالته. لِنَقُلْ كيف أمكن لمُسْلِمَة الأندلس أن يورثوا أبناءَهم الإسلامَ كُلَّ تلك القرون ولأجيال عدة، تحت وطأة

بهم فأدخلتهم نفقًا مظلمًا لا يَخرج من بها ولا يستفيق إلى نور إلا بإذن الله (ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور) [النور:40].

(1) هم حسب ترتيب ذكرهم الوارد أعلاه:

1. داروِن الإنجليزي (Charles Robert Darwin) 1809-1882م صاحب نظرية النشوء والارتقاء.
2. فرويد النمساوي اليهودي (Sigmund Freud) 1856-1939م صاحب علم النفس التحليلي Psychoanalysis.
3. ماركس الألماني اليهودي (Karl Marx) 1818-1883م صاحب كتاب رأس المال Das Kapital.
4. إنجلز الألماني (Fridrich Engels) 1820-1895. أصدر مع كارل ماركس «البيان الشيوعي».
5. برجسون الفرنسي اليهودي (Henri Bergson) 1859-1941.
6. هاكسلي الإنجليزي (Thomas Henry Huxley) 1825-1895م البيلوجي، من المتحمسين لنظرية داروين.
7. دوركايم الفرنسي اليهودي (Emile Durkheim) 1858-1917، يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث.
8. سارتر الفرنسي اليهودي (Pean Paul Sartre) 1905-1980م زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية.

محاكم التفتيش التي أُشِيرَ إلى طرف منها، التي لم تنته حتى بعد إلغائها رسميًّا سنة1835م، بل ظلت هذه المحاكم تمارس خفية أعمالها الوحشية ضد المسلمين.



مدريد: متحف البرادو: رسم Pedro Berruguete، أحد الأحفال الإيمانية التي يحرق فيها المخالفون من قبل محاكم التفتيش، إلا أن يتوبوا.

منذ عدة سنوات عُثِرَ على العديد من المقابر الجماعية من المسلمين ضحايا محاكم التفتيش، كان أكبرها تلك التي اكتشفت سنة 1979م في كنيسة مدينة يرينا (Llerena) الإسبانية، ذُكر أن هذه المقبرة احتوت ما بين 7-8 آلاف جثة، مُمثَّل بها مجزأة مقطعة الأطراف والرؤوس والأجسام.

هناك من هربوا إلى المغرب، حيث كَتَبَ بعضُهم، وفقد من هذا الكثير، منها كتاب مهم: رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، لشهاب الدين الحجري الموركسي أَحَدُ أسْمَيْن فَعَلا ذلك عاشا تحت وطأة طاحونة التفتيش: الأول محمد بن عبد الرفيع (1052هـ = 1642م) في كتابه المخطوط: الأنوار النبوية في آباء خير البرية[1]، الثاني: الشهاب الحجري[2] المذكور الذي قام بتعريب كتاب عن المدفعية في تونس، كتبه بالإسبانية الموركسي إبراهيم بن أحمد بن غانم المعروف بالرّيّاش (1025هـ - 1616م) وعنوانه: العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، ألحقه (المترجِمُ بفصل عن محاكم التفتيش وجناياتها في الأندلس[3]، لديَّ صورةُ (Microfilm) من كلتا المخطوطتين. تُعْتَبَران من أهم الوثائق واعتمدها جميع الدارسين الذين عرفوهما.

ذَكَرَ ابنُ عبد الرفيع الذي كتب فصلًا في آخر كتابه عن الموركسيين باعتباره (مثل الشهاب الحجري) شاهد عِيان رأى وعاش أمامَه إجراءات محاكم التفتيش حتى الحرق الجماعي، أنه لما مَلَّتْ محاكم التفتيش واحتارت في أمر المسلمين أصدر الملك الأسباني فيليب الثالث (Filepe III) سنة 1019هـ = 1610م بالاتفاق مع الكنيسة وبقيادة محاكم التفتيش أمرًا بنفي الموركسيين من الأندلس،

---

(1) لدي صورة من مخطوطة هذا الكتاب، عنه انظر: الأعلام، الزركلي، 6/ 204.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المعروف بالشهاب الحجري، بعد 1050 = 1640م، عنه انظر: الأعلام، 1/ 198.

(3) عن المؤلف وكتابه والمترجِم، انظروا: بحث (من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي)، محمد عبد الله عنان، مجلة الدراسات الإسلامية بمدريد، التي يصدرها المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد السادس عشر، 1971، 10-19. وكتابه: نهاية الأندلس، 403 وبعدها، 501 - 504.

كذلك: بحث (وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس)، عبد المجيد التركي، حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، 1967.

سُمّيَ: الطرد الأخير، الأَوْلى تسميته الطرد الكبير (إذ ربما تلته أطراد أخرى دونه)، الذي أُخرج فيه زيادة على ستمائة ألف منهم[1]، كما ذكر كيف أنه كان شاهدَ عِيان للمحارق التي تقيمها للمسلمين محاكم التفتيش (محاكم التحقيق = ديوان التحقيق). مما جاء في مخطوط ابن عبدالرفيع الأنوار النبوية: «ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غصبًا، ابتدأ يُزيل لهم اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات الإسلامية شيئًا فشيئًا، مع شدة امتناعهم والقيام عليه مرارًا وقتالهم إياه إلى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق في علمه. فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه إمرة الإسلام ويعذبه بأنواع العذاب. فكم أحرقوا وكم عذَّبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فإنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

جاء في البيان الفيليبي: «ورأينا عِيانًا أن كثيرًا [المسلمون] منهم أحرقناهم بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية بصفة دائمة». عَلَّق عليها المؤلف: مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين، ثم وصفهم بالعناد ولرؤيته فيهم لوايح [لوائح = علامات] المسلمين وأماراتهم وملازمة القيام بدين الله مئين من السنين «فخرجوا كلهم سنة سبع عشرة وألف ووجد في دفاتر السلطان الكافر - أبعده الله تعالى - آمين، أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة نَيِّف وستمائة ألف نسمة كبيرًا وصغيرًا».

---

(1) يقدرهم البعض أكثر من ذلك بكثير، هذا غير ما تم في أوقات أخرى سابقة ولاحقة. غير مَنْ قُتِلَ بمختلف الأساليب والطرق والوسائل.

(2) مخطوطة: الأنوار النبوية، 327 وبعدها (مخطوطة خزانة الرباط رقم 1238ك). وحوليات الجامعة التونسية، 37.



رسم يمثل نفي الأندلسيين الكبير من بلنسية

كان صدور قرار إجلاء المسلمين عن الأندلس 1609/9/22م الموافق 19 جُمادَى الثانية 1018هـ. لعل هذا حتى تم خروجهم نهائيًّا من الأندلس أو وصولهم العُدْوَة المغربية.

والله غالب على أمره وله الأمر من قبل ومن بعد***

نُشِرَ هذا البحث: «الأندلس ومحاكم التفتيش» - بشيء من الاختصار - في مجلة الكويت (وزارة الإعلام)، العدد: 321، رجب 1431هـ = /2010/7م. تمت مراجعته بتمامه ليكون ضمن كتاب: «أندلسيات».

هِجرتان بَارّة وضَارّة

☜وَعَتْ الذاكرةُ الإسلامية - خلال عصورها المتطاولة، مثلما سَطَّرت مؤلفاتُها، التي امتلأت بها المكتبات - أطيبَ الأخبار وأجمل المواقف المُشْرِقة المُشَرِّفة لإنسان هذه الأرض. قدّمها المسلمون، لا سيما علماؤهم وأعلامهم، من النساء والرجال والأطفال، في الميادين المتنوّعة، التي غَصَّت بهم الدروب، وتنوّرت بهم الحياة وتعمّرت جوانبُها.

☜ هؤلاء الأعلام هم رواد المجتمع الإسلامي وحُداته، يحمونه من كلّ سوء ويقودونه خلال مسيرته في الموكب الكريم. عَوَّد هؤلاء الأعلامُ والعلماءُ أمتَهم المسلمة - في أقطارها وأعصارها - أن تراهم في مجتمعهم دائمي الحضور، أكثر حضورًا في المُلِمَّات. هذه الأمّة بمجتمعاتها تعرف قَدْرَهم وتسمع كلمتَهم؛ إذ عَرَفوا الأمانةَ وتحمّلوا تبعاتها تُجاهها. بذلوا كلّ شيء - حتى حياتهم جاهزة - لأدائها وحماية الأمّة من كلّ سوء، حراسًا أُمناء وقادةً أَوفياء لإعلاء البناء. ما وُضِعوا هذا الموضع إلَّا لهذا السمت الكريم، الذي ما عَرَفوا غيره. كلما كثر هؤلاء كان حال الأمّة أفضل. لكن مهما قلّوا - لأيّ ظروف وأحوال - لم تخلُ منهم، يقودونها نحو الخير ويأخذون بيدها إلى طريق الهُدى، هُدى الله المنير.

☜هذا الوضعُ اختصّت به الحضارةُ الإسلامية، بقوّة البناء الذي يوفّره الإسلامُ لمجتمعه. ستظلّ مواقفُهم وسيرتُهم منارًا مشرقًا وأنهارًا تَسْقِي البساتين باسقةً. كم حملوا أناسًا على أو إلى الحقّ، حتى الحكام دَعَوْهم له. مِن هنا كان بقاؤهم في موطنهم أساسيًّا لحفظ الأمّة والتعويل على خَلاصها من كلّ ملمّة، المهمّة التي وَعَوْها وأَلِفَتْها الأمّةُ منهم. لدينا أكثر من مثال، مثل: أيام الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي، مثلها في مَغربه، لا سيما أيامَ الطوائف العِجَاف وبعدَها. هم الذين

رَدُّوا إلى الأندلس قوتَها ووَحدتها. أَلِفَت الأمةُ من علمائها وأعلامها ألَّا يهجروا مكانهم ولا يبتعدوا عن الملمّات، بل يمتطونها حتى لو هاجروا إليها. الهجرة الكبرى هجرة الرسول الكريم ﷺ والمسلمين الصحابة المهاجرين إليها (المدينة المنوّرة)، من مكة وما حولها، شيء محفور في تاريخ الإنسانية وضميرها، هو أمر ظاهر في تاريخ المسلمين ووجدانهم، نهرًا جاريًا يمدّها بالقوّة ويعلّمها النخوة والبذل والإيثار، ثمرة الحبّ في الله والإقبال على كلّ عمل لإقامة دينه وتمكين وتحكيم شرعه ورعاية دولته وحمل ألويته. هذه الهجرة جديدة فريدة وحيدة منتصبة منارًا في التاريخ الإنساني كلّه من كافّة نواحيها.

لكن نادرًا ما أَلِف أو عَرَف المسلمون الهجرة من المواقع إلّا في ظروف اختلطت فيها الأمور وغَمَضَت فيها الوُجهة. كان ذلك منهم اجتهادًا ارتأوه حينَها لأسباب، اضطرّهم لاختياره حال غير واضحة، تلك هي الهجرة الضارة لاعتبارات عدة.

المجتمع الإسلامي - في مواصفاته والتزاماته - وَلُود دائمًا ولود. من ولادته الثرّة العزيزة: الإكثارُ من هذا اللون من العلماء الأوفياء، الذين كانوا خِيرة أهله ذكاءً وتقوًى وصلاحًا وتضحية. هم زهراته الفواحة، تفخر بهم الإنسانية. الأمّة التي لها هؤلاء مُنشرحة مُشرعة تيجانَها. امتلكت الأمة المسلمة منهم ما لو ملكت أيّة أمّة غيرُها بعضَهم لزهتْ بذلك. استحقّ هؤلاء المكانة الفاضلة في المجتمع الإسلامي الذي عَرَف قدرَهم، وَفّوْهم كافة تَبِعاتهم. مهما قَلَّوا في أوقات لكنهم دومًا بَرَّوا.

بُغاثُ الطير أكثرُها فراخًا وأُمُّ الصقر مِقْلاةٌ نَزُورُ

من الصعب أن نتصوّر مسلمًا - فضلًا عن أن يكون عالمًا - يختار الهجرة بعيدًا عن موطنه، ناجيًا بنفسه مؤثرًا مصلحته تاركًا أمته، لولا ضغوط وحال

قد تصل إلى التعذّر في ممارسة واجبٍ وأداء الفريضة؛ لأنّ ما يزرعه فيه الإسلام بعقيدته الربانية وتمتلئ نفسه بمنهجيته الكريمة، يجعل ملازَمة الأمة ومصالحها طبيعةً، هي مصلحتُه ويبذل لها كافة نفسِه. هذا له بعض أمثلة في تاريخنا الماضي والحاضر. إن ذُكر الحاضر الباهر قبل الماضي الزاهر، فلزامًا الاستشهاد الملموس بما يجري في عالم الإسلام المعاصر. لعلّ التعمد في تهيئة ظروف لذلك هي الثمرة المطلوبة التي يغدو توفيرُها مدعاةً للتفكير وإعادة النظر، الذي قد لا يكون علاجه بيد فرد أو أفراد متناثرين، لكن لا بدّ من مبادرة وزمامها وخُطّة وتمامها. الحديث في هذا مفتوح ممدوح وواسع. أحيانًا تلجأ السلطاتُ إلى أنواع أخرى من الوسائل تَتوَجَّهُ لأفرادٍ رؤوسٌ في الميادين، مُتَابَعَةً كيديةً ومعاقَبة، قد تهدف إلى مثل هذه الثمرة وإشاعة جوّ يفتح الباب لمن بعدهم.

إنّ غياب العلماء عن الميدان - لأيّ سبب كان- له أسوأ الأثر، منها اغتيالهم والقضاء التام عليهم. توفر في أوقات وفي الحاضرة منها. مما لم يحصل مثله ماضيًا إلا ما ندر. حصل أيام الطوائف في الأندلس مثلًا مواقف تبدلت للحسنى. وإن كانت الأمّة تلد غيرَهم أمثالَهم، لكن تأتي ظروف حرجة تعوق هذه الولادة بشكل طبيعي ولا تُعِين على توفّر الكافي كَمًّا ونوعًا. لكن أسوأ أنواع الغياب هو هجرتهم الضارة من أماكنهم إلى غيرها، غير هاربين لكن ربما لأيّ اجتهاد أو رؤية. لدينا مثال بارز على ذلك هو الأيام الأخيرة لمملكة غَرناطة وسقوط سلطان المسلمين، آخر سلطان في الجزيرة الأندلسية الإيبيرية، وما تلا ذلك مما يُعتبر هذا الكلام تمهيدًا له، وإن كان هذا لا يعتبر نهاية الوجود الإسلامي الإنساني، دينًا وحضارة لهم هناك بكل ظهور.

هذه التجرِبة المرّة والهجرة الضارّة للعديد من علماء وأعلام المسلمين، فيها من كلّ صنف، كانت تجرِبة مريرة، وإن كانت غزيرة بالعِبْرَة والعَبْرَة المشهودة، لا بدّ من العناية بدراسة ظروفها وآثارها والاستفادة من ذلك والتعرّف على أعماقها، التي تطاولت ويلاتُها وحالاتُها قرونًا حالكة. الآن إلى متابعة هذا النموذج من الهجرة المُرَّة.

رايات الإسلام: سارت الفتوحات الإسلامية عبر المناطق والبلدان ترفع راية الإسلام وتنشره بين الأنام. أمر لا يتمّ إلّا ببيع النفس لله تعالى، بالارتقاء بها بهذا الدين في ميادين الحياة كافة وفي مجتمعه الرباني المجيد، وصلوا إلى مناطق بعيدة ممتدّة شرقًا وغربًا، دخل الناس في دين الله أفواجًا برغبة ومحبّة.

الأندلس وفتوحاتُه العظيمة: بذا وصل المسلمون إلى الأندلس سنة 92هـ (711م) فاتحين ناشرين دين الله الحقّ. سرعان ما فُتحت الجزيرة الأندلسية خلال أربع سنوات أو يزيد، أخذ أهلها - أغلبهم نصارى - يدخلون في دين الله أفواجًا كلما فهموه ورأوا مُثُلَه في حامليه، من خلال التعامل الكريم والخلق الرفيع مترفعين عن سفاسف الأمور، مرتفعين إلى أعلاها وأنقاها متوجهين عادة نحو ذراها.

الهجرة الحقّة: كم هاجر المسلمون من بلد الموطن إلى غيره، خدمة للإسلام واستجابة لمضامينه النقية الندية، لقاءً بإخوته وإنشاءً لمجتمعه وإقامةً لدولته ونشرًا لدعوته، بذلك تركوا كلّ عزيز لأجل ما هو أعزّ منه؛ ليُمَدّ مجتمعُ الإسلام ويحمل راياتِه ويَمُدّ أروقتَه ليقيم شجرتَه يسقونها بدمائهم مقبلين متزاحمين.

كان المجتمع الإسلامي في الأندلس ثمرةً لذلك كلّه، في كلّ اتجاه كريم خلال قرونه الثمانية، عَرفت فيها تلك الأرضُ - التي طابت بالإسلام - خَيْرَه، أثمرت وأينعت أبرك الثمار وأفضل نِتاج وأروع حياة وأعطر زهرات. كانت بعض مآثرها

وجوانبها التي وصلت عَبْر الأندلس إلى أوربا وغيرها، أقامت حضارتها علامةً على روعة هذا الدين وفضله، حتى لمن لم يدخله من خارج مجتمعه وداخله، حيث تمتّع هؤلاء بحرية وتسامح لكلّ من استظلّ أروقته أو امتدّت إليه يداه الدافئة الرؤوم.

مراحل الحياة الأندلسية: مرّت الأندلس خلال حياتها الإسلامية بألوان من الظروف وتنوّع من النِّتاج وأطوار من المواجهات وأشكال من الالتزام، عَرفت فيه أيضًا مرارة التخلّف عن الالتزام والضعف عن الأخذ بكمالية: الخط الخلقي المسلم الكريم، الذي كان مَدَدَها الفاضل الكريم على الدوام. انتهى الأمر - لأسباب داخلية وخارجية - إلى الانهيار.

تكاد تنفرد الأندلس ببعض هذه الأسباب التي قادت إلى ذهاب دولته وزوال سلطته سنة 897هـ (1492م). لكن لم تكن تلك نهاية النهاية بل التقت نهايات ببدايات. انفردت الأندلس ببعض ظروف قادت لسقوطها، بل انفردت تمامًا بشكل متسع وحزين، لِمَا لقيته في إنسانها وعُمرانها وحضارتها ونضارتها، مكافأةً غيرَ كريمة، عاقّة ومتوحّشة على ما قدّمته من إنجازات حققتها، مِن مُثُل لا يمكن أن تتوفّر إلّا بهذا الدين. وَفَّرته لكلّ أحد، سعت الكنيسة بسلطانها الماكر الناكر الحقود للقضاء على كلّ ذلك، ما دام إسلاميًّا ويتّصل بالإسلام عمومًا.

المحافظة على الأمّة: المجتمع الإسلامي في الأندلس مرّ خلال عصوره بأطوار، كان كلّما زلّ عاد إلى نهجه فما زال. حَفَظَتُه كانوا يبذلون كلّ ما لديهم، أمراء وخلفاء وعلماء وكافّة أهله، لكن الثِّقْل النوعي الكبير والأثير حمله علماءُ الأمّة وأعلامُها.

من ظواهر الحياة الإسلامية المألوفة موقفُ العلماء في قيادة المجتمع وحمايته. كانت هذه في الأندلس بداية هادية، لعلّه أكثر ظهورًا أيام المُلِمَّات

والشدائد، يخوضون المعارك ويقودون المعامع يتقدّمون ويبذلون، تقوًى لله تعالى وقربى، جهادًا إيمانًا واحتسابًا. الأمثلة على ذلك وفيرة وخطيرة. مرّت بالأندلس أيامٌ محزنة بسبب بعض تقصير أحيانًا في الداخل وتكثير الأعداء في الخارج، مع كلّ ذلك لم تَخْلُ أرضُ الأندلس من مجاهدين، لكنّ ظروفًا وأحوالًا رافقت أيامَه الحرجة، كانت مستجدات تنوّعت لها الاستجابات والاجتهادات، حتى جَرَى تغيّر الحال وتبدّل المآل.

بداية الكارثة: لكن عند ظهور علامات السقوط الأخير في الأندلس، بذَهاب سلطانهم أواخر أيام غَرناطة، الذي توقّعه العديد من العلماء منذ بضعة عقود أو قرون، في ظواهر متشابهة حَذَّروا من استمرارها واسْتِعارها. جَدَّت ظاهرة لها أثرها مثلما لها أسبابها. العديد من العلماء الأعلام هاجروا من الأندلس قبيل السقوط، حين لاحت في الأفق بوادرُه وبَعْدَه، حين حلّت على أرضه خيلُه ورَجِلُه.

يقدَّر عددُ مَن هاجر منهم بالعشرات، بعضهم ترك أعمالًا مكتوبة كانت مصدرًا مهمًّا وأصيلًا، بعضهم قاد جهادًا مشهودًا كان واضحًا ومستميتًا؛ قيامًا بواجبهم نحو إخوتهم الذين بقوا - لأيّ سبب قام - في أرض الإسلام هناك: في الأندلس. جرى إحصاء أسماء ما يزيد عن العشرة من هؤلاء العلماء الذين هاجروا وقاموا بجهاد أو تركوا نِتاجًا، أرّخوا فيه الأحداث، كان واحدُهم فيها قريبًا شاهدَ عِيان. يمكن تقدير عدد المسلمين بعد السقوط في الأندلس، في مملكة غَرناطة وخارجها في الجزيرة الأندلسية (الإيبيرية) مواقع المدن الإسلامية الأخرى، بما يزيد مقدارًا على ستة ملايين نفس.

التهجير: إذا كان بعض الهجرات أو الدفعات المهاجرة قد تمّ حول السقوط، كأنّه كان للبعض سُنَّة استمرّت حتى بعده بعقود أو يزيد بقرون، حتى غدت الحال

في بعض الأحيان - لتَراكُم هذه الظروف - كأنّها موجبة للهجرة إلى أرض إسلامية أخرى، أو أعطت سهولة واستهانة للسلطات الباغية الآثمة الصليبية لاتخاذ إجراءات أكثر قهرًا وعسفًا وطردًا وشَتاتًا، كأنها نبهتها وإشارات لها إلى طريق سهل مفتوح لحلّ هذه المشكلة لها، تتخلص من المسلمين، بطريق سهل ميسور وقريب يقود لمأربها.
لكن من ناحية أخرى أُجبر بعض المسلمين على الهجرة من الأندلس في كلّ طرد تفرضه السلطات الإسبانية رسمية وكنسية، هما متداخلتان متلاقيتان، حتى كان الطرد الأخير أو بالأحرى الكبير سنة 1018هـ = 1609م. الذي بقي قائمًا اختيارًا أو قهرًا، لقي مع المسلمين الموركسيين، كلّ ألوان العذاب، جَرَتْ على أهلها تحت سطوة محاكم التفتيش الغاشمة الظالمة، التي كان القتلُ - حرقًا جماعيًّا وعلنيًّا في احتفال إيماني - مألوفًا، لكلّ مَن يُشَكّ فيه أنّه ما يزال على الإسلام، بممارسته أيّ شيء من مناسكه وأخلاقياته. منهم من اختار البقاء وصمّم عليه، رعايةً للمسلمين وتوريثًا للدين الحقّ من جيل إلى جيل، كان هذا هو الجهاد الأَوْلَى واقعًا. أما الذين هاجروا إلى أرض أخرى - مهما كان المبرّر قويًّا والحال موجبًا - وإن قاموا بجهاد، حيث هذا ما جرى لكنّه الأدنى. حين بدت بوادر أو بوارق السقوط أو مآزقه، ظهر للعديد من العلماء أنّ الرحيل أفضل؛ إذ لم تعد هنالك فائدة من الوقوف أو البقاء أمام قُوى الفتك والهتك، طابَع القوّة النصرانية يومها في إسبانيا التي واجهت مملكةَ غَرناطة الصغيرة، بمَدِّها الصليبي الذي ساندته أوربا وبابويتها بإمكانيات، لا تستطيع بها المجموعة الإسلامية هناك الوقوف أمام ذلك الاكتساح الهائج، الذي ينوي الشرّ ويتعامل بالغدر. فما هي إلّا سنوات وتقع غَرناطة تحت وطأة تلك القوى، تسحقها وتطحنها بأخلاقياتها المتهافتة وأنفاسها المتعفّنة.

هجرة العلماء: هجرة هؤلاء العلماء مهّدت الطريق لهجرة الآخرين من الأندلس إلى المغرب الأقصى والشَّمال الإفريقي عمومًا وبقية العالم الإسلامي وكذا بعض البلدان الأوربية، مثلما هوّن ذلك وأتاح – بمجال بدا أكبر - اضطهاد السلطة الرسمية والكنسية للمسلمين الذين تبعثروا.

إذا كانت قد توفّرت قيادات ودعاة حافظت - بشكل ما وإلى حين مهما كان - على هوية المسلمين وعلى وقوفهم في أشكال من المواجهات إلى حَدِّ الثورات، وَفَّرتها المجموعات المتبقية في المدن المتعدّدة، إلّا أنّ بقاء هؤلاء العلماء والتصاقهم بالمجتمع الإسلامي أُبُوّة إيمانية ومسؤولية ربانية، كان سيكون له ثماره البعيدة التي لعلّها تغيّر وجه تاريخ تلك المنطقة، يقدم معطيات أخرى وحفر مسار عميق ومستمرّ، في الحفاظ على تلك المجموعة ومدّها بالمعرفة والثبات.

قد تكون هناك ظروف تستدعي هجرتهم، لكن يبدو أنّ هناك موجبات أكبر تستدعي بقاءَهم. مع أنّ هؤلاء العلماء لم يهاجروا هروبًا بل اجتهادًا واتجاهًا كان، وإن قاموا بعد هجرتهم بمهمات جهادية أو دعوة إليه أو تحضير لصالح المسلمين أو مهّدوا طريقهم إلى المناطق. وسجّلوا نمط حياتهم الجديدة حيث حلّوا، لكنهم في نفس الوقت فتحوا باب الرحيل بأقلّ حرج بشكل فيه الكثير من التشتّت والتوزّع، جعل السلطات الجديدة في إسبانيا تكون أكثر جرأة وأمضى في تنفيذ مخططها الرهيب العجيب.

التنصير: لعلّ ظاهرة المُورِسْكِيّين (Esp. los moriscos, Eng. the moriscs, = the moresques = المسلمون = الأندلسيون المقهورون) وأسلوبهم في الحفاظ على دينهم بإظهار النصرانية وإبطان الإسلام، كان ثمرة بأيّ مقدار لتلك الهجرة، أمام أساليب التحريق والتمزيق والتخريق البشع، التي اتبعتها السلطات الكنسية

والرسمية في إسبانيا، بعد السقوط الأخير، حيث رغم فَرْض التنصير على المسلمين بكلّ سبيل، فشل في إخضاع المسلمين لهذا الوضع الذليل، واجهوه بإباء أصابه الكثير من الإرهاق وإلى حدّ الاختناق أحيانًا، لكنّه كان أبيًّا وفي كثير من الأوقات نديًّا، مما زاد تلك السلطات عنفًا أهوج أرعن حقود، أظهر حقيقة بنائها المرعب وطبيعة تكوينها الهابط، أَسود كالظلام ظالمًا بلا هوادة أو تردد.

محارق التفتيش: مهما تكن من موجبات للهجرة إلّا أنّه يبدو أنّ بقاء هؤلاء العلماء أدعى وأجدى وأبعد أثرًا، لا سيما في ذلك التوقيت في بدايات المواجهة الحارة المدمّرة. ربما يكون بقاؤهم مَحَثًّا في تماسك الجماعة المسلمة واستطاعتها الوقوف ضد محاكم التفتيش ومحارقها وعمليات الإذابة والإبادة، فردية أو جماعية، بالحرق أو القتل الذي جرى بكلّ جرأة ووحشية؛ استهانة وعداوة وحقدًا وصليبية. تلك التي استمرّت ما يزيد على ثلاثة قرون، شَمِلَت كلّ ما يتعلّق بالإسلام وأهله، ما يحمله أهله في النفس وما بقي في الحياة من نِتاج ومتاع وإبداع.

هذه القوّة الغاشمة كعادتها، تودّ هي نفسها أن يختفي العلماء في المجتمع المسلم؛ ليسهل عليها القيام بإجراءاتها التعسفية. وجودُهم يصدّ ويبدّد تلك القوى الباغية. الذي يشدّ ذلك ويقوّيه ويحفظ الجماعة ويمسكها، هم العلماء الأجلاء. تلك ظاهرة عامة متفرّدة في التاريخ الإسلامي، ماضيه وحاضره كذلك مستقبله القريب والبعيد، إن شاء الله. لأنّها تلك طبيعة التكوين الإسلامي وبنائه لأتباعه، وإن كانت المسؤولية عامة لكن العلماء يحملون قِسْطَها الأَوْفَى.

الوجه الآخر: فيما سبق من تاريخ الأندلس، كان العلماء هم الذين صانوه من حالات الضّياع الأُولى، لاسيما أيامَ الطوائف في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). كان العلماء هم حصن المجتمع ورعاتُه. إنّ مجيء المرابطين إلى

الأندلس وحدوث معركة الزَلّاقة Sagrajas (479هـ = 1086م) كانت ثمرة جهود العلماء، ابتداءً من أبي الوليد الباجي (474هـ = 1081م) وأمثاله، إلى كلّ الجهود الأخرى بكافة أحوالها.

تجربة غريبة: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرناطة (897هـ = 1492م)

كانت أسلوبًا تتمناه السلطة الإسبانية الرسمية والكنسية، أزاح من أمامها الجدار الرصين عند الصدمة الأولى، حيث وقتَها هيّأت النفوس لسلوك طريقها الذي مهّدته للهجرة، منذ ما قبل سقوط غَرناطة بمديدة وأكثر، مثل أسرة ابن الأزرق (896هـ = 1490م)، الذي بعدها أكدته، مثل أسرة الحسن الوزان (959هـ = 1551م). إنّ إقبال هؤلاء العلماء والأعلام إلى الهجرة من الأندلس في الأيام الأولى لسقوط غَرناطة، بذلت له السلطات الغاشمة سخاءً وقدّمت وُعودًا، بل حتى أظهرت لينًا وأرت من نفسها إحسانًا، خديعة وإغراءً كي يضع هؤلاء أقدامهم على عتبة الرحيل عن الأندلس؛ ليصفو لها الجوّ ويبقى المسلمون بدون قيادة ترعاهم ويلتفون حولها، يقتدون بها ويسمعون كلمتها، مجتمعين ماضين في تحقيق مرامي الإسلام والوفاء بالتضحية لأجله مقبلين. ذلك كُلُّه أعطى تجرِبة ذات أهمية، لم يستجب لها جميع العلماء هناك. منهم من أباحها ومنهم من رفضها وأصرّ على البقاء، رغم الموت الزؤام الماثل المتوقّع مقدمًا، على كلّ المستويات. أعطى ذلك خبرة غنية ببيان ثمار اجتهادٍ مخلص بالرحيل عن أرض الإسلام إلى غيرها وتحت ضغوط شديدة، لكن بدا أنّ العزيمة أو الشديدة فيها، البقاء في أرضه. ربما بجانب أنّ ذلك أفضل وأرضى لله تعالى؛ فإنّه الأوعى والأدعى والأبقى لِمَا يأتي بالفوائد.

لعلّ الأذى أكثر في الرحيل منه في التنقيل. لعلّ مَن رحل لم يكن أسعد حظًّا ولا أدعى وأرعى للأمل ولا أكثر للعمل ولا أبقى أثرًا من الذي بقي واحتمل، ولكلٍّ وِجهة يراها.

هذا الموضوع ما يزال بحاجة إلى متابعة وبحث؛ لمعرفة كافة ملابساته وأمثلته وآثاره والعزيمة فيه؛ لتتبيّن جوانبه وتؤخذ مواثبه بقوة أثيرة.

والحمد لله ربّ العالمين ***

نُشِرَ هذا البحث: «هجرتان بارة وضارة» منذ سنوات كثيرة، لا أكاد أتذكر أين ومتى تم ذلك. تمت اليوم مراجعته ليكون ضمن بحوث تجد مكانها في: «أندلسيات».



العِفّةُ أَدَبًا وحضارةً

﴿ الحياة لا تستقيم أبدًا بدون منهج، يكون هو المرجعية التامة دائمًا، مُسلَّم به وَحْدَه ولها وَحْدَها الكلمة، لجميع الآخذين به من عموم المجتمع، في كل الأمور، له الكلمة والقول الفصل في حياة مجتمعه، يُحافَظ عليه ويُعْمَلُ به ولأجله ويُسْعَى للتناغم معه.

﴿ القوانين الأرضية لا يمكنها أن تؤدي هذا الدور بحال. بجانب ثَغَراتها المدمرة لا يمكنها القيام بذلك، حتى لو أحيانًا. بل هي كذلك؛ لأنها متغيرة مفتقِرة وقاصرة. ما يكون اليوم مسموحًا (حَلالًا) يُصْبِح غدًا ممنوعًا (حَرامًا). من هنا لا ثَباتَ للقِيَم والمُثُل والخُلُق. لعله يَصح القول: قد تُدْخِل في حساباتها: النظرية النسبية - إن ثبتت صِحّتُها - لاستعمالها مبررًا لهذا الجانب؛ حمايةً لتغيراتها الدائمة. هكذا يبقى الإنسان يُعاني مِنْ وَيْلاتِ هذه القوانين التي تلازمها كظلها جِيئَةً وذَهابًا. عليه: إن الذي يَصلح لذلك وبه تستقيم حياة المجتمعات الإنسانية، تستوجب الحياةُ تَوَفُّرًا لمنهجٍ معروف قويم كريم. المنهج المجرد لا يدعو إلى الالتزام الذاتي، الذي ممكن أن يتكون لدى الإنسان، مِنْ ثَمَّ المجتمع. لا بد إذن أن يكون هذا المنهج منهجًا ربانيًّا قويمًا قَيّمًا مِثالًا زاكيًا مُنَزَّلًا مُجَرَّبًا (إخبارًا أو إقرارًا). تجارِبُ البشرية منذ وُجِدَت قديمًا وحديثًا، عليه خير دليل. ما مِنْ مَرّةٍ تَعامَلَ مجتمعٌ بمنهج رَبَّاني إلا وعُرِفَتْ في حياته المعاني الكريمة تعاملًا، والمباني الشامخة رفعةً والقيم الفاضلة متحركة، عاش به أسعد ما مر بالإنسانية من عهود مجيدة، مما عُدَّ مِنْ نُضْجِها وعُمْرِها الحقيقي. هذا لا يتوفر اليوم - مثل الأمس والغد - إلا بالإسلام وَحْدَه، على أَنْ يُؤْمِنَ به الإنسانُ المنتمي: فردًا وجماعة ومجتمعًا، نساءً ورجالًا وأطفالًا، يحرصون على تطبيقه سلوكًا وإن لم يتحدثوا به منطوقًا. هذا

ما كانت عليه الحياة الإسلامية الحقة في مجتمعاتها - مادامت به مُلْتَزِمة - منها بلد الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم). لروعة هذا المنهج الرباني وتفرده وتَمَيُّزِه، بَقِيَتْ الأُمةُ الإسلامية متماسكةً كلما كانت أقربَ إليه، تعتبره مرجعيةً وحيدة. حتى في أوقات الضعف والتخلف والتعثر، كانت تعمل جاهِدَةً للعودة إلى سابق عهدها، من خلال الدعوة إلى تجديد معانيه في النفوس، كبارًا وصغارًا نساءً ورجالًا مؤسساتٍ ومواقعَ. حتى في أوقات المواجهات الخارجية والعُدوانات والعاديات، كانت تلتقي عليه. بل حتى عند الزلل والانحدار والانجرار، تجري المحاولاتُ المُلِحّة لنفض هذا الحال وتجاوز الهفوة والقيام من الكَبْوَة، بالعودة إلى المنهج وسلوك سبيل هَدْيِه القويم، كما هو واضح خلال أحداث التاريخ المتكررة.

أكبرُ شاهدٍ لدينا - الكلام بالنسبة للأندلس - أيام الطوائف فيها (القرن الخامس الهجري= الحادي عشر الميلادي). رغم ذلك لم يكن المجتمعُ يفارق ثوابتَه بأجمعه، الاستسلام كان دائمًا للمنهج ومرجعيته العتيدة الوحيدة. الأمر الذي يَكْفُلُه ويُكَلِّفُهُ ويتولاه العلماءُ أولًا، دون ملل أو كلل - أعني: علماء الشريعة - ثم حين وَقَفَ معهم أُمراءُ عدة، عادت الحال إلى نسج الأجواء البارَّة، لُحْمة وسَدىً حارة جادة بارة.

تَمَيّز المجتمعُ المسلم بمواصفات لا يمكن أن تتوفر طبيعيًّا وبداهة ذاتيًّا في غيره. كانت المجتمعات الإسلامية مترقية بمقدارِ درجةِ التزامِها بمنهجها، بلغت مرتبة عالية في كل أمورها: سلوكه الإنساني الكريم وأخلاقياتُه النبيلة وتعاملاتُه الفاضلة. إذن لا بد من إبراز مكانة أحد أعمدته ترفرف فوقها بيارقُه المنشورة المشهورة المُشاهَدة، تَمَيّز بها مُنْفَردًا، تلك هي: «العِفَّة» في كل الأمور، بمعناها الشامل المتجدد ثمارًا قائمة مؤكدة طبيعية.

❦ في مثل هذا المجتمع يجد أهلُه من كافة الانتماءات والديانات، مكانَهم ومكانتَهم وأحوالَهم والظلالَ الوارفة التي يسكنون إليها ويتفيؤن بَرْدَها. قولوا نحو ذلك فيمن ليسوا مِنْ أهله بل مِنَ الآخرين خارجَه، المجاورين له والأباعد، يجدون منه حُسْنَ الأخذ والعطاء والتناول والتداول والحفاظ على الحقوق والعهود، مع الصدق في التعامل ظاهرًا وباطنًا.

❦ قام هذا المجتمع الأندلسي ابتداءً على العلم الشرعي، تليه التخصصات الأخرى التي امتلأت بها الميادين، بسبب بنائه واستمداده الإسلامي بكل التزاماته. بناؤه كله كان مُمْسِكًا به عاضًّا عليه بالنواجذ، قويًّا في حِفاظه له، لا يدعه يسقط من بين يديه. بقي يقاوم العاديات حتى آخر رمق. لم يكن يفارقه العِلْمُ في أحلك الظروف وأشدها وأنهكها، كما لم تتوقف فيه حركتُه أو ينحرف عنه موكبُه المبارك العميم.

❦ هذا ما نريده في الظروف الحالية أن نستعيد تلكم الصيغ ونجدد هاتيكم المباني ونعمق ذياكم المعاني ونبني الناطحات والمعلقات والعجائب الجديدة، التي يجب أَنْ نُقِيمَ عليها مجتمعاتِنا اليوم، بالبناء على هذا المنهج الرباني الكريم، حين يكون هو المرجعية الوحيدة التي تُبْنَى على العِلْم الأصيل، تمتلكُ أعلاها وأدناها هذه المنهجيةُ الكريمة، تتنفس وترتوي وتتغذى بها ومن خلالها، كيما تعيد تلك الصيغ الكريمة إلى الحياة. به وَحْدَهُ حيث يَهْنَأُ الجميعُ بأكرم حياة إنسانية، مثالًا يُحتذى ويُرام.

❦ العفَّة والعَفاف تعني: الكف عما لا يَحِلُّ ولا يَجْمُل من قول أو فعل. هو عَفٌّ وعفيف، هم أعِفَّة وأعِفَّاء. هي عَفَّة وعفيفة: المتصفة بالعِفَّة والسيرة الخَيِّرة جمعها عَفائف. العِفَّة: تَرْكُ الشَّهَوات من كل لون، وإن غَلَبَ في حِفْظ الفَرْج مما لا يَحِل.

الخلاصة: أنها تعني: تَرْكَ كُلِّ ما هو مُحرَّمٌ شَرْعًا. هذا معناها العام. أما المعنى الخاص: هو الحفاظ على العِرْض وعلى طَهارة العَلاقات بين المرأة والرجل ونظافتها، لا تحل أو تكون إلا عن طريق الزواج. من غير تفصيل. هذا لا يتوفر إلا في المجتمع المسلم. مَنْ يتجاوز ذلك فقد خالف الدين. حينها يُصْبِح من نافلة القول: إن هذا العَفاف والعِفَّة لا يتوفر إلا في المجتمع المسلم، الذي يجري الحديث عنه ذاك من مواصفاته، كانوا يتفاخرون بها.

بالنسبة لبلد الأندلس: فقد اعترف دارسون غربيون بذلك، بأن هذا مما ينفرد به المجتمع الإسلامي الأندلسي ومتوافر فيه، منهم بعض الدارسين الإسبان، من أمثال أنخل جنثالث بالنثيا في كتابه:

Historia de la Literatura Arabigo Espanola, Angel Gonzalez Palencia.

تَرِدُ أمثلة متعددة من ذلك في كتاب: «طوق الحمامة» تأليف الفقيه أبو محمد علي بن الوزير أبو عمر أحمد بن سعيد بن حَزْمٍ بن غالب الأندلسي (456هـ = 1064م)، تشمل النساء والرجال[1]. يذكر فيها تَجارِبَه باعتباره نموذجًا.

مِنْ ذلك انظروا ما عَبَّر به عن روعة هذا المعنى في سلوكه: «ويشهد اللهُ أنني ما فتحت إزاري على مُحَرَّم». الحق أن الذي يكون عفيفًا في هذا لعله فيما عداه أعف.

---

(1) يعتبر هذا الكتاب: «طَوْق الحمامة في الأُلفة والأُلَّاف» (الحب والمحبين)، نادرًا في بابه. مخطوطته الوحيدة المختصرة في مكتبة جامعة ليدن (هولندا). تُرْجِمت إلى عدة لغات وطبعت بالعربية مرات. يبدو أن مختصِرَها تصرّف زيادةً وحذفًا، أَدخل ما ليس منها، قلة من أقاصيص أستَبْعِدُها أعتبرها دَخيلةً.

☜ هنا أُورِدُ مثالًا آخَرَ بإشارة مختصرة إليه منوهًا به، يُعَبّر تعبيرًا جيدًا عن هذا المعنى، لشاعرة أندلسية معروفة.

☜ كانت حمدونة - مثل الأُخْريات غيرها، من هذه النوعية - الأديبة المعروفة والشاعرة المرموقة العفيفة المصونة، ربما الكاتبة المتمكنة. لكن للأسف ضاع جُلُّ النِّتاج الأندلسي وتدمر واحترق بيد الإنسان أكثر مما بمرور الزمان، بيد محاكم التفتيش، بعد سقوط غرناطة (897هـ = 1492م)، التي يتبرأ اليوم منها الكثير من الإسبان أنفسِهم. لذلك لم يَبْقَ من شِعْرها إلا أقل من القليل، رغم أنها كانت ترتجل الشعر وتقوله بَداهَةً وحالًا. كل ذلك كان يجري في أيام بلغت الأندلس فيه قمةً عالية من الرقي المتنوع والحضارة الفذة والمستوى العلمي النادر. شاعت العلوم والآداب والشعر بكل المستويات، نساءٌ كثيراتٌ ظَهَرْنَ في هذا الميدان، من أوائلهن كانت حمدونة الأديبة اللبيبة هذه. يتبين ذلك خلال بحوث كثيرة هنا وهناك. الحديث عنها في بحوث قادمة عدة إن شاء الله تعالى.

☜ في هذا الجو المتفتح الذي امتلأ بالنِّتاج المتنوع، ظهرت كافة الطاقات وأخذت مَداها الذي وصلت إليه، من السمو العلمي والأدبي الشامل الكريم، للنساء والرجال والأطفال. مما سَمَحَ لها بالنمو المستمر رغم انشغالها، بما يُحْدِثه العدوانُ الخارجي المتتابع وما يكلف البلد من متاعب ويَعيق من التنامي ويخنق مشاريع الحياة، وما يُخَلِّفه من إرباك في الداخل، زيادة على ما يَحْدُث بذاته من تشقق خلال المسيرة. كان الموكب عمومًا سائرًا في طريقه يداوي جِراحَه خارجيًّا وداخليًّا، لكن قافلته المباركة كانت دائمة المسير؛ ليصل بأهدافه إلى مرتقاه المتميز المبدع، متألق الحيوية والإنجاز. كُلُّ ما حَوْلَهُ مِنَ البلاد والمجتمعات والناس كان يَكْبُو، لكنه كان يحبو إليه (الأندلس) لينال زادَمًّا من بعض ما لديه، مُزيلًا عن ذاته

-إن أمكنه ذلك- جهالاتِه؛ ليتحررَ من أميته ويُعْتَق من أغلال الجهالة والتخلف والظلمة الشاملة، لِتُفْتَحَ له مشكاةٌ، تتسرب إليه أشعةٌ من ضياءِ مناراته الأندلسية، تنفض عنه جمودَه وقَتامته وجهله بقيمة العلم والمعرفة والتقدم، منه يُفيض عليه بعضَ ما لديه.

هكذا كان الفارق بين هذا المجتمع الأندلسي وبين كل ما ومَنْ حوله، باعتراف كثير من الدارسين الغربيين أنفسهم. فما الذي ارتقى إذن بهذا المجتمع؟ لماذا تخلف غيره، مِنْ نَفْس بيئته وبجواره؟ إنه المنهج الرباني وبمقدار الأخذ به، بجِدِّية وقوة ودَأبٍ.

بذلك وَحْدَهُ بَلَغَ الأندلسُ درجةً عالية من الرقي الحضاري، في كافة الميادين. منه الرقي العلمي المتنوع الذي كان أساسًا للحضارة الأوربية الحديثة. كان الأندلسُ أكبرَ وأهمَّ مَعْبَرٍ لجوانب من الحضارة الإسلامية الى أوربا. لكن هذا النقل كان محصورًا مُراقَبًا من القسس والرهبان لتلك القنوات، لمرور ما أرادوه دون غيره. لا يمر شيء له عَلاقة بالإسلام عقيدةً وشريعة وأخلاقًا، وإن تفلتت من ذلك أمور محدودة غَلَبَتهم، سَمَحَتْ فقط للعلوم البحتة Pure Science. قُطِعَتْ تلك العلومُ من أصولها وارتباطها ومِحْضَنها، صارت أداة لمصالحها، بل استُعملت كذلك في الشرور المبيدة المبيرة، العصر الحاضر على ذلك دليل أيُّ دليل.

الحضارةُ الإسلامية لا تَعرف هذا اللون من استعمال العِلْم وثمارِه المُرَّة؛ لأنها مؤسسةٌ على الإيمان بالله وتوحيده ومرتبطةٌ بالعقيدة الربانية وشريعتها. إنها حضارة التوحيد الوحيدة، وحضارة الرحمة المتميزة، وحضارة العدل والحق الأكيد الفريد من بين الحضارات جميعًا، قديمها وحديثها.

- حاربت البابويةُ وكنيستُها هذه العلومَ ومنابعَها، باعتبارها منقولة إلى أوربا من الحضارة الإسلامية. لهذا السبب وغيره أَحْرَقَتْ محاكمُ تفتيشها كلَّ مَن أصر على تلك المعارف من العلماء الأوربيين، من أمثال: عالم الفلك الإيطالي جيوردانو برونو Giordano Bruno (1600م). نجا من محارقها مَن تنازل عن مقولاته العلمية، من أمثال: غاليلو Galilei Galileo (1642م).أما كوبرنيكس البولنــدي Nicolaus Copernicus (1543م). فقد أنقذه الموت!!!

- حقق الأندلسُ هذا التألقَ الحضاري الفريد ذا التكوين الإسلامي، في وقت كان كل ما حوله مظلمًا ومتخلفًا وتالفًا، إنسانيًّا وفكريًّا وخلقيًّا. نَهَلَتْ أوربا من هذه الحضارة ما اختارته، كانت تُوفِد طلابَها الى الجامعات الأندلسية، يَتَلَقَّوْنَ منها العلمَ لسنوات، وجدوا في المتسع لكلٍّ من وافديهم بأحسن الساحات***

تَمَّ نَشْرُ مختصر هذا البحث: «العفة أدبًا وحضارة» في مجلة: «الكويت» الشهرية (وزارة الإعلام الكويتية)، العدد: 224، شوال 1431هـ = /2010/10م. جَرَتْ مراجعته لنشره هنا كاملًا ضمن كتاب: «أندلسيات».



حَمْدُونَة نَمُوذَجٌ أندلسي

عَمَّ العلمُ أهلَ الأندلس، نساءً ورجالًا وأطفالًا. ظهرت النساء في الميادين المتعددة العلمية والأدبية والشعرية، بكل ما يتناسب مع تكوين المرأة وفطرتها ووظيفتها. نبغت مثلًا في الآداب بكل فنونه الشعرية والنثرية، أبدعت في ذلك فنونًا، فليست الموشحات إلا فنًّا أندلسيًّا وليدًا.

لدينا من الشواعر قائمة طويلة غنية فذة. تناولن أَرَقَّ المعاني وأدقَّها وارْتَجَلْنَه وأَجَزْنَه. دَعوا عنكم شهرة ولّادة بنت المُسْتَكفي ونِتاجَها الشعري الذائع وما اتُّهِمَت به وأُلْصِق بها، بما فيه من زُور.

هذه اعتماد الرُّمَيْكِيَّة أجازت نصف بيت قاله المُعْتَمِد بن عَبّاد (488هـ=1095م)، أميرُ إشبيلية وشاعرُ الأندلس - وَقْتَها يومئذٍ - ومجاهدها، الذي كان في قارب يجول سابحًا بهم في نهر إشبيلية Sevilla الوادي الكبير Guadalquivir مع صديقه الشاعر المعروف ابن عمار الذي عجز عن إتمامه، إذا جارية تعمل في إحدى البيوت المُطِلَّة على نهر الوادي الكبير، تغسل شيئًا فيه، سَمِعَتْه فأجازَتْه فورًا. أُعْجِب بها المُعْتَمِد وتزوجها، كانت أمَّ بناته وأولاده جميعًا الملوك الأمراء الشعراء والشاعرات.

قال المعتمد حين تَزَرَّدَتْ[1] الريحُ وَجْهَ ماء نهر الوادي الكبير: «صَنَعَ الريحُ مِنَ الماءِ زَرَدْ». ثم قال لصديقه الشاعر المعروف: أجِزْ، لكنه عَجِز. أطال ابنُ عمار الفكرَ ولم يفعل شيئًا، أجازته امرأةٌ من العاملات (اعتماد الرُّمَيْكِيَّة) فقالت: «أيُّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ». فيكون البيت بتمامه:

---

(1) جعلت الريحُ وجه الماء في تموجه مثل حلَق (حلقات) الدرع المتماسكة المتسلسلة المترابطة.

صَنَعَ الريحُ مِنَ الماءِ زَرَدْ   أَيُّ دِرْعٍ لِقِتالٍ لو جَمَدْ

أما حَمدونة (أو حَمدة) الغَرناطية الشهيرة بنت زياد المُؤَدّب - مثلها أختها زينب - من ساكني وادي الحَمَّة بقرية بادي من مدينة وادي آش Guadix على بعد 53 كم شَمال شرق غَرناطة Granada من أعمالها، أي توابعها إداريًّا، قريبة من جبل الثلج: سِيرا نِيفادا Sierra Nevada ضمن سلسلة جبال شُلَّير(شَلِير): الشمس Solarius، الذي لا تفارق الثلوجُ قِمّتَه طوال العام دومًا. إذا قُدِّر لكم زيارة غَرْناطة وآثارَها وحمراءَها، فلا تَنْسَوْا زيارتَه.

مدينة وادي آش: «هي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار، وقد خص اللهُ أهلَها بالعلم والأدب وحُب الشعر». من عجائبها المذكورة أنه توجد قربها إحدى شجرتين في الأندلس من القَسْطَل (من فصيلة البلوط: الكستنة = أبو فروة)، في جَوْف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب، ذلك لضخامة هذه الشجرة المُعَمِّرَة. لا عجب فإن في حدائق الحمراء بغرناطة حتى اليوم شجرةً يسمونها السلطانة، عمرها يزيد على 700 سنة. كانت حية مُورِقة إلى قبل نحو ثلاثين سنة (الآن سنة 2013م). زرناها مع طالبات جامعة الإمارات في رحلتهن الأندلسية[1]. مازالت قائمة حتى الآن، زُرْتُها مع الأسرة قبل مدة (2001/12/)، لكنها ليست مورقة.

لعل جمال البيئة والطبيعة الأندلسية الخَلَّابة، بأشجارها الباسقة وأزهارها العبقة وثمارها ومياهها وبنائهم وتربيتهم وعمارة نفسياتهم، كسا نِتاجهم الأدبي جمالًا وبهاءً ورِقَّةً، بهذه الصيغ والصور المزدهرة الرقراقة الأنيقة، وفتَّق الطاقات وفَتَّح للقرائح الأدبية أبوابًا وارتقى بها وأضفى عليها رِقّة، أية رقة ودقة!!!

(1) انظروا: مع الأندلس لقاء ودعاء*، 45.

حمدونة إحدى المتصرفات المتغزلات المتعففات[1]. هي وأُختها زينب شاعرتان أديبتان من أهل الجمال والمال والمعارف والصَّوْن، إلا أن حُبَّ الأدب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوقة[2]، أثنى عليها الكُتَّاب.

لُقِّبت حمدونة: «خنساء المَغرب» ووُصِفَت بأنها شاعرة الأندلس[3]. شعرها رقيق رَقْراق، أكسبته وكسته جمالًا، بتعبيرها ومعانيها وصورها الأدبية الجديدة. لها عدة قصائد مما تبقى مِن شِعرها. خرجت مرة مع رفيقاتٍ لها إلى مدينة وادي آش Guadix، حيث نهر(شِنِيل أو شِنِّيل)[4] Genil, Xenil، نهر غرناطة الشهير، يقع في نهر الوادي الكبير. قالت تصفه بأبيات بارعة مبدعة منها:

أباح الدمعُ أسراري بِوَادي ... له للحُسْنِ آثارٌ بَوَادي
فمِن نهرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ ... ومن روضٍ يرِفُّ بكل وادي

من شعرها هذه القطعة الرائعة – ذات الأبيات الخمسة - التي ربما لها تتمة لم تصلنا. لجمالها ورقتها وإجادتها، تُعْتَبَر من عيون الشعر العربي والعالمي الأَخَّاذ، ادَّعاها آخرون نُسبت لهم حتى في المشرق. لكن الثابت والمؤكد أنها لحَمْدُونتنا هذه[5]:

وَقانا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وادٍ ... سَقاهُ مُضاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ

(1) تحفة القادم، ابن الأبار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، 234.
(2) الإحاطة في أخبار غَرناطة، ابن الخطيب، تحقيق محمد عبدالله عِنان،1/ 490.
(3) المُغْرِب في حُلَى المَغرِب، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، 2/ 145. معجم الأُدباء، ياقوت الحموي، تحقيق الدكتور إحسان عباس،3/ 1211.
(4) الإحاطة، 1/ 115-119. نهاية الأندلس، محمد عبدالله عنان، 23، 202.
(5) انظروا: نفح الطيب، المَقَّري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، 4/ 288. الإحاطة، 1/ 489. المُغْرِب، 2/ 146. تحفة، 235. معجم الأدباء، 3/ 1212. تاريخ الأدب العربي، الدكتور عمر فروخ، 5/ 531، 556. الحضارة الإسلامية في الأندلس *(للمؤلف)، 37 وبعدها.

حَـلَـلْـنـا دَوْحَـــهُ فَـحَـنـا عَلَيْنا حُـنُـوَّ المُـرْضِـعـاتِ عـلـى الفَطِيم

وأَرْشَـفَـنـــا عـلـى ضَـمَـأٍ زُلالًا أَلَـــذَّ مـــن المُـــدامــةِ للنديــم

يَـصُـدُّ الـشـمـسَ أَنَّـى واجَـهَـتْـنـا فَـيَـحْـجُـبُـهـا ويـــأذَنُ للنَّسِيـم

يَـــرُوعُ حَـصـاهُ حـالِـيَـةَ الـعَـذارَى فَتَلْمَسُ جانبَ العِقْدِ النَّظِيمِ[1]



(1) قالت حمدونة تصف بهذه الأبيات نهرًا ربما حول ضفافه غابة أو هو يجتازها ويَسقي تلك الغابة الرائعة بخضرائها، يجري فيها بمائه الزلال اللذيذ الصافي. الظاهر أنه نهر صغير داخل هذه الغابة يجري منحدرًا بصفائه وسَيْله الرائق المتدفق. لعلها لو شبهت ماءَه في البيت الثالث بتشبيه آخر لكانت قد استكملت بهذه القصيدة المحامد وحازت الجمائل وجمعت الحمائل من أطرافها. تشير الشاعرة حمدونة بالبيت الأخير إلى روعة وصفاء مياه النهر وجمال قاعه، الذي تَغَطّى بهذا الحصى، الجميل الواضح للناظرين، حتى ليخيّل للفتاة التي تلبس عِقْدًا إذا نظرت لحصى النهر، داخَلَها الخوفُ على عقدها إذ ظنت لجمال الحصى فيه أنه عِقْدُها الذي انتثر، لكنها وهي إذ تضع يدها على عِقْدِها متفقدة إيَّاه، تَجِدُه ما يزال في مكانه يُزَيّن جِيدَها، فتطمئن حامدة الله تعالى على أنها لم تفقده، عندها تبدأ بالاستمتاع في النهر متملية جماله الفريد***

نُشِرَ هذا البحث: «حمدونة... نموذج أندلسي» في مجلة الكويت الشهرية (وزارة الإعلام الكويتية)، العدد: 326، ذو الحجة 1431هـ = / 12/ 2010م. تمت مراجعته ليكون أحد موضوعات هذا الكتاب: «أندلسيات». كل الحمد لله رب العالمين على نعمه الكثيرة.

صَقْرُ قُرَيْش !

مَن يا تُرى هذا الذي يكون صَقْرَ قريش؟
إذا عُرِفَ من هو هذا الصقر القُرَشي!
فمن الذي أَطلقه عليه، ومَن عَرّفَ به؟

إذا عَلِمْتَ أن صقر قريش، هو ذلك الشاب الأُموي: أبو المُطَرّف عبدالرحمن ابن مُعاوية بن هِشام (هِشام جَدُّه: عاشر الخلفاء الأُمويين بالشام) بن عبدالملك ابن مروان بن الحكم. وُلِدَ عبدالرحمن سنة 113هـ = 731م في خلافة جَدِّه هِشام. عبدالرحمن هذا هو الذي عُرِفَ فيما بعد: عبدالرحمن الداخل(الأول)، لأنه أول من دخل إلى الأندلس من الأُمويين حاكمًا، بعد زوال دولتهم في المشرق. (الأول)؛ لأنه أول ثلاثة حكام هناك حملوا هذا الاسم من أُمويي المغرب. فكان أول أمير أندلسي تولى الإمارة فيها، بعد عهد الفتح لها وعهد الولاة فيها. أي بعد فتحها بنو خمسٍ وأربعين سنة. كان قد فَرَّ من الشام بعد ذهاب وسقوط الخلافة الأُموية فيها، سنة 132هـ = 749م.

أما الذي أَطلق عليه هذه التسمية «صقر قريش»، فهو خصمه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني. معترفًا له بجدارته مستحقًّا هذا الفَخَار. خرج هاربًا يرجو النجاة عابرًا البراري والصحاري والبحار، لينشئ دولة عظيمة بعبقريته، في بلد كان مضطربًا ومحاطًا بالمشاكل والأحداث والقضايا، كل ذلك وعمره خمسةٌ وعشرون عامًا.

تشير سنة 132هـ = 750م إلى نهاية الدولة الأموية في الشام على أيدي العباسيين، الذين تتبّعوا الأُمويين في كلّ مكان تشريدًا وقتلًا. ولم يَنْجُ مَن نَجا -من

هذه المطاردة- إلَّا بأُعجوبة. لكن عبد الرحمن الداخل لم ينج فقط, بل استطاع أن يبني دولة في أرض الغرب الإسلامي في بلد بعيد «الأندلس».

هرب عبد الرحمن (الداخل) بنُ مُعاوية، حفيد الخليفة الأُموي العاشر هِشام بن عبد الملك، من الشام إلى مصر فبرقة وطرابلس (ليبيا), ثم تونس فالجزائر إلى المغرب الأقصى, حيث بقي هناك عند أخواله من قبيلة نَفْزَة من البربر؛ إذ أن أمه راح منهم. كان معه غلامه بدر, مستغرقًا ذلك منه نحو خمس سنوات. هناك بدأ يعدّ العُدّة لتهيئة الظروف له في بلد الأندلس.

كان والي الأندلس في هذا الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري، وكان مُنْشغلًا ببعض الأعمال الحربية شَمالي الأندلس أو في الشَّمال الإسباني، حيث قامت جماعات من بلاد البَشْكُنْس Basques وجِلِّيقِيَة Galicia, أعلى الشمال الإسباني بمهاجمة الأندلس. في هذا الوقت أَعدَّ عبد الرحمن الداخل الخُطّة للعبور إلى الأندلس. حيث جاءه وفد أهل الأندلس يدعونه إليهم في شهر ربيع الآخِر من عام 138هـ = /9/755م. أواخر هذا الشهر من نفس عام 138هـ = 755م كان قد أبحر عبدالرحمن من المغرب متجهًا نحو الأندلس لترسو سفينته بساحل إلْبِيرَة (Elvira)- مدينة أو كورة (محافظة)- نَزَلَ في ثَغر المُنَكَّب Almuñecar، على ساحل الأندلس الشرقي من البحر المتوسط. بدأ التقدّم نحو قُرطبة العاصمة. بعد أن فَشِلَتْ المفاوضات بينه وبين والي الأندلس ومن معه، التقى الطرفان في معركة المُصارَة (المُسارَة)، على ضِفَّة نهر الوادي الكبير Guadalquivir، في القسم الجنوبي من مدينة قُرْطُبة عند الجهة الغربية من يمين النهر. عند بكور يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 138هـ = 756/5/14م. لم تستمر المعركة غير ساعات انتصر

فيها الداخل. أقاموا مباشرة صلاة الجمعة في مسجدها قرطبة Cordoba. تمّت له البيعة مساء نفس اليوم في مسجد قرطبة أميرًا على الأندلس.

استمرّ حكم الداخل للأندلس ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة عشر يومًا تمامًا (يوم الجمعة، العاشر من ذي الحجة سنة 138هـ - يوم الثلاثاء، لستٍّ بقين من ربيع الآخر (24 منه) سنة 172هـ = 5/14 / 756 – 787/10/2م). هكذا كانت مدة حكمه ثلاثًا وثلاثين سنة، استطاع فيها أن يقوم بأعمال جليلة. وَحَّد الأندلس، التي كانت مضطربة، وقضى على الثوار في الداخل وأوقف أطماع الشَّمال الإسباني ودولة الفِرَنْجة، واستطاع إعادة وَحدة الأندلس التي ربما كان فقدانها يؤدّي إلى ضَياعه كلّه. قام بإصلاحات عدّة ونَظَّم شئون الدولة. يعود الفضل – بعد عون الله تعالى وإرادته وكرمه الكبير - إلى همّته ونشاطه وخفّة حركته في إقرار الأوضاع في الأندلس.

من هنا سماه أبو جعفر المنصور، وهو خصمه بـ: «صقر قُريش». اتصف الداخل بالكثير من الصفات التي وهبها الله تعالى له، التي أَهّلتْه للقيام بهذه المهمة الفائقة. كان كما وصفه ابن حَيَّان القُرطبي، شيخ المؤرخين الأندلسيين، بقوله: «كان عبد الرحمن راجحَ الحلم، راسخ العلم، ثاقب الفَهْم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة ولا يَكِل الأمورَ إلى غيره، ثمّ لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مِقدامًا، بعيد الغور شديد الحَذَر، قليل الطمأنينة، بليغًا، مفوّهًا، شاعرًا، مُحْسِنًا، سمحًا، سخيًّا طلق اللسان».

لعلّ أهمّ أمرين يُذكران – بجانب كل ذلك - في أيام الداخل، هما: [الأول]: أنّه في حواليْ 161هـ = 778م سار شارلمان Charlemagne إمبراطور دولة

الفرنجة لغزو الأندلس؛ تلبية للدعوة التي وجّهها إليه بعض الثائرين ضد سلطة قُرطبة، التي جاءت لرغبة جامحة لديه يتوق لتحقيقها بنَهَمٍ كبير وفير، لا أدري كيف توجه هؤلاء الثوار إليه ربما لعلمهم بذلك وكيف فهموا حاله؟ لعل الأمر بحاجة إلى بحث متأنٍّ. سار شارلمان بجيش ضخم، مخترِقًا جبالَ البُرْت Pirineos Pyrenees، (الجبال التي تفصل بين إسبانيا وفرنسا)، حتى وصل مدينة سَرَقُسْطَة Zaragoza (شمالي الأندلس). لكن المدينة استطاعت الوقوف في وجه هذه الحملة الباغية الظالمة بقيادة الطاغية شارلمان وجيشه الجرار، الذي اختاره من خيرة محاربيه. حيث اضطروه إلى العودة أدراجه خائبًا. بينما هو يَعْبُر جبال البُرْت عائدًا إلى بلده من ممرّ باب الشيزرو، المسمّى رونشفالة Roncesvalles، ذلك الممرّ الضيق المحاط بالمنحدرات الوعرة، داهمته قوّةٌ مُكَوَّنة من الجيش الأندلسي ومن البَشْكُنْس؛ الذين خَرَّب شارلمان عاصمتَهم، بَنْبَلونَة Pamplona مرتين. هاجمت هذه القوة مؤخرة جيش شارلمان وقضت عليها، وأَخَذت كلَّ مَن وما كان فيها من الرهائن والغنائم، التي كان شارلمان قد أخذها من الأندلس. كان في المؤخرة عدد من خيرة ضباطه وقادته، كان منهم رولان Roland الذي أصبحت الأغنية التي نظمت فيه «أُنشودة رولان La Chanson de Roland» مصدرًا مهمًّا لقصص الفروسية في العصور الوسطى الأوربية. ما يزال حتى اليوم قبر هذا القائد موجودًا في مكان الحادث شَمالاً ويحمل تاريخ: «778/8/15م».

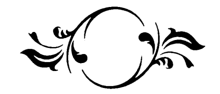
كان من آثار هذه الحادثة أن تَغَيّرت السياسة الفِرَنْجية التوسّعية تجاه الأندلس، قامت صلاتُ صداقة وودّ حتى ليقال: إنّ شارلمان عَرَضَ على عبد الرحمن الداخل عَقْد معاهدة صداقة وأن يزوِّجَه شارلمانُ ابنَتَه، قَبِل الداخلُ الصداقةَ ولم يقبل الزواجَ. يقول المَقّري في نفحه: «وخَاطبَ عبدَ الرحمن قارْلُهْ [شارلمان] ملكُ

الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تَمَرّس به مدّة، فأصابه صُلْبَ المكْسِر، تامَّ الرجولية، فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم ولم تتمّ المصاهرة».

يُشار بهذه المناسبة إلى أنّه لا صحّة لما يُقال من وجود معاهدة ثنائية كانت بين الخلافة العباسية ودولة الفِرنجة من جهة، ضد حكومة قُرطبة والدولة البيزنطية من جهة أخرى؛ إذ ليس لهذه الفكرة أيّ دليل غير الظنّ البعيد المفتعل المُتابَع.

الأمر الثاني المهمّ الذي يُذكر أيام الداخل أنّه: هو الذي أسّس مسجد قُرطبة الجامع نحو سنة 168هـ = 784م. أتمّ بناءَهَ مَن جاء بعدَهُ من الأمراء والخلفاء ابتداءً من ابنه هشام، حتى غدا هذا المسجد من أعظم آيات الفنّ المعماري – إن لم يكن أعظمها جميعًا تمامًا - لا في الأندلس وحدها بل في العالم أجمع. وغدت أعمدته أشبه بغابة جميلة تَعُدُّ ألف وأربعمائة وتسعة عمود وزيادة إلى ألف وأربعمائة وسبعة عشر عمودًا، لا يزال قائمًا منها ما دون الألف بل ربما نحو نِصْفها. تكمن في هذا المسجد وغيره من الآثار المعمارية الأندلسية حكايةُ جانب من قصّة حضارة الإسلام في أرض الأندلس الزاهر.

نُشِرَ هذا البحث: «صقر قريش» في جريدة البَيْدَاء الكويتية الشهرية مؤقتًا، السنة الثالثة منها، العدد: 23، 2007/5/1م. تَمَّتْ مراجعته وجُهِّز هنا ليكون ضمن موضوعات هذا الكتاب الحالي: «أندلسيات»، كل الحمد دومًا لله رب العالمين.





المجموعة الأولى

الطبعة الثانية

محققة مدققة

محتويات المجموعة الأولى

إهداء

إلى الأندلس أرض البطولة.

حيث عَمّرَ الإسلامُ قرونًا ثمانية.

فنَعَمَتْ بالخير مِن فضل تسامُحِه كافّةُ الأجناس والأديان؛

نبتَتْ كلُّ العلوم برعايته،

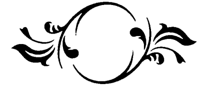
وترعرعِ الفنّ الرفيع تحت وارف ظلاله؛

فكانت حضارتُه شامخةٌ،

ومنارُه هاديًا،

خَلَّفَ تراثًا نافعًا، نَديَّ الذكريات،

لنا منها عَبْرَةٌ وعِبْرَةٌ.



التقديم

هذه مجموعة مقالات وبحوث في عدد من الموضوعات الأندلسية أغلبها تاريخية؛ كانت قد أُذيعت أو أُلقيت، أو نُشرت في صحف ومجلات عربية، المفضَّل أن تجمعها دفَّتا هذا الكتاب لتكون أيسر تناولًا. لقد عُدِّل أو أُضيف إلى بعضها، كما زُوِّدت بالمصادر. الأمل أن يفيد منها المعنيون بحقل الدراسات الأندلسية.

لعلّ في هذا الجهد بعض الإسهام في خدمة تراثنا الإسلامي الرائع في الأندلس الزاهر.

ولنا من الله تعالى السداد والتوفيق.



الأنـدلـس
في التاريخ الإسلامي[1]

تاريخ الأندلس. أيها السادة الأفاضل. عريض واسع، سأتعرّض إلى الخطوط العامّة لهذا الموضوع وأُلقي بعضَ الأضواء - ولو خافتة - على هذا التاريخ. التاريخ الأندلسي غنيٌّ لا يمكنني في مثل هذه العُجالة إلّا أن أقدّم بعض المقاطع أو اللقطات التي يمكن أن تُنْظَم في عِقد واحد لتعطي فكرة - ربما مقتضبة - عن هذا الموضوع.

سيتناول حديثي اليوم - عن تاريخ الأندلس - ثلاث نواحٍ: الناحية السياسية والحضارية، ثمّ أعرِّج للحديث عما تبقّى من تراث الأندلس الإسلامي قائمًا حتى اليوم.

من الجميل أن أُشير - أولًا - ونحن الآن في رجب الخير أنّه: حَدَثَت فيه أحداث تاريخية مهمّة، منها إسراء الرسول الكريم ﷺ ومعراجه كانا في 27 من هذا الشهر؛ وأنّ تحرير بيت المقدس بقيادة البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي كان في 27 من هذا الشهر سنة 587 هـ = 2/10/ 1187م؛ كما أنّ حملةَ طارق التي قادها لفتح إسبانيا (الأندلس) كانت أيضًا في يوم الاثنين بداية شهر رجب سنة 92هـ = 27 نيسان (أبريل) 711م[2]. لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الأعمال

---

(1) هذا ملخص المحاضرة التي ألقيت في النادي الأهلي بالرياض (السعودية) في 25 رجب 1387هـ = 28/ 10/ 1967م. نُشر في جريدة (الدعوة) الأسبوعية التي تصدر في الرياض، العدد 127، الاثنين 11 شعبان 1387 = 13/ 11/ 1967.

(2) البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 6. العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، فرُّوخ. نفح الطيب، المَقّري، 1/ 216 [بيروت، 1/ 231]. دولة الإسلام في الأندلس، عِنان، 1/ 41.

المجيدة في الفتح الإسلامي كانت نتيجة للقوة المعنوية والإيمان العميق بالدعوة الإسلامية وأهدافها، ذلك هو الأساس، إضافة إلى التسلّح المادي والتنظيم التامّ والتخطيط الواعي.

نحن في معركتنا مع إسرائيل لم يكن يعوزنا السلاح ولا الرجال، بل كان الذي ينقصنا هو الإيمان الفعال بإسلامنا. فمتى ما ملكنا هذا السلاح (الإيمان) والإيمان الواعي، نستطيع يومها استرجاع فلسطين ونستعيد مكانتنا.

كم للأندلس - أيها السادة - وقْع جميل وذكرى نَديَّة، لعلنا لمسنا جمال هذه الكلمة في موشَّح ابن الخطيب:

جـادَك الـغـيـث إذا الـغـيـث هَمَى ... يـا زمـانَ الـوصْلِ بـالأنـدلـسِ
لم يـكـن وَصْـلُـك إلّا حُـلُـمـا ... في الـكـرى أو خِـلْـسَـةَ المختلِسِ

مدلول كلمة «الأندلس» جغرافيًّا: هو كلّ ما كان تحت حكم المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية. لو تصوّرنا خطًّا أُفقيًّا من أقصى شمال البرتغال عند نهر دُوَيْـرُهْ Duero يسير مرتفعًا إلى الشَّمال ثمّ ينزل إلى الشرق حتى جَنوب بَرْشِلُونَة Barcelona – لا بل حتى شمالها أحيانًا كثيرة - على البحر المتوسّط شَمال مدينة طَرَّكُونَة Tarragona شَمال نهر إِبْرُهْ Ebro، فما فوق هذا الخطّ يمثّل إسبانيا الشَّمالية (المسيحية)، وما يقع تحته، حتى مضيق جبل طارق، يمثّل «الأندلس» أو إسبانيا الإسلامية. ليس الأندلس هو المنطقة الجَنوبية من إسبانيا أو شبه الجزيرة الإيبيرية. وإنّ كلمة «أندلسيا (أَنْدَلُثِيًّا Andalucia)» الإسبانية الحالية تشمل جَنوبيّها إسبانيا في التقسيم الإداري للدولة الإسبانية. يخلط البعض

بجعل الأندلس تشمل - في المفهوم التاريخي الإسلامي - جَنوبيّها إسبانيا فقط. اصطلاح «الأندلس» يشمل كلّ البرتغال الحالية تقريبًا وأكثر إسبانيا[1].

يعني الأندلس - حضاريًّا - ذلك التراث الضخم والتاريخ الشامخ الذي خلَّفَه المسلمون خلال ثمانية قرون، مدّة بقاء الإسلام في الأندلس، كان لهم خلال ذلك نشاط ملحوظ في بقية أنحاء أوربا، ليس هنا الآن موضع الحديث عنه.

إنّ عبور الإسلام إلى الأندلس يمثِّل عصرًا جديدًا؛ إذ يكون المسلمون قد دخلوا بذلك أرضًا جديدة عليهم، تختلف عما سبق أن فتحوه، في شَعبها ومناخها. لعلّ هذا الاختلاف كان أحد الأسباب التي أدّت إلى أن يُغلَب المسلمون في معركة بَلاط الشهداء التي حدثت في فرنسا في مكان يُعرف بـ«تور - بواتيه Tours - Poitiers»، جَنوب باريس بحوالي مئتي كيلو متر. كان قائد المسلمين في هذه المعركة والي الأندلس البطل عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي؛ وقائد جيش الفِرنجة، الذي تجمَّع من كافّة مناطق الإمبراطورية الفِرنجية: شارل مارتل Charles Martel، أو شارل المطرقة؛ كان ذلك في شعبان - رمضان سنة 114هـ = / 10-11/732م[2].

كان الفتح الإسلامي للأندلس (إسبانيا الإسلامية) بقيادة طارق بن زياد في 92هـ =711م، حين عَبَرَ المضيق وتجمَّع جيشه في الجبل الذي سُمّيَ باسمه، لا يزال كذلك وبكلّ لغات العالم Gibralter. لعلّ ذلك خير مكافأة لهذا البطل المسلم الذي لا نعرف عن مصيره كثيرًا. فَتَحَ - مع موسى بن نُصَيْر وقادة آخرين - كلّ شبه الجزيرة الإيبيرية تقريبًا في أربع سنوات أو تزيد، حيث بقي الإسلام في تلك البلاد ثمانية قرون، بعد أن دخل أكثر أهله الإسلام مختارين.

---

(1) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 59. الإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، فرّوخ، 43. دولة الإسلام، عنان، 1/ 50.

(2) [التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، 193 وبعدها].

أولًا - الجانب السياسي:

مرّت الأندلس خلال قرونها الثمانية بأحداث كثيرة وعصور عديدة وتقلّبت بين الضَّعْف والقوّة، القوّة التي أخضعت كلّ الأعداء وجعلت كلّ دول العالم وحكّامها تبعث بسفرائها إلى قُرطبَة تطلب وُدَّ خلافتها، تحرص على صداقتها؛ لكن الضَّعْفُ المَهين الذي جعل المسلمين، أيام ملوك الطوائف، يستعين بعضهم على بعض بملوك إسبانيا الشَّمالية (المسيحية). كما تردّدت الأندلس خلال هذه القرون بين البطولة والانهزامية، البطولة من كلّ نوع وفي كلّ ميدان، بلغت من المكانة حيث أنّ حكام إسبانيا الشَّمالية يُحَكِّمُونَ خلافةَ قُرطبَة فيما شَجَرَ بينهم؛ وانهزاميتهم التي دعت بعضَ حكام الأندلس إلى التنازل عن حصونهم وأرضهم والقبول بدفع الجزية لقاء وعود بمساعدات يتلقّونها ضدّ خصومهم من الأقارب والإخوان. كان ذلك أيام الطوائف أو بعدها حيث انساق ملوك الطوائف إلى ممارسة كثير من التوافه. من ذلك أنّ ملك سَرَقُسْطَة Zaragoza من قِبَل المرابطين، وهو أبو بكر ابن تِيفَلْوِيت، كان في مجلس غناء وغنّته إحداهنّ قصيدة لابن بَاجَه (الفيلسوف المعروف المتوفَّى سنة 522هـ) كان مطلعها:

جَــرِّرْ الــذيـل أَيَّمــا جَــرِّ .... وصِـــلْ الــشُــكــرَ مِــنْــك بــالــشُــكــرِ

طَرِبَ الملك الممدوح وصاح: «واطرباه» وشقَّ ثيابه وحَلفَ بالأيْمان المغلَّظة ألّا يمشي ابن باجه إلى داره إلّا على الذهب[1]. خاف الحكيمُ سوءَ العاقبة فاحتال بأن جعل في نعله ذهبًا ومشى عليه. لا شكّ أنّ مثل هذا الملك لا يصلح لإدارة شئون أمّة، بمثل هذه التصرّفات وغيرها أدرك الأندلس الحبيب الكثير من العبء[2].

---

(1) قيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، 407.

(2) انظروا: تاريخ الموسيقى الأندلسية*، مثل هذه الأفعال والتصرفات أسست ضعفًا مع عوامل أخرى، فتحت الباب للأعداء أن يلجوها؛ ليقتلعوا حجر الأساس. لكن الأندلس عاشت عمرها وفي كلّ أحوالها =

يُقَسِّم المؤرخون تاريخ الأندلس إلى عدّة عهود:

1 - عهد الولاة: من بداية الفتح حتى مجيء عبد الرحمن الأول (الداخل) 138هـ =755م. حَكَمَ الأندلس في هذا العهد، الذي دام حَواليْ أربعين سنة، عشرون واليًا.

2 - عهد الإمارة: يمتدّ حتى قيام الخلافة الأموية في الأندلس على يد الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة 316هـ = 929م.

3 - عهد الخلافة: يمتدّ حتى سقوط الدولة العامرية سنة 400هـ = 1009م، أو قبل ذلك [منهم من يجعلها على عهدين يجعل الدولة العامرية عهد آخر، والخلافة تنتهي بوفاة الخليفة الحكم المستنصر بالله سنة 366هـ = 976م].

4 - عهد ملوك الطوائف: يمتدّ حتى قيام دولة المرابطين في الأندلس سنة 484هـ =1091م.

5 - عهد المرابطين ثمّ عهد الموحّدين في الأندلس الذي ينتهي تقريبًا بقيام دولة غَرناطة سنة 630هـ = 1233م. [منهم من يجعلها عهدين].

6 - عهد دولة غَرناطة التي سقطت على يد الملكين الكاثوليكيين (فردناند Ferdinand ملك أراغون Aragon وإيزابيلا Izabella ملكة قشتالة Castilla وليون Leon) سنة 897هـ= 1492م. بسقوط غَرناطة تنتهي دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية.

فيما يلي نَسَب حُكَّام بني أمية في الأندلس:

=مجاهدة، كانت دومًا في جهاد مستمرّ. ضاعت الأندلس بأسباب داخلية وأخرى خارجية شديدة أقوى من غيرها.

قائمة نسب حكام بني أميَّة في الأندلس

(1) عبد الرحمن الأول (الملقب بالداخل) ابن معاوية بن هِشام

(138 ـ 172هـ = 755 – 788م)

|

(2) هِشام الأول ابن عبد الرحمن الأول

(172 – 180هـ = 788 – 796م)

|

(3) الحَكَم الأول ابن هِشام الأول

(180 – 206هـ = 796 – 822م)

|

(4) عبد الرحمن الثاني (الأوسط) ابن الحكم الأول

(206 – 238هـ = 822 – 852م)

|

(5) محمد الأول ابن عبد الرحمن الأوسط

(238 – 273هـ = 852 – 886م)

|

(6) المنذر بن محمد الأول (7) عبد الله بن محمد الأول

(273 – 275هـ = 886 – 888م) (275 – 300هـ = 888 – 912م)

تولّى الحكم بعده حفيدُه:

|

(8) عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) ابن محمد بن عبد الله

(300 – 350هـ = 912 – 961م)

|

(9) الحَكَم الثاني (المُستنصر بالله) ابن عبد الرحمن الثالث

(350 – 366هـ = 961 – 976م)

|

(10) هِشام الثاني (المؤيَّد بالله) ابن الحكم الثاني

(المتوفَّى حوالي 403هـ = 1013م)

يَروي المؤرخون بهذه المناسبة قصّة مؤثِّرة، ذلك أنّ آخر ملوك غَرناطة محمد الحادي عشر، الملقّب بـ«أبي عبد الله الصغير (بالإفرنجي: بوبديل Boabdil)»، حين رحل عن غَرناطة متوجّهًا إلى فاس بالمغرب، كانت معه أمّه عائشة، توقّف عند مرتفع يُشرف على مدينة غَرناطة اسمه «تلّ البَذُول Padul» نظر بحسرة باكية إلى غَرناطة الجميلة، وأجهش بالبكاء وصاح: «الله أكبر» فقالت له أمّه: «نعم ابكِ مثلَ النساء على مُلْكٍ لم تُحافظ عليه مثلَ الرجال». [لكن هذه الرواية بحاجة إلى إعادة نظر].

هكذا ذهب الأندلس حيث تفكّكت وَحْدَتُه، لا يُعفى بعض حكّامه الذين كان باب الجهاد مفتوحًا أمامهم، ماذا قدموا وماذا أخروا من آمال وتعلقات وحسابات، أمام تلك الظروف العاتية الغالبة المتكالبة التي أحاطت بهم، حين أَلْقَوا بسلاحهم، آواخر أيامهم الماحقة العجاف، ياليتهم أخذوا بموقف الفارس الحر: موسى بن أبي الغسان، واصلوا البذل والجهاد ولم يركنوا إلى تلك الوعود البراقة لعهود تلك السلطة الكنسية الباغية المتوحشة المعتدية. [لكن كانت هناك ظروف خارجية ساهمت فيما يتوفرها لمثل هذا].

بلغت الأندلس في عهد الخلافة، أيامَ عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصِر، قِمّةَ القوة السياسية والحضارية والعمرانية في العالم المعروف يومَها. تقرّب إلى الخلافة أقوى الحكام كالإمبراطور أوتو الأول Otto I، إمبراطور ألمانيا والبابا زعيم العالم المسيحي، كلّهم يَخْطِبُ وُدّه وصداقته متقربًا إليه. بل إنّ بعضهم يطلب التوسّط في حلّ مشكلات لهم معيَّنة حدثت لديهم.

نتيجة لهذا الاستقرار كان هناك الإنتاج الحضاري الضخم الذي أَنتج لنا ذلك التراث الرائع في كلّ ميادين الحياة وكافّة فروع المعرفة. يوم سادت الفوضى وأُذيت المُثُل ضاعت وَحدَة الأندلس؛ كما جَرَى أيام الطوائف في القرن الخامس الهجري (10م)، وإن كانت الروح الإسلامية قد ظهرت في فترات متقطّعة حتى أيام ضعف المسلمين هذه، أرَتْنا صورةً رائعة ناصعة وذلك مثل أيام المرابطين ومعركة الزّلّاقَة سنة 479هـ = 1086م التي أظهر فيها المسلمون بطولات نادرة. الإسلام -أيها السادة الكرام- صانع البطولات دوام.

ثانيًا - الجانب الحضاري:

شمل الإنتاج الحضاري الإسلامي عمومًا، والأندلسي على وجه الخصوص، كلّ النواحي في العلوم والفنون والآداب، كانت كلّ هذه الميادين مزدهرة بإنتاجها ورجالها ونسائها الأعلام. كان الأندلس -كما قد تعلمون- أَحَدَ معابِر حضارة الإسلام إلى أوروبا، على أساس منه قامت حضارة اليوم. الأرقام الفرنجية الحالية مثلًا هي عربية، ربّما من أصل هندي طوَّره المسلمون[1][2].

لم يكن التقدم الحضاري في العلوم أقلَّ منه في الآداب إن لم يزد، فإنّ ملك ليون León (دويلة إسبانيا المسيحية) حيث عُزِل من مَنْصِبه لأنّ سِمنته غدت مُفرِطَة منعته ركوب الخيل وبالتالي من قيادة المعارك ومن أعماله الأخرى. لم

(1) تاريخ العرب، حتي، 2/ 681 ؛ المدنية الإسلامية، عاشور، 98 - 100 ؛ شمس العرب تسطع على الغرب، هونكه، 68 - 74.

(2) لكن الذي يبدو لي الآن أنّ هذه الأرقام الفرنجية
ARABIC NUMERALS = ARABIC FIGURES, 0.2.3.4.5.6.7.8.9
انتقلت إليهم عن طريق الأندلس منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). التي نستعملها هي التي من أصل هندي.

يفلح هذا الملك (شَانْجُهْ الأول Sancho I الملقب بالسمين) في العودة إلى عرشه، لم يجد إلَّا أن يستعين بالسلطات الأندلسية. فعلًا استقبله عبد الرحمن الناصر في بَلاطه القُرطبي ودعا الأطباء لعلاجه فشُفِيَ من سِمنته، فعلًا عاد إلى مَنْصِبه، لكن من أشد العجب لما فعله نكرانًا لذلك الجميل، أنه أول عمل مما قام به مهاجمة الأندلس.

لدينا أعلام عمالقة في كلّ مكان، يُذْكَرُ منهم على سبيل المثال: ابن حَيَّان القُرطبي الذي لُقِّب بـ«شيخ المؤرخين الأندلسيين»، صاحب الطريقة العلمية النقدية في التاريخ، من مؤلفاته كتاب «المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس» الذي يقع في عشرة أجزاء فُقِدَ أكثرُها؛ وابن حزم الأندلسي، العبقرية التي أنتجت في كلّ ميدان كان مبرَّزًا في كلّ منه، فهو صاحب كتاب «طَوْق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف» في فنّ الحبّ والمحبِّين[1]، لقد أحصى ابنُه مؤلفاته فكانت حوالي 400 مجلّد؛ وأبو عُبَيْد البكري، الجغرافي الذي سبق عصره والذي قال بكروية الأرض وبرهن عليها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[2]؛ والعباس بن فِرناس، صاحب أوّل محاولة عملية في الطيران؛ وأبو القاسم الزهراوي، أيام الخليفة الناصر، الطبيب الذي بقيت كتبه مُعْتَمَدَةً في كليات الطبّ الأوروبية طيلة قرون عديدة. إذ هو الذي توصّل إلى استخراج الحصاة من المثانة أو تفتيتها، وإجراء عمليات في العين وغيرها من التقدم المبكر.

حتى في الموسيقى والغناء، كان هناك الغناء والموسيقى الشعبية التي بقاياها الآن في البرتغال، ما يعرف بموسيقى الفارو، وفي إسبانيا. وكذلك الموسيقى

(1) انظروا موضوع: ابن حزم من خلال كتابه «طوق الحمامة»؛ وموضوع: ابن حزم الأندلسي الفقيه الأديب.

(2) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 43.

«الكلاسيكية، القديمة» التي أدخلها زِرْياب القُرطبي[1] الذي أسّس أوّل معهد موسيقي في الأندلس كانت له طريقته الخاصة في كل ذلك.

لنا في كلّ علم وفنّ تراث ضخم وأشخاص لامعون.

كانت قُرطبَة تزخر بكلّ هذا، وهي العاصمة التي كانت أضواؤها العامة تُرى على بعد أميال وشوارعها مبلطة يوم كان في باريس لا بدّ لمن يخرج من داره في يوم مطير أن يخوض في الأوحال.

يقول الشاعر[2] في وصف قُرطبَة:

بأربعٍ فاقتِ الأقطارَ قُرطبَةُ ... منهنَّ قَنْطَرةُ الوادي وجامِعُها
هاتانِ ثنتانِ والزهراءُ ثالثُها ... والعلمُ أعظمُ شيء وهَوْ رابِعُها

يُذكر أنّ الخليفة المستنصر أجرى الماء إلى مسجد قُرطبَة الجامع من عين بجبل قُرطبَة في أنابيب الرصاص التي وضعها في قَنوات حجرية متقَنة البناء تحفظها داخلَها لنقل الماء.

وصف أحد الشعراء هذا الحال فقال[3]:

وقد خَرقتَ بطونَ الأرض عن نُطَفٍ ... مِن أعذبِ الماءِ نحو البيتِ تُجْريها
طُهْرُ الجُسومِ إذا زالت طَهارتُها ... رَيُّ القُلوبِ إذا حَرَّتْ صَوادِيها
قرَنْتَ فخرًا بأجرٍ قَلَّ ما اقترنا ... في أُمّةٍ أنت رَاعيها وحاميها

(1) باعتبار مَهْجَرِه وموطنه الجديد (قُرطبَة).
(2) انظروا وقارنوا: نفح الطيب (بيروت)، 1/ 153، 616، 2/ 526 وبعدها.
(3) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، سالم، 393 - 394.

ثالثا- التراث الباقي في إسبانيا:

يتمثّل في ثلاثة مظاهر، أُجملُها فيما يأتي:

1 . العِمارة: وتتمثّل بالمباني الإسلامية المتبقية حتى الآن، التي تشير إلى المستوى المعماري وإلى الفنية في البناء، ذلك مثل مسجد قُرْطُبَة الجامع وقصر إشبيلية وقصر الحمراء الذي يُعدُّ أعجوبة الزمان في فنيته وهندسته وجمال زخرفته، وإنّ هذه المباني لا تزال تحتفظ بألوانها الجميلة المبهجة الباهرة المزهرة.

2 . حياة الناس في إسبانيا متأثِّرة إلى حدّ كبير في كثير من النواحي. ففي البناء نجد أثر الفنّ الأندلسي وفي اللغة نجد كلمات كثيرة جدًّا من أصل عربي كالقطن Algodon والمخدّة Almohada والقائد [أو حاكم] Alcaide والقاضي [أو عمدة] Alcalde وغيرها وفير. كما نجد أسماء الأماكن الجغرافية والمحلات والمدن لا يزال كثير منها يحمل أسماءً عربية. كما نلحظ التأثير في حياة الناس، في عاداتهم تلك وحتى في أسلوب حديثهم[1].

3 . المخطوطات:

الحديث عن هذا الموضوع طويل. مجمله أنّ المخطوطات الأندلسية كانت كثيرة، لكنها أُصيبت بنكبات متتالية أَوْدَت بقسم كبير منها، من حرق وضَياع وإهمال. لا زال بعضها أو أقلُّها - كثير وفير منها - مُفَرَّق في خزائن المكتبات في إسبانيا والبرتغال وغيرها. يُذكَر على سبيل المثال مكتبة قصر الإسكوريال El Escorial الذي يقع على بعد خمسين كم شَمال غرب مدريد. تضمّ هذه المكتبة حوالي الألفين من المخطوطات العربية القيِّمة التي تشمل ميادين كثيرة[2]. هنا

---

(1) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، عنان، 436 - 544 ؛ الإسلام في إسبانيا، لطفي عبد البديع، 85-116.

(2) الآثار الأندلسية، عنان، 430 - 435.

أدعو المسئولين إلى الاهتمام بهذا التراث بإنشاء المعاهد وتخصيص الأموال اللازمة ومساعدة الباحثين المتخصصين للعمل على بعث هذا التراث وإحيائه قبل أن تمتلكه يد الضَّياع. فهو بحاجة إلى اليد العاملة الحريصة والجهة المسئولة الغنية تنفق عليه وتساهم في إخراجه إلى النور، ذلك واجب الدول الإسلامية والعربية منها خاصة، وغيرها ممن يشعر بصلة نحو هذا التراث الزاهر. لقد أخذ الإسبان، منذ نحو قرن الاهتمام به ورعايته بأكثر من حال.

الآن فإنّ واجب الدول الإسلامية وجامعة الدول العربية ليس أقلّ من الدولة الإسبانية نحو هذا التراث المُشرِق المُشَرِّف الزاهر.

مما سبق - أيها السادة - تبينت لنا بعض الخطوط عن تاريخ الأندلس حيث استمرّ الإسلام هناك ثمانية قرون. وتعرضنا للحديث عن حضارته التي ساهمت إلى حدّ كبير - مع بقاع الحضارة الإسلامية الكثيرة الأخرى - في بناء حضارة الإنسان الحالية وإنجازاتها، وعما تَبَقَّى من هذا التراث العزيز الذي يحتاج إلى خدمة واعية مخلصة.

رأينا - كذلك - كيف أنّ الأندلس يمثِّل جزءًا من التاريخ الإسلامي بكلّ ما فيه من تمثيل للعقيدة الإسلامية والتزام وإن تفاوت، من جهاد بطولي وتضحية بأي مقدار؛ وبكلّ ما فيه من عبقرية وإبداع فكري وبناء حضارة شاملة ما أمكن لما أبدعت العقول المؤمنة ولما شادته يد المسلم، يوم تأخر عن السير في المضمار الإسلامي بتمامه، بكلّ ما فيه من مُثُل فاضلة عالية أو أثقله بأي مقدار وأخره عن هذه المُثُل.

هكذا اطَّرَدَت الحضارة والقوّة والتقدّم واقترنت مع درجة التمسّك بالإسلام والاعتداد بمبادئه السامية الفاضلة الفريدة.

طارق بن زياد

بطل أَبَى التاريخ إلاّ مكافأته[1]

في تاريخ الأندلس متعة وعُذوبة، وكثير من أحاديثه بحاجة إلى جهود الباحثين لكشف جوانب عظيمة من التراث والميراث الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم). لكلمة الأندلس رنين ساحر معبّر وموسيقى عذبة مطربة؛ لما فيها من ذكرياتِ ثمانيةِ قرون بمنجزاتها، اختلط النصر فيها بالهزيمة والعزّة بأقل عزيمة.

نعني بـ«الأندلس» تلك المناطق من شبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت تحيا في الجو الإسلامي والواقعة جَنوب الخط الممتدّ من نهر دُوَيْرُهْ Duero غربًا إلى برشلونة شرقًا، أي تشمل كلّ البرتغال الحالية وأكثر إسبانيا باتساعها.

قصّة فتح الأندلس أو إسبانيا الإسلامية قصّة شيّقة، بدأت مشاهدها في مثل هذا الشهر الميمون (رمضان)، بعد أن وافق الخليفة الأموي في دمشق، الوليد ابن عبد الملك، على اقتراح موسى بن نُصَيْر والي الشَّمال الإفريقي على فتح إسبانيا واختبارها بالسرايا أولًا.

عَبَرَ طَرِيف بن مالك المضيقَ إلى إسبانيا، بأربع سفن التي يقال ساعد بها يليان حاكم سبتة[2] من قبل الدولة القوطية في الأندلس. كانت قوّة طريف العسكرية - باعتبارها حملة استطلاعية - تتكوّن من خمسمائة محارب منهم مائة فارس. تمّ عبورها إلى الأندلس في رمضان سنة 91هـ = 710م، استقرّت في المكان الذي

---

(1) أُلقي من إذاعة بغداد ونشر في جريدة (الشهاب) اللبنانية، العدد الرابع، السنة الأولى، 4 شوال 1386هـ = 15/1/1967م.

(2) في هذه المسألة نظر. انظروا: التاريخ الأندلسي*، 47 وبعدها.

حَمَل اسمَ قائد الحملة «جزيرة طريف». بعد جولات خفيفة ناجحة عاد طريف إلى موسى بالأخبار السارّة المشجِّعة. على أساس النجاح الذي لقيه طريف جَهّزَ موسى حملةَ «الفتح» التي قادها أحد ضباطه الذين عُرفوا بالبطولة المتواضعة والحَنْكة الذكية والعسكرية المتفانية، كان ذلك طارق بن زياد الذي امتلأ إخلاصًا وحماسة لنشر الإسلام عَبْر المضيق.

كانت مثل هذه الخُطوة طبيعية بعد استقرار الإسلام في المغرب، بشكل جعل أهلَه أنفسَهم يتحمَّسون لحمل راية الدين الجديد. كانت فكرةُ فتح إسبانيا فكرةً إسلاميةً، تمثِّل موجةَ المدّ الإسلامي التي حملها الفاتحون حبًّا في نشر عقيدة الإسلام ومبادئه الإنسانية، التي ما عُرفت ولن تُعرف مثلُها شَرَفًا وشمولًا.

في السنة التالية 92هـ = 711م سار طارق بجيش قِوامه سبعة آلاف جندي عَبَروا المضيقَ ليعسكروا في الجبل الذي خلّد، والمضيق قبله، اسمَ هذا القائد وبكلّ لغات العالم «جبل طارق Gibraltar ومضيق جبل طارق». كانت هذه هي المكافأة العظيمة التي حَظِيَ بها هذا العبقري، بجانب اقتران اسمه خلال التاريخ بالبطولة المؤمنة ونُكران النَّفْس. سار القائد يفتتح المناطق المجاورة بسهولة، حينما سمع لذريق Rodrigo ملك إسبانيا القُوطي بأخبار هذه الحملة بدأ يجمع جيوشَه لمواجهتها، اجتمعت أعداد كبيرة أوصلتها بعض الروايات إلى ما يزيد على مائة ألف محارب. حينما سمع طارق بأخبار هذا التجمّع كتب بالأمر إلى موسى بن نُصَيْر الذي أرسل نجدة من خمسة آلاف جندي. استَكْمَلَت عِدَّة الجيش الإسلامي اثني عشر ألفًا، أكثرهم من البربر الذين كانوا متحمّسين لنشر العقيدة.

يذكر بعض المؤرخين أمرًا لا يمكن أن نمرّ عليه هنا دون تعليق. ذلك أنّ طارق قد أحرق السفن التي عبر بها من سبتة إلى الجبل؛ ليقطع كلّ أمل للمحاربين في

العودة، الأمر الذي يدفعهم إلى الاستماتة. ولا أميل إلى تصديق هذه الرواية؛ إذ أنّه من غير المعقول أن يُقْدِم طارق على مثل هذا العمل وهو في أرض جديدة منقطعة، وأمام دولة كثيرة الجيوش، فما كان يغيب على مثل ذكائه أنّه سيحتاج إلى النجدة، لقد تمّ ذلك فعلًا حين استجاب موسى لاستنجاده بخمسة آلاف جندي؛ كما أنّ السفن (كلّها أو بعضَها) التي استعملها طارق كانت ملكًا ليليان – كما قال البعض - حاكم سبتة كمساعدة للجيش الإسلامي.

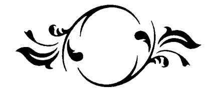
سار طارق بقواته المتواضعة عددًا المتعالية بقوّة العقيدة وسموّ الهدف ليلتقي بقوات الجيش القُوطي الكثيرة عددًا وعُدّة، المتهافتة معنويًّا[1] قياسًا إلى المعنويات الإيمانية لدى الجند الإسلامي. كان اللقاء عنيفًا حاسمًا في تقرير المصير، لا مصير الجيشين فقط بل - وهذا أهمّ أمر- مصير العقيدة والغاية التي حملها الجيش الفاتح إلى هناك، ومصير إسبانيا التي أرهقها الحكم القُوطي قهرًا وظلمًا وفوضى. كان اللقاء في نهاية رمضان سنة 92هـ = أواسط/7/711م عند نهر البَرْباط Barbate، غير بعيد من وادي لَكُهْ في شمال الجزيرة الخضراء جَنوبي إسبانيا. يظهر أنّه لا صحّة للخطبة المنسوبة إلى طارق، التي ألقاها أمام جنده قبل المعركة مخاطبًا: «أيها الناس: أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامَكم وليس لكم والله إلَّا الصدق والصبر ...». فلم يكن طارق . وهو من البربر . قد وصل إلى مستوى من الفصاحة ما يُمَكِّنُهُ لارتجال مثل هذه الخُطبة، وإن بدت هذه أقوى حجة في نفيها، فهي ليست كذلك. لكن المعقول أنّه خاطبهم بما يثير حماستهم[2].

(1) كان الجيش القوطي بروح معنوية عالية، لكن تتهافت وتتصاغر قياسًا إلى الروح الإيمانية للجيش الإسلامي بعقيدته الربانية النقية.

(2) التاريخ الأندلسي*، 57 وبعدها.

دام الالتحام بين الجيشين حوالي أسبوع أو يزيد قرّر مصيرَ شبه الجزيرة الإيبيرية. كان النصر حاسمًا للمسلمين تشتّتت جيوش القُوط وقُتِل الملك لُذْرِيق Rodrigo في تلك المعركة التي فَقَدَ فيها مُلْكَهُ ولم يُعثر له على أثر. استمرّت موجة الفتح منتصرة لم توقفها المقاومات المتفرّقة. كان الكثير من الشعب الإسباني قد رحّب بها ووجد فيها المنقذ. استمرّ هذا المدّ في التقدّم الذي أقرّ الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، ذلك الحكم الذي جعل من قُرطبة العاصمة فيما بعد «درّةَ العالم» المزدهرة حضارة وتقدّمًا. هكذا قامت هناك للإسلام دولة أنبتت أعظم حضارة.

يوم كان الأندلس في القرن العاشر الميلادي [ق4 هـ] تفخر بالمستوى العلمي الذي وصلته وبكثرة جامعاتها ومكتباتها العامة كانت أوروبا في عصور قاتمة من الظلام. حين كانت قُرطبة تزدان بالمصابيح شوارعُها المبلطة التي تمتدّ أميالًا، كانت عواصم أوروبا محرومة من أيّ مصباح عمومي ولا يستطيع أحد الخروج من داره في يوم مطير من غير أن يخوض الأوحال. بينما كانت بعض الجامعات الأوروبية تَعْتَبِر الاستحمام عادة وثنية كانت قُرطبة تباهي بحماماتها الجميلة الأنيقة.



موسى بن نُصَيْر بطل أنكر ذاته[1]

كان الشَّمال الإفريقي، أيامَ الفتوح الأولى، بحاجة إلى رجل حكيم ماهر، لا يعتمد على القوّة وحدَها، في تثبيت حكم الإسلام هناك. إلى رجل يُتِمّ الأعمال العظيمة ويؤكّد السيرة الكريمة لأسلافه قادة الشَّمال الإفريقي وفاتحيه، أمثال: عُقْبة بن نافع الفِهْري وحسان بن النُّعمان وغيرهما. كان هذا الرجل موسى بن نُصَيْر اللَّخْمي الذي ولي حكم إفريقية والمغرب نحو سنة 86هـ = 705م استمرّت ولايته لعشر سنوات حتى سنة 95هـ = 714م، كانت السنوات الأربع الأخيرة هي التي شاهدت فتح الأندلس، أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ = 705 ـ 715م).

وُلِدَ موسى سنة 19هـ = 640م في الشام، كان أبوه (نُصَيْر) من سَبْي خالد ابن الوليد في عين التمر (قرب الكوفة) سنة اثنتي عشرة للهجرة. نشأ موسى في بيت وثيق الصلة بالإدارة والجندية، كان كفؤًا لتولّي حُكْم شَمال إفريقية ثمّ افتتاح الأندلس[2].

استقرّ الفتح الإسلامي في المغرب؛ نظرًا للسياسة التي اتبعها موسى ومن معه. الوسيلة هي أن يكون السكان هناك حماة للدين الجديد يحيطونه بقلوبهم. بفضل جيوش الدعاة الذين انبثّوا هناك ينشرون الإسلام، تحوّل سكان الشَّمال الإفريقي (وهم من البربر) إلى جندٍ لهذا الدين، يتحمّسون لحمله إلى الناس

---

(1) أُلْقِيَ من إذاعة بغداد، ونُشر في جريدة (الشهاب) اللبنانية، العدد السابع (السنة الأُولى)، 20 ذي القعدة 1386/ 1 آذار (مارس) 1967.

(2) عن موسى بن نصير راجع: البيان المُغْرب، ابن عِذاري، 2/ 19 - 23. قادة فتح المغرب العربي، شيت خطاب، 1/ 221 وبعدها. فجر الأندلس، مؤنس، 84 وبعدها. دولة الإسلام، عنان، 1/ 51 وبعدها. تاريخ المسلمين، سالم، 91 وبعدها.

بأمانة. فعلًا فطلائع الفتح الإسلامي لإسبانيا وقائدُهم طارق، كانوا من هؤلاء الأبطال.

كان طارق بن زياد قد عَبَرَ إلى الأندلس سنة 92هـ = 711م، لاقت كلّ عملياته الحربية النجاح التام. سار حتى وصل مدينة طُلَيْطُلَة Toledo، عاصمة إسبانيا القُوطية، ذلك بعد مرور سنة على عبوره. كان طارق- كعهدنا به دومًا- ذلك القائد المخلص للفكرة والمنهج والهدف وللقائمين عليهما، كان على صلة دائمة بموسى ينبؤه بأخبار الفتوح أولًا بأوّل. بناءً على طلب طارق النجدة من موسى، أو ملاحظته هو من مكاتبات طارق له، أن لا بدّ من حملة أخرى تجتاز المضيق إلى الأندلس.

أمام هذا النجاح الهائل لحملة طارق (ووراء النجاح مسئوليات ومنجزات لا بدّ من المحافظة عليها)، جهّز موسى حملة من ثمانية عشر ألف مقاتل، بقيادة موسى نفسه. لا صحّة – عندي أبدًا بحال - لما يُروى من أنّ موسى قام بهذه الحملة بعد أن أكل الحسدُ قلبَه، للنجاح الذي حالف طارق منفردًا. إنّ طارقًا كان يفتح الفتوح باسم موسى الذي كان متأكّدًا من إخلاص طارق، وإلّا فما الذي منع موسى من عزله وهو الذي ولّاه؟ لماذا لم يعبر إلى الأندلس إلّا بعد سنة من عبور طارق؟ لكن موسى، في الحقيقة المؤكدة، وَجَدَ أنّ طارقًا تقدّم بسهولة، ربما غير متوقَّعة، وأنّ الجيش الذي معه غيرُ كافٍ للمسئوليات الجديدة والأعباء التي تفوق إمكانياته؛ خوفًا على الجيش أن تُقطع عليه الطرق ويحيط به الأعداء، قاد موسى بن نصير بعد طارق بسنة، حملته وسلك طريقًا في هذا الفتح غير الذي سلكه.

بعد مرور ما يقرب من سنة على عبور موسى التقى القائدان عند مدينة طَلَبِيرَة Talavera، شَمال غربي طُلَيْطُلَة، كان ممّا قاله طارق لموسى: «أيها الأمير:

والله لا أرجِعُ عن قَصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي».
بعد أن قضيا الشتاء فيها ووضعا خُطّة الفتح، سارا سوية (معًا) حتى مدينة سَرَقُسْطَة Zaragoza، حيث افترقا هنا. توجّه طارق شَمالًا، ثمّ مال شرقًا فغربًا، فتح مدينة ليون Leon وأَسْتُرْقَة Astorga. سار موسى بجيشه نحو الشرق فتح بَرْشِلُونَة Barcelona، التي بقيت في الحكم الإسلامي حتى سنة 185هـ = 801م أو بعده بمقدار. ثمّ عَبَرَ جبال البُرْت Pyrenees إلى فرنسا وفتح مدينة أَرْبُونة: نَرْبُونَة Narbonne، حيث لا تزال آثار المسلمين ومسجدهم هناك. عاد موسى إلى الأندلس، فُتحت تقريبًا كلّ شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم).
سار (طارق) حتى بلغ مدينة خيخون Gijon على الساحل الشَّمالي لإسبانيا عند خليج بسكاي Biscay، خاض بخيله أو فرسه شاطئ البحر عند صخرة بِلاي Peña de Pelayo. دخل كثير من أهل البلاد في الإسلام، وأَمِن الناسُ على حرياتهم وعقائدهم، كما هو مألوف ومعروف في الشريعة الإسلامية وحضارتها وفتوحاتها في كافة العصور.

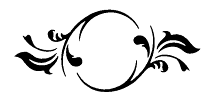
لا ننسى أن عمر موسى في هذا الوقت كان يزيد على خمس وسبعين سنة. لكن قوّة العقيدة وعزيمة الإيمان جعلا له نشاط الشباب وهمّة الفتيان، كان يريد - بعد أن يتمّ فتح إسبانيا كلها - أن يعبر جبال البُرْت إلى فرنسا مستمرًّا في الفتح. يُروى أنّ موسى عبَّر عن هذه العزيمة بقوله: «أما والله لو انقادوا إليّ لقدتهم إلى رومية (روما) ثمّ يفتحها الله على يدي إن شاء الله».

نتيجة للسياسة التي اتّبعها البَلاط الأموي في دمشق تجاه الفتوحات الإسلامية في الغرب؛ خوفًا على المسلمين، طلب الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى موسى وطارق العودة إلى المشرق. لم يجد موسى بُدًّا من تلبية الأمر، الحسرة

تملأ جوانحه. بعد أن عيّن موسى ابنه عبد العزيز واليًا على الأندلس، متخذًا من إشبيلية Seville عاصمة له، عاد مع طارق إلى دمشق. حيث وصل البَطلان دمشق نحو بداية جمادى الأولى 96هـ = منتصف كانون الثاني (يناير) 715م. حينما توفي الوليد، بعد ذلك بقليل، وَرِثَه أخوه سليمان الذي أبقى قدر موسى أمام خدماته العظيمة للإسلام. عاش موسى بقية حياته، توفي سنة 97هـ = 715م، متجهًا إلى الحجّ بصحبة الخليفة سليمان [التاريخ الأندلسي*، 126 وبعدها].

إذا كان المؤرخون قد اختلفوا في أصل موسى أهو عربي أم فارسي؟ أو لم تتفق آراؤهم حول مصيره ونهايته، أو أنّ خلافة دمشق لم تقدّر جهده وحسن بلائه؛ فإنّ التاريخ والناس يعرفون موسى، ذلك القائد المسلم العظيم الذي أنكر ذاته وبذل حياته خدمة للإسلام وعقيدته وحرصًا على نشرها. كانت همته لا تعرف الخوف ولا يجد الكلل إليها سبيلًا. لو قُدِّر له أن يستمرّ وطارق (بطلا فتوحات الغرب الإسلامي مع بقية القادة الأبطال الآخرين وكذلك الجند الميامين) لأتَمَّا - على الأقلّ القليل - تثبيت الإسلام في كلّ شبه الجزيرة الإيبيرية وربما في بلاد الغال Gaul (فرنسا) أيضًا، خاصة وأنّ موجة المدّ الإسلامي يومها كانت في أوجها وفتوّتها. من يدري لربّما كان قُدِّر لعقيدة الإسلام أن تبقى حتى اليوم في إسبانيا أو وَجَدت طريقَها إلى أنحاء أوربية أخرى، ولَمَا كانت معركة بَلاط الشهداء ولا انسحابها. لم يكن موسى عسكريًّا ذكيًّا وقائدًا جريئًا فقط، بل كان إداريًّا حازمًا من الطراز الأول. على الرغم من أنّه كان منشغلًا في الفتوحات في الأندلس فقد أبرم العهود مع أهل البلاد الذين دخل أكثرهم الإسلام، طَمْأَنهم مَن بقي منهم على دينه وأعطاهم على ذلك المواثيق؛ ونظّم البلاد إداريًّا، حتى إنّه سكّ عملة إسلامية (لأوّل مرّة) في الأندلس.

رحم الله موسى بن نصير التابعي الجليل الذي يَرجِع إليه - بعد عون الله تعالى ونوعية منهجه الكريم - فضل عبور الإسلام إلى أوروبا، الدعاء ليرحمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **وأمثالَه من الأبطال الذي خلّدتهم أعمالهم العظيمة، معها مضوا في ضمير التاريخ وغدوا بها أمام الناس عمالقة كبارًا.**



عبد الرحمن الداخل

هارب من الموت يبني دولة[1]

تشير سنة 132هـ/750م إلى نهاية الدولة الأموية في الشام على أيدي العباسيين الذين تتبّعوا الأُمويين في كلّ مكان تشريدًا وقتلًا. ولم يَنْجُ مَن نَجا مِن هذه المطاردة إلَّا بأُعجوبة. لكن عبد الرحمن الداخل لم ينج فقط بل استطاع أن يبني دولة في أرض الغرب الإسلامي، في بلد الأندلس.

هَرَبَ عبد الرحمن (الداخل) بنُ مُعاوية، حفيد الخليفة الأُموي العاشر هِشام بن عبد الملك، من الشام إلى تونس ثمّ إلى المغرب، وكان معه غلامه بدر. وهناك بدأ يعدّ العُدّة لتهيئة الظروف له في الأندلس.

كان والي الأندلس في هذا الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري، وكان مُنْشغلًا ببعض الأعمال الحربية في شَمال الأندلس أو في الشَّمال الإسباني، حيث قامت جماعات من بلاد البَشْكُنْس Basques وجِلِّيقِيَة Galicia بمهاجمة الأندلس. في هذا الوقت أَعدَّ عبدُ الرحمن الداخل الخُطّة للعبور إلى الأندلس. وفي 138هـ/755م كان قد نزل في ثَغر المُنَكَّب Almuñecar على ساحل الأندلس الشرقي، وبدأ التقدّم نحو قُرطبة العاصمة. وبعد أن فشلت المفاوضات بينه وبين والي الأندلس، التقى الطرفان في معركة المُصارَة (المُسارَة) على ضِفَّة نهر الوادي الكبير Guadalquivir عند قُرطبة، انتصر فيها الداخل وتمّت له البيعة أميرًا على الأندلس في صيف 756م.

---

(1) أُذيع من راديو بغداد، ونُشر في جريدة (الشهاب)، السنة الأولى، العدد الثامن، ذي الحجة 1386/ 5 آذار (مارس) 1967.

سُمّيَ عبد الرحمن بـ«الداخل» لأنّه أوّل من دخل الأندلس من الأُمويين حاكمًا بعد زوال دولتهم في المشرق. كما سُمِّيَ بـ«الأول» لأنّه أوّل ثلاثة حكام في الأندلس تَسَمّوا بهذا الاسم من الأمويين.

استمرّ حكم الداخل للأندلس ثلاثًا وثلاثين سنة استطاع فيها أن يقوم بأعمال جليلة. وَحَّد الأندلس، التي كانت مضطربة، وقضى على الثوار في الداخل وأوقف أطماع الشَّمال الإسباني ودول الفِرَنْجة، واستطاع إعادة وَحدة الأندلس التي ربما كاد فقدانها يؤدّي إلى ضَياعه كلّه. وقام بإصلاحات عدّة ونَظَّم شئون الدولة. فيعود الفضل إلى همّته ونشاطه وخفّة حركته في إقرار الأوضاع في الأندلس.

من هنا سماه أبو جعفر المنصور، وهو خصمه، بـ«صَقْر قُريش»[1]. كما وصفه ابن حَيَّان القُرطبي (469هـ = 1076م)، شيخ المؤرخين الأندلسيين، بقوله: «كان عبد الرحمن راجحَ الحلم، راسخ العلم، ثاقب الفَهْم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة ولا يَكِل الأمورَ إلى غيره، ثمّ لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مِقدامًا، بعيد الغور شديد الحَذَر، قليل الطمأنينة، بليغًا، مفوّهًا، شاعرًا، مُحْسِنًا، سمحًا، سخيًّا طلق اللسان»[2].

لعلّ أهمّ أمرين يُذكران، في أيام الداخل، هما [الأول]: أنّه في حواليْ سنة 161هـ = 778م سار شارلمان Charlemagne إمبراطور دولة الفِرَنْجة لغزو الأندلس تلبية للدعوة التي وجّهها إليه بعض الثائرين ضد سلطة قُرطبة، أمرٌ كان يسعى إليه وربما شجعه وأثاره. سار شارلمان بجيش ضخم، مخترقًا جبال البُرْت

(1) نفح الطيب، المَقَّري، 1/ 309 [بيروت، 1/ 329]؛ البيان المغرب، 2/ 59. [كذلك: التاريخ الأندلسي، 215 ـ 217].

(2) دولة الإسلام، عنان، 1/ 195. نفح 2/ 67.

(Pyrenees, Pirineos) حتى وصل مدينة سَرَقُسْطَة Zaragoza، لكن المدينة استطاعت الوقوف ضد شارلمان وجيشه الجرار، الذي اختاره من خيرة محاربيه، مما اضطرّه إلى أن يعود أدراجه خائبًا. لكنه بينما كان يعبر جبال البُرْت عائدًا إلى بلده من ممرّ باب الشيزرو، المسمّى رونسفال Roncesvalles، ذلك الممرّ الضيق المحاط بالمنحدرات الوعرة، داهمته قوّةٌ مُكَوَّنة من الجيش الأندلسي ومن البَشْكُنْس الذين خرب شارلمان عاصمتهم، بَنْبَلُونَة Pamplona، مرتين. هاجمت هذه القوة مؤخرة جيش شارلمان وقضت عليها وأَخَذت كلَّ مَن وما كان فيها من الرهائن والغنائم. كان في المؤخرة عدد من خيرة ضباط شارلمان وقادته، كان منهم رولان الذي أصبحت الأغنية التي نظمت فيه «أُنشودة رولان La Chanson de Roland» مصدرًا لقصص الفروسية في العصور الوسطى الأوربية. ما يزال حتى اليوم قبر هذا القائد موجودًا في مكان الحادث ويحمل تاريخ «778/8/15م»[1]. كان من آثار هذه الحادثة أن تغيّرت السياسة الفِرَنْجية التوسّعية تجاه الأندلس وقامت صلاتُ صداقة ووُدّ، حتى ليقال: إنّ شارلمان عَرَضَ على عبد الرحمن الداخل عَقْد معاهدة صداقة وأن يزوّجه ابنته، قبل الداخل الصداقة ورفض الزواج معتذرًا. يقول المَقَّري في: «نفحه»: «وخَاطبَ عبدَ الرحمن قارْلُهْ [شارلمان] ملكُ الإفرنج، وكان من طُغاة الإفرنج، بعد أن تمرّس به مدّة، فأصابه صُلْبَ المكْسِر، تامَّ الرجولية، فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم ولم تتمّ المصاهرة»[2].

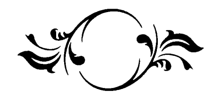
(1) تاريخ المسلمين، 202-203. [تسمى هذه المعركة بالإسبانية معركة رونسفال La Batalla de Roncesvalles].

(2) نفح الطيب، 1/ 310 [بيروت، 1/ 330]. وانظر تفصيل ذلك في: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية* [الدكتوراه، الطبعة الإنجليزية، 126 وبعدها، الطبعة العربية]. كذلك: التاريخ الأندلسي*، 226.

يُشار بهذه المناسبة إلى أنّه لا صحّة لما يُقال من وجود معاهدة ثنائية كانت بين الخلافة العباسية ودولة الفِرنجة من جهة، ضد حكومة قُرطبة والدولة البيزنطية من جهة أخرى، حيث لدى البحث يبدو بوضوحٍ ملحوظٍ تمامًا ، ليس لهذه الفكرة أيّ دليل غير الظنّ[1] .

أمّا الأمر الثاني المهمّ الذي يُذكر أيام الداخل أنّه: هو الذي أسّس مسجد قُرطبة الجامع سنة 168 هـ = 784م، أتمّ بناءَهَ من جاء بعده من الأمراء والخلفاء، حتى غدا هذا المسجد أعظم آيات الفنّ المعماري، لا في الأندلس وحدها بل في العالم أجمع. غدت أعمدته أشبه بغابة جميلة، تَعُدُّ ما يزيد على ألف وأربعمائة عمود لا يزال قائمًا منها دون الألف.

في هذا المسجد وغيره من الآثار المعمارية حكايةُ جانب من قصّة حضارة الإسلام في أرض الأندلس الزاهر.



(1) انظروا: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة*، 71. كذلك: التاريخ الأندلسي*، 289.

صورة من الدبلوماسية الأندلسية[1]

حديث الدبلوماسية في الأندلس - خاصة في المُدَّة الأُموية - شَيِّق ممتع في مطالعته وتدبّره، غير سهل في تجميع مادّته أو الكتابة فيه؛ ذلك لأسباب منها:

(أ) فقدان كثير من المصادر الأصلية القيِّمة التي لا نعرف غير أسمائها أو بعض المنقولات عنها.

(ب) جِدَّتُه على البحث المنهجي، تشتّت مادته التي تحتاج - ممّا تحتاج إليه - إلى الإلمام بلغات عدّة.

ظهرت عنه مؤخرًا عدّة أبحاث، كما تَعَرّض له البعض بصورة جزئية. لكنّه لا يزال بحاجة إلى أبحاث تُكَرَّس له؛ لتسلِّط عليه الأضواء الكافية لتجلية الجوانب المجهولة منه.

لا بدّ لدارس الدبلوماسية - عمومًا والأندلسية على وجه الخصوص - أن يتناول هذا الموضوع من الناحيتين: التاريخية والفنية، بالإضافة إلى العَلاقات العلمية (الفكرية)، والتبادل الثقافي أو الدبلوماسية الثقافية التي تتأثّر - إلى حدّ ما - بالوضع السياسي.

الناحية التاريخية: تقوم على ما وَصَلَنا من النصوص - كثير منها عام، أو مبهم أحيانًا - لمحاولة فهمها على ضوء الأحداث التاريخية، وما دَوَّنَه مؤرخو الأمم المعاصرون لها من جانبهم، والاطلاع على ما كتبه الباحثون منهم فيما بعد؛ وتمحيص كلّ ذلك، ثمّ إيجاد العَلاقة بين هذه النصوص من ناحية، وبين

(1) نُشر في مجلة «الوعي الإسلامي» التي تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، السنة الثالثة، العدد الخامس والعشرون، محرم 1387هـ = / 4/ 1967م.

الأحداث التاريخية التي ترتبط بها من ناحية أخرى؛ للوصول إلى استنتاج معقول جهد الإمكان. لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار الدوافع التي دعت إلى هذه المَناشط الدبلوماسية لكلا الطرفين، والمبادئ التي قامت عليها وأثّرت فيها والأهداف التي عملت لها، والخطّ الخلقي الذي واكبها وتَحَكَّم فيها ومقدار الالتزام بقيَمها وعهودها ثمّ النتائج التي أثمرتها.

أمّا الناحية الفنية فتتناول:

1 ـ الطريقة التي كانت تتمّ فيها هذه الدبلوماسية والتقاليد [أو الأعراف] التي تبنّتها وحافظت عليها ومراسيم أو رسوم استقبال السفراء الوافدين إلى بَلاط قُرطبة، من مختلف الأقطار، وطريقة استقبال الأمير أو الخليفة لهذه السفارات، ثمّ الأبهاء التي كانت هذه الاستقبالات تتمّ فيها.

2 . طريقة اختيار السلطات الأندلسية لسفرائها، ودراسة شخصية السفير ومرافقيه.

3 . لغة الدبلوماسية وطريقة التفاهم مِن وإلى الحاكم، بالنسبة لسفراء الأندلس إلى الأقطار الأخرى ـ إسلامية وغير إسلامية ـ أو العكس.

هذه النِّقاط الثلاث ترسم لنا صورة عن التقاليد [أو الأَعراف] الدبلوماسية لذلك العصر.

4 . محاولة المقارنة بين هذه التقاليد [أو الأَعراف] وبين بعض مظاهر الدبلوماسية الحديثة، من ناحية وجود «الفنية» في قواعد الدبلوماسية الأندلسية «البروتوكول Protocol» والحصانة الدبلوماسية والتمثيل الدائم[1]، وكم أَثَّرت في الدبلوماسية الحديثة.

(1) عثرتُ على «مَثَل» للتمثيل الدبلوماسي الدائم بين الأندلس [من جانب الأندلس] والشَّمال الإسباني. فقد ذكر ابن حَيَّان القُرطُبي أنّ الحكم المستنصر عيَّن كُلًّا مِن أحمد بن عَمروس العريف وسعيد، سفيرين دائمين =

5. تأثر الدبلوماسية وتأثيرها في الوضع الحضاري وفي مستوى التقدم العلمي الذي تعيشه الدولة، مع التركيز على ما يتعلّق بالأندلس.

يقود هذا الموضوع إلى دراسة البعثات «السفارات العلمية» التي وفدت إلى الأندلس؛ لتنهل من منابع المعرفة فيه ولتَتَزوَّد من حضارته.

إنّ الدبلوماسية تزدهر بازدهار الحضارة وتَمَكُّن الاستقرار والتقدّم، مما يجعل ذلك البلد - خاصة في تلك القرون - مَقْصِدًا للسفارات القادمة إليه من الأقطار الأخرى؛ طالبةً صداقته والاستفادة مما عنده. يتلو ذلك توجّه السفراء منه إلى تلك الأقطار أو بعضها.

ازدهرت الدبلوماسية في الأندلس، وماج بَلاط قُرْطُبة - في فترات كثيرة - بالسفراء من الشرق والغرب، خاصة في عصر قُرطبة الزاهر في القرن الرابع الهجري= العاشر الميلادي[1]، [لاسيما] خلال حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر.

يوجز لنا ابن حَيَّان القُرطبي مؤرخ الأندلس، ذلك - حين الحديث عن الناصر - بقوله: «[ذكر ابنُ حَيَّان وغيرُ واحد] أنّ مُلْكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادَتْه الرومُ وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته

=لدى مملكة ليون León = (جِلِّيقِيَّة Galicia). انظر: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ابن حيان، مخطوط الأكاديمية التاريخية بمدريد (مجموعة كوديرا F. Codera رقم 2)، الأوراق: 42 أ ـ ب، 88 أ. وقد نُشر هذا الجزء من «المقتبس» في بيروت، 1965. وقصة التمثيل الدائم، المذكورة آنفًا، تقع في الصفحات 76، 147. انظر: أدناه،

(1) وصفت الشاعرة الألمانية Hroswitha (القرن العاشر الميلادي) قرطبة بأنّها: «جوهرة العالم».
Lévi-Provençal, La Civilisation Arabe en Espagne, P. 114.

بعظيم الذخائر. ولم تَبْقَ أُمَّةٌ سَمِعتْ به من ملوك الروم والفِرنجة [والإفرنجة] والمجوس وسائر الأمم إلّا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية»[1].

من الأمثلة التي تصوّر لنا بعض جوانب الدبلوماسية الأندلسية، حضورُ السفارة الألمانية التي أرسلها الإمبراطور أوتو الأول (الكبير) Otto I, The Great - الذي تسمّيه الرواية الإسلامية[2] «هُوتو أو هُوتُهْ» - إلى بَلاط الخليفة الناصر.

لا تمدُّنا المصادر الإسلامية عن هذه السفارة إلّا بمعلومات موجزة، وهي تُسَمِّي الألمانَ بـ: «الصَّقَالِبَة»[3]. لكن المصادر الأوروبية تُقَدِّم - بهذا الصدد - تفصيلات أكثر، وإن كانت تنظر إلى الموضوع من وجهة خاصّة، قد تقودها أحيانًا إلى بعض الأحكام غير الدقيقة القائمة على تَوَهُّمَاتٍ، ليس من الصعب معرفة بُعْدِها عن الواقع. لكن أغنى مصدر [من أغنى المصادر] عن هذه السفارة هو تاريخ حياة السفير الألماني الذي كتبه أحد تلامذة السفير باللاتينية[4].

السبب المباشر - وربما الوحيد - لهذه السفارة محاولة رجاء قُرطبة في استعمال سلطتها لإيقاف خطر أندلسي نشأ فيما وراء جبال البُرْتات Pyrenees.

حوالي 890م رست سفينة صغيرة إلى الشاطئ الجَنوبي الشرقي من فرنسا قرب مرسيليا Marseilles تحمل حفنة من المغامرين الأندلسيين،

---

(1) نفح الطيب، المقّري، 1/ 343 [بيروت، 1/ 366. كذلك: 1/ 354].

(2) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 170.

(3) العبر، ابن خلدون، 4/ 2/ 310 ؛ البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 218.

(4) تاريخ غزوات العرب، رينو، 230. يحتوي هذا الكتاب على تعليقات كثيرة قيّمة للمترجم (شكيب أرسلان)، وهو - في أكثره - مترجم عن الأصل الفرنسي لكتاب رينو الذي تُرجم كذلك إلى الإنجليزية:
Reinaud, Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland, Eng. tr. H. Kh. Sherwani. Lahore, 1964.

كما تَرْجَم أرسلان، مع هذا الكتاب، كتابًا آخر من الألمانية لمؤلّفه السويسري: F. Keller.

الذين ازداد عددهم فيما بعد واستطاعوا أن يؤسّسوا هناك دويلة في منطقة البروفانس Provence شمال طولون Toulon، متخذين من قلعة فراكسنيتُوم Fraxinetum الحصينة عاصمة لهم. الراجح أنّ قرية كارد فرينيه - Garde Frainete الحالية تمثّل مكان هذه القلعة[1]، التي يسمّيها الجغرافيون المسلمون: «جبل القِلال»[2] [جبل القِمَم].

استمرّت هذه الدويلة قائمة حوالي تسعين سنة أو يزيد، لا نعرف عنها إلّا اليسير؛ بل من العجب أنّنا لا نعرف اسم أحد من قادتها أو أفرادها، بل ولا أية تفصيلات عن نظام الحياة فيها، هل استَعمل سكانُها لغاتٍ أخرى إلى جانب العربية؟ إن كانت بقيت العربية لغة لهم! لعلّ حياتهم الحربية لم تسمح للآخرين بالتعرّف عليها، بالتالي لم يكن من بينهم مؤرخ يسجّل لنا مجريات [ماجريات] الأمور فيها.

اتسعت رقعة الأرض التي سيطروا عليها حتى امتدت إلى أكي Acqui، شمال جَنَوَة في إيطاليا، وسنت غالن St. Gallen وخور Chur في شَمال شرقي سويسرا[3]. واعتقدَ الإمبراطورُ الألماني، أوتو الأول، تبعيتَهم للخلافة القُرطبية، أراد التوسّط لدى الخليفة الناصر إيقاف هجماتهم على تلك المناطق، بعث بسفرائه إلى قرطبة لهذا الغرض.

---

(1) تاريخ غزوات العرب، رينو، 209 ـ 211.

(2) صورة الأرض، ابن حوقل، 1/ 204. تاريخ غزوات العرب، 211 ـ 214. [معجم البلدان، ياقوت الحموي، 1/ 363].

(3) Liudprand, The Works of Liudprand of Cremona' Eng, tr., F. A. Wright, London, 1930, pp. 90, 144.

تَرَكتْ رسلُ الإمبراطور أوتو ألمانيا بًرا عَبْر فرنسا حتى مرسيليا، حيث رَكِبوا البحرَ إلى برشلونة Barcelona منها كتبوا إلى والي طُرْطُوشة Tortosa - أقرب مدينة أندلسية إليهم - يخبرونه بقدومهم، أجابهم الوالي مُرَحِّبًا بهم وأكرم وِفادتهم لدى وصولهم. أَخْبَر الوالي الخليفةَ بذلك فأصدر الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 . 350هـ= 912 . 961م) أوامره بتسهيل سفرهم، وأن يُستقبلوا أحسن استقبال، في كافة المدن التي يمرّون بها في طريقهم إلى قُرطبة. وصلت السفارةُ الألمانية العاصمةَ الأندلسية - للتفاوض في أمر الدويلة القائمة في جبل القِلال - حوالي 342هـ = 953م برئاسة الحَبْر المتبحر«يوحنا الغورزيني John de Gorze» يحمل رسالة الإمبراطور وهداياه إلى الخليفة؛ استقبلهم الخليفة الناصر كريمَ الاستقبال وأنزلهم قصرًا مجهّزا بكلّ أسباب الراحة، أُعِدَّ خصيصًا لهم وهو: «مُنْيَة الناعُورة» في جنوب غربي قرطبة[1].

مشكلة دبلوماسية: بعد أن أخذ الوفد الضيفُ راحته وزال ما به من عَناء تلك الرحلة الطويلة الشاقة، بدأت الترتيبات اللازمة والمراسيم التقليدية، لتعيين يوم مقابلة الوفد الألماني للخليفة الناصر. عَرَفَ المكلَّفون بإعداد التمهيدات الخاصة بالمقابلة فحوى رسالة الإمبراطور وهدف سفارته، التي ترمي كما قلنا: إلى استعمال سلطة الخلافة الأندلسية لإيقاف هجمات هؤلاء المغامرين (المجاهدين) في فراكسنيتُوم.

نظرًا لشدّة لهجة رسالة الإمبراطور الألماني أو سفيره الراهب، وانتقادها لبعض الآراء السياسية للخلافة القُرطبية[2]، قرّر الناصر بأنّ مقابلة السفارة الألمانية له يمكن أن تتمّ فقط بدون تلك الرسالة، لكن رئيس السفارة يوحنا رفض

(1) عن هذه المنية راجع: المقتبس، ابن حيان، 3/ 38 [المُنية تعني: القصر أو الفيلا].
(2) قارن: تاريخ غزوات العرب، رينو، 231 ؛ دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 457.

بإصرار مقابلة الخليفة بدون الرسالة. لم يستطع المكلّفون بهذا الأمر إقناع السفير الألماني بالتخلّي عن رأيه. فما هي يا ترى الخطوة التالية؟

سفارة إلى ألمانيا:

استقرّ رأي الخليفة - بعد المشاورات ومع السفير الألماني أيضًا - على إرسال سفارة أندلسية إلى الإمبراطور الألماني لشرح الموقف وإقناعه بتبديل الرسالة بأخرى مناسبة. كان لا بدّ من اختيار سفير يقوم بهذه المهمّة خير قيام ويتحمّل تبعات الرحلة الطويلة. في ربيع سنة 344هـ = 955م رحل الوفد الأندلسي من قُرطبة لهذا الغرض قاصدًا ألمانيا، برئاسة الأُسقُف القرطبي ريثموندو Recemundo، الذي تسمّيه الرواية الأندلسية: «ربيع بن زيد»[1]. كان ربيع هذا أحد المُسْتَعْرَبين Mozarabes الذين يُجيدون العربية واللاتينية على السواء، كان ممّن عَمِلوا في بَلاط الناصر وابنه الحكم المستنصر[2]، عيَّنه الناصر أُسقُفًا لمدينة إلبيرة Elvira مكافأة على قيامه بهذه السفارة.

سافر الوفد الأندلسي، عَبْر الشَّمال الإسباني وبلاد الغال (فرنسا)، إلى فرانكفورت حيث يقيم الإمبراطور الألماني. استقبل أوتو السفارةَ الأندلسية بجميل الاستقبال وكريم الوِفادة، ووافق على كتابة رسالة جديدة رقيقة اللهجة تحلّ محلّ الأولى.

مقابلة الخليفة: نجحت مهمّة السفارة الأندلسية، وعاد ريثموندو وصحبُه إلى قُرطبة، بعد غيبة استمرّت حوالي خمسة عشر شهرًا. ثمّ جَرَتْ التمهيدات ليوم استقبال الخليفة للسفارة الألمانية. تَعَيّن يوم 956/6/21م موعدًا لذلك، اتُّخِذت

(1) العبر، ابن خلدون، 4/ 2/ 310.
(2) انظر: دولة الإسلام في الأندلس، نفسه.

الاستعدادات اللازمة وأقيمت الزينات واصطفّ الجند بمراتبهم المختلفة وأسلحتهم المتنوّعة على جوانب الطريق. بينما يسير الوفد الألماني كانت فرق من الجند تَعْرض الأفانين من ألعاب الفروسية الرشيقة؛ احتفالًا بهذه المناسبة.

خرج الناس ليشهدوا الاحتفال بهذا اليوم، سار الموكب من مدينة قُرطبة إلى القصر الخليفي بمدينة الزهراء، التي كانت - ولا تزال بقايا آثارها - تقوم عند أقدام «جبل العَروس»[1]، على بعد خمسة أميال تقريبًا شَمال غرب قُرطبة. لدى وصول الوفد الألماني مدينة الزهراء كان كبار رجال الدولة في استقباله.

تقدّم الموكب إلى القصر الذي كانت مداخله مفروشة بالسجاد الجميل، وصلوا إلى حيث كان يجلس الخليفة الناصر - مُتَرَبِّعًا على سريره، ومتّكئًا على الوساد - في الجناح الشرقي من القصر، في بهو السفراء المُسمَّى: «المجلس المؤنس»، الذي تمّ العثور عليه خلال التنقيبات في 1944م[2]. رَحَّب الخليفة بالوفد أجمل ترحيب، ثم بدأ الحديث بعبارات المجاملة والثناء على الإمبراطور الألماني.

لم يتناول الحديث في هذه المقابلة الهدف الرئيس بالتفصيل، كان أشبه بلقاء التعارف. ثمّ تلته لقاءات أخرى بين الخليفة والوفد الألماني، اقتنع الوفد خلالها بوجهة نظر قُرطبة، أنّها لا سلطة لها على أولئك المغامرين في فراكسنيتُوم (جبل القِلال)، ولا هم تابعون لها. بذلك أُعطِيت للسلطات الألمانية مطلق الحرية في اختيار طريقها لعلاج هذه المشكلة.

---

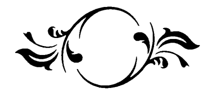
(1) نفح الطيب، المقَّري، 2/ 65 [بيروت، 1/ 523].

(2) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 443.

في أواسط صيف 956م ترك الوفد الألماني قُرطبة، بعد توديع الخليفة له شخصيًّا، عائدًا إلى بلده، بعد ثلاث سنوات أقامها في قرطبة، قيل إنّ يوحنا - رئيس الوفد - تعلّم خلالها العربية وحَمَلَ معه إلى ألمانيا بعض المخطوطات العربية[1].

هذه السفارة وأمثالُها تُلقي الضوء على التقاليد الدبلوماسية التي كانت في ذلك العصر، ليس في الأندلس وحده ولكن في تلك الدول التي تبادلت وإياه النشاط الدبلوماسي. هذا الأمر يحتاج إلى جهود كبيرة من الدارسين لهذا الحقل الذي لا يزال بِكْرًا.

الأمل أن تظهر عن هذا الموضوع - قريبًا - إلى عالم التأليف من البحوث ما تتناسب وأهميته وجماله البالِغَيْن.



(1) تاريخ العرب، حتي، 2/ 701.

يا لَمِحنة القالي[1]

لعلّ الكثير منا يعرف شيئًا عن الأديب اللغوي إسماعيل بن القاسم المعروف: «أبو علي القالي» البغدادي، صاحب كتاب «الأمالي» الذي ألَّفه للخليفة الأندلسي الحكم المستنصر (ابن عبد الرحمن الناصر) 350 - 366هـ = 901 - 976م. كان القالي (288 - 356هـ= 901 - 967م) رَحَلَ من بغداد إلى الأندلس سنة 330هـ = 941م أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله). استقبله الناصر استقبالًا كريمًا وأوْسَعَ له في كَنَفِه.

لكن ربما لم يأتنا خبر ذلك الموقف المحرج والمحنة القاسية التي تُعتَبَر أصعب ما مرّ في حياة أديبنا الكبير (القالي). في سنة 336هـ = 947م وَفَدَتْ على البَلاط القُرطبي سفارة من قُسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة (القُسطنطينية، إسطنبول حاليًا)، تحمل الهدايا الثمينة إلى الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر[2].

أقام الناصر بهذه المناسبة حفل استقبال رائع، كان يومًا مشهودًا، لتكريم الوفد البيزنطي في قصر قُرطبة. كان ضمن برنامج الاحتفال أن تُلْقَى خُطبة مناسِبة. أُسندت هذه المهمّة إلى الفقيه محمد ابن عبد البَرّ. لمّا قام ليُلقي خُطبته، أذهله الموقف فلم يَهتدِ إلى جملة، وسقط على الأرض مَغشيًّا عليه. غدا الحرج شديدًا، اتجهت الأنظار إلى أبي علي القالي، الذي كان مُعْتَبَرًا من أمراء الكلام

---

(1) نُشر في «الشهاب» اللبنانية، العدد الثاني، السنة الثانية، 17/ 11/ 1387هـ= 15/ 2/ 1968م.

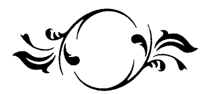
(2) تاريخ قضاة الأندلس، النُّباهي، 66 ؛ وراجع المقال التالي.

[كذلك: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة*، 86 وبعدها].

وفرسان اللغة. هدأت نفوس الناس - إلى حين - وهم يرون أبا عليّ يقف ليبدأ خُطبته.

ما أن وقف القالي مُبتدئًا خطابه بحمد الله والثناء عليه بما هو أهلُه وصلّى على نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى انقطع به الكلام ووقف واجمًا حائرًا مُفَكِّرًا في كلام مناسب يَذكُرُه، لكن دونما جدوى. هنا تأزَّم الموقف أَيَّما تأزُّم !! إذا كان أميرُ الكلام وأستاذ الأدب واللغة قد وَجَم وأذهله الموقف فأُرْتِجَ عليه، فمن يا ترى سيقوم لإنقاذ الموقف وحَلِّ الأزمة؟؟ لم يَحُلّ العقدة ويُنْقِذ من المحنة غير قاضي قُرطبة منذر بن سعيد البَلُّوطي، الذي قام من ذاته، دون تحضير سابق، ابتدأ حديثه - موصِلًا خُطبة القالي - بكلام بليغ أثار إعجابَ الحاضرين ودهشتَهم.

لله دَرُّ البلوطي ويا لَمحنة القالي. لكن لا بأس عليك يا أبا علي، فلكلّ لسان حَبْسَة ولكلّ خطيب سَكْتَة.



حفل دبلوماسي
في قصر قُرطبة الزاهر[1]

لِلأندلس رنين طَرِب في آذان المسلمين وقلوبهم، يصاحبه أسى الذكرى على فقدانه. يتعدّى هذا الرنين إلى كلّ مَن تربطه بهذا التاريخ النضر رابطة من غير المسلمين. أقام المسلمون في الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية = إسبانيا الإسلامية = إسبانيا والبرتغال اليوم) ثمانية قرون (92 ـ 897هـ=711 ـ 1492م). وصلت حضارتهم فيه أعلى مستوى وصلته حضارة الإسلام في أيّ مكان، بل وربما أربت عليه. كان عصر خلافة قُرطبة، في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي قمة هذه الحضارة التي أسهمت في تطوّر الإنسان، على قواعد منها قامت حضارة العالم اليوم. وإن كانت هذه الحضارة الحالية قد غفلت عن روعة الروح التي أنتجت تلك الحضارة: الروح الإسلامي الإنساني النزعة.

كان الخليفة عبد الرحمن الثالث (350هـ = 976م) الملقب: «الناصر لدين الله»، يُعتبر يومَها من أقوى حكام العالم، إن لم يكن أقواهم طُرًّا. كانت كلّ الدول، حتى البعيدة منها، ترسل سفاراتها طالبة وُدَّ قُرطبة ومصادقتها. ينقل لنا المَقَّري، بصدد هذا الموضوع، عن ابن حيّان القرطبي قوله: «[ذكر ابنُ حَيَّان وغير واحد] أن مُلْكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنَتَه ومُتاحَفَتَه بعظيم الذخائر، ولم تبقَ أمّةٌ سمعت

---

(1) نُشر في العدد: 76 من «الملحق الأسبوعي» لجريدة «الجمهورية» البغدادية، الخميس 23/ 2/ 1967.
[وانظر عن هذه السفارة: العَلاقات بين الأندلس وبيزنطة، 79 ـ 98].

به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلَّا وَفَدَتْ عليه خاضعةً راغبةً، وانصرفت عنه راضية»[1].

هناك أيضًا السفارات العلمية التي كانت تَرِد على قُرْطبة، عروس الأندلس، لتتلقّى العلم في جامعاتها وتنهل من أفانين المعرفة فيها، استوى في ذلك داني البلاد وقاصيها.

لدينا واحدة من هذه السفارات التي وَفَدَتْ إلى قُرطبة أيامَ الخليفة عبد الرحمن الناصر. روى هذه السفارة الطريفة عدد من المؤرخين الأندلسيين بأسلوب شيّق، منهم: ابن عِذاري في البيان المُغْرِب وابن خَلدون في العِبَر والمَقَّري في نفح الطيب وأبو الحسن النُّبَاهي في تاريخ قضاة الأندلس[2] وغيرهم[3]. لئن كان هؤلاء المؤرخون اختلفوا في التاريخ المحدد الذي حضرت فيه هذه السفارة إلى قُرطبة فإنّهم اتفقوا على أكثر تفاصيلها.

في سنة 336هـ= 947م حضرت إلى قُرطبة رسل إمبراطور الروم في القُسطنطينية (اسطنبول) قُسطنطين السابع بن ليون المعروف بالأُرجواني «بورفيروجينتوس» وافدينَ على الخليفة الناصر جالبين أنفس الهدايا، كان منها كتابان: كتاب «ديسقوريدس Dioscorides» عن الحشائش ومركبات الأدوية، مكتوب باللغة الإغريقية (اليونانية). وديسقوريدس هو اسم المؤلف الذي عُرف الكتابُ باسمه. الكتاب الثاني كتاب: «أُورْسيُوس (هُروشْيُس أو هُروشْيُش) Poulus Orosius». كتاب باللاتينية عن تاريخ العالم من أيام آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى سنة 416م. ألفه هُروشْيُس في سنة ونصف معتمدًا على كتابات مَن سبقه».

---

(1) نفح الطيب، المقّري، 1/ 343 [بيروت، 1/ 366. كذلك: 1/ 354]. أعلاه، 42.

(2) المرقبة العليا، 66. كذلك البحث السابق.

(3) البيان المغرب، ابن عِذاري، 2/ 215. دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 451 - 456.

أخرج الناصر القادة وكبار رجال الدولة، لتلقّيهم قبل وصولهم قُرطبة، ثمّ أُنزلوا أحد قصور الضيافة، وهو «منية الحَكَم المستنصر»، والمُنْيَة هو القصر. ووَكَلَ لرعايتهم والسهر على راحتهم أُناس متخصصون. حتى هذه اللحظة كان الناصر في قصر «الزهراء» المدينة الخليفية، التي تقع عند أقدام جبل العروس، على بعد خمسة أميال شَمال غرب قُرطبة. يسمّى هذا الجبل الآن بالإسبانية: Sierra de Cordoba، أي جبال قُرطبة.

رحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قُرطبة لاستقبال وفد بيزنطة، قعد لاستقبالهم في« يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة 336هـ = بداية أيلول (سبتمبر) 947م. ذلك في قاعة الاحتفالات الدبلوماسية في قصر قُرطبة، القاعة المسمّاة بـ«بهو المجلس الزاهر». وجلس الناصر محفوفًا عن يمينه ويساره بأبنائه وحُجّابه ووزرائه وكبار رجال الدولة. كان يوم الاستقبال يومًا مشهودًا. جاء الوفد البيزنطي من مكان ضيافتهم إلى قصر قُرطبة، مارّين وسط الناس ومراتب الجند الشَاكِين في أسلحتهم المختلفة، حتى وصلوا قاعة الاستقبال، وقد بُهِرَ الوفدُ بأُبّهة السلطان وبهجة الحُكْم. فقدّموا رسالة قيصرهم مكتوبة باللغة اليونانية بالذهب في ورق ذي لون سماوي في داخله رقعة مصبوغة ومكتوبة بالفضة بنفس اللغة، فيها وصف هدايا إمبراطور القُسطنطينية. وكان على الرسالة طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ومرسوم على أحد وجهيه صورة السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قُسطنطين وصورة ولده رومانين. رومانوس الثاني . وكانت الرسالة موضوعة داخل غطاء فضة منقوش، عليه غطاء ذهب فيه صورة قُسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملوّن البديع. وقد كُتِبَ على الرسالة سطران. الأول: قُسطنطين وَرومانين المؤمنان بالمسيحِ الملكان العظيمان ملكا الروم. والسطر

الثاني: إلى العظيم الاستحقاق للفخر الشريف النسب، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءَه. تسلّم الناصر هذه الرسالة وما فيها من الهدايا ومنها الكتابان اللذان ذُكرا آنفًا.

كان جاري العادة في مثل هذه المناسبات أن يقوم الخطباء والشعراء بإلقاء كلمات وقصائد مناسبة يرحبون فيها بالوفد ويعظمون من شأن الإسلام والخلافة ويشكرون الله على نعمه وإعزاز دينه. وكان قد تولّى ترتيب هذه المهمّة الحكم الثاني - المستنصر بالله- ابن الخليفة الناصر ووليّ عهده. وتقرّر أن يقوم الفقيه محمد بن عبد البرّ بإلقاء الخُطبة، وكان معروفًا بأنّه صاحب قدرة عظيمة في الكلام.

هنا يحدث ما ليس في الحسبان. وقف الفقيه ليلقي كلمته ولكن بهرته أبّهة الموقف وجلال المقام، فأُرْتِجَ عليه القولُ فما اهتدى إلى عبارة ولا أنبس ببنت شَفَة، بل غُشِي عليه وسَقَطَ من طوله على الأرض، وأصبح الموقف حرجًا، ما درى الناس ما العمل، وتلفّتوا بحثًا عمن يسدّ هذا النقص.

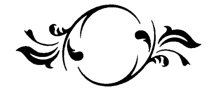
كان بين الحاضرين الأديب اللغوي وافد العراق، صاحب كتاب الأمالي، إسماعيل بن القاسم البغدادي المعروف: «أبو علي القالي» الذي رَحَلَ من بغداد إلى الأندلس مستقرًا فيه سنة 330هـ =941م. توجّهت الأنظار إلى هذا الأديب الكبير لينقذ الموقف. طُلب إلى القالي، أمير الكلام أن يقوم ليرقع هذا الوهي. فعلًا قام القالي: فحَمدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..! ثمّ توقّف!؟ زاد الموقف حراجة، ما الذي حدث!؟ انقطع القول بأبي علي القالي ووقف واجمًا مفكرًا - عبثًا - في كلامٍ يُتِمُّ به خُطبتَه، فلم يهتدِ إلى مقالة. فما العمل يا تُرى؟

هنا يظهر رجل الموقف، متطوّعًا من ذاته دون تحضير. ذلك قاضي الجماعة بقُرطبة: «منذر بن سعيد البَلُّوطي». ابتدأ حيث انتهى القالي بكلام عجيب، كأنّما كان يحفظه قبل ذلك فكان مما قاله بعد الديباجة: «... إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت... وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لَمّت شَعَثَكُم... ألم يتلافَ صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ... ؟ حتى باشره بالقوة والمُهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدَّعَة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطَوِيّة صحيحة، وعزيمة صريحة... فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا... حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات. وصارت وفودُ الروم وافدة عليه وعليكم... فاعتصِموا بما أمركم الله ... وأَستغفرُ الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين». أنشد البلوطي أثناء خُطبته هذه أبياتًا له، منها:

مقالي كحدّ السيف وَسْطَ المحافلِ ... فَرَقْتُ به ما بين حقّ وباطلِ
بقلب ذكيّ ترتمي جَمَراتُه ... كبارق رعد عند رعش الأناملِ
لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو في العصور الأوائلِ
ترى الناس أفواجًا يؤمون بابه ... وكلّهم ما بين راجٍ وآملِ
وفودُ ملوكِ الروم وَسْطَ فِنائهِ ... مخافة يأس أو رجاءً لنائلِ
فعش سالمًا أقصى حياةٍ مؤمِّلا ... فأنت رجاءُ الكلّ حافٍ وناعلِ

بهذا الموقف حاز القاضي البَلُّوطي إعجاب الحاضرين ودهشتهم، كان الخليفة الناصر أشدَّهم إعجابًا به. مُنذئذٍ عَلَتْ منزلته لدى الناصر ولدى ابنه المستنصر بعد ذلك. عاد سفراء بيزنطة مكرمين إلى بلادهم بعد أن حققت سفارتهم ما يُرجى منها من عقد معاهدة صداقة وسلام مع قُرطبة.

لم تكن هذه السفارة إلّا أَحَدَ الوفود الدبلوماسية الكثيرة التي قصدت قُرطبة من كلّ فَجٍّ وحَدَب، الوفود التي ماجت بها الدروب إلى قُرطبة، يوم كانت عروس الأندلس تتيه وتمرح في أفراح دائمة. لكنها اليوم تبدو يتيمة باكية على ما فَرَّط المسلمون بأي مقدار في الأكثر مما جرى ويعرفوا تمامًا مبكرًا طبيعة المواجهة أمام هذا النوع من الموج الصليبي الممتد كيما يستعدوا بما يتناسب وإياه ولا يُخْدَعوا بالآمال، من أجل أم يتخذوا في حقّها للمحافظة ويكونوا مجهزين فلا يكون حالهم كأنهم تأخروا فضُيِّعت أو فضيّعوها. لكنّا - رغم ذلك - لا نَعْدِم أن نلمس عليها اليوم أمارات العزّ القديم ومسحة الدلال الغابر.



سفارة أندلسية في بلاط الدانمارك[1]

تاريخنا الإسلامي في الأندلس لا يزال في كثير من جوانبه بِكرًا أو مجهولًا، بحاجة إلى بحث وكشف، الدبلوماسية الإسلامية في تلك البقعة أحد هذه الجوانب. أرى أنّها من أمتع الموضوعات للدارس، وإن كانت في عين الوقت من أشقّها على البحث؛ ذلك لقلّة ما وصلتنا عنها من النصوص التاريخية. لا أشكّ أنّه ضاعت نصوص كثيرة قيِّمة مما تتعلّق بها، أمثال كتب ابن حيّان القُرطبي وأحمد بن محمد الرازي وغيرهما. والظاهر أنّ ما وصلنا القليل الذي أفلت ناجيًا من مخالب الضَّيَاع بعوامله المختلفة.

لدينا سفارة أندلسية تُعْتَبَر من أطرف ما عَرَفَتْه الدبلوماسية في تاريخنا خلال العصور. لم يَرِد خبر هذه السفارة إلّا في مصدر واحد من التي بين أيدينا. مصدر متأخّر عن تاريخ حدوثها بحوالي أربعة قرون، بعد نقله من مفقود لا نكاد نعرف عنه.

هذا سبب مهمّ في إنكار بعضِ الباحثين لأصالة هذه السفارة؛ لماذا لم توردها كتب المتقدمين والمعاصرين لها على وجه الخصوص؟ لا أرى في هذا أيّ حجّة فاصلة؛ إذ أنّه لدينا أحداث أخرى لم ترد إلّا في كتب المتأخرين ولم يَرْوِها غيرُ مصدر واحد، رغم ذلك فما وجدنا مَن يقول بنكرانها.

---

(1) نُشر في العدد: 80 من «الملحق الأسبوعي» لجريدة «الجمهورية» البغدادية، الخميس 6/ 4/ 1967.
[انظروا عن هذه السفارة أطروحة (رسالة) الدكتوراه، الطبعة الإنجليزية:
Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad Period, pp. 171-203.
والطبعة العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المدّة الأموية،.......].

مصدرنا الوحيد لهذه السفارة كتاب: «المُطرِب من أشعار أهل المَغْرِب» تأليف أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دِحْيَة الكَلبي الأندلسي، المولود في بَلَنْسِيَة Valencia (على ساحل الأندلس الشرقي) المتوفَّى في القاهرة سنة 633هـ = 1235م.

هاجم النورمان الفايكنج The Vikings . سكان البلاد الإسكندنافية Scandinavia . لأوّل مرّة سواحلَ الأندلس الغربية في خريف 229هـ = 844م أيام عبد الرحمن الثاني (الأوسط). الرواية الأندلسية تَعْرِف النورمان هؤلاء باسم: «المجوس أو الأُرْدُمانيون»، لا تعني الرواية هنا بـ: «المجوس» مجوسَ عَبَدة النار في فارس المعروفين بالزرادشت.

ذَكر هجومَ النورمان هذا عددٌ من المؤرخين الأندلسيين منهم ابن القُوطِيَّة (367هـ = 977م) في تاريخ افتتاح الأندلس وابن عِذاري (بعد 712هـ =1312م) في البيان المُغْرِب وابن حَيَّان القُرطبي(469هـ = 1076م) في المُقْتَبِس وابن خَلدون(808هـ = 1406م) في العِبر[1] كما روته العديد من المصادر الأوربية.

ينقسم سكان البلاد الإسكندنافية إلى ثلاثة شعوب: الدانماركيون والنرويجيون والسويديون، اتجه كلّ منهم في نشاطه الحربي أو التجاري وِجهة معيّنة. السويديون إلى شرقي أوروبا والنرويجيون إلى سواحل إنجلترا الشرقية كما احتلوا جزيرة آيرلندا. أما الدانماركيون فهاجموا فرنسا وإسبانيا الشَّمالية ثمّ الأندلس، احتلّوا منطقة في شَمالي فرنسا التي لا زالت حتى اليوم تحمل اسمهم

---

(1) نصوص عن الأندلس، العُذري، 98 ـ 100. البيان المغرب، ابن عِذاري، 2/ 87. المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، 138 ـ 145. نفح الطيب، المقري، 1/ 323 [بيروت، 1/ 345 ـ 346]. المقتبس، ابن حيان (بيروت، 1965)، 244، 249 ـ 252. دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 1/ 261 ـ 265؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، سالم، 235 ـ 237.

«نورماندي Normandy». يكاد يكون من المؤكّد تمامًا أنّ الدانماركيين هم الذين هاجموا الأندلس وأنّهم جاءوا من الدانمارك نفسها، ولم يكن الهجوم من قِبل النرويجيين في آيرلندا أو من النرويج، كما يقول البعض، الأدلّة التي تقف ضدّ هذا الرأي الثاني كثيرة. ما دام المهاجِمون هم الدانماركيون تبعًا لذلك فإنّ السفارة النورمانية التي نحن بصددها جاءت مؤكدًا من الدانمارك Denmark لا من النرويجيين.

كان النورمان أُمّـةَ بحرٍ عريقة ماهرة، في ما يتّصل بالبحرية وفنونها. إذا كان قد أُشيد بالعرب [بالمسلمين منهم] في مهارتهم بكلّ ما يتعلّق بالخيل وركوبها، وَوَصَفَهم الشاعر بقوله:

فكأنّما وُلِدتْ قِياماً تحتَهم ... وكأنّهم وُلِدوا على صَهَوَاتها

هؤلاء النورمان في مهارتهم البحرية كأنّهم وُلِدوا وترعرعوا في سفنهم الطويلة ذات الأشرعة السوداء والمجاذيف الخفيفة. كانت لهم قواربهم المدببة الجانبين السريعة الحركة، لذلك حينما هاجموا الأندلس هجومَهم المذكور أَخذوه على غِرّة وأرعبوه بالقتل، ثمّ يهربون بسرعة إلى سفنهم. لم يستطع الأندلسيون ردّهم إلّا بعد فترة وتضحيات. لكن الأندلس أقام بعد ذلك بَحْرِيّة قوية ردّ بسهولة وبتفوّق كلَّ هجمات النورمان التالية.

استطاع أهل الأندلس طرد النورمان في هجومهم الأول، وتكبيدهم الخسارة في الأرواح والسفن وعادوا إلى وطنهم. كان النورمان في هذه الفترة. أواسط القرن التاسع الميلادي. قد بدأوا يدخلون المسيحية التي تأمر بالسلام ولا ترضى الاعتداء، كما دخل ملكُهم هوريك Horic في هذا الدين، أمام هذا التبدّل والنتائج التي انتهت بها عمليات هجومهم على الأندلس قرروا إنشاءَ عَلاقات سلمية ومعاهدة

صداقة مع سلطاتها. وصلت سفارة دانماركية إلى بَلاط قُرطبة في ربيع السنة التالية (230هـ = 845م)، استقبلهم أميرُ الأندلس عبدُ الرحمن الأوسط أحسنَ استقبال ووافق على رغبتهم، أرسل سفارة جوابية ذهبت بالطريق البحري إلى الدانمارك بصحبة تلك السفارة، لإتمام إبرام هذه المعاهدة بين الطرفين. لأستعين الآن بمقتطفات من ابن دِحْيَة الكلبي (633هـ = 1235م) يحدثنا عن هذه السفارة التي صادفت أثناء مسيرتها البحرية الأخطارَ وعصفت بهم ريحٌ شديدة وصفها الغزال بشعره وهو يخاطب صديقَه واسمُه يَحيى كذلك:

قال لي يَحيى وصِرْنا	بين موجٍ كالجبالِ
وتَوَلّتنا رياحٌ	من دَبورٍ وشَمالِ
شَقَّت القِلْعَين وانْبَتَّت	عُرَى تلك الحبالِ
وتَمَطّى مَلَكُ الموتِ	إلينا عن حِيالِ
فرأينا الموتَ رأيَ العين	حالاً بعد حالِ
لم يكن للقوم فينا	يا رفيقي رأسُ مالِ

ثمّ سَلِموا من تلك الأهوال...

عند وصولهم الدانمارك أسرع الوفد النورماني بإبلاغ مَلكهم نتائج سفارتهم إلى الأندلس وعن وصول السفارة الأندلسية. فَرِحَ الملك شديد الفرح وأصدر أوامره بتكريمهم وأَعدَّ لهم منزلًا حسنًا واحتفل بهم. لقد اندهش هؤلاء المجوس من الأزياء التي كان أعضاء السفارة الأندلسية يرتدونها لِمَا فيها من جمال وغُربة. بعد أيام استراحوا فيها، بدأ إعداد المراسيم لمقابلتهم للملك، كان من جملة هذه المراسيم أن يَرْكَع (ينحني) السفير ومن معه عند دخولهم مجلس ملك النورمان. واشترط الغزال ألّا يركع أحدٌ منهم لأنّ هذا لا يجوز إلّا لله تعالى، وأُجيب إلى ذلك.

لكن النورمان احتالوا بطريقة يَضطرون بها الغَزَال إلى الركوع من غير أن يَشْعُر. فَوُضِع في بداية المجلس مَدْخَلٌ ضَيِّق منخفض لا يمكن للإنسان الدخول معه إلا منحنيًا. سرعان ما أدرك الغَزَال الحيلة بذكائه، فلما وصل إلى المَدْخل جلس إلى الأرض وقَدَّم رجليه، مواجهًا بهما صدرَ المجلس، وزَحَفَ على إِلْيَتِهِ حتى جازه ثمّ استوى واقفًا، وكذلك فعل أصدقاؤه.

كان المَلِكُ قد جلس لهم في أحسن هيئة واحتفل في الزينة الكاملة والأبّهة البالغة والجند المسلحة؛ إظهارًا للقوّة والمَنَعة.

فما هالت هذه المظاهر الغَزَالَ ولا ذعرته بل وقف أمام الملك قائلًا: «السلام عليك أيها الملك وعلى مَن ضَمّه مشهدُك، والتحية الكريمة لك، ولا زِلْتَ تُمَتّع بالعزّ والبقاء والكرامة المُفْضِية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام في جوار الحيّ القيوم الذي كلُّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه المرجع». ولمّا فَسَّر المُتَرْجِمُ للملك هذا الكلام قال: «هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم. أردنا أن نذلّه فقابل وجوهنا بنعليه ولولا أنّه رسول لأنكرنا ذلك عليه». سَلَّم السفيرُ رسالةَ الأمير الأندلسي وقُرِئت عليه فاستحسنها ثمّ رفعها ثمّ وضعها في حجره تقديرًا، ثمّ قُدِّمت الهدايا التي أُعجب بها الملك وبمحتوياتها من الثياب والأواني الأندلسية ذات الفنّ الرفيع. قضى الوفد الأندلسي حوالي السنة في الدانمارك، في جتلاند Jutland، أكبر جزائرهم، وربما في غيرها؟ جَرَتْ له خلالَها أحداث.

كان للغزال معهم مناظرات ومجالس مذكورة ناقش فيها العلماء فأفحمهم كما نازل الفرسان وناضل الشجعان فغلبهم. لعلّه ألقى هناك بعض المحاضرات تناول فيها الحديث عن الإسلام وتاريخه.

كان الغَزَال وَسيمًا مَهيبًا احتفظ بوسامته حتى الكِبَر. وقد عُمِّر الغَزَال أربعًا وتسعين سنة (156 - 250هـ = 773 - 864م)، يوم خَطَّه الشيبُ كان لا يزال قويًّا محتفظًا بأناقته ورشاقته وحسن صورته.

يقول لنا المَقَّري في نفح الطيب بأنّ سفيرنا يَحيى بن الحَكَم (أو حَكَم) البكري لُقِّب: «الغَزَال» لجماله، وأنّ الأمير عبد الرحمن الأوسط هو الذي لقّبه به حين دخل عليه الغَزَالُ مرّةً، فقال الأمير: «جاء الغزال بحسنه وجماله»[1].

كان الغزال فوق ذلك ذكيًّا عالي الذكاء ظريفًا جميل النكتة عزيز النفس حسن التصرّف لاذع التهكّم حاضر الخاطر، ولقد لُقِّبَ: «حكيم الأندلس».

كان الغزال بهذه الصفات والقابليات فلا نندهش إذا ما أخْبَرَنا ابنُ دِحْيَة عن قصّة شيّقة حدثت له خلال إقامته في الدانمارك. حينما وصلت أخبار الغَزَال ومواقفه أسماعَ «نُود» زوجة هوريك ملك الدانمارك أُعجبت به وَوَجَّهَتْ فيه لتراه، لدى دخوله عندها، وبصحبة المترجم سلّم عليها وأطال الشُّخُوص فيها متعجبًا بجمالها، فقالت له: لماذا تطيل النظر؟ أَلِفَرْط استحسان أم عكس ذلك؟ فأجابها: إني لم أتوهّم أنّ في العالم منظرًا مثل هذا. فَطَرِبت الملكة لمديحه وزاد سرورها حينما عَرَضَ عليها أن يقول فيها شعرًا. الظاهر أنّ الغَزَال أُعجب بالملكة الفاتنة الجمال. كما أنّ الملكة نفسها بادلته الإعجاب، حتى أنّ كَلَفها به بلغ حدًّا لم تَعُد تصبر عنه يومًا حتى تستدعيه إلى مجلسها. كان يحادثها بِسِيَر الإسلام وأخبار المسلمين وبلادهم وبمن جاورهم من الأمم، كان الترجمان ينقل الحديث مِن وإلى كلٍّ منهما.

سألَتْه يومًا عن عمره فقال مداعبًا: عشرون سنة! فقالت له: وكيف وهذا الشيب في رأسك؟ فأجابها: ألم تَرَيْ قَطُّ مُهرًا يولد أشهبًا؟ فضحكت « نُود» وأُعْجِبَتْ بقوله.

---

(1) نفح الطيب، المقري، 3/ 23 ؛ البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 93.

كان مما قاله الغَزَال من الشعر في الملكة:

كَلِفْتَ يا قلبي هَوًى مُتْعَبا ... غالبتَ منه الضيغم الأغلبا

إني تَعَلَّقتُ مجوسيةً ... تأبى لشمس الحسن أن تَغْربا

أقصى بلاد الله بي حيث لا ... يَلقى إليها ذاهبٌ مَذهَبا

يا نُود يا رَوْضَ الشباب التي ... تَطْلُعُ من أزرارها الكوكبا

بعد انتهاء السفارة الأندلسية بنجاح وعَقْد معاهدة السلام عاد الوفد إلى الأندلس بالطريق البرمائي هذه المرّة. جاءت بحرًا حتى ساحل الشَّمال الإسباني إلى مدينة شَنْتَ يعقوب (سنتياكو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela) مزوّدًا برسالة من ملك الدانمارك إلى راميرو الأول Ramiro I ملك ليون الإسباني (236هـ = 850م)، يوصيه بالسفارة الأندلسية خيرًا. بقي الغَزَال وصحبُه هناك عند راميرو مدّة ثمّ تابع رحلته عن طريق قَشْتالَة Castele إلى طُلَيْطُلَة Toledo ليصل إلى قُرطبة Cordoba ويَلحق بحضرة الأمير، بعد مرور عشرين شهرًا على رحلته الخطيرة الشّيِّقة.

هكذا كانت هذه السفارة الأندلسية أحد أوجه النشاط الدبلوماسي في تاريخ الغرب الإسلامي الذي نجهل عنه الكثير. هذا النشاط الذي يُعَبِّر بوضوح أمين عن مدى مستوى التمدن الرفيع الذي بلغتهُ نِتاجات حضارتنا في الربوع الأندلسية الجميلة[1].

---

(1) [للمزيد من المعلومات عن الغزال، راجع:

العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، 54 وبعدها. وعنه وعن هذه السفارة إلى الدانمارك وعن الفايكنج، راجع أطروحة الدكتوراه:

Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe, pp. 155 3– 20.

والطبعة العربية لها: العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية، الفصل الثالث].

المُصاهرات بين الأندلس وإسبانيا الشَّمالية في المُدَّة الأُموية[1]

يجد الباحث عَلاقات كثيرة ومتنوّعة بين الأندلس وإسبانيا المسيحية في الشَّمال من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم)، خاصة في المُدَّة الأُموية: كان ذلك أمرًا طبيعيًّا؛ نظرًا للجوار والاحتكاك في كلّ المجالات؛ يظهر بصورة أوضح في هذه المُدَّة. كما قامت بين الطرفين عَلاقات دبلوماسية وتبادل سفارات، إلى جانب العَلاقات العلمية والأخرى العسكرية، للتعاون ضد العدوّ المشترك، كذلك قامت عَلاقات التزاوج والمصاهرة، كان القليل من هذه المصاهرات ذات أهداف سياسية.

كما كانت هذه المصاهرات مألوفة على مستوى الحكام كانت كذلك بين أفراد الشعب في الأندلس، مسيحيين ومسلمين. لا يُقصد بإلفة هذه المصاهرات انحصارُها داخل الحدود الأندلسية فقط بل - وعلى الأكثر - بين المسلمين في الأندلس والمسيحيين في دول الشَّمال الإسباني: ليون (León) وقَشْتالَة (Castile) ونافار (Navarre) أو بلاد البَشْكُنْسِ (Basques). لعلّ هذا بنفسه دليلٌ على سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون منذ الأيام الأولى لفتح إسبانيا ونتيجةٌ لتلك السياسة. الأمثلة على هذه المصاهرات أكثرُ من أن تُسْرَدَ في مثل هذا البحث القصير.

---

(1) نُشر هذا البحث في مجلة (الأقلام) التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد العراقية (بغداد)، الجزء السادس، السنة الثالثة، ذو القعدة 1386هـ = شباط (فبراير) 1967م. وكان قد نُشر كذلك قبلها بالإنجليزية:
"Intermarriage between Andalusia and Northern Spain in the Umayyad period ", The Islamic Quarterly, London, Vol. XI, Nos. 1 & 2, 1967.

من أوائل الأمثلة التي ترد في الذهن زواجُ والي الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر المقتول شهيدًا سنة 97هـ = 716م[1]، لم يكتف بتشجيع التزاوج بين المسيحيين والمسلمين بل تَزوّج هو نفسُه من أيْلُهْ (إخلونا Egilona)[2] أو أمّ عاصم، أرملة رُذْرِيق (Rodrigo)، آخر ملوك القُوط في إسبانيا.

تَرْوِي لنا المصادر قصةَ زواج مُنُوسَة (Munusa) من ابنة أودو (Eudes) دوق أكيتانيا (Acquitaíñe)، جنوبي فرنسا. كان مُنُوسَة حاكمًا لإحدى مناطق الأندلس الشَّمالية[3]، أيامَ الوالي عبد الرحمن الغافقي. كان مُنُوسَة على عَلاقات طيبة مع دوق أكيتانيا، حتى عُقِد بينهما تحالف سري. تأكيدًا لهذا التحالف تزوّج مُنُوسَة من لَمبيجيه (Lampégie) ابنة الدوق المعروفة بجمالها[4]. لكن هذا الخبر في هذه الزيجة ملفق لا حقيقة له أبدًا بحال.

---

(1) تعدّد القول في سبب قتله. وعن مناقشة هذه المسألة راجع: دولة الإسلام في الأندلس، عِنان، 1/ 71 ـ 73. فجر الإسلام، حسين مؤنس، 129 ـ 133 ؛ تاريخ المسلمين وآثارُهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، 1962، 113 ـ 115. ورَوَى بعضُ المؤرخين أنّ زوجته، أمّ عاصم، أقنعته أن يتخذ سِمَة المُلْك ويلبس التاج ففعل، فكان ذلك سبب قتله. انظر: البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 23 ـ 24 ؛ نفح الطيب، المقري، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949، 1/ 263 [بيروت، 1/ 281]؛ تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، 37. ويملك الباحث الشكّ في هذه الرواية جملة وتفصيلًا. قارن: الحلّة السِّيَراء، ابن الأبّار، 2/ 334 ؛ العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، عمر فروخ، 104. [كذلك انظر التاريخ الأندلسي، 139، 158 ـ 159].

(2) البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 23 ؛ نفح الطيب، المقري، 1/ 263 [بيروت، 1/ 281]؛ فجر الإسلام، 130 ـ 133 ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 113 ؛ تاريخ غزوات العرب، رينو، ترجمة شكيب أرسلان، بيروت، 1966، 59، 116.

É. Lévi-Provençal, Histoire de L'Espagne Musulmane, Paris. 1950, vol. I, p. 33; S. M. Imamuddin, A Political History of Muslim Spain, Pakistan (Dacca), 1961, p. 20.

(3) دولة الإسلام، 1/ 85. تاريخ المسلمين، 141. تاريخ غزوات، 116.

(4) وحين سار عبد الرحمن الغافقي إلى جنوب فرنسا لبعض العمليات الحربية تلكّأ منوسة في السير معه، بل وأخبر حَمِيّه الدوق بذلك، مما أثار غضب الغافقي، فأرسل فرقة للقبض على منوسة الذي فرّ مع زوجته إلى إحدى الغابات. وانتهى الأمر بقتل منوسة وأسر زوجته. راجع الحاشية، فجر الأندلس، مؤنس، 250 ـ 253. =

تـزوّج عـدد غـير قليل مـن حكام الأنـدلـس بنساء مسيحيات مـن إسبانيا الشَّمالية (المسيحية) ذاتها. فالحَكَم الثاني (366هـ = 976م)، المستنصر بالله، تزوّج امرأة بَشْكُنْسِيَّة (من بلاد نافار في الشَّمال الإسباني، التي كانت عاصمتها بنبلونة Pamplona) كان اسم زوجة الحَكَم هذه: «صُبْح»[1] وهو الترجمة العربية لأَصل اسمها الإسباني (Aurora) أي الفجر. وهي أمّ هِشام المُؤَيَّدِ بن الحكم المستنصر ووريثه. كان الحَكَم يُؤْثِرُها وهي حَظِيَّة عنده كما يقول ابن عِذاري في بيانه[2]. هي التي ساعدت المنصور (محمد بن أبي عامر) على تَمَكُّنِهِ من السلطة في الأندلس[3]. [وذلك ليقف إلى صف ابنها في حكمه].

تـزوّج المنصور بـن أبـي عامر مـن تَرِيسا (Teresa) ابنة بَـرمـودُو الثاني (Bermudo II) ملك ليون[4].

يَروي ابن الخطيب في أعمال الأعلام[5] خَبَرَ زواج آخر للمنصور من ابنة شَـانْجُـهْ الثاني بن غَرْسِيَهْ (Sancho Garcés II) ملك نافار. وتُطْلِق المصادر

=[وأجد في نفسي رغبة لإعادة دراسة موضوع مُنُوسَة، وإن كان يبدو ألّا جديد مهم فيها والراجح عندي تمامًا أنّ قصة منوسة لا حقيقة لها على الإطلاق، وأنّها من اختلاق الرواية الكنسية الأوربية. انظر: التاريخ الأندلسي، 192 ـ 193].

(1) البيان المغرب، 2/ 253 ؛ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، 42 ؛ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، عنان، القاهرة، 1947، 172 ـ 173؛ دولة الإسلام، 2/ 502، 520.

(2) البيان، 2/ 235، 253.

(3) البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 225 ؛ المُغرِب في حلى المَغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1953، 1/ 194 ؛ دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 471 وما بعدها ؛ تاريخ المسلمين، 326.

(4) العبر، ابن خلدون، بيروت، 1958، 4/ 389 ؛ دولة الإسلام، 2/ 583.
Levi-provencal, ibid., vo;. II, p. 241.

(5) 66، 73.

الأندلسية عليها اسم: «عَبْدَه»[1]، يُضيف ابن الخطيب أنّها: «حَسُنَ إسْلامُها؛ وكانت من خيِّرات نسائه، دينًا مَتينًا وحَسَبًا أصيلًا». أنجبت من المنصور عبد الرحمن الذي تولّى حُكم الأندلس بعد أخيه عبد الملك المظفّر ابن المنصور.

كان عبد الرحمن هذا تدليلًا يسمّى: «شَنْجُول»، مُصَغَّرًا لاسم جدّه شَانْجُهْ. وقد حضر شَانْجُهْ الثاني لزيارة حَميِّه المنصور في قُرْطُبَة سنة 382هـ = 992م، فاستقبله المنصور أعظم استقبال[2]. كان هذا الاستقبال يومًا مشهودًا حَشَدَ له المنصور «الجيوشَ والمُطَّوِّعَةَ لتَلَقِّيه في دخوله إلى قصر الزاهِرة؛ فكان يومُه أَحَدَ أيام الدنيا الشهيرة»[3]. أخرج المنصور في الموكب ابنَه عبد الرحمن (حفيد شَانْجُهْ)، كان لا يزال «طِفلًا يَرقُد في السَّرْج، فنزل جَدُّه إليه وقَبَّلَ رِجلَه ويَدَه»[4]. قَدِمَ موكب الملك النافاري إلى مجلس المنصور، حيث كان يجلس على سرير الخلافة الذي اغتصبه[5]، يحيط به رجال الدولة، ثمّ انفضّ المجلس واستمرّت المفاوضة وعاد الملك شَانْجُهْ إلى بلاده.

---

(1) هذا هو اسمها العربي. راجع: البيان المغرب، ابن عذاري، 3/ 38 ؛ الحلّة، ابن الأبار، 1/ 272 حاشية 1؛ دولة الإسلام، عنان، 2/ 570 ؛ تاريخ المسلمين، سالم، 343.

Lévi-provençal, ibid.; F. J. P. De Urbel, Historia de Espana, vol. VI, España Cristiana, Madrid, 1956. P. 315.

ولم أهتد إلى معرفة أصل اسمها الإسباني.

(2) الحلّة، ابن الأبار، 1/ 272 ؛ دولة الإسلام، عنان، 2/ 583، 623. وكذلك:

Lévi-provençal, ibid., And La Civilisation arabe en Espagne, Paris, 1961, p. 110.

(3) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، 73.

(4) نفس المصدر، ابن الخطيب، 66.

(5) كان المنصور قد اغتصب الخلافة واتخذ صِفة المُلك الذي توارثه أبناؤه من بعده. وقد استعملَ لذلك كلّ الوسائل، من الغدر والقتل، كما اتبع سياسة قضت على وَحدة الأندلس، فهو حريٌّ أن يلقّب «محطِّم الأندلس» وواضع بذور فقدانه. قارن: العبر، ابن خلدون، 4/ 318 ـ 320 ؛ دولة الإسلام، عنان، 2/ 562، 577. وكذلك:

Lévi-provençal, ibid., vol. II, pp. 293-4.

من حكام الشَّمال الإسباني الذين شَجَّعوا هذا الاتجاه المصاهرات مورقاط = مورجاتو Mauregato (173هـ = 789م)، الذي استقلّ في جِلِّيقِيَّة Galicia متخذًا من برافيا Pravia عاصمة له. لقد شَجَّعَ مورجاتو بحماس زواجَ الفتيات المسيحيات من المسلمين[1]، لكنّ دعوته لم تلاق النجاح المطلوب.

كانت عَلاقات المصاهرة قوية بين بني قَسِي المُوَلَّدِينَ، حكام الثغر الأعلى في الأندلس وبين حكام نافار في الشَّمال. فإنّ أرملة موسى بن فَرْتُون بن قَسِيّ تزوجت من وَنَقُهْ أريستا (Íñigo Arista)، الأمير النافاري؛ كما أنّ موسى هذا زَوّجَ بنات أخيه لُبّ لأولاد وَنَقُهْ بن شَانْجُهْ (Íñigo Sanchez)[2].

يَروي ابنُ حَزْم الأندلسي (القُرطبي) في جَمْهَرَتِه[3] طَرفًا من هذه المصاهرات التي قامت بين بني قَسِي وبين بيت وَنَقُهْ، الأسرة النافارية الحاكمة. كانت هذه العَلاقات من القوّة بحيث كان بنو قَسِيّ يقفون أحيانًا مع أصهارهم النافاريين في حربهم ضد المسلمين أو ضدّ الحكام المسيحيين الآخرين على السواء[4]. وقد حارب موسى ابن موسى بن فُرْتُون بن قَسِيّ (أو القَسَوي) إلى جانب أخيه فُرْتُون بن وَنَقُهْ (Fortun Íñiguez) ضد أردونيو الأول (Ordoño I) ملك ليون في معركة البَلْدَة سنة 248هـ = 862م، حيث قُتِلَ الحليفان[5].

---

(1) دولة الإسلام، عنان، 1/ 216. كذلك:
Lévi-provençal, Hist. Esp. Mus., I, 117.

(2) انظر بحثي: «العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا المسيحية في الفترة الأموية»، مجلة (الأبحاث)، تصدرها الجامعة الأميركية ببيروت، عدد آذار 1965 (السنة 18 ـ الجزء 1)، 47 ـ 49.

(3) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948، 467.

(4) نصوص عن الأندلس، العذري (أحمد بن أنس)، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، 30 ـ 31. دولة الإسلام، عنان، 1/ 260، 298 ـ 300.

(5) Levi-provencal, ibid., II, 2.. دولة الإسلام، 1/ 357.

لعلّ أطرف نموذج وأقوى مَثَل على هذه المصاهرات ما ذُكِر من أنّ الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر (350هـ = 961م) كان حفيدَ سيدة نافارية. كان هو نفسه ابنَ جارية إسبانية مسيحية، تُسَمِّيهَا الرواية الأندلسية «مُزْنَة»[1]، لعلّ اسمها في الأصل «ماريا». أطرف ما في الأمر أنّ طُوطَة (Toda)، الملكة الوصية على عرش نافار كانت الحاكمة الفعلية لذلك البلد (349هـ = 960م)، كانت عمّةَ الخليفة عبد الرحمن الناصر من جهة الأمومة. لعلّه من الغريب أنّنا لا نجد في المصادر الإسلامية أيّ ذكر لقصّة القرابة اللطيفة بين الخليفة الأندلسي والملكة النافارية. كل الذي تذكره هذه المصادر عن الموضوع أشبه بعنوان القصة دون القصة ذاتها. تقول لنا هذه المصادر إنّ جدّة الخليفة الناصر لأبيه محمد تسمّى «دُرّ»[2].

لكنّنا نجد القصة كاملة تقريبًا في أحد المصادر اللاتينية[3]. ذلك أنّ «دُرّ» اسمها الإسباني وَنَقَا (Íñiga) هي ابنة فُرْتُون بن غَرْسِيَه (Fortun Garcés) (حفيد وَنَقُهْ أريستا (Íñigo Arista) الملقّب بـ«الأنْقَر»، الذي . كما يروي ابن عِذاري[4] . اعتقله الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في قُرْطُبة لمدّة عشرين سنة. وأنّ ابنة الأنقَر هذه تزوّجت، زواجها الأول، من أمير نافاري هو أزنار بن شَانْجُهْ (Aznar Sánchez) فأنجبت وَنَقَا (Íñiga) من هذا الأمير النافاري طُوطَة (Toda) مَلِكَة نافار. ثمّ كان الزواج الثاني لـ«وَنَقَا» من الأمير عبد الله، جدِّ الخليفة عبد الرحمن الناصر، فأنجبت وَنَقَا للأمير عبد الله محمدًا أبا

---

(1) البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 156.

(2) البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 151.

(3) Oliver y Hurtado (Manuel), Discursos, No. 2, Real Academia de la Historia, Madrid, 1866, vol. III, p. 107; Lévi-provençal, La Civilisation, pp. 109-10.

(4) البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 97.

عبد الرحمن الناصر. فيكون محمد (أبو الناصر) أخًا لطُوطَة، مَلِكَة نافار من الأم، وتكون طُوطَة عمّةَ عبد الرحمن الناصر بن محمد عن طريق الأمومة.

الملكةُ طُوطَة هي التي وَفَدَت على الناصر سنة 347هـ = 958م، مع ابنها غَرْسِيَه ابن شَانْجُهْ الأول (Garcia Sanchez I) وحفيدها شَانْجُهْ الأول (Sancho I) الملقّب بالسمين، ملك ليون المخلوع[1]، ساعيةً في عَقْدِ معاهدة سِلْم وصداقة مع قُرْطُبَة ومناشِدةً الناصرَ الاعترافَ بابنها ملكًا، تحت وِصايتها، وراجية منه مساعدة حفيدها في استرداد عرشه[2] ومعالجته من سِمنته المُفْرِطة، التي كانت أحدَ أسباب عَزله. وقد بلغت سِمنته حدًّا منعته من ركوب الخيل ومن المشي دون مساعدة[3].

استقبل الناصر عَمَّتَه الملكةَ طُوطَة والوفدَ المرافقَ لها[4] بحفاوة وأُبَّهة بالغتين في قاعة استقبال السفراء في قصر الخلافة بمدينة الزهراء، واستجاب لطلباتها[5].

كان الذي أشرف على علاج حفيدها طبيبُ الناصر الخاص، حَسْداي بن شَبْروط اليهودي[6]. ثمّ رَدَّها الخليفة إلى بلدها بكرامة وحفاوة.

هكذا نرى إلى أيّ حدّ كانت المصاهرة مألوفة على كلّ المستويات بين الأندلس وإسبانيا الشَّمالية (المسيحية). لربّما أسهمت هذه المصاهرات إلى حدّ ما في توطيد عَلاقات الجِوار بين الأندلس وحكام الشَّمال الإسباني في شبه الجزيرة الإيبيرية، المأمول منها أكثر.

---

(1) فيكون هذان الملكان من أقارب الخليفة الناصر أيضًا.

(2) العبر، ابن خَلدون، 4/ 310.

(3) العرب في إسبانيا، استانلي لين بول، ترجمة علي الجارم، القاهرة،
1960، 111؛ R. Dozy, Spanish Islam, eng. Tr. F. G. Stokes, London, 1913, p. 440.

(4) نفح الطيب، المقري، 1/ 342 [بيروت، 1/ 365 ـ 366].
Dozy, ibid., p. 443; Lévi-Provençal, Hist. Esp. Mus., vol. II, pp. 71, 144.

(5) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 459.

(6) Dozy, ibid., p. 442.

عَلاقات المُصاهرة بين حكام الأندلس ونافار

Íñigo Arista

وَنَقُه أريستا

|

Garcia Íñiguez Fortun Íñiguez

|

Fortun el Anqar Galíñdo

فُرْتُون الأَنْقَر

(حيث سجن في قرطبة لمدة عشرين سنة)

|

Aznar Sánchez (1) = وَنَقا Íñiga = (2)(الأمير الأموي) عبد الله

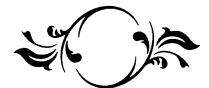
|

محمد

Toda Sancha Sancho Aznar

طُوطَة (الملكة الوصية لنافار)

عبد الرحمن الثالث (الناصر)



نقد لكتاب: تاريخ إسبانيا الإسلامية[1]

تأليف: و. منتكمري واط. مطبعة أدنبرة (بريطانيا)، 1965، عدد الصفحات 10 + 210، الثمن 25 شلنًا (الكتاب باللغة الإنجليزية).

W. Montgomery Watt, A History of Islamic Spain (Islamic Surveys No. 4), E. U. P. 1965, X + 210 pp. 25 s.

هذا الكتاب الذي يُقَدَّم لكم الآن - أيها القارئ الكريم - كان قد صدر ضمن سلسلة «دراسات إسلامية (عامة)» التي وُضِعت لِتُقَدِّمَ للقارئ المثقَّف شيئًا أكثر مما يُوَفِّره له كتاب عادي. بالإضافة إلى أنّ المؤلّف ألحق الكتاب بملاحظات حول المصادر التي «تكون بمثابة مرشد لأولئك الذين يرغبون متابعة دراساتهم في هذا الحقل».

الكتاب يحتوي على مقدّمة وأَحَدَ عشر فصلاً ذات أقسام. مُـزَوَّدٌ بقائمة المصادر التي رجع إليها المؤلِّف وكشّاف عام Index، كما أنّ الدكتور Cachia قد كتب قسمًا إضافيًّا عن الأدب. الكتاب مزوّد بـ 17 صورة إيضاحية وخريطتين.

يوضّح البروفسور واط في المقدمة خُطته بأنّه يَدْرس إسبانيا الإسلامية (الأندلس) لوحدها وكذلك مرتبطة ببقية العالم الإسلامي ومع عَلاقتها وإسهامها في حضارة أوروبا. الفصول 1 - 4، 6، 8، و10 مُكَرَّسَةٌ - أصلًا لتاريخ إسبانيا الإسلامية السياسي، من بداية الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية: (إسبانيا والبرتغال واليوم) سنة 92هـ = 711م، حتى سقوط غَرْناطة سنة 897هـ = 1492م.

(1) نشر هذا النقد باللغة الإنجليزية في مجلة:

The Islamic Quarterly, London, 1966, Vol. X, Nos. 3 & 4.

وبالعربية في مجلة (الأقلام)، الجزء السابع، السنة الثالثة، آذار 1967م.

في هذه القرون الثمانية كانت الأندلس (إسبانيا الإسلامية) قد جرّبت أحوالًا مختلفة وكانت لها عَلاقات متنوعة مع عدد من الدول، عَلاقات علمية وعسكرية ودبلوماسية بالإضافة إلى المصاهرات خاصة مع دول إسبانيا المسيحية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية. يمكن تقسيم التاريخ الأندلسي إلى عدّة عهود:

1 - عهد الولاة: يبدأ من الفتح الإسلامي للأندلس سنة 92هـ = 711م حتى 138هـ= 755م. حَكَم الأندلس في هذه المدة حوالي عشرين واليًا كانوا خاضعين للخلافة الأُموية في دمشق (الفصلان: الأول والثاني).

2 - عهد الإمارة: يبدأ بمجيء عبد الرحمن الأول (الداخل) سنة 138هـ= 755م حتى إعلان عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) الخلافة الأندلسية سنة 316هـ= 929م، حيث حكم سبعة أمراء (الفصل الثالث).

3 - عهد الخلافة: يمتد حتى موت الحكم الثاني (المستنصر بالله) سنة 366هـ = 976م، أو - على رأي البعض - حتى نهاية الدولة العامرية، أي آخر القرن الرابع الهجري = بداية القرن الحادي عشر الميلادي (الفصلان: الرابع والخامس).

4 - يتلو ذلك عهد من الفوضى أدت إلى «عهد ملوك (أو دول) الطوائف». هذا انتهى بقيام دولة المرابطين في الأندلس سنة 484هـ = 1092م التي حلّت مكانها دولة الموحدين، حوالي سنة 620هـ = 1223م. أتبع ذلك عصر آخر من الفوضى (الفصول: السادس والسابع والثامن).

5 - مملكة غرناطة (دولة بني الأحمر) التي أسّسها محمد بن الأحمر (ابن يوسف بن نصر) سنة 630هـ = 1233م استمرّت حتى سنة 897هـ = 1492م، التي يمثّل سقوطُها نهايةَ الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (الفصل العاشر).

☜ في الفصلين الخامس والتاسع يدور الحديث حول الإنجازات العلمية والحياة الفكرية (الدين والعلوم والشعر والآداب الرفيعة والفنّ والفلسفة وعلم التاريخ والتصوّف). يتحدّث الفصل الحادي عشر عن «أهمية إسبانيا الإسلامية»، هو تقويم للتراث الأندلسي وأثره وتأثّره.

☜ في كلّ فصل توجد مقدّمة فيها نظرة عامة على العهد السابق وملامحه، التي أنتجت عهداً جديدًا، ثمّ حوادث هذا العهد وتحليل نقاط معيّنة فيه، وإلقاء بعض الأضواء عليها والكلام عن أسبابها، متأثّرة باتجاهات معيّنة للمؤلّف وتخدم أغراضًا خاصة لديه، الطبقات الاجتماعية والدين والحياة الاقتصادية والمظاهر الأخرى. جُمِعَت الحواشي وبعض التعليقات في آخر الكتاب مع مراجع لمن يريد دراسة أوسع.

★★★

☜ هنا لا بدّ من توجيه ثلاثة أسئلة:

1 ـ هل حقّق الكتابُ الغرضَ الذي وُضِع من أجله؟

2 ـ هل يُعطِي الكتابُ صورةً متكاملة للتاريخ الأندلسي؟

3 ـ هل أيّد المؤلِّفُ استنتاجَه بالنقاش والحجة القائميْن على البحث العلمي؟

☜ حتى لو اعتبرنا المؤلّف كتابًا للمعلومات العامّة، «غير قائم عمومًا على أساس من موازين البحث الدقيقة»، ليس كافيًا دائمًا للقارئ المتعلم أو الطالب المتتبّع لهذا الحقل. كما أنّ المفروض عمومًا أنّه كتاب تاريخ (تاريخ سياسي) التاريخ هو أقلّ ما يتحدّث عنه المؤلّف في مناقشاته التي غالبًا ما تنقصها الدقّة والواقعية التاريخية، بالإضافة إلى الإشارات المتكرّرة للتاريخ الإسلامي المبكر (مثلًا: الأحداث في الشرق الإسلامي) والتحليلات المفصّلة محاولًا إسناد فكرة معيَّنة أو رأي

يعتقده. مثل هذه الطريقة تُوجِد بين الحين والحين فَجَوات بين الفكرة والتي تليها. لا يسهل ملؤها؛ كما أنّها تُوجِد الارتباك بسبب ضَياع وَحْدة الفكرة - أحيانًا - لأنّ المناقشات تتقطع بالإشارات إلى بعض النواحي أو الأحداث المبكرة في التاريخ الإسلامي. للمؤلِّف أحكام تعسُّفية، كالحديث عن الجهاد، على حساب معالجة القضايا، ذات العَلاقة بالتاريخ الأندلسي، التي كان المؤمَّل مناقشتَها، مثل ظروف عبور الجيش الإسلامي الفاتح للأندلس.

حين يتحدّث المؤلّف عن حضارة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية، يهمل جوانب عدّة، منها: الجغرافيا والرقيّ المِلاحي (البحري) والعلوم البحتة والسياسة الخارجية والعَلاقات الدبلوماسية مع الأقطار المتعددة، كما أنّه لم يُعْطِ صورة متكاملة لأحداث تاريخية وأثرها على الأندلس كالهجومات المتكررة للنورمان (Vikings أو الأُرْدُومانيون أو المجوس) على الأندلس في المدة الأُموية.

الكتاب إذن يُعطِي صورة عامة بسيطة (موجزة). بينما يزودنا المؤلِّف بتحليلات لبعض القضايا في حدود في ضوء الأحداث، على حين يَظهر مجانبًا للصواب في استنتاجاته يبني أحكامه على تحليلات ذات طابع شخصي (غير علمي)، إلى حدٍّ مّا، تتفق مع فهمه الخاص للحقائق. هذا الأسلوب إذا فات غير المُهتمّ بالتاريخ الأندلسي كشفُه، فلا يفوت المتتبّع لحقل الدراسات الأندلسية. لعلّ هذا الاتجاه لدى المؤلِّف ناتج عن حقيقة مهمّة هي أنّ الأستاذ واط يكتب في غير حقله، دون تمكّن أو هضم لهذه المادّة، على ما يَظهر، معتمدًا إلى حدٍّ كبير على مصادر أوروبية ثانوية، لا تكفي وَحْدَها لهذا العمل ولا «لإدراك كيفية إسهام الماضي في صياغة الحاضر». نجد المؤلف يَمرُّ مرورًا عابرًا على أحداث حاسمة، حين يجد الحديث المفصَّل لا يخدم واحدًا من أغراضه، مثل غزو شارلمان للأندلس سنة

161هـ = 778م (ص34) وعبور طارق بن زياد (ص13 - 14) ومسألة خطبة طارق وحرقه للسفن.

لقد أكَّدَ المؤلِّف على ضَعْف إسبانيا وفساد أحوالها قبل الفتح الإسلامي ليحاول بذلك بيان أنّ أيَّ جيش كان باستطاعته القيام بهذا الفتح، كما أسند عملية الفتح الإسلامي إلى مُحَفِّزاتٍ صَوَّرها فهمُه غيرُ الواقعي، وإن سمّاها «جهادًا» لكن كما يَفهمه، فهمًا يخالف كلَّ النصوص والوصايا والأحداث التاريخية المتوافرة المتواترة عن الجهاد. صورة «الجهاد» لدى الأستاذ واط صورة أخرى غير إسلامية تنسجم مع مفاهيمه الخاصة الغربية غير الواقعية. صورة الجهاد عنده هي: الغنائم وتقليل عدد السكان بالقتل - أثناء العمليات الحربية - كعلاجٍ لِقلَّة الغِذاء، ربما أسباب أخرى!

لا بدّ أن نتذكّر دومًا أنّ الجيش الإسلامي الذي فتح إسبانيا بقيادة طارق كان اثني عشر ألفًا بينما كان جيش القُوط بقيادة لُذْرِيق (Roderic = Rodrigo) أربعين ألفًا حَسَبَ قول ابن خَلدون الذي يُعتبر من أكثر الروايات المحافظة»[1]، بينما أوصلت روايات أخرى تعداد جيش القُوط إلى مئة ألف. إنّ ضَعْف إسبانيا كان حقيقة حسب الفهم الكريم، لكن لولا الروح المعنوية التي كان يتمتّع بها الجيش الإسلامي والمستمدّة من معاني «الجهاد» بالمفهوم الإسلامي النقي خدمةً للفكرة، لَمَا حقّق المسلمون إلّا القليل بل حتى ولا القليل، لكان قد أبيد عن بكرة أبيه. كانت الغنائم - كالعادة - نتيجة للنصر ولم تكن غاية للفتح، كما أنّ الغنائم لم تكن محفزًا كافيًا لتكوين جيش منظم إلى درجة تؤهّله لمثل هذا النصر العظيم بهذه السرعة، كذلك يؤهّله إلى الاحتفاظ بمكتسباته ثمّ بناء حضارة

(1) (العبر، بيروت، 1958، 4/ 254).

رفيعة، فيما بعد الاستقرار في إسبانيا ودخول عدد كبير من أهل البلاد ليكونوا من خيار المسلمين فيها. يفسِّر المؤلِّف تفسيرًا خاصًّا ذلك النشاط الإسلامي، مُبَرِّرًا فهمَه - على طريقته - لكلّ تصرّفات القادة والخلفاء خلال المدة الأندلسية، يكاد يشكّ في نواياهم جميعًا!!؟ (ص43، 90، 98).

في الفصل الثالث المتعلّق بعهد الإمارة يخصِّص المؤلِّف قسمًا كبيرًا من حديثه عن الثورات الداخلية ليصوّر عدم أهلية وكفاءة السلطة الأندلسية. عند الحديث عن الأقليات (ص53 وبعدها) يَنْسَى المؤلِّف (أو يتناسى) بأنّ هذه الأقليات كانت متمتّعة بكلّ أنواع الحريات بدرجة ليس أقلّ من التي سيتمتّعون بها لو سكنوا مجتمعًا لأبناء ملّتهم (راجع: تاريخ غزوات العرب، رينو، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، بيروت، 1966، 156، 231، 288. 289، 303. 205 ؛ كذلك كتاب: Altamira y Crevea, Historia de España, Barcelona, 1900, Vol. I, p. 229).

من ناحية أخرى يتحدث الأستاذ واط (في الفصل الأول) بتفصيل عن الفتوحات وعوامل انتشار الإسلام مُكَرِّرًا التأكيد: بأنّ انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية كان بالقوّة وأنّ بَسْطَ سلطان الإسلام كان بعوامل بعيدة عن الدين (ص7 - 9، 24). كلّ ذلك دون تدليلات، كانت أحكامه بأشدّ الحاجة إليها، لكنّه فَضَّل أن يُلقيَها دون برهان ودونما سبب يُمْسِكه عن الإدلاء بها! فهل أنّه يُدْرِك - في قرارة نفسه - بطلان هذه الأحكام أم أنّ تفكيره لم يُسْعِفه هذه المرّة باقتناص دليل، أي دليل؟ [في مناقشة مثل هذه الآراء راجع: الإسلام والحضارة العربية، محمد كُرْد علي، القاهرة، 1950، 1/150 وبعدها].

الإسلام الذي يصوّره المؤلِّف هنا هو «إسلام» كما يصوّره بعض المستشرقين وأبدعه خيالهم، ليس هو إسلام القرآن الكريم ورسوله عليه الصلاة والسلام.

حين يتحدّث البروفسور واط عن التراث الفكري للأندلس يذكر مصادره الأولى، يتعرّض للفلسفة فيذكر ابنَ طُفَيْل (ص137 - 139) وابنَ رُشْد. أمّا ابن حَيَّان القُرْطُبي، الذي يعترف المؤلِّف بأنّه «أهمّ المؤرخين الأوائل» (ص136)، يذكره في سطرين.. بخٍ.. بخٍ.. فقد عَرَفَ المؤلِّف كيف يُجنِّب نفسه مَشَقّة التعرُّف على ابن حَيَّان القرطبي «شيخ المؤرخين» الأندلسيين. حين يأتي الحديث عن قصّة السَّيِّد القمبيطور (El Cid) يُهمل المؤلِّف ذكر نصّ ابن عَلْقَمة- شاهد عِيان- عن الوحشية التي ارتكبها «السَّيِّد» في حقّ أهل بَلَنْسِيَة وحَرْق قاضيها ابن جَحّاف [راجع: البيان المغرب، ابن عِذاري، الجزء الرابع، تعليق إحسان عباس، بيروت، 1967، 147 - 151؛ الحُلَّة السِّيَراء، ابن الأبّار، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963، 125/2 - 127؛ بحثه عن السيد القمبيطور في المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، 1950 حسين مؤنس؛ الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، 1956، 224؛ دول الطوائف، محمد عبد الله عِنان، القاهرة، 1970، 234]، بل ويكرّر المؤلِّف وصف «السَّيِّد» بالبطولة، بأضعف (أو بدون) تبرير (ص94).

لكنّ المؤلِّف حين مناقشة الحياة الاقتصادية في الأندلس وأسباب نموّها وإنتاج البلاد فإنّه يصف ذلك بوضوح وبتفصيل وبيانات مهمّة وهذه ناحية مهمّة وهي تمثّل حسنة في الكتاب، بينما على العكس حين الكلام على أسباب وحدة الأندلس وسقوطه يهمل أسبابًا هامّة مثل سياسة المنصور بن أبي عامر الخارجية والداخلية.

أمّا في الحقل العلمي والاجتماعي والحياة الفكرية فإنّ الأستاذ واط لديه وجهة نظر مهمّة (خاصّة به)، وينشغل مرّة أخرى بالحديث عن شبه الجزيرة العربية ليؤكّد «أنّ علم المسلمين الأوائل في الأندلس عربية أكثر منها إسلامية»!!؟ (ص166). الرأي مرتبك ما دام لم يُحدَّد وأنّ الأدلّة عليه افتراضية بصورة رئيسة. بإشارته (ص130) بأنّ «اللغة بالنسبة للمسلمين العرب لم تكن مجرّد عُرْف - أو اصطلاح - بشري (اجتماعي) بل شيئًا أوجده الله»، يَظهر المؤلِّف وكأنّه عربيًّا أكثر من العرب! يذكر المؤلِّف أنّ ابنَ حَزْم القُرْطُبي[1] قد اشتكى من قلّة التقدير الذي ناله، لكنّه ينسى - أي المؤلِّف - أنّ ابن حزم هو الذي اعتزّ بياقوتة إسبانيا وَحْدَها مكتفيًا بها عن امتلاك كلّ درر الصين، فيقول:

ويا جَوْهَرَ الصين: سُحْقًا فقد غَنِيتُ بياقُوتَةِ الأَنْدَلُس

لم تكن جميع المقارنات التي قُدِّمت في الكتاب متوازنة تمامًا: إذا كان (ص151) للمُدَجَّنين (وهم: المسلمون الذين عاشوا تحت ظلّ الحكم المسيحي الإسباني)، حاكِمُهم المسلم الذي عيّنته السلطات المسيحية، الكتاب لم يوضّح بأنّ الأقليات التي عاشت تحت ظلّ الحكم الإسلامي في الأندلس (مسيحيين ويهود) اختارت هي نفسُها حاكمها، وأنّه - في الأندلس على الأقل - لم تُجْبَر هذه الأقليات، في ظلّ الحكم الإسلامي، أن تَلْبَس لباسًا خاصًّا تتميّز أو تُعرف به. لا يمكن التسليم مع المؤلِّف حين الحديث عن الحبّ العُذْري في الأندلس بأنّه على الأغلب ذو أصل إسباني، خاصة وأنّه نفسَه يَذكر في نفس الصفحة (ص116) ترجمة لاتينية لأحد بديهيات الحبّ العُذْري لدى العرب «إنّ المُحِبَّ لمن يُحِبُّ مُطِيعُ»[2].

---

(1) عن ابن حزم القرطبي انظر ص 105 وبعدها.

(2) عن مناقشة هذا الموضوع راجع: الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال، 294.

☜ هنا يأتي ذكر أمر مهمّ تركه المؤلِّف وهو أنّه لم يُزوِّد كتابُه بدراسة مستقلّة (أو كافية) عن تاريخ إسبانيا المسيحية وأرضَى نفسه بإشارات عابرة عنها؛ بينما لا يمكن دراسة تاريخ إسبانيا الإسلامية (الأندلس) أو المسيحية منفصلًا أحدهما عن الآخر، إنّ هذا الارتباط الذي لا بدّ منه بَيْن الإثنين تَنبَّه له المؤرخون الأندلسيون، أَفْرَدوا قسمًا خاصًّا لتاريخ إسبانيا المسيحية، كابن خَلدون وابن الخطيب [العبر، ابن خَلدون، 385/4 - 397. أعمال الأعلام، ابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956، 322 - 338].

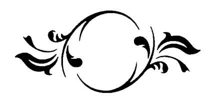
☜ يتبيّن من الشروح والحواشي أنّ المؤلِّف لم يَرْجِع مطلقًا إلى المصادر الأولى للتاريخ الأندلسي. أمثال مؤلفات ابن حَيَّان وابن عِذاري والعُذْري وابن سعيد المغربي وابن الأبّار وابن الخطيب والمَقَّري (الذي ترجم كاينجوس Gayangos منتخبات من نَفْحه إلى الإنجليزية) وغيرهم.

☜ حتى لو سلّمنا أنّ الكتاب دراسة عامّة عادية فإنّ الإشارة إلى مثل هذه المصادر الأولى كان سيكون مفيدًا إن لم يكن ضروريًّا. كم ستكون قيمة كتاب عن تاريخ الأندلس خال من المصادر العربية الأندلسية الأولى أو على الأقلّ ترجماتها؟ علمًا بأنّ المؤلِّف يَعْرف العربية على ما يتّضح. أليس هذا دليلًا على أنّ المؤلِّف يكتب في غير حقله ودون أهلية؟ إنّ المؤلِّف الذي يحترم تَخَصُّصَه أو يحترم البحث العلمي لا يخاطر بوضع نفسه هذا الموضع.

☜ في قائمة المراجع يذكر المؤلِّف مصادر عربية حديثة (لم يرجع هو إليها بل ذكرها لمن أراد الاستزادة)، بعضها ذو قيمة كبرى، لكنّه أهمل مؤلَّفات عدد من المتخصصين في هذا المجال أمثال محمد عبد الله عنان وحسين مؤنس.

هذا الكتاب الذي يشمل كلَّ تاريخ الأندلس وجوانبه الحضارية، مما لا يفي به كتاب بهذا الحجم والمنهج، لا يمكن قراءته دون تحفّظ كما لا يمكن الاعتماد عليه، حتى من وجهة النظر الغربية، على حساب المستشرقين الآخرين الذين قدّموا إنتاجًا طيّبًا - عمومًا - في هذه الدراسات، أمثال: دوزي Dozy الهولندي ورينو Reinaud وليفي بروفنسال Levi-Provençal الفرنسيين.

في الفصل الأخير من الكتاب «أهمية إسبانيا الإسلامية» يُقوِّم المؤلِّف الأندلس - يظهر هنا معتدلًا إلى حدٍّ ما - وأنّه خاصة هنا لِتَثْمين مهمّ واعتراف بمكانة إسبانيا الإسلامية وأثرها على أوربا.



ابن حَيَّان القُرْطبي

مؤرخ الأندلس[1]

ﷺ ما تزال جوانب كثيرة من الدراسات الأندلسية ميدانًا خِصْبًا للباحثين، الأمر سواء فيما يتعلّق بالعلوم البحتة أو الدراسات الإنسانية وكافّة التراث الفكري الذي أنتجته قريحة الحضارة الإسلامية في تلك البقعة الحبيبة من أرض الهدى والنور.

ﷺ لا شكّ أنّ هذا الوصف ينطبق كذلك على أبطال هذه الحضارة وبُناتها الذين أسهموا بعبقرياتهم في إقامة هذا البناء في كافّة الميادين. إنّ هؤلاء وأعمالهم بحاجة إلى تعريف ودراسة. لا نعرف عن كثير منهم إلّا القليل، ما نعرفه من إنتاجهم أقلّ، آخرون قد فُقد بعض إنتاجهم أو ربما جميعُه.

ﷺ من هؤلاء ذلك العالم الأديب المتمكّن والمؤرّخ النزيه والناقد الجريء: ابن حَيَّان القُرْطُبي، الذي يستحقّ منا لقب «مؤرّخ الأندلس». للأسف لم يصلنا من إنتاجه إلّا القليل الذي أفلت من يد الضَّياع وعَمِيَت الجهالةُ عن إعدامه.

ﷺ اسم هذا المؤرخ الكامل: أبو مروان حَيَّان بن خَلَف بن حسين بن حَيّان بن محمد بن حَيّان القُرْطُبي؛ واشتهر بـ«ابن حَيَّان»، إذا أطلقت هذه الكنية «ابن حَيَّان» لا تكاد تدلّ لأوّل وهلة إلّا على أبي مروان حَيَّان بن خلف المؤرّخ.

ﷺ وُلد مؤرخنا في قرطبة سنة 377هـ = 987م وبها تُوفي في يوم الأحد 28 [لثلاثٍ بَقِينَ] من ربيع الأول 469هـ = 10/30/ 1076م[2]. أُمويّ بالولاء، كان

(1) نُشر في جريدة (الدعوة) التي تصدر في الرياض، العدد 154، 30/ 2/ 1388هـ = 27/ 5/ 1968م.
(2) الصلة، ابن بَشْكُوال، 154.

جدّه الأول حَيّان مولى لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه خلف بن حسين من كُتّاب المنصور بن أبي عامر[1].

مكانتــه: أكثرَ المؤرخون النقل من مؤلفاته، أضحت المنقولات عنه تُعطِي قيمة أخرى مهمّة للنصّ الذي يتضمّنها؛ ذلك بديهي لأنّ ابن حَيّان كان عالمًا من الطراز العالي واسع الدراية في مختلف الميادين، لكنه في التاريخ أبرز. تدلّنا كتابتُه في التاريخ على أدبه الرفيع وأنّه صاحب أسلوب سلس معبّر رصين سهل العبارة مع فصاحة وبلاغة وبعد عن التزويقات اللفظية والزركشة السطحية.

أثنى عليه كافّة الكُتّاب تقريبًا (المؤرخون خاصة)، وصفوه بمختلف أوصاف الثناء التي تدلّ على مكانته الممتازة لديهم وعلوّ باعه في عدد من العلوم، لكنّه اشتهر كمؤرّخ مرموق المكانة. أورد ابن سعيد المغربي[2] في وصفه بأنّه «شيخ الأدب والمؤرخين» في الأندلس. وذكر الحُمَيْدي[3] أنّ: «له حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد».

مؤلفاتــه: أهمّ مؤلفات ابن حيان الكثيرة في التاريخ. أوصل بعض الكُتّاب مؤلفاته إلى خمسين مؤلفًا[4]، للأسف فُقِد أكثرها، ليس لنا من بعضها إلّا منقولات والباقي لا نعرف غير أسمائها، منها كتاب «المتين» يقع في ستين جزءًا فُقِدت كلُّها.

الكتاب الوحيد الذي بقيت لنا منه بعض أجزائه كتاب «المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس» في عشرة أجزاء بقي أقلّها. قمتُ والحمد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رب العالمين

---

(1) إعتاب الكُتّاب، ابن الأبّار، 198.

(2) المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، 1/ 117.

(3) جذوة المقتبس، 188؛ الذخيرة، ابن بسام، 1/ 414-470.

(4) ليس هنا موضع مناقشة هذا الرقم، لعل هناك ملابسات متعددة ومتنوعة ترد في هذا الموضوع.

بتحقيق أحد أجزائه نُشر في بيروت 1965.[1] إن شاء الله الأمل أن تظهر إلى النور أجزاء أخرى من هذا المؤلّف القيّم [ومع المتين] الذي يُعتبر من أهمّ المؤلّفات في التاريخ الأندلسي [لعصره وما قبله].

ابن حيّان بحقّ عميدُ المؤرخين الأندلسيين وإمامُهم لا بمعلوماته وإحاطته بالأحداث التاريخية ومجريات [ماجريات] الأمور بدقّة وتفصيل فحسب، بل كذلك بصواب نظرته وطريقة تحليله وتعليله وأصالة رأيه وعدالة نقده ونزاهة حكمه؛ بالإضافة إلى استفادته من تواليف السابقين له في هذا الحقل، الذين فُقد إنتاجهم. تصل الدقّة في أخباره أنّه لا يكتفي بتعيين يوم الحادثة التي يذكرها بل يذكر الساعة، كما يعطي أحيانًا التاريخ الهجري ومقابله الميلادي[2].

من الأسف أنّ ابن حيّان لم يظفر لحدّ الآن بدراسة تتناسب ومكانته، والرجاء أن تظهر عنه دراسة علمية شاملة حياتَه وإنتاجَه.

رحم الله مؤرخ الأندلس ابن حَيَّان القُرْطُبي أحد بُناة حضارة الإسلام في الأندلس وأَظْهَر مزيدًا من إنتاجه للنور.



---

(1) كنت ما زلت طالبًا في مرحلة الدكتوراه (بريطانيا)، في جامعة كيمبرج University of Cambridge. حيث أفدت من مخطوطته كثيرًا جدًّا. أقوم الآن (1421هـ = 2000م) بجمع ما تناثر من كتابيه (المُقْتَبِس والمَتين) في المصادر الأمهات، مما لم يطبع من أجزاء المقتبس لطبعه مجتمعًا مع دراسة شاملة له إن شاء الله تعالى.

(2) المقتبس، طبعة بيروت [1965م]، 82، 66، 67، 73، 76، 101، 107. راجعوا: مقدمة هذا الجزء من المقتبس.

ابن حَزْم القُرْطبي
من خلال كتابه «طَوق الحمامة»[1]

تَلَتْ سقوطَ الخلافة الأندلسية سنة 400هـ = 1009م [أو بعدها] فترةٌ من الفوضى، أدّت إلى قيام ما يسمّى بـ: «مُلوك أو دول الطوائف» في الأندلس؛ حيث ضاعت وَحْدَتُه بقيام هذه الدول المستقلّة المتناثرة المتهافتة التي قامت بينها الحروب والنزاعات. كان لسياسة المنصور بن أبي عامر، في داخل الأندلس وخارجه، أَثَرٌ في هذه النهاية المحزنة التي حَلَّت بالأندلس.

في هذا الجوّ السياسي المُرْتبِك نشأ العبقري والمفكّر الكبير ابنُ حَزْم الفقيه الأندلسي.

وُلِدَ ابنُ حَزْم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم) في مدينة قُرْطُبة Cordoba، عاصمة الأندلس، سنة 384هـ = 994م، ترعرع في بيت شرف وعلم ورآسة ووزارة. كان أبوه أحمد ذا معرفة عالية ومكانة رفيعة في الدولة. أفاد ابنُ حَزْم من أبيه كثيرًا ومن مجالسه التي تَعَرّف فيها إلى عدد من رجال الدولة والعلماء والمفكّرين.

اشتغل ابن حَزْم بالسياسة مدة من الزمن. وَزَرَ في قُرْطُبة لعبد الرحمن الخامس[2] سنة 414هـ. لكنه بعد جولات في الحياة السياسية طلّقها وانصرف عن هذا الميدان ليعيش في ميدانه الطبيعي: مَيْدان العلم.

---

(1) نُشر في جريدة (الجزيرة) الأسبوعية التي تصدر في الرياض، العدد: 174، في 18 رمضان 1387هـ = 19/ 12/ 1967م.

(2) وهو: عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله. انظر قائمة نسبه في كتاب: ابن زيدون السفير الوسيط، 30. ولقب بالمستظهر وتولى الخلافة وعمر 22 سنة ولم تدم خلافته غير نحو شهر ونصف قُتِل بعدها (ولادته: 392هـ، بويع بالخلافة: 16 رمضان 414هـ = ديسمبر 1023م، =

يُعْتَبر ابنُ حَزْم من العلماء الموسوعيين الذين أنتجتهم الأندلس، كان متعدّد النشاط الفكري، بَرَزَ في كلّ ما خاضه منها. كان متعدّد الحَيَوات: حياة سياسية وعلمية ودينية وعاطفية. فهم الإسلام على أنّه جَمَّاع كلّها، ألّف في التاريخ والأدب والأنساب والفلسفة والفقه والشريعة، كذلك في الحبّ وهو ما سأُعْنَى به هنا.

أَوْرَثَنا ابنُ حَزْم عِلمًا قيّمًا وتُراثًا غنيًّا، حيث بلغت مؤلفاته التي لم يصلنا أكثرها قُرابة أربعمائة مجلد كما يروي ذلك ابنه الفضل أبو رافع. خدم بذلك العِلْمَ بكلّ طاقاته وما أُوتِيَ من عبقرية حتى نهاية عمره البالغ اثنتين وسبعين سنة. توفي في 28 شعبان سنة 456هـ = 1063/8/15م. بها طُوِيَت صفحات عالم من أكبر ما عَرَفَتْ الأندلسُ وأكثرهم علمًا وأغزرهم إنتاجًا.

لا أريد أن أتحدّث عن هذا الإنتاج الغزير العميق الذي خطّه يراع فقيه الأندلس، إنّما أُريد أن أُفْرِد بالحديث كتابه: (طَوْق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف) أي في الحبّ والمحبين. كتبه أثناء إقامته في مدينة شَاطِبَة Jativa في حوالي سنة 418هـ[1].

هذا الجانب يبرز فيه ابن حَزْم أيضًا، ويَروي لنا في هذا الكتاب تجارِبه وتجارِب غيره. الكتاب قائم على الصدق والعمق والتجرِبة. هذا الجانب (الحب

=قُتِل 3 ذي القعدة 414هـ = 17/ 1/ 1024م). انظر: الذخيرة، ابن بسام، 1/ 48 - 56. البيان المغرب، 3/ 135 - 148. رسائل ابن حزم، تحقيق الدكتور إحسان عباس، 2/ 50، 73. دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 664 - 667. الأعلام، 3/ 341. كذلك: المغرب في حلى المغرب، 1/ 54. وقد أثنى عليه ابن حَيَّان ـ كما ورد في الذخيرة ـ وحلّاه بالاستقامة والعفة والديانة كان يمكن أن تُحَقّق به الآمال لو وَجَدَ العونَ والسند والتأييد.

(1) راجع: ابن حَزْم الأندلسي (حياته وأدبه)، عبد الكريم خليفة، بيروت (1968)، 187 ؛ ابن حَزْم، أبو زهرة، القاهرة، 1954، 47، 167.

العفيف أو الحب العُذْري) الذي عاناه ابن حَزْم وتسجيله نظراته التحليلية في كتاب يجعل منه مُوَجِّهًا في الحبّ الشريف ومداويًا لقلوب المحبين وأرواحهم من الطراز العالي[1]. يحدّثنا بصراحة عن حبّه ومعاناته فيه، خرج من ذلك كلّه عَفًّا طاهر الثوب. كان له من دينه خيرُ واقٍ ومن قلبه المؤمن دليلٌ مشرق، حيث كان بذلك كما يقول الرافعي:

قلبي يُحِبُّ وإنّما أخلاقُه فيه ودينُهُ

ينقسم كتاب: «طَوْق الحمامة» إلى ثلاثة أقسام من حيث الموضوع، تقع كلّها في ثلاثين بابًا.

القسم الأول: في أصول الحب، في عشرة أبواب هي: الكلام في ماهية الحبّ، علاماتُه، مَن أحبّ في النوم، مَن أحبّ بالوصف، مَن أحبّ مِن نظرة واحدة، مَن لا يحبّ إلّا مع المطاولة، التعريض بالقول، الإشارة بالعين، المراسلة، السفير.

القسم الثاني: يتعلّق بأعراض الحبّ وصفاته المحمودة والمذمومة، في اثني عشر بابًا: باب طيّ السرّ، الإذاعة والكشف، الطاعة، المخالفة، المساعد من الإخوان، الوصل، القُنوع، الوفاء، الغَدْر، مَن أحبّ صفة لم يُحبّ بعدها غيرها ما يخالفها، الضَّنى، الموت.

القسم الثالث: يتعلّق بالآفات الداخلة على الحبّ، في ستّة أبواب: العاذل، الرقيب، الواشي، الهَجْر، البَيْن، السَّلْو. وخَتَمَ الكتابَ ببابين هما: باب عن الكلام في قبح المعصية وباب في فضل التعفّف.

(1) وردت في الكتاب أمور لا أُبْعِدُ أن تكون مقحمة فيه.
ومن يرد متابعة هذا الأمر والتأكد منه عليه أن يطلع على مخطوطاته في المكتبات العالمية - لا سيما الأوربية منها، بالذات جامعة ليدن - حبذا لو أمكن على قديمة النسخ منها.

الذي يظهر أنّ الكتاب الذي لدينا (طَوْق الحمامة)[1] غير كامل. لعلّه مختصر من الكتاب الأصلي الذي لا نعرف له وجودًا، ربّما يخرج يومًا من طَيّ الضَّياع. قد يكون الموجود دخلته زيادات تجنيًا.

يكشف لنا الكتاب عن قابلية ابن حَزْم الأدبية (شعرًا ونثرًا)، كما يكشف عن عمق نظراته وجمال تحليلاته النفسية وصدقها. يعرض بصراحة كثيرًا مِن التجارب التي عاناها وتجارب غيره مع دراستها ما دامت هي واقعة ومتكرّرة، غير منكرة إذا كانت سليمة الاتجاه.

لم يكن ابن حَزْم مَعْنِيًّا بالتأليف في الحبّ عنايته بالعلوم الأخرى. كان هذا الكتاب (طَوْق الحمامة) استجابة لرجاء أحد أصدقائه في أن يُصَنِّف له كتابًا أو رسالةً في (صفة الحبّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه)، الأمر الذي أتاح لصاحبنا فرصة يسجّل فيها تجارِبه وآراءَه؛ كان صريحًا وصادقًا في عرض هذه التجارِب. يَرْوِي - مثلًا - أنّه أَحَبَّ في صباه جاريةً شقراءَ الشعر فلم يستحسن منذئذ «سوداء الشعر، ولو أنّه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه»[2]. ثمّ كَلِفَ بجارية اسمها (نُعْم) أحبّها عظيم الحبّ. «وكانت أمنية المتمنّي وغاية الحسن خَلْقًا وخُلُقًا ...»[3]. تزوّجها وهو دون العشرين من عمره لكنّه لم يهنأ بحبّه؛ إذ اخْتَرَمَتْها المَنِيَّةُ، كان أشدَّ ثَكْلًا بها من الأم بالوحيد. قال يصفها:

مُهَذَّبَةٌ بيضاءُ كالشمس إن بَدَتْ ... وسائِرُ رَبَّاتِ الحِجالِ نُجُومُ
أَطَارَ هواها القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ ... فَبَعْدَ وُقُوعٍ ظَلَّ وهو يَحُومُ

---

(1) طبع الكتاب أكثر من مرّة، منها طبعة القاهرة (1959).
(2) طَوْق الحمامة، 28.
(3) طَوْق الحمامة، 91.

قال يَرثيها:

كـأنّـي لم آنَــسْ بـألـفـاظـكِ التي	عـلـى عُـقَـد الألـبـاب هُــنَّ نـوافِـثُ
ولم أتَحَـكَّـم في الأمــانــي.. كأنني	لإفــراط مـا حُـكِّـمْـت فـيـهـنَّ عابثُ

يُعتَبَرُ كتابُ «طَوْق الحمامة» نموذجًا عالي العِفَّة في معاني الحبّ وأحواله العاطفية ومواصفاته القلبية. وَصَفَ كلّ ذلك بأسلوب الشاعر الرقيق والخبير الذي ذاق أحوال الهوى العُذْري وخاض غِمارَه في مدّهِ وجَزْرِهِ وفَيْضِه وغَيْضِه. كان خلاله نَاسِكًا لا يُفارِقُه نُسكُه، يرفض كلّ صلة لا تقوم على التقوى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأحزاب، 67). الحبّ العفيف نبيل رفيع معروف في الإسلام له تقاليده الطَّهورة، كان ذلك شائعًا عند مسلمي الأندلس، حبّ يقوم على العفّة التي يُعْتَبَر «وجودها دليلًا قاطعًا على ما يكمن في نفوس الشعوب الإسلامية من مثالية عظيمة»[1].

للإسلام تربيته الواقعية المتّسقة مع طبيعة النفس الإنسانية التي يهذّبها ويرعاها بأسلوبه الفذّ المتميِّز للإبقاء على هذا الحبّ الطاهر والمحافظة عليه عفيفًا نظيفًا لا يبيع المسلم دينه بحبّه. على هَدْي من هذه الروح حثّ الإسلام على اقتران المتآلفين بالزواج وعدم الوقوف أمام تكوين عشّ الأُلفة. للإسلام فلسفته الخاصة التي ينفرد بها كعادته في كلّ شأن من الشئون.

لكن ابن حَزْم ما كاد يتنعّم حلاوةَ هذا العشّ النديّ حتى حُرِمَه، الأمر الذي أجّج عاطفته وأسال على لسانه الشعر الجميل، العميق في صدقه، المشرق

---

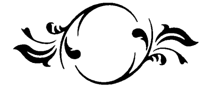
(1) تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا، 214.

لأنّ منشأه هو بناء النفس على دين الله تعالى وليس من سبب آخر أبدًا. التهافت على من يدعي أنّ هذا اللون من الحب عرفه اليونان ومنه انتقل!!؟ لا يمكن أن يولد هذا اللون من الحب العفيف إلّا في ظل منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

في صوره وتصوّره. ربما يؤدّي الحرمان أحيانًا إلى الإبداع». فكان (طَوْق الحمامة) كتاب الحبّ التقيّ وديوان الهوى النقي، لعلّ مؤلِّفه أراد به أن يكون منهجاً إيمانيًّا تقيًّا يسير عليه المُحِبُّون.

جعل آخر أبوابه في (فضل التعفّف) ليكون - كما يعلّل ذلك في بداية الكتاب- «خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك مُفْتَرَض على كلّ مؤمن».

جدير أن يتدبّر الشباب المسلم معاني هذا الكتاب الرفيعة ويعتبر اتجاهه السليم. انتقل هذا الكتاب، بشعره العاطفي وما فيه من تحليل لخُلُق الحبّ الإسلامي إلى أوروبا، تُرْجِم إلى عدّة لغات أوروبية وإلى الروسية أيضًا.



ابن حَزْم الأندلسي

الفقيه الأديب[1]

☜ كان عقليةً فَذَّةً ومثالًا حيًّا للعقيدة التي عاش لها، كما كان غزير الإنتاج، بلغت مؤلفاته أربعمائة مجلد ضاع أكثرها. خرجت قُرْطُبة قبل خمس سنوات لتحتفل به ابنًا كبيرًا.

☜ لا يستطيع باحث أن يُوفِّي ابنَ حَزْمٍ حقَّه في مقالة [أو بحث]. ليس هذا البحث القصير إلّا تعريفًا مقتضَبًا بهذا الإمام الذي يستحقُّ دراسة أو أطروحة [بل أطروحات وقد تمّ شيء من ذلك] مستقلّة يُكرَّس لها الجهدُ الطويل.

☜ كان صاحبُنا عَلمًا من أعلام الإسلام الكبار في الغرب الإسلامي: أرض الأندلس: «الفردوس الموجود».

عصره: بعد افتتاح الأندلس واستقرار المسلمين فيه قامت هناك على أيديهم مدنية بلغت حضارةُ الإسلام فيها القمّةَ. كما أنّ الحكام والخلفاء عاشوا حياتَهم يخدمون الفكر والعلم في تلك البقاع. كانت هذه الأرض الطيبة أصفى وأغنى منهل في العالم، وَرَدَه طلاب المعرفة من كافة أقطار الدنيا، كانت أيضًا أكبر مَعْبَر لحضارة الإسلام إلى الغرب قاطبة.

☜ ثمّ جاء إلى السلطة محمد بن أبي عامر الملُقَّب بالحاجب المنصور (392هـ= 1002م)، الذي كانت للأندلس في عصره قوّة عسكرية كبيرة، لكن عهد هذا الرجل كان ذريعة للتدهور بسياستيه الداخلية الفردية الكابتة المستبدّة والخارجية المثيرة للعداوة والبغضاء. بانتهاء الدولة العامرية سنة 400هـ = 1009م بدأت الفتنة

(1) كُتب هذا البحث ونُشر سنة 1388هـ = 1968م.

الحالقة التي تمخّضت عن قيام «دول الطوائف»، حيث ضاعت وَحْدَةُ الأندلس وقُسِّمت إلى نحو عشرين إمارة. هذا الضَّياع نتيجةً لفقدان [أو ضعف] الخط الخلقي المسلم المُتَمَيِّز. وضع المرابطون نهاية لعصر «دول الطوائف» سنة 484هـ = 1091م.

<u>مولد ابن حَزْم ونشأته</u>: عاش ابن حَزْمٍ في فترة ملوك الطوائف التي تميّزت بالارتباك السياسي الذي يملأ الرأس حيرة والنفس حسرة. لمَّا لم يتيسّر له النجاح السياسي انصرف إلى العلوم فحقّق الإنجازات الواسعة وأسهم في إثراء الفكر [أو النِّتاج] الإسلامي، والفقهي منه على وجه الخصوص. مع أنّ أحوال ذلك العصر كان لها أثرُها في حياته الشخصية والسياسية والعلمية، نشأ طرازًا آخر؛ كان إحدى ثمرات ذلك الغرس الذي وضعته أيدي الخلفاء [والعلماء والأبناء من كل الميادين، نساءً ورجالًا وأطفالاً] قبل عصر الطوائف المضطرب.

وُلِد ابن حَزْم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب) في مدينة قُرْطُبة Cordoba قاعدة الأندلس، فَجْرَ الأربعاء آخِرَ رمضان عام 384هـ = 10/994م. اختُلف في أصله، قيل: إنّه فارسي الأصل، إذا كان هذا الرأي أكثر تداولًا فلا يعني بالضرورة أكثر رجحانًا؛ كما قيل: إنّه من أصل نصراني إسباني، لِمَا أورده ابنُ حَيّان المُؤرِّخ الثَّبْت في هذا الأمر[1]. لعلّ هذه المسألة ما تزال بحاجة إلى مزيد من البحث[2].

نشأ صاحبنا في بيت ثراء ووَزارة، كما هو بيت علم ومعرفة. كان أبوه (أحمد) عالماً ذا علوم عالية وله مؤلّفات. أحمد هذا من أصدقاء الحاجب المنصور الذي استبدّ بحكم الأندلس. بلغت صلة المنصور بأحمد أن اتخذه وزيرًا، كان

---

(1) الذخيرة، ابن بسّام، 1/ 1/ 42.

(2) راجع: ابن حَزْم، الحاجري، 17. ابن حَزْم، أبو زهرة، 23-26. ابن حَزْم الأندلسي، خليفة، 11-16.

يستخلفه على المملكة أثناء غيابه[1]. توفي عام 402هـ = 1012م، يوم كان عمر ابنه «علي بن حَزْم» ثمانية عشر عامًا. كان الابن قد استفاد كثيرًا، عقلًا وعلمًا وفضلًا، من والده ومجالسه، حيث تعرّف فيها إلى العلماء والشيوخ.

شيوخه وتلاميذه: تلقّى ابن حَزْم المعرفة على عدد من العلماء المعروفين في الأندلس، تعرّف إلى كثير منهم في مجالس أبيه. كان أبوه نفسه أديبًا وعالمًا مرموقًا، الذي مما يقول: «إنّي لأعجب ممن يلحَن في مخاطبته، أو يجيءُ بلفظة قلقة في مكاتبته؛ لأنّه ينبغي له إذا شكّ في شيء أن يتركه ويطلب غيرَه، فالكلام أوسع من هذا»[2]. لا شكّ أنّه كان للجوّ العلمي العام، في مجالس والده، أثر في تكوينه. من شيوخه:

1 - أبو علي الحسين بن علي الفاسي، كان هذا «من أهل العلم والفضل، مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة»[3]. كما كان «عاقلًا عالمًا، ممن تقدّم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة»[4]. نفع الله به ابن حَزْم كثيرًا.

2 - أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي، كان عالمًا عاملًا معروفًا[5].

3 - أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد، المعروف: «ابن الجَسور الأُموي». أوّل شيخ سمع منه ابن حَزْم قبل الأربعمائة[6]. هناك شيوخ آخرون تلقّى عنهم ابن حَزْم في كلّ فنّ[7].

---

(1) إعتاب الكُتَّاب، ابن الأبّار، 191.
(2) جذوة المقتبس، الحميدي، 118، رقم: 214.
(3) جذوة المقتبس، 181 (رقم 373). طوق الحمامة، ابن حَزْم، 72.
(4) طوق الحمامة، 126.
(5) طوق الحمامة، 117.
(6) جذوة المقتبس، 99 ـ 100 (رقم 181)؛ ابن حَزْم الأندلسي، الأفغاني، 34 ـ 38.
(7) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قُرْطُبة)، إحسان عباس، 254 ـ 256. تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا، 213.

<u>من تلاميذه:</u>

1 - **الحُمَيْدي صاحب كتاب «جَذْوة المُقْتَبِس»، الذي أدخل كتب ابن حَزْم إلى المشرق.**

2 - **صاعد الأندلسي (الطُلَيْطُلي)، صاحب كتاب «طبقات الأمم».**

3 - **أبو محمد بن العربي والد الفقيه المعروف: أبو بكر بن العربي.**

<u>حياته السياسية:</u> بعد ذَهاب وَحْدَة الأندلس وخلافته ظهرت عدة شخصيات تدعو إلى لَمِّ الشَّعَث وإعادة الوحدة والخلافة، كان أبو محمد علي بن حَزْم من هؤلاء. لما توفي أبوه الوزير أبو عمر أحمد عام 402هـ استقرّ في قُرْطُبة فترة، وهي مضطربة بالفتن. في 404هـ رحل فقيهنا عن قُرْطُبة إلى المَرِيَّة Almeíra، فاعتقله صاحبُها خَيْران العامري لشكّه في نواياه. لَمَّا أُطلق سراحُه بعد عدّة أشهر، ذهب إلى بَلَنْسِيَة Valencia فاستوزره فيها عبد الرحمن الرابع الملقّب: «المُرْتَضى»[1]، ثمّ استقرّ في غَرْناطة Granada فترة. وفي 408هـ عاد أدراجه إلى قُرْطُبة، بعد أنه أخفق في القيام بأيّ عمل إيجابي لإعادة الخلافة الأندلسية.

وَجَدَ ابنُ حَزْمٍ أنّ الأحوال في قُرْطُبة قد تغيّرت خلال غيبته غير الطويلة عنها، حيث كانت الأندلس تجتاز فترة من الفتنة عُرفت في التاريخ بـ«عصر ملوك (أو دول) الطوائف». رأى أنّ أصدقاءه بعضهم قد تشتت في البلاد ومات البعض الآخر. لعلّ هذا أثار في نفسه الأسف والحُرْقة، خاصة وأنّه لم يُصِب شيئًا من وراء اشتراكه في المعترك السياسي وركوبه أمواجه المتقلبة؛ كلّ ذلك حوّل اهتمامه إلى تلقّي العلوم. لكنه في سنة 414هـ أعاد الكرة إلى خوض الحياة السياسية حيث

(1) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الخليفة عبد الرحمن الناصر (ولادته: 368، بيعته: 407، ومقتله 408هـ). انظر: البيان المغرب، 3/ 127. الأعلام، 131. دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 2/ 660 - 662.

وَسَّد إليه الوزارة، في قُرْطُبة، عبدُ الرحمن الخامس (بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) الملقب بـ«المُسْتَظْهِر»[1]. لمَّا تكررت خيبتُه في السياسة، طلّقها طلاقًا بائنًا لينصرف بكلّيته إلى الحياة العلمية: ميدانه الحقيقي[2].

حياته العلمية: يُعْتَبَر ابنُ حَزْمٍ القرطبي . كما يسمّى أحيانًا . من أولئك الموسوعيين (كُتّاب الموسوعات) الذين عَرَفَتهم الأندلس، أرض الأمجاد. تعدّدت جوانب نشاطه الفكري وكان في كلّ منها يبدو وكأنّه مُكَرِّسٌ كُلَّ جهوده لذلك الحقل وَحْدَه؛ كما تعدّدت جوانب حياته من سياسية وعلمية ودينية وعاطفية. وقد فَهِمَ الإسلامَ على أنّه جَمّاع لكلّها وبأنصع الصور وأنقاها. ووصفه صاعد بأنّه «كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة، مع تَوسُّعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسِّيَر والأخبار»[3]. فألّف في التاريخ والأدب والفلسفة والفقه والشريعة وغيرها. ولكنّه كان قبل كلّ شيء إمامًا في الفقه وأُصوليًّا كبيرًا عميق الغور، كما كان واسع المعرفة بالأديان والعقائد الأخرى.

خوضه المعترك السياسي، رغم إخفاقه فيه، شَحَذ همّته وأيقظ نفسه وساعده على التزوّد بإرادة حديدية قاوم بها كلّ التحديات. وعندما هجر الحياة السياسية عاد يتنقّل في مدن الأندلس، لا ليشترك هذه المرّة في أيّ عمل سياسي لكن لِيَلْتَقِيَ بالعلماء وأهل المعرفة، مُتَفَقِّهًا بعلمهم أو مجادلًا لهم، حيث عُرِف

---

(1) طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، 76. ابن حَزْم الأندلسي، الأفغاني، 27. دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)، 1/ 137 [رسائل ابن حزم، 2/ 201 – 202]. كذلك: الذخيرة، 1/ 337. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، 1/ 2/ 664 – 667. له: عصر الطوائف، 431 (حديث عن ابن حزم). الحلة السيراء، ابن الأبار، 2/ 12 – 17. نفح الطيب، 1/ 435 – 437.

(2) المعجب، عبد الواحد المراكشي، 93.

(3) نقله المقّري في نفح الطيب، 2/ 283.

بمهارته الجدلية العالية، كان قويًّا وصريحًا في جَدَله: «يَصُكُّ به مُعارِضَه صَكَّ الجَنْدَل»[1].

﴿ من طريف مجادلاته أنّه حينما ذهب إلى جزيرة مَيُورْقَة ناظَرَه هناك الفيلسوف أبو الوليد الباجي (474هـ). يروي لنا المَقَّري[2] أنّ الباجي قال لابن حَزْم: («أنا أعظم منك همّة في طلب العلم؛ لأنّك طلبتَه وأنت مُعانٌ عليه تسهر بمشكاة الذهب، وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل بائتِ السوقِ؛ فقال ابن حَزْم: هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنّك إنّما طلبتَ العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبتُه في حين ما تَعْلَمُه وما ذكرتَه، فلم أرْجُ به إلّا عُلوَّ القَدْر العلمي في الدنيا والآخرة» حيث مما أفحمه).

﴿ لم تقتصر مجادلاته على العلماء المسلمين بل تعدّتهم إلى علماء الأديان الأخرى. ومجادلتُه وردُّه على يوسف بن إسماعيل بن النِغْرِيلَة (اليهودي)، وزير باديس صاحب غَرناطة معروفة[3].

﴿ كان في كلّ ذلك ذكيَّ الفؤاد قويَّ الحُجّة بارعَ الدليل حاضر البديهة واسع الأفق حَسَنَ التصرّف كثير المعرفة.

﴿ وُصِفَ بأنّه «كالبحر لا تَكُفُّ غَوارِبُه، ولا يُرْوَى شارِبُه، وكالبدر لا تُحْمَدُ دلائلُه، ولا يُمكَّن نائلُه»[4].

---

(1) الذخيرة، ابن بسّام (نقلًا عن ابن حيان)، 1/ 1/ 141. «والجندل: الصخر العظيم؛ ويقال في المثل عن متناظرين شديدين: (جندلتان اصطكتا)».

(2) نفح الطيب، المقري، 2/ 282 [بيروت، 2/ 77].

(3) راجع: رسالة ابن حَزْم: «الردّ على ابن النغريلة اليهودي»، تحقيق إحسان عباس، القاهرة، 1960.

(4) المُغرِب في حُلَى المَغرب، ابن سعيد المغربي، 1/ 354.

☜ كان ابن حَزْم يتنقّل في مدن الأندلس كشَاطِبَة Jativa والمَرِيَّة Almeíra، وبَلَنْسِيَة Valencia وغيرها. أقام فترة في شاطبة (حيث صنَّف كتابه: «طوق الحمامة»)، كانت خاضعة للصّقلبِيَيْن العامِرِيَيْن: مبارك ومظفر اللذين كانت تربطه بهما عَلاقات حسنة[1].

☜ استقرّ بعد الترحال في بادية لَبْلَة Niebla (جنوبي الأندلس، خمسين كم غرب إشبيلية)، التي كانت قاعدة كُورة (محافظة) لَبْلَة Niebla، حيث قصده الطلبة والمريدون وقضى بقية حياته بين التدريس والتأليف حتى واتته المنية سنة 456هـ = 1064م.

مؤلفاته: كان ابن حَزْم من أكثر خلق الله إنتاجًا؛ إذ بلغت تآليفه حوالي أربعمائة مجلد، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريبًا، كما يروي ذلك ابنُه الفضل أبو رافع[2]، لكن فُقِدَ أكثرها. يَذكر ابنُ حَيَّان[3] أنّه: «كَمَل من مُصنّفاته في فنون العلم وِقْرَ بعير». الذي وصلنا من مؤلفاته قد يربو على الثلاثين مؤلفًا، أكثرها مطبوع[4]؛ كلّها تشهد بالذكاء والعمق والدقّة والأمانة العلمية التي اتّصف بها ابن حَزْم. منها على سبيل المثال:

1 - «الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» أوّل كتاب في موضوعه، وهو تاريخ للأديان والعقائد والمذاهب ونقدها ومناقشتها دراسة مقارَنة للعقائد مطبوع.

2 - «إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد» مطبوع.

---

(1) ابن حَزْم الأندلسي، خليفة، 59. ابن حَزْم، أبو زهرة، 167.

(2) نفح الطيب، المقري، 2/ 288 [بيروت، 2/ 83].

(3) الذخيرة، ابن بسّام، 1/ 1/ 141. الوقر: الحمل الثقيل.

(4) ابن حَزْم الأندلسي، خليفة، 128 ـ 134.

3 - «جَمْهَرَة أنساب العرب»، يُعتبر من أحسن وأدقّ ما كُتب في هذا الموضوع مطبوع.

4 - «المُحَلَّى بالآثار في شرح المُجَلَّى بالاختصار»، يقع في أحد عشر جزءًا مطبوع.

5 - «جوامع السيرة» مطبوع.

6 - «مسائل أصول الفقه» مطبوع.

7 - «طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف» مطبوع، بمثابة نظرات دقيقة وتحليل عميق في فلسفة الحبّ والمحبّين.

8 - «الأخلاق والسِّيَر في مداواة النفوس» مطبوع ومترجم إلى الفرنسية.

9 - «الإحكام في أصول الأحكام» مطبوع في ثمانية أجزاء.

10 - «حِجّة الوَداع» مطبوع.

11 - «الإجماع ومسائله».

12 - «في مراتب العلوم».

له عديد من الرسائل نشرت مفردة أو في مجاميع، ولا يزال بعض كتبه ورسائله غير منشور.

مذهبه في الفقه : كان ابن حَزْم مُوَزَّعًا بين السياسة والأدب حتى سنّ السادسة والعشرين، ثمّ تحوّل إلى دراسة العلوم الشرعية. يُروى في سبب هذا التحوّل أنّه كان مرّة في مسجد فظهر جهلُه بفروض الصلاة، الأمر الذي دفعه إلى دراسة الفقه، ثمّ سار في تلقّي العلوم الإسلامية بتوسّع[1].

---

(1) تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا، 215. ابن حَزْم الأندلسي، الأفغاني، 32 ـ 34.

كان في بداية اتجاهه هذا مالكيًّا ثمّ شافعيًّا[1] لكنه ما لبث أن استحسن المذهب الظاهري فتحوّل إليه، بقي كذلك حتى وفاته[2]. مؤسس هذا المذهب أبو سليمان داود بن علي الأصبهاني[3] المعروف بالظاهري [270هـ = 884م]. [يقال إنّ] أوّل ظاهري في الأندلس دافع عن مذهبه ودعى إليه بحماس هو منذر بن سعيد البلوطي (355هـ = 966م)، [لكن ذلك لا يخلو من ضعف بحاجة إلى دليل].

يَعتمد المذهب الظاهري على ظاهر الكتاب والسنة وكذلك إجماع الصحابة، يُنكر القياس ويُبطله[4]؛ يفتح باب الاجتهاد- بشروطه - على مصراعيه[5]. كان ابن حَزْمٍ إمامَ هذا المذهب في الأندلس بل أصبح مستقلّ التفكير غير تابع فيه لداود الأصبهاني، دافع عنه وحمل رايته يقول:

ألم تَــرَ أنــي ظــاهــريٌّ وأنــني　　　علــى مـا أرى حــتـى يَـقُـومَ دليلُ

تَوسَّع ابنُ حَزْمٍ وتَعمَّق في هذا المذهب وأضاف إليه كثيرًا من الأصول[6]، حتى غدت له طريقته الخاصة وأصبحت هذه الطريقة - أو قل هذا المذهب - جديدًا. كان من أتباعه بالأندلس جماعة كبيرة عُرفت بـ«الحَزْمِيَّةِ»[7]، منها صاعد الأندلسي (تلميذه)؛ مال إليه محمد بن تُومرت مهدي الموحّدين. لكن بمرور الزمن قلّ أتباعه ثمّ انعدموا.

---

(1) ابن حَزْم، أبو زهرة، 36. ابن حَزْم الأندلسي، خليفة، 114.

(2) نفح الطيب، المقري، 2/ 283 [بيروت، 2/ 77 – 78]. سار أهل الأندلس أولًا على مذهب الأوزاعي ثمّ تحوّلوا إلى المالكي (نفح، 4/ 214 [بيروت، 3/ 230])؛ كما كان بعضهم شافعيًّا وبعض آخر على المذهب الظاهري.

(3) ابن حَزْم الأندلسي، الأفغاني، 61.

(4) ابن حَزْم، أبو زهرة، 261، 275، 412.

(5) ابن حَزْم، أبو زهرة، 275 وبعدها.

(6) الذخيرة، ابن بسّام، 1/ 1/ 141.

(7) الأعلام، الزركلي، 5/ 59.

أدبه وبيانه: كان أدبه - خاصة نثره - في مستوى عال، ذلك واضح في كتبه كافة وعلى الخصوص كتابه «طَوْق الحمامة» الذي يظهر فيه ابن حَزْم شاعرًا ناثرًا من الطبقة العالية، كما يظهر ذلك من رسالاته [رسائله] المتعددة التي تتّسم بالأدب الرفيع وتدلّ - مع غيرها - على قابلية فذّة في هذا الميدان. معروف أنّ ابنَ حَزْمٍ يقول الشعر على البديهة مرتجلًا. ذكر ذلك تلميذه (الحُمَيْدي) في جَذْوته قائلًا: «وكان له في الآداب والشعر نَفَسٌ واسع وباع طويل، وما رأيتُ مَن يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم»[1].

نجد أمثلة كثيرة من شعره متفرّقة في كتبه ورسائله، ليس ما وصلنا منه هو كلّ ما قاله من الشعر. من القصائد التي قالها ارتجالًا دفاعًا عن الإسلام قصيدة تَعدادها ستة وثلاثون ومئة بيت[2] مبدؤها:

مِن المُحْتَمي لله ربِّ العوالمِ ... ودينِ رسول الله مِن آل هاشمِ
محمدٍ الهادي إلى الناس بالتُّقَى ... وبالرشدِ والإسلام أفضل قادم
عليه من الله السلامُ مردَّدًا ... إلى أنْ يوافي البعثَ كلُّ العوالم

منها:

ملوك جرى بالنصر طائرُ سعدهم ... فأهلًا بماضٍ منهمُ وبقادم
محلّتهم في مسجد القدس أو لدى ... منازل بغداد محلَّ الأكارم
فأهلًا وسهلًا ثمّ نعمى ومرحبًا ... بهم خيار سالفين أقادم
هم نصروا الإسلام نصرًا مؤزرًا ... وهم فتحوا البلدان فتحَ المراغم
رويدًا فوعد الله بالصدق وارد ... بتجريع أهل الكفر طعم العلاقم

(1) جذوة المقتبس، 291.
(2) ابن حَزْم الأندلسي، خليفة، 251.

وصدق رسـالات الـذي جـاء بالهدى	محـمـد الآتــي بـدفـع المظالـم
وأذعـنـت الأمــلاك طـوعًـا لدينـه	بـبرهـان صـدق ظـاهـر في المواسم
فقيـر وحيـد لم تُعنـه عشيرةٌ	ولا دفـعـوا عـنـه شتيمـة شاتم
ولا عـنـده مــال عـتيـد لناصـر	ولا دفـــع مـرهــوب ولا لمسالم
ولا وَعَدَ الأنصار دنيا تخصُّهم بلى،	كـان مـعـصومًـا لأعـظـم عاصم
وكـم آيـةٍ أبـدى الـنبـيُّ محمدٌ	وكـم عَلَـمٍ أبـداه للشرك حاطم
تساوى جميعُ الناس في نصر حقّه	فـلـلـكـلّ مـن إعـظـامـه حـال خادم
فـعُــرْبٌ وأُحْـبــوشٌ وتُــركٌ وبربرٌ	وكـردٌ بهم قد فـاز قِـدْحَ المُساهم
وجـاء بما تقضي العقول بصدقه	ولا كـدعــاوٍ غـيـر ذات قوائـم
عـليــه ســلام الله مـا ذرّ شـارق	يـعـاقـبـه ظـلـمـاء أسـحـم غـائـم

لابن حَزْم الفقيه والأديب جانب آخر أدلى فيه بدلوه وهو الحبّ العفيف الذي لا يقوم إلّا على الشرف والعفّة ولا يرضى بالخَلوة. يحدّثنا في كتابه: «طوق الحمامة» عن حبّه ومعاناته في فترة شبابه وكيف حافظ على عفته خلال ذلك كلّه ولم يكن له من واقٍ غير دينه[1]. يَروي لنا بعض القصص منها قصّة «نُعْم» التي: «كانت أمنية المُتَمَنّي وغايةَ الحسن خَلْقًا وخُلُقًا وموافِقة لي وكنت أبا عُذْرِها، وكنا قد تكافأنا المودّة»[2].

تعلّقه بموطنه : أَحبّ ابن حَزْم وطنه: «الأندلس» حبًّا جمًّا وتعلّق به أشدّ تعلّق وفاخر بأنّه موطن للإسلام تجلّت فيه حضارته. كان يتصدّى للردّ على كلّ من انتقص منه، بأسلوب علمي نزيه يقوم على الحجّة المقنعة. رسالته في ذكر«فضل

(1) راجع المثال السابق.
(2) طوق الحمامة، 91.

الأندلس وذكر رجالها» معروفة[1]. فيها يدافع عن أهل الأندلس ويَبِّن سبقَهم في العلم والفضل. خلال ذلك يستعمل عبارات تدلّ على الشعور بالغيرة الشديدة والارتباط الوثيق، تعابير مثل: بلدنا، أندلسنا، إقليمنا.

إذا كان ابن حَزْم قد تضايق من عدم تقدير بعض مواطنيه له، ممّن آذوه وأنكروا فضله وأنّه ربما عُرف قدره لو كان في بلد آخر، في مثل قوله:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرةٌ	ولكنّ عيبي أنّ مَطْلَعيَ الغربُ
ولو أنّني من جانب الشرق طالعٌ	لجدَّ على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابةٌ	ولا غَرْوَ أن يستوحشَ الكَلِفُ الصبُّ
فإن يُنْزِلِ الرحمنُ رحليَ بينهم	فحينئذٍ يبدو التأسّف والكربُ
فكم قائلٍ أغفلتُه وهو حاضر	وأَطلب ما عنه تَجيء به الكُتْبُ
هنالك يُدْرَى أنّ للبعد قصّةً	وأنّ كسادَ العلم آفتُه القُرْبُ

لكنّه على الرغم من ذلك - دليل تعلّقه بأندلسه - قد ظلّ يعتزّ بأنّه من أرض الأندلس، وبكلّ صراحة يقول:

ويا جوهر الصين سُحْقًا فقد	غَنِيتُ بياقوتةِ الأندلسِ

وفاته: تُوفي ابن حَزْم (وقد بلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة) في قرية «مُنْتِ لِيشَم Casa Montija» من كورة لَبْلَة Neibla، في 28 شعبان سنة 456هـ = 1064/15م[2]. قضاها حياة حافلة بالحركة والنشاط والإنتاج العلمي الغزير. كان من أكثر خلق الله تأليفًا، عاش خلالَها صادقَ الإيمان صافيَ العقيدة مستقيمَ السيرة مهتديًا بتعاليم القرآن الكريم سائرًا تحت ظلاله مُحافظًا عليه في السرّ

---

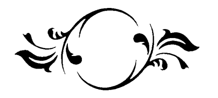
(1) أوردها المقّري، نفح الطيب، 4/ 151 ـ 170 [بيروت، 3/ 156 وبعدها].

(2) المعجب، عبد الواحد المراكشي، 96.

والعلانية مقتديًا بسيرة الرسول الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وكان يؤمن بأنّ سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها»[1].

لا شكّ في أنّ كثيرًا من آراء بعضِ كتب هذا الإمام الفذّ قد انتقلت منذ زمن مبكّر إلى الغرب ومنها أفاد كبير الفائدة[2]. كما أنّ ابن رشد الحفيد (وأثره في الفكر الأوربي معروف) كان متأثّرًا بابن حَزْم.

الدعوة رحمك الله يا أبا محمد، فقد كنت نَسِيجَ وَحْدِكَ، كنتَ إحدى الزهرات التي انشقّت عنها أرض البطولة أرض الأندلس المجيدة.



(1) تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا، 216.

(2) الكتاني، مجلة (البيّنة)، 2/ 77 ـ 86.

النَّكَبات طريقُ النصر [1]

[1]

يَكادُ لا يخلو تاريخُ أمّة من الأُمم في أيِّ زَمان ومكان، مِن نَكَسَات وهزائم أصابَتْها خلالَ حياتها. لا يُقَلّل مِن مكانة الأُمَّة الحيَّة هزيمةٌ لَحِقَتْها أو خَسَارةٌ حَلَّت بها في معركةٍ من معاركها، حربيةً كانت أو غيرَ حربية.

نماذج بطولية من تاريخنا المجيد

إنَّ الأمّةَ الحيّة تعمل للقيام تِلْوَ كُلِّ سَقْطَة لتستعدّ ثانية وثالثة للمسير في موكب الإنسان، للمشاركة في البناء الحضاري وتعمير الأرض بالخير والصلاح، لصالحها وصالح الآخرين. الأمّة الأصيلة هي التي تعرف وتجيد الاستفادة من المحن، التي تشير إلى جوانب النقص لِتُتِمَّهَا، وإلى أسباب الهزيمة فتُزِيلَها. هذا هو المعنى الذي دَرَجْنا عليه وشاهدنا له الأمثلة الكثيرة.

إنّ المحن تجوهر وتنقّي الأمةَ العزيزة وتبني عزائمها من جديد لتخوض كلّ معركة قادمة بهمّة أعلى وعقلية أوعى.

<u>تاريخ بطولي طويل</u>: تاريخنا الإسلامي الطويل مليء بالانتصارات الحاسمة البارعة التي حقّقها المسلمون، بروعة وتفوّق، في كافة ميادين الحياة الإنسانية والعسكرية سواء بسواء. على الرَّغم من ذلك فإنّ هذا التاريخ ليس خُلوًّا من أيّة نَكْسَة، بل إنّ بعض هذه النكسات حدثت يوم كان المسلمون في أوج قوّتهم. وما خبر معركتي أُحد وحُنَيْن عنا ببعيد. لكنّ المهمّ أنّ المسلمين لم يستسلموا للهزيمة بل

(1) هو مقال مسلسل «بعد فضيحة حزيران (يونيو) 1967»، نُشرت هذه الحلقة (الأولى) في جريدة (المنار) البغدادية، العدد: 40/ 3777، 27 ربيع الأول 1387 = 5 تموز (يوليو) 1967.

وعوا أسبابها فزادهم ذلك قوّة وبصيرة وانطلاقًا جديدًا لإحراز الانتصارات المتتالية، لذلك فمثل هذه الانتكاسات كانت مؤقتة.

لدينا معارك حربية كثيرة كانت مَدًّا قويًّا بعد جزر شديد وفي بيت المَقْدِس بالذات! ألم يحتلّه الصليبيون قُرابة تسعين سنة وحَرّرَه بعد ذلك بطلُ الإسلام صلاح الدين الأيوبي؟

إفريقيا والأندلس: أَروي هنا عدّة أمثلة من تاريخنا الإسلامي في الغرب، وفي الأندلس بصورة خاصة، بعضها معروف ومشهور.

تولّى عُقْبَة بن نافع الفِهْري - للمرة الثانية - حكم إفريقيا[1] والمغرب في سنة 62هـ = 682م، اتخذ مدينة القَيْرَوان عاصمة له. قاد عُقْبَة عمليات الفُتوح الإسلامية الخَيِّرة حتى وصل إلى طَنْجَة على ساحل المحيط الأطلسي. في طريق عودته إلى تونس قام كُسَيْلَة (أو كَسِيْلَة) بن لَمْزَم، أحد زعماء البَرْبَر البَرانِس، بثورة كبيرة وقاتله عُقْبَة، الذي كان في خمسة آلاف من الفرسان، لكنّ كُسَيْلَة انتصر على المسلمين رغم استبسالهم. كان الاستشهاد نصيب أكثرهم حتى عُقْبَة نفسه. قويت شوكة كُسَيْلَة واحتلّ القَيْرَوان، وغدا أميرًا على تونس والمغرب، واضطرّ زهير ابن قيس البَلَوِي (خَلَف عُقْبَة) إلى الانسحاب من بَرْقة إلى ليبيا، كان كُسَيْلَة قد زاد قوّة وأتباعًا. بدأ المسلمون الاستعداد لملاقاة كُسَيْلَة بقوّته المتزايدة، دارت معارك مُرَوِّعَةٌ بين الطرفين، نجد تفصيلاتها في كتب التاريخ[2]، انتهت بقتل كُسَيْلَة وانتصار المسلمين وعادت إفريقيا والمغرب إلى دائرة الإسلام، غدا أهل الشَّمال الإفريقي

---

(1) إفريقيا: تعني في اصطلاح المؤرخين المسلمين القُطْرَ التونسي حاليًا، ربما مضافًا إليها بعض المناطق المجاورة.

(2) البيان المغرب، ابن عذاري، 1/ 28 ـ 33. قادة فتح المغرب العربي، شيت خطاب، 1/ 111.

من البربر وغيرهم من الناس المخلصين للإسلام وعقيدته بل ومن أحرصهم على نشره والجهاد في سبيله، حملة طارق بن زياد لفتح الأندلس خيرُ شاهد ومبين.

معركة بَلاط الشهداء: في الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم) بعد أن افتتح السَّمْح ابن مالك الخَوْلاني والي الأندلس سبتمانية Septimania في جنوبي فرنسا أقام بها حكومة إسلامية[1]، حدثت معركة مع أودو Eudes حاكم (دوق) أكيتانيا Duke of Acquitaine وقُتِلَت زَهْرةُ الجيش، كان السَّمْح بينهم، سنة 102هـ = 721م. لكن هذا لم يُثْنِ المسلمين عن التقدم بفتوحاتهم إلى داخل الأراضي الفرنسية بعد أن لَمُّوا شَعَثَهم وأعادوا بناء صفوفهم.

الآن إلى ذكر إحدى المعارك الشهيرة التي اعتُبِرت من المعارك المهمة في التاريخ، تلك هي معركة «بَلاط الشهداء» التي حدثت في فرنسا عند فرعين لنهر اللوار Loire قرب مدينة تور Tours حوالي 200 كلم جنوب باريس. سُمّيَت المعركةُ بهذا الاسم: «بَلاط الشهداء» لكثرة ما سقط فيها من الشهداء. أو لأن دارت حول قصر قيادتهم معركة عنيفة كانت فيها كثرة من الشهداء. كان المسلمون بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي المعروف ببطولته الفائقة. كان الجيش الفِرَنْجي، قد تَجَمّع من عدّة ممالك أوروبية، بقيادة شارل مارتل Charles Martel المعروف بـ«شارل المِطْرَقة»، يفوق جيش المسلمين عَدًّا وعُدَّة أيضًا. دارت المعركة حامية انسحب بعدها المسلمون، بعد أن اسْتُشْهِدَ في الساعات المتأخرة من آخر يوم عبدالرحمن الغافقي القائد[2].

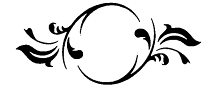
---

(1) دولة الإسلام في الأندلس، عِنان، 1/ 80 وبعدها.

(2) راجعوا: التاريخ الأندلسي*، 193 وبعدها.

<u>الهزيمة والنصر</u>: لكن هذه الحالة لم تزعزع العزائم المؤمنة بربها وعقيدتها. لّما أعاد المسلمون جَمْعَ صفوفهم أعادوا الكَرَّة أكثر من مرّة وبقوا يسيطرون - مدةً - على عدّة مناطق من الجنوب الفرنسي. بعض الأحيان امتدّ نشاط الأندلسيين حتى سويسرا وإيطاليا.

إذا كان المسلمون في الأندلس لم يستطيعوا الكرّة مباشرة بعد بَلاط الشهداء بصورة أقوى، فلم يكن سبب ذلك يكمن في ذهاب الإيمان والقدرة وانهيار العزيمة بعد الهزيمة، بل كانت هناك أسباب أخرى تتعلّق بالظروف الجديدة التي حَلَّت بالمجتمع الأندلسي، كما إنّ انسحابهم وحالتهم نفسَها في المعركة كانت تعود - لحدّ كبير - إلى بعض الأسباب المتعلّقة بالبناء العسكري وربّما إلى الظروف الطبيعية للأرض التي كانوا يحاربون فيها في تلك المعركة الكبيرة.



النَّكَبات طريقُ النصر [1]
[2]

تمنح العقيدة معتنقيها من القوّة بقدر ما أو مما تمتلك منها. لا بدّ لهذه الحياة من عقيدة قوية تُطهّرها من كلّ رجس وتُعمِّرها بالحقّ والعدل والخير.

لا عقيدة أقوى من الإسلام وأملك منه لهذه الصفات، فلا يمكن البتّة أن تقعد بأمّة نكبة أو تفتّ في عضدها نكسة ما دامت مؤمنة بكلّ كيانها بهذه العقيدة، التي منها استمدّت وجودها وبنورها اهتدت.

عندما هاجم القراصنة شواطئَ الأندلس: إنّ الانتصارات والإنجازات الكثيرة التي حققها المسلمون - في كلّ الميادين - كانت ثمرة إيمانهم بالمُثُل الإسلامية الرفيعة. لا تشير فترات الهبوط - بكلّ أنواعه ومُدَدِه - إلّا إلى الانحراف المتجانس عن هذه المثل.

النّكَسَات، التي ذَكَرْتُ في الحلقة السابقة طَرَفًا منها، كانت أوّلًا نَكْسَةً في النفس أو واقع المجتمع. كُلُّ الأمثلة التي أوردتُها كانت أسبابُها طارئة أَدَّتْ إلى انكسار استطاع المسلمون ملافاة عوامله بسهولة.

معركة بَلاط الشهداء: من هذه الأمثلة ما حدث في المجتمع في الأندلس تِلْوَ معركة «بَلاط الشهداء» التي قد لا تخلو هي نفسها من عوامل خارجية تتعلق بعوامل البيئة والأحوال الجغرافية والظروف السَّوْقِية (اللوجستية Logistic). لقد دارت رَحَى هذه المعركة - التي مَرَّ ذكرها - مع جيوش الفِرَنْجَة التي كانت

(1) الحلقة الثانية، نُشرت في جريدة (المنار) البغدادية، العدد: 73/ 3808، 30 ربيع الثاني 1387 = 7 آب (أغسطس) 1967.

تَفُوق الجيشَ الإسلامي كثرةً وعُدَّة. أما النزاعات الداخلية في الأندلس أثّرت قبل ذلك وجَرَى العمل لعلاجها، فما عاد لها تلك الأهمية في موجة التقدم الإسلامي داخل أوروبا. لا شكّ أنّه لو قُدِّر لموجة الفتح الإسلامي الاستمرار في هذه المعركة وبعدها لتغيّر تاريخ الإسلام في تلك البقاع.

قَراصِنَة البحار: لعلّه من المناسب الآن أن نقفز معًا - من تاريخ هذه المعركة بلاط الشهداء - قفزة زمنية نوعية نطوي فيها قرنًا من الأعوام أو يزيد. ذلك يوم كان عبد الرحمن الأوسط (الثاني) أميرًا للأندلس لنشهد لونًا آخر من هذه الأحداث. اعتداء مفاجئ خاطف أُخذت فيه الأندلس على غِرَّة. بداية ذي الحِجَّة عام 229هـ = أواسط/ 8/844م هاجمت جماعة من قَراصِنَة البحار - لأوّل مرّة - الشواطئَ الغربية. قام هؤلاء القُرصان من النورمان الدانماركيين (Norsemen) Vikings بهجومهم على الأندلس، بعدما سَمِعُوا بخيراته وثرواته، في ثمانين مركبًا من مراكبهم الطويلة الرفيعة (المُدَبَّبَة) خفيفة الحركة: «كأنّما مَلأتْ البحرَ طيرًا جُوْنًا كما مَلأت القلوبَ شَجْوًا وَشُجُونًا»[1]. وَصَفَها ابنُ عِذاري المَرَّاكُشيُّ في البيان المُغْرِب[2]. كانت لِشْبُونة Lisbon (Lisboa) (عاصمة البرتغال حاليًا) أَوَّلَ مدينة أندلسية تَشْهَد هُجومَ النهب والخراب النورماني، استمرّوا منحدرين مع الشاطئ حتى إشْبِيلِيَة Seville (Sevilla) كما هاجموا مدنًا أخرى وقُتِلَ من المسلمين كثير.

الأندلس تستيقظ: لكنّ الأندلس أفاقت من الضربة العنيفة المفاجئة غير المتكافئة، حيث كان النورمان متفوّقين في القوّة البحرية عُدَّة ومهارة واستطاعت الأندلس أن تَرُدّ هؤلاء، استُدْعِيَت كُلُّ القابليات ونَفَرَ المسلمون خِفافًا وثِقالًا. دارت

(1) جُوْن (مفردها: جَوْن): السوداء المُشْرَبَة بالحمرة.
(2) البيان المُغرب، 2/ 87.

بعد ذلك معارك عديدة انتهت بانتصار الأندلس. كان من جملة الإجراءات استدعاءُ قوّة من شَمالي الأندلس مُدَرَّبَةٍ على حرب العصابات والضَّرَبَات الخفيفة السريعة، الأُسلوب الأكثر ملائمة لحرب هؤلاء الغزاة. استَدْعَى الأميرُ عبدُ الرحمن الأوسط موسى بن موسى القَسَوي الذي حضر مع قوّة ضارية إلى العاصمة قُرطبة؛ عقد - مع القادة الآخرين- مؤتمرًا عسكريًّا دُرِسَت فيه الأحوال والظروف والإمكانات، وُضِعت الخُطّة المحكمة بالتشاور مع الآخرين في ضوء كلّ ذلك.

كمين في كنيسة: لَمَّا كان النورمان يَخرجون كُلَّ يومٍ إلى بَسائط إشْبِيلِيَة في جماعات هجومية فإنّ موسى سار بقواته ليلًا مختفيًا قريبًا من تلك المناطق ووضع كمينًا في كنيسةٍ إحدى القرى القريبة من إشْبِيلِيَة. ما إنْ انبلج الصباح حتى خرج الغزاة إلى أهدافهم، أشار مَن في المَرصد (الكمين) إلى موسى بقدومهم وانتظر موسى حتى مرّت قوات العدوّ وبَعُدت قليلا؛ حمل المسلمون عليهم وقطعوا ما بينهم وبين المدينة وحُوصروا من كلّ مكان وأُبيدت القوّة النورمانية[1]. كما أُرْسِلَت قوات أندلسية في نفس الوقت لحماية إِشْبِيلِيَة التي كان العدوّ قد احتلّها. لما رأى هؤلاء أنّه قد أُحيط بهم من كلّ جانب هَرَبوا إلى مراكبهم وطلبوا من المسلمين الكَفَّ عنهم. هكذا قُتِلَ كثير منهم كما أُحْرِق مِن سفنهم العديد ورُدُّوا خاسرين.

لكن هذه الهجومات لم تنته بهذا الشكل فقط بل إنّها لفتت أنظار السلطة الأندلسية إلى ناحيتين مهمّتين استفادوهما من هذه المعركة.

الأولى: تحصين المدن الساحلية لدرء أيّ هجوم مفاجئ مثل هذا أو غيره.

الثانية: إنشاء قوّة بحرية أندلسية أكثر كفاية، مع تطوير قدم فنّ بناء سفن الأسطول الأندلسي.

---

(1) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، 85.

لذلك حينما أعاد النورمان الكرّة على الأندلس سنة 245هـ = 859م بعد خمس عشرة سنة من هجومهم الأول السابق، لم يلاقوا غير الدمار والهلاك. هكذا كانت النكبة مفيدة ودرسًا أشار إلى موطن النقص ومواضع الخطر التي أُكْمِلَتْ وأُخِـذَتْ لها كلّ الاستعدادات للدفاع عن البلاد وحفظ كيان الأمّة وصيانة كرامتها.

بلغت الأندلس أيام خلافتها في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي قِمَّةَ الحضارة في العالم. أيام الخليفة العلم عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) غدت الأندلس مَقْصِدًا، إليها يَفِدُ طلاب العلم مثلما يفد السفراء والملوك من كلّ الأمم، طالبين صداقتها حريصين على عقد الصِّلات مع الأندلس، مُقَدِّمِينَ فروض الرضا أو الخضوع. كانت دولة الإسلام هناك أوّل قوّة حضارية سياسية في العالم.

كانت في الشمال الإسباني ثلاث دول مسيحية: ليون (León) وقَشْتالَة Castile (Castilla) ونافار Navarre (Navarra) سلكت الأندلس معها سياسة التعايش السلمي، رغم التفاوت في القوّة بين دولة الأندلس وهذه الدول، حتى إنّ حكام دول الشَّمال الإسباني كانوا يُحَكِّمُونَ السلطات الأندلسية في خصوماتهم. رغم ذلك فإنّ السلطات الإسلامية في الأندلس لم تستغلّ ضعف هذه الدول بل رَغِبَت في عيش سلمي دائم.

حِلْفُ العُدوان: على حين غِرّة وُلِد حِلْفٌ للعُدوان على الأندلس من الدول الإسبانية في الشَّمال، بزعامة راميرو الثاني Ramiro II ملك ليون، محور هذا التحالف العدواني. جهّز الخليفةُ عبدُ الرحمن الناصر جيشًا ضخمًا وسار به إلى شَمال الأندلس للقاء المتحالفين وتأديبهم. كان أحد حكام الولايات الشَّمالية الأندلسية الخائن (أو الهارب): أُمَيّة بن إسحاق قد لجأ إلى راميرو الثاني ووضع

نفسه تحت تصرّفه، حتى عَلَتْ مكانة أُمية عنده، فَقَرَّبَه واستوزره[1]. وكان أمية يقدّم لراميرو في هذه المعركة خبرته العسكرية ويدلّه على عورات إخوانه المسلمين ويقاتل معه ضدّهم. وتقدّم الناصر بجيشه، الذي قدّرته بعض الروايات قرابة مئة ألف مقاتل. ولوجود بعض العوامل داخل الجيش الأندلسي التي كانت تَفُتُّ في قواه خسر الناصر هذه المعركة وتراجع المسلمون في اليوم الثالث من المعركة (بعد أن بدا لهم النصر) وتساقطوا في خندق عميق، كان قريبًا من ميدان المعركة، وسُمّيَت المعركة «معركة الخندق». وقُتل منهم آلاف كثيرة أوصلها البعض إلى أربعين ألفًا أو يزيد؟؟!. وكان ذلك في شوال 327هـ = آب (أغسطس) 939م. وكان الناصر. كعادته. قائد هذه المعركة التي ضاع فيها مُصْحَفُه ودرعُه، ونجا من الموت بأعجوبة. وكانت معركة الخندق هي الوحيدة التي خسرها الناصر طوال حكمه البالغ خمسين سنة (300 ـ 350 هـ = 912 ـ 961م).

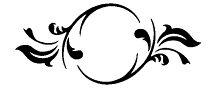
كان من أسباب هزيمة المسلمين في هذه المعركة طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته على ما هَيَّأ الله له من الصُّنْع ولم تُناصِحْه في الحرب حقّ النصح فَتَحَوَّلَتْ عنه وقد ثَنَت أَعِنّة خيلها فاختلّت صفوف القتال، كما يقول ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام»[2].

لكن خسارة المسلمين في هذه المعركة كانت نتيجة عوامل طارئة، استطاع الناصر معالجتها والقضاء عليها، فكان النصر للمسلمين بعد ذلك في كافّة المعارك اللاحقة كما كان مِن قَبْل في التي سبقتها.

---

(1) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 75 ـ 78 ؛ دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 413 ـ 416.
(2) أعمال الأعلام، 37.

بلغت قوّة الأندلس بعدها أنّ ملوك الشّمال الإسباني وغيرهم من ملوك الدنيا كانت تأتي وفودها متسابقة تملأ الدروب إلى قُرطبة طارقة باب الخلافة الإسلامية في الأندلس طالبة صداقتها أو مساعدتها. وأنّ مصادر التاريخ الأندلسي قد حَفِظَتْ جُمْلَةً مِن هذه المَشاهد التي تُشير إلى القوّة والمَنَعة التي بها حقّق المسلمون النصر والتفوّق العام.



فِتْيَةُ لِشْبُونَةَ المُغَرَّرُونَ

الحضارةُ الإسلامية مليئة بالصفحات الناصعة الفريدة، ما أكثر ما فيها من مجهول يقتضي الجهود الضخمة لإخراجه إلى النور، هذا الموضوع ما يزال جديدًا على البحث والدراسة. وقد شَمِلَت هذه الحضارة كافة الجوانب الحياتية التي تدلّ على تقدّم الإنسان، ماديًّا وروحيًّا واجتماعيًّا. أوضحُ ما يكون ذلك في الحضارة الأندلسية، ذلك المَعين الفَيَّاض الذي ارتوى الغرب منه لقرون وأفاد أكبر فائدة في بناء حضارته الحالية، مَهّدَ لكثير ممّا حقّقه.

للنشاط الجغرافي نصيب وافر في هذه الحضارة، إسهام المسلمين الكبير في هذا العلم معروف، بما في ذلك الكشوف الجغرافية التي سَبَقَ بها المسلمون غيرَهم أو تحطيمُهم لبعض الآراء الجغرافية التي غَدَت منذ قرون – في اِعتبار صحتها - كالعقائد. فجهودهم الجغرافية البرية والنهرية منها والبحرية عظيمة صادقة قادت إلى كثير من الكشوف الحديثة، والأمثلة على ذلك كثيرة أيّ كثرة.

سليل الأسود شهاب الدين أحمد بن ماجد (بعد 904هـ = 1498م) يُعْتَبَر من كبار البحارة المسلمين ومن العلماء الأوائل في الملاحة البحرية. له ما يقارب الأربعين مؤلَّفًا في هذا الفنّ، تقوم على التجرِبة والخبرة، إضافة إلى الدراسة والملاحظة، لذلك لقّب: «أسد البحر». كان البحارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، قبل أن يُبحروا، يقرأون الفاتحة لروح الشيخ ابن ماجد اعترافًا بفضله[1]. وهو مخترع الإبرة المغناطيسية، وهو الذي أَطْلَع فاسكو دي غاما Vasco da Gama الرحالة البرتغالي (الذي ينسب إليه اكتشاف طريق جديد للهند) على بعض الخرائط والمعلومات، وهو الذي كان

(1) الأعلام، الزركلي، 1/ 201.

دليل غاما (الذي نعرف عنه أكثر مما نعرف عن ماجد)، وقاد سفينته في سنة 904هـ = 1498م من مالندي Malindi في كينيا Kenya على ساحل إفريقيا الشرقية إلى كَلْكُتا Calcutta في الهند. كثير من الذين يتحدّثون عن اكتشاف هذا الطريق الجديد إلى الهند يذكرون دي غاما وينسبونه إليه لكنهم ينسون أو يجهلون «المُعَلّم» أحمد بن ماجد الذي هو أحرى بلقب مكتشف طريق الهند، لا فاسكو دي غاما. مَن يدري لولا الشيخ ابن ماجد لتأخّر هذا الكشف السنوات الطوال ولَمّا كان لدى غاما مثل هذا الشأن[1].

لا يستبعد أنّ الجغرافيين المسلمين قد تخيّلوا وجود أماكن أو قارات أخرى كأمريكا قبل اكتشافها بقرن ونصف أو يزيد. فقد ذكر ابن فضل الله العمري (749هـ = 1349م) نقلًا عن أبي الثناء الأصفهاني قوله: «لا أمنع أن يكون ما انكشف عن الماء من الأرض من جهتنا منكشفًا من الجهة الأخرى وإذا لم أمنع أن يكون منكشفًا من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثلما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى»[2]. ربما كانت لهم محاولات في هذا الشأن مما دفع بعض الباحثين إلى القول بأنّ المسلمين هم مكتشفو أمريكا قبل كريستوف كولومبوس Christopher Columbus (Sp. Cristobal Colon) بزمن طويل، خاصة بعد ثبات انتقال نباتات إلى العالم الجديد، لم تكن معروفة فيه من قبل[3]. على كلّ حال: إنّ كولومبس الإيطالي لم يتخيّل وجود أمريكا بل تخيّل فقط وجود طريق جديد يُوصل إلى الهند عن طريق الغرب فاكتشف العالم

---

(1) لا أدري كيف رضي ابن ماجد معاونة هذا العدوّ الصليبي وكيف غابت عنه أهدافه. ثمّ أنّ هذا الطريق كان معروفًا للمسلمين، لكن هذه العملية كانت لتمكين هؤلاء من الاستحواذ عليه. لم يكن القصد الكشوف وإنما للالتفاف على العالم الإسلامي والتمكّن منه. الأمر كله بحاجة إلى دراسة جديدة جادة متوثقة.

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله العمري، 1/ 31.

(3) المدنية الإسلامية، عاشور، 122 ـ 123؛ دور المسلمين، بامات، 78.

الجديد عن غير قصد منه سنة 898هـ = 1492م. لا بدّ أنّه اطّلع على مَناشط المسلمين وتجاربهم وأفاد من دراسات الجغرافيين الأندلسيين كأبي عُبَيْد البكري (487هـ = 1094م) والإدريسي (560هـ = 1165م) ومن خرائطه والوسائل الملاحية الأخرى، كما لا بدّ أنّه كان على علم بقصّةٍ استكشافية بحرية قام بها بعض مسلمي الأندلس، تُعْتَبَر هذه القصة طريفة غاية الطرافة. من عجب أننا لا نجد لهذه القصة ذكرًا في الكتب التي وصلتنا إلّا عند الشريف الإدريسي(560هـ = 1165م) في كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»[1] [وعنه نقلها الآخرون].

خلاصة هذه القصة الطريفة أنّه في القرن الثالث الهجري قامت جماعة أندلسية بمخاطرة جريئة لكشف سرّ المحيط الأطلسي الغامض وتبديد المخاوف التي بالغ القدماء في تجسيمها.

في مدينة لشبونة (عاصمة البرتغال حاليًا [ورد اسمها في المصادر الأندلسية: أُشْبُونَة أو الأُشْبُونَة]) اجتمع ثمانية رجال مُغَرَّرِينَ - أو هكذا أُطلق عليهم - واتفقوا على خوض بحر الظلمات (المحيط الأطلسي ATLANTIC OCEAN) ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه، أنشأوا مركبًا حَمّالاً وملؤوه من الزاد والماء مؤونة تكفيهم لأشهر. رَكِبُوا البحر في أوّل هبوب الريح الشرقية، وبعد أحد عشر يومًا من إبحارهم وصلوا مكانًا عنيف الموج كَدِر الروائح كثير الصعوبات قليل الضوء حتى أيقنوا بالموت، فغيّروا خطّ سيرهم نحو الجَنوب. بعد اثني عشر يومًا وصلوا جزيرة الغنم فنزلوها ووجدوا فيها من الغنم ما لا يُحصى، سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها، كما وجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بَرِّي، أخذوا من تلك الغنم ذبحوها ولكنّهم وجدوا لحمها مرًّا حملوا معهم من جلودها وعادوا إلى مراكبهم. ثمّ ساروا

---

(1) نزهة المشتاق، طبعة روما (1592)، 182 ـ 184.

في اتجاه الجنوب اثني عشر يومًا حتى لاحت لهم جزيرة ذات عُمران وحَرْث. قصدوا إليها ليروا ما فيها، ما كان غير بعيد حتى أُحيط بهم في زوارق هناك أُخذوا وحُملوا في مراكبهم إلى مدينة على ساحل الجزيرة شاهدوا رجالًا شقراء شعورُهم وسَبْطة، طوال القامة لنسائهم جمال عجيب، اعتُقلوا ثلاثة أيام. في اليوم الرابع جاءهم تُرجمان الملك، كان يعرف العربية، سألهم عن حالهم ولِمَ جاءوا وما بلدهم؟ أخبروه خبرهم فوعدهم خيرًا.

في اليوم التالي أُحضروا بين يدي الملك فأعادوا عليه قصَّتَهم فضحك وقال للتُّرجمان: خَبِّرهم أنّ أبي أمر قومًا من عبيده بركوب هذا البحر وأنّهم جروا في عَرضه شهرًا إلى أن انقطع عنهم الضوء فانصرفوا من غير جدوى. ثمّ عاد الفتية من عند الملك بعد أن وعَدهم بما يُطَيِّب خواطرهم ويحملهم على حسن الظنّ. فصُرِفوا إلى موضع حبسهم حتى بدأ جري الريح الغربية فعُمِّر بهم زورق وعُصِبت أعينهم وجُرِيَ بهم في البحر مدّة، قال القوم قدرناها ثلاثة أيام، بلياليها، حتى جيء بنا إلى البرّ فأُخرجنا وكُتِّفنا إلى خلف وتُركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضَنْك وسوء حال من شدّة الكِتاف حتى سَمِعْنا ضوضاء وأصواتًا فصِحنا بأجمعنا فأقبل القوم إلينا وحلّوا وَثاقنا وأَخبرناهم خبرنا، قال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا. قال: مسيرة شهرين. فقال زعيمنا: وأسفي، فسمّي المكان إلى اليوم (آسفي)، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب.

يُؤخذ من كلام الإدريسي أنّ هؤلاء الثمانية عادوا إلى أُشْبُونَة وسردوا قصّتهم على أهلها الذين لم يروا فيهم إلّا رجالًا مغرورين وسَمُّوا الدرب الذي فيه دُورهم: «دَرْب المُغَرَّرِينَ».

لم يذكر الإدريسي اتجاههم الأول لذا جعله البعض إلى الشَّمال حتى أصبحوا بمحاذاة آيرلندا. جعله المرحوم شكيب أرسلان خطًّا مستقيمًا إلى الغرب فوصلوا بعد سفر، يرجَّح أنّه استمرّ أكثر ممّا ذكره الإدريسي، قريبًا لإحدى جزائر المحيط بين أمريكا الشَّمالية والجَنوبية التي بين 10 و27 درجة من العرض الشَّمالي وبين 62 و87 درجة من الطول. أمر يمكن قبوله . رغم عدم استطاعة ترجيحه لحاجته إلى أدلّة أخرى، حيث إنّ استعدادهم كان يُقصد به الاستمرار في الرحلة في الاتجاه الغربي للأندلس لأشهر عدّة، مع التصميم على المضيّ في تحقيق الهدف رغم إدراكهم صعوبة المهمّة. لو ثبت أنّهم ساروا طيلة إبحارهم في اتجاههم الأول أو استمرّوا في السير فيه لأطلّوا على أمريكا أو وصلوا قريبًا منها. الظاهر أنّهم يَئِسوا من الوصول إلى البَرّ في ذلك الاتجاه فتحوّلوا جَنوبًا حتى جزيرة الغَنَم ثمّ عادوا جَنوبًا إلى الشرق فوصلوا إحدى جزر الخالدات التي تعرف باسم جزر الكناري Eng. The Canary Islands,

Esp. ISLAS CANARIAS

ثمّ وصلوا إلى المغرب. لعلّه من الممكن التحقّق من وصولهم موضع مدينة «آسفي» إذا حَسَبْنا المسافة التي كان يسيرها مركبهم ومسافة ما بينها وبين لشبونة. من الأسف أنّ الإدريسي لم يذكر لنا كيف عادوا من إفريقيا إلى لشبونة.

على كلّ حال فقد كان لهذه القصّة، التي لا أَشكّ في واقعيتها، أثر كبير في تشجيع البحارة البرتغاليين وغيرهم على القيام برحلات استكشافية. نظرًا لأهمّيتها قام بعض الأوربيين بوضع مثل هذه القصة في القرن الحادي عشر الميلادي

ونسبتها إلى القديس براندان الراهب الآيرلندي الذي عاش في القرن السادس الميلادي فقط[1].

القصّة بعد ذلك دليل على روح المغامرة المتأصّلة في نفوس الرحالة المسلمين وعدم مبالاتهم بالخطر حُبًّا في الكشف عن المجهول.

مَنْ يَدري فلعلّ في تراثنا الزاهر مثيلات لهذه البطولة، فُقِدت إلى الأبد، فيما فُقِد من المخطوطات. أو أنّها ما تزال في انتظار من يكشف عنها ويُخرجها إلى النور، كلّ رجائنا ألّا يطول بنا الانتظار.



(1) صور وبحوث، العبادي، 149 وبعدها.

أُسُس الحضارة الإسلامية في الأندلس[1] ودَوْرها في الحضارة الأوربية

أسهمت أممٌ كثيرة خلال التاريخ في بناء حضارة الإنسان الحالية، كان دور الأمة المسلمة في هذه الحضارة كبيرًا. الحضارة الإسلامية وليدة التعاليم الإسلامية النزعة. ليست حضارة الإسلام غير ذلك النِّتاج الفكري المتعدد الاتجاهات المُوَحّد الروح والهدف الذي نشأ في ظل الإسلام، شاركت فيه كل الأمم والأجناس التي ضمها هذا الدين وربط بينها وكَوّن منها مجتمعًا لا تحده حدود قومية.

كانت العربية هي اللغة التي كُتِبَ بها هذا النتاج أو غالبيته. الإسلام دعوة لبناء الأرض وعمارتها بالخير، هي دعوة ضد الطاغوت بكل أنواعه. جاء الإسلام بالقواعد الإنسانية لتوجيه الإنسان في كل ميادين الحياة وخط الطريق لتحقيق إنسانيته. بهذا سار الركب محافظًا على هذه المبادئ، كان يبتعد عن الخط السوي يوم تتنكب قدمه الخَطَّ الخُلُقي المُسْلم.

كان اندفاع المسلمين إلى العلوم والاهتمام بها مساويًا لنشاطهم في تحقيق الأهداف الأخرى للإسلام كالفتوحات مثلًا. إن التراث الذي قدمته حضارة الإسلام كان زاخرًا في كل ميادين المعرفة الإنسانية. إن ما كتب باللغة العربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والفلك وغيرها من العلوم والفنون، فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد فاق كل ما كُتب بأي لسان آخر.

لم تكن النِّتاجات الفكرية في حضارة الإسلام هي ثمرته الوحيدة، لكنه أوجد عقائد ومفاهيم غيّرت تصور الإنسان للحياة والكون. يُعْتَبَر الإسلامُ ثورةً

(1) ملخص المحاضرة التي ألقيت في الموسم الثقافي الأول بجامعة الرياض (جامعة الملك سعود) مساء الثلاثاء 19 شعبان 1387هـ (1967م). تجهز الآن لتكون ضمن بحوث هذا الكتاب (أندلسيات).

حقيقية طَلَعَ نورُها على هذه الأرض، وهو الذي كَرّمَ الإنسانَ وحقق إنسانيتَه وأضاء له الحياة. حضارة الإسلام - إذن- تشمل أيضًا كُلَّ المُثُل العملية التي عاشت في المجتمع المسلم في كل نواحي الحياة وعلى كل المستويات. إن الحضارة الحالية وحضارة الغرب بصورة خاصة أخذت دون تحفظ كثيرًا من أصولها من هذه الحضارة الإسلامية. لكنها لأسباب لم تقتبس إلا بحدود نادرة جدًّا من الجانب الحياتي العملي الاجتماعي للإسلام ومبانيه الربانية.

الحقيقة: إن أية حضارة تتخلى عن هذا الجانب الخلقي الاجتماعي ستظل حضارة عرجاء. هذا الجانب هو ما تفتقر إلى كثير منه الحضارة الحالية عمومًا وبوضوح على أقل تقدير.

الحديث في الحضارة الإسلامية لابد أن يكون أيضًا حديثًا عنها باعتبارها ثمرةً من ثمار العقيدة الإسلامية. كان المسلمون الفاتحون يحملون معهم أينما ذهبوا مبادئَهم الرفيعة وأخلاقَهم العالية ومُثُلَهم الإنسانية. كانوا كذلك يحملون معهم العلم والمدنية ويضعون بذور التقدم والحضارة الكريمة. من هنا لابد لنا حين ندرس حضارة الإسلام أن نربط هذه الحضارة بالأساس الذي قامت عليه وهو العقيدة الإسلامية الربانية الفريدة.

لابد لنا أن نفهم التاريخ الإسلامي كذلك على ضوء هذه النظرة. ليس التاريخ والحضارة إلا مظهران من مظاهر الإسلام كنظام عالمي متكامل. إن العصور الزاهرة في تاريخ الإسلام تميزت بالنِّتاج الحضاري الرائع، كانت في عين الوقت متميزة بالروح القوية الذي جعل التقدم المادي يواكب نداء المآذن زاحفًا في ركب متناسق. إن العبقرية العلمية التي حقق بها المسلمون الأولون هذه العجائب والإنجازات في شتى ميادين العلم والمعرفة، كانت تصدر من أفق منير ملتزم بالإيمان

بالله وبمثل الإسلام النيِّرة، لذلك فلا نعدو الصواب إذا ربطنا بين التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية وبين مقدار عمق هذه العقيدة وسيطرة أنظمتها على المجتمع وبين ذلك كله وبين ماجريات الأحداث والنِّتاج العلمي فيه.

اهتمام الإسلام بالإتقان في بناء الحياة الجدية في الوصول إلى الأفضل لا يحتاج إلى بيان. الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة متواترة كثيرة. اهتمام الإسلام بالعلم أمره معروف مادام الإسلام يَعْتَبِر مدادَ العلماء كدماء الشهداء.

بوحي من هذه الروح نجد أن أبا الرَّيْحان البَيْروني حينما حضرته الوفاة وجاءه أحد الزائرين دار الحديث حول بعض مسائل الميراث وطلب البيروني من زائره توضيحَها له، قال له الزائر تسأل عن هذا وأنت في هذه الحال؟ قال له البيروني: ويحك لئن أذهب إلى الله وأنا أعرفها خير من أن أذهب إليه وأنا أجهلها!!!

على هذه الأسس والمقومات بُنيت حضارة الإسلام. كانت لهذه الحضارة مراكز إشعاع عديدة تُعْتَبَر الأندلسُ أكثرها إشراقًا.

حضارة الإسلام في الأندلس هي موضوع هذا الحديث الذي سأتناول فيه بالبيان جانبين:

1 - وصف لهذه الحضارة الأندلسية.

2 - أثر هذه الحضارة على أوربا.

الأندلس (التي يسميها الباحثون الغربيون: إسبانيا الإسلامية مقابل إسبانيا المسيحية)، هي: تلك المناطق التي احتواها الإسلام من شبه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula (إسبانيا والبرتغال اليوم).

- كانت حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي لا تختلف عن بقية أوربا في الجهل والتأخر والتخلف قديمًا متوارَثًا قائمًا. لمّا كان الفتح الإسلامي لإسبانيا أزال عنها هذه الأوضاع وحمل إليها الخير والحضارة الخيرة الفاضلة.

- افتُتِحَ الأندلسُ على يد طارق بن زياد الذي أرسله موسى بن نُصَيْر والي الشَّمال الإفريقي، ذلك في نهاية القرن الأول الهجري.

- بقي الإسلام في الأندلس والمسلمون ثمانية قرون يَحيَا مجتمعُه بدين الله، حتى كان سقوط غَرناطة الذي أتى على هذا الأمر ودفع به إلى نهايته سنة 897هـ = 1492م، أما المستقبل يعلمه الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الذي بيده وَحْدَه مفاتيح الأحداث.

- مَـرَّت الأندلس خلال هذه القرون الثمانية بعهود متنوعة متباينة قوة وضعفًا. بعد الفتح الإسلامي العظيم للأندلس كانت مدة الولاة التي انتهت بقيام الإمارة بمجيء عبدالرحمن الداخل إليه سنة 138هـ = 755م. استمرت هذه المدة حتى قيام الخلافة الأندلسية التي أعلنها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 316هـ = 928م. انتهت بقيام دويلات الطوائف بعد ضياع وَحدة الأندلس وسقوط الخلافة فيه، ثم كانت الدولة المرابطية ورثتها الدولة الموحدية من أهل الشمال الإفريقي، حتى قامت دولة غرناطة التي أسسها محمد بن الأحمر التي استمرت ما يزيد على قرنين ونصف.

- لاشك أن حضارة الأندلس كانت لها جذور من الشرق الإسلامي، لكن هذه الحضارة نمت في الأندلس وتطورت في تلك الأرض الخِصبة، وأن حضارة الإسلام في الشرق أو في الغرب استفادت قبل ذلك بمقدار ما ونوعية وأمور من حضارات الأمم السابقة.

توفر في الأندلس الاستقرار السياسي وكان المجتمع الأندلسي يضم عناصر وأجناس كثيرة، كثرتها مسلمة وقلة من أصحاب الديانات الأخرى مسيحيين ويهود وغيرهم، عاشوا في مجتمع يسوده التسامح الكامل، للكفاءة والمؤهلات الاعتبار الأول. من هنا كان المجال مفتوحًا في ظهور العلماء والمفكرين من كل الأجناس ومن أتباع كافة الديانات. التسامح الإسلامي الرائع في إسبانيا الإسلامية واضح لا يحتاج إلى تأكيد، حَدَّثنا عنه بثناء كثيرٌ من الباحثين الغربيين أنفسهم، وعن طريقه أخذت أوربا شيئًا من هذا التسامح[1]، بقيت منه بعض الملامح وإن عاشت في ظاهره.

أسلمت الملايين من سكان الأندلس عن طواعية، كانت لغير المسلمين الحرية الكاملة في كل أمورهم الدينية وفي عقد مؤتمراتهم كمؤتمري إشبيلية Seville سنة 782م وقرطبة Cordoba سنة 852م[2]. كانت المصاهرات شائعة بين المسلمين وبين غيرهم سواء في الأندلس أو مع المسيحيين في خارجها، ونعني على وجه الخصوص إسبانيا المسيحية في الشمال. كما كان هذا شائعًا بين عامة الشعب كذلك كان مع حكام الأندلس.

كان عبد الرحمن الناصر حفيدًا لأميرة مسيحية من بلاد نافار Navarre في الشمال الإسباني، كم كان من أمناء سر (سكرتارية) أمراء الأندلس مسيحيين، كما كان من بعض سفرائهم من غير المسلمين أوقات عدة.

كانت في الأندلس طبقة من المسيحيين سُمّيَت: «المُسْتَعْرَبِين»[3]؛ لأنها اتخذت بإرادتها العربيةَ لغةً والتقاليدَ الإسلامية عادةً، كالختان مثلًا الذي هو

---

(1) رينو، تاريخ غزوات العرب، 156، 288. حتي، تاريخ العرب، 2/ 607. لوبون، حضارة العرب، 276-277.

(2) لوبون، 276.

(3) راجع عن هذا الاصطلاح: مؤنس، فجر الأندلس، 425-429.

عادةٌ إسلامية شرعية. تحت ظلال هذا التسامح الإسلامي امتزجت كافة القابليات للمجتمع الأندلسي. في مثل هذا النضج والاستقرار السياسي أصبحت الأندلس أكبرَ قوة سياسية وحضارية في العالم، تأتيها الوفود من كل مكان تطلب صداقتها ووُدَّها، كما يروي ذلك ابنُ حَيَّان القرطبي على ما يذكره لنا المقري في كتابه: «نفح الطيب»[1].

لا تُمْكن المقارنة بين هذه السياسة المتسامحة وبين سياسة التعصب والاضطهاد التي صُبَّت على المسلمين في الأندلس قبيل وبعد سقوط غرناطة، حيث ذُبِحَت الآلاف المسلمة التي رُفِض حتى تنصّرها لعدم الثقة بنواياها[2].

بدأت بوادر الحضارة الإسلامية في الأندلس بالظهور واضحة جلية منذ أيام عبد الرحمن الأوسط في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، استمرت في الازدهار حتى بعد سقوط الخلافة، بل وحتى نهاية الأندلس عند سقوط غرناطة سنة 1492م. كانت هذه الحضارة تشمل كُلَّ الجوانب وكافة النواحي. لم تكن تعتمد على النقل، كما يصور ذلك البعضُ جهلًا أو تجاهلًا، بل اعتمدت كليًّا على الإبداع والابتكار فقدمت للإنسان أروع المنجزات المتفردة.

حضارة تتصف بالعموم، لا بالنسبة لشمولها لنواحي المعرفة الإنسانية بل كذلك لشمولها كافة العناصر والمستويات للنساء والرجال والأطفال، حتى بَلَغَت في ذلك مرحلة عالية. يَروي لنا ياقوت الحموي في معجم البلدان حين الحديث عن مدينة شِلْبَ Silves الأندلسية (جَنوبيّ البرتغال اليوم) يقول ياقوت: «قَلَّ أن ترى

---

(1) نفح الطيب، 1/ 343.

(2) عِنَان، نهاية الأندلس، 379-390. حتي، تاريخ العرب، 2/ 659-660.

من أهلها مَن لا يقول شِعرًا ولا يعاني أدبًا، ولو مَرَرْت بالفلاح خلف فَدّانه وسألتَه عن الشعر قَرَضَ في ساعته ما اقترحتَ عليه وأي معنى طلبتَ منه»[1].

كما يَروي لنا عبد الواحد المَرّاكُشي في كتابه: المُعْجِب في تلخيص أخبار المَغْرِب، بأنه: «كان بالرَّبَض الشرقي في قرطبة 170 امرأة كلهن يَكْتُبْنَ المَصاحِفَ بالخط الكوفي»[2].

يُروى أنه كان في الأندلس أيام الحكم المستنصر (366هـ = 976م)، سبعون مكتبة عامة عامرة عدا المكتبات الخاصة للمشاهير من الرجال والنساء. بالإضافة إلى مكتبة قرطبة الرئيسة التي يقول عنها ابن حزم الأندلسي (456هـ = 1064م) بأن عدد مجلدات فهارس هذه المكتبة تَعُدّ أربعة وأربعين مجلدًا[3]، في كل مجلد خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط[4].

في الوقت الذي كانت الأندلس تحمل إمامةَ العلم والمعرفة والفهم كانت أوربا تمر في العصور المظلمة التي تسمى: العصور الوسطى (من القرن الخامس إلى الخامس عشر الميلادي). يَصف لنا صاعد الأندلسي سكانَ الأقطار الأوربية في ذلك الوقت فيقول إنهم: «أشبه بالبهائم وأن من كان منهم موغلًا في بلاد الشمال عَظُمَت أبدانُهم وابيضت ألوانُهم وانسدلت شعورُهم فعُدِموا بها دقةُ الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشى فيهم العمى والغباوة»[5].

---

(1) معجم البلدان، 3/ 357.

(2) المعجب، 372.

(3) جمهرة أنساب العرب، 100. حتي، 2/ 626، 631-633. عنان، دولة الإسلام، 2/ 457-460.

(4) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، 100. الحلة السيراء، ابن الأبار، 1/ 203.

(5) طبقات الأمم.

ازدهرت الأندلس بمكتباتها وبالمؤلفات الكثيرة التي احتوتها في مختلف العلوم والفنون. الذي وصلنا من تلك الثروة قليل أكلته الكثير من الحوادث والكوارث والنَّكَبَات، على مر القرون. يكفي أن نذكر أنه بعد سقوط غرناطة، سنة 904هـ = 1499م قام خمينس Ximénes De Cisneros مُطْران طُلَيْطُلَة Toledo بالاحتفال بحرق المخطوطات العربية الإسلامية الأندلسية في أحد ميادين غَرناطة، من المحتمل أنه أُحْرِقَ في هذا الاحتفال المنكود ما لا يقل عن مئة ألف مخطوط[1].

لا تزال بقايا هذا التراث موزعة في مكتبات الشرق والغرب، هذه البقايا تمثل ثروة ضخمة بأشد الحاجة إلى العناية والبذل لإنقاذها وبعثها إلى النور والحياة. مكتبة قصر الإسكوريال El Escorial نحو 50 كم شمال غرب مدريد، أحد الأماكن التي تضم حوالي ألفين من هذه المخطوطات التي تشمل كثيرًا من ميادين المعرفة[2].

انتقلت الحضارةُ الإسلامية إلى أوربا خلال معابر عديدة: الأندلس وصقلية والحروب الصليبية في المشرق. لعله من الصواب أن نُضيف أيضًا جَنوبيّ فرنسا وجَنوبيّ إيطاليا ومراكز الترجمة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، كذلك التجار الذين كانوا يتنقلون بين البلدان المختلفة، وصلوا إلى عدد من الأقطار الأوربية. على كل حال فإن الأندلس من أهم مَعابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

كانت في الأندلس مراكز مهمة للترجمة، كذلك في أوربا وكانت متخصصة لهذا الهدف. في مدينة طليطلة تأسست في أواسط القرن الثاني عشر

---

(1) عنان، نهاية الأندلس، 300. حتي، 2/ 658-659.

(2) عنان، الآثار الأندلسية، 434.

الميلادي مدرسة للترجمة بقيت ما يقرب من قرنين تقوم بهذا الدور، عمل فيها رجال من مختلف البلدان الأوربية[1].

تُرْجِمَ كثير من الكتب في مختلف الميادين إلى اللغة اللاتينية. يكفي أن نذكر أن جيرارد الكريموني Gerard of Cremona الإيطالي الجنسية تَرْجَم وَحْدَه إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا أندلسيًّا[2]. بذلك انتقلت هذه العلوم إلى عدد من البلدان الأوربية، كانت جامعة مونبلييه Montpellier جَنوبيّ فرنسا في القرن الثالث عشر للميلاد من المراكز المهمة في الدراسات الطبية في فرنسا، كان عدد من أساتذتها مسلمين من الأندلس باعتراف هؤلاء أنفسهم[3].

الحضارة الإسلامية في الأندلس امتدت إلى كافة الميادين، ظهر في كل منها عباقرة ومُبْدِعون شَمَلَتْ كُلَّ ألوان النشاط الفكري، إليكم هذا البيان الملخص في بعضها:

الأدب:

بَلَغَتْ الأندلسُ مكانةً عالية وأَصبح الأدبُ عامًّا بين الرجال والنساء والأطفال. لدينا أسماء لامعة كثيرة مما هو معروف، للأسف ضاع نِتاج الكثير منهم ومنهن. نُقِلَت بعض كتب الأدب إلى اللغات الأوربية وتأثر بعضُ الكتاب الأوربيين بالنِّتاج الأدبي العربي، مثل الكاتب الإسباني الكبير ثيرفانتس Cervantes ودانتي Danti الإيطالي في الكوميديا الإلهية The Divine Comedy، حتى ليقال إن

(1) حتي، 2/ 698.
(2) عاشور، المدنية الإسلامية، 65.
(3) رينو، تاريخ غزوات العرب، 296.

شكسبير Shakespeare الكاتب الإنكليزي المعروف كان متأثرًا في بعض أو أحد رواياته بالأدب العربي[1].

أَضاف الأندلسُ إلى التراث الأدبي فنونًا أدبية جديدة كالموشحات والأزجال اللذَين استُعملا في الغناء.

الفلسفة:

لَمَعَت في هذا الميدان أسماء كثيرة أمثال ابن بَاجَة الفيلسوف وابن رُشْد Averroes الذي يُعْتَبَر من أعظم فلاسفة الأندلس ترك أثرًا واضحًا في الغرب، كذلك ابن طُفَيْل صاحب قصة حَيّ بن يَقْظان التي نُقلت إلى كثير من اللغات الأوربية. تُرجمت كتب ابن رشد إلى اللاتينية، كانت آراؤه ذات تأثير بالغ على الفلسفة الأوربية في القرون الوسطى.

الجغرافية والرحلات:

للمسلمين فيهما نتاج كثير، لهم يعود الفضل في ارتياد كثير من الأماكن والبحار، كذلك سَنُّ وتشجيعُ كشف المجهول وهم الذين مهدوا الطريق إلى الرحلات الاستكشافية فيما بعد. بل وهم أصحاب النظريات والأدوات البحرية. ظهر في الأندلس عدد من الجغرافيين الذين لَمَعَت أسماؤهم وكانت لهم النتاجات القيمة كآل الرازي (المؤرخين) والبكري والعذري والإدريسي وابن بطوطة وآخرين.

فكرة كروية الأرض قال بها المسلمون وبرهنوا عليها.

ازدهرت التجارة الإسلامية وأصبح للمسلمين مراكز تجارية في بلدان غالبية سكانها غير مسلمين. كان المسلمون يتمتعون فيها بمكانة طيبة لِمَا كانوا مصدر ثقة لأولئك السكان نظرًا للمُثُل التي كانوا يتحرونها دينًا.

---

(1) عاشور، 81. حتي، 2/ 663. بامّات، دور المسلمين، 71. بالانثيا، 551.

التاريـــخ:

غدا التاريخُ عِلْمًا قائمًا بذاته، يُعْتَبَر ابنُ خلدون مؤسسَ فلسفة التاريخ، تُرجمت مقدمتُه إلى عدة لغات منها استمد بعض علماء الاجتماع عددًا من نظرياتهم الاجتماعية. بلغ المؤرخون الأندلسيون مكانة عالية مثل ابن حَيَّان والرازي وابن الخطيب وغيرهم. كان ابن حَيَّان معروفًا بطريقته النقدية التحليلية، للأسف فقد ضاعت أكثر كتبه وهي غنية.

التعليم الجامعي:

نَقَلَتْ أوربا أساليبَ التعليم وأنظمة الجامعات، في عين الوقت الذي كانت تنقل فيه العلوم الإسلامية، لاسيما من الأندلس. لعل نظام الشهادات الأوربية متطور عن نظام الإجازة العلمية[1]، وهو نظام إسلامي. كما أن بعض أنظمة التدريس واختيار الأساتذة وتقاليدها نُقِلَت إلى أوربا عن طريق الأندلس أو غيرها من معابر الحضارة الإسلامية.

كانت الأندلس مشهورة بجامعاتها في قرطبة وغَرناطة وإشبيلية وغيرها، كان للأساتذة نظام يُخْتارون على أساسه. كان يَفِدُ إلى هذه الجامعة الكثرة الكاثرة من طلبة أوربا وغيرها. وإن البابا سلفستر الثاني Sylvester II كان قد دَرَسَ في الأندلس على أيدي العلماء المسلمين ثلاث سنوات، تلقى خلالها دراسات في الرياضيات والفلك والكيمياء وأمثالها[2].

---

(1) عاشور، المدنية الإسلامية، 175.

(2) رينو، تاريخ غزوات العرب، 296. الترجمة الإنكليزية، 224.

الفلــــك:

جعل المسلمون الفلك علمًا بعيدًا عن الخرافات، ألفوا فيه الكتب الكثيرة التي تُرجمت إلى اللغات الأوربية. كان للمسلمين في الأندلس مراصد مثلًا في قرطبة وطليطلة. من الفلكيين الأندلسيين أبو القاسم المجريطي الذي تُرجمت بعض كتبه إلى اللاتينية[1]. اخترع المسلمون في الأندلس نوعًا من الساعات (الميقاته).

الرياضيـــات:

بالنسبة لهذا العلم فقد تقدم في الأندلس، أضاف المسلمون إليه كثيرًا من الأفكار والنظريات الجديدة. تأثرت أوربا به إلى حد كبير تدل على ذلك الاصطلاحات الرياضية التي لا تزال موجودة حتى اليوم. الأرقام الأوربية عربية، الصفر الذي حل مشاكل كثيرة في الرياضيات نُقل إلى أوربا من الأندلس[2].

الفيزيـــاء:

لقد وَضَعَ المسلمون كثيرًا من أسسها. إن نظرية الجاذبية لها أصل إسلامي[3]، كما أن العلماء المسلمين تحدثوا عن المغناطيسية والعدسات والبصريات وأبدعوا في هذا المجال كثيرًا.

الكيميــاء:

نَقَلَتْ أوربا من المسلمين كثيرًا من قواعدها وأصولها، الأسماء العربية التي بقيت حتى اليوم في اللغات الأوربية تشير إلى هذا التأثير[4].

---

(1) حتي، 2/ 678. لوبون، حضارة العرب، 462.

(2) عاشور، 100.

(3) عاشور، 129.

(4) عاشور، 140. لوبون، 475.

توصل المسلمون إلى عدد من الصناعات بواسطة المواد الكيمياوية في الصباغة والدباغة وصناعة المعادن. هم الذين استطاعوا لأول مرة جعل البارود مادة متفجرة دافعة قابلة لإطلاق القذائف[1].

العمارة والهندسة:

تُعْتَبَر المباني الأندلسية (التي لا يزال بعضها حتى اليوم ينطق بالمستوى الذي وصلت إليه) قمةً في فن الهندسة المعمارية الفذة[2]. للأسف فقد اندثرت بعض هذه المباني التي وصفها لنا الرحالة والجغرافيون بالأوصاف الرائعة والفنية العالية والدقة المتناهية، كقصر الزهراء الذي أنشأه الخليفة عبد الرحمن الناصر. لا تزال بدائع هذا الفن في إسبانيا بادية حتى اليوم.

الصناعة:

من أول ما يذكر في هذا الميدان صناعة الورق التي ازدهرت في الأندلس التي تُعتبر من أهم الخدمات التي أسداها المسلمون للعالم كله[3]. كما ازدهرت صناعة الفخار والفُسَيْفِساء الملونة، كذلك المنسوجات التي كانت الأندلس تحتل فيها مرتبة عالية.

الطب:

ترك لنا المسلمون في الأندلس في هذا العلم ثروة كبيرة، ظهر أطباء ماهرون منهم – على سبيل المثال- خلف بن عباس أبو القاسم الزهراوي (404هـ = 1013م)،

(1) عاشور، 141.
(2) حتي، 2/ 705. لوبون، 539.
(3) قارن: حتي، 2/ 670.

صاحب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»[1]. أورد فيه آراء جديدة تتعلق بالتشريح وإجراء بعض العمليات والأسنان والولادة.

كذلك أسرة بني زُهْر التي تخصصت في علم الطب.

يوم انتشر مرض الطاعون في أوربا في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وقف القوم هنالك حياله مستسلمين باعتباره من قضاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **فلا تجب مقاومته؟!! وضع الطبيب (الأديب المعروف) الغرناطي ابن الخطيب (776هـ = 1375م) كتابه: «مقنعة السائل عن المرض الهائل»[2]. يدافع فيه عن نظرية العدوى ويثبتها بالأدلة.**

الصيدلـــة:

أبدع المسلمون فيه كثيرًا بما قدموه من الإنجازات في هذا الميدان. رَكَّبوا الأدوية وألفوا فيها الكتب التي تُرجمت إلى اللغات الأوربية. ألف ابن البيطار بعض الكتب فيها وأورد أسماء عدد من المؤلفين في هذا العلم، تُرجم هذا الكتاب وغيره إلى اللغات الأوربية.

الزراعة والنبـــات:

دُرِسَت كثير من النباتات ووُصِفَت، وكتاب: الفلاحة ليَحيَى بن محمد ابن العَوَّام في هذا الموضوع مشهور جدًّا[3]. نَقل المسلمون إلى إسبانيا زراعة الزيتون

(1) حتي، 2/ 685. كذلك: جذوة المقتبس، الحميدي، 303 (رقم: 422). الصلة، ابن بشكوال، 1/ 231 (رقم: 372). وَصفه هؤلاء بأنه: «كان من أهل الفضل والدين والعلم وعلمُه الذي بَسَقَ (ارتفع)[يسبق] فيه علمُ الطب، وله فيه كتاب كبير مشهور كثير الفائدة محذوف الفُضول». يقول عنه ابن حزم الأندلسي: «وكتاب: التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، وقد أدركناه وشاهدناه، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لَنَصْدُقَنَّ» (نفح الطيب، 3/ 175).

(2) حتي، 2/ 684.

(3) حتي، 2/ 683.

والبرتقال والكروم والقطن وغيرها[1]. لا تزال إسبانيا تشتهر بهذه المزروعات حتى اليوم، بل وتُنْتِج من بعضها أجودَ الأنواع.

البحث العلمـــي:

كانت للمسلمين فيه الأساليب السليمة وليدة الفكر المسلم، وقد اتجه هذا الفكر إلى التعمق. كما أنهم أعطوا أهمية للتخصص في فن واحد من العلوم. البحث والتجربة نشأت في أحضان الإسلام الذي فتح الباب على مصراعيه. وإن روجر بيكون الإنكليزي Roger Bacon (1292م)، الذي يُعْتَبَر صاحب المذهب التجريبي نَقَلَ هذا المذهب إلى تلامذته من أساتذته المسلمين[2]. كما أشار بنفسه إلى ذلك.

المعنويـــات:

تأثرت أوربا إلى حد ما ببعض المعنويات الإسلامية. لعل الذي أوقفها عن تقبل أو نقل هذه المعنويات – قبولَها ونقلَها للعلوم- مأخوذاتُها عن اليونان والرومان بالإضافة إلى ما لديها من التعصب الذي كان يغذيه بعضُ رجال الدين فيها. عن المسلمين في الأندلس تعلم الأوربيون قواعد الفروسية وتقاليدها وخصالها[3].

نتيجة لهذه الأفكار التي تسربت إلى أوربا من الأندلس الإسلامية ومن غيرها بدأت أوربا تعي تدريجيًّا وتُصلح من أحوالها وأدت هذه النهضة الفكرية إلى نشأة أفكار جديدة نمت هناك شيئًا فشيئًا ومنها انطلقت أوربا إلى عصر النهضة[4]. لعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن هذه العلوم الإسلامية كانت المنطلق لأوربا

---

(1) لوبون، 274.

(2) عاشور، 95. The Making of Humanity, Robert Briffault, 200 – 201.

(3) لوبون، 278، 576.

(4) قارنوا: لوبون، 579.

إلى التقدم العلمي وكذلك إلى عدد من إصلاحاتها السياسية، وإن كنا لا ننكر بالضرورة إمكانيات وأسبابًا أخرى محلية مما يحتاج للدراسة.

لا عيب على أوربا أو غيرها في اقتباسها من الحضارة الإسلامية، الحضارة الإسلامية نفسها استفادت مما لدى الأمم الأخرى التي سبقتها - بأي مقدار واعتبار- لكن الإسلام زاد على ما اقتبسه مما كان نافعًا وأضاف إلى الحضارة مبتكرات جديدة فريدة جبارة لم يدركها الآخرون.

عن طريق الأندلس وغيرها انطلقت هذه العلوم إلى أوربا. كانت هذه المُبْدَعات شاملة لكل ميادين الفكر والمعرفة والحضارة الإنسانية.

كم كنا نتمنى لو أن حضارة الإسلام استمرت دون انتكاس، إذن لكان الإنسان قد حقق اليوم ما سيحققه بعد عدة قرون.

يومَ كان الأندلس يزخر بالعلم والمعرفة والمدارس والجامعات ويوم كانت قرطبة تمتد شوارعها أميالًا عديدة مضاءة بالمصابيح العامة، لم يكن في لندن مصباح عمومي واحد حتى بعد هذا التاريخ بسبعة قرون[1]، ويوم كانت بعض السلطات الكنسية تعتبر الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة تتمتع بالحَمَّامات الرائعة.

من هذه الحضارة الإسلامية ارتوت أوربا ونقلت إلى لغاتها المؤلفات الإسلامية التي بقيت تُدرَّس في جامعاتها عِدّةَ قرون. نحن الآن نعيش في حضارة مادية تفتقر إلى كثير من المُثُل الإسلامية الإنسانية، إننا فقراء حتى من هذه الحضارة المادية. بين أيدي المسلمين مُثُل الإسلام الرائعة التي أنشأت حضارتهم.

---

(1) حتي، 2/ 626.

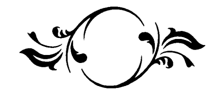
فهل لنا أن نتساءل:

- هل الإسلام لا يزال يملك القوة الدافعة المبدعة لحضارة رائعة وتقديم مجتمع نظيف؟

- وهل الأمل في أن المسلمين سيعودون لحمل راية النور؟

- الجواب سيكون بالإيجاب، إن شاء الله تعالى، إذا تدبرنا تعاليم الإسلام العظيمة واعتبرنا تاريخَه وحضارتَه المشرقة التي كان لها السَّبْقُ في كل ميدان.

- الأمل أن يعود المسلمون لحمل هذه الراية، ذلك ما يجعلنا نأمل - بعون من الله الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أن المستقبل للإسلام وللمسلمين الخلافة والتمكين والعمران في هذه الأرض.



موار د الكتاب ومراجعه (المجموعة الأولى)

أولًا- العربية:

1 - ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1963، جزءان.

2 - ابن الأبار، إعتاب الكتاب، تحقيق الدكتور صالح الأشتر، دمشق، 1961.

3 - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة، 1939، الجزء الأول.

4 - ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962.

5 - ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألّاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة، 1959.

6 - ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق كريمر J. H. Kramers ليدن، 1938، الجزء الأول.

7 - ابن حَيَّان القُرطبي، المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس، الجزء الثالث، باريس، 1937، تحقيق ملشور أنطونية Melchor M. Antuna. القسم المطبوع في بيروت (1965)، تحقيق عبد الرحمن علي الحَجِّي.

8 - ابن الخطيب، أعمال الأعلام (القسم الأندلسي)، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.

9 - ابن خلدون، العبر، بيروت، 1958، الجزء الرابع.

10 - ابن دحية الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، القاهرة، 1954.

11 - ابن سعيد المغربي، المغرب في حُلَى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة، 1953، الجزء الأول.

12 - ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول والثاني، ليدن، 1948 - 1951، تحقيق كولان وليفي بروفنسال؛ الجزء الثالث، باريس، 1930، تحقيق ليفي بروفنسال.

13 - ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، 1924.

14 - ابن القُوطِيّة، تاريخ افتتاح الأندلس، طبعة الدكتور عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1957.

15 - أبو زَهرة (محمد)، ابن حزم، القاهرة، 1954.

16 - أرسلان (شكيب)، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، فاس، 1936، الجزء الأول.

17 - الأفغاني (سعيد)، ابن حزم الأندلسي، دمشق، 1940.

18 - بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955.

19 - بامّات (حيدر)، دور المسلمين في بناء المدنية الغربية، جنيف، لا سنة للطبع.

20 - البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)، جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتابه: «المسالك والممالك»، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968.

21 - الحاجري (طه)، ابن حزم صورة أندلسية، القاهرة، لا سنة للطبع.

22 - حتي (فيليب)، تاريخ العرب (مطوّل)، بالاشتراك مع إدورد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت، 1966، الجزء الثاني.

23 - الحُمَيْدي (أبو عبد الله محمد)، جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1952.

24 - خليفة (الدكتورعبد الكريم)، ابن حزم الأندلسي (حياته وأدبه)، بيروت، 1968.

25 - دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)، الجزء الأول، القاهرة، 1933.

26 - رينو (جوزيف)، تاريخ غزوات العرب، ترجمة شكيب أرسلان، بيروت، 1966. الكتاب أصلًا بالفرنسية مترجم إلى الإنجليزية (انظر ص47 من هذا الكتاب).

27 - الزِّرِكْلي (خير الدين)، الأعلام، القاهرة، 1959، الجزء الأول والخامس.

28 - سالم (الدكتور السيد عبد العزيز)، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962.

29 - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (قسم منه) روما، 1592.

30 - شيت خطاب (اللواء الركن محمود)، قادة فتح المغرب العربي، بيروت، 1966، الجزء الأول.

31 - صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، بيروت، 1912.

32 - عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح)، المدنية الإسلامية وأثرها على أوروبا، القاهرة، 1950.

34 - عباس (الدكتور إحسان) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، 1960.

35 - عبد البديع (الدكتور لطفي)، الإسلام في إسبانيا، القاهرة، 1958.

36 - العُذْري (أحمد بن عمر بن أنس)، نصوص عن الأندلس، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965.

37 - عِنَان (محمد عبد الله)، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، 1947.

38 - عِنَان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1960، جزءان.

39 - عِنَان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، القاهرة، 1958.

40 - عِنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، 1958.

41 - فرّوخ (الدكتور عمر)، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، بيروت، 1959.

42 - الكَتَّاني (إبراهيم محمد)، " هل أثّر ابن حزم في الفكر المسيحي"، مجلّة (البيّنة)، الرباط (المغرب)، 1962، العدد الثاني.

43 - لوبون (غوستاف)، حضارة العرب، ترجمة عادل زُعَيْتر، القاهرة، 1956.

44 - لين بول (استانلي)، العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، القاهرة، 1960.

45 - محمود (الدكتور حسن أحمد)، قيام دولة المرابطين، القاهرة، 1957.

46 - المَرّاكُشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963.

47 – المَقَّري، نفح الطيب، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949، الأجزاء: الأول والثاني والثالث والرابع.

48 - مؤنس (الدكتور حسين)، فجر الأندلس، القاهرة، 1959.

49 - النُّبَاهي (أبو الحسن عبد الله)، تاريخ قضاة الأندلس، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948.

50 - هونكه (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، 1964.

51 - ياقوت الحموي، معجم البلدان (طبعة: دار بيروت - دار صادر)، بيروت، 1957، الجزء الثالث.

ثانيًا- المصادر الأجنبية:

1. De Urbel (F. J. P) Historia de Espana. Vo;. VI, Espana Cristiana (ed. R. M. Pidal), Madrid, 1956.
2. Dozy (R.), Spanish Islam 'Eng. Tr. F. G. Stokcs, London, 1913.
3. Imamuddin (S. M.), A Political History of Muslim Spain Pakistan (Dacca), 1961.
4. Levi – Provencal (E.), La Civisation Arabe en Espagne, Paris, 1961.
5. Levi – Provencal, Histoire de L'Espagne Musulmane, Paris, 1950, vols. I.II.
6- Liudprand, The Works of Liudprand of Cremona, Eng. Tr. F. A. wright, London, 1930.
7- Oliver Y Hurtado (Manuel), Discurso, no. 2, Real Academia de la Historia, Madrid, 1866, vol. III.





المجموعة الثانية

الطبعة الثانية

محققة مدققة

المحتوى



إهداء

إلى القائد المسلم

الذي كان إيمانُه بالإسلام

أَكْبَرَ مِن كُلِّ خوف

ومصلحتُه فوقَ أَيِّ شيء.

قاد أَوَّلَ جيشٍ فاتحٍ إلى أوربا

عَبْرَ المضيق

الذي حَمَلَ اسْمَهُ

والجبلَ الذي هو مِثْلُهُ

كالأسد رَابِضًا

خَلَّدَ ذِكْرَهُ بكلّ لسان... اعترافًا.

إلى الفاتح طارق بن زياد

وإلى جُنْده الميامين الذين قَدَّموا أنفُسَهم رخيصةً للعقيدة

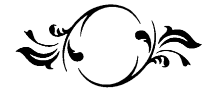
التي آمنوا بها وأحبّوها حبًّا

هانت معه حياتُهم في سبيلها

فَفُتِحَتْ لهم البلاد بعد أن فَتَحوا بالإسلام وله نفوسَهم

إليهم جميعًا وإلى إخوانهم في يومنا والغَد

أُهدي هذا العملَ الضئيل.



تقديم

أيها القارئ الكريم!

تُقَدَّم لك اليوم المجموعةُ الثانية من أَنْدَلُسِيَّات، بعد أن نُقِّحَتْ وزُوِّدَتْ بالمصادر حَسَبَ الحاجة. وكان أكثُرها قد نُشِر في صحف ومجلات مختلفة، كما هو مبيّن في الحواشي. ولعلّها بشكلها الحالي أكثرُ نفعًا وأسهلُ تناولًا.

ومِن الله عَزَّوَجَلَّ التوفيقُ والسّداد.



نقد لتمثيلية: طارق بن زياد[1]

كنتُ مِمَّن يتابع التمثيلية المسلسلة في الشهر الماضي (محـرم)، والتي كانت تقدّمها إذاعة المملكة العربية السعودية من الرياض والدمام. كانت تذاع يوميًّا على حلقات لمدّة شهر كامل. وجدتُ في هذه التمثيلية بعض الجوانب الحسنة كما وجدتُ الأخرى غير ذلك. مجرّد صياغة أحد جوانب تراثنا والتعريف بتاريخنا المجيد بالأسلوب التمثيلي حسنة، إضافة إلى إشارات لبعض النواحي الناصعة في هذا التاريخ حسنة أخرى. لكن إذا كان مؤلف القصّة قد قصد إلى سَوْق الحقائق التاريخيةِ أو فهمها، على غير وجهها فذلك قد يمحو المحاسن أو يقلبها إلى أضدادها.

قصّة طارق بن زياد - كما هو معلوم - تمثّل إحدى البطولات في التاريخ الإسلامي. طارق هو الذي قام سنة 92هـ = 711م بقيادة الجيوش الإسلامية (من عرب وبربر) من شمال إفريقيا وعَبَرَ المضيق الذي سُمِّيَ باسمه، لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) التي كان يحكمها القُوط وملكهم لُذْريق الذي اغتصب عرش إسبانيا من الملك غِيطَشَة. تمّ للمسلمين فتح شبه الجزيرة الإيبيرية (تُسَمّى في مصطلح التاريخ الإسلامي: الأندلس)، بمعاونة وتوجيه والي الشَّمال الإفريقي موسى بن نُصَيْر (الذي عَبرَ بجيشه في السنة التالية لعبور طارق) في غضون أربع سنوات أو يزيد.

(1) كانت إذاعة الرياض والدمام (المملكة العربية السعودية) قد أذاعت تمثيلية شهرية مسلسلة عن «طارق بن زياد» خلال شهر محرم 1388هـ = نيسان (أبريل) 1968م، كتبت هذا النقد حول التمثيلية التي لم يُذكر اسم كاتبها. نُشر في جريدة الجزيرة (الرياض)، العدد 195، 4 صفر 1388 = 21 مايس (مايو) 1968.

▫ لا أريد هنا أن أتعرّض إلى الإخراج، الذي على ما يبدو مقبولًا في عمومه، لأنّي ما قصدت إلى ذلك ولست من العاملين في هذا الميدان. لكن قَصَدْتُ الإشارة إلى بعض الهَفَوات - لا كلّها - التي لا أشكّ أنّه لاحظ كلّها أو بعضَها (وربما أكثر منها) عددٌ كبيرٌ من المستمعين والمستمعات الكرام.

▫ لم يُذْكَر اسمُ المُخْرج ولا المؤلّف، علمًا أنّني لم أدرك تمامًا الحكمة من ذلك، وإن كان ليس من السهل الشكّ في وجودها، لعلّه التواضع! لكن يبدو أنّ تمثيلية طارق بن زياد مُقْتَبَسَة من إحدى روايات التاريخ الإسلامي لجرجي (جورج) زيدان وهي: (فتح الأندلس)[1]. سواء كانت مقتبسة منه أو من غيره أو أُلّفتْ لهذا الغرض والمناسبة، فلا يُؤسِّس ذلك فرقًا فيما أُريد قوله هنا. إني وإن لم أكن من المشتغلين في الفنّ المسرحي، تأليفًا أو إخراجًا، فلا أَبْعُد عن الصواب إذا قرّرتُ بأنّه لا يمكن الحجر على مؤلّف التمثيليات التاريخية في استعمال خياله بإيجاد عبارات أو وضع شخصيات جانبية لأداء مهمّة معيَّنة ولربط أحداث القصة والمحافظة على تسلسلها وحَبْكتها القصصية، شريطة ألّا يُؤثِّر ذلك في الحقائق التاريخية. لكن الذي يُحْجَر على المؤلّف أشدَّ الحَجْر هو الابتعاد بالقصة التاريخية (مهما كان الهدف) عن واقعها، وعلى الأقلّ في روحها وخطوطها العامّة وشخصياتها الرئيسة. هذه واحدة، والثانية، وهي الأهمّ: إنّ التحكّم في روح القصّة والأُسُس التي قامت عليها وأوجدتها يُعْتَبَر تحريفًا - ربما ذا هدف - وتجنيًا يجب على الآخرين بيانُه، وإن أمكن إيقافُه مِن قبل المسئولين.

▫ هاتان مسألتان أو هفوتان متوفرتان في قصة (طارق بن زياد) التي نحن بصدد الحديث عنها. لكن يَحْسُن بي قبل تناول هاتين المسألتين أن أُشير إلى أنّ القصة مع

(1) ذلك ما يبدو من تصفّح الكتاب.

ذلك لا تخلو من أخطاء تاريخية لا تدلّ على إلمام كافٍ بالأندلس وتاريخه والأُسس التي قام عليها.

▪ وَرَدَ ذِكْرُ مدينة (طلبيزة) وصحتها (طَلَبِيره Talavera) قرب طُلَيْطُلَة Toledo، كذلك مدينة أسْتَجَة وصِحَّتُها إستِجَّة Ecija. كما ذكر المؤلّف أنّ موسى بن نُصَيْر حاصر مدينة (مريدة)، وهي مدينة لا وجود لها؛ ولا أشكّ في أنّ المقصود بها مدينة مَارِدَة Merida. كما أورد المؤلّف مسألة حرق طارق للسفن (وهي مسألة مشكوك فيها) وكأنّها حقيقة، يبني عليها خُطّةً عسكرية.

▪ الآن حان الوقت لمناقشة المسألتين (أو الهفوتين) اللتين سبقت الإشارة إليهما.

المسألة الأولى: وَضْعُ الشخصيات: لقد وُضعت في القصة شخصيات وهي - على ما أعلم - لا وجود لها في التاريخ الأندلسي. الذي يجعل هذا الأمر غير مقبول أنّ هذه الشخصيات - أو بعضها - رئيسة، أنطقها المؤلّف بآراء تخالف الواقع التاريخي للقصة وتتنكّب روحَها. شخصية ألفونسو، الذي جعلته التمثيلية ابن الملك المخلوع غِيطَشَة، لا وجود لها. لم يَرد له ذكر في أمّهات كتب التاريخ، بينما جعل له مؤلف التمثيلية دورًا كبيرًا في الأحداث، لا ندري ما إذا كان لأيّ من أبناء غِيطَشَة مثل هذا الدور.

▪ أهمّ من هذا شخصيةٌ أخرى فَرَضَها المؤلف فرضًا قَسْرِيًّا هي: الزهراء بنت موسى بن نُصَيْر، ليس لها وجود، لم يَرِد لها ذِكْرٌ في أيٍّ من كتب التاريخ التي بأيدينا. لكنّ الأهمّ أنّ المؤلّف جعل لها دورًا مهمًّا يَدَعُ التاريخَ مُحَرَّفًا. يُظْهِر أنّ أباها (موسى) أقنع طارق بن زياد بقيادة الجيش لفتح إسبانيا وأغراه بمكافأته بتزويجه من الزهراء (الشخصية الوهمية)؛ ليضمن إخلاصه. كأنّ هذا هو الدافع لطارق

الذي ألهب حماسه. يقول في التمثيلية (بعد فتح طُلَيْطُلَة): «ماذا تفيد طارق مدينةُ طليطلة ومدينتُه المحبّبة بعيدة عنه» (يعني الزهراء). ألا يُعطي هذا صورة المُساوَمَة؟ أين نذهب بإسلام طارق وحماسته لنشر هذا الدين بتجرّده من كلّ هدف غير مستقبل الإسلام؟ تذهب الزهراء بصحبة أبيها إلى الأندلس وتؤدّي دورها في عمليات الفتوح، لكن دوافعها تكاد تتركّز في حبّها لطارق ليس إلّا! إنّ الذي دفع هؤلاء جميعًا إلى هذه الأعمال المجيدة هو الحبّ والغرام؟ نعم إنّه الحب، لكنّه حبّ الله ورسوله والتفاني في سبيل الدعوة الإسلامية ونشرها ليس إلّا.

ثمّ إنّ عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر (واسمه في التمثيلية لحكمة ما نجهلها: عُزَيْز، بالتصغير) حين يذهب إلى إسبانيا بعد انتصار المسلمين وقَتْل لُذْريق ملك القُوط، يَرى (عبد العزيز) زوجةَ الملك المقتول لأوّل مرّة فيُؤْخَذ بجمالها ويحبّها حبًّا يسيطر عليه، تُحِسُّ بذلك أختُه (الزهراء) كما يُحِسُّ هو بتعلّقها الشديد بطارق. يبدأ الإثنان (عبد العزيز والزهراء) بالحديث، كلّ منهما عن حبّه؛ يا للعجب! هل كانا في رحلة غرام؟! فوق الكلّ أنّه لا وجود له في واقع التاريخ.

لا تخلو التمثيلية في أكثر من موقف لبيان دور الإسلام في هذه الفتوح وغايته وراء ذلك، كما تبيّن أنّ موسى لم يكن متحمّسًا لمجد شخصي وإنّما لأنّه أحبّ الإنسانية أكثر من حبّه للمجد والشهرة. لكن لماذا هذا التحويل؟ لماذا وُضِعَتْ الإنسانيةُ بديلًا للإسلام؟ وهل كالإسلام (أو غيرُه) عَرَف قيمة الإنسان ودعى وحقّق إنسانيتَه بصدق وجدّية ومثالية ونظافة في الهدف والوسيلة سواء بسواء؟ بعد ذلك أليس الإسلام أوسعَ وأنصع وأكرم وأعظم من كلّ هذه العبارات ومدلولاتها؟ فهل يريد المؤلف تمييع الاتِّجاه الإسلامي في هذه القصّة؟ التي لولا الإسلام لما كان لها وجود أيّ وجود.

المسألة الثانية: أخطر وأبعد أثرًا. إنّ مؤلف التمثيلية وإن كان يَذكر أحيانًا الإسلام كدافع لهذا الفتح المبين، لكنه يبدو وكأنّه يداري أو يفتعل ذلك وبأسلوب مُؤَوَّل؛ فيُنْطِق موسى: «تَحَرَّرْنا من أنانيتنا فانتصرنا». لكن حتى لو كان الأمر كذلك- لو مرّة واحدة - كيف ومن ذا الذي حرّرهم من هذه الأنانِيَّة؟ أليس الإسلام وَحْدَه؟ لماذا إذن لا نَذْكُره؟

المؤلّف يُكثر من نِسْبَة هذا الفتح وربط هذا المجد والمُثُل لا إلى الإسلام (إلا ما ندر)، ولكن إلى العروبة يصف هذا الفتح بأنّه عربي. ليس سرًّا أنّ حَمَلَةَ الإسلام الأوائل كانوا من العرب، لكن ذلك كان على أساس إسلامي غير مختلِط أبدًا بقومية معيّنة. عِلْمًا بأنّ أوّل مَن قاوم الإسلام وشَهَرَ السيفَ في وجهه هم قريش قِمّةُ العرب. ليست المسألة إذن مسألة قومية أيّة قومية، إنّما هي مسألة إسلام وإسلام وَحْدَه فقط.

يقول موسى (في التمثيلية) في المحاجة حين وجوده في إسبانيا: «لا يَخشى العربي في الدنيا إلَّا الحقّ وألَّا يكون على حقّ». فهل هذا حقيقة في ذاته وفي التاريخ؟ إذا صَحَّ فمتى كان ذلك؟ يخاطِبُ أحدُهم موسى بقوله: «أيها القائد العربي..». حين يخاطب موسى الجند (على ما أذكر) يقول لهم: «يا جنود العروبة»!!! لا يشكّ أحد أنّ موسى لو خاطب جنده بهذه العبارة لاستغربوه منه، بل لأنكروه عليه، لا بل لاستنكره هو من نفسه؛ لَمّا وَلِيَ القيادة؛ لأنّ الفاتحين لم يكونوا كلّهم من العرب، كان كثير من آلافهم من البربر جَمَّعهم الإسلام وألّف بينهم، ما كانوا مطلقًا يتنادَوْن بقوميةٍ ما، وما وَجَدْنا في أيّ خُطبة أو وصية أو أيٍّ من توجيهات القادة خلال الفتوحات الإسلامية أيّة إشارة أو إشادة بالقومية، لم يكن الافتخار وإثارة الحماس أو الخطاب على أساس الجنس، كذا في فتح الأندلس. كيف والله

تعالى يقول: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران،103).

ثمّ ما الداعي لهذا المَزْج المُرَقّع حين تقول الزهراء: «إنّ طارقًا خَدَمَ الإسلام والعروبة». هل العروبة شرطُ الإسلام أو العكس! وهل هما صِنوان لا وجود لأحدهما بدون الآخر؟ حين يقول طارق لموسى: «لستُ إلّا عاملًا تحت لوائك ولواء العروبة والإسلام»، إنّ المؤلف يذكر مرّةً الإسلام أوّلًا ثمّ يذكر العروبة قبله مرّة أخرى.

لا أدري لماذا جعل المؤلف (في العبارة الأخيرة) بدل اللواء الواحد (لواء الإسلام) ثلاثة ألوية: لواء موسى ولواء العروبة كذلك؟ هنا أطالب المؤلّف (إن كان حيًّا، ومَن أعدّها للإذاعة) أن يأتي - تأييدًا لما ذهب إليه - بأقوالٍ تاريخية لهؤلاء القادة يبيّن أنّهم كانوا يتخاطبون بالعروبة ويعملون بدافع قومي، وإلّا فإنّه مَحْض اختلاق. ثمّ يذهب المؤلّف إلى أبعد من ذلك حين يقول على لسان الزهراء عن سجن طارق (مسألة مشكوك فيها): «إنّ طارقًا أوّل عربي يدخل السجون». لو سمعها طارق لرفض الزواج المزعوم من الزهراء، بل لأقام الدعوى ضد قائليها. فهل كان طارق يسعى ويجاهد ليرفع رايةَ العروبة؟ أليس هذا تَجَنيًا، وما هو الدافع؟ بل أليس في ذلك اتهامٌ لطارق في إسلامه؟ العجب في هذا أنّ طارقًا لم يكن عربيًّا يومًا ما، وليس بين جميع المؤرخين الذين اختلفوا في أصله من ادّعى بأنّه عربي! الاختلاف في أنّه بربري أو فارسي الأصل، الأرجح أو الثابت أنّه بربري [من قبيلة نَفْزَة]. لكنّ طارقًا لم يصف نفسه أو ينسبها إلى العروبة أو غيرها، بل كان يفخر فقط بأنّه مسلم وكفى.

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تَميمِ

﴿ لا أريد أن أنفي كلّ حسنة عن هذه التمثيلية، لكني أقول إنّ فيها أخطاءً أساسية وفي القواعد، أخطاء تجعلنا نرفضها لأنّها تخالف روح الإسلام وواقعه التاريخي. لا أدري لماذا يحاول البعض أن يُلْبِس الأحداثَ الإسلامية أثوابًا مستعارة ويعطي مفاخر الإسلام لغيره، فهل نخجل من إسلامنا أم نشعر بالضعف والنقص معه، فنعمل على استعارة عناصر قوّة أخرى؟ بينما الإسلام هو أساس ومصدر القوّة، كلّ القوّة الخيِّرة. وبه لا بغيره ومن أجله كان الفتح الإسلامي للأندلس وغير الأندلس، ما عدا الإسلام لا يبدو أمامه إلّا ضعيفًا متصاغرًا. يوم فَقَدَ المسلمون من إسلامهم أي قدر فقدوا عناصر القوّة وأسباب البقاء وزالت عنهم العزّة ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ إنّ الإذاعة إحدى الوسائل الفعّالة في التوجيه، وما من شكّ في أنّ حضرات المسئولين يُدركون أكثر من غيرهم هذه الفاعلية، لذا فمسئوليتهم أكبر من غيرهم. المفروض أنّهم واعون لها أمناء عليها، وأنّهم كذلك حريصون على تصوير الإسلام بكلّ جوانبه (ومنها التاريخية) بخصائصه الرائعة وصورته الربانية وكما بلّغها رسول الله الأمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليستيقن المسلمون (من العرب وغير العرب) أنّه مهما طلبوا العزّة في غير الإسلام أذلّهم الله، وأنّ عزّتهم بالإسلام وبالإسلام وَحْدَه لا غير.



الأَقليات غير الإسلامية
في المجتمع الأندلسي[1]

أصل كلمة الأندلس تاريخيًّا مأخوذ من «فاندلسيا Vandalusia» أي بلد الوَندال Vandals الذين احتلّوا إسبانيا قبل القُوط[2]. أمّا مدلول الأندلس الجغرافي فيعني كلّ ما كان يمثل التواجد الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم)؛ ذلك بعد الفتح الإسلامي لإسبانيا التي كانت محكومة من قِبَل القُوط بعد الوَنْدال والرومان في ما مضى من القرون.

كان فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد. هو وأكثر جنده كانوا من الإخوة البربر، سكان الشَّمال الإفريقي، الذين آمنوا بالإسلام وتحمّسوا لنشره بما لا يقلّ عن تحمّس المسلمين من العرب الذين حملوا الإسلام إلى هناك. أول معركة كبيرة خاضها طارق في عمليات الفتح كانت في شهر رمضان المبارك: شهر الغفران. هو من وجهة نظر التاريخ الإسلامي شهر الفُتوحات. فيه كانت معركة بدر الكبرى: معركة الفرقان، وغيرها من المعارك.

في 28 رمضان سنة 92هـ = 4/27/(أو نحو 7/20/)711م التقى جيش الإسلام بجيش القُوط بقيادة ملكهم لُذْريق، في جنوبي إسبانيا في السهل الواقع بين نهري وادي لَكُهْ والبَرْبَاط Barbate، استمرت المعركة سبعة أيام. كان عدد جيش

---

(1) المحاضرة التي ألقيت في نادي الشباب الرياضي (الرياض ـ السعودية) مساء الاثنين 19 رمضان 1388. نشرت في جريدة «الجزيرة» (الرياض)، العدد 226، 11 شوال 1388 = 31/ 12/ 1968م. ثمّ نُقِّحت وزُوِّدت بالمصادر ونُشرت بشكلها الحالي (تقريبًا) في مجلة «رابطة العالم الإسلامي»، العدد العاشر، السنة السادسة، ذي الحجة 1388 = / 2/ 1969م.

(2) دولة الإسلام في الأَندلس، محمد عبد الله عِنَان، 1/ 27، 50.

القُوط يتراوح - حسب الروايات - بين أربعين ومئة ألف[1] أو يزيدون. كان عدد الجيش الإسلامي - دون خلاف - اثني عشر ألفًا. كان عيدُ فطر المسلمين سعيدًا بما فتح الله عليهم من النصر المبين بفضل عقيدتهم الفضلى وتمسّكهم المخلص بها. استمرّت عمليات الفتوح الإسلامية لإسبانيا حوالي أربع سنوات أو زيادة[2].

استقرّ الحكم الإسلامي وأركانه وأوضاعه في الأندلس تدريجيًّا، استمرّ المسلمون هناك ثمانية قرون حتى سقوط مملكة غَرناطة سنة 897هـ = 1492م. تقلّبت الأندلس خلال هذه القرون في عُهودٍ: كان أوّلها- بعد الفتح – عهد الولاة. ثمّ أقام عبد الرحمن الداخل دولة وَرِثَ حكمَها أبناؤه حتى نهاية القرن الرابع الهجري بسقوط الدولة العامرية، ثمّ كان قيام دول الطوائف فحكم المرابطين فالموحدين، ثمّ مملكة غرناطة آخر حصن للإسلام هناك.

كانت تُجاور الأندلس في الشَّمال دول إسبانيا المسيحية التي نَمَت تدريجيًّا. يليها خلف جبال البُرْت Pyrenees دولة الفِرَنْجَة. تقلّب المسلمون خلال هذه المدّة في عهود مضيئة وأخرى قاتمة، مستقرّة وثانية مضطربة، قوية منتصرة وضعيفة متخاذلة تارة أخرى. كان الجانب المُشرق متوفّرًا يوم نرى السيادة للقيم والمفاهيم الإسلامية والعكس بضمورها أو ذَهابها.

ليس للأندلس المفهوم الجغرافي الذي ذكرناه فقط بل الأندلس تراث وحضارة وتاريخ، كما هو شمول لمختلف العناصر البشرية التي ضَمَّها واستظلّت بظلّ الإسلام فيه.

---

(1) دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 42.

(2) انظروا تفصيل ذلك، في: التاريخ الأندلسي*، 51 وبعدها.

عناصر المجتمع الأندلسي البشرية تنقسم قسمين[1]: المسلمون وغير المسلمين. المسلمون مختلف الأجناس: العرب والبربر، هؤلاء دخلوا الأندلس فاتحين أو وافدين بعد ذلك؛ ثمّ الإسبان الذين دخلوا الإسلام ويُسَمَّوْنَ: المَسَالِمَةُ. كما أُطلق على أولادهم الذين وُلِدُوا مسلمين اسم: مُوَلَّدُونَ، يمثّلون أكثرية المسلمين في الأندلس؛ ثمّ الصَّقالبة الذين جُلبوا إلى الأندلس صغارًا من مختلف الأقطار الأوروبية. هذه العناصر هي المكوّنة للشعب المسلم في الأندلس. كانت تعيش مع المسلمين في الأندلس فئات غير إسلامية: موضوع هذا البحث. تتمثّل هذه الفئات أو الأقليات غير الإسلامية في الأندلس من: اليهود والمسيحيين الذين يمثّلون غالبية غير المسلمين في الأندلس. كانوا خليطًا من القُوط والرومان والإسبان أهلِ البلاد الأصليين الذين يُسَمَّوْنَ أيضًا بالإيبيريين. كما كانت هناك قِلّة من جماعات وثنية لعلّها ذابت فيما بعد أو تحوّلت إلى الإسلام.

سيشمل حديثنا إذًا هذه الجماعات غير الإسلامية، لكن أحيانًا سيكون الحديث أكثره منصبًّا على النصارى فذلك لأنّهم الأكثرية (من بين غير المسلمين)، من باب التغليب كما يقول اللغويون. إنّ ما يقال عن المسيحيين شامل لغيرهم من هذه الأقليات.

حينما نتحدّث عن وضع الأقليات ومعاملتِهم من قِبَل المسلمين مجتمعًا وحاكمين الذين يمثّلون الأكثرية الكثيرة في المجتمع الأندلسي فإنّنا في الحقيقة نتحدّث عن أحد جوانب الإسلام وحضارته من الوجهة العملية التطبيقية. بصورة عامة حديثنا عن تاريخ أيّة دولة إسلامية في نفس الوقت بيان لصورة الإسلام الواقعية العملية حين تكون ملتزمة به.

---

(1) انظروا: التاريخ الأندلسي*، 283.

التاريخ الإسلامي هو صورة الإسلام الواقعية، حين يُلتزَم به. لذلك فإنّ هذا الأسلوب والتعامل الذي ساس به المسلمون مَن عايشهم من غير المسلمين في المجتمع الأندلسي ليس مقصورًا على الأندلس وَحْدَها، بل هو الأسلوب والطريق الإسلامي في كلّ بقعة أو دولة مسلمة ما دام له الالتزام، الشواهد على ذلك لا تُحصى لكثرتها. بل إنّه حَدَثَ في بعض البقاع أنّ المسلمين كانوا يمثّلون الأقلية وكانت الأكثرية تَنتخب حاكمَها من المسلمين، تُوَلّيه عليها أو في شؤونها أو إذا أسلم تُبقيه في السلطة التي كانت له قبل إسلامه[1]؛ نتيجةً لِمَا لَمَسُوه من المُثُل العُليا والتعاليم الفاضلة التي ترجمها المسلمون واقعًا في كلّ تصرّفاتهم يوم كانوا حقًّا مسلمين. الهبوط في التطبيقات الإسلامية في الواقع الاجتماعي العملي يقابله هبوط في التمسّك بالإسلام وهو نتيجةٌ له.

على هذه الأضواء أرجو أن يُفْهَم ما سيكون في الحديث التالي عن الأقليات في المجتمع الأندلسي. منذ بدايات الفتح الإسلامي اتّسمت معاملة المسلمين لغيرهم من أهل البلاد المفتوحة بالتسامح التام الذي أشاد به غير المسلمين وكثير من المؤرخين الأوربيين[2]. تدلّنا على ذلك الأفواج التي دخلت الدين الإسلامي تباعًا برضا واختيار، حيث ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة، 256).

كما بقي بعضهم على دينه القديم وعاشوا بين المسلمين، لم يهجروا الأندلس إلى إسبانيا الشَّمالية مثلًا، حيث وَجَدوا كلّ ما يأملون من حرية وتسامح يفوق ما نجده في أيّ مجتمع معاصر اليوم، كلّ ذلك مع الصدق في الشعور والرغبة الجدية في تطبيق هذه المعاملة والمحافظة عليها.

---

(1) الإسلام في الشرق الأقصى، أديب مخوّل، 22، 40، 42، 45، 49 ـ 52، 59، 95. المدنية الإسلامية، عاشور، 126، 206 ـ 208.

(2) تاريخ غزوات العرب، رينو، 156، 288 ـ 291. قصة العرب في إسبانيا، لين بول، 72.

لقد تبنّى غير المسلمين - نتيجة لهذه السياسة - العادات الإسلامية واللغة العربية، كما يتبيّن لنا بعد حين.

كانت تلك سياسة المسلمين خلال الفتح وبَعْدَه، حين استقرّوا في البلاد وأقاموا مجتمعهم. حديثنا يشمل فقط أولئك الذين ارتضوا البقاء في المجتمع الإسلامي، ممن لم يُسلم، يُعايشون المسلمين في حياتهم كان هؤلاء نصارى في أغلبهم. نستطيع أن نلمس سياسة التسامح الإسلامية لهذه الأقليات في المظاهر التالية:

المظهر الأول: يتمثّل في احترام المسلمين للنصارى وغيرهم في المعاملات والمجاملات. لم يتدخّل المسلمون في شيء من عقائدهم، تُرك لهم يعيشون عيشتهم كما تُركت لهم الحرية الواسعة في قضائهم الخاص وحريتهم الدينية من الأديرة والأُسقفيات والمطرانيات (الأَبرشيات). لقد كان حول قُرطبة وَحْدَها في عهد ما من أيام الحُكْم الإسلامي في الأندلس أكثر من خمسة عشر ديرًا[1]. كما أبقى المسلمون جميعَ أماكن العبادة لغيرهم التي كانت قبل مجيئهم، لم يُهدم منها إلّا ما كان في المناطق التي اعتنق كافة أهلها الإسلام.

رأينا هذا الأسلوب منذ الوقت المبكّر، عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر أعطى الأمان والحقوق خلال عمليات الفتح الإسلامي لتُدْمِير صاحب مدينة أُرْيُولَة Orihuela. جاء في هذا الكتاب الذي كتبه عبد العزيز له: «بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر لتُدْمِير بن عَبْدوش أنّه نزل على الصلح وأنّ له عهدَ الله وذمّته وذمّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ألَّا يُقَدّم له ولا لأحد من أصحابه ولا يُؤَخّر ولا يُنْزَع من مُلكه، وأنّهم لا يُقتلون ولا يُسبون ولا يُفرّق بينهم

---

(1) العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، فروخ، 179 وبعدها. تاريخ المسلمين وآثارُهم في الأندلس، الدكتور سالم، 131. الإسلام في إسبانيا، الدكتور لطفي عبد البديع، 27.

وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا تُحرق كنائسهم، ولا يُنزع عن كنائسه ما يعبد، وذلك ما أدّى الذي اشترطنا عليه...»[1].

بل إنّ المسلمين سَمَحُوا لهم ببناء كنائس جديدة وما يريدون من الأديرة. كانوا يَقْرَعون نَواقِيسَهم رغم ما كان يُسَبِّبه هذا من إزعاج للمسلمين. أين هذا من تعصّب الإسبان حاليًا في عدم السماح بإقامة مسجد في إسبانيا [تغير الحال الآن]، وامتعاض بعض الرهبان الذين رأوا أحد ملوك المسلمين في مسجد قرطبة يصلّي فيه تحية؟ المرجو أن توافق الدولة الإسبانية على إقامة مسجد للمسلمين في عاصمتها[2].

في قرع النواقيس دلالة واضحة على تسامح المسلمين وإعطاء النصارى الحرية التامة في إقامة شعائرهم. يذكر ذلك ابن حزم في إحدى قصائده في كتابه: طَوْق الحمامة يقول[3]:

أَتَـيْـتَـنِي وهـلالُ الجـوّ مُـطَّـلِـعٌ   قُـبيـل قَـرْع الـنـصارى للنواقيسِ

بَلَغَ من تسامح المسلمين أنّهم سمحوا للأساقفة المسيحيين بعقد مؤتمراتهم ومجامعهم الدينية، كمجمع إشبيلية الذي عقد سنة 166هـ = 782م ومجمع قرطبة سنة 238هـ = 852م، إضافة إلى أنّ إسبانيا الإسلامية (الأندلس) «كانت البلد الأوروبي الوحيد في العصور الوسطى الذي تمتّع فيه اليهود بحقوقهم كاملة.. كما تمتّعوا برعاية الدولة لهم»[4].

---

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم، 116. انظروا: التاريخ الأندلسي*، 80 وبعدها.

(2) تمّ ذلك الآن والحمد لله ربّ العالمين. هكذا لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفتح بذلك لدينه القلوب للقبول، يؤدي المسلمون دورهم فيه.

(3) طوق الحمامة، 133.

(4) المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، الدكتور عاشور، 28.

نتيجة لهذا التسامح المثالي بكافّة الأبعاد اتخذ هؤلاء المسيحيون أو أكثرهم (وكذلك اليهود) العربية لغةً لهم وأتقنوها وجعلوا يكتبون بها خيرًا ممّا يفعلون مع لغتهم اللاتينية. كما أنّهم اتخذوا العادات الإسلامية ومارسوا أفكار المسلمين وتقاليدهم في ملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم وحتى في أسمائهم. بل إنّ بعضهم امتنع عن أكل لحم الخنزير ومارس الختان[1] وهو عادة إسلامية. لذلك نجد في النصف الأول من القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي انتشرت بين الإسبان النصارى، الذين سُمّوا بـ«المُسْتَعْرَبِينَ»، اللغة العربية والعادات الإسلامية انتشارًا واسعًا وعميقًا مما حَمَلَ أَحَدَ النصارى المعاصرين هو الفارو القُرطبي أن يكتب وثيقة سنة 240هـ= 854م بُعيد حُكْم الأمير عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، 238هـ = 852م، يصف فيها الذعر الذي أصاب بعض الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية. يذكر كيف أنّ شُبّان النصارى يتقنون اللغة العربية بفصاحة ويقتنون مؤلفاتها ويدرسونها في حين أنّهم يجهلون آداب الكنيسة ولغتهم اللاتينية[2]. مخطوطة في مدريد - حيث هذه الوثيقة - كُتبت في إهداء الكتاب أبيات منها[3].

كتابٌ لعبد المالك الأُسْقُف النَّدْبِ جَوادٌ نبيلُ الرِّفد في الزمن الجَدْبِ

هذا على الرغم من أنّ غير المسلمين كانوا أحرارًا في تعليمهم ومعاهد تدريسهم. العجيب المدهش أنّ تسامح المسلمين هذا أثار سُخْطَ بعض النفوس المتعصّبة من المسيحيين فقاموا بحركة رَفَضَتْ هذا التسامحَ وطالبت بإحلال الاضطهاد لهم ولِبَنِي دينهم مَحلَّه. وتُسمّى هذه الحركة بحركة الاستشهاد[4]،

---

(1) تاريخ غزوات العرب، رينو، 231، 291.

(2) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 1/ 269 ؛ تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا، 485. كذلك انظر: أدناه، 59.

(3) تاريخ الفكر الأندلسي، 486.

(4) عنها انظروا: التاريخ الأندلسي*، 242 - 243.

حدثت أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط. لكن هل هذه الحركة كانت نتيجة للحقد على الإسلام وعلى المجد الذي حقّقه وانخراط الكثيرين تحت لوائه ورضا من لم يَنْضَو تحت لوائه بالعيش مع أهله مختارًا متمثِّلًا عاداتهم؟ كان في ذلك إشارة ضد المسلمين لتغبيش وتعكير هذا الجوّ الصافي التسامحي؟

أو هل حياة هذه الفئة المتعصّبة كانت لا بدّ أن تكون مليئة بالحزن وتعذيب الإنسان نفسه، أو مِن قِبَل غيره، تلذّذًا وذلك أفضل عندهم لإظهار مقدار الثبات والإخلاص للفوز بتطهير الجسد لإنعاش الروح؟ أو الغاية الجَمْعُ بين هذه الأهداف؟

أطلق بعض مؤرخي الغرب على هذه الحركة اسم: «الانتحار الديني»[1]، حيث تجنّب هؤلاء عمدًا طريق الإنجيل ونبذوا تعاليم السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرادوا هم أن يثيروا المسلمين لتعذيبهم. سَعَوْا إلى إثارة المسلمين لشنّ حملة اضطهاد ضد المسيحيين. الذي قاد كِبرَ هذه الحملة هو الراهبُ يولوجيوس (أولوخيو Eulogius). كانوا يَدعون ويحرضون المسيحيين على شتم الإسلام وسبّ الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علنًا في كلّ مكان، حتى كانوا يتعمّدون الوقوفَ على أبواب المساجد في أوقات الصلوات حين يخرج المسلمون لإسماعهم هذا القذف الجنوني[2].

كان أيضًا ممن اشتهر في هذه الأحداث فتاة مسيحية اسمها (فلورا Flora)، كان أبوها مسلمًا وأمّها نصرانية نشّأتها سرًّا على دينها. بهذا يُشار إلى أهمية التربية البيتية بإشراف الأمومة عليها. أُعدم نفر من المسيحيين في هذه

---

(1) قصة العرب في إسبانيا، لين بول، 73.

(2) Imamuddin, A Political History of Muslim Spain, P. 68.

الأحداث بعد أن أصرّوا على هذا القذف أمام القاضي الذي ألحّ عليهم بالتنازل عمّا قالوه، لكنّهم جددوا الشتائم والقذف أمامه. من ذلك أنّ راهبًا يدعى إسحاق طلب مقابلة القاضي بحجة الدخول في الإسلام، ما كاد القاضي ينتهي من شرح مبادئ الإسلام وأصوله حتى انصبّ هذا الراهب لَعْنًا على الإسلام ونبيّه ﷺ بأقذر الشتائم والسباب[1].

كان أن عُولِجَتْ هذه المسألة بمنتهى الحكمة. ذلك بأن دَعى عبدُ الرحمن الأوسط إلى عقد مجلس الأساقفة الذي أصدر قراره باستنكار هذه الحوادث[2]. انتهت بعد ذلك هذه الأحداث إلى غير رجعة ولم يشارك فيها إلا قليل من الناس استُهجن عملُهم وإسهامهم فيها. أما غالبية المُسْتَعْرَبين النصارى فقد عابوا ذلك ورفضوه.

كان لهؤلاء المُسْتَعْرَبين دَوْر مهم في نقل العلوم الإسلامية إلى إسبانيا الشَّمالية[3]، ربما لبقية أوروبا. كان حين يأتي بعض ملوك إسبانيا الشَّمالية قادمًا إلى قُرطبة في وفد رسمي يُستدعى أَحَدُ المُسْتَعْرَبين لمرافقته. من ذلك أن أوردونيو الرابع Ordoño IV ملك مملكة ليون León وَفَدَ على الخليفة المستنصر وكان عُبَيْد الله بن قاسم مُطران طُلَيْطُلةَ (عاصمة القوط القديمة) ممن رافقه في هذه السفارة ليعرّفوه ويبصّروه بآداب مقابلة الخليفة والمراسيم المطلوبة[4].

---

(1) قصة العرب في إسبانيا، لين بول، 78.

(2) دولة الإسلام، عنان، 1/ 271 ـ 272. تاريخ المسلمين وآثارهم، الدكتور سالم، 242. قارن: قصة العرب في إسبانيا، لين بول، 81.

(3) الإسلام في إسبانيا، الدكتور لُطفي عبد البديع، 30.

(4) الإسلام في إسبانيا، 28.

المظهر الثاني: المظهر الثاني من مظاهر التسامح شيوع التصاهر بين المسلمين والمسيحيين، حيث تزوج كثير من المسلمين بمسيحيات كان ذلك (أحيانًا) أمرًا اعتياديًّا في الأندلس ومع دول إسبانيا الشَّمالية. من ذلك أن عبد العزيز بن موسى ابن نُصَيْر تزوج من زوجة لُذْرِيق التي تسميها الرواية الإسلامية: «أم عاصم»[1]. كذلك المنصور بن أبي عامر تزوج من أميرة نافارية تسمى «عَبْدَة»[2]. كانت زوجة الحَكَم المستنصر كذلك واسمها «صُبْح»، أم هِشام المُؤَيَّد. لم يكن عبد الرحمن الناصر أعظم خليفة أندلسي إلا حفيد أميرة من الشَّمال الإسباني[3].

المظهر الثالث: المظهر الثالث هو أن الدول المسيحية في الشَّمال الإسباني لم تجد حجة ولم يَذكر لنا أحد من المؤرخين أنها قامت مُطالَبة بحماية الرعايا المسيحيين. كذلك لم تفعل الدولة الفِرَنْجية التي كانت تتربص أحيانًا الفرص بالأندلس. ليس ببعيد عنا خبر حملة شارلمان بجيش ضخم على الأندلس سنة 161هـ = 778م وتوغله فيها أَمَلًا في القضاء على سلطة قرطبة الإسلامية، لكنه عاد خائبًا. لكننا نجد أن الأمر على العكس، حيث إن الدول المسيحية في شَماليِّ إسبانيا كانت تتقرب إلى الأندلس وتوسطها في قضاياها وتُحَكِّمُهَا في خصوماتها وإن الناصر لم يستغل هذه الدول وتفرقَها في مهاجمتها والقضاء عليها. نكاد لا نعثر على مَثَلٍ واحد يشير إلى أن المسلمين بدأوا بالاعتداء على هذه الدول رغم تفوقهم في كل شيء.

---

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم، 113. تاريخ غزوات العرب، رينو، 59، 116.
(2) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 583.
(3) راجع: أندلسيات (المجموعة الأولى)، 74.

المظهر الرابع: يتمثل المظهر الرابع في إبقاء اليهود والنصارى على دينهم، آمنين مسرورين متمتعين، بأقصى ما يمكن أن يَحْلُموا به من الحقوق العامة لو كانوا مقيمين في مجتمع خاضع إلى مثل دينهم.

المظهر الخامس: إن الأقليات كانت تُعامَل على قَدم المساواة مع المسلمين في الأمور العامة، حتى أن منهم مَن وصل إلى المناصب العالية؛ لأن سياسة الإسلام تقوم على الكفاءة، عمومًا الأفضلية لأهله.

إن من النصارى (أو غيرهم) مَن كان يعمل في القصر الملكي وفي حرسه ومنهم من شغل منصب السكرتارية فيه ومنهم من كان يُعيَّن في سفارة إلى دولة أخرى مُمَثِّلاً لخلافة قرطبة[1]. من ذلك السفارة التي أرسلها الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الإمبراطور الألماني أوتو الأول Otto I برئاسة راهب هو رثموندو Recemundo (ربيع بن زيد الأُسقف القُرْطُبي)[2] وإن طبيب الخليفة الناصر كان يهوديًا وهو حَسْداي بن شَبْروط[3]. لدينا في هذا الباب أمثلة أخرى.

★★★

هذه المعاملة التي رأينا صورةً مصغرةً عنها كانت رائعة ساطعة جَلَبَها الإسلامُ إلى إسبانيا مع ما جلب من المُثل والحضارة التي تَسَرّب قسم منها فيما بعد إلى إسبانيا الشَّمالية فأوروبا. كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تموج بالاضطهاد لفئات كثيرة وطبقات متعددة، أنقذها الإسلام من كل ذلك بعدله وسماحته. لكن حين سقطت الأندلس عادت إسبانيا، ربما بصورة أشد إلى الاضطهاد. لكن

---

(1) هل مثل هذه الأمور كانت تتمّ للضرورة فقط؟ إنّ البعض لا يرضى بوقوع مثل هذا في الدولة الإسلامية. انظروا: تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القُوطية، 102.

(2) تاريخ غزوات العرب، رينو، 232؛ دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 457.

(3) دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 506، 515.

لمن هذه المرة ؟ للذين أنقذوها من الاضطهاد وبكل وقاحة. السلطات الإسبانية لم تكافئ ولو بشيء بسيط الأيادي التي سَلَفَتْ لها من المسلمين. الإسبان الكنسيون بأمر محاكم التفتيش الحاقدة عدوة الإنسانية بعد سقوط غَرناطة وقبلها ذَبحوا المسلمين وهدموا مآثرهم وأحرقوا تراثهم. لو أن السلطات الإسبانية المتعصبة رَدَّتْ - بعد انتصارها وإزالة حكم المسلمين وحرب مجتمعهم - شيئًا مما أَخَذَتْ، إذًا لوجدنا حتى اليوم تعايش الديانتين متجاورتين، المئذنة إلى جانب الكنيسة قائمة هناك. لكن هيهات فكل يُنْفِقُ مما عنده. أين التسامح الإسلامي من اضطهاد رجال الكنيسة الإسبان والسلطات الإسبانية التي حَرَمَتْ مَن بَقِيَ مِن المسلمين، بعد سقوط دولتهم في الأندلس، حتى ملابسهم واستحمامهم ولغتهم وعاداتهم. بل إن المُطران خمينس Ximénes احتفل في ساحة بغرناطة بعد سقوطها بحرق مئات الآلاف من المخطوطات تعبيرًا عن تسامحه!!

لا تزال حتى الآن صور التسامح الإسلامي الساطعة تكشف عن ضلالات وسَرَاب دعايات تسامح العالم غير الإسلامي في الشرق والغرب. في روسيا حيث ذُبح وطورد المسلمون وربما غيرهم، أمريكا وبقية دول أوروبا التي اضطهدت الإسلام وحاربته ولازالت. سياسة فرنسا في الجزائر وبريطانيا في فلسطين - مثلاً - وتَعاوُنُ الجميع في إقامة إسرائيل خير دليل. سيبقى الإسلام الصبغةَ المثالية ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة، 138). يوم نتخذ صبغتَنا من هذا الدين ونُقيم عليه قواعد حياتنا سنكون أعزة ونحرر الديار: فلسطين وغيرها.

الآن رأينا كيف أن المسلمين فتحوا الأندلس في رمضان، جاهدوا وهم صائمون [أو أفطر كُلُّهم أو حتى بعضًا منهم] قَضَوْا عيدَهم يقاتلون، أقاموا بعد ذلك مجتمع المحبة والعدالة التي أَنتجت الحضارة والتراث الرفيع. أقاموا ذلك

بالإسلام. أثبت التاريخ أن عزة الأمة بالالتزام بهذا الدين، يوم يهملوه أو تركوه أو تهاونوا فيه يخرجون من تلك الدائرة المضيئة. الفضل في كل ما حققه المسلمون ابتداءً من الفتح الأندلسي العظيم وكل ما تم من إنجازات فريدة جديدة متميزة كانت بالإسلام وَحْدَه. يذكر هنا موقف آخر ملوك غرناطة وهو أبو عبد الله الصغير. حين تَرَكَ غَرناطةَ بعد سقوطها وقف خارجها عند تل البَذُول ليُلقي على غَرناطة نظرة الوداع الباكية والحسرة الدامعة، كانت معه أسرته، يُروى أن أمه عائشة الحرة الأبية قالت له هذه الكلمات، التي لم أجدها فيما توفر حتى الآن في الأمهات الأندلسية: «اِبكِ مثلَ النساء مُلكًا لم تحافظ عليه مثل الرجال». يورده البعض شعرًا:

إبـكِ مـثـلَ الـنـسـاء مُـلْـكًـا مُضاعًا لم تحـافـظ عـلـيـه مـثـلَ الـرجـالِ

عَرَضْنا في الكلام السابق صورًا جميلة لجانب من حياة المسلمين مستمدة من دينهم الذي أبلغهم العزة والقوة. رأينا كيف عاش معهم غيرُهُم بكل رضا وسرور. لازمتهم تلك الحالة بمقدار ملازمتهم لشرع الله تعالى، كلما كبوا عادوا للقيام بعد العودة إلى منهج الله تعالى، الذي وَحْدَه تكون العزة ولا شيء منها بدونه. ونشهد ذلك في أيامنا هذه قاعدة لا تنحرف ولا تتوقف ولا تنجرف. يومَ تَوَلّى المسلمون بعضهم بأي مقدار. [وإن بقي آخرون مجاهدين من أجله، فأحاط بهم الأعداء من كلّ جهة وتعاونوا على الإيقاع بهم].

ألا - أيها المسلمون - هل من وُجهة إلى الإسلام كريمة ترد لنا الحياة الكريمة؟



العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وإسبانيا الشَّمالية في المُدَّة الأُموية (138 - 366 هـ = 755 - 976م)

يشمل هذا الموضوع ثلاثة أقسام:

الأول: نظرة عامة على دول إسبانيا الشَّمالية (المسيحية) منذ نشأتها حتى سقوط الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، وعَلاقة هذه الدول مع بعضها ومع الأندلس.

الثاني: العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وهذه الدول (في إسبانيا الشَّمالية) خلال المُدَّة الأُموية.

الثالث: العَلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا الشَّمالية في المُدَّة الأُموية.



القسم الأول[1]

نظرة عامة على دول إسبانيا الشمالية (المسيحية) منذ نشأتها حتى سقوط الدول العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وعلاقة هذه الدول مع بعضها ومع الأندلس

القوات الإسلامية التي فَتَحَتْ شِبْه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم)، بقيادة فاتح الأندلس، طارق بن زياد، سنة 92 هـ = 711م بقيادة الوالي المُحَنّك، موسى بن نُصَيْر، فيما بعد سنة 93 هـ = 712م؛ هذه القوات لم تفتح شبه الجزيرة الإيبيرية قاطبة. إنها لم تُتابع الفُلُول المنهزمة أمامها من بقايا الجيش القُوطي[2] التي هَرَبَتْ إلى شَمالي إسبانيا بحثًا في جبالها عن ملجأ يَحميها من الجيوش الإسلامية المظفرة.

تَجمّعَ بعضُها شرقًا في نَبَارّة (Navarre) أو بلاد البَشْكُنْس (Basques)[3]، تحت قيادة بُطْرَه (Pedro). كما كانت هذه الإمارة قليلة الخطر والأهمية، كانت أيضًا هدفًا للقوات الإسلامية الذاهبة والآيبة من بلاد الفِرنْج فيما وراء جبال البُرت (Pyrenees). لكن مجموعة أُخرى من هذه الفُلول تجمعت في المرتفعات

(1) نُشر هذا القسم الأول، مع تفصيلات أُخرى بالإنجليزية:

Christian States in Northern Spain during the Umayyad period", THE ISLAMIC QUARTERLY, vol.IX, nos. 1 and 2 , London, 1385 – 1965)I.

(2) يبدو أنه كان من الأسباب المهمة، إن لم يكن أهمها، في عدم إتمام فتح شبه الجزيرة الإيبيرية، هو استدعاء القائدين طارق وموسى إلى دمشق من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك. راجع عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 54 المَقّري، نفح الطيب طبعة القاهرة، 1949، 1/ 258.

(3) ابن خلدون، العبر، 385/ 2/ 4.

Urbel, Historia de Espana Cristiama, VI, p 195.

الغربية، تلك المجموعة من فلول الجيش القوطي تمسكت بالمقاومة مدة وكادت تذوب محاولة بين آونة وأخرى بدوافع عدائية مُعانَة بما يأتيها من مدد خلف جبال البُرْت، كلما وَجَدَتْ فرصةً تهادن مرةً وتحارب أخرى أخذت ماجريات الأمور تنوعًا في أحوالها حتى كان ما كان من أمرها حتى بعد قرون انتهت إلى نهايتها المعروفة، بسقوط مملكة غرناطة، الذي مَثَّل قيام قوتها الدولة الإسبانية غرست بذور هذه الدولة الإسبانية[1]. كانت هذه المجموعة تحت قيادة بِلايْ (Pelayo)[2]. يقول المؤرخون المسلمون: إن تعداد هذه الجماعة كان ثلاثين رجلًا وعشر نساء[3]. التجأ هؤلاء إلى كهف «كوفادونكا (Covadonga)»[4]. الذي يقع في جبال Picos de Europa) في سلسلة جبال «كانتيريا (Cantabria)[5]. المنيعة، البعيدة عن طريق الجيوش الإسلامية. أيضًا إن قلة عددها واحتقار المسلمين لأهميتها، كل ذلك ربما ساعد بشكل ما أحيانًا إتاحة أوقات على بقاء فتيلها بدعم الكنيسة والبابوية التي لا تريد للإسلام بقاء في تلك الديار، كلما ذابت حالة العداوة أقامت

---

(1) تلك الدولة التي استطاعت بعد ثمانية قرون، إنهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا في الثاني من ربيع الأول 897 هـ = 2/ 1/ 1492م، عندما ترك غرناطة آخر ملوكها محمد الحادي عشر أبو عبد الله (Boabdlla) بعد أن سَلّمها إلى الملكين الكاثوليكيين: فرديناند وإيسابيلا Ferdinand and Isabella.

(2) ابن خلدون، 4/ 2/ 386. جاء في «أخبار مجموعة»، 28: «ولم تبق بحليقية قرية لم تفتح غير الصخرة، فإنه لاذ بها ملك يُقال له بِلاي». [كانت وراء ذلك أسباب بحاجة لدراسة جادة].

(3) المَقّري، نفح الطيب طبعة القاهرة، 4/ 15، 6/ 82 - 83. يظهر أن في ذلك شيئًا من المبالغة، لكنها تدلنا على قلة عددهم التي دعت الجيش الإسلامي إلى ازدرائهم وتركهم في ملجأهم المنيع. هناك عامل آخر أضفى أهمية إلى بلاي وجماعته في كوفادونكا، أعني النزاع الداخلي بين المسلمين أنفسهم، الذي تلا هذه الأحداث لوقت ما.

(4) نجد وصفها والحديث عنها عند: عنان، الآثار الأندلسية، 292. يسميها المؤرخون المسلمون الصخرة ويجعلونها في جليقية. انظروا: المقري وأخبار مجموعة، نفس الصفحات السابقة ؛ كذلك: أبو عبيد البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، 71-73.

(5) مؤنس، فجر الأندلس، 313.

نارها ولولا ذلك ما كان الذي كان على ما يبدو، من نموها بأي حال وتقدمها فيما بعد.

ابتدأ بِلَايْ مع أتباعه المقاومة سنة 98هـ = 718م[1]، على اختلاف في تحديد هذا التاريخ[2]. حينما تُوُفِّي بِلاي سنة 119 هـ = 737م[3] وَرِثَه في الحكم ابنُه فافيلا (Fafila) الذي دام حكمه سنتين فقط، حيث توفي سنة 121هـ = 739م، دون أن يترك ذرية على ما يظهر. حوالي نفس السنة المذكورة توفي بُطره حاكم إمارة كانتيريا التي أصبحت قوية واسعة، ورثه ابنه الفونسو (الفونش) الأول الملقب بالكاثوليكي (Alfonso I, El Catolico). تزوج هذا من أرمسندا (Ermesinda) ابنة بِلاي، قام إثر ذلك اتحاد بين إمارتي كانتيريا وجِلِّيقِيَةَ في حكومة واحدة أَطلق عليها المؤرخون المسلمون: جليّقية. كانت تمتد من المحيط الأطلنطي غربًا حتى بلاد البَشْكُنْس شرقًا ومن مضيق بسكاي (Bescay) شمالًا إلى نهر دُوَيْرُه (Duero) جنوبًا. واعتُبر الفونسو الأول المؤسس الحقيقي للمملكة المسيحية. وَسَّعها وقوّاها ومَسَّحَ كل هذه المنطقة، حيث نفى المسلمين الذين كانوا يسكنون غَليسية (Galicia) وأَسْتُورْقَة (Astorga)[4]. عَيَّن الفونسو الأولُ أخاه فرويلا (Fruela) حاكمًا على مقاطعة كانتبريا؛ كان المسلمون في هذا الوقت منشغلين بالحرب الداخلية، كما كان يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري أميرُ الأندلس مشغولًا يقمع ثورة في الشمال، مما دفع ألفونسو إلى انتهاز هذه الفرصة لغزو مدينة لُك (Lugo)

---

(1) Cagigas, Los Mosarabes, I,p. 8I,:Saavedra, Estudios sobre la inuasion de los Arabes en Espana, p. I4I,: Urbel, ibid., pp. 23-24;

عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، 13. سالم، تاريخ المسلمين، 169. عنان، دولة الإسلام، 2/ 112.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، 331.

(3) Levi – Provencal, de Espana Musulmama, IV, p. 42,.

(4) أخبار مجموعة، 62.

في أقصى الشَّمال الغربي للحدود الأندلسية. سنة 137هـ = 754م بينما كان أمير الأندلس يتجهز لإنجاد المدينة، سمع بوصول عبدِالرحمن الداخل الأندلسَ، فذهب لحربه[1].

عَمِلَ كُلٌّ من ألفونسو وأخوه فرويلا جهدَه لتوسيع المملكة المسيحية. حينما توفي فرويلا قام ألفونسو بحكم المملكة كلها، وَسّعَ حدودَها بإضافة أقسام اقتطعها من الأراضي الإسلامية[2]. لكنه توفي بعد أخيه بمدة قصيرة سنة 140هـ = 757م. كان وريثَ ألفونسو ابنُه فرويلا الأول الذي استولى على عدة مناطق إسلامية مثل شَقُوبية (Segovia) وآبِلَة (Avila) وسَمُورَة (Zamora) وشَلَمَنقَة (Salamanca) وغيرها[3].

قامت معارك بين عبد الرحمن الداخل وفرويلا، كانت الحرب بينهما سِجالًا والحدود بين مَدٍّ وجَزْرٍ. كان فرويلا مَلِكًا طاغيًا مما أدى إلى اندلاع عدة ثورات داخلية ضده في أماكن متعددة، الأمر الذي أعطى المسلمين فرصة لاسترداد ما خسروه. اغتيل فرويلا في ثورة جديدة سنة 159 هـ = 775م[4]. كان ابنُه ألفونسو(الثاني) طفلًا فقُسِّمت المملكة إلى قسمين: القسم الشرقي، نافار أو نَبَارّة، حَكَمَه أوريليو Aurelio ابنُ فرويلا أخو ألفونسو الأول، وحكم سيلو أو شيلون (Silo) زوج أدوزندا (Adosinda) ابنة ألفونسو الأول، القسم الغربي غاليسية (Galicia)، كان الحاكمان على عَلاقات طيبة، توفي أوريليو سنة 165هـ = 781م، انتَخَب البَشْكُنْس سيلو بَدَلَه؛ لأن ابن فرويلا الأول لم يكن قد بَلَغَ بعد سِنَّ الرُّشْد،

(1) عِنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 211.

(2) Levi – Provencal, ibid., IV, p. 43..

(3) عِنان، نفس المصدر، 1/ 212.

(4) عِنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 214.

هكذا مرة أخرى توحدت إسبانيا المسيحية. لكن سيلو توفي سنة 168هـ = 784م من غير أن يترك عَقِبًا[1]؛ عُيِّنَ ألفونسو بن فرويلا الأول وريثًا له تحت وصاية زوجة سيلو الأميرة أدوزندا؛ فاستاء لهذا قسم كبير من الشعب ورفضوا الاعتراف به. قامت ثورة قوية بقيادة مورقاط (Mauregato) الذي استقل في القسم الغربي من غاليسية، اتخذ برافيا (Pravia) عاصمة له، بينما التجأ ألفونسو إلى ألَبَة (Alava) عند أخواله البَشْكُنْس. خاف مؤيدو ألفونسو من مورقاط، الذي ثَبّتَ مركزَه بمعاهدة مع المسلمين، فارتبطوا بمعاهدة مع الفرنج. مات مورقاط سنة 173هـ = 789م بعد سنة من وفاة الداخل الذي وَرِثَه ابنُه هشام الأول، في حكم الأندلس 172 ـ 180هـ = 788 ـ 796م.

خاف النبلاء الذين ساندوا مورقاط من انتقام ألفونسو فانتخبوا برمند (Vermudo) بن ألفونسو الأول، الذي رضي ذلك دون رغبة؛ إذ كان يفضل حياة الترهب في الدير. عَقَدَ معاهدةَ سِلْمٍ مع ألفونسو وعينه قائد الجيش خوفًا من الأمير هشام الأول الذي كان يتهيأ لمهاجمة الشمال. بعد ثلاث سنوات تنازل لألفونسو ليعود إلى ديره، تولى ألفونسو الحكم تحت اسم ألفونسو الثاني سنة 175هـ = 791م الذي لُقِّب بالعفيف (el Casto)، دام حكمه واحدًا وخمسين سنة حتى 228هـ = 842م عاصر ثلاثة أمراء أندلسيين: هشام الأول والحكم الأول 180-206هـ = 796 – 822م، وعبدالرحمن الثاني- الأوسط (206-238هـ = 822-852م).

حَصَلَتْ عدة معارك بين ألفونسو الثاني وبين المسلمين من أهمها معركة في غاليسية سنة 179 هـ = 795م التي انهزم فيها. سنة 193هـ = 810 م قاد جيشًا لمهاجمة الأراضي الإسلامية وصل حتى قَلَمَرْيَة ولِشْبونة[2] فَرَدَّ الحَكَم الأول هذا

(1) عِنان، نفس المصدر، 1/ 214.

(2) Urbel, Espana Crisiama, VI, p. 36..

الهجوم ووصل حتى غاليسية. كما وجه عبد الرحمن الثاني جيشًا بقيادة وزيره عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في 208هـ = 823 م[1] ضد ألَبَة والقلاع[2]. اضطرهم، كضمان لمعاهدة السلام، إلى دفع جزية وإطلاق سراح الأسرى المسلمين لديهم وعلى ألا يهاجموا الأراضي الأندلسية.

لما تُوفِّي ألفونسو الثاني خلفه ابنه راميرو الأول -227 236هـ = 842 – 850م) الذي قمع عددًا من الثورات التي قامت ضده. لعدة سنوات لم يقم بهجوم على الأراضي الإسلامية، حيث كان الطرفان منشغليْن أيضًا برد هجومات النورماندين، الذين يسميهم المؤرخون الأندلسيون «المجوس أو الأُرْدُمانيّون»، الذين هاجموا السواحل الإسبانية سنة 229هـ = 844م[3]. بعد وفاة راميرو الأول (Ramiro I) خَلَفَه ابنُه اردونيو الأول (Ordono I) 236-252هـ = 850-866م. استغل انشغال الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط 238-273هـ = 852-886م مع بعض الثوار الأندلسيين فهاجم الأندلس، لكن الأمير استطاع رَدَّه في عدة معارك. بعد وفاته خَلَفَه ابنُه ألفونسو الثالث 252-297هـ = 866-910م الذي عاصر ثلاثة أمراء: محمدًا وابنيه المنذر 273-275هـ = 886-888م وعبد الله 275-300هـ = 888-912م.

واجه ألفونسو الثالث عدة ثورات ومؤامرات عائلية ولكنه نجح في قمعها جميعًا، عدا تلك التي كانت بقيادة برمند، الذي استطاع أن يستقل بحكم استورقة لعدة سنوات. كان ألفونسو متدينًا وعلى صلة دائمة بالسلطة البابوية، يستشيرها

(1) عِنان، دولة الإسلام، 1/ 252-3.

(2) وفي اللاتينية: Alava et Castella Vetula. وCastella.

هذه في الإسبانية الآن: Castilla Ia Vieja أي قشتالة القديمة.

راجع: عنان، دولة الإسلام، 1/ 213 حاشية 2.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، 2/ 87.

في أمور كثيرة. كان مهتمًّا بالأمور الدينية ورجالها، ينفق عليهم بسخاء مما دعاه إلى فرض ضرائب على الطبقة العامة من الشعب، التي استاءت من ذلك، الأمر الذي أدى بها إلى خلعه بمؤامرة عائلية لصالح ابنه الأكبر غَرْسِيَه Garcia 297-301هـ = 910-914م. عَيّنَ ألفونسو أبناءَه: أردونيو (Ordono) ليحكم غاليسية (Galicia) وفرويلا ليحكم أسْتُرياس (Asturias)[1]. ثم نقل غرسيه عاصمتَه من أوفيد (Oviedo) في استرياس إلى مدينة ليون (Leon). أما ألفونسو الثالث أو الكبير (Magno el) كما تسميه بعض الروايات المسيحية، فقد توفي في نفس تلك السنة التي خُلِع فيها. ثم إنه من هذا التاريخ أيضًا، أُطْلِق على المملكة المسيحية اسم «مملكة ليون» بدلًا من مملكة غاليسية وأُسْتُرياس.

لا يعني ذلك أن جميع إسبانيا المسيحية أصبحت مملكة موحدة خاضعة لسلطة ليون كحكومة مركزية واحدة، بل يعني أن مملكة ليون أصبحت أقوى وأوسع مملكة في إسبانيا المسيحية. وهي مملكة ليون التي تكونت من اتحاد غاليسية واسترياس واتَّخَذت ليون عاصمةً لها، بفضل توسطها. كانت هناك إمارات مستقلة، في أحيان كثيرة كان بعض الأمراء وأصحاب البيوتات يستقلون في أماكنهم.

الممالك التي كانت إلى جانب مملكة ليون مملكتان. علاقاتهما مع ليون وفيما بينها، بين حرب وخصومة تصل حَدَّ الاستعانة بالمسلمين ضد بعضهم، إلى سلم وصفاء قد يؤدي إلى تعاونهم واتحادهم ضد المسلمين. هاتان المملكتان هما قشْتالة (Castilla) ونَبَرّة أو نَبارّة (Navarre). بالإضافة إلى هاتين المملكتين تقوم إمارة برشلونة (Barcelona)[2] التي كَوَّنت مع غيرها من بعد إمارة قطلونيا

---

(1) عِنان، دولة الإسلام، 2/ 363.

(2) افتتحها المسلمون سنة 96-98هـ = 714-716م، ثم افتتحها لويس Louis بن شارلمان Charlemagne سنة 185هـ = 801م، أصبحت مستقلة سنة 275هـ = 888م. كان أمراؤها المستقلون على عَلاقات طيبة =

(Cataluna) التي دُمِجَت في مملكة أراغون (Aragon) سنة 532هـ = 1137م[1].

بعد وفاة غَرْسية (Garcia) جاء إلى الحكم أخوه أردنيو الثاني Ordono II 301-312هـ = 914-924م.

بَلَغَتْ ليون في عهده درجةً من القوة أهَّلَتْها لمصارعة المملكة الإسلامية. استطاع الأخير أن يحرز أيام عبد الرحمن الثالث 300-350هـ = 912-961م نصرًا على المسلمين في موقعة شَنْت اشتبين (San Esteban) في 305هـ = 917م[2]. خَلَفَ فرويلا الثاني أخاه أردونيو الثاني بعد وفاته ولكنه توفي هو أيضًا بعد عام واحد. قام على العرش نزاع بين شَانْجُهْ (Sancho) وألفونسو وَلَدَيْ أردونيو الثاني.

انتهى الصراع - بعد محاولات عدة من الطرفين وأعوام من الحرب الأهلية - بفوز ألفونسو بمعاونة صهره شانْجُهْ ملك نَبَارّة، حَكَمَ ليون باسم ألفونسو الرابع. في سنة 317هـ = 929م توفي أخوه شانْجُهْ. في سنة 319هـ = 931م أو قبلها، توفيت زوجته التي حزن حزنًا عميقًا لفقدها، تنازل لأخيه راميرو ردمير (الثاني) ليترهب في دير (Sahagun) لكنه نَدِمَ على تنازله فيما بعد. انتهت محاولاته لاسترداد العرش بسَمْل عينيه من قبل أخيه راميرو الثاني (Ramiro II). كان هذا قويًّا شجاعًا قارع المسلمين بكل الوسائل. وكانت أعنف صور هذا الصراع بينه وبين الناصر في معركة الخندق (Alhandega) سنة 327 هـ = 939م التي دارت على المسلمين.

=مع سلطة قرطبة وربما خضعوا لها ولو في الظاهر. انظروا: شكيب أرسلان، الحلل السندسية، 2/ 211، 276. ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 396.

(1) عِنان، دولة الإسلام، 1/ 232، 2/ 491.

(2) ويسمى الحصن الذي كان أردونيو الثاني فيه «قاشْتُرْ مُورُش Castro Moros». انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، 2/ 170-1.

توفي راميرو الثاني سنة 339هـ =950م. قامت الحرب الأهلية بين ولديه: أردونيو أكبرهما وشانجه الذي اعتمد على عون أخواله النافاريين (البَشْكُنْس) وجدته الملكة طُوطه (Tota ,Toda) وملك قَشتالة فرّان غنصالص (Fernan Gonzalez). رغم ذلك فقد انتصر أردونيو الثالث الذي توفي سنة 344هـ = 955م. خَلَفَه أخوه شانجه الأول «السمين 344 «(el Gordo-354هـ = 955-965م الذي ثار أشراف ليون ضده ونزعوه من العرش مُحْتَجّين بهزيمته في بعض معاركه مع المسلمين وبدانته التي تمنعه من ركوب الخيل. التجأ إلى جدته طُوطَه في بنبلونة (Pamplona). اختار أشراف ليون بدله أردونيو الرابع المعروف بالردئ (el Malo)، ابن ألفونسو الرابع وعم شانجه الأول. لكن الأخير استطاع استعادة عرشه بمساعدة الناصر الذي أرسل له حَسْداي بن شَبْروط اليهودي، لعلاجه من بدانته، كما أعانه عسكريًا لهذا الغرض.

فَرَّ أردونيو الرابع إلى بُرْغُش (Burgos)، توفي الناصر بعد ذلك بقليل. كم حاول أردونيو الرابع استعادة عرشه واستعان بالحَكَم الثاني (350-366هـ = 961-976م) «المستنصر بالله» لكنه توفي قبل تحقيق هذه الأمنية، مما أراح شانجه الأول منه. استطاع هذا أن يشن حملات عدة ضد المسلمين؛ كما فعل ذلك من جانبه فَرَّان غنصالص الذي استقل بإمارة قشتالة. استمر شانجه الأول يحكم مملكة ليون في جو مملوء بالثورات حتى اغتيل مسمومًا سنة 355هـ = 966م.

خَلَف شانجه ابنُه راميرو الثالث (355-375هـ = 966-985م) الذي كان طفلًا في الخامسة من عمره، حكم تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة (Elvira)؛ مما جعل أشراف ليون يقومون بعدة ثورات. كانت الأحوال الداخلية في إسبانيا المسيحية عامة غير مستقرة، مما حَدَا بملوكهم إلى تحسين عَلاقاتهم مع قرطبة.

لكن راميرو الثالث، بمعاونة غالب الناصري، قام بحربه ضد المنصور بن أبي عامر (366 ـ 392 هـ = 976-1002م) الذي واجه قوات الشمال المتحدة وهزمها في موقعة شَنْت مَنْكِش (Simancas) سنة 371هـ = 981م. اعتقد أشراف ليون أن راميرو الثالث لم يعد صالحًا للحكم فقرروا خَلْعَه وتولية ابن عمه برموده (Vermudo) (372-389هـ = 982-999م). لكن راميرو لم ييأس فشنّ حربًا ضد ابن عمه وحاول الاستعانة بالمنصور ولكنه توفي. انفرد برمودُهْ الثاني بالحُكْم، كانت عَلاقتُه مع المسلمين بين السلم والحرب حتى توفي فَخَلَفَه ابنُه ألفونسو الخامس الذي وُضِع تحت وصاية أحد أعيان ليون (Menendo Gonzalez).

بعد الانتهاء من الحديث عن مملكة ليون حتى هذه المرحلة، نعود إلى مملكتيْ قَشْتالة (Castilla) ونَبَارّة (Navarre). قَشتالة تقع بين مملكة ليون في القسم الغربي من الجزيرة الإيبيرية وبين مملكة نَبَارّة. كان يحكمها زعيم محلي مقره في بُرْغش (Burgos) خاضع لملك ليون. استطاعت أن تحصل على استقلالها في منتصف القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، على يد بطلها (Fernan Gonzalez)[1]. كان قويًّا ضد خصومه ملوك ليون تملؤه فكرة تحرير قَشتالة من سيطرتهم[2]، أعلن الحرب على راميرو الثاني، ملك ليون وولده أردونيو الثالث من بعده. كما كان قويًّا ضد خصومه ملوك ليون كان عنيدًا في حربه ضد المسلمين فلم يحالفهم قط[3]، تُوفي سنة 359 هـ = 970م بعد أن حَكَمَ 39 سنة وخَلَفَه ابنُه غرسيه (Garcia Fernandez) الذي توفي سنة 389هـ = 995م وَرِثَه ابنُه شانجُهْ (Sancho Garcia).

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 328.

(2) Lafuente, Historia General de Espana, III, p. 435..

(3) عِنان، دولة الإسلام، 2/ 544.

أما مملكة نَبَارّة ففي بلاد البَشْكُنْس (Basques) جنوب جبال البُرْتات (Pyrenees) إلى جهة الغرب. كانت في مبدأ أمرها تحت سلطة بعض النبلاء التابعين للفِرنج أو لحكامٍ من كانتبرية (Cantabria) أو أمراء من أُستُرياس Asturias. اتخذوا بَنْبلونه الحصينة قاعدة لهم التي كانت قبلًا هدفًا للغزوات الفرنجية والإسلامية. فشل أمراء غاليسية في ضمها إلى المملكة النصرانية. في نهاية القرن الثاني الهجري = الثامن الميلادي بدأت محاولات الاستقلال. من الأمراء المستقلين شانْجُهْ (Sancho) 221هـ = 836م، الذي انتزع الإمارة منه أحدُ زعماء البَشْكُنْس: غرسيه ابن وَنَقُهْ (Garcia Jniguez)[1].

كان غرسيه على صلة ببني قَسِيّ المُوَلّدِينَ الذين كانوا أحيانًا يشقون عصا الطاعة على السلطة الإسلامية أو يَخْضَعون لها إسميًا. حارب أحد زعمائهم: موسى بن موسى ابن فرتون بن قسي إلى جانب غَرسيه ضد أردونيو الأول في معركة البَلْدَة (Albelda) سنة 248هـ = 862م، حيث قُتِلَ غَرسيه وتوفي موسى فيما بعد متأثرًا بجراحه[2].

خَلَفَ غرسيه ابنُه فرتون (Fortun Garces) الملقب بالأنْقَر، الذي قضى حوالي 20 سنة أسيرًا في قرطبة[3]. لكنه عُزل عن الحكم سنة 293هـ = 905م، احتل مكانه شانجه غرسيه الأول (Sancho) Garcia، أول من تلقب ملكًا من أمراء نَبَارّة ويعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المملكة[4]. خاض مع المسلمين ومع بني قسي - الذين تغيرت عَلاقته معهم - معارك عدة وتوفي سنة 314هـ = 926م خَلَفَه ابنُه

---

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 467-468.
(2) عِنان، دولة الإسلام، 1/ 294. ابن عذاري، البيان المغرب، 2/ 97.
(3) ابن عذاري، 2/ 97.
(4) عنان، دولة الإسلام، 2/ 366.

الطفل غرسيه شانجه الأول (Garcia Sanchez I) حَكَمَ أولًا تحت وصاية عمه خمينو (Jimeno Garces) ثم أمة الملكة طُوطَة (Tota) التي بقيت تحكم باسمه بعد بلوغه ونضجه إلى وفاتها سنة 349هـ = 960م. كان لها دور في تاريخ نَبَارّة وعَلاقتها مع الدولة الإسلامية. استمر غرسيه في الحكم حتى وفاته سنة 359هـ = 970م، خَلَفَه ابنُه شانْجُهْ الثاني (Sancho Garces II).

☜ كانت مملكة نبارّة قد اتسعت رقعتها وزادت قوتها وتكررت غارتها على الأراضي الإسلامية. توفي شانْجُهْ هذا سنة 385هـ = 995م، خَلَفَه ابنُه غرسيه شانْجُهْ الثالث (Garcia Sanchez III).



☜ العرض السابق لدول إسبانيا المسيحية خلال المدة الأموية، يعطينا فكرة ولو موجزة عن كيفية وظروف نشأتها وحكمها - أمراءً وملوكًا - وعَلاقات بعضها ببعض، ويعيننا في الفهم حين الحديث عن عَلاقتها مع الأندلس. كانت في هذه المدة ثلاث ممالك ليون والعاصمة مدينة ليون، ثم مملكة نَبَارّة وعاصمتها بنبلونة، ومملكة قشْتالة وعاصمتها بُرْغُش.

☜ لم تكن أحوال هذه الممالك مستقرة دائمًا، كثيرًا ما كانت تقوم الخصومات على السلطة في الدولة ذاتها، سواء بين أفراد العائلة المالكة أو ثورات الأشراف ومحاولات استقلالهم في مقاطعاتهم أو بتأييدهم لَمَلِك ضد آخر من عائلته. كانت أحيانًا تقوم دولة داخل الدولة، على عكس التنظيم السياسي للأندلس الذي حرص على سلامة السلطة المركزية. كان الأشراف ينتقلون أحيانًا من دولة مسيحية إلى أخرى إذا لم يعجبهم الوضع. ربما انتقلوا إلى الأراضي الإسلامية لينضموا تحت لوائها ويحاربوا في صفها. كانت عَلاقات هذه الدول ببعضها تتراوح بين

السلم والحرب حسب مصالحها وهِمَّة حكامها أو مطامعهم. لم تكن دائمًا دوافع السلم أو التقارب موضوعية، بل أحيانًا نفعية أو لمواجهة الدولة الإسلامية. كان للسبب الأخير تأثير كبير على تاريخ هذه الممالك، كثيرًا ما كان دافعًا للتجمع في مناسبات عدة، حتى إن حجة أشراف ليون في تبرير خَلْعهم شانْجُهْ الأول السمين، هي هزيمته أمام المسلمين في بعض المعارك.

ما دامت العَلاقات على هذا النحو (ولو أحيانًا) فإن بعض الأمراء المسيحيين الذين كانوا يريدون الاستقلال عن السلطة المركزية يطلبون العون من المسلمين مثل برمودُه برمنده (Vermudo) أخي ألفونسو الثالث (Alfononso III) الذي استقل بحكم استورقه (Astorga) بمعاونة المسلمين[1].

كما أن سوء الأحوال الداخلية في مملكةٍ ما كثيرًا ما كانت تفرض على حُكّامها المهادنة والسلم مع المسلمين، كما حدث بين ألفونسو الثالث والأمير محمد. إذا ما شعروا أحيانًا بالقوة أو بضعف المسلمين لا يترددون بنقض عهودهم كما فعل شانجه الأول ملك ليون أيام الناصر، أو بغزو الأراضي الإسلامية كما فعل غارسيه شانْجُهْ الأول (Garcia Sanchez I) ملك نابارَّة. كما إن الخصومات بين هذه الممالك دفعتهم إلى طلب الصلح وعقد المعاهدات مع المسلمين لتأمين جانبهم والانصراف إلى شئونهم أو مقارعة خصومهم. لم يكن للمصاهرات الملوكية بين حُكّام هذه الدول إلا قليل الأثر في استمرار السِّلْم بينها.

بعض الوفود السفارية الذاهبة من إسبانيا الشمالية إلى قرطبة، ذهبت لطلب التأييد المادي والعسكري ضد الطرف الآخر، كوفادة ملكة نَبَارّة طُوطُة، مع شانْجُه الأول (السمين) ملك ليون المخلوع، إلى بَلاط الناصر.

(1) Aschbash , Geschichte der Omajaden in Spamien , I , p. 30 I.

دوافع إنشاء عَلاقات ودية مع المسلمين من جانب هذه الدول لم تكن دائمًا موضوعية، بل - في أغلب أحيانها - تبعًا لحاجتها لهذا السِّلْم وظروفها الداخلية وعَلاقتها مع بعضها، لذلك كانت تُنقض تمامًا أحيانًا كثيرة.



القسم الثاني

العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس ودول إسبانيا الشمالية خلال المدة الأموية

كم كنا نأمل أن تتعايش الديانتان - الإسلامية والمسيحية - جنبًا إلى جنب في شبه الجزيرة الإيبيرية، خاصة وقد ظهرت بعض البوادر التي لو استمرت في النمو، بتعاون الطرفين، لكُنّا نشاهِد المسجدَ يقف إلى جانب الكنيسة حتى الآن في إسبانيا والبرتغال، ولَحُقِنت بذلك كثير من الدماء التي أُسيلت. مما لا شك فيه أن اتحاد الإمكانيات والتعاون الفكري وتزاوج القابليات خير وأنفع للإنسان وحضارته من نيران العداوات والحروب، كل ذلك على الرغم من التسامح الرائع الواضح الذي عامل به المسلمون غيرهم.

مثلًا لو أن ألفونسو الثالث (Alfonso III) مَلِكَ استرياس Asturias وغاليسية Glaicia، الذي تنازل عن عرشه ومات سنة 297هـ = 910م والذي طالما تغنى بفضائله وأمجاده الإسبان، لو أنه تعامل مع المسلمين بنفس الروح التي عَهِدَ بها بتربية ابنه إلى بعض المربين القرطبيين[1]، لكان قد وضع لإسبانيا الشمالية أحد حجرات الأساس في هذا السبيل. يجب ألا ننسى تلك المحاولة العملية التي لو طُبِّقت بنجاح على نطاق أوسع لأسهمت كثيرًا في توطيد التعايش المطلوب وتأسيس سِلْم دائم بين الجانبين. تلك كانت محاولة مورقاط (Mauregato) حاكم جليقية الغربية، بتشجيع المسيحيات للتزوج من المسلمين مما أزعج القساوسة الذين اعتقدوا أن تلك المحاولة ستنهي العداوة بين المسلمين والمسيحيين[2]. وَضْعُ مورقاط

(1) Aschbach, Geschichte, I, p. 352; Reinaud, Muslim Colonies, p. 238

(2) الرغبة في استمرار العداوة بين المسلمين والمسيحيين لو أتت من عامة الناس الجهلاء، لما استغربنا ولكن الغريب أن يكون ذلك بتأثير وتحريض رجال الكنيسة الذين يجب أن يدعوا إلى الحب والصداقة والسلام مع الجميع.

في ارتباطه وصداقته مع المسلمين، ساعد هؤلاء وبعض المتعصبين من أتباعهم في إثارة الشغب ضده[1]. لسوء الحظ أن سياسة التعصب التي أدت إلى الحرب، نجحت على حساب السلم والصداقة رغم اعتراف المؤرخ الإسباني (Lafuente) بأن كثيرًا من تصرفات فرنان جنثالث (Fernan Gonzalez) أمير قشتالة بعيدة عن القانون الأخلاقي، فهو يَعْتَبِر رفضَ هذا الأمير مصادقةَ المسلمين، أعداءَ دينه ووطنه، من أعظم مفاخره[2].

حتى المُسْتَعْرَبِين، الذين سكنوا مع المسلمين في الأندلس، وخالطوهم وعاشوا معهم بحرية، وَجدوا من بين المتعصبين من انتقدهم؛ لرضاهم واستسلامهم للعادات الإسلامية وعلى استعمالهم اللغة العربية. ذلك واضح في الوثيقة المهمة «Indiculus Luminosus» التي كُتبت سنة 240هـ = 854م بواسطة مؤلف قرطبي معاصر لمجريات الأمور: «الفارو القرطبي» Cordubensis (Alvarus)[3]. لقد وصلت موجة التعصب هذه إلى قمتها في حركة «الاستشهاد» التي بدأها بعض المُستعرَبين النصارى أيامَ عبدالرحمن الأوسط في منتصف القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي[4].

---

(1) عنان، دولة الإسلام، 1/ 216.

(2) عنان، دولة الإسلام، 2/ 544.

(3) Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana pp. 461 – 467 ; Lane – poole , The Moorrs in Spain, 90.

(4) Lane – poole, The Moors in Spain, p. 84.

الترجمة العربية: العرب في إسبانيا، 73، ويسميه: انتحارًا. كان على رأس هذه الحركة راهب اسمه Eulogius، حث أتباعه على شَتم النبي محمد ﷺ ولعن الإسلام علنًا. استغل هؤلاء الحرية الدينية التي كانوا يتمتعون بها، ذهبوا إلى المساجد أوقات الصلوات لإسماع المسلمين هذه الشتائم.

(Imamuddin, A Pilitical History of Muslim Spain, p. 68) رغم علمهم أن ذلك يؤدي إلى الموت. كان بعضهم قد سيق إلى المحكمة، طلب إليهم القاضي التراجع عما قالوا فرفضوا وأُعدم بعضهم.

كان ذلك على الرغم من أن المسلمين اتبعوا سياسة التسامح الديني منذ بداية الفتح[1]، بأوسع معانيها التي كانت واضحة جدًّا ومتمثلة في مختلف المظاهر الحياتية، كما سيتبين فيما بعد. أكثر من ذلك، فإن غير المسلمين، مسيحيين أو يهود، حصلوا على الحرية التامة في عقيدتهم والقيام بشعائر دينهم كيفما يحبون كما استعمل الحكام الأندلسيون المُسْتَعْرَبين في أعلى المناصب الإدارية وأكبرها مسؤولية، حتى في الجيش، مُعْتَبِرين القابليات. .«قُومِس بن أنْتنيان» (Gomez) بن (Antoniano) (Cristiano) كان أمين سر «سكرتير» الأمير عبدالرحمن الأوسط وابنِه محمد الأول، كان ممثل عبدالرحمن في مؤتمر الرهبان الذي ناقش حركة الاستشهاد هذه[2]. كما أن عددًا منهم شغل مناصب في قصر الأمير وبَلاطه، بالإضافة إلى أولئك الذين بلغوا مناصب عُليا.

كانت هنالك بادرة طيبة أخرى من بوادر السلم، تلك هي تشجيع التزاوج بين المسلمين والمسيحيين ليس فقط من المُستعرَبات المسيحيات في الأندلس؛ بل ومن إسبانيا الشمالية نفسها. كما كان هذا التزاوج مألوفًا بين عامة الناس كان كذلك بين حكام الأندلس. كان الخليفة عبدالرحمن الثالث «الناصر لدين الله» حفيدَ أمير نافارية. إذ أن جد الناصر: الأمير عبدالله بن محمد الأول بن عبدالرحمن الأوسط، تزوج من وَنَقَا (Onneca Iniga) البَشْكُنْسية، بنت فرتون (Fortun) بن

عندها دعا الأميرُ عبدُالرحمن الأوسط القُسسْ إلى عقد مؤتمر لمعالجة الموضوع، فأصدروا معارضتهم لهذه الأفعال.

(1) Altamira, Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola, I , pp. 229 – 230 ; Reinaud, Muslim Colonies , pp. 87 , 110 , 209 , 213.

(2) ورد اسمه في قضاة قرضبة للخُشَني، 110-113. لا يَعتبر البعضُ أن كل هذا الاستعمال لهؤلاء كان سلبيًا. انظروا: ابن القُوطية، تاريخ افتتاح الأندلس.

غرسيه (Garcia) المعروف بـ«الأنْقَر»[1]. (Iniga) هذه تُعرف في المصادر العربية بـ«دُرّ»[2]، فهي أم محمد[3]، أبي عبدالرحمن الناصر. كما كانت أم الناصر من شمال إسبانيا، من البَشْكُنْس أيضًا، اسمها في المصادر الإسلامية مُزْنَة[4]. أخيرًا ليس آخرًا فإن الخليفة الحَكَم المستنصر تزوج بِبَشْكُنْسِيّة اسمها صُبْح (Aurora)، هي أم هِشام المُؤيّد الذي ورث أباه الحَكَم[5].

كان المسلمون يرغبون في السلم والمحافظة عليه، قلما ينقضون عهودهم، حتى في حالات تفوُّقهم العسكري كثيرة هي. بعد مجيء عبد الرحمن الداخل، لم يبدأوا بعُدوان، كانت أغلب حروبهم في هذه المدة دفاعية أو ردًّا لهجوم. كما أن بقاء مسلمين في الأراضي المسيحية يوحي برغبة التعايش.

كل هذه البوادر لو وَجَدَتْ الاستجابة لكان بالإمكان أن يتم التعايش بين دولتين مختلفتين دينًا وبين دينين في دولة واحدة، كما عاش المسيحيون في الدولة الإسلامية.

---

(1) كانت Iniga قبل ذلك زوجة لـAznar Sanchez البشكنسي، لما ترملت تزوجت بالأمير عبدالله. يظهر من أحد النصوص اللاتينية أن Iniga هذه هي أُم طوطة Toda، ملكة نبارة، التي تكون بناء على ذلك عمة الناصر. انظروا:

Oliver y Hurtado , Discureoe Leidos ante la Real Academia de la Historia de Madrid, No. 2 , vol III, p. 107.

(2) ابن عِذاري، البيان المغْرب، 2/ 151.

(3) محمد هذا، هو أبو عبدالرحمن الناصر، وابن الأمير عبدالله، قُتِل قبل أن يتولى حكمًا سنة 277هـ = 891م له من العمر 27 سنة، في الوقت الذي كان عمر ابنه عبدالرحمن الناصر ثلاثة أسابيع. كان الأمير عبدالله مولعًا ومهتمًا جدًّا بهذا الحفيد فأسكنه قصره، كان يرعاه ويشرف على تربيته، ثم جعله كاتبًا له ثم وريثَ عرشه.

(4) لعلهن أسلمن قبل أو بعد الزواج.

(5) راجعوا: أندلسيات المجموعة الأولى، 78.

بعد نجاة عبد الرحمن بن معاوية[1] من المذبحة التي أشهرها العباسيون ضد الأمويين، بعد زوال دولتهم في الشام سنة 132هـ = 750م، وهروبه عن طريق شَمَاليّ إفريقيا، رَسَى مركبُه بالأندلس على ساحل مقاطعة إلبيرة (Elvira) في ثغر المُنَكّب (Almunecar) غُرّةَ ربيع الأول سنة 138هـ = 755م. ثم بدأ نشاطَه لتأسيس دولة في شِبْه الجزيرة الإيبيرية. تلك المهمة وطُلّابُ السلطة المنافسون عنيدون أقوياء. بحزمه ودهائه استطاع تحقيق ذلك واتخذ من قرطبة عاصمة له. من ناحية أخرى فإن الدولة المسيحية في الشمال كانت في طور التكوين وتود التوسع على حساب الأراضي الإسلامية كان عليه أن يقوم بردِّها.

★★★

لم تقم عَلاقات دبلوماسية مهمة أيامَ الداخل وبعدها بفترة، مع إسبانيا الشَّمالية التي لم تكن قد ظهرت إلى الوجود بشكل واضح. كان عبدالرحمن الداخل يرحب بكل سلم ومهادنة، تلك كانت السياسة الإسلامية في الأندلس، خاصة وقد كان يُكرِّس جهوده، كمؤسس دولة؛ لقمع الثائرين وإقرار الأحوال.

في صفر سنة 142هـ = /759/6م، يُبْرَم في قُرطبة عقدُ أمان وسلام بين الداخل وبين مسيحيي الشَّمال، وهذا هو نَص العقد: «بسم الله الرحمن الرحيم. كتابُ أمانِ الملكِ العظيم عبدالرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قَشْتَالَة ومن تَبِعَهم من سائر البلدان. كتابَ أمان وسلام، وشَهِدَ

---

(1) هو حفيد هشام بن عبد الملك الخليفة العاشر للدولة الأموية في الشام، لقب بالداخل؛ لأنه أول من دخل الأندلس من بني أُمية وحكمها. سماه أبو جعفر المنصور العباسي: «صقر قريش». كما سُمِّي: «أمير»، حتى أتى الناصر فأعلن الخلافة. انظروا: المَقّري، نفح الطيب (طبعة القاهرة)، 1/ 309. يُعرف أيضًا بعبدالرحمن الأول لأنه أول أمراء أندلسيين ثلاثة يحملون هذا الاسم، هم: هو «الداخل» وعبدالرحمن الثاني «الأوسط» وعبدالرحمن الثالث «الناصر لدين الله».

على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خِيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين. كُتِبَ بمدينة قرطبة ثلاث صَفَر عام اثنين وأربعين ومائة»[1].

ذلك يعني أن سفارة من الشَّمال حضرت إلى قرطبة لعقد هذه المعاهدة. لكن ليس لدينا أي تفصيلات أخرى عن هذه السفارة أو المعاهدة ولا اسم الحاكم المسيحي الذي أُبرمت معه. من تاريخها أنها كانت أيام فرويلا الأول (Fruela I) 140-151هـ = 757-768م، الذي استولى على بعض المناطق الإسلامية فور مجيئه إلى الحكم[2].

يظهر أن هذه المعاهدة عُقِدَتْ بعدَ تلك الأحداث؛ تطييبًا لخواطر الدولة الإسلامية التي أصبحت قوة، خاصة وأن تاريخ عقدها هو نفس السنة التي قُتِلَ فيها يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري، والي الأندلس السابق، وتوفي الصّمَيْل بن حاتم، في السجن. تخلص الداخل من أكبر منافسيه، وأصبح سيد الأندلس. جاء هؤلاء الشماليون يطلبون الصلح، خاصة إن الحالة الداخلية هناك غير مستقرة، حيث قامت عدة ثورات، الأمر الذي دفع فرويلا إلى طلب المتاركة والسلم لينصرف إلى قمعها، كان نفسه قد اغتيل في أحدها. كانت هذه السفارة ضرورية لفرويلا لتحقيق تلك الأهداف وليُطَمْئن الداخل على البقية القليلة من الأندلسيين الذين لا يزالون هناك. إذ أن وجود كلمة «الأندلسيين» في عقد الأمان هذا تدل على أنه لا تزال بقية منهم في غاليسيه Galicia.

---

(1) Casiri, Bebliotheca Arabico – Hispana Escurialensis, II, p. 104

(2) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 265، 386. يذكر ذلك بعد حوادث سنة 141هـ = 758م دون أن يعطي تاريخًا معينًا. ابن حيان، نقله المقري في النفح (طبعة القاهرة)، 1/ 309.

☜ حتى لو اعتبرنا أن هذه الأرقام المالية الواردة في المعاهدة، مُبالَغًا فيها[1]، إنها تضع أيدينا على أن المبلغ المدفوع كان كبيرًا؛ لعل فيه تعويضًا عما لحق المسلمين في (Galicia) وغيره. إني وإن كنتُ أشارك الأستاذ عِنان شَكَّه، لكني أخالف Urbel وLevi – Provencal في شكهما في الوثيقة[2]، «معاهدة الأمان» نفسها، خاصة ليس لديهما حجة حاسمة ترجح كفة إنكارها. كما لا يوجد أي داع لوضعها واختلاقها، إضافة إلى أن منكريها لم يقدموا دليلًا يسند رأيهم. هذا مع أخْذِنا بعين الاعتبار الظروف التي تمت فيها المعاهدة وساعدت على ذلك. إن Urbel نفسه يذكر أن عبدالرحمن الداخل، أيام فرويلا أصبح قويًّا مما جعل فرويلا عاجزًا عن إتمام عمل والده. إذا أضفنا ذلك إلى كثرة الثورات الداخلية أيامَه، التي أودت بحياته، الظروف الأخرى التي تمت فيها المعاهدة، التي سبق شرحها نرى أن كل هذه الظروف التي سبق وصاحبت زمنَ عقدها ترجِّح كفَّة صحتها وتسند واقعيتها ووجودها. علمًا أن راويها عالم ثقة، هو ابن الخطيب[3] أو أحمد الرازي.

☜ لا بأس من أن أذكر بأنني ذهبت إلى مكتبة الإسكوريال (El Escorial) واطلعت على مخطوطيْ الإحاطة لابن الخطيب، رقم 1673، ص 239، ورقم: 1674، ص 139،فلم أستطع العثور على نص هذه المعاهدة فيهما.

---

(1) عنان، دولة الإسلام، 1/ 196 حاشية رقم 1. يشك في الأرقام المالية أو المبلغية، خاصة بالنسبة لموارد الدولة المسيحية الناشئة.

(2) Urbel, Historia de Espana Cristiana, VI, pp. 36-7; Levi-Provencal, Historia de Espana Musulmana, IV, 77.

(3) عنان، دولة الإسلام، 1/ 196.

Levi – Provencal, Historia de Espana Musulmana, IV, p. 123 no, 22.

هل كانت ضمن إحاطة ابن الخطيب وفُقدت منها ؟ في هذه الحالة يحتمل أنها في مجموعة أوراق الدَّشْت (Legajos)، وهي عبارة عن متفرقات جُمعت إلى بعضها.

هل الأستاذ عِنان والمستشرق الفرنسي - (Levi Provencal) اطَّلَعا على هذا النص، في الإحاطة بأنفسهما ؟ ذلك قليل الاحتمال ؛ حيث لم يشيرا إلى صفحة. كما أن (Levi Provencal) يقول إن النص مذكور في كتاب: (مشاريع الأسواق) تأليف: أحمد النحاس الدمياطي، وهذا النص موجود في الفصل 32، وهو غير موجود في طبعة بولاق لهذا الكتاب، لكنه موجود في المخطوطة التي لم يُشر إلى رقمها أو مكان وجودها[1] !؟

لعل الذين ذكروا أن نص المعاهدة في الإحاطة قالوا بذلك بعد اطلاعهم على فهرست الغزيري (Casiri)، الذي يوردها حين الحديث عن مخطوطات الإحاطة واقتباس نصوص منها، فقرروا بناء على ذلك أن نص المعاهدة لابد أن يكون في الإحاطة. الذي فَهِمْتُه أن الغزيري نَقَلَ أولًا لابن الخطيب عن عبدالرحمن الداخل؛ والغزيري بالمناسبة أورد نص المعاهدة التي عقدها الداخل مع أهل الشمال. لكنه أي الغزيري يقول: إن هذه المعاهدة جاءت في كتاب للرازي (أحمد بن محمد، 344هـ) الذي يُعرف في الغرب باسم (Moro Rasis). لقد أَعْطَى اسمَ الكتاب باللاتينية هكذا (Bello Hispano) أي: «معركة إسبانيا» لعله مثلًا: «افتتاح الأندلس». هذا الكتاب - كغيره من كتب الرازي - ضاعت مع ما ضاع من تراثنا، لم تبق إلا أسماؤها أو بعض مقتبسات منها. فهل يكون كتاب الرازي هذا، الذي نقل منه

(1) Levi – Provencal, Historia de L' Espagne Musulmane, I, p. 116

الغزيري المعاهدة، هو: «أخبار ملوك الأندلس وخِدمتهم وغَزَوَاتهم ونكباتهم»؟ ذلك محتمل[1].

★★★

دفعت المصلحة المشتركة إلى تعاون البَشْكُنْس مع المسلمين في مهاجمة مؤخرة جيش شارلمان[2] إمبراطور الإفرنج، في ممر باب الشِزْرى (Roncesvalles)، وهو يَعْبُر جبال البُرْتات (Pyreness) عائدًا إلى بلده، بعد فشله في أخذ سَرَقُسْطة (Zaragoza) في شَمالِي الأندلس. هذا تعاون عابر؛ لكن مهاجمة شارلمان (Charlemagne) لبَنْبِلونة (Pampilona) وعدم زوال خوف البَشْكُنْس منه، ورؤية نتيجة ذلك التعاون العابر، كل ذلك أثمر استمرار العَلاقات الطيبة بين الطرفين. إن أورالي أوريليو (Aurelio) ابن (Fruela) أخو ألفونسو الأول (Alfonso I)، كان حاكم نَبَارّة (Navarre) رغب في التحالف مع المسلمين، سادت فترة سلام، بدأت منذ وفاة (Fruela I) استمرت حوالي عشرين سنة، حتى وفاة (Mauregato). كان الأخير و(Silo وAurelio)، راغبين في تكوين عَلاقات ودية مع المسلمين. إن ذلك أنفع وأجدى على الطرفين، خاصة وأن الأحوال الداخلية في Galicia كانت مضطربة؛ لم تقع في هذه المدة حروب، ولا حتى مع Galicia. حينما تُوفي (Aurelio) سنة 165هـ = 781م ضُمَّت منطقتُه إلى Galicia تحت حكم (Silo) الذي عَقَدَ بدوره صلحًا مع المسلمين، لكنه تُوفي بعد ذلك بثلاث سنوات[3]. لمَّا لم يترك Silo عَقِبًا فقد أوصى بالمُلك لـ(Alfonso II) العفيف

---

(1) انظروا: رسالة ابن حزم في النفح للمقري (طبعة القاهرة)، 4/ 166.

(2) كان شارلمان قد هاجم عاصمة البشكنس، بنبلونة، وخربها في ذهابه وعودته من محاصرة سرقسطة الإسلامية سنة 161هـ = 778م، كان معه بعض الأسرى المسلمين.

(3) عنان، دولة الإسلام، 1/ 214.

(el Gasto) كان لا يزال طفلًا الأمر الذي مكن (Mauregato) من الاستقلال بجليقية الغربية. كان مورقاط قد تحالف مع المسلمين وبالغ في التودد إليهم، مما دعا حزب (Alfonso) إلى التحالف - كرد فعل لذلك - مع الفِرنج (Franks). كان مورقاط هو الذي دعا وشجع المسيحيات على التزوج من المسلمين[1] لكن دعوته لم تجد ترحيبًا، كما سبق بيانه.

في أيام هشام الأول وابنه الحكم الأول لا نشاهد عَلاقات ودية ذات قيمة، غير أن هشامًا قام بغزوة إلى (Galicia) سنة 175هـ = 791م؛ ردًّا على تحرشات البَشْكُنْس والجَلالقة، بتحريضٍ مِنَ الفِرنج، على الأراضي الإسلامية، شَجَّعهم على ذلك انشغال قرطبة ببعض الثورات الداخلية[2]. كان ذلك أيام Vermudo. كان من نتائجها أن هشامًا أملى صلحًا على أهالي (Galicia)، واشترط عليهم نقل التراب والأحجار من الشمال إلى قرطبة[3].

أما أيام عبدالرحمن الثاني (الأوسط) نرى استقرارًا يسود المملكة الإسلامية، حيث تصل إلى مكانة سامية من الهيبة والنفوذ بين الدول الأخرى وتُصْبِحُ مَقْصِدًا لكثير من السفارات. تشهد قرطبة نشاطًا دبلوماسيًّا ممتازًا، كما غدت مَقْصِدًا لكثير من السفارات الواردة إليها، أصبحت مركزًا لتوجيه الدبلوماسية الإسلامية

---

(1) لو قُدر لهذه الخطوة النجاح ربما لأدت دورها في تعميق العلائق الودية بين الطرفين، خاصة وإن هذه الدعوة متفقة مع الشريعة الإسلامية التي تبيح زواج المسلم من أهل الأديان الأخرى.

(2) عنان، نفس المصدر، 1/ 223.

(3) ربما يكون تاريخها سنة177هـ = 793م. انظروا: المقري، النفح (طبعة القاهرة)، 1/ 316. ابن عذاري، البيان المغرب، 2/ 64. ابن الأثير، الكامل، 6/ 92.
Murphy, The History of The Mahometan Empire in Spain, p. 86.

في الغرب[1]. كان نتيجة لذلك أن انعدمت، تقريبًا العَلاقات الثانوية، أعني علاقات الثوار الأندلسيين مع الخارج.

سنة 208هـ = 823م سَير عبدالرحمن الأوسط جيشًا بقيادة وزيره عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث إلى Galicia ردًّا على هجوم Alfonso II للثغر الأعلى[2] في مدينة سالم (Medinaceli). فَرَضَ على الجَلالقة صلحًا كان من بنوده: إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين ودفع مبلغ من المال وتسليم بعض الرهائن؛ ضمانًا لعدم اعتدائهم في المستقبل. استمرت هذه المعاهدات ما يزيد على عشر سنوات، واستمر السلام بين الجَلالقة والمسلمين فلا نشاهد طوال هذه المدة معارك بين الطرفين. لعل المعارك التي أظهرت قوة المسلمين والمعاهدة التي تلتها أقنعت البَشْكُنْس بالكفِّ عن مهاجمة الأراضي الإسلامية ومَهّدَ لهم طلبَ النجدة من المسلمين في 209هـ = 824 م، حين هاجم بنبلونه جيشُ لويس الأول (Louis I) المعروف بالتقي، ملك الفِرنج، الذي خَلَفَ أباه شارلمان. كان هذا الجيش بقيادة (Ebles) و(Aznar sanaches) أمير مقاطعة (Gascona). وقد وصل هذا الجيش حتى بنبلونه لإخضاع البَشْكُنْش، الذين استنجدوا بالمسلمين، فخَفَّ إليهم بنو موسى بن قَسِيّ، حكام الثَّغْر الأعلى في مدينة تُطيْلَة Tudela بموافقة حكومة قرطبة. بموجب حلف دفاعي، حارب هؤلاء إلى جانب البَشْكُنْس ضد الفِرَنج وحدثت معركة قوية في ممر باب الشِّزْرى Pass of Roncesvalles ، في نفس أو قرب مكان المعركة التي حدثت سنة 161 هـ = 778م بين شارلمان وبين البَشْكُنْس والمسلمين. أُصيب الفِرنج في هذه المعركة بهزيمة ساحقة وأُسر القائدان، ثم أُطلق

---

(1) عنان، نفس المصدر، 1/ 278.

(2) عن الثغور راجعوا: البكري، جغرافيا الأندلس وأوروبا، 95.

سَراح (Aznar Sanchez) وأُرسل (Ebles) إلى قُرطبة حيث أُطلق سَراحُه بعد مدة[1].

بدأت - بعد هذا الوقت - تظهر في نافار (Navarre) روح الاستقلال والتحرر التام من سيطرة الفِرنج ومن تدخلهم في شؤون الإمارة، الأمر الذي جعلهم يتوجهون للتحالف مع جيرانهم المسلمين لإسناد موقفهم وطلب العون وقت الحاجة. مثلُ الحلف الدفاعي السابق لا يفي بهذه الأغراض، لابد من تمديده وتثبيته وتوسيع نطاقه؛ كل الأسباب المذكورة كانت مهيأة لذلك، كانت الرغبة صادقة في إنشاء عَلاقات ودية.

هكذا أُرسلت سفارة نافارية إلى بَلاط عبد الرحمن الأوسط لهذا الغرض، أُبرِمَت معاهدة بين الطرفين؛ على أن يحمي المسلمون نافار وحاكمها من أي اعتداء خارجي ويساعد النافاريون المسلمين حين يريدون عبور البُرْتات (Pyrenees) إلى فرنسا. بعد وفاة (Azur) أمير نافار عاد البَشْكُنْس النافاريون إلى مهاجمة الأراضي الإسلامية. هاجمها (Garcia Iniguez) المتغلب على العرش، بعد أن تحالف مع موسى بن موسى بن قَسِيّ، الذي خرج على طاعة قرطبة يومها. سار عبدالرحمن الثاني سنة 228هـ = 842م إليهما أخضع تُطَيْلَة (Tudela) مركز بني قسي وسار إلى البشكنْس فأحرز نصرًا على القوة المتحدة واضطر البَشكنْس إلى طلب الصلح والأمان[2]. لكن البشكنس عادوا إلى النقض سنة 235هـ = 850م، ثم عادوا طلبوا الصلح والأمان، في نفس السنة، بعد أن رد المسلمون هجومهم[3].

(1) عنان، دولة الإسلام، 1/ 253.
(2) العذري، نصوص عن الأندلس، 30.
(3) ابن حيان، مجلة الأندلس 1954)، ص 304.

صَحِبَ مجيئَ ألفونسو الثالث إلى السلطة محاولات عائلية ضده انتهت بمعاقبة إخوانه، الذين لم ينجُ أحد منهم إلا (Vermudo). استطاع هذا الفرار من (Oviedo) إلى (Astorga)، والاستقلال بحكمها، بمساعدة المسلمين لسبعة أعوام.

سنة 264هـ = 878م حاول المسلمون مهاجمة ليون (Leon) وأستورقة. ربما كان ذلك حمايةً لـ (Vermudo) أو بطلب منه وانتقامًا لاعتداء سابق. لكن ألفونسو استطاع أن يهزمهم على مقربة من سَمُورة Zamora وأتْبَع ذلك بأن شَنَّ الحربَ على أخيه حتى اضطره إلى الفرار من أستورقة Astorga. هذا ربما يقوي ما سبق ذكره من أن الحملة التي قام بها المسلمون كانت بدعوة من (Vermudo) مما جعل ألفونسو لا يتهاون في الأمر، الذي أصبح أكثر من مجرد أمير مستقل عن السلطة المركزية، بل خاف توسعه، كما أصبح مصدرًا للمتاعب يهدد سلطته. كان (Vermudo) بعد فراره قد التجأ إلى المسلمين.

سنة 268هـ = 882م، سَيَّر الأميرُ محمد جيشًا بقيادة ولده المنذر إلى مملكة ليون، لكن جَرَتْ مفاوضات انتهت بعقد هدنة لم تَدُمْ طويلًا حيث أن ألفونسو سنة 270هـ = 883م أَيّد بني قَسِيّ، الذين خرجوا على سلطة قرطبة[1]. سَيَّر الأميرُ محمد ثانيةً جيشًا بقيادة ابنه المنذر وانتهت هذه الحملة كسابقتها بمفاوضات أدت إلى هدنة وصلح[2]. كان هذا الصلح أكثر جدية وأطول عمرًا من سابقه. كان من نتائجه أن أرسل ألفونسو الثالث إلى قرطبة سفيرًا (Dulcidio) أُسْقُف سَلَمَنْقَة (Salamanca)، للاتفاق على قواعد الصلح ونجح السفير في مهمته وعاد إلى أوفيدو (OVIEDO)، عاصمة ليون يومئذ، ومعه رُفاة الشهيدين: (Eulogio)

(1) إيواء الأعداء كثيرًا ما كان سببًا في إنهاء المعاهدات وإثارة الحرب.

(2) عنان، دولة الإسلام، 1/ 299.

و(Leocricia). نلاحظ أن التهادن والسلام بين مملكة ليون وقرطبة يسود أكثر عهد الأمير محمد وابنيه المنذر وعبدالله تقريبًا[1].

في عهد الناصر وابنه الحَكَم الثاني «المستنصر بالله» نشاهد استقرارًا تزدهر فيه كافة المناشط الإنسانية التي تكون نتيجةَ الاستقرار، حيث بلغت الدولة الأندلسية مكانة الصدارة في العالميْن الإسلامي والمسيحي، اعتُرِفَ عالميًّا بالناصر على أنه أقوى ملوك زمانه[2]. كثرت الوفود والسفارات من كل جانب قاصدةً الأندلس، تخطب ودّ قُرطبة وترغب في عقد السلام معها. بلغت هذه الرغبة في كسب صداقة الناصر، باعتباره زعيمَ العالم الإسلامي، درجةً كبيرة في النصف الثاني من حكمه، حيث كان قد انتهى من قمع الثائرين الذين كانوا قبل مجيئه للحكم، وساد السلام البلاد، فكان ملوك أوروبا المجاورين يهابونه ويلطفونه بالهدايا والسفارات وكذا الحال مع ابنه. كان طبيعيًّا أن تكون دول إسبانيا المسيحية من أكثر الدول وفودًا - إن لم يكن أكثرها قاطبة - إلى قرطبة بحكم جوارها. حتى لقد كان الأمراء المسيحيون يحْتَكِمون إليها في الخلافات التي تقع بينهم. يُفهم مما يذكره ابن خلدون[3] أن طُوطَة (Tota)، وصية عرش نَبَارّة، عقدت مع الناصر سِلْمًا وحصلت على اعترافه بابنها (Garcia Sanchez I) ملكاً على نَبَارّة (Nevarre)، ذلك سنة 322هـ = 937م أثناء مسيرته العسكرية إلى الشّمال، لكنها نقضت عهدها سنة 325هـ 934م، حين تحالفت مع Ramiro II ملك ليون (Leon) مع الثائر محمد التُّجيبي حاكم سَرَقُسْطة (Zaragoza). سار الناصر ضدهم وسحق كل مقاومة. سارعت طوطة معلنة خضوعها والعودة إلى عهدها، فقبل الناصر ذلك

(1) عنان، دولة الإسلام، 2/ 363.

(2) Hole, Andalus, Spain under the Muslims, p. 90.

(3) العبر، 4/ 2/ 308.

وأقر ولدها ملكًا على نَبَارّة. لكنها عادت ثانية إلى النقض في 327هـ = 939م حين اشتركت مع راميرو الثاني، في معركة الخندق (Alhandega) ضد الناصر.

يذكر العُذْري[1] أنه بعد معركة الخندق هذه التي كانت في شوال سنة 327هـ = /939/8م، دارت بين جيش الناصر وبين جيش طُوطَة وصية عرش نافار وراميرو الثاني ملك ليون، مال الأخير إلى السِّلم مع الناصر، الذي استجاب له. لكن العُذْري لم يُعيِّن تاريخ معاهدة السلم هذه. يُسْتَنتَج أنها – أي معاهدة السلم – كانت بعد معركة الخندق بسنتين؛ ذلك لسببين:

الأول: أن راميرو الثاني كان يَعْرِف قوةَ المسلمين، خاصة أيامَ الناصر، أن هزيمتهم في الخندق تَعني أنهم سوف يستعدون للانتقام. تأكَّد لراميرو ظَنَّه هذا حين هاجم المسلمون ليون سنة 329هـ = 941م، لعل معاهدة السلام انعقدت خلال هذه الحملة.

الثاني: كان من نتائج معاهدة السلام هذه إطلاق سَرَاح محمد بن هاشم التُّجيبي، قائد الثغر الأعلى، الذي أسره راميرو في معركة الخندق، كانت المدة بين أسره ووصوله قرطبة – مُطلقًا سَرَاحُه – يقارب سنتين وأربعة أشهر. من المعقول أن يكون السلام عُقِدَ بين الطرفين بعد حوالي سنتين من معركة الخندق.

في سنة 344هـ = 955م بعث Ordono II ابن Ramio II ملك ليون سفارةً إلى الناصر يخطب وُدَّه؛ راغبًا في الاتفاق لعقد معاهدة سِلْم بين الطرفين. يتعهد أردونيو بموجبها هدم بعض الحصون القريبة من الحدود الإسلامية، التي تُتَّخذ قاعدةً لشن هجوم على الأندلس. كانت هذه المعاهدة ذات أهمية وفائدة لأردونيو حيث طالما تمرد أشراف ليون على سلطته، كما كانت تقوم أحيانًا حروب

---

(1) نصوص عن الأندلس، 46.

بين المتنافسين على السلطة. كان أخوه شانْجُهْ (Sancho) المعروف بالسمين (el Gordo) ينازعه على العرش، كانت بينهما معركة: شانْجُهْ يعاونه أخواله النافاريون و(Fernan Gonzalez) حاكم قَشْتالَة، لكن أردونيو استطاع أن يهزم الجيش المتحد. من هنا كانت المعاهدةُ السابقة التي عُقِدَت بينه وبين المسلمين، التي تلت هذا الصراع، مفيدةً له كي يتجه إلى شؤون مملكته. كما كانت في عين الوقت مفيدةً للمسلمين ليحصروا جهودهم الحربية في مواجهة الخطر الفاطمي، الذي بلغ أوجَه في مهاجمة ميناء المَرِيّة (Almeria) في السنة نفسها؛ يقوم الأسطول الأندلسي ردًّا على ذلك بمهاجمة بعض السواحل الإفريقية التابعة للفاطميين[1].

لأهمية هذه المعاهدة لأردونيو الثالث (Ordono III) رَغِبَ في استمرارها بل وتأكيدها. أرسل في السنة التالية 345هـ = 956م سفارة أخرى إلى قرطبة[2]، لتتميم ما بدأ به من المداولات لعقد معاهدة بالشكل النهائي، حيث وافق على هدم بعض الحصون وتصليح البعض الآخر[3] وتأكيد صلات الصداقة.

ها نحن نجد أنفسنا أمام عقدة. ابن خَلدون يذكر سفارتين من أردونيو الثالث في سنتين متتاليتين دون أي تفصيل؛ بينما يذكر ابن عِذاري سفارة واحدة من أردونيو هذا، يَضَعُها سنة 345هـ = 956م[4] أي السفارة الثانية عند ابن خلدون. كل ذلك دون تعيين اليوم أو الشهر، ليست لدينا مصادر أصلية أخرى عن هاتين السفارتين. من ناحية أخرى فإن تاريخ وفاة أردونيو الثالث مُخْتَلَف فيه، حتى إن البعض يجعلها قبل سفارته الثانية. الأرجح أن وفاته كانت في أواخر سنة 345هـ

(1) أحمد مختار العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، 208.

(2) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 310.

(3) ابن خلدون، نفس المصدر والصفحة؛ ابن عِذاري، البيان المُغْرِب، 2/ 221.

(4) عنان، دولة الإسلام، 2/ 540.

= 956م. أما السفارتان: ابن خَلْدون يذكرهما باختصار كبير أشبه بالعنوان، على عادته أحيانًا في مثل هذه الأمور. يذكر سفارتين من Ordono III إلى الناصر: الأولى سنة 344هـ = 955م، الثانية في السنة التي تليها. أما رواية ابن عِذاري، فهي رغم قِصَرها أكثر تفصيلًا، تلقي ضوءًا خافتًا على الموضوع. يُذكر أنه سنة 345هـ = 956م عاد محمد بن حسين وحَسْداي بن شَبروط، سفيرا الناصر إلى أرْدون (Ordono III) بن رُودْمير، يحملان كتابه إلى الناصر، الذي يُعبِّر فيه عن رغبته في الصلح. يمكن توجيه الموضوع على النحو التالي: ذلك أن Ordono III أرسل سنة 344هـ = 955م إلى الناصر سفارة يطلب الصلح وعَقْد معاهدة سلام بين الطرفين - خاصة أنه كان في ظروف صعبة كما مر بنا- أجابه الناصر لذلك، موافقًا على العرض ومرحبًا به. أرسل الناصر إليه، في السنة التالية سفارة جوابية لإتمام ما بدأوه في قرطبة. كانت السفارة مكونة من محمد بن حسين، لعله أحد مستشاري الخليفة وحَسْداي بن شَبروط. لا شك في أن الخليفة قد زودهما بالتعليمات المطلوبة. تمت المفاوضات ووُضِعَت الشروط والبنود وعاد الوفد القرطبي برفقة سفراء Ordono III إلى قرطبة، لإتمام ما قد يُثار من نِقاط جديدة، ووضع المعاهدة بالشكل النهائي والتصديق عليها. بعد انتهاء هذه المراسيم عاد الوفد الليوني إلى بلده.

إن عبارة ابن عِذاري نفسِه توحي لنا بحضور السفارة الليونية الثانية، التي جاءت إلى قرطبة مع الوفد الأندلسي، ذلك يتفق مع ما ذكره ابن خَلدون. يذكر ابن عِذاري أن رُسُل أردون انصرفت بعد ذلك[1].

---

(1) ابن عِذاري، البيان، 2/ 221. روايته: «وفيها 345هـ = 956م قدم محمد بن حسين رسولًا كان من الناصر إلى الطاغية أُرْدُون ابن رُدْمِير ملك جليقية، ومعه حسداي بن شبروط اليهودي، بكتابه إلى الناصر، راغبًا منه في الصلح، فأسعفه الناصر في ذلك على اختيار ولده الحكم، واشترط على الطاغية شروط؛ وانصرفت رُسُله بذلك».

بعد وفاة Ordono III خَلَفَه أخوه Sancho I الذي رفض تنفيذ المعاهدة السابقة التي عَقَدَها سلفُه مع الناصر. ما كان من الناصر إلا أن أعلن الحرب وبعث قائده أحمد بن يَعْلَى، حاكم طُلَيْطُلة (Toledo)، اضطر Sancho إلى الإقرار بالمعاهدة التي أبرمها أخوه وإلى عَقْد صلح مع قرطبة ويسود السلم بين الطرفين إلى حين. ثم حدث أن ثار أشراف ليون سنة 347هـ = 958م ضد Sancho I. المعروف بالسمين (Gordo 1) لأسباب كان منها: أن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ومن قيادة الجيوش، حتى بَلَغَت حدًّا لا يكاد يستطيع أن يمشي من غير أن يسنده شخصان فخلعوه. ثم اختاروا مكانه أردونيو الرابع (Ordono IV) المعروف بالرديء (el Malo) وهو ابن (Alfonso IV). التجأ الملك المخلوع إلى بنبلونه (Pamplona) مستجيرًا بجدته طُوطُه، ملكة نَبَارّة.

لم تكن هذه قادرة على مساعدته في إعادته إلى العرش، الذي يتطلب أمرين: معالجته من سمنته التي كان ضحيتها، التي فشل الأطباء، الذين استشارهم في معالجته؛ ومدَّهُ بالقوة الكافية لهذا الغرض. ما كان منها إلا أن اتجهت إلى الناصر تطلب مساعدته في هذه الأمور، أَرسلت إليه سفراءَها في نفس السنة، استجاب لها الناصر وأرسل حَسْداي بن شَبْروط.

نجح السفير في مهمته وقُبلت شروط الخليفة التي زود بها السفير: أن تُسَلّم بعض الحصون التي تقع على حدود الأندلس، وأن تحضر الملكة طُوطة وشانجهْ (Sancho) وغرسيه (Garcia) إلى قرطبة. كان هذا الاتفاق بمثابة الموافقة المبدئية.

فعلًا فقد حضرت الملكة طوطة سنة 347هـ = 958م مع ابنها Garcia وحفيدها Sancho إلى بلاط الخليفة، تصحبهم جماعة من الأحبار والأعيان[1].
حضر الوفد إلى قرطبة لوضع المعاهدة بالشكل النهائي أمام الخليفة، ولإتمام معالجة Sancho مما يبدو أن حَسْداي بدأ علاجه في نَبَارّة وأتمه في قرطبة. احتفل الناصر لمقدمهم واستقبلهم في حفل ضخم وأُبهة عظيمة بالقصر الخليفي بمدينة الزهراء بقاعة السفراء المسماة: «المجلس المؤنس». تم الاتفاق النهائي على كافة النقاط وحَقَّقت السفارة الأغراض المرجوة منها بالنسبة للطرفين. عُقدت بين الطرفين معاهدة سلام وصداقة، اعترف الناصر بموجبها بغرسيه (Garcia) بن طوطه (Toda) ملكًا على نافار، كانت وصيته وتحكم باسمه.

من ناحية أخرى تم الاتفاق مع Sancho على تسليم عشرة حصون على حدود الأندلس والتعهد بعدم مهاجمة الأراضي الإسلامية على أن يقوم الناصر بمساعدته على إعادة عرشه. فعلًا فقد شُفِيَ من سمنته المُفْرِطة[2]، كما أمده الناصر عسكريًّا لإعادة عرشه. تغلب على سَمُورة (Zamora) سنة 348هـ = 959م وأوفيدو (Oviedo) في السنة التالية وعاد إلى عرشه. أما أوردنيو (Ordono) فقد فر إلى بُرْغُش (Burgos)، وأُخِذَ (Fernan Gonzalez) مناصر (Ordono) أسيرًا. لعل من الأسباب التي دعت الناصر إلى مساعدة (Sancho I) - بالإضافة إلى ضمان كف الاعتداء - المعاهدة التي كانت بينهما قبل خلع (Sancho I) واعتبار (Ordono IV) مغتصبًا للمُلك من صاحبه الشرعي. لذلك فإن (Ordono) حينما التجأ أولًا إلى (Asturias) طرده أهلها وسلموا منطقتهم إلى (Sancho). بعد أن تم لـ Sancho I ما يريد أرسل إلى الخليفة سفارة يشكره فيها على صنيعه

(1) ابن خَلدون، العبر، 4/ 2/ 310.
(2) حتي، تاريخ العرب، 2/ 624.

له، استمر على عَلاقة طيبة مع الأندلس حتى آخر حكم الناصر سنة 300هـ = 961م[1].

★★★

اعتاد بعض حكام دولة إسبانيا المسيحية نقض عهودهم لأول فرصة تلوح، خاصة في فترات انشغال الحكومة الإسلامية داخليًّا، ظنًّا بضعفهم؛ يصاحبهم نفس الظن أحيانًا بمجيء حاكم جديد. ما أن تُوفيَ الناصر لدين الله، في 2 رمضان سنة 350هـ = 961/10/15م وخَلَفَه ابنُه الحَكَم الثاني (المستنصر بالله)، حتى نقض Sancho I ملك ليون المعاهدة التي عقدها مع الناصر. لما طالبه الحكم بتسليم الحصون وطالب (Garcia) ملك نافار بتسليم أسيره Fernan Gonzalez أميرِ قشتالة رفض المَلِكان هذه المطاليب، وأُطلق سَراح (Fernan) الذي عاد إلى عاصمته (Burgos). كان قد أعلن استقلال قَشْتالَة عن ليون[2]. بدأ غاراته على الأراضي الإسلامية يعاونه في هذا الهجوم Ordono IV[3]. ظن هؤلاء أن الحَكَم رجلُ معرفة وعلم لا رجلَ حرب. لكنه أثبت لهم - فيما بعد - أنه رجل حرب إلى جانب كونه رجل معرفة وأن العالِم يمكن أن يكون كذلك جنديًّا مِقدامًا سواءً بسواء. لكن لشدة رغبة الحَكَم في السلم لم يقم بهجوم مضاد، فما زادهم ذلك إلا تماديًا في الأمر. عندها لم يجد الحَكَمُ بُدًّا من الاستعداد للحرب، فأصدر أوامره إلى القادة بالتأهب لرد هذا العدوان[4].

---

(1) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 311.
(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 325.
(3) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 314. المقري، النفح (طبعة القاهرة)، 1/ 365.
(4) ابن عذاري، البيان، 2/ 235.

أما Ordono لعله أدرك أن مثل هذه الهجومات ضد الأراضي الإسلامية تقوي مركز خصمه Sancho I، الذي ربما يهرع إلى تصفية الجو مع الحَكَم - كما يقول ابن خلدون[1] - زيادة في التنكيل. هذا التعليل صحيح، لعل أهم منه علم Ordono بالتعبئة العسكرية التي أعلنها الحَكَم[2]. أضف إلى ذلك ضعف مركز Ordono. رأى من الخير التصرف بشكل آخر أجدى عليه، خاصة أن Sancho نقض المعاهدة، لمَ لا يستغل هذه الظروف للعودة إلى العرش، بالاستعانة بالحَكَم لا بالوقوف ضده؟ توجه إلى غالب الناصري، حاكم الثَّغْر الأعلى في مدينة سالم (Medinaceli)، عاصمة الثغر، طلب إليه أن يصحبه إلى الخليفة، دون مقدمات أو عهد سابق. ذلك ما تم فعلًا، حيث اتصل غالب بالخليفة، الذي طلب إليه مرافقة Ordono إلى قرطبة، من غير أن يعطيه الخليفة وعدًا بالمعاونة.

نهاية صفر سنة 351هـ = 962/4/8م وصل Ordono إلى قرطبة في عشرين رجلًا من وجوه أصحابه، يصحبهم غالب الناصري[3]، لطلب عون الحَكَم ومساعدته ضد Sancho I في إعادته إلى عرشه. كان يوم استقبالهم يومًا مشهودًا وَصَفَه ابنُ حَيّان، كما وصف المشاهد السفارية الأخرى، التي للأسف لم يبق لنا منها إلا ما نقله المَقَّري في نفحه[4] بصورة رئيسة.

كان في استقبالهم الوزير هشام المُصْحَفِي، على رأس قوة عسكرية. كان أول ما زار Ordono قبر الناصر، مُظهرًا الحزن لفقده، حتى خلع قلنسوته وانحنى أمام قبره، زيادة في الاحترام. وأُنزل وأصحابه مكرمين، في منية (قصر) الناعورة المزود

---

(1) العبر، 4/ 2/ 314.
(2) المقري، النفح (طبعة القاهرة)، 1/ 365.
(3) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 314، 388. ابن عِذاري، البيان المغرب، 2/ 235.
(4) المقري، النفح (طبعة القاهرة)، 1/ 365 – 370.

بكل أسباب الراحة. بعد يومين من وصولهم استدعاهم الخليفة الحَكَم لمقابلته في مجلسه بالزهراء، الذي زُين لهذا الغرض. جلس الحَكَم فوق سرير المُلْك بالمجلس الشرقي، المجلس المؤنس، يحيط به كبار رجال الدولة من حُجَّاب ووزراء وقضاة وحكام وفقهاء. مرOrdono وأصحابه وسط صفوف الجند المسلحين بمختلف العُدد. كان يصحب الوفد جماعة من المُسْتَعْرَبِينَ النصارى بقرطبة وعُبَيْد الله ابن قاسم أُسقُف قُرطبة. أَذِن الخليفة بالدخول إلى مجلسه حتى وصلوا مقعده، حيا Ordono الخليفة وقَبَّل يده ثم جلس في مجلس الديباج المذهب المعد له، الذي كان يبعد عن الخليفة بحوالي خمسة أمتار. ثم دخل أصحابه، بعد أن حيَّوْا الخليفةَ بنفس الطريقة، وقفوا حول صاحبهم واستمعوا إلى حديث الخليفة الذي رَحّبَ بهم ترحيبًا أطربهم. كان يقوم بالترجمة وليد بن خَيْزُران، شرح Ordono مراده متعهدًا محالفة المسلمين وتقوية عَلاقات الود والصداقة معهم ومقاطعة Fernan Gonzalez، كما تبرع أن يدع ولده Garcia رهينة لدى المسلمين دليلًا على صدق نيته. وَعَدَه الخليفة النظر في الأمر وانصرفوا مبهورين لِمَا رأوا من العظمة والفخامة، مزودين بالهدايا التي أمر بها الخليفة.

يبدو أن السبب الكبير - إن لم يكن الوحيد - الذي حمل الخليفة على النظر في الأمر أن Sancho، الذي كان الناصر قد ساعده ضد Ordono، أخلف وعده هذه المرة ونقض المعاهدة التي عقدها الناصر، أنكر تلك المساعدات الطبية والعسكرية، لعله تخطيط سياسي لتخويف Sancho. لذلك لم يباشر الخليفة الحَكَم بأي عمل تنفيذي لـ Ordono بالمساعدة العسكرية. إن ماجريات الأمور التالية تلقي ضوءًا على ترجيح هذا التعليل، لعل الخليفة كان سينظر في الأمر في حالة استمرار Sancho في نقضه، لذلك لم يبدأ تنفيذ أي أمر فيه مباشرةً.

ما أن سَمِعَ Sancho I أخبار سفارة Ordono واستقبال الخليفة له حتى داخله الخوف على عرشه، سارع Sancho I بإرسال سفارة إلى الحَكَم في جُمادَى الآخِر - رجب 351هـ = 962/5/م، كان من أعضائها حاكما غاليسية Galicia وسمورة Zamora، معترفًا بخلافة الحَكَم ومستعدًا لتنفيذ بنود المعاهدة التي أبرمها مع الناصر وعدم مساندة Fernan Gonzalez في عدواناته[1]. لكن حَدَثَ ما لم يكن بالحسبان مما غَيّر مجرى الأحداث التالية. في نهاية سنة 351هـ = 962م تُوفي OrdonoIV وعاد Sancho I إلى نقضه.

تطور الأمر أكثر من ذلك إذ عَقَدَ جميعُ الحكام المسيحيين حِلْفًا دفاعيًّا: Fernan Gonzalez **حاكم** Castilla **و**Sancho I **ملك** Leon **و**Garcia Sanchez I **ملك نَبَارّة و**Borrell **حاكم برشلونة** Bacelona **ومعاونه** Miron. **أمام ذلك وَجَدَ الحَكَمُ نفسَه مضطرًا لإعلان الحرب، كان الجيش الأندلسي معبئًا كما مرّ بنا. في صيف سنة 352هـ = 963م زَحَفَ الجيشُ بقيادة الحَكَم نفسِه إلى الشَّمال نحو قَشتالة** Castile, Castilla**، حيث بدأ حاكمُها هجومَه مباشرةً بعد أن أُطلق سَراحُه، التقى به عند قلعة شَنْت اشتبين** (San Esteban) **عند نهر دُويرُهْ** (Duero)**. لم يستطع** Ferana **الوقوف أمام هذه القوة، اضطر إلى الإذعان وعقد صلحًا مع المسلمين، لكنه عاد فنكث، عاد المسلمون إلى مهاجمته. كان الحَكَم قد وَجّهَ حملات أخرى نحو الجهات المختلفة، بقيادة يَحيى بن محمد التُّجيبي حاكم سَرقُسْطة** Zaragoza **إلى نافار** Navarre, Navarra**، وكُلًّا من القائدين: غالب وسعيد إلى جهات أخرى.**

---

(1) ابن عِذاري، البيان، 2/ 235. ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 315.

استغرقت هذه العمليات صائفتي 352 ـ 353هـ = 963 ـ 964م. حَدَثَتْ معركة أخرى عند غُرْمَاج (Gormaz) القلعة الحصينة فوق نهر دُويرُهْ إلى أعلى حِصن San Esteban[1].

★★★

تلت ذلك أحداث عدة في كل من إسبانيا المسيحية والإسلامية، تتفاوت في الأهمية. في سنة 353هـ = 964م كانت بقرطبة مجاعة عظيمة[2]، كما كانت حكومة قرطبة تصرف جزءًا من جهدها في الاستعداد والتحصين أمام الخطر الفاطمي، الذي امتد حكمه إلى مناطق كثيرة في شمالي إفريقيا، حتى إن الحَكَمَ ذهب بنفسه في رجب سنة 353هـ = 964/9/م، مع مجموعة من كبار القادة، إلى المَرِيّة (Almeria) القاعدة الكبرى للأسطول الأندلسي؛ ليشرف على عمليات الإعداد والتعبئة هناك[3]. أما بالنسبة لإسبانيا المسيحية فقد قامت ثورات ضد Sancho I ملك ليون (Leon) حتى تُوفِّيَ مسمومًا سنة 355هـ = 966م. خَلَفَه ابنُه الطفل راميرو الثالث (Ramiro III) تحت وصاية عمته إلبيرة (Elvira) وهي أخت (Sancho I) أبو المَلك الطفل. لكن حُكم ليون من قِبَل امرأة وطفل دعا كثيرًا من الزعماء الليونيين إلى الاستقلال في مناطقهم. في سنة 360هـ = 970م تُوفِّيَ فرنان غنصالص (Fernan Gonzalez)، خَلَفَه ابنُه غرسيه فرناندث (Garcia Fernandez). كما تُوفِّيَ في نفس السنة غرسيه سانشث (Garcia Sanchez) ملك نَبَارّة وخَلَفَه ابنُه شانْجُهْ غارثس الثاني (Sancho Garces II). في أول رجب سنة 355هـ = 966م هاجم المجوس الأرْدُمانيون (The Vikings Norseman) سواحلَ الأندلس الغربية عند لِشبونة Libon, Lisboa، حدثت معارك عدة. ثم

---

(1) ابن خلدون (العبر، 4/ 2/ 314)، يجعل هذه المعركة في سنة 354هـ = 965م.

(2) ابن عِذاري، البيان المغرب، 2/ 236.

(3) ابن عذاري، 2/ 236. ابن الخطيب، الإحاطة، 1/ 486 – 487.

في سنة 360هـ = 970م هاجموا سواحلَ غاليسية (Galicia) وأشرفوا على شنت ياقب (Santiago de Compostela).

كانت أحداث الصِّدَام بين الطرفين خلال ذلك بسيطة، وأن هذه الأحداث لم تؤثر كثيرًا على الأندلس إذ تم التغلب عليها بسرعة. أما بالنسبة لإسبانيا الشمالية فكانت ذات أثر كبير، كان قيام إمارات مستقلة متعددة مما أدى إلى ضعفها. كانت قرطبة خلال ذلك يَطَّرد نُموُّها وتقدمها حتى غدت مركز التوجيه ومقصدًا للبعثات العلمية والسياسية من كل مكان[1].

لا يُقصد أن حدثًا معينًا من هذه الأحداث حَمَلَ وَحْدَه حكامَ الشَّمال على طلب صداقة قرطبة وخَطْب وُدِّها، هذه الأحداث زادته. إن قوة الحَكَم وانتصاراته الساحقة التي حازها ضد ملوك الشَّمال رغم اتحادهم، جعلهم يفضلون العَلاقات الودية مع قرطبة، حتى إن شانْجُهْ الأول (Sancho I) ملك ليون نفسه فضل عقد الصلح مع الحَكَم. في سنة 355هـ = 966م أرسل شانْجُهْ الأول (Sancho I) سفارة إلى قرطبة لطلب السِّلْم وتأمين جانبه تُجاه المسلمين لينصرف إلى إخماد الثورات الداخلية. أراد استغلال هذه السفارة إلى أبعد حدٍّ ممكن بتحقيق رغبة زوجته تريسا (Teresa) وأخته إلبيرة (Elvira)، كَلَّف السفراءَ رجاءَ الخليفة بالسماح بنقل رفات القديس سان بلايو (San Pelayo) إلى ليون[2]. لعله ظن أن ذلك يجلب له عاطفة شعبه ويخفف من حدة المعارضة. فعلًا استجاب الخليفة لذلك وتم نقله في حفل ضخم، لم يستطع ملك ليون شانْجُهْ الأول (Sancho I) حضوره لانشغاله ببعض الثورات.

★★★

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 42. عنان، دولة الإسلام،2/ 447.

(2) عنان، دولة الإسلام، 2/ 543.

لاحِظوا: كيف نَقَضَ ملوكُ الشَّمال عهودَهم، خاصة شانْجُهْ الأول (Sancho I) ملك ليون، كيف أن المدة السابقة تراوحت العَلاقة فيها بين الطرفين من الحرب الضروس إلى الصداقة وتبادل السفارات. توقفت الاعتداءات على الأراضي الإسلامية بوفاة شانْجُهْ الأول (Sancho I) ومجيء ابنه شانْجُهْ الثالث (Sancho III) الذي كان عمره حوالي ثلاث سنوات، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة (Elvira) بمعاونة والدته تريسا أنسورث (Teresa Ansurez). كذلك ظهور الزعماء المحليين الذي أفقد ليون وحدتها. مع العوامل الأخرى التي سبق ذكرها، كل ذلك أوجد جوًّا من الهدوء بين الطرفين، خاصة بعد أن برهن الحَكَم على أن قدرته العسكرية ليست أقل من العلمية. حتى أصبحت قرطبة مركز القيادة في شبه الجزيرة الأندلسية، كلٌّ يطلب وُدَّها ويسعى إلى كسب صداقتها وعقد معاهدة سِلْمٍ معها تُلْتَزَم بنودُها، كما تُطلب مساعدتها.

ما أن تنتهي سنة 355هـ = 366م حتى نرى الوفود السفارية تَتْرى متتابعةً في طريقها إلى قرطبة[1] من كافة أنحاء إسبانيا المسيحية - ومن بلدان أخرى - ساعيةً لكسب صداقتها وعَقْد صلات المودة. كانت السنوات الأخيرة من أيام الحَكَم غنية بهذه الوفادات.

نهاية شعبان سنة 360هـ = 971م يصل بون فليو (Enneco Bonffill) ابن سندريط (Sinderedo) إلى بَلاط الحَكَم سفيرًا لحاكم برشلونة، بريل (Borerell) ابن سنير (Suner) (343-382هـ = 954-992م). كان يَصحب

(1) يُلاحَظ من المعلومات الواردة عن هذه السفارات - وهي عديدة - بعض الارتباك أو التعقيد أو الإيجاز الغامض. سيُعمل على ترتيبها وتنسيقها، بالاستعانة بمخطوط ابن حيان، المقتبس، مخطوط الأكاديمية التاريخية بمدريد، مجموعة كوديرا = قديره Francisco Codera، رقم: 2. قام المؤلف بتحقيقه (بيروت، 1965).

هذا السفير عشرون من النبلاء، بعضهم ممثلون شخصيون لغيتار (Guitardo) نائب حاكم برشلونة لعله حاكم مدينة برشلونة وبريل (Borerell) حاكم إمارة برشلونة كلها. كانوا يحملون الهدايا للخليفة: عشرون صبيًّا من الصقالبة وعشرون قِنطارًا من الصوف وعشرون دِرعًا ومائتا سيف فرنجية وخمسة قناطير من القصدير مع ثلاثين أسيرًا مسلمًا بين رجال ونساء وأطفال. كان السفراء يحملون رسائل من حاكم إمارة برشلونة ونائبه، يرافقهم ثلاثة من الفرسان. كان في استقبال هؤلاء السفراء هشام بن محمد بن عثمان، صاحب الشرطة وحاكم مدينة طُرْطُوشة (Tortosa) وكورة بَلَنْسِيَةَ (Valencia)[1]، كان مرافقهم والمسؤول عن راحتهم. قادهم إلى مكان ضيافتهم في قصر نَصْر، الذي يقع على ساحل الوادي الكبير Guadalquivir[2] عند قرطبة، ثم ذهب هِشام لإكمال ترتيبات المقابلة مع الخليفة، الذي أوصى بالعناية بهم وتزيين منزلهم.

في 4 رمضان = أول/7/ من نفس السنة، استقبل الخليفة هؤلاء السفراء استقبالًا حافلًا في بهو السفراء في قاعة الاستقبال الشرقية، المُطِلّة على الحدائق الغَنّاء بالقصر الخليفي بمدينة الزهراء. كان الحَكَم يجلس على الكرسي الخليفي يَحُفّ به وزراؤه وحُجّابُه وكبار رجال دولته، من الوزراء الذين كانوا على يمينه، القائد غالب الناصري يليه قاسم بن محمد بن طُمْلُس وزير القصر. من الوزراء على يَساره جعفر بن عثمان المُصْحَفي حاكم قرطبة، يليه محمد بن أفلح، حاكم مدينة الزهراء، تقدم السفراءُ لمقابلة الخليفة تتبعهم فرقة من الجند برئاسة شَهوار بن عبدالرحمن بن الشيخ، معهم من المُستَعرَبين المسيحيين القرطبيين

---

(1) ابن حيان، المُقْتَبِس (طبعة بيروت)، 20-21، 32.

(2) يقع قصر نصر أو: (مُنية نصر) في ظاهر قرطبة على النهر، بناها الأمير عبدالله بن محمد. انظروا: الحِمْيَري، الروض المعطار، 187.

الذين كانوا يقومون بالترجمة. قَبّل السفراءُ يَدَ الخليفة وقدموا إليه رسالة بريل (Borrell) والرسائل الأخرى. أبلغوه رغبتَهم في تجديد الصلح واستمرار السلام وتبادل الحديث، أبدى الخليفة الرغبة التامة في معاهدة السلم بين إمارة برشلونة وقرطبة. أَبرم معهم معاهدة استجاب فيها لمطالبهم، التي يظهر أنها تتعلق بتأييد أو اعتراف الخليفة بهم وطلب مساعدته وقت الحاجة، يتعهدون بهدم الحصون التي تُشكِّل خطرًا على الحدود الإسلامية وألا يعاونوا أهل ملتهم إذا اعتدوا على المسلمين وينبئوا السلطات الإسلامية بأي تدبير عدواني قبل وقوعه إذا علموه[1].

في منتصف شَوّال = /8/ من نفس السنة، عاد الوفد إلى بلدهم بعد أن حملوا جواب الخليفة ورغبته في عقد سلام بين قرطبة وبرشلونة؛ مزودين بالهدايا التي تَرْبُو على ما قدّموا من العبيد الذين حررهم الخليفة وغيرها. يذكر ابن خلدون[2]: أن سفراء برشلونة لم يكونوا وَحْدَهم، بل كان معهم سفراء من طَرّكُونة (Tarragona) ومن قُومِس الفِرنْجة. يظهر من كلامه أن المعاهدة عُقِدَت مع الجميع. لعله يعني بـ «قُومس الفِرنجة» بني قُومِس (Bini Gomez)، حكام كاريون (Carrion). ليس من الضروري أن تكون كل هذه السفارات جاءت معًا، بل لعلها وصلت في أوقات متقاربة جدًّا.

تبدو السفارة التالية، التي يوردها ابنُ حَيَّان، كانت معاصرةً للسابقة أثناء وجودها في قرطبة وإن اختلف يوم استقبالها. يورد لنا في هذا الجزء من «المُقْتَبِس»[3] وصولَ سفارةِ حاكم غالسية (Galicia) في رمضان سنة 360هـ = /971/7م إلى قرطبة، دون تفصيل. يقول: «وفي يوم السبت لخمسٍ بَقِينَ منه من رمضان 360هـ

(1) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 315. نقله المقّري بتصرف في النفح، 1/ 361.
(2) العبر، 4/ 2/ 315.
(3) طبعة بيروت، 27. حين دراسة هذا الموضوع كان الكتاب لا يزال مخطوطًا.

دخل سَلس رسول القُومِس عند شلب بن مسره بكتابه من مدينة لَستره من أداني جليقية بتاريخ يوم الأحد لاثنتي عشرة خلت من رمضان يذكر دخول المجوس - أهلكهم الله - يوم السبت قبله واديَ دُويره، وذلك شطر النهار وأنَّهم خرجوا في الغارة إلى شَنْت بَرْيَة وبسيطها وأنهم انصرفوا خائبين».

نلاحظ أن النص غامض خاصة أسماء الأعلام، ومما يزيده غموضًا أن الأوراق التي قبل هذه الصفحة مفقودة. هذا الجزء من المُقْتَبِس ناقص الأول كما أن الصفحات ابتداءً من السطر الأسبق للنص، في الصفحة المذكور فيها النص الآنف، مفقودة أنصافها السفلى.

بالإمكان صياغة الموضوع على الشكل التالي: إن عند شلب بن مسرة جنثالو مينندث (Gonzalo Menendez) واسمه اللاتيني (Gondisalvus) وهو قريب جدًّا من غندشلب الذي وَرَدَ أحيانًا غندشلب (ربما محرفًا) الذي هو أقرب إلى اللاتينية. مَسَرّة: يبدو أنها أُصيبت بتصحيف خلال النسخ، لعلها أصلًا منندو أو منندو. إن كلمة القُومِس قبل الاسم طالما استعملها المؤرخون المسلمون يعنون بها كونت الإنكليزية (count) والإسبانية (conde). الاسم المقترح هو أحد الأمراء أو الكونتات الجليقيين الذين استقلوا بحكم جليقية Galicia الغريبة التي تمتد من نهر مينيو (Mino) إلى جنوب نهر دُويرُهْ (Duero) حيث القسم الشمالي من ولاية البرتغال، المنطقة التي عَبّر عنها ابن حَيّان: «من أداني جليقية». هذا الكونت هو الذي دبّر قتل شانْجُهْ (Sancho I) ملك ليون سنة 355هـ = 966م. إذا كان غير معروف لديّ تاريخ وفاة هذا الكونت فإنه كان حيًّا طوال أيام الحَكَم المستنصر، حيث كان على صلة حسنة مع المنصور بن أبي عامر. أما لَستره لعلها تحريف عن

«ميجو» التي تُكتب أحيانًا لَميقة[1]: إحدى المدن التي كانت في منطقة هذا الكونت ربما كان اتخذها عاصمة له. كان الأرْدُومانيون قد ظهروا في سواحل الأندلس الغربية أول رمضان سنة 360هـ=971م[2]. تطابقُ التاريخ الذي يذكره ابن حَيَّان لهذا الهجوم، مع المؤرخين الآخرين، يزيدنا ثقة بما يروي. ابن حَيَّان يُعطينا تفصيلًا أكثر يقول: إن الأُرْدُومانيين (النورمان) دخلوا نهر Duero حتى وصلوا مقاطعة شَنْت بَرْيَة (Santaver).

القصة: أن غُنْصالو مننذث (Gonzalo Menendez) حاكم جليقية (Galicia) الغربية أرسل سفارة إلى الحَكَم المستنصر في التاريخ المذكور يخبره بغزو النورمان. كان هذا الكونت على عَلاقة طيبة مع المسلمين فأراد، بالإضافة إلى الإعراب عن الرغبة في استمرار الصداقة والسلم، التقرب إلى الخليفة بإنبائه بالغزو النرماني بدافع الحرص على الأراضي الإسلامية. كما أنه وَحْدَه لا يستطيع رَدَّهم، فهو في نفس الوقت يستعين بالمسلمين في درء خطر النورمان، وأنهم – وإن رُدُّوا خائبين، على حد تعبير ابن حَيَّان – قد يعودون إلى الهجوم مرة أخرى. هكذا كانت هذه السفارة متعددة الأغراض. في هذه الآونة كانت قد تغيرت الأحوال؛ حيث توفي فرنان جُنثالث (Fernan Gonzalez) حاكم قشتالة سنة 360هـ = 970م وخَلَفَه ابنُه غرسيه فرناندث (Garcia Fernandez)، كما يخلف شانْجُهْ غرثس الثاني (Sancho Garces II) في نفس الوقت أباه غرسيه سانشث الأول (Garcia Sanchez I) على عرش نافار. فَضَّل هؤلاء عقد الصلات الودية مع قرطبة. يورد ابن حَيّان في مُقْتَبِسه عددًا من السفارات المسيحية[3]: أنها كانت متعاصرة في

(1) عنان، دولة الإسلام، 2/ 508.

(2) ابن عذاري، البيان، 2/ 241.

(3) طبعة بيروت (1965م)، 241 – 242.

وصولها قرطبة. استقبلهم الخليفة في جلسة واحدة - كلٌّ على انفراد - يدخل الوفد التالي بعد انتهاء مقابلة الذي قَبْلَه. لعل ذلك رغبة في المبالغة في إكرامهم وأكثر مناسبًا، من أن يقابلهم معًا.

يوم السبت 16 شوال سنة 360هـ = 971/8/11م جلس الخليفة على السرير في البهو الشرقي بقصر الزهراء في حفل مَهِيب، يُحيط به - كالعادة في مثل هذه المناسبات - الحُجَّاب والوزراء وكبار رجال دولته حسب مراتبهم، لاستقبال سفراء سانشو غارثس الثاني (Sancho Garces II) ملك نافار. كان الوفد مكونًا من رسولين مع كل منهما اثنان من نبلائهم، مع مجموعة من الأساقفة والقواميس[1]. استقبل بعدهم الليث رسول إلبيره (Elivira) الوصية على راميرو الثالث (Ramiro III) ملك ليون، يصحبه عبد الملك العريف، ثم حبيب بن طويلة سعادة رسولا فرنان لينث (Ferana Lainez) حاكم سَلَمَنْقَة (Salamacna) ثم غرسيه فرناندث (Garcia Fernandez) سفير غرسيه (Garcia) بن أتون (Aton)، ربما أنتون (Anton) حاكم قشتالة ثم فرناندو (Ferando) وخمينو (Jimeno) رسولا Fernan Ansurez حاكم منتشون Monzon وأخيرًا خلف ابن سعد وسليمان رسولا الكونت غُنْثالو (Gozalo).

استجاب الحَكَم إلى مطاليب هؤلاء وعقد معهم معاهدات السِّلْم والصداقة وعادوا إلى بلدانهم مزوَّدين بالهدايا.

يوم السبت 6 ذي الحجة = /10/ من نفس السنة، جلس الخليفة مجلسَه لاستقبال السفير السابق. ثم استقبل الخليفة خمينو (Jimeno) بن غرسيه سانشث الأول (Garcia Sanchez I) أخو ملك نافار سانشث غرثس الثاني

---

(1) طبعة بيروت (1965م)، 241-242.

(Sancho Garces II) ورسوله إلى قرطبة، ثم سفير قَشتالة وسفيرًا آخر لم أتبينه[1]. كان يصحب هؤلاء السفراء، أثناء مقابلتهم للخليفة مترجمون من المُسْتَعْرَبِينَ النصارى القرطبيين: القاضي أصبغ بن نبيل والأسقف عيسى بن منصور ومعاوية بن لب وعبيد الله بن قاسم مُطران إشبيلية. أَطْلعوا الخليفة على ما يريدون - وهي لا تتعدى كسب الصداقة أو طلب المساعدة - استجاب لهم الخليفة وعادوا إلى أوطانهم.

إن تكرار السفارات من قِبَل نفس الحُكَّام بهذا الشكل المتتالي يدل على مكانة قرطبة، ورغبة هؤلاء في كسب صداقتها وتأكيد المودة معها أو يكون بيانًا لرضا مَنْ يمثلون عما أُبْرِم من المعاهدات أو لطلب استمرارها.

★★★

في 22 ذي الحجة سنة 362هـ = 23/9/ 973م جلس الخليفة كالعادة في قاعة الاستقبال مجلسًا فخمًا لاستقبال سفراء من الدول المسيحية في الشَّمال، بعد انتهائه من مقابلة رُسُل بعض الزعماء من الشَّمال الإفريقي. يظهر أن المقابلات تمت على حِدَة حسب وصولهم إلى قرطبة. كان أول وفد استقبله الخليفة هُم سفراء شانْجُه غارثس الثاني (Sancho Garces II) ملك نافار ثم رُسُل فرناندو أنسورث (Ferando Ansurez) حاكم منتشون (Monzon) ثم رسل بني قُومِس أمراء كاريون (Carrion). كما وصل سفراء من شَلطانية (Saldana) وسَمُّورة (Zamora) وقَطالونية (Catalung)[2] ثم سفراء إلبيرة (Elvira)، ثم سفراء (Rodrigo Velazquez)[3]. لا بد من الوقوف عند هذه السفارة الأخيرة

(1) ابن حيان، المقتبس (طبعة بيروت)، 63 - 64.
(2) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 317.
(3) ابن حيان، نفس المصدر، 138.

لمناقشتها فلدينا عنها بعض المعلومات المتناقضة. ابن حَيَّان[1]: يجعل المُرْسِل هو كونت العرب، ولا شك في أنها الغرب بدل العرب. تردد كوديراCodera في البت فيها، وإن كان اقترب مما سيُتَوصّل إليه[2].

لعل عبارة ابن حَيَّان «قومس العرب» أُصيبت بالتحريف وأُسقطت منها كلمة «جلّيقية» التي نجدها فيما أورده ابن خلدون حين الحديث عن هذه السفارة. من المعقول جدًّا أن ابن خَلْدون اطَّلَع على أصل كتاب ابن حَيَّان. يقول- أي ابن خَلْدون - عن مرسل هذه السفارة: «القومس بالقرب من جليقية». كذلك المَقَّري[3]، نقلًا عن ابن خَلدون. يبدو أن العبارة الأصلية لابن حَيَّان وربما لابن خَلْدون أيضًا، هي «القومس بالغرب من جليقية». هذا ما نجده عند المَقَّري طبعة دوزي Dozy[4]. على ذلك يظهر أن روديغو فلاثكث = لُذْريق بلاشك (Rodrigo Velazquez) مُرسِلَ السفارة هو أَحَدُ الكونتات في غرب جليقية. هو من أكبر الكونتات هناك وأقواهم، كان قد أرسل وفدًا سفاريًا برآسة أُمِّه أونيكا (Oneca) إلى الخليفة الحَكَم المستنصر، الذي استقبلها استقبالا جليلًا وبالغ في إكرامها، حيث كانت ممثلة لابنها روديغو فلاثكث = لُذْريق بلاشك (Rodrigo Velazquez) لأول مرة. يُقدِّم لنا ابن خلدون وصفًا لطيفًا موجزًا عن هذه السفارة وعن اهتمام الحَكَم بـ أونيكا (Oneca) أم المُرْسِل[5] حيث احتفل لقدومها في يوم مشهود وأبرم معاهدة سِلْم لابنها وأنفذ جميع رغباتها وأغدق عليها وعلى أعضاء وفدها الهبات وأركبها

---

(1) ابن حيان، نفس المصدر، 138.

(2) Codera , "Embajada de principes Cristioanos en Cordoba en en los ultimos anos de Alhakam II " , Coleccion de estudios Arabes , IX.p. I84.

(3) المقري، النفح (طبعة القاهرة)، 1/ 361.

(4) المقري، النفح، طبعة دوزي وآخرين، ليدن، 1/ 1/ 249.

(5) ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 316.

بغلة فارهة بسرج ولجام مُثْقَلَيْن بالذهب وَملْحَفَة ديباج. عندما انتهت مهمتها حضرت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصِّلات، غادرت معززه إلى وطنها. المُستَقْبَلة في شرح ابن خَلْدون هذا هي أم الكونت رودريغو فلاثكث = لُذْريق بلاش (Rodrigo Velazquez) وليست إلبيرة (Elvira) وصية عرش ليون كما فهمها الأستاذ عنان[1]؛ لذلك ثلاثة أسباب:

1 - إنها أم المُمثّل أو المُرسِل، وإلبيرة (Elvira) ليست أُمّ مَن عليه الوصاية أو مَن تحكم باسمه بل عمتهُ.

2 - إن هذه السيدة التي حضرت إلى قرطبة مَثّلَت لُذْريق بلاشك، فهو مطابق ل (Rodrigo) Velazquez، وإلبيره تمثل راميرو الثالث (Ramiro III) هي وصيته. راميرو بعيد من الاسم الذي ذكره ابن خَلْدون: «لُذْريق بِلاشك».

3 - إن هذه السيدة الوافدة إلى قرطبة كانت تمثل حاكمًا جلّيقيًّا وإلبيرة تمثل ملك ليون.

إذن هذه الوافدة إلى قرطبة والتي أكرمها الحكم إكرامًا بالغًا - حسب وصف ابن خَلْدون - هي أونيكا (Oneca) أم لُذْريق بلاشك أحد كونتات جليقية الغربية، ليست إلبيرة (Elvira) وصية عرش مملكة ليون هذه.

★★★

في 17 صفر سنة 363هـ = 973/11/17م[2]، جلس الخليفة لاستقبال عدة سفارات بالأبهة المعتادة في مثل هذه المناسبات، على سريره في قصر الزهراء. كان يحيط به الحُجّاب والوزراء وأصحاب المراتب المختلفة. استقبل رُسُل إلبيرة (Elvira)، وصية راميرو الثالث (Ramiro III) ملك ليون (بعد الانتهاء من مقابلة

(1) عنان، دولة الإسلام، 2/ 447 - 448.

(2) ابن حيان، المقتبس (طبعة بيروت)، 116-117.

سفراء الزعماء الإفريقيين الذين حضروا (قبلًا). كان يصحب هؤلاء الرسل أصبغ ابن عبد الله بن نبيل، قاضي النصارى بقرطبة؛ ليقوم بدور الترجمة. بدأ الرسل حديثهم بألفاظ جافة غليظة، مما دعا الخليفة إلى استنكار هذا التصرف الغريب، ربما المدبر الذي لا يُعرف سببه. نَهَرَ الخليفة المترجِم وطرده وأنهى المقابلة، طالبًا من السفراء الانسحاب، بعد أن وجه إليهم اللوم والتوبيخ. أصدر أمرًا بعزل القاضي أصبغ من منصبه لاعتباره شريكًا، حيث لم يحاول أن يصيغ ترجمة ما قالوه بألفاظ مؤدبة أو يحاول كَفَّهم عن ذلك، الأمر لا بد أن يكون مشترَك التدبير أو على الأقل كان لأصبغ علم سابق به.

استقبل هؤلاء السفراءَ فيما بعد قائدُ الفرسان زياد بن أفلح في مقره بدار الجند، وجه اللوم إليهم وإلى المترجم وعَرَّفهم بأنه لو لم يَعْتَبِروا لديهم الحصانة الدبلوماسية – باعتبارهم سفراء – لعوقبوا حالًا، لكن عفا عنهم، وعَرَّفهم سببَ ما نال أصبغ. ثم أصدر الأمر إلى الفقيه أحمد بن عمروس العريف[1]، وعبيد الله بن قاسم مُطران إشبيلية، ليقوم بدور المترجم، بالتوجه إلى إلبيرة (Elvira)، بصحبة وفدها العائد. خرج الجميع من قرطبة في نهاية صفر من السنة المذكورة. كما صدر الأمر إلى محمد بن مُطَرّف، من كُورة الغرب، لعله حاكمها أو أحد المسئولين هناك، للالتحاق بهم حالًا. يظهر أن هذه السفارة توجهت إلى إلبيرة (Elvira) لبيان فِعْلَة سفرائها بحضرة الخليفة وللاحتجاج على هذا التصرف.

في يوم السبت 9 ذي القعدة سنة 363هـ = 31/7/ 974م، استعد الخليفة استعدادَه للاستقبالات الدبلوماسية، بالقاعة الشرقية بقصر الزهراء. يشاركه في ذلك أهلُ المراتب المختلفة، داخلَ القصر وخارجَه، كما هو الحال في مثل هذه

(1) المقتبس (بيروت، 1965م)، 182-183.

المناسبات، لاستقبال غيتار (Guitardo)، حاكم مدينة برشلونة سفيرًا لبريل (Borrell) حاكم إمارة برشلونة. سلم رسالته إلى الخليفة التي يؤكد فيها التزامَ الطاعة والحرص على الصداقة والوفاء بالعهود.

استقبل الخليفة بعده رسولين لأحد حكام الشَّمال. إليك نص ابن حَيَّان[1]:

«ثم توصل ابن إنيكه أسقف جرنس ونونه بن غندشلب، صاحب قشتيلة ويلبيس بن شبريط، رسول فردلند بن الشور، فأوصلا كتابه وقالا بما أُمرا به من الاغتباط باستمرار السِّلْم، وقد أحس منه التَّنَزِّيَ على مُكْثِه، فَقَرّب رسولاه في الجواب وأُمضيت لهما الصلة المعتادة، وانطلقا لسبيلهما في العشر الأواخر من ذي الحجة»، أي: سنة 363هـ = 974م. كانت الرسالة تُعبر عن الرغبة في استمرار الصداقة وزُوّدوا بالهدايا وعادوا إلى أوطانهم.

في سنة 366هـ= 976م أرسل بريل (Borrell) حاكم إمارة برشلونة سفارة أخرى واستقبلها الحَكَم كالعادة، كان الغرض منها: كسابقتها لتأكيد المودة واستمرار الصداقة.

نلاحظ أن بعض السفارات السابقة – خاصة المُرسَلة من بعض الإمارات الناشئة أو المستقلة – كان غرضها كسب صداقة قرطبة وطلب مودتها لتأمين جانبها والاحتماء بها.

★★★

الآن نأتي إلى آخر سفارة يذكرها ابن حَيَّان[2]. هذه السفارة غريبة في بابها؛ إذ أنها أشبه بطُعْم أو تغطية لتنفيذ خُطة اعتداء مدبرة. كانت سياسة

(1) المقتبس بيروت، (1965)، ص 182-3. التنزي على مكثه: لعلها تعني الرغبة في الاستجابة وأداء الاستحقاق.

(2) ابن حيان، المقتبس طبعة بيروت، (1965)، ص 188-9؛ عنان، دولة الإسلام، 2/ 453.

كونت قَشْتالة غرسية فرناندث (Garcia Fernandez) مع المسلمين ملتوية. كان يتظاهر بالرغبة في السِّلْم والصداقة لكنه – في نفس الوقت – يبيت الخطط لغزو الأراضي الإسلامية كلما سنحت له الفرصة. كان في انشغال الخليفة الحَكَم مع بعض أمراء المغرب، حيث وجه ضدهم بعض كبار قادته، خير فرصة سانحة. أرسل كونت قَشْتالة هذا إلى قرطبة سفارةً لتأكيد عَلاقات الصداقة والرغبة في استمرار السلم. وصل هؤلاء الرسل قرطبة واستقبلهم الخليفة في حفل مَهيب - كعادته في مثل هذه المناسبات - مرّحبًا بهم مستجيبًا لرغبتهم. انصرفوا من مجلس الخليفة بعد أن زَوّدهم بالهدايا وبِرَدِّه الإيجابي على ما طَلَبوا. في 20 ذي الحجة سنة 363هـ = أوائل/9/ 974م، تركوا قرطبة متوجهين إلى وطنهم بعد أن استأذنوا للانصراف.

في يوم السبت 21 من نفس الشهر – أي في اليوم التالي لتركهم قرطبة – وصل الخليفة خبر اعتداء كان قد ابتدأه كونت قَشتالة في 11 من الشهر نفسه – مستغلًّا انشغال المسلمين بأحداث شمالي إفريقيا- على الأراضي الإسلامية، تقدم حتى وصل قريبًا من مدينة سالم Medinaceli. كان في اليوم المذكور - الحادي عشر - قد اقتحم حِصن دَسَة (Deza)[1]. الذي يقع ضمن أراضي بني عَمْريل بن تيملت الثَّغْري وأحرق المزارع واستاق الماشية. خرج في إثر كونت قشتالة وجيشه والِيَا المنطقة زَوْرال ومَضَاء ابنا عَمْريل في زمرة من أصحابهما. استنقذوا الماشية وقتلوا عددًا من جيش غَرْسَيه (Garcia)، لكن باغتتهم خيّالتُه من مكمن للخنازير، دارت معركة «فُحْص البِرْكة» كانت حامية قُتِل فيها زَوْرال.

---

(1) يقع هذا الحصن في منطقة سُرْية (Soria) من مناطق إسبانيا الحديثة وعلى بعد 50 كم شمال شرق مدينة سالم Medinaceli.

لقد أدهش هذا الخبرُ السلطات الإسلامية، أرسل الخليفة في إثر الرسل لإعادتهم إلى قرطبة، لحق المبعوث بهم ولكنهم لم يرفضوا العودة فقط؛ بل هموا بقتله[1]، أرسل الخليفة أفلح - رئيس الفرسان- في مجموعة من وجوه الجند يزيدون على ثلاثين. كان منهم شعبان بن أحمد وحسين بن إبراهيم الخليع، لحقوا بهم وكانوا لا يزالون في الأراضي الإسلامية رغم تنكبهم الطريق واختفائهم في أحد الوديان. أعادوهم إلى قرطبة حيث سُجِنوا فيها[2].

إن مثل هذه التصرفات لا تعكر أجواء السلم وتجعله في مهب الريح فقط، بل وتشكك في النوايا المُسالمة وعروض الصداقة المخلصة. لذلك لم تتحسن العَلاقات بين السلطات الأندلسية وقَشتالة بعد ذلك في أيام الحَكَم الثاني، إن لم تكن قد زادت سوءًا.

أحس بشناعة هذا الاعتداء بعض حكام الشَّمال الذين خافوا حدوث مضاعفات، قد يصلهم شرها، فأرسل حكام ليون سفارة - تلك بادرة توسط لطيفة - إلى قرطبة، لتقديم الاعتذار عن الخطأ الذي ارتكبه الكونت غَرْسِيَه. استقبلهم الحَكَم في القصر الخليفي بمدينة الزهراء، لعلها خففت وقع هذا الاعتداء الماكر الشنيع. لكن الأيام تمخضت فولدت أمرًا أعظم خطرًا. ذلك أن غَرْسِيَه هذا نَظَّم اتحادًا[3]: منه ومن حكام ليون ونافار وكونتات شَلْطانية (Saldana) ومنشون (Monzon). ففي يوم السبت 2 شعبان 364هـ = /4/ 975م، قاموا بهجوم على

---

(1) رفضُهم العودة يوحي بأنهم كانوا على علم بالاعتداء وتدبيره، لذلك خافوا العودة، لعلهم أدركوا سبب طلبهم فامتنعوا لذلك.

(2) عن هذه السفارة راجعوا:

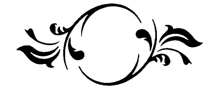
Codera, " Embajadores de Castilla Encarcelados en Cordoba en los ultimos anos de Alhakam II " , Coleccion de etsudios Arabes , IX , pp. 207 - 222

(3) ابن حيان، المُقتبس (بيروت، 1965)، 218 – 221.

الأراضي الإسلامية ناكثين عهودهم وتقدموا حتى حِصْن غُرْمَاج (Gormaz) على نهر دُوَيْرُهْ (Duero) في الثَّغْر الأعلى، يَحدث قتال عنيف ينتصر فيه المسلمون.

★★★

في مثل هذا الجو من العَلاقات المتوترة لا نجد سفارات وَرَدَت من هؤلاء إلى قرطبة للمدة التي ندرسها. ثم إن الحَكَم المستنصر تُوفِّيَ في اليوم الثاني من صفر 366هـ = 976/9/30م، حيث عندها أَخذت الأحداثُ التالية ماجرياتٍ أخرى.



القسم الثالث

العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا الشمالية[1] في المدة الأموية

لابد من ملاحظات عامة أسوقها في مستهله، قبل أن آخذ في درس العَلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا الشَّمالية (المسيحية) وعرض نماذج منها:

1) كان هذا النوع من العَلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا الشَّمالية يعتمد كثيرًا على حال السلطة المركزية في قرطبة، إن كانت تلك السلطة قوية كانت العَلاقات بين الثوار ودول الشَّمال الإسباني (مملكة ليون ونافار وإمارة قَشتالة) ضعيفة أو غير قائمة. لذا كَثُرَت هذه العَلاقات وتعددت في مدة من أيام عبدالرحمن الداخل؛ لاضطراب الأحوال الداخلية في الأندلس قُبَيْل مجيئه واستمرارها على هذه الحال مدة غير قصيرة بعده. إذ أن عبدالرحمن استغرق وقتًا طويلًا وبذل جهدًا حتى استطاع ضبط الأمور والتوجه بالبلاد نحو الاستقرار. قوة السلطة المركزية في قرطبة عامل يحدو دُوَل الشَّمال الإسباني إلى إنشاء العَلاقات الودية معها.

2) كان الثائرون الأندلسيون لا يقتصرون في طلب المساعدات العسكرية على دول الشَّمال الإسباني، بل يتوجهون أحيانًا إلى الفِرَنْجة أو إلى الشَّمال الإفريقي. في

---

(1) نُشر بالعربية في مجلة «الأبحاث» التي تُصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت، السنة 18، الجزء 1، آذار (مارس) 1965م. ثم نُشر (مع تغيير) بالإنجليزية:

" Political relations between the Andalusian rebels and Christian Spain during the Umayyad period A. H. 138 – 366 / A. D. 755 – 976) " , The Islamic Quarterly , London , vol. X , nos. 3 and 4 , 1386 / 1966.

بداية العهد الأُموي كان الثوار يستعينون - أكثر ما يستعينون - بالفِرَنْجة؛ لأن دول الشَّمال الإسباني لم تكن على مستوى من القوة يُغْري الثوار بالتوجه إليها.

3) كانت المعونة التي تقدمها دول الشَّمال لهذا الثائر أو ذاك من الإيواء في البداية؛ كي تستفيد منه عند الحاجة وبخاصة خلال المعارك، حيث يحصلون منه على معلومات مفيدة أو يشاركهم في الحرب ضد المسلمين.

4) لم يكن من الضروري أحيانًا أن يَطلب الثوار المعونة بل كان الإسبان (والفِرَنْجة) يَخفّون لمساعدتهم ابتداءً. إذا سَمِعوا بثورة سارعوا لتأْييدها، بل وقد يكونون المحرضين عليها في الخَفاء.

5) كانت بعض هذه العَلاقات آنِيَّة الدوافع، خاصة من الجانب المسيحي في الشَّمال الذي نادرًا ما كان يلتزم بالعهود بصورة اعتيادية. لذلك كانت العَلاقات الناشئة تقوم وتنتهي، وأحيانًا بسرعة.

6) من الأسهل أن تقوم الثورات في شَمالي الأندلس؛ لأن طلب العون هنالك أيسر على الثائرين. ربما كان بعض الثوار يحاول أن يجعل مركزه في الشَّمال لهذا الغرض. أما الثورات التي قامت في جنوبي الأندلس فلا نجد بينها وبين دول الشَّمال تعاونًا إلا في النادر.

7) من اليسير أن نُدرك سوءَ ما كانت تَجُرّه من نتائج؛ إذ هي تَفتح الباب للانتقام وتُعرِّض المهاجِم للأخطار. أبرز مثال على ذلك ما حدث لشارلمان حين غزا الأندلس سنة 161هـ = 778م بدعوة بعض الثوار له.

8) تختلف طبيعة الثورات فتأخذ لذلك أشكالًا متعددة. فهي إما ثورة يقوم بها فرد، إذا هلك خمدت الثورة بهلاكه وإما ثورة يتوارثها أفراد عائلة معينة، أو هي ثورة مدينة تسعى إلى استمداد المساعدة من وراء الحدود.

★★★

سأُفصّل القول في النوعين الأولين من هذه الثورات. أما النوع الثالث فمثاله مدينة طُليطُلة، تلك المدينة التي قامت فيها عدة ثورات، كانت تطلب المساعدة من دول الشَّمال أو تنقاد لتحريض تلك الدول لها على الثورة والعصيان.

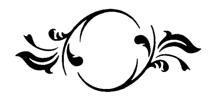
في سنة 240هـ = 854م قامت في طُلَيْطُلة Toledo ثورة، سار الأمير محمد للقضاء عليها فاستعان الثوار بأردونيو الأول ابن راميرو ملك ليون وبغَرْسِيَه انيجس ملك نافار. أرسل ملك ليون جيشًا لنجدتهم بقيادة غاتون، رغم ذلك انتصر الأمير وأخضع المدينة الثائرة في معركة وادي سليط (Guazalete).

عادت المدينة إلى الثورة سنة 300هـ = 912م، أواخر حكم الأمير عبدالله، استدعى الثوار ألفونسو الثالث ملك ليون ضد قرطبة وارتضوا دفع الجزية له[1]، مقابل وقوفه معهم ضد السلطة الإسلامية.

عصت طُلَيْطُلة على الناصر سنة 318هـ = 930م، معتمدة على مساعدة راميرو الثاني ملك ليون. سار إليها الناصر وضرب حولها حصارًا فكه بعد أسابيع؛ إذ لعل ذلك بعد هدوئها نوعًا. بعد سنتين: أي في سنة 320هـ = 932م، سار إليها

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 7/ 48. عيسى بن أحمد الرازي، نقله ابن حيان في مخطوط القرويين (فاس) المُقتبس، الجزء الثاني، ورقة: 126 (ترقيم جديد ورقة: 173). المقري، نفح الطيب، (طبعة القاهرة)، 1/ 328. عنان، دولة الإسلام، 1/ 288. مورفي (Murphy)، تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في إسبانيا (بالإنجليزية)، 94. ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية (بالإسبانية)، 4/ 191. يسمى القائد غاستون.

ثانية - بعد فشل المفاوضات السلمية - استنجد أهلها براميرو[1]. استجاب لندائهم ولكنه أخفق إذ استطاع الناصر إخضاع المدينة الثائرة، التي لزمت الطاعة وقتَها وفيما بعد.



(1) عنان، دولة الإسلام، 1/ 341.

صور من الثورات بالأندلس في العهد الأُموي

1) بنو قسي المُوَلّدون المَسالمة الأصل[1]: كان جدهم الأعلى قَسِيّ أميرًا أيامَ القُوط. لما فتح المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية، ذهب إلى الشام وأسلم على يد الخليفة الوليد بن عبدالملك، أقره في مركزه الذي توارثه أبناؤه، كان مركزهم هناك مدينة تُطيلة (Tudela). كانت لهم عَلاقات مصاهرة مع نصارى الشَّمال خاصة مع البشكنس[2]، أحيانًا كانوا يشقون عصا الطاعة على سلطة قرطبة أو يحاربونها إلى جانب الحكام المسيحيين. من أبرز أفراد هذه الأسرة موسى بن موسى بن فُرتون بن قَسِيّ (موسى القَسَوي)[3]. يظهر من كلام العُذْري[4] أنه أول عاص ضد الأمير عبدالرحمن الثاني، لعله أول من فعل ذلك من الأسرة[5]. كان أول عصيانه سنة 227هـ = 842م[6] تحالف مع صهره، غرسية إنيجس ملك نافار ضد قرطبة. يظهر أن التحالف استمر حتى سنة 228هـ = 843م. عاونته في ذلك قوات من قَشتالة وليون. لكن الأمير عبدالرحمن انتصر على القوة المتحدة، ثم عاد موسى إلى الطاعة لقرطبة، كما طلبت بلاد نافار الأمان والصلح[7]. سنة 235هـ

---

(1) عنان، 2/ 384. ابن خلدون، العبر، 4/ 2/ 305 - 306.

(2) المسالمة أو الأسالمة هم الأسبان الذين دخلوا الإسلام، وأُطلق على أولادهم - الذين وُلدوا مسلمين - «المُولدون».
انظروا: مؤنس، فجر الأندلسي، 425.

(3) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 467 -468. عنان، نفسه، 1/ 257.

(4) ابن حيان، مجلة الأندلس، المجلد: 19 (1954م)، 304.

(5) ابن حزم، نفسه، 467.

(6) ابن حيان، مجلة الأندلس، نفسه، 300.

(7) ابن حيان، مجلة الأندلس، نفسه، 300. لا يذكر ابن حيان عودة موسى إلى الطاعة ويمكن استنتاجه من طلب حليفه.

= 850م عاد موسى مرة أخرى إلى الخِلاف فعاونه وأيده غَرْسِيَه إنيجس أخو موسى لأمه[1].

كما كانت لموسى أحيانًا عَلاقات ودية متقطعة مع أردونيو الأول ملك ليون تؤْثر فيها عَلاقات الأخير مع سلطة نافار: أصهار موسى، كذلك أولاده مع معاصريهم من حكام ليون. إذا قام نزاع بين أردونيو وغَرْسِيَه وقف موسى إلى جانب صهره.

آخر ما كان من ذلك أن حارب موسى وغَرْسِيَه جنبًا إلى جنب ضد أردونيو سنة 248هـ = 862م في موقعة البلدة التي أسفرت عن قتل الحليفين.

---

(1) كانت أرملة موسى بن فرتون بن قسي، وهي أم موسى بن فرتون إنيجس (ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية «بالإسبانية» 3/ 14). فرتون هو أخو غرسية إنيجس وغير واضح ما إذا كان الأخير هو ابن أرملة موسى أم هو من زوجة أخرى: ونَقُهْ أريستا. وقد جعل ابن حيان غرسيه إنيجس - كما جاء أعلاه- أخا موسى لأمه. لعل ابن حيان جعل غرسية (أخا موسى لأمه) على اعتبار أن غرسيه أخو فرتون (أخو موسى لأمه)، فيكون غرسيه أخا موسى لأمه كذلك. لكن لم أجد مَصدرًا ذكر ذلك. علمًا ابن حيان لم يقل بأنه غرسيه بل قال: ابن وَنَقُهْ صاحب بنبلونة. كان صاحب بنبلونة يومها غرسيه. لا يبدو أن ابن وَنَقُهْ الذي ظاهر موسى والذي ذكره ابن حيان هو فرتون كما قال عنان (دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 262) لأسباب:

(أ) لأن فرتون ليس صاحب بنبلونة وإن ابن حيان حينما ذكر فرتون لم يقل ذلك، بل قال عنه بأنه: فارس بنبلونة.

(ب) لا يمكن أن تكون كلمة «صاحب بنبلونة» هنا تعني حاكم المدينة فقط - فيحتمل فرتون حينها ذكر غرسيه، وهو ملك نافار، وصفه بأنه: صاحب بنبلونة: (مجلة الأندلس، نفسه، 308). كما وصفه في موضع آخر «أمير البشكنش» (مجلة الأندلس، نفسه، 300).

(جـ) إن فرتون بن وَنَقُهْ كان قد قتل سنة 228هـ = 843م (مجلة الأندلس، نفسه، 300. ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية «بالإسبانية»، 4/ 144). الحداثة التي نتحدث عنها كانت سنة 235هـ=850م.

ﷺ خَلَفَ موسى ابنُه الذي تحالف مع أردونيو الأول ضد المسلمين[1]. سنة 257هـ = 862م ثار لُب ضد سلطة قرطبة، لا تُستبعد معاونة سلطات نافار له[2]. بعد وفاة لب أو مقتله سنة 261هـ = 875م تقاسم إخوتُه حكم المنطقة. يظهر في هذا الأمر (بعد هذا) بعض الغُموض، يمكن وضعه على الصورة التالية: حينما خَلَفَ لُبّ أباه كان على عَلاقات طيبة مع نافار وحين شعر بقوة مملكة ليون خَشِيَ خطرها عليه، تحالف مع ملكها أردونيو الأول ليشنا الحرب على الأراضي الإسلامية. حين تُوفّيَ لب حل إخوتُه الثلاثة مكانه. تولى فُرتون تُطيله Tudela وإسماعيل سَرَقُسْطة Zaragoza ومُطرِّف وَشقة Huesca[3]. كان هؤلاء قد سلكوا سلوكًا مماثلًا لسلوك أخيهم في عَلاقاته، كانوا على عَلاقة طيبة مع سلطات نافار وأحيانًا مع ملك ليون ألفونسو الثالث. كانوا قد أعلنوا العصيان على الأمير محمد الذي شَنَّ عليهم حربًا قُتِل فيها المُطَرّف فتحالف الأَخَوان مع ألفونسو. كان إسماعيل يبغض ابن أخيه محمد بن لب لولائه لسلطة قرطبة. قامت بينهما حرب انتهت بانتصار محمد على عمه وأسره واستيلاء محمد على سَرَقُسْطة. حين أراد الأمير انتزاعها منه أعلن عصيانه وتحالف مع ألفونسو للتعاون على رد القوات الإسلامية وقتالها. قامت قوات قرطبة بحصار سرقسطة وانتهت هذه العمليات بالمصالحة وإخضاع سرقسطة الإسلامية[4]. انتهى أمر بني قسي نهائيًّا سنة 312هـ = 924م، (انظر قائمة نسب بني قسي)[5].

---

(1) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 259.

(2) ابن حيان، مجلة الأندلس، نفسه، 312. العذري، نفسه، 31. يقول إن لب تظافر مع غرسيه ملك نافار، ولا يمكن ذلك لأن غرسيه توفي سنة 248هـ = 862م. لم أستطع معرفة اسم حاكم نافار في هذه الفترة.

(3) العذري، نفسه، 31.

(4) عنان، نفسه، 1/ 299.

(5) معتمدًا على العذري، نصوص الأندلس، 29 - 40. ابن حزم، الجمهرة، 76 - 84. ليفي بروفسنال، تاريخ إسبانيا الإسلامية «بالإسبانية»، 4/ 246 (قائمة النسب).

نسب بني قَسِيّ

قسي

يحيى — يونس — فرتون — أبو ثور — أبو

فرتون ← موسى — زاهر

موسى
(تزوجت أرملته من إنجو أريستا)

إنجو (وَنَقُهْ) — يونس — مُطرَ — موسى — يُوَارَتْ — لُب — غَرْسِ

موسى
توفي موسى في ٢٤٨هـ = ٨٦٢م، وهو أخو فرتون انيجس لأمه المتوفي ٢٢٨هـ = ٨٤٣م

لُب
تزوجت بناته من أولاد وَنَقُهْ بن شَانْجُهْ)

موسى ← مْطرّف — لُب — فُرتون — أوْرِيَه — إسماعيل

أوْرِيَه
تزوجت غرسيه انيجس ملك البشْكُنْش)
← موسى

فُرتون ← إسماعيل — موسى — لُـب — محمد

2) بنو مروان الجِلِّيقي: طالما ثاروا على سلطة قرطبة. أول وأخطر ثائر من هذه الأسرة عبدالرحمن بن مروان الجليقي، كان يثور ضد قرطبة ويعود إلى طلب الأمان ثم يَحْنَث. ثار لأول مرة سنة 254هـ = 868م، لم تكن ثورته هذه عنيفة كالثانية سنة 261هـ = 875م[1]. حيث اتخذ قلعة الحَنَشAlange جَنوب ماردة مركزًا له. كان يُعَضّده خارجٌ آخَر هو مكحول بن عمر في قلعة جُلّمانية القريبة من الأولى. قوي أمرهما وكثر أنصارهما عندما علما بمقدم الأمير محمد في جيش كثيف لحربهما، استعانا بثائر من المُولَّدين هو سعدون بن فتح السُّرنْباقي الذي كان وقتَها يعيش جنوب جليقية في كُورة الغرب في كنف ألفونسو الثالث ملك ليون[2]. سار السرنباقي لنجدتهما، رغم ذلك لم يستطع الجميع مقاومة الحصار الذي ضربه الأمير حول قِلاعهم.

طلب الجليقي الأمان فأُجيب إليه لكنه عاد إلى النَّكْث. هذه المرة عقد هو والسرنباقي حلفًا مع ألفونسو[3] وتحصن الجليقي في بَطْلَيُوْس Badajoz. أرسل الأمير جيشًا برياسة ابنه المنذر وقيادة هاشم بن عبدالعزيز سنة 262هـ = 876م استعان الجليقي بالسرنباقي الذي قَدِمَ مع أتباعه معهم قوة كبيرة من المحاربين أَمَدّهم بها ألفونسو. سار هاشم في مجموعة من الجيش للقاء السرنباقي الذي نصب كمينًا، انتهت المعركة بأسر هاشم حيث سلمه السرنباقي إلى ألفونسو. بقي أسيرًا في أوفيدو Oviedo ثم تم الإفراج عنه لقاء فِدية بلغت 150 ألف دينار[4].

---

(1) ابن سعيد، المُغْرب، 1/ 364. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 10. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، 107.

(2) ابن حيان، مخطوط المُقْتَبِس (القرويين)، ورقة 274 ب (المطبوع 2/ 349).

(3) دائرة المعارف الإسلامية (بالإنجليزية)،1/ 85.

(4) ابن حيان، المُقْتَبِس، 2/ 344، 373، 378، 3/ 15.

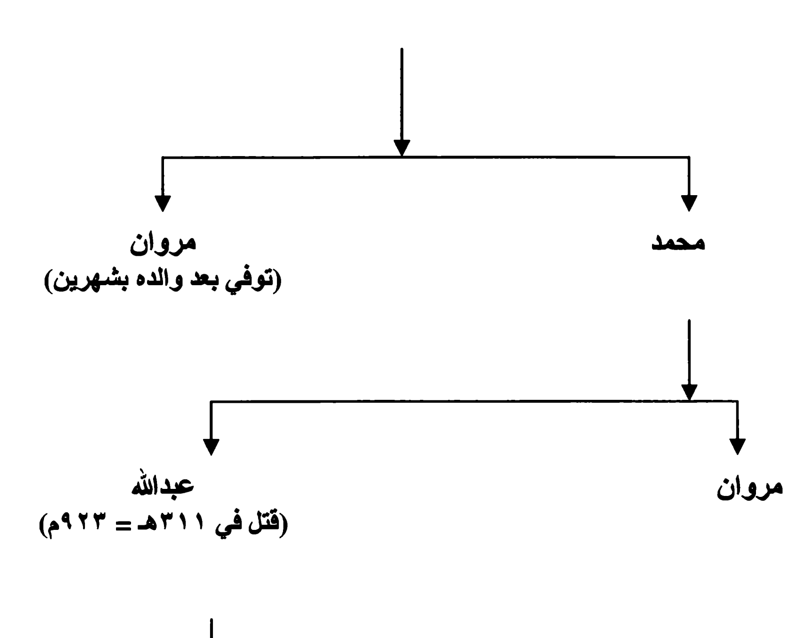
استمرت الحرب بين الجليقي والأمير محمد، لَمَّا خَشِيَ الجِليقي على نفسه حَذا حذو السرنباقي فالتجأ إلى ألفونسو وبقي عنده ثمانية أعوام ثم تركه على إثر خلاف وقع بينهما. ركنوا إلى المسلمين سنة 271هـ = 884م استجاب الأمير محمد له[1]، عاد إلى بطليوس وانتهى الأمر بموافقة الأمير على تعيينه حاكمًا لها. لعله هرب من جليقيه تحاشيًا من أن يحدث له ما جرى لمحمود بن عبدالجبار بن راحلة سنة 225هـ = 828م[2]. كان ينكث عهده كلما وجد فرصة إلى أن تُوفِّيَ سنة 276هـ = 889م. خَلَفَه ابنُه مروان في حكم بطليوس، لم يدم سوى شهرين. بعد وفاته خلفه عبدالله حفيد الجليقي. كان هذا على صلة بأمراء الشَّمال، يحالفهم ضد سلطة قرطبة حتى قُتِلَ سنة 311هـ = 923م أيام الناصر. خَلَفَه في حكمها ابنُه عبدالرحمن وعصا قرطبة لعدة سنوات حتى أذعن للناصر في 317هـ = 929م وبذلك انتهت متاعب بني مروان الجليقي. (انظروا: جدول نسب بني مروان الذي كان الاعتماد فيه على تاريخ ابن خلدون).



(1) ابن حيان، المُقْتَبِس، مخطوطة القرويين، ورقة 273 ب (المطبوع 2/ 345).

(2) انظر: أدناه، ص 124، ابن حيان، المُقْتَبِس، 2/ 397.

نسب بني مروان



3) بنو تُجيب من العرب: بدأ نجمهم بالظهور حينما استعملهم الأمير محمد ليقابل بهم نشاط بني قَسِيّ[1] الذين كَثُرَت ثوراتهم. بدأ شأن بني قسي يضعف ونجمهم يأفل شيئًا فشيئًا حتى انتهى أمرهم في بداية حكم الناصر[2].

دخل التُّجيبيون الأندلس مع موسى بن نُصَيْر، تولى أفراد منهم حكم بعض الثغور بالأندلس مثل دروقة Daroca وسرقسطة Zaragoza وبرشلونة Barcelona[3]. كانت سياسة الناصر في القضاء على استقلال الولاة وإخضاعهم للسلطة المركزية قد أخافتهم على سلطتهم وأطماعهم التوسعية. كان محمد بن هاشم التُّجيبي حاكم سرقسطة وقريبه مطرف بن منذر التجيبي حاكم قلعة أيوب Calatayud، قد تحالفا سرًّا مع راميرو الثاني ملك ليون ليعترفا بطاعته مقابل مساعدته لهما في عصيان الناصر. حينما خرج الناصر في حملته ضد ليون سنة 322هـ = 934م لم يكتفِ محمد بالامتناع عن الخروج معه بل جاهر بخلع طاعته والاعتراف بسيادة ليون على سَرَقُسْطة وما جاورها. عندما امتنع قادة الحصون المجاورة عن مجاراة محمد في خيانته سار إليهم راميرو وأخضعهم لِسلطة محمد. ثم اتسع نطاق هذا الحلف فيما بعد بانضمام طُوطَة، ملكة نافار له، ناقضة لعهدها مع الناصر الذي سار لمقابلة هؤلاء جميعًا سنة 325هـ = 937م مبتدئًا بمحاصرة قلعة أيوب. استنجد حاكمها مطرف بحليفه راميرو الذي أرسل إليه فصيلة عسكرية. لكن الأمر انتهى بقتل مطرف ومن معه من جنود حليفه. كما أُسر محمد صاحب سَرَقُسْطة ومن كان يعاونه من عائلته. ثم التمس العفو من الناصر فعفا عنه وردَّه

---

(1) العذري، نصوص عن الأندلس، 41.

(2) العذري، نفسه، 40.

(3) ابن حزم، الجمهرة، 404.

إلى منصبه لمقدرته الإدارية[1]. وهو الذي وقع في معركة الخندق في أسر راميرو، حليفه السابق وافتداه الناصر. انظروا جدول نسب بني تُجيب حيث كان الاعتماد فيه على الجمهرة لابن حزم، 404. نصوص عن الأندلس للعُذْري، (41 – 54).

(1) عنان، دولة الإسلام، 2/ 385-386. العذري، نفسه،45، 51.

نسب بني تُجِيب

- المُهاجر
  - عبدالله
    - عبدالعزيز
      - عبدالرحمن حكم دَرْوَقه
        - عبدالعزيز
          - يونس
        - محمد الأعور (حكم سرقسطة)
          - هاشم
            - هُذيْلَ
            - محمد
              - يحيى الزّقّيطر
              - عبدالرحمن
            - يحيى
            - إبراهيم
          - يونس ← محمد
        - المنذر
          - حكم
          - مطرف
          - عبدالرحمن
  - عُمَيْرة (دخل الأندلس مع موسى بن نصير وكان حاكم برشلونه)

4) عمر بن حَفْصُون: من المُولَّدين المَسالمة الأصل. كان من أخطر ثوار الأندلس، استغرقت ثورته قُرابة نصف قرن. ابتدأت أيامَ الأمير محمد سنة 267هـ = 880م في جبال بُبَشْترُ (Bobastro) في جنوب شرقي الأندلس وانتهت أيامَ الناصر[1]. كان ابن حفصون قد تُوفِّيَ سنة 306هـ = 918م، لكن أولاده استمروا بالثورة التي انتهت كليًّا سنة 315 هـ = 928م. عاصرت ثورته أربعة من حكام الأندلس هم: محمد وابناه المنذر وعبدالله والناصر[2].

لو قُدِّر لهذه الثورة أن تتخذ مركزها في الشَّمال لتغيرت أحداثها ولكان لها نشاط كثير من هذا النوع من العَلاقات مع إسبانيا المسيحية، خاصة بعد أن أعلن زعيمها التنصر سنة 286هـ = 899م[3].

عقد ابن حفصون حِلْفًا مع محمد بن لُبّ القسَوي صاحب سَرَقُسْطة سنة 285هـ = 898م، لكنه لم يتم[4]، كما استعان ببعض حكام إفريقيا[5]. بالطبع حاول الاستعانة بمسيحي الشمال النصراني دون فائدة. أَيَّد ألفونسو الثالث ملك ليون هذه الثورة[6]، كما عُقد حلف بين ابن حفصون وبين غرسيه ملك نافار، لكن بُعْد مركز الثورة عنهم حال دون تقديمهم مساعدة فعالة له. كما قام حلف بين غالب بن حفصون وبين شانجه غَرسيه الأول ملك نافار وأردونيو الثاني ملك ليون ولكن الناصر قضى على هذا الحلف[7].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، 3/ 9.
(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 2/ 106.
(3) ابن حيان، نفسه، 3/ 128.
(4) ابن حيان، نفسه، 3/ 127.
(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 32.
(6) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 341.
(7) رينو، الغزوات الإسلامية (بالإنجليزية)، 196.

5) عَمْروس بن عمرو بن عَمْروس المُوَلّد[1]: حاكم وَشْقَه Huesca الذي أعلن العصيان على الأمير محمد واستعان بغرسيه أنيجس. شن الأمير الحرب عليه فعاد إلى الطاعة واستقام أمره[2].

6) مَطْروح وعَيْشُون: من هذه العَلاقات ذلك التعاون العابر الذي تم بين البَشْكُنس Basques وبين مطروح وعيشون، ابني سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي والي برشلونة الثائر على سلطة قرطبة. ذلك حين لَحِقا - مع جماعة من أتباعهما - بشارلمان في ممر رونسفال، ممر باب الشزرى. حدث ذلك بعد أن عاد من حملته الفاشلة ضد إسبانيا الإسلامية سنة 161هـ = 778م وأَسر أباهما. كانت معركة عنيفة، سُحقت فيها مؤخرة جيش شارلمان وعلى رأسها قائده رولان (Roland)، فاستطاعا إنقاذ أبيهما.

7) محمود بن عبدالجبار وسليمان بن مرتين: في ماردة Merida قام البربر بثورة سنة 213هـ = 828م بقيادة زعيمين هما: محمود بن عبدالجبار بن راحلة من بني طَريف من مصمودة وسليمان بن مرتين المُوَلّد. واتخذ الثوار حصن فرنكش Frankish- على ضفاف وادي يانه Guadiana- مركزًا لهم[3]. لقد حرض لويس ملك الفرنج الثورة وشجعها. ثم إن سليمان اعتزل محمودًا واتجه إلى الشَّمال[4]، استقل بها محمود تُعاونه أختُه (جميلة) التي اشتهرت في الأندلس يومها بجمالها

(1) هو حفيد عمروس بن يوسف حاكم طليطلة أيام الحكم الأول.
وهو بطل واقعة الحفرة سنة 191هـ = 807م. عنان، نفسه، 1/ 237.
(2) العذري، نصوص عن الأندلس، 62 - 63.
(3) عنان، دولة الإسلام، 1/ 254.
(4) ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية (بالإسبانية)، 4/ 140.

كما اشتهرت «بالشجاعة والنجدة والفروسية ولقاء الفرسان ومبارزتهم»[1]. استفحل أمره واستولى على عدد من المناطق المجاورة، لكن الأمير عبدالرحمن الثاني نَشِطَ في حربه حتى لَحِقَ بمحمود الإعياء، ففر مع أخته وبعض أتباعه إلى ليون مستجيرًا بملكها ألفونسو الثاني فرحب به وأكرم وفادته ورأى فيه سلاحًا يمكن استعماله ضد سلطة قرطبة: يعاونه في حربه ضدها. ثم ارتأى محمود أنه من العقل عدم الاستمرار في هذا الاتجاه، والعودة إلى الطاعة. كاتب عبدالرحمن الثاني طالبًا الصفح. لكن ألفونسو علم بالمحاولة فخشي أن يتحول سلاحًا ضده وقد أراده سلاحًا له. عندها حاصره ألفونسو مع بعض جنده، قاوم محمود ودافع دفاع الأبطال ولكنه قُتِلَ سنة 225هـ = 840م[2] وأُسر الباقون، كانت أخته منهم. صارت في نصيب أحد كبار القوم فحملها على التنصير وتزوج بها!؟؟، كان من نسلها فيما بعد أسقُف شنْت ياقب (Santiago de Compostela).

8) أُمية بن إسحاق: هو قرابة الناصر. أموي من بَني مروان[3]. كان الناصر قد استوزر أباه ولَمَّا تُوفّيَ قَرَّب أولاده، منهم أحمد وأمية. في سنة 327هـ = 939م سار الناصر إلى الشمال لقتال راميرو الثاني ملك ليون وحلفائه من الثوار المسلمين، عهد بحصار سَرَقُسْطة إلى أحمد بن إسحاق قائد الفرسان وعينه حاكمًا للثَّغْر، لكنه

---

(1) ابن حزم، الجمهرة، 466. يقول ابن القوطية في تاريخ افتتاح الأندلس، 89: «إن جميلة كانت تدعو أخاها للطاعة ويدعو هو للخلاف». يظهر أن هذا كان في مبدأ الثورة ولعله أقنعها فيما بعد، خاصة بعد أن اعتزله رفيقه سليمان.

(2) ابن سعيد، المُغرب في حلى المغرب، 1/ 48. يقول: إن فرس محمود جمح به - حين كان القتال يدور بينه وبين ألفونسو - فصُدم بشجرة بلوط قتلته. يروي في ذلك حكاية لطيفة في التدليل على بطولة محمود: «أنه بقي بعد قتله مجدلًا في الأرض مدة وفرسان ألفونسو قيام على ربوة يخشون الاقتراب منه ظنًّا منهم أنها حيلة، وأنه لا يزال حيًّا».

(3) ابن حزم، الجمهرة، 99. ابن خلدون، العبرة، 4/ 2/ 301.

تهاون في أداء مهمته لحاجة في نفسه. لَّما أدرك الناصر ذلك سَخِطَ عليه وعزله[1]. ظهرت النيات التي كان يخفيها جليًّا. اتفق مع أخيه أمية وبَيّتا أمرًا لإعلان الثورة. لما علم الناصر بذلك اكتفى بنفيهما. لكن سياسة التسامح أغرتهما على المضي في طريق العصيان، سار أمية إلى مدينة شَنْتَرين Santarem في كُورة الغرب واستولى عليها وتودد إلى ملك ليون. أما أخوه أحمد حاول الاتصال بزعماء المغرب الخاضعين للفاطميين، الذين كانوا على عَلاقة سيئة مع سلطات الأندلس للقيام بمؤامرة ضد قرطبة. عَلِمَ الناصر بهذه المحاولة فألقى القبض عليه وأعدمه[2]. ما أن سمع أمية بإعدام أخيه حتى أعلن العصيان والثورة ضد قرطبة[3] وتحالف مع ملك ليون، لعله كان ينوي القيام بمحاولة عملية ضد قرطبة. لكن بعض الموالين للخليفة قاموا ضده واستولوا على المدينة، فالتجأ أُمية إلى حليفه راميرو الثاني فرحب به وأكرمه. لقد قام أمية بدور في (الخيانة) كبير في الحَدَث التالي: عَلَتْ مكانتُه عند ملك ليون حتى استوزره وجعله من أصفيائه[4].

في شوال سنة 327هـ = /8/ 939م كانت معركة الخندق (Simancas Alhandega)، قرب سَمُّورة Zamora، التي تحالف فيها راميرو مع طُوطَة ملكة نافار وفرنان كونثالث حاكم قَشتالة[5]، تحت قيادة راميرو الثاني ضد الناصر.

(1) أخبار مجموعة، 156.

(2) عنان، دولة الإسلام، 2/ 386.

(3) العمري، مسالك الأنصار (مخطوط)،16/ 1/ 82.

(4) عن لجوء أمية إلى ردمير وعونه له ضد الناصر، انظروا: المسعودي، مروج الذهب، 3/ 73. البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، 74 - 8. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 68. الحميري، الروض المعطار، 98 - 99.

الظاهر أن هؤلاء نقلوا القصة عن المسعودي فهو أسبق منهم حيث توفي سنة 345هـ = 956م وإن ما ذكروه إعادة لما قاله وبنفس العبارة أحيانًا.

(5) ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية (بالإسبانية)، 4/ 292.

كان أمية إلى جانب ملك ليون يعاونه ويدله على عورات المسلمين. كانت معركة عنيفة، حارب فيها أمية المسلمين بضراوة وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقُتل منهم عدد كبير. أراد ملك ليون تتبع المسلمين لكن أمية حَذَّره الكمين ورَغَّبه فيما خلفوه من الغنائم الكثيرة[1]. ثم إن أمية نَدِمَ على ذلك فكاتب الناصر معتذرًا عن فعلته طالبًا الصفح ومبديًا استعداده للعودة إلى خدمته، رَضِيَ الناصر وعفا عنه، تلك كانت سياسته. لعله هَرَبَ من راميرو[2] وعاد إلى بلاده نادمًا آسفًا.



(1) لا يظن أنه حذره الكمين تغطية وحرصًا للإبقاء على البقية من المسلمين؛ إذ بسيفه أسال دماءهم، كان محاربًا شجاعًا بل كان يعني ذلك. إذ أن طريقة الكمائن خطة عسكرية طالما سار عليها المسلمون، وهو السبب الذي جعل شارل مارتل لا يلاحق المسلمين في معركة بَلاط الشهداء سنة 114هـ = 732م، حين انسحاب المسلمين إذ خاف شارل الكمين.

(2) مورفي، تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في إسبانيا (بالإنجليزية)، 98.

سفارتان مجهولتان من الفِرَنْج إلى قُرطبة[1]

أَطلق المؤرخون الأندلسيون والمسلمون عمومًا اصطلاح الفِرَنْج على شعوب أوروبية عديدة تعميمًا وتخصيصًا. منهم من استعملها مُحَدَّدة[2]، قاصدين بها المناطق التي كانت تحكمها الإمبراطورية الكارولنجية، التي بلغت قمّة عظمتها أيام الإمبراطور شارلمان[3] (199هـ = 814م). تلك المناطق التي تقع وراء جبال البُرْتات[4]، التي كانت فرنسا الحالية تمثّل معظمها. كما أُطلق على هذه المناطق أحيانًا: الأرض الكبيرة[5]. ثمّ أَخَذت العائلة الكارولنجية (Carolingian Dynasty) تَضْعُف حتى سقطت سنة 377هـ = 987م، لتحلّ محلّها العائلة الكابية (Capts dynasty) في فرنسا[6].

---

(1) نُشر بالانجليزية:

" Two Unknown Embassies from Frankish Monarch to the Court of Cordoba during the reing of Al-Hakam II", The Islamic Quarterly, Vol. X, Nos. 1& 2, 1386/1966.

ثمّ نشر بالعربية في «مجلة كلية الآداب»، (جامعة بغداد)، المجلد العاشر، 1967م.

(2) أمثال أحمد بن محمد بن موسى الرازي (344هـ = 955م) وابن حيّان القُرطبي صاحب كتاب: «المُقْتَبِس» (469هـ = 1076م).

(3) راجع: أوروبا العصور الوسطى، عاشور، 1/ 195 - 197.

(4) بهذا المعنى سيستعمل اصطلاح الفِرَنْج.

(5) نفح الطيب، المقري (طبعة القاهرة)، 1/ 128 [بيروت، 1/ 128، 133، 274، 277، 413، 465].
تاريخ غزوات العرب، رينو، 34 - 35 ؛ (الطبعة الإنجليزية، 24). انظروا كذلك: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، 29.

(6) أوروبا العصور الوسطى، عاشور، 1/ 245 - 246.

كانت للفِرَنْج عَلاقات مع جيرانهم الأندلسيين، تَفَاوَتَتْ بين الحرب العنيفة وتشجيع الخارجين على سلطة قُرطبة[1] إلى الصداقة والدعوة إلى المصاهرة[2]. وُجِدَتْ أحيانًا كثيرة نشاطات دبلوماسية وتبادل سَفاري بين الطرفين[3]. لدينا أمثلة كثيرة، منها سفارتان - موضوع هذا البحث - حضرتا إلى بَلاط قُرطبة من أحد ملوك الفِرَنْج أيام الخليفة الحَكَم الثاني (366هـ = 976م): المعروف المستنصر بالله.

يذكر ابن حَيَّان هاتين السفارتين في موضعين من مُقْتَبِسِه. يظهر أنّ كلّ موضوع [موضع] منهما يتعلّق بسفارة معيّنة غير الأخرى. إنّ كِلا السفارتين - حسب روايته - من هوتو ملك الفِرَنْج (الإفرنج) إلى الحَكَم المستنصر.

السفارة الأولى: في ذي القعدة سنة 360هـ = 971/9/م، نَصُّها كما يلي: «ودَخَل بدخوله [بدخول رسول آخر من دولة أخرى] أيضًا أشْداكه [أو أشْراكه] بن عمر داود القُومِس، رسولُ هوتو، ملك الإفرنج، بكتابه أيضًا يجدِّد صلَته»[4][5].

السفارة الثانية: في يوم السبت 9 ذي القعدة سنة 363هـ = 974/7/31م، نَصُّها: «وتَوَصّل إثْرَه أشْراكُهْ رسولُ هُوتُو ملكِ الإفرنج فأوصل كتابَه أيضًا مجدِّدًا

---

(1) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 1/ 169 - 184، 256. تاريخ غزوات العرب، رينو، 115، 112 - 113.

(2) نفح الطيب، المقري، 1/ 310 [بيروت، 330]. [التاريخ الأندلسي، 226].

(3) تاريخ غزوات العرب، رينو، 141 - 145.

(4) المُقْتَبِس، ابن حَيّان القرطبي، مخطوط الأكاديمية التاريخية، مدريد، مجموعة كوديرا، رقم 2، الأوراق 23ب، 101 أ (طبعة بيروت، 169، 182 - 183). لم يرد - فيما أعلم - ذكر هاتين السفارتين في مصدر آخر.

(5) قُومِس: كلمة لاتينية بمعنى حاكم ولاية أو مقاطعة، وقد نستعملها بالعامية «كونت». وهي Comes. واشتقّت منها الكلمة الإنجليزية Count والإسبانية Conde بنفس المعنى.

لعهده ومؤكِّدًا لعَقْدِه». قد يُفهم « هُوتُو» على أنّه أوتو OTTO الأول (أو الثاني) إمبراطور ألمانيا. هذه المسألة - نظرًا لغموض النصّ نوعًا ما - محاطة بمشكلتين:

الأولى: هل النصّ - بقسميْه - يتعلّق بسفارة واحدة، تكرّر ذكرها خطأً أو بسفارتين؟

الثانية: هل هي (أو هما) من ألمانيا؟ نظرًا لكون المرسل «هوتو (أوتو) إمبراطور ألمانيا». أو هي من الفِرنج - فيما وراء البُرْتات - نظرًا لوصفه بـ: «ملك الإفرنج»؟

المشكلة الأولى: ليس ببعيد أنّ النصّ – بقسميْه - يتعلّق بسفارة واحدة، كرّرها ناسخ المخطوط خطأً[1]. يسند هذا الرأي ما يلي:

1. أنّ هناك بعض التشابه بين العبارتين - قسميْ النصّ- كما أنّ اسم السفير (الرسول) متماثل فيهما.

2. يُستفاد من النصّ أنّ مرسل السفارة الأولى هو نفسُه مرسل الثانية. على هذا - لو اعتُبرت سفارتين - تقع الأولى، على اعتبار المرسِل أوتو إمبراطور ألمانيا، في أيام أوتو الأول (362هـ = 973م)، والثانية في أيام أوتو الثاني (373هـ = 983م). ذلك متناقض.

ذكر عِنان[2] السفارة الثانية فقط، التي في سنة 363هـ = 974م على أنّها من الإمبراطور الألماني: أوتو الثاني، الإمبراطور الألماني أرسلها تجديدًا لعَلاقات الصداقة التي كانت بين أبيه - أوتو الأول وبين الناصر. الظاهر أنّ عنان اقتبس هذا الخبر من ابن حَيَّان ومن نفس مصدرنا الحالي. يذكر ليفي بروفنسال - نقلًا عن

---

(1) نسخة المقتبس في أكاديمية مدريد منقولة عن نسخة فُقدت، كانت في مكتبة سيدي حمُّودة (رقم 339)، في قسنطينة بالجزائر.

(2) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 491.

المُقْتَبِس أيضًا - يقرّر كذلك بأنّها من أوتو الثاني[1]. أما السفارة الأولى فقد أغفلها المؤرخان. لكن أمّا المستشرق الإسباني كوديرا Codera (1917م)، الذي استخرج من هذا الجزء من المقتبس بحوثًا جيدة بعضها يتصل بالدبلوماسية الأندلسية، فقد اعتَبَرَ النصَّ - بقسميْه - يتصل بسفارة واحدة[2]. يناقش المسألة قائلًا: بأنّ أوراق المخطوط من 22 إلى 29 - التي فيها القسم الأول من النصّ - إنّما هي تكرار للأوراق التي تلي ورقة 95 من نفس المخطوط، حيث يقع القسم الثاني من النصّ. يعلّل الأمر بأنّ هذه الأوراق الثمانية المكرّرة ضمن أحداث سنة 360هـ هي أحداث وقعت في سنة 363هـ مكانها ضمن أحداث هذه السنة، أي بعد الورقة 95.

ربما يكون هذا صحيحًا، حيث في النصّ ارتباك وغموض، لعلّ ناسخ المخطوط وقع في هذا الخطأ. يسند رأي كوديرا بأنّ بعض أحداث 363هـ ذُكرت كذلك ضمن أحداث 360هـ. على الرغم من ذلك فلا يكون بعيدًا عن الصواب أن يُقال:

1. ليس من السهولة الاقتناع بأنّ الأوراق 22 - 29 تكرار لِمَا يلي الورقة 95. ذلك لأنّ الناسخ كان ينقل بالتتالي، فلماذا يكررها حتى ولو كان قليل المعرفة، حتى بالتاريخ الأندلسي على وجه الخصوص.

2. لعلّ الذي دعا كوديرا إلى هذا التفسير هو وجود أحداث في المخطوط من سنة 363هـ ضمن أحداث سنة 360هـ. لكن من الممكن فهْم ذلك بأنّ طريقة ابن حَيَّان في سرد الأحداث - وإن كانت حسب السنين - حينما يسرد حادثةً ما في سنة معيّنة يتتبّع تلك الحادثة حتى نهايتها في السنوات التالية. فيظهر هذا ما جَرَى حين كان يتحدّث عن حوادث سنة 360هـ حيث تتبّع أحداثًا استمرّت حتى سنة

(1) تاريخ إسبانيا الشمالية (بالإسبانية)، ليفي بروفنسال، 4/ 383. انظروا: قائمة المصادر.
(2) مجموعة الدراسات العربية (بالإسبانية)، كوديرا، 9/ 201 حاشية رقم 1.

364هـ. وربما أعاد ذكرها باختصار أو لربط الحوادث حينما يتحدّث عن السنوات التالية، كحديثه حين الكلام عن ابنيْ الأندلسي[1].

3 . لو كانت هذه الأوراق مكررة لتطابقت تمامًا، لكن الاختلاف ظاهر في الأحداث التي ذُكرت والعناوين وحتى في نفس العبارات المتصلة بالسفارة كما لاحظنا.

4 . لماذا وقع التكرار في هذه الأوراق الثمانية فقط؟ لو كان الناسخ قد كرّر النقل لاستمرّ فيه ولوقع التكرار في قسم كبير من هذا الجزء.

يَظهر - على ذلك - أنّ النصّ يتعلّق، كلّ قسم منه، بسفارة غير الأخرى. أمّا تشابُه اسم السفير فذلك ليس بحجّة، بل على العكس، إذ أنّه أُرسل على رأس السفارة الثانية بسبب الخبرة التي اكتسبها من الأولى.

المشكلة الثانية: هل هما من ألمانيا؟

الحقّ إنّ النصّ من هذه الناحية محيّر، أشبه تقريبًا - بالنسبة لدقّة ابن حَيَّان في استعمال هذه المصطلحات كالفِرنج - بمن يقول: زرت بيروت عاصمة العراق. لقد يتحيّر الدارس - كما تحيّر كوديرا – في من يكون هُوتُو ملك الفِرنج! أهو ملك الفِرنج فيما وراء البُرْتات، أم إمبراطور ألمانيا أوتو الأول أو الثاني؟ الذي يظهر أنّ كوديرا يرجّح سنة 363هـ تاريخًا للسفارة التي أرسلها أوتو الأول[2] (362هـ = 973م) قبل تاريخ هذه السفارة. يبدو أنّ هناك عدّة أدلّة تسند أنّها من الإمبراطور الألماني أُورِدُها مع الردّ عليها:

---

(1) عن ابْنَيْ الأندلسي (جعفر ويحيى)، انظروا: الحُلّة السِّيَراء، ابن الأبار، 1/ 305 – 308. المقتبس (طبعة بيروت، 1965م)، 32 – 57.

(2) مجموعة الدراسات العربية (بالإسبانية)، حاشية رقم 2.

1 - إنّ اسم المرسِل: هوتو: الاسم الذي استعمله المؤرخون المسلمون لأوتو[1]: إمبراطور ألمانيا.

لكن يُرَدّ على ذلك، بأنّ هناك أسماءَ حكام في دول أوروبية أخرى كفرنسا قريبة النطق من: هوتو أو أوتو. ربما كُتِب كلُّها على أسلوب واحد أو متقارب، نظرًا للتقارب بينها، مثل: هيو Hugh وأود Eudes[2]. لقد وُجد اسم لأحد ملوك فرنسا يحمل نفس اسم إمبراطور ألمانيا «أوتو»[3]. ربما لم تكن الأسماء الأجنبية مستعملة دائمًا بتطابق مع أصلها، لدى المؤرخين المسلمين، خاصة لمن بَعُد عنهم. أحيانًا نفس الاسم يَرِدُ بأَشكالٍ مختلفة كـ«هوتو» مثلا[4]. بل إنّ هذا الاسم ورد بقراءات متباينة في الطبعات المختلفة[5] لنفح الطيب للمَقّري الذي نقل عنه ابن خَلدون.

2 - أمّا بالنسبة لكلمة الإفرنج فلم تكن مقصورة الاستعمال دائمًا على الفِرنج فيما وراء البُرتات لدى جميع المؤرخين والجغرافيين المسلمين. فقد أُطلقت على شعوب أوربية كثيرة[6]، منفردة أو مجتمعة. حيث ربما قُصد بها هنا: الألمان.

الذي يظهر أنّ كلمة الفِرَنْج في استعمال ابن حَيَّان هنا لا تعني الألمان بل تعني الفِرنج فيما وراء البُرْتات، ذلك:

(1) العبر، ابن خَلدون، 24/ 2/ 310. البيان المغرب، ابن عذاري، 2/ 218.

(2) راجعوا: تاريخ غزوات العرب، رينو، 88، 173 (الطبعة الإنجليزية، 45، 143).

(3) تاريخ إسبانيا (بالإسانية)، أُربيل، الجزء السادس (إسبانيا المسيحية)، 515، 516.

(4) ورد عند ابن خلدون (نفس المصدر والصفحة (العبر): هوتو. وعند ابن عذاري (نفس المصدر والصفحة) هوتوه. وعند البكري في المسالك والممالك، مخطوط اسطنبول - نور عثمانية - ورقة 196 أ (جغرافية الأندلس وأوروبا، 170، 176): هوّتَه.

(5) ابن خلدون، طبعة بيروت (نفس المصدر والصفحة): هوتو. قارنوه مع النفح (طبعة بولاق)، 1/ 172، ورد «دوقوه».

(6) عن الفرنج واستعمالها انظروا مثلًا: أبو حامد الغرناطي (بالإسبانية)، دبلير، 236 - 239.

1 - أنّه وإن كان بعض هذه الاصطلاحات - كالفِرنج وغيرها- عامّة لدى كثير من المؤرخين المسلمين ولكنها، كلّها أو بعضها، تكاد تكون مُحَدَّدَةً لدى فريق منهم.

2 - لقد أَطلق المؤرخون المسلمون على الألمان اصطلاحات كانت أكثر شيوعًا لدى ابن حَيَّان وغيره؛ مثل الصقالبة والألمان[1]. ابن حَيَّان خصوصًا، من أكثر المؤرخين الأندلسيين تحديدًا لهذه الاصطلاحات على ما يظهر؛ يبدو أنّه كان يُطلق على الألمان اصطلاح الصقالبة. إنّ نصّ ابن خَلدون - حين ذَكر سفارة ملك الصَّقالِبة «هوتو»- منقول عن ابن حَيَّان[2]. كما أنّه لدينا نصّ آخر ذكره المَقَّري فقط[3]، يذكر فيه الفِرنج ويَعني به - بصراحة تمامًا- فيما وراء البُرْتات، يظهر أنّ هذا النصّ منقول أيضًا عن ابن حَيَّان[4]. على هذا يكون اصطلاح الإفرنج لدى ابن حَيَّان في نصّه الحالي قد قُصد به فيما وراء البُرْتات. لذلك لا يظهر أنّ هاتين السفارتين كانتا من ألمانيا، يؤيّد ذلك أمور:

1 - يَظهر من النصّ أنّ مُرسِلَهما واحد؛ فإذا اعتبرناهما من ألمانيا: فإنّ الأُولى (360هـ) تقع أيام أوتو الأول (973/362) والثانية أيام ابنه وخَلَفِه أوتو الثاني.

2 - حتى لو اعتبرناهما سفارة واحدة، فإذا قَبِلْنا الأُولى فقط (360هـ =971م) فإنّ أوتو الأول لم يكن في هذا التاريخ في ألمانيا، بل كان مشغولًا بالنشاط الحربي خارج ألمانيا[5]. ليس هناك من الضرورة والمصلحة المهمّة التي تستدعيه - في هذه

---

(1) آثار البلاد، القزويني، 575، 591. أعمال الأعلام، ابن الخطيب، 219. نفس المصدر، دبلير، 241 - 246.

(2) تاريخ إسبانيا الإسلامية (بالإسبانية)، ليفي بروفنسال، 4/ 352.

(3) نفح الطيب (طبعة القاهرة)، المقّري، 1/ 310 [بيروت، 1/ 365].

(4) تاريخ إسبانيا الإسلامية (بالإسبانية)، ليفي بروفنسال، 4/ 79.

(5) دائرة المعارف البريطانية (بالإنجليزية)، 16/ 965.

الحالة - أن يرسل سفارة إلى قُرطبة يَخْطُب وُدَّها ويُجَدِّد الصلة بها. أين هذه الصلة التي احتاجت إلى تجديد[1]. أمّا إذا قبلنا الثانية فقط (363هـ = 974م) إنّ أوتو الثاني، غَداةَ وفاة أبيه كان مشغولًا، حيث قامت في وجهه عدّة ثورات[2]. لا متّسع له ولا حاجة به لطلب مودّة قرطبة أو تجديد صلته بها - وأيّ صلة هذه - حيث لا مصلحة مشتركة ولا جِوارًا. إذن - على ذلك الحال - إنّ نصّ ابن حَيَّان يتعلق بسفارتين جاءتا إلى قُرطبة من بلاد الفِرنج فيما وراء البُرتات. بالنسبة لتاريخ السفارتين يُقترح أنّ يكون مُرْسِلُهما: هيو كابيه Hugh Capet (386هـ = 996م) الذي وَرِثَ أباه هِيو الكبير سنة 345هـ = 956م[3]. كان هيو كابيه ملكًا قويًّا حكم أولًا في باريس وما حولها. سنة 377هـ =987م، بعد وفاة لويس الخامس، تُوِّج ملكًا لفرنسا، حيث حلّت عائلة كابيه محل العائلة الكارولنجية. يَسند هذا الاقتراح ما يلي:

1 - أنّ السفارتين تقعان في أيام هيو كابيه. وذلك يتطابق مع ما يفهم من نصّ ابن حَيَّان أنّهما من حاكم واحد.

2 - أنّ مرسلهما - على ما يبدو - كانت له صلات سابقة مع قُرطبة. وأنّ من أهداف هاتين السفارتين تقوية وتجديد تلك الصلة. بما أنّ هيو كابيه جاء إلى الحكم سنة 345هـ = 956م، خلال أيام الناصر، ربما يكون قد أرسل سفارة أو أكثر قبل هاتين، سُجِّلت وفُقِدَت، أو أنّها كانت ضمن السفارات الكثيرة التي حضرت إلى قرطبة من كلّ مكان وربما لم تُذكر على سبيل التخصيص[4]. إذا لم يكن هنالك

---

(1) الأكاديمية الروسية (بالألمانية)، ويست برج، 86-87. يقول: إنّ أوتو الأول كان لا يحبّ الحَكَم الثاني.

(2) دائرة المعارف البريطانية، 16/ 966.

(3) أوروبا العصور الوسطى، عاشور، 1/ 244 - 246.

(4) راجع مُقْتَبِس ابن حيان، نقلًا عن المقّري، نفح الطيب (طبعة القاهرة)، 1/ 331، 343 [بيروت، 1/ 354، 366].

ذكر لسفارة، سبقت له، أرسلها إلى قرطبة، لعلّه إذًا أراد تجديد الصلة التي كانت لأبيه مع الخلافة الأندلسية. إنّ ابن خَلدون يُورد سفارة جاءت إلى الناصر سنة 350هـ =961م: «من ملك الفِرنجة وراء المغرب وهو يومئذ أُقُوُهْ»[1]. يمكن استنتاج تاريخ هذه السفارة سنة 339هـ = 950م. أنّ المقصود بأقوه هو هِيو الكبير الذي تُوفِّيَ سنة 345هـ = 956م وتَرك المُلْكَ لابنه هيو كابيه، الذي أَرسل هاتين السفارتين - حسب ابن حَيَّان - لتجديد صلة أبيه بقُرْطُبة.

3 - أنّ اسم السفير الفِرنجي عربي أو مُسْتَعْرَبٌ. احتمال أن يكون السفير ألمانيًّا قليل جدًّا. لكنه من ناحية أخرى، محتمل جدًّا ومعقول أن يكون من بلاد الإفرِنج، حيث إنّ كثيرًا من المسلمين استقرّوا في هذه المناطق التي وصلها المسلمون وأَثّروا في سكانها منذ أيام الفتح الأولى حتى دولة المغامرين الأندلسيين [المجاهدين] في فراكسنيتُوم (جبل القِلال)[2].

---

(1) العبر، 4/ 2/ 310. نقله المَقّري في النفح (القاهرة)ـ 1/ 342. [بيروت، 1/ 365]. راجع كذلك: تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في إسبانيا (بالانجليزية)، مورفي، 101. التاريخ السياسي لإسبانيا الإسلامية (بالإنجليزية)، إمام الدين، 100.

(2) فراكسنيتُوم Fraxinetum: اسم لاتيني للقاعدة التي حلّ بها بعض البحّارة الأندلسيين، وأسّسوا هناك دولةً استمرّت حوالي 85 سنة أو يزيد (سقطت سنة 364هـ = 975م). حكمت - بعد أن أسّست قلعة حصينة في تلك العاصمة التي تقع الآن شَمال مرسيليا (فرنسا) - مناطق في شَمالي إيطاليا وحتى شَمال شرقي سويسرا عند سنت غالن St. Galen وخور Chur. أَطلق الجغرافيون المسلمون على هذه القاعدة «فراكسنيتُوم» اسمَ: «جبل القِلال». كانت هذه الدويلة تهدّد تلك المناطق وتخوّف حكامها من امتداد سلطة هؤلاء المغامرين الذين تركّزوا هنالك، قامت بينهم وبين سكان بعض المناطق عَلاقات ومصاهرة. ثمّ تَعَاوَن الحكامُ على طردهم بعد حروب طويلة. صورة الأرض، ابن حوقل، 1/ 204. المسالك والمالك، الإصطخري، 51. معجم البلدان، ياقوت الحموي، 1/ 363. تاريخ غزوات العرب، رينو، 160 - 167. دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 464 - 479.

لذلك وُجد كثير من الفرنسيين مَن يعرف العربية[1]. كما أنّ كلمة: «قُومِس» في النصّ، كوصفٍ للسفير، استعملها المؤرخون المسلمون كثيرًا بالنسبة لسكان إسبانيا الشَّمالية وبلاد ما وراء البُرْتات. اختيار شخص مُسْتَعْرَبٍ [متى ما وُجِد] مصيبٌ وضروري لتأدية مثل تلك المهمّة.

4 - إنّ مثل هذه الأهداف التي أُرسلت من أجلها السفارتان الفِرَنْجِيَّتَان إلى قُرطبة، طلب صداقة وتأكيد مودّة وتجديد صلة، أكثر معقولية أن تكون من قِبَل دولة مجاورة كالفِرَنْجَة خاصة من سلطة ناشئة. إنّ فائدة هذا النوع من الدبلوماسية - إضافة إلى أن يُؤمِّن حدود الدولة التي أرستها من هجوم قد يُتَوقّع من تلك الجهة التي عُقدت الصلة معها والتي قد يثيرها المنافسون في الداخل أو الأعداء في الخارج مما قد يستنفد جهود الحاكم التي يحتاجها في تثبيت ملكه في فرنسا في تلك المدة، بالإضافة إلى ذلك - إنّ هذا النوع من الدبلوماسية مع قُرطبة، كقوّة عظيمة مجاورة، تُؤمِّن عدم وقوف هذه القوّة إلى جانب الأعداء والمنافسين للسلطة الفرنسية، أو الاستجابة لنجدتهم. إذ قد حدث أن استعان بعض حكام الفِرَنْج أو الشَّمال الإسباني بالأندلس ضد منافسيهم[2].

إذن: مُرسِل هاتين السفارتين الفِرَنْجيتين هو هُيو كابَيه، ملك فرنسا الذي ربما كان مُحاطًا بالمنافسين. بأشدّ الحاجة إلى صداقة الدول المجاورة، خاصة قُرطبة التي بَلَغَتْ يومَها حدًّا عظيمًا من القوّة والرقيّ الحضاري. هذا مُبرِّر كافٍ تمامًا لطلب مودّتها وتأكيد الصداقة بين هذين البلدين المتجاورين.



---

(1) تاريخ غزوات العرب، رينو، 233 (الطبعة الإنجليزية، 217، 228).

(2) راجعوا: دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 1/ 216، 262.

الآثار الإسلامية في الأندلس[1]

تشتملُ محاضرةُ اليوم - بعد المقدمة - على عرض تاريخي للآثار الإسلامية في الأندلس ثم مشاهدة لبعض الصور.

هذا الحديثُ لا يشمل بصورة رئيسة الفنون الإسلامية ولا حتى فَنَّ عِمارتها في أي من مواطن حضارة الإسلام. بل هو حديث وصفي للآثار المِعْمارية في الأندلس، الذي يمثل فردوس زمانه. اعتدنا أن نُسَمِّيَه الفردوس المفقود أو الموعود، وان كنت أُسميه بالفردوس الموجود من بعض النواحي. الحديث دون شك يثير في النفس العِبْرة كما يثير كذلك فيها العَبْرة.

على الرغم من ذلك فإننا لا ندرس هنا أثر الحضارة الإسلامية الأندلسية على إسبانيا أو بقية أوروبا والعالم خلال التاريخ. كما أننا سوف لا ندرس الأثر الذي تركه الإسلام وطَبَعَ به حياةَ الناس حتى اليوم، التي تتمثل في غير الآثار المعمارية (موضوع هذه المحاضرة)، أعني بها ما تفلّت مِن المخطوطات من يد الحقد الأعمى والجهالة.

هذه المخطوطات موزعةٌ في عدد من مخازن الكتب في إسبانيا والبرتغال اليوم، هي بحاجة إلى عناية المؤسسات العلمية والحكومات الإسلامية التي يهمها

---

(1) ألقيت في قاعة المحاضرات العامة بجامعة الرياض، يوم الأحد 23 شوال 1388هـ = 12/ 1/ 1969م، في الموسم الثقافي لجمعية التاريخ والآثار بقسم التاريخ في كلية الآداب. كان في نهايتها عرض (بواسطة الشرائح) لصور عن بعض الآثار الأندلسية التي مازالت قائمة. ستظهر في العدد الأول من نشرة الجمعية. نُشرت (هذه المحاضرة) في جريدة الجزيرة (الرياض) العدد 230، 10 ذو القعدة 1388 = 28/ 1/ 1969م. ثم نُقِّحَت وزُوِّدَت بالمصادر ونُشرت (على حلقتين) في مجلة رابطة العالم الإسلامي، السنة السابعة، 1389هـ = 1969م، في العددين: الثاني (ربيع الثاني = يونيو، حزيران) والثالث (جمادى الأولى = يوليو، تموز).

شأن هذا التراث. يقتضي ذلك من الدول الإسلامية (بالتعاون وعلى انفراد) إحياءَ هذا التراث بتحقيقه ونشره. بالإمكان أن يتم بإنشاء معهد أو مؤسسة ذات إمكانية وقدرة على القيام بهذه المهمة.

كما أعني المؤثرات الأخرى في حياة الناس هناك، التي تشمل عدة جوانب في حياة الشعب الإسباني خاصة (كذلك في البرتغال)، من اجتماعية وعلمية ولغوية وأدبية وفنية وعِمرانية.

في اللغة مثلاً نجد كلماتٍ كثيرةً في اللغة الإسبانية والبرتغالية عربية الأصل: كقائد Alcaide والعود Laud والديوان Aduana والسكر Azucar والمخدة Almohada والقطن Algodon والتعريفة الجمركية Tarifa وغيرها كثير[1]. كذلك ما يستعملونه في أسلوب الخطاب من كلمة أستاذ Usted. من اللطيف أن بعض الكلمات الموجودة في الإسبانية أو غيرها من اللغات الأوروبية التي هي ذات أصل عربي نقلناها مرّة أخرى إلى العربية بصيغتها المُفَرْنَجَةِ، مثلًا: أدميرال Admiral (أمير البحر) والترسانة Atarazana (دار صناعة السفن).

الحديث الحالي سيتجنّب هاتين الناحيتين (أثر الحضارة الأندلسية على أوروبا وأثر الإسلام على حياة الإسبان في غير المِعْمار). كما سيتجنّب الحديثُ ما لم تُتِح الفرصةُ لي لحدّ الآن لدراسته، وهو فنّ العمارة الأندلسي. أي دراسة الجانب الفني والنظريات المِعْمارية الهندسية التي قامت عليها هذه الآثار الأندلسية، كذلك ما اندثر منها ولم يبق لنا غيرُ وصفها في كتب التاريخ والجغرافية والرحلات.

---

(1) راجع: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، 441. الإسلام في إسبانيا، لطفي عبد البديع، 112.

لولا الذي بقي لنا من هذه الآثار قائمًا، لِتَدلّ على صِدْق هذا الوصف، ربما لأنكرنا الواصفين تماديَهم في الخيال. حين ننصفهم نقول: إنّ لهم خيالًا مبدعًا أو لعلّهم كانوا يرغبون ويتمنون أن تكون تلك الخيالات واقعًا. كما تمنّت خيالات كتاب ألف ليلة وليلة بعض الآمال التي تحقّقت، كفكرة بساط الريح التي تعبّر عن السرعة في الانتقال.

لذلك سيكون الحديث منصبًّا في أكثره على الجانب التاريخي لِمَا تبقّى من هذه الآثار سليمًا أو مشوّهًا كذلك على الناحية الوصفية له، راجيًا أن يتيسّر لأحد دراسة الجانب الفني الذي لم تكن هذه الآثار القائمة وما اندثر منها إلّا ثمرة له. مثل هذه الدراسة (الفنية) المرجوة هي قَطْعًا بحاجة إلى جهد كبير. قبل الاسترسال في الحديث عن هذه الآثار لا بدّ من بيان أمور:

أولًا: إنّ حديث الآثار الأندلسية ينصبّ في أغلبه على القائمة منها، هي لا تمثّل إلّا جزءًا من الإنتاج العِمراني الذي اندثر منه الكثير بفعل الإنسان أكثر مما اندثر بفعل الزمان.

هذه الآثار بحاجة إلى الاهتمام والرعاية، تنقيبًا وترميمًا وإعادة. هذا ما تقوم ببعضه السلطات الإسبانية العلمية والرسمية. الدول الإسلامية مدعوّة للإسهام في هذا الأمر بأشكال كثيرة. لِمَ لا تكون بعض زخارف بناياتنا الرسمية والعلمية مزدانة بقطع من هذا الفن؟

ثانيًا: إنّ هذا المستوى العِمراني وغيره من جوانب الحضارة الإسلامية لم يكن مقصورًا على الأندلس الذي هو موضوع محاضرة اليوم.

ثالثًا: إنّه لَتجنٍّ عظيم ومجافاة لحقيقة التاريخ أن يوصف هذا الإنتاج الحضاري وغيره (كذلك فكرًا وحضارةً) بقومية معيّنة، أو يُحْسَر ويُنسب إلى جنس بذاته، بل هو تراث الإسلام الذي يغدو ملكًا لجميع المسلمين.

رابعًا: من الناحية الأخرى: إنّ اطلاعنا على هذه الآثار يُظْهِر المستوى الرائع لفنّ العِمارة الإسلامي في الأندلس.

خامسًا: هذا العِمران (وفنّه) كان شاملًا. مما يُعتبر دليلًا على الرقيّ الذي وصله المسلمون في الأندلس في كافة مناحي الحياة وشؤونها، المادية منها والروحية والمعنوية والاجتماعية. هذه الآثار الإسلامية المتبقية في إسبانيا والبرتغال شاهد على ما بلغته حضارة الإسلام من أصالة وعمق، تصاغرت أمامه ليس فقط أحداث القرون بل وصارعت أيادي الهدم ومعاول التحطيم. لا زالت هذه البقايا نابضة بالحياة الحضارية الكريمة وبحرارة العقيدة الإسلامية[1].

سادسًا: هذه الحضارة الشاملة التي كان الجانب الفني - بروعة آثاره وفنّيته - أحدَ واجهاتها، ليست إلّا واحدة من مواليد العقيدة الإسلامية التي كانت للناس - كلّ الناس - رُشْدًا وهداية ونعمة. هذا الحُكْم (الكلام) نابع من منطق الإسلام ومتفق مع طبيعته. كما أنّ الإسلام لا يعرف الفصل بين حَيَوات الناس (حياة: دينية واجتماعية وعاطفية ومادية وفكرية) وبين السلطة، لا يمكن الفصل بين هذه الأمور من ناحية، ولا بينها وبين الإسلام من ناحية أخرى. القرآن الكريم يتحدّث في السورة الواحدة عن أمور الدين (الروح والعبادة وغيرها) كما يتحدّث عن أمور الدنيا دون فصل بينها. حتى المباني الإسلامية في مختلف بقاع الإسلام تتشابه أحيانًا في

(1) راجع أيضًا: الإسلام في إسبانيا، 178.

كثير من أُسسها. الاختلاف في أشكالها لا ينفي عنها صفة الوحدة الروحية التي تنتظم المجتمع الإسلامي والتي أوجدتها تعاليم القرآن الكريم[1].

يمثّل المسجد في تاريخ الإسلام أساس العمران في المدينة الإسلامية التي يريد طبعَها بطابَعه، كما يمثّل أساسَ الحياة في المجتمع المسلم، ويكون المنارَ الهادي في شؤون حياة المسلمين.

كان أوّل ما يشيّد في المدينة المسجد الذي يُعتبر بعد ذلك مركزَها وقلبها النابض: منه تبدأ وإليه تنتهي كل طرقاتها. كما يَكْثُر نشاطُ الحياة اليومية حوله أو قريبًا منه أو في الطرق المؤدية إليه.

هذا نلمسه جيدًا في المدن الإسلامية في إسبانيا التي لا تزال (بعضها) تحتفظ بقدرٍ مِن طابَعها الإسلامي. يضاف إلى هذا أنّ المسجد لم يكن يُعتبر محلًّا للعبادة فقط، بل كان جامعة لتدريس العلوم المختلفة وملتقى للمسلمين ومنطلقًا لكثير من مناشطهم واجتماعاتهم. ذلك ينطبق بكليته على المسجد الجامع القُرطبي الذي سيتناوله الحديث.

سابعًا: إنّ الجانب الفني والعمارة نمت في ظلّ الإسلام بسرعة مذهلة، كما نَما غيرُها من ألوان المعارف والمناشط الإنسانية.

يوم انطلق المسلمون من جزيرتهم لم يكونوا يملكون شيئًا ذا قيمة من فنّ العمارة أو غيره، ولكنّهم استفادوا مما وجدوه في البلدان المفتوحة وحوّروا فيه وصهروه في بوتقة الإسلام[2] ثمّ ساروا فيه إبداعًا وتنمية ورعاية؛ لأنّهم كانوا يملكون العقيدة الإسلامية التي هي أساس كلّ خير وإبداع وتقدّم. ذلك ما نراه

---

(1) دور المسلمين في بناء الحضارة الغربية، بامَّات، 92 - 93.

(2) دور المسلمين في بناء الحضارة الغربية، 92.

أيضًا بالنسبة للأندلس، حيث يوم دخل المسلمون فاتحين لم تكن لديهم الأجهزة الفنية ولا يملكون المهندسين المعماريين أو وحدات أخرى (إن كانت قد توفّرت لديهم بعض المعلومات السابقة من البلدان المختلفة بعد أن تركوا جزيرتهم وقبل وصولهم الأندلس). بل إنّهم بعد فتحهم لقُرطبة -مثلًا- أقاموا مسجدًا بسيطًا بنوه لأنفسهم. أشرف على تحديد قبلته وموضعه مهندس المساجد في الغرب الإسلامي ومحدّد اتجاهاتها في تلك المدة هو: حَنَش بن عبد الله الصَّنْعاني[1].

ثامنًا: بناءً على ما تقدّم إنّ أيّة محاولة لتجريد هذه الأمور أو التراث (الميراث) وإبعادها عن العقيدة الإسلامية أو حتى دراستها من غير بيان لهذا الارتباط - أو بدون إقرار لهذه البنوّة المؤكدة - إنّ هذه الدراسة تُعتَبَر قاطعة لنسب حقيقي ومنكرة لرباط وثيق. بالتالي هي دراسة غير علمية ومخالفة للمنطق التاريخي ولروح الواقع ولطبيعة الأمور. ولا يهمّنا كثيرًا بعد ذلك إذا كانت هذه الدراسة (غير العلمية) والأسلوب (غير المنطقي) نتيجة للجهل وسوء الاقتداء، أو ربما كانت كذلك عن خُطة مقصودة وهدف مرسوم.

تاسعًا: لذلك لا بدّ لكلّ دراسة تسعى نحو الدقة العلمية وأمانة البحث المتحرّي للحقيقة - حين تتناول أيّ جانب من جوانب الحياة الإسلامية، فكرية أو اجتماعية أو أَيّة ناحية من الحضارة الإسلامية- لا بدّ أن تُرجع تلك الدراسةَ وتعود بكلّ ذلك إلى منابعه وتربطه بأصوله المتمثّلة في العقيدة الإسلامية. لأنّ هذه الجوانب هي ثمار لتلك العقيدة، ما كانت لِتُوجد بدونها.

على هذه الأضواء السابقة يجب أن يُنْظَر إلى الآثار الإسلامية في أصالتها وروعتها وفنّيتها وطابَعها ووجهتها واليد المنتجة لها. هي آثار أبدعتها يد المسلم

---

(1) نفح الطيب، المقري (بيروت)، 1/ 288. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، سالم، 382.

في تلك الأرض، من أيّ جنس كان، على أصول فنّية نشأت وترعرعت واقتبست في ظلّ الإسلام وعلى أساس منه، كانت مولودًا إسلاميًّا. من غير الممكن تجريد هذه الصفة عنها أو دراستها قطعةً فنية؛ كيف لقطعة فنية إلَّا أن تكون معبّرةً، حتى لو كانت مجزّأة مجرّدة؟ الآثار الإسلامية في الأندلس - كما سنلحظ ذلك - قِطَعٌ حيّة نابضة بالحياة ناطقة بروح العقيدة هاتفة بمجد الإسلام. استمع إليها وهي تَحكي قصّةَ مجد غَبَر ومقامَ أمّة اندثر. لكنها مع ذلك وإن كانت تثير في النفس الأسى فهي تحثّها الخُطَى على الدأب والعمل وتشير إلى مصدر القوة وموئل العزّة المبشِّر بالأمل. كلّ ذلك لا يأتي بالتمنّي ولكن: «ما وقر في القلب وصدّقه العمل». بعد هذه المقدمة أرجو ألَّا يكون قد حلّ بالساحة السأم وأدرك القومَ الملل.

★★★

الأندلس - أيها السادة - مُصْطَلح تاريخي يشمل كلّ ما كان للمجتمع والحكم الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم). ذلك يشمل كلّ البرتغال تقريبًا وأكثر إسبانيا الحالية.

الأندلس كذلك مدلول تاريخي وحضاري يشمل كلّ ما خلّفه المسلمون هناك، ما بقي منه أو اندثر، من آثار عمرانية سنتحدّث عنها وأشياء أُخر.

لم يكن فتحُ المسلمين للأندلس مجرّدَ حدث سياسي أو عمل عسكري، بل كان حدثًا حضاريًّا وإنجازًا رائعًا وإعلانًا عن حياة جديدة حَلَّت تلك الأرض، كان لها أثر في تلك الديار وما جاورها من الأقطار.

وصفت الشاعرة الألمانية روسويثا Hroswitha (القرن العاشر الميلادي) قُرطبة بأنّها «جوهرة العالم»[1]. يكفي أن نذكر بأنّ أهل مدينة قُرطبة (والمدن الأخرى) يومها كانوا يستطيعون الخروج بكلّ سهولة في الليل، حتى وقت المطر؛ حيث شوارعها المرصوفة المضاءة بالمصابيح العامّة مسافة أميال كثيرة[2]. في حين ظلّت مدينة لندن - مثلًا - قرونًا بعد ذلك لا يوجد في طرقاتها مصباح عامّ واحد يضيء ليلًا. في باريس كان من الصعوبة الخروج في الليل في يوم مطير حيث سيغوص الإنسان في الوحل[3].

يوم كانت قُرطبة وغيرها من مدن الأندلس ينعم أهلها بالحمامات العامة الشّيقة الأنيقة (حيث كان عددها في قُرطبة نحو 911)، في هذا الوقت كانت عادة الغسل والاستحمام تُعتبر في عدد من الدول الأوروبية منكرةً ووثنية[4]!

يُورد لنا الجغرافي الأندلسي أبو عُبَيْد البَكري (487هـ = 1094م) نصًّا ينقله عن رَحّالة أندلسي عاش في منتصف القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، شاهد عِيان عَرَف ذلك بنفسه. يقول في وصف بلد الجَلالِقة (سكان بلاد جِلّيقِيَة، في الشّمال الإسباني): «وأَهلُه أهلُ غَدْر ودَناءة أخلاق، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلّا مرّة أو مرّتين بالماء البارد. ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أنّ الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصحّ أبدانهم. وثيابهم أضيق الثياب، وهي مُفرَّجة يبدو من تفاريجها أكثرُ أبدانهم»[5].

---

(1) La Civilisation Arabe en Espagne, Levi-Provencal, p.114..

انظروا: أندلسيات (المجموعة الأولى)، 46 = أعلاه، 42.

(2) نفح الطيب، المقري (بيروت)، 1/ 208، 456، 3/ 216.

(3) تاريخ العرب، حتى، 2/ 626.

(4) المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، عاشور، 51.

(5) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 81.

﴿ كانت بداية الفتح الإسلامي للأندلس سنة 92هـ = 711م. تَمَّ على يد أبطال الفتح الكثيرين، في مقدّمتهم طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر وابنه عبد العزيز.

﴿ بعد ثلاث سنوات من اليوم [1969] سيصادف مرور ثلاثة عشر قرنًا على هذا الحدث العالمي التاريخي الكبير. حبّذا لو قامت بعض الدول الإسلامية متعاونة مع هيئاتها العلمية للاحتفال بهذه المناسبة الجليلة. لعلّ جامعة الرياض (وكافة الجامعات في البلاد الإسلامية عربية أو غير عربية) تكون ممّن سيقدَّر لها الإسهام في هذا المجال. كنّا نتمنّى ولا زلنا - حيث متّسع من الوقت الممكِن من ذلك - ليحتفل كافة المسلمين في العالم (وقد احتفل قليل منهم كالمغرب وباكستان) بمرور أربعة عشر قرنًا على أروع حدث فريد - وسيظلّ كذلك تفرده - في تاريخ كرتنا الأرضية ذلك هو: نزول القرآن الكريم على رسولنا محمد الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿ كانت الأندلس جزءًا من أرض الإسلام وقد اعتزّ بها المسلمون من أهلها ومن غيرهم. ويُعبِّر ابن حزم الأندلسي عن هذا الاعتزاز بقوله:

يا جَوْهَر الصين سُحْقًا فقد   غَنِيتُ بياقُوتةِ الأندلسِ

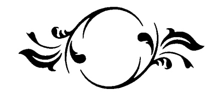
﴿ غدت اليوم (الأندلس) جزءًا من تاريخ الإسلام وحضارته.

★★★

﴿ بعد أن استقرّ المسلمون في الأندلس بدأ الإنتاجُ الإنساني ودخل الناس في دين الله أفواجًا، لمبادئه المشرقة التي لَمَسوها عمليًّا في أهلها الفاتحين. انصهرت كلّ هذه العناصر والأجناس بروح الإسلام. حتى ليذكر المؤرخون بأنّ أكثر المسلمين في إسبانيا كانوا من أهل البلاد الأصليين الذين سُمُّوا: «المولَّدين». لم أستطع لحدّ

الآن معرفة مقدار سكان الأندلس، لكن من المحتمل أن يكون حوالي خمسة عشر مليونًا. كلّ هذه العناصر اشتركت في إقامة العمران.

ذهب الكثير من الآثار الإسلامية الأندلسية خلال القرون، أكثر ما ذهب كان بفعل الإنسان، حيث هُدِّمت كثير من تلك الآثار الإسلامية بفعل حُمّى التعصّب وريح التزمّت المقيت. على الرغم من ذلك فقد بقيت بعض هذه الآثار متمثِّلًا في المساجد (التي أصبحت الآن كنائس) أو بعض القصور أو الحصون، متناثرة في عدد من المدن الإسبانية والبرتغالية. سنستعرض أهمّ هذه الآثار المتبقية حتى اليوم، التي نجد أهمَّها في مدن ثلاث في إسبانيا: قُرطبة Cordoba وإشبيلية Sevilla وغرناطة Granada. لا شكّ أنّ لهذه الآثار العمرانية الأندلسية، مدنية كانت أو حربية، أثرَها على العمارة في إسبانيا مثلما أقطار أوروبية أخرى[1].



(1) المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، 196. دَوْر المسلمين في بناء المدنية الغربية، 94.

قُرطبة

افتتح المسلمون قُرطبة Cordoba في محرم سنة 93هـ= /711/10م. لم يتخذوها عاصمة لهم في مبدأ أمرهم، بل اتخذوا إشبيلية Seville, Sevilla. ثمّ انتقلت العاصمة إلى قُرطبة بعد ذلك بخمس سنوات. بقيت قُرطبة تزداد ازدهارًا وتتسع عمرانًا ويرتفع فيها منار العلم في مختلف الأصول. ثمّ قامت مدينة خليفية في ضواحيها، على أقدام جبل العروس على بعد سبعة أميال (نحو أحد عشر كيلو مترًا)[1] شَمال غربي قُرطبة. تلك هي مدينة الزهراء التي بناها الخليفة الناصر. ثمّ ابتنى المنصور بن أبي عامر ضاحية ملوكية شرقي قُرطبة: هي مدينة الزاهرة.

ذكر الشَّقُنْدي في رسالته وابن سعيد المغربي كذلك حسبما أورده المَقَّري في نفح الطيب[2]: «إنّ العمارة اتصلت في مباني قُرطبة والزهراء والزاهرة، بحيث إنّه كان يُمشى فيها لضوء السُّرُج المتصلة عشرة أميال».

كانت قُرطبة تحتوي على واحد وعشرين رَبَضًا[3] (حيًّا). وبلغ عدد دورها أيام الخلافة الأندلسية بما يقارب 220 ألف دار. هذا ما حمل البعض أن يقدّر عدد نفوسها بمليون نسمة[4]، وإن كان البعض الآخر قد قدّره بنصف ذلك[5]. بلغ عدد حوانيتها بما يقرب من تسعة آلاف وحماماتها ما دون الألف بقليل ومساجدها بما

---

(1) راجعوا: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، عنان، 36.

(2) نفح الطيب (بيروت)، 1/ 456، 3/ 216.

(3) نفح الطيب (بيروت)، المقري، 1/ 208، 456، 458.

(4) المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، 50.

(5) انظروا: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 295. تاريخ العرب، 2/ 628. الحلل السندسية، 1/ 238.

يقلّ قليلاً عن أربعة آلاف، وذُكر أقلّ من ذلك[1]. لم تبق من هذه العمرانات إلّا القليل أو أقلّ منه.

عن الزاهرة والزهراء فقد اندثرتا كليًّا تقريبًا. لكن منذ بدايات هذا القرن العشرين بدأ علماء الآثار والباحثون الإسبان بالتنقيب فيهما، لقد استطاعوا أن يعيدوا بناء بعض أجنحة الزهراء، مستمرّون في عملهم[2]. كانت الزهراء يوم عزّها قمّة رفيعة في فنّ العِمارة والزخرفة. بلغ عدد السواري التي فيها 4300 سارية[3].

من الآثار الباقية في قُرطبة: قصر قُرطبة الخليفي، الذي يقع قريبًا من مسجدها الجامع وعلى مقربة من نهر الوادي الكبير Guadalquivir.

أما المسجد الجامع القُرطبي فهو أهمّ ما بقي فيها من الآثار الإسلامية الأندلسية. لقد وَصَفَه عدد من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين بأوصاف رائعة واعتبروه أروع أمثلة العِمارة الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط[4]. من الوجهة العلمية فقد كان أكبر جامعة إسلامية (أو من أكبرها) تُدَرَّس فيها كافّة العلوم ويَفِد إليها الطلاب من مختلف الأقطار. كان ممّن درس فيها من الوافدين الراهب جربرت Gerbert الذي أصبح فيما بعد بابا باسم سلفستر الثاني Sylvester II (مدّة دراسته: 390 ـ 394هـ = 999 ـ 1003م)[5]. قال رينو عن هذا البابا بأنّه: «انتجع إسبانيا طلبًا للعلوم الطبيعية والرياضية، فبلغ من العلم مبلغًا خُيِّل لعامّة فرنسا إذ ذاك أنّه ساحر»[6].

(1) نفح الطيب (بيروت)، المقّري، 1/ 540.
(2) الآثار الأندلسية، 36.
(3) نفح الطيب (بيروت)، المقري،1/ 524.
(4) راجعوا: نفح الطيب (بيروت)، المقري، 1/ 545 - 563. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 377.
(5) قارنوا: دور المسلمين في بناء المدنية الغربية، 33.
(6) تاريخ غزوات العرب، رينو، 296.

وصف عدد من الجغرافيين المسلمين: الإدريسي وغيره، هذا المسجد بأروع الأوصاف، بعد زيارتهم له. كان مِن أَجَلّ ما عَرَفَت الدنيا إتقانًا بالغ الغاية: «يَحار فيه الطَّرْفُ ويَعْجَز عن حسنه الوصفُ فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولًا وعَرضًا»[1].

كان هذا المسجدُ أَحدَ المآثر التي تميّزت بها قُرطبة وكان مصدر فخرها، ذلك ما يُعبّر عنه الشيخ الإمام أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية(542هـ)[2]:

بأربعٍ فاقت الأمصارَ قُرطبةٌ   وهنّ قنطرةُ الوادي وجامِعُها
هاتان ثنتانِ، والزهراءُ ثالثةٌ،   والعلمُ أكبرُ شيءٍ وهو رابعُها

حين افتتح المسلمون قُرطبة أقاموا مسجدًا بسيطًا أسّس حنشُ بن عبدالله الصنعاني قِبْلتَه بيده. بمرور الزمن تكاثر المسلمون الجُدد والوافدون منهم إلى الأندلس وكَثُرت أعدادهم فلم يعد يتّسع، وضعوا سقائف يصلّون تحتها فازدحمت بهم أيضًا. لما جاء عبد الرحمن الداخل كان هذا من الأمور التي اهتمّ بها. ذُكِرَ أن هذا المسجد البسيط أقيم في شطر كنيسة، بقيت الكنيسة بجواره، عرض الداخل على رؤساء المسيحيين بقُرطبة بيعها وأوسع لهم في البذل، لكنّهم رفضوا لَبَّى رغبتهم. [لكن تبين بعد البحث أن هذا غير صحيح].

هذا لا يدلّ فحسب على التسامح والحرية التي عاملهم بها الإسلام، بل يدلّ أيضًا على اقتناعهم وثقتهم بطبيعة الإسلام التسامحية[3]؛ حيث إنّهم رفضوا

---

(1) راجعوا: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 377.

(2) نفح الطيب (بيروت)، المقري، 1/ 615 - 616.

(3) هذه المسألة تصلح وتستأهل دراسة مستقلّة، حيث يدور ويحور عنها كلام أو يثور حولها غبار غير قليل يَتَدَسَّس خلاله زيف وتقوّل واتهام، لا يملك من العلم الأصيل أثارة ولا يرعى من المنهجية العلمية الكريمة لِمامًا. حتى في موضوع بناء مسجد قرطبة الجامع واختيار موقعه كلام.

ذلك رفضًا باتًّا، رغم إلحاح الأمير عليهم. لكنّهم وافقوا بعد ذلك على أن يُبيح لهم بناء كنيستهم التي كانت خارج الأسوار، وافق الداخل على طلبهم وهدم الكنيسة والمسجد القديم[1].

بدأ عبد الرحمن الداخل بناء جامع قُرطبة: بأسلوب جديد سنة 168هـ = 784م تمّ أكثره. لمّا تُوفِّيَ الداخل سنة 172هـ (788م) أتمّ ابنُه هِشام بناءَه ومأذنته وسقائف لصلاة النساء، وبناء مِيضأة مجهزة. بذلك يكون قد مرّ الآن [1388هـ = 1969م] على ابتداء بناء هذا المسجد ما يزيد على اثني عشر قرنًا.

أما المرحلة الثانية: فهي التوسعة التي أضافها عبد الرحمن الأوسط سنة 218هـ = 833م ثم زاد في عمقه سنة 234هـ = 848م. كان قبل هذه المرحلة الثانية له - بعدة سنوات - قد غزا النورمان الأندلسَ من شواطئه الغربية. هاجموا إشبيلية فأراد بعد ذلك (واليها) عبد الملك بن حبيب تحصينها إثر هذه المحنة.

يَروي لنا ابنُ حَيَّان القُرطبي[2] أن هذا (الوالي!؟) كتب إلى الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) في وقت كان فيه مشغولا ببُنيان زيادته بالجامع بقُرطبة وذكر الوالي للأمير: «أن بُنيان سور مدينة إشبيلية وتحصينها أَوْكَد عليه من بنيان الزيادة في المسجد الجامع، فعمل الأمير برأي الوالي في بنيان سور إشبيلية، ولم يُثْنِه ذلك عن بنيان الزيادة فأعطى كلًّا منهما بقِسْطِه من إرهاق العزيمة والسخْو بالنفقة إلى أن كَمَلا معًا كما أراده». في هذه القصة عدّة معان بعضها يؤكِّد ما ذهبنا إليه في مُقدّمة هذه المحاضرة. أَتَمّ ابنُه محمد ثم المنذر بن محمد وأخوه عبد الله بعض الزيادات البسيطة لإنجاز ما بدأه الأوسط. ثمّ كانت الزيادة

(1) نفح الطيب (بيروت)، المقري، 1/ 560 ـ 561. هذا الأمر بحاجة إلى تأكيد وتفصيل ومتابعة جادة.
(2) المقتبس في أخبار بلد الأندلس (بيروت، 1965م)، 244.

الثانية أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، حيث زاد فيه وهدم المِئْذَنة القديمة التي بناها هِشام بن عبد الرحمن الأول، وبنى مكانها مِئْذَنة جديدة سنة 340هـ = 951م[1]. لهذه المِئْذَنة مطلعان مفصول بينهما، يلتقي الراقون بهما في أعلى المِئْذَنة، كان لكلّ مَطْلَع منهما مائة وسبع درجات. بلغ ارتفاعها ثمانين ذراعًا حتى مكان المؤذن، مِن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرون ذراعًا. ثمّ نَصَبَ بأعلى المِئْذَنة سَفُّود بارز رُكِّبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضّة[2]. كان طول كلّ جانب من مِئْذَنة الناصر ثمانية أمتار ونصف المتر، كانت كلّها منقوشة ومزخرفة بألوان متعدّدة. لكنها أُصيبت فيما بعد وكادت أن تنهار رُمِّمت بعد أن تهدّم بعضها.

ثمّ كانت الزيادة الثالثة: أيام الخليفة الحَكَم المستنصر بن الناصر. بزيادته كَمُلَت محاسن هذا الجامع ووصل إلى حَدٍّ يُقْصرُ الوصفُ عنه كما يقول المقّري[3]. وبنى المستنصر أيضًا ميضات جديدة، وأَجرى إليها الماء من عين بجبل قُرطبة في أنابيب الرصاص التي حُفظت داخل قنوات حجرية متقنة البناء[4]. ويبدو أنّ طريقة إيصال الماء من منابعه إلى الأحواض أو بعض الدور والمرافق العامة بأنابيب الرصاص كانت معروفة تمامًا في هذه المدة، كما يَروي لنا ذلك عدد من المؤرخين.

كانت هذه المياه تَصُبّ في أحواضٍ من الرخام في المسجد، وما يزيد منها عن حاجته يجري إلى سِقاياتٍ على أبواب الجامع بجهاته الثلاث: الشَّمالية والشرقية والغربية. كما ابتنى الحكم المستنصر معهدًا لتوزيع الصدقات، أقام مكاتب لتعليم

(1) راجعوا: نفح الطيب، المقري، 1/ 545، 560 – 563.
(2) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 390.
(3) نفح الطيب، 1/ 561.
(4) نفح الطيب، 1/ 555. البيان المغرب، 2/ 240. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 393، 417.

الضعفاء والمساكين واليتامى. يقول الشاعر محمد بن شَخيص في وصف هذه القنوات وعَمَل الحَكَم[1]:

وقد خَرَقْتَ بُطُونَ الأرضِ عن نُطَفٍ	مِن أعذَبِ الماءِ نحو البيتِ تُجريها
طُهْرُ الجُسوم إذا زالت طهارَتُها	رَيُّ القُلوبِ إذا حَرَّت صَواديها
قَرَنْتَ فَخْرًا بأجرٍ قلَّ ما اقترنا	في أُمَّةٍ أنتَ راعيها وحاميها
وساحةُ المسجدِ الأعلى مُكَلَّلَةٌ	مَكَاتبًا لليتامى مِن نواحيها
لو مُكِّنَتْ سُوَرُ القرآنِ مِن كَلِمٍ	نادتك: يا خيرَ تاليها وواعيها

<u>الزيادةُ الرابعة والأخيرة:</u> كانت أيام المنصور بن أبي عامر سنة 377هـ = 987م. أصبح للمسجد - بعد هذه الزيادة - واحد وعشرون بابًا، كانت جميعها ملبّسة بالنحاس ومخرّمة تخريمًا رائعًا. كان يحتوي على مقاصير مسقّفة للنساء. كان عدد أعمدته أو سواريه بين 1413 و1417 عمود أو سارية رخامٌ كلُّها. وقبابُه وجدارُ المحراب وما يليه أُجرِيَ فيه الذهبُ على الفُسَيْفِسَاءِ، وثُريَاتُ المقصورة من فضّة[2].

بقي هذا المسجد قِبلةً تهفو إليه قلوبُ المسلمين من كلّ مكان؛ كما كان جامعةً إسلامية كبيرة يقصدها العلماءُ كما يقصدها الطلاب.

كانت قُرطبة قرارةَ أولي الفضل والتُّقَى ووطن أُولي العلم والنُّهى ويَنبوع العلوم[3]؛ كما كانت أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأهلُها أشدّ الناس اعتناءً بخزائن الكتب. من لطيف ما يَروي لنا المَقّري في ذلك أنّه جرت مناظرة في المفاضلة بين قُرْطُبة وإشْبِيلِيَة بين ابن رُشْد الفيلسوف (595هـ) وأبي بكر بن زُهْر(595هـ)،

---

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم، 393 - 394.

(2) جغرافية الأندلس وأوروبا، البكري، 103.

(3) نفح الطيب، 1/ 461.

قال له ابن رشد: «ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأُريد بيعُ كتبه حُمِلَت إلى قُرْطُبة حتى تباع فيها، وإذا مات مُطْرب بقُرْطُبة فأريد بيع تركته حُملت إلى إشبيلية»[1]. لعلّ إشْبِيلِيَة ما زالت حتى هذا اليوم تحتفظ بقسط من طابعها القديم، طابع المرح والطرب. ففي بداية نيسان (أبريل) من كلّ سنة تقام احتفالات ضخمة لمدّة أسبوع يعيش الناس خلالها في أعياد مستمرّة، وذلك ما يعرف باسم مهرجانات إشْبِيلِيَة Feria de Sevilla. [لكن كلام ابن رشد لا يعني أن أهل إشبيلية ليس لهم اهتمام بالعلم، بل يعني أن أهل قرطبة أكثر اهتمامًا بالعلم من إشبيلية وغيرها، كما أشار إليها المَقَّري للتو].

في مثل هذا اليوم تمامًا (23 شوال، 1388هـ) قبل سبعة قرون ونصف، في 23 شوال سنة 633هـ = 1236/6/29م سَقَطَتْ عروسُ الأندلس (قُرطبة) بيد جيوش قَشْتالَة، بعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس وقيام مملكة غَرناطة في 630هـ = 1233م. أصاب المسجد بعد ذلك كثير من الأحداث وناله التشويهُ الكبير على أيدي النصارى الإسبان. حيث أُقيم في داخله هيكل وأجريت تغييرات، ثمّ أُقيم في وسطه هيكل كبير وصَفَهُ عدد من علماء الآثار الغربيين (الإسبان وغيرهم) بأنّه: «أشْنَعُ عَمَلٍ هَمَجي»[2]. في سنة 1521م استأذن أُسْقُفُ قُرْطبة في إقامة هيكلٍ رئيس، أَذِنَ الإمبراطورُ كارلوس الخامس (Carlos V, Charles) (شارلكان) به، أَحدث ذلك في المسجد الجامع القرطبي تشويهًا. حينما زار هذا الإمبراطورُ قُرْطبة بعد ذلك اطّلع على ما تم فيه قال للمشرفين على الجامع: «لقد بَنَيْتُم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكانٍ آخر، وقد قَضَيْتُم بذلك على ما كان أثرًا وحيدًا في العالم»[3].

---

(1) نفح الطيب، 1/ 463.
(2) الآثار الأندلسية، 26.
(3) الآثار الأندلسية، 26.

ثمّ تلاحقت التغييرات في هذا المسجد الرائع. الباقي حتى الآن من هذا المسجد يدلّ على مكانته، رغم ما أصابه مِن تشويه وما زال عنه مِن جمال وروعة ورغم ما تهدّم منه من أجزاء، حتى لم يبق من تلك الغابة من النخيل أو الأعمدة إلّا نصفها.

إلّا أنّ هذا المسجدَ لا يزال يحملُ طابَعَ الفنّ الإسلامي. إنّنا لنجد فيه وفي غيره من الآثار العِمرانية حكايةَ جانب من قصّة حضارة الإسلام في الأندلس. في الصوَر التي ستعرض عليكم أبلغ من أيّ كلام، ليس أبلغ منها إلّا زيارة المسجد والاطّلاع عليه عِيانًا[1].



(1) كانت قد عرضت صور (بالشرائح Slides) عن بعض آثار الأندلس في نهاية المحاضرة.

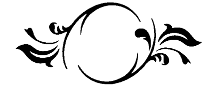
إشبيلية

افتتحها موسى بن نُصَيْر سنة 94هـ = 713م، واتخذها ابنُه عبدُ العزيز عاصمةً للأندلس. تُعْتَبَر من قواعد الأندلس الكبرى، فيها قامت مملكة بني عبَّاد، جَعَلَ منها سنة 558هـ =1163م أبو يعقوب يوسف عاصمةً ثانية للدولة الموحدية. تظلّ كذلك حتى خلافة أبي يوسف يعقوب الملقّب بالمنصور ثالث خلفاء الموحدين. في عهده تمّت فيها إنشاءات كثيرة كان منها الصومعة (المِئْذَنَة) التي تُعرف الآن: (الخيرالدا La Giralda).

في سنة 646هـ = 1148م تسقط بيد ملك قَشْتالَة، أي بعد سقوط قُرْطبة بثلاث عشرة سنة. كانت في إشبيلية آثار كثيرة لكنها إمّا هُدِّمت أو شُوِّهت كما شُوِّه مسجدُ قُرْطبة مِن قبل. لم يبقَ من مآثر إشبيلية غيرُ المئذنة التي بناها المنصور الموحّدي حوالي سنة 580هـ = 1184م، يبلغ ارتفاعها الآن أقلّ بقليل من مائة متر. [ذلك إلى بقايا أخرى من أجنحة القصر وآثار غيرها قليلة مبثوثة هنا وهناك].

في سنة 1402م بُدِئ بإنشاء كنيسة إشبيلية فوق مسجدها. بقي أيضًا من الآثار الإسلامية في إشبيلية قصرُها الذي يُعرف أيضًا باللغة الإسبانية بنفس الاسم Alcazar. يقع هذا القصر على مَقْرَبة من الكنيسة العظمى. يَرْجِع تاريخُه إلى أيام الفتح الإسلامي الأول. كان في مبدأ أمره بيتًا صغيرًا أقام فيه موسى بن نُصَيْر ثمّ أقام فيه ولاة إشبيلية بعد ذلك، ثم جدّدوه ووسّعوه. فيه أقام بنو عبّاد واهتمّ به المُعْتَمِد وتأنّق في زينته وأثاثه وسمّاه (المبارَك). وَوَرِثَه الموحِّدون ثمّ المسيحيون بعد

ذلك، حيث قد أجروا عليه بعض التغيرات. يتكوّن القصر من طابقين: يُعبِّر تعبيرًا جيدًا عن روعة الآثار الإسلامية والفنّ المعماري عندهم. الطابق الأول منه يبدو في معظمه أندلسي الأصل، أمّا الطابق الثاني يكاد يكون كلّه قد تمّ أيام الإسبان، تقليدًا للفنّ الأندلسي، بُنِيَ على أيدي المسلمين الذين بقوا في إشبيلية وفي غيرها بعد سقوطها، إذ هؤلاء المسلمون الذين يسمَّون: «المُدَّجَّنِينَ»[1].



(1) راجعوا: نفح الطيب (3/ 232). الآثار الأندلسية، (58).

غَرناطة

تَعني كلمة غَرناطة Granada بالإسبانية الرمّانة. كانت مدينة قائمة، لعلّها غير ذات أهمية كبيرة. افتتحها المسلمون أيامَ طارق خلال الفتوحات الأولى، لم تأخذ لها الأهمية التاريخية الكبرى إلَّا بقيام مملكة غرناطة فيها، من قِبَل بني الأحمر الذين اتخذوها عاصمةً لهم. استمرّ فيها مُلْكُ بني الأحمر ما يزيد على قرنين من الزمان، حتى سقوطها سنة 897هـ = 1492م.

ما قلناه عن غيرها من المدن الأندلسية، نقوله عنها فيما أصابها من النكبات. خير ما بقي لنا من الآثار فيها هو قصرها المعروف: «الحمراء Alhambra». قريبٌ من هذا القصر تقع حدائق وقصر جنّةُ العريف Generalife. يُعْتَبَر قصرُ الحمراء أعظمَ أثر أندلسي باق حتى اليوم. [مما تحتويه من مكوناتها العديدة الكثيرة القَصَبة التي] لم يكن هذا الأثر من القصر إلَّا جزءًا (صغيرًا) فقط من مدينة الحمراء، التي تسمّيها الرواية الإسلامية: قَصَبة الحَمراء[1]. كانت الحمراء بكل محتوياتها الفذة تشمل قصر الحاكم والقِلاع ودور الوزراء والحاشية، هي أشبه بالزهراء في قُرطبة من حيث الوظيفة.

نشأت الحمراء نشأة تاريخية، تطوّرت خلال الزمن. كان موقعها في الأصل قلعة تسمّى الحمراء، بنيت فوق هَضْبَة هناك في القرن الرابع الهجري، ثمّ أقيمت بعض البنايات المتعددة في وظائفها. لمّا أنشأ محمد بن الأحمر (671هـ) مملكة غرناطة (635هـ) اتخذ مركزه في تلك القَصَبَة وجعلها مدينة ملوكية وزاد في بناياتها ومنشآتها. هكذا نَمَت على يد من جاء بعده. يُعدُّ قصرُ الحمراء اليوم من أروع وأبدع الآثار الإسلامية في الأندلس، سواء في إسبانيا أو البرتغال. يمتاز بعقوده

(1) المصدر السابق (189).

الرائعة وزخارفه البديعة وأعمدته الرشيقة وأناقته المتناهية وروعة عمرانها وجمال زخارفها البارعة المتفردة[1].

ينقسم قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين: الأول- جناح قَمَارش الذي يضمّ قاعة السفراء والبرج، الثاني- جناح الأسود الذي يتوسّطه فِناءُ الأُسُود. في كلّ من هذه الأجنحة القاعات والأفنية والأروقة الجميلة.

كَثُرَ النِّتاج الشعري والنثري في وصف قصر الحمراء، خاصة ما أنتجته قريحةُ ابن الخطيب(776هـ) وتلميذه ابن زَمْرَك(795هـ). نجد كثيرًا من هذه الأشعار منقوشة على جدران القصر كما نجد منقوشةً أيضًا عبارة (ولا غالِبَ إلَّا الله)[2]، التي هي شعار مملكة غَرناطة اعتزازًا والتزامًا بها.



في الصور التي سنعرضها خير بيان على مستوى الفنّ المعماري الذي وصله المسلمون في الأندلس. هناك الكثير غير هذا الذي ذكرنا من الآثار موزَّع في مدن عديدة في إسبانيا والبرتغال. كَتَب عنها كثيرٌ من الرحالة من مختلف الأقطار وبعدّة لغات، كما كَتَب عنها الباحثون الكتب الكثيرة. وإن كانت هذه الآثار المتبقية وَحْدَها غير كافية تمامًا لإعطاء صورة صحيحة مكتملة عن مستوى فنّ العمارة الذي وصله المسلمون، لكن ما نجده في كتب المؤرخين المسلمين، خاصةً مَن زار منهم تلك المناطق ووَصَفَها بدقّة كما شاهدها، يُعْتَبَر متمّمًا أو موضِّحًا لهذه الصورة الغَلّابة.



---

(1) انظروا: الآثار الأندلسية، 192.

(2) من مضمون الآية الكريمة رقم 21 من سورة يوسف والتي منها: ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

إنّ الأندلس لتمثّلُ مأساةً كبرى في التاريخ الإسلامي، تثير الأسى والأسف والحزن العميق البليغ. ليس مصدر ذلك ناتجًا (متأتيًا) فقط من زوال سلطان المسلمين السياسي عنه، لكن أيضًا من زوال أفراده المسلمين [كذلك ما أنجزوه]. كان ذلك نتيجة (بفضل) المقاومة الجاهلة العمياء وعمليات القمع الغبية البشعة التي لا يُقرّها عُرْفٌ ولا دين. هذا إذا علمنا مقدار ما لاقاه المسلمون على يد السلطات الإسبانية، خاصة بعد سقوط غرناطة المريع المُبير، حيث اتُّبعت كلُّ وسيلة لمحو أيّ أثر للإسلام هناك، مهما كانت عميقة في وحشيتها أصيلة في عدائها وتعصّبها كالحة في بشاعتها. من تقتيل وتشريد إلى حرب باطشة مهلكة، لمن تجده متلبِّسًا بأيّ شيء يتّصل بالإسلام، حتى اللبس واللغة، وحتى بعد إعلانهم الانضمام إلى المسيحية. استمرّ ذلك - بشكل أو بآخر - خلال عدّة قرون تلت سقوط غرناطة، الأمر الذي اضطرّ المسلمين- خلال هذا الاضطهاد- أن يُظهروا المسيحية ويُبطنوا الإسلام ويعلِّموه أولادهم، رغم القتل بالجملة ودونمَا سبب ومن غير رحمة. أُطلق على هؤلاء المسلمين المتسترين اسم: المُورِسْكِيين (Los Moriscos). لم يَنْجُ من هذا العذاب أحد. طُرِدَ وقُتِل منهم الملايين وأُبعِدَ الكثيرُ إلى خارج إسبانيا[1].

ربما نذكر بهذه المناسبة ما يثير انتباهنا واهتمامنا، ما أوردته بعض الصحف قبل عام أو يزيد [أي بعد 1967]، على إثر إصدار الدولة الإسبانية قانون الحريات الدينية. فقد أعلنت ستمائة أسرة (مسلمة) في إسبانيا أنّها لا تزال تحتفظ بإسلامها!!!

لعلّ في ظهور هذا العدد من الأُسَر (التي كانت محتفظة بدينها خِفْية خلال عمليات القمع الرهيب طيلةَ هذه القرون) مسلمةً متمسّكة بعقيدتها معتزّة

(1) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، عنان، 379 ـ 390.

بها تَوَرِّثُهَا الأجيال خَلَفًا عن سَلَف، يغدو دليلًا قويًّا على أنّ قوّة الإسلام عظيمةً كامنة في ذاتهم لا تزول، وأنّ الإسلام مَهما لاقى فإنّ التمسّك به لا يمكن أن يقهره أيّ جبّار ولا طاغية [ولا ظالم]، بأيّ قوّة استعان ومن أيّة جهة جَلب التأييد. هذا مُحَفِّزٌ آخر للمسلمين يثير انتباههم ويقوّي من عزيمتهم، ليُعيد كثيرٌ منهم مواقفَهم مِن الإسلام ويردّوا إليه قيادة أنفسهم ويُسْلِموها لله، وعلى ضوءٍ من الإسلام يقيموا مجتمعهم [المؤمن].

[هذه نهاية بحوث المجموعتين من: أندلسيات، حيث مضت البحوث الجديدة المُضافة].



المصادر والمراجع

أولاً - العربية:

- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1963م، الجزء الأول.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق C. J. Tornberg، ليدن، 1862 - 1871م، الأجزاء: 6 - 8.
- ابن حزم القرطبي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962م.
- ابن حزم القرطبي، طوق الحمامة في الألفة والألّاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة، 1959م.
- ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق كريمر J. H. Kramers ليدن، 1938، الجزء الأول.
- ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، قطعة بتحقيق ليفي بروفنسال في مجلة الأندلس Al-Andalus (مدريد - غرناطة)، المجلد 19، القسم الثاني (1954م)؛ مخطوطة القرويين (لا رقم لها)، تمثّل الجزء الثاني، يطبع الآن في بيروت بتحقيق الدكتور محمود علي مكي؛ الجزء الثالث، تحقيق Melchor M. Antona، باريس، 1937م؛ مخطوط مكتبة الأكاديمية التاريخ في مدريد، مجموعة كوديرا رقم 2 (حقّقها المؤلف وطبعت في بيروت، 1965م).
- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1955م، الجزء الأول.

- ابن الخطيب، أعمال الأعلام (القسم الأندلسي)، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956م.
- ابن خلدون، العبر، بيروت، 1958م، الجزء الرابع. القسم الثاني.
- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1953م، الجزء الأول.
- ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق س. كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1951م. الجزء الثاني.
- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، طبعة الدكتور عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1957م.
- أديب مخّول(قيصر)، الإسلام في الشرق الأقصى، ترجمة الدكتور نبيل صبحي، بيروت، 1966م.
- أرسلان (شكيب)، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، فاس(المغرب)، 1936م، الجزء الثاني.
- الإصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني، القاهرة، 1961م.
- بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955م.
- بامّات (حيدر)، دور المسلمين في بناء المدنية الغربية، جنيف، (بدون تاريخ).
- البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، مخطوطة نور عثمانية (اسطنبول)، رقم: 3034، جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1387هـ = 1968م.

- حتي (فيليب)، تاريخ العرب (مطوّل)، بالاشتراك مع إدورد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت، 1966م، الجزء الثاني.
- الحِمْيَري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار)، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937م.
- الخشني (محمد بن حارث)، قضاة قرطبة، القاهرة، 1372هـ = 1952م.
- رينو (جوزيف)، تاريخ غزوات العرب، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، وبضمنه كتاب لكلر KellerK، بيروت، 1966م. وانظر المصادر الأجنبية: Reinaud.
- سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962م.
- عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح)، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول (التاريخ السياسي)، القاهرة، 1961م.
- عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح)، المدنية الإسلامية وأثرها على أوروبا، القاهرة، 1963م.
- العبّادي (الدكتور أحمد مختار)، «سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957م، المجلد الخامس.
- عبد البديع (الدكتور لطفي)، الإسلام في إسبانيا، القاهرة، 1958م.
- العُذري (أحمد بن عمر بن أنس)، نصوص عن الأندلس، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965م.
- العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط دار الكتب بالقاهرة (نسخة مصوّرة)، رقم: 550، الجزء: 16، القسم الأول.
- عنان (محمد عبد الله)، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1960م، جزءان.
- عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، 1958م.

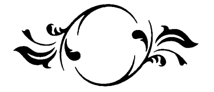
- فرّوخ (الدكتور عمر)، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، بيروت، 1959م.
- القزويني (زكرياء بن محمد)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، 1960م.
- لين بول (استانلي)، العرب في إسبانيا، ترجمة على الجارم، القاهرة، 1960م. انظروا: المصادر الأجنبية: Lane - poole.
- مجهول المؤلّف. أخبار مجموعة، تحقيق E. Lafuente y Alcantara مدريد، 1867م.
- المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م.
- المَقَّري (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخَطيب، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949م، الأجزاء: 1، 4، 6 ؛ طبعة دوزي وزملائه، ليدن، 1856م. الجزء الأول، القسم الأول؛ طبعة بولاق، القاهرة، 1279هـ (1862م)، الجزء الأول ؛ طبعة بيروت، 1968م، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الجزءان 1، 3.
- مؤنس (الدكتور حسين)، فجر الأندلس، القاهرة، 1959م.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، القاهرة، 1906م، الجزء الأول.

ثانيًا: المصادر الأجنبية:

- Altamira y Creva (Rafael), Historia de Espana y de la civilzacion espanola, Barcelona, 1900, vol. I.
- Aschbach (Joseph), Geschichte der Omajaden in Spanien, a / M., 1829, vol. I.

- Cagigas (Isidro de las), Los Mozarabes, Madrid, 1947, vol. I.
- Casiri (Michaelis), Bibliotheca Arabico-Hispana Esqurialensis, Madrid, 1770, vol. II.
- Codera y Zadin(Francisco) Coleccion de Estudios Arabes (Estudirid, Madrid, 1917, t. IX.
- Dubler (Cesar E.), Abu Hamid el Granadino y su Relacion de Viaje por Tierras Eurasiaticas, Madrid, 1953.
- Encyclopaedia Britannica, 1952, vol. XVI.
- HOLE (Edwyn), Andalus, Spain under the Muslims, London, 1960.
- IMAMUDDIN (S. M), A Political History of Muslim Spain, Dacca, 1961.
- LAFUENTE (MODESTO), Historia General de Espana, Madrid, 1850, vol. III.
- LANE-POOLE (Stanley), The Moors in Spain, London, 1897.
- LEVI-PROVENCAL (E.), Histoire de Espagne muslmane, Paris, 1950, vol I ; Sp. tr. E. Garcia Gomez, Historia de Espana, vol. IV, Espana Musulmana, Madrid, 1957.
- MURPHY (J. C.), History of the Mohametan Empire in Spain, London, 1816
- OLIVER y Hurtado (M.), Discursos, No. 2, منشورات الأكاديمية التاريخية في مدريد, 1866, vol. III.

- REINAUD (J.T.), Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland, Eng. Tr. Haroon Khan Sherwani. Lahore, 1964.
- SAAVEDRA (E.), Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892.
- SIMONET (F.J.) Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 18971903-.
- URBEL (F.J. PEREZ DE), Historia de Espana, vol. VI, Espana Cristiana, Madrid, 1956
- WESTBERG (F.), Memoires de l'Academie Imperiale des Sciences de St-Petersbourg, VIII serie, 1898, vol. III, No. 4.



للمؤلــف

تأليف وتعريف:

الدكتورعبد الرحمن علي الحَجِّي

ABDURRAHMAN ALI ELHAJJI, PH. D. Cambridge University.

أستاذ السيرة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامي والأندلسي وحضارته

aa.elhajji@hotmail.com

تويتر/ Twitter: @aaelhajji

Youtube.com/abdulrahmanelhajji يوتيوب

- **ليسانس في اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية، ثم السنة التحضيرية للماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية دار العلوم جامعة القاهرة.**
- **دبلوم عالي في التربية وعلم النفس من كلية التربية العليا جامعة عين شمس بالقاهرة.**
- **دَرَّست في جامعات عدة، ابتداءً جامعة بغداد، شاركت في أمور علمية متنوعة، كتبت كتبا و بحوثا كما يشار إليه أدناه.**
- **قدمت برامج كثيرة في إذاعة القرآن الكريم بدولة الكويت، فوق عشرة برامج لموضوعات وفيرة يومية دوماً، في السيرة النبوية الشريفة والتاريخ الأندلسي وحضارته، منها:**

= «منهجية دراسة السيرة النبوية».

= «الإشارات والبشارات النبوية».

= «الهجرة النبوية وثمارها».

= «الدبلوماسية النبوية وسفراؤها».

= «الأندلس: ظلال رمضانية».

= «الأندلس: قضاؤه وقضاتُه».

= «مع الأندلس لقاء ودعاء».

= «أدب علماء الأندلس».

= «التاريخ الإسلامي شبهات وحقائق».

= «المظلومون في تاريخنا».

= «حكايات أندلسية».

= «الأندلس تاريخًا وحضارة»، البرنامج الحالي الذي أذيع أكثره والباقي الأمل أن تستكمل إذاعته قريبًا إن شاء الله تعالى.

= لديَّ الآن من البرامج الجاهزة للتقديم بفضل الله تعالى، أدعوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ييسر لهما طريق تقديمها مع ما يوفق جَلَّ جَلَالُهُ لما بعدهما نِتاجًا:

- «إعجاز القرآن والنبوة».

- «دولة المدينة المنورة : الإسلام والدولة المعاصرة».

- «النموذج الأندلسي في تَطبيق الشريعة الإسلامية».

هذه قائمة بالمؤلفات: كتب (تأليف وتحقيق)، بحوث باللغة العربية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية. عدا المقالات - التي لا تحتويها هذه القائمة الحالية - المنشورة في الصحف في العديد من البلاد العربية، لاسيما الخليجية وبالذات في دولة الإمارات العربية المتحدة. يضاف إليها مئات الأشرطة (كاسيت وفيديو)، كل ذلك إلى جانب الكثير من البحوث المنشورة في العديد من المجلات العلمية، والمحاضرات على اليوتيوب.

• رسالة الدكتوراه: مصادرها باثنتي عشرة لغة، منشورة كتابًا بالإنجليزية بعنوان:

"ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD"- Beirut, 1390 (1970)

العربية منها صدرت كذلك والحمد لله تعالى عن المَجْمَع الثقافي – أبو ظبي – دولة الإمارات العربية المتحدة 2004، بعنوان: «العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المُدَّة الأُموية».

• تحقيق ودراسة لسِفْر من كتاب: «المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس»، للمؤرخ الكبير ابن حَيّان القُرطبي (377 ـ 469هـ)، بيروت (1965م). يتحدث هذا الجزء من المُقْتَبِس عن خمس سنوات (360 ـ 364هـ = 971 ـ 974م) من أيام الخليفة المستنصر بالله، الحَكَم (الحكم الثاني) (350 ـ 366هـ = 961 976ـم). نُشر هذا الجزء على نسخة منقولة عن الأصل، كلاهما فُقد الآن. لديّ صورة للمخطوط المنقول (Microfilm). كان نَشر هذا الجزء من المُقْتَبِس إنقاذًا له من الضياع الأبدي.

يَتِمّ قريبًا نشره إن شاء الله تعالى، لدى دار القلم، دمشق – بيروت. هاتفهم (بيروت، المدير السيد عماد محمد على دولة: 009613191713) ، إيميل: saeyddawla@hotmail.com, kalam-sy@hotmail.com

• تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوربا من كتاب: «المسالك والممالك»، للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عُبَيْد البَكْري (عبد الله بن عبد العزيز: 406 ـ 487هـ = 1015 – 1094م). ظهر هذا النص تحت عنوان: «جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري، بيروت (1387هـ =1968م).

يَتِمّ قريبًا نشره إن شاء الله تعالى، لدى دار القلم، دمشق - بيروت. هاتفهم (بيروت، المدير السيد عماد محمد على دولة: 009613191713) ، إيميل:
saeyddawla@hotmail.com, kalam-sy@hotmail.com

- **«التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غَرناطة»، دار القلم، دمشق، 2008 و 2010 و 2011م تمت هذه الطبعة من قِبَل وزارة الأوقاف القطرية. قبله كانت قد اختارته وزارة التربية السعودية طبعة خاصة توزعه على مكتباتها.**

دار القلم، دمشق - بيروت. هاتفهم (بيروت، المدير السيد عماد محمد على دولة: 009613191713) ،

إيميل: saeyddawla@hotmail.com, kalam-sy@hotmail.com

- **«تاريخنا مَنْ يكتبه؟» القاهرة، مكتبة دار الفضيلة، 1997م.**
- **«نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي»، دار ابن كثير، بيروت، 1999م.**
- **«أضواء على الحضارة والتراث»، الكويت، 1987م.**
- **«مع الأندلس لقاء ودعاء»، مكتبة المنار - حولي - شارع المثنى - الكويت، 1432هـ = 2011م. هاتف المكتبة: 0096522615045/ هاتف الإدارة والتسويق: 0096522645812/ الإيميل:** almannar@hotmail.com**/ هذا الكتاب شرح (رواية لزيارة الأندلس بصحبة مجموعة من طالبات جامعة الإمارات العربية المتحدة إلى الآثار الأندلسية سنة 1978م، وزيارة تالية للطلبة البنين شتاء سنة 1985م).**
- **«ابن زيدون السفير الوسيط»، الكويت، 1987م.**
- **«العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة (القسطنطينية)، حتى نهاية القرن الرابع الهجري»، 2003م، (المَجْمَع الثقافي)، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.**

- «هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظُروفُها وآثارُها)»، 2003م، (المَجْمَع الثقافي)، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

- «السيرة النبوية، منهجية دراستها واستعراض أحداثها»، دار ابن كثير، بيروت، 1999م. طبعة جديدة مزيدة، يجري العمل على نشرها. يقوم بنشرها: دار القلم السورية، دمشق - بيروت، عما قريب إن شاء الله تعالى.

- «تاريخ الموسيقى الأندلسية (أصولها، تطورها، أثرها على الموسيقى الأوربية)»، بيروت، 1969م.

- «الحضارة الإسلامية في الأندلس (أسسها، ميادينها، تأثيرها على الحضارة الأوربية)»، بيروت، 1969م. طبعة جديدة مزيدة، يجري العمل على نشرها. تقوم بنشرها: دار القلم السورية، دمشق - بيروت، عما قريب إن شاء الله تعالى.

- «أندلسيات» (جزآن) - مجموعة بحوث أندلسية، بيروت، 1969م. تمت إضافة بحوث أخرى جديدة كثيرة جعلتهما جزءًا كبيرًا، جاهز الآن للطبع، إن شاء الله تعالى. يضم الكتاب بطبعته الجديدة نحو خمسين بحثًا نُشِرَت على تراخٍ خلال عقود. تتولى الآن طبعه مكتبة أهل الأثر - الكويت. السيد أبو فارس الناشر مصطفى كامل 0096566508050

إيميل: mostafakamel71@hotmail.com

- «الكتب والمكتبات في الأندلس» (المَجْمَع الثقافي - أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة)، 2007م.

- «دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي» (المَجْمَع الثقافي - أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة)، 2007م.

- «جوانب من الحضارة الإسلامية»، بيروت، 1979م.
- «محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها»، الكويت، 1987م.
- «التاريخ الإسلامي شُبُهاتٌ وحقائق»، المكتبة العامرية - حولي - شارع المثنى - مجمع البدري، محل رقم: 13، الكويت، 2009م. هاتف جوال: 009652623880.
- «حكايات أندلسية» (ثلاثون حكاية أندلسية مختارة)، وزارة الأوقاف الكويتية، 1429هـ = 2008م .
- «المظلومون في تاريخنا»، وزارة الأوقاف الكويتية، 1433هـ = 2012م.
- «شعر العلماء في الأندلس (شعرهم مرآة حالهم)»، تتولى نشره دار القلم، دمشق - بيروت. يظهر عما قريب إن شاء الله تعالى.
- «الإشارات والبشارات النبوية»، تتولى نشره دار القلم، دمشق - بيروت. يظهر عما قريب بعد تمام إعداده إن شاء الله تعالى.
- «الهجرة النبوية وثمارُها»، قريبًا جاهز للنشر إن شاء الله تعالى.
- «الدبلوماسية النبوية وسفراؤها»، قريبًا جاهز للنشر إن شاء الله تعالى.
- «المجتمع الأندلسي (رَصْدُ مَسَارِه وتَحْقيقُ أَخْبارِه)»، يتجهز قريبًا للنشر إن شاء الله تعالى.
- «الأندلس تاريخًا وحضارة»، يتجهز قريبًا للنشر إن شاء الله تعالى.
- «أدب علماء الأندلس»، يجري إعداده للنشر، يتم قريبًا إن شاء الله تعالى.
- «إعجاز القرآن والنبوة»، يتجهز قريبًا للنشر، تتولى نشره غير بعيد: دار القلم السورية، دمشق - بيروت إن شاء الله تعالى.
- «دولة المدينة المنورة : الإسلام والدولة المعاصرة»، يجري استكماله إن شاء الله تعالى عما قريب.

- «النموذج الأندلسي في تطبيق الشريعة الإسلامية»، يأخذ طريقه للنشر إن شاء الله تعالى. تقوم بطبعه إن شاء الله تعالى اللجنة الاستشارية العليا لاستكمال أعمال تطبيق الشريعة الإسلامية.
- «حكايات أندلسية»، المجموعة الثانية، يتم تجهيزها للنشر، إن شاء الله تعالى.
- «العِزُّ والرِفْعَة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، تحقيق (تحت التجهيز).

يبدو أنه الكتاب الوحيد في تراثنا عن موضوع المدفعية النظرية والتطبيقية والتعليمية. في الكتاب نحو خمسين رسمًا عن المدافع وأجزائها وأدائها. لديّ فيلم المخطوطة (Microfilm). أَلّفَ هذا الكتاب بالإسبانية في تونس (مورسكي أندلسي هارب من ملاحقات محاكم التفتيش): الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي، المعروف بالريَّاش. ترجمه في تونس إلى العربية زميله ومثيله ترجمة علمية فنية خبيرة، المورسكي الأندلسي، ترجمان سلاطين مراكش: أبو العباس أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي المعروف بشهاب الدين أو بالشهاب الحجري وآفوقاي. أتَمَّ ترجمته في 10 ربيع الثاني 1048 هـ (1638م).

«زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان» (بن اسماعيل)، يعد للتحقيق، ابن العياشي: أبو عبد الله محمد بن العياشي (1139هـ = 1726م)، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم: د 2152 (لديَّ صورتها).

- «الدليل السياحي الأندلسي» (تحت الإعداد: كتاب مزود بالصور الملونة عن الأندلس وحضارته العمرانية ومواقعها، يفيد كل سائح لاسيما العربي، ويمكن ترجمته إلى اللغات كافة).

- «نصوص تاريخية أندلسية» (مجموعة نقول من كتابَيْ: المُقْتَبِس والمتين (المفقود)، للمؤرخ ابن حيان القرطبي، مما لم يرد في المطبوع من مُقْتَبِسه. تُكَوِّن هذه النصوص مجلدًا كبيرًا، وهو تحت الإعداد.

- «دراسات اجتماعية وحضارية»، مكونة من عشرات البحوث والمقالات منشورة في المجلات والصحف العربية، لاسيما في دولة الإمارات.

- عشرات المقالات والبحوث والمقابلات المنشورة في كثرة من المجلات العلمية والنشرات والصحف في العديد من البلاد العربية ومنها الخليجية وبالذات في دولة الإمارات العربية المتحدة.

- مجموعة بحوث منشورة في عدة مجلات باللغة الإنجليزية والإسبانية والإيطالية، تحت عنوان:

- (Studies on Andalusian History)، وهي:

- “INTERMARRIAGE BETWEEN ANDALUSIA AND NORTHERN SPAIN IN THE UMAYYAD PERIOD”, The Islamic Quarterly (published by “the Islamic Cultural Center”, Regent’s Lodge 146 park road, London N. W. 8, England), Vol. XI, Nos.1 / 2, 1387/1967.

- “AL-TURTUSHI THE ANDALUSIAN TRAVELLER, AND HIS MEETING WITH POPE JOHN XII”, The Islamic Quarterly, Vol. XI, Nos. 3 / 4, 1387/1967.

ثم نشر بالإيطالية في:

“RIVISTA STORICA ITALIANA”, NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. I, 1967,PP.164- 173.

1. نقد (REVIEW)، لكتاب:

- "A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN", W. MONTGOMERY WATT, The Islamic Quarterly , Vol. X, Nos. 3 / 4, 1386/1966.
- "POLITICAL RELATIONS BETWEEN THE ANDALUSIAN REBELS & CHRISTIAN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly , Vol. X, Nos. 3 / 4, 1386/ 1966.
- "TWO UNKNOWN EMBASSIES FROM A FRANKISH MONARCH TO THE COURT OF CORDOBA DURING THE REIGN OF AL-HAKAM II", The Islamic Quarterly , Vol. X, No. 1, 1386/1966.
- "CHRISTIAN STATES IN NORTHERN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly , Vol. Ix, Nos. 1 / 2, 1385 / 1965.
- "POLITICAL RELATIONS OF ANDALUSIAN REBELS WITH THE FRANKS DURING THE UMAYYAD PERIOD" The Islamic Quarterly , Vol. XII, Nos. 1 / 2, 1388 / 1968.
- "DIPLOMATIC RELATIONS BETWEEN ANDALUSIA AND ITALY DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly , Vol. XII, No. 3, 1388 / 1968.

نشر بالإيطالية في:

RIVISTA STORICA ITALIAN (Napoli, Italy), 1967, anno, LXXIX, fasc. 1.

- "IBRAHIM IBN YAQUB AL- TURTUSHI, ANDALUSIAN TRAVELLER", The Islamic Culture (Published by the Islamic Culture Board, Hyderabad – Deccan, India) Vol. XL, Nos. 1 / 2, Jan. 1966.

• "ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH CHRISTIAN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD" Journal of the Pakistan Historical Society (Karachi 5, Pakistan), Jan. 1966, Vol. XIV, pt 1.

• "THE ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH THE VIKINGS DURING THE UMAYYAD PERIOD" Hesperis-Tamuda (Rabat, Morocco) Vol. III, 1967.

ترجم إلى اللغة الإسبانية، مدريد، 2003، تحت عنوان:

• Al-Ghazal y la Embajada Hispano-Musulman A los Vikinngos en el Siglo IX.

• "THE MORISCOS IN THE ANDALUSIAN REFERENCES AND MANUSCRIPTS" (In the press).

كلُّ الحمد لله تعالى وبعونه وفضله وبنعمته تتم الصالحات.

مدريد الثلاثاء - الأربعاء: 12 - 13 جُمادَى الأولى 1436هـ = وَفْق 3 -4/3/2015م.

